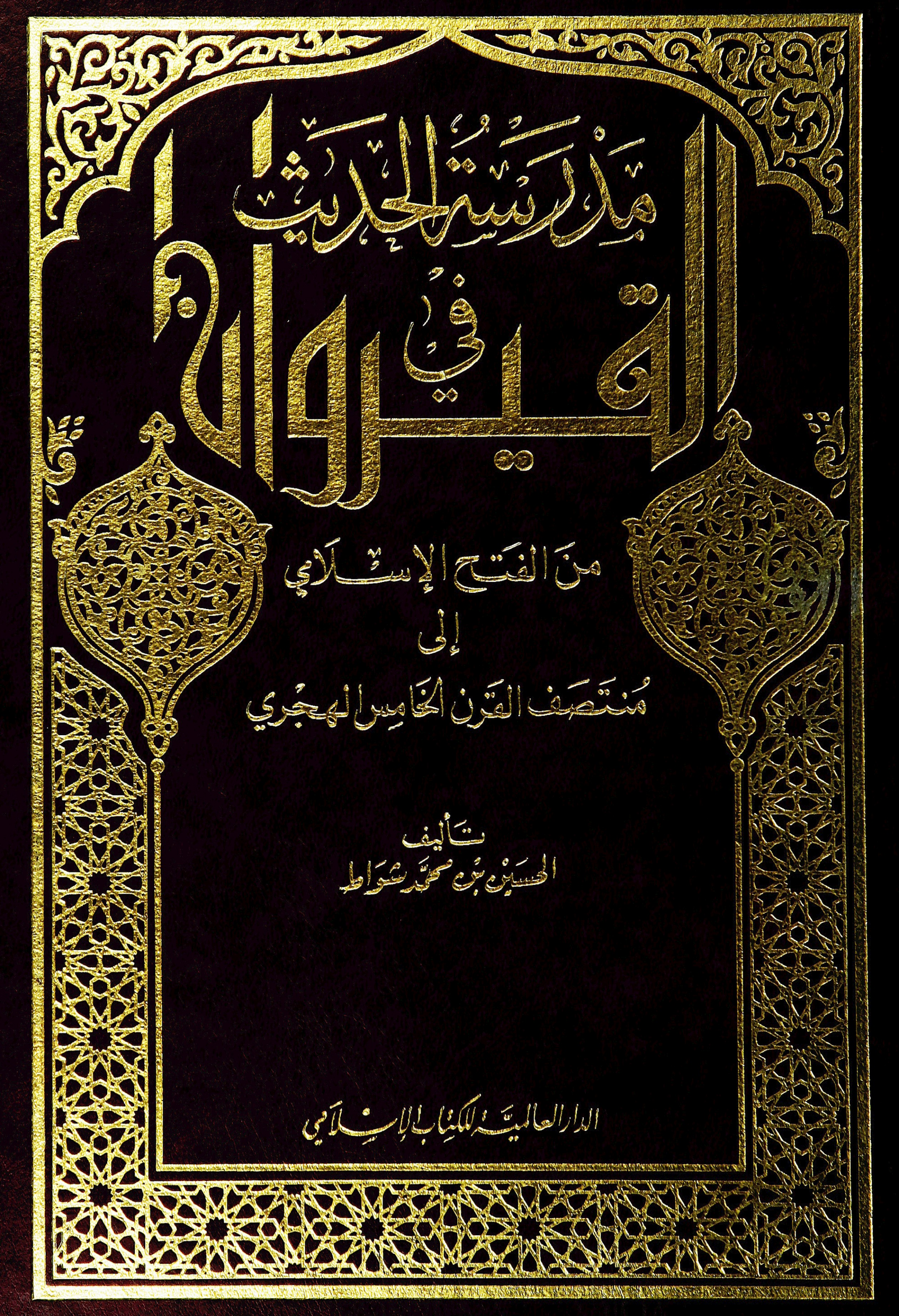

مدرسة الحديث في القيروان
من الفتح الإسلامي
إلى
منتصف القرن الخامس الهجري
تأليف
الحسين بن محمد شواط
الدار العالمية للكتاب الإسلامي

مدرسة الحديث في القيروان

١

الدار العالمية للكتاب الإسلامي
الرياض - ت ٤٦٤٧٢١٣ - ٤٦٥٠٨١٨

الطبعة الأولى - ١٤١١هـ

مدرسة الحديث في القيروان

من الفتح الإسلامي
إلى منتصف القرن الخامس الهجري

تأليف
الحسين بن محمد شواط

الجزء الأول

الدار العالمية للكتاب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل هذا الكتاب رسالة ماجستير نوقشت بقاعة المحاضرات في كلية أصول الدين بالرياض بتاريخ ٢٨/ ١٠/ ١٤٠٧ هـ.

وأجيزت بتقدير «ممتاز» من قبل اللجنة:

د. أحمد معبد عبدالكريم/ مشرفاً.

د. محمد أديب الصالح/ مناقشاً.

د. أبو لبابة الطاهر حسين/ مناقشاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع إلى والدتي ووالدي العزيزين، اللذين شجعاني على طلب العلم، وتكبدا المشاق من أجل تعليمي بكل صبر، سائلاً المولى عز وجل أن يحسن خاتمتهما ويكرمهما في الدارين، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المؤلف

المقَـدّمَـة

وفيـــها:

- سبب اختيار الموضوع.
- قيمته العلمية وأهميته.
- أبرز الصعوبات التي واجهتني فيه.
- منهجي في إعداده.

❊ ❊ ❊

المقـدّمـة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصّمد، ذي النّعم الجزيلة، التي أعيت المحصين، والصّلاة والسّلام على خاتم المرسلين، محمد بن عبدالله، الذي بعثه الله رحمة للعالمين، بدين الإسلام العظيم، وجعل معتنقيه خير أمّة أُخرجت للنّاس، ولم يَـرضَ لعبـاده ديناً سواه، وقصر الفلاح، والفوز برضاه، على من اتّبع طريقة محمد ﷺ وما سار عليه الصّحابة الكرام رضوان الله عليهم.

وقد تكفّل الله عزّ وجلّ بحفظ هذا الدّين، فصان كتابه العزيز عن التّحريف، وعصمه من التّبديل، وهيّأ لسنّة نبيّه ﷺ رجالاً أفذاذاً التزموا بها، وقاموا بحفظها، وتدوينها، ونشرها، وشرحها، وحمايتها، من الدّخيل، وتمييزها من الشّوائب، والمنافحة عنهـا في مشارق الأرض ومغاربها، جيلاً بعد جيل، على مرّ الزّمان وتعاقب الشّهور والأعوام، أولئك هم أهل الطّائفة المنصورة، الـذين لا يزالون قائمين على الحق، مستمسكين بسنّة المصطفى ﷺ، ذابّين عنها، عاملين لإحياء ما أمات النّاس منها، لا يضرّهم المخالف، ولا يصدّهم الحاقد المعارض، ولا يثنيهم الجاحد المعاند، ولا يفلّ في عزيمتهم المرواح المتخاذل، ولا يُضعف من همّتهم المتخلّـف الخانع، يبذلون في سبيل ذلك كلّ غال حتّى يأتي أمر الله وهم على هذا النّهـج، فيفوزون برضوانه عزّ وجلّ، وما ذلك إلا لأنّ الاشتغال بالسّنّة والتزامها من أفضل القربات إلى الله عزّ وجلّ، فإنّ السّنّة هي المبيّنة للقرآن الكريمَ، تفصيلاً لمجمله، وتوضيحاً لمبهمه، وشرحاً لغامضه، وتخصيصاً لعامّه، وتقييداً لمطلقه، وردّاً لبعض ما تشابه منه إلى محكمه، بالإضافة إلى ما تفرّدت به من الأحكام الشّرعيّة الكثيرة التي لم يرد بها الكتاب العزيز.

ولقد استوى في الاهتمام بالسّنّة النّبويّة المطهّرة، والحرص على سلامتها من الدّخيل، أهلُ المشرق والمغرب من سلفنا الصّالح، وخدموها قدر طاقتهم وإمكاناتهم، بدرجات متفاوتة، وقد نالت جهود المشارقة في ذلك حظّها من الدّراسات المتعلّقة بتدوينها، وتحقيق تراثها ونشره، والتّعريف بأعلامها، وإن كانت هي أيضاً لا تزال بحاجة إلى مزيد من البحوث المتعلّقة بتأريخ مراحلها، وبيان مناهج بعض مدارسها؛ للاستفادة منها، وقد بدأت تظهر في هذا العصر بعض الدّراسات المتعلّقة بذلك[1].

أمّا جهود أهل إفريقيَّة ـ وعاصمتها القَيْرَوَان ـ فإنّها لم تنل من ذلك شيئاً يُذكر وخاصّة في العلوم الشّرعيّة، وبصفة أخصّ في مجال السّنّة وعلومها، وتعتبر المرحلة الأولى ـ التي تمتد من الفتح الإسلاميّ إلى خراب مدينة القَيْرَوَان سنة **٤٤٩** هـ ـ أكثر المراحل هضماً لجانبها من حيث العنايةُ بدراستها، بالرّغم من ثرائها بالعلم، وأهمّيّتها البالغة؛ لأنّها تمثّل أساس توجّهات الأفارقة العلميّة والدّينيّة، وكلّ ما جاء بعدها إنّما هو مبنيّ عليها.

ومن خلال حديثي مع بعض الباحثين الذين لهم بعض اهتمام «بالإفريقيّات» تبيّن لي أنّ سبب تخوّف الباحثين من خوض غمار هذه المرحلة وتجليتها، وخاصة في المجالات الشّرعيّة، هو قلّة المادّة المتوافرة حولها، بسبب فقدان معظم ما ألّف فيها من المصنّفات، وبخاصّة المتعلّقة منها بعلوم السّنّة، بالإضافة إلى ندرة المختصّين في الحديث النّبويّ وعلومه من المعاصرين ببلادنا.

---

(١) ممّن رأى ضرورة التّدوين لمدارس الحديث، والتّأريخ لها، ودارسة مناهجها في كلّ بلد من بلاد الإسلام، ودعا إلى ذلك وألّف فيه: الدكتور محمد رشاد خليفة، وهو من أساتذة الحديث بجامعة الأزهر. انظر مقدّمة كتابه مدرسة الحديث في مصر د. ت، كما تناول الشّيخ محمد أبو زهو في كتابه «الحديث والمحدّثون» المراحل التي مرّت بها السنّة في مختلف بلاد الإسلام، غير أنّه لم يتعرّض لذلك بالنّسبة لبلاد إفريقيّة والمغرب والأندلس.

وقد رأيت اقتناع جميع من تحدّثت معهم بأهمّيّة هذه الدراسة، وتشوّفهم لظهورها، وتمنّيهم لو يقوم بذلك قائم، فرأيت أن أنبري لسدّ هذا النّقص مستعيناً بالله عزّ وجلّ:

إبرازاً لدور القَيْرَوان وإفريقيَّة في خدمة السّنّة النّبويّة المطهّرة من جوانبها المختلفة رواية ودراية وتصنيفاً في ذلك.

وتقديراً لجهود من كان فيها من العلماء، الذين عملوا جاهدين على نشر السّنّة، وإحيائها، وغرسها في تلك الرّبوع، فكانوا سبباً في التزام أهلها للسّنّة وبقائهم في حظيرة الجماعة.

وخدمة للتراث الإسلامي في بلادي العزيزة تونس.

وتذكيراً لشبابنا بعظمة سلفهم الصّالح، وما كابدوه من المشاقّ من أجل الحفاظ على سنّة المصطفى ﷺ.

واستنهاضاً لهمم الشباب بعرض المجهود العظيم الذي بُذل من أجل أن يصلنا الإسلام صافياً نقيّاً، عسى أن يعود بسبب ذلك منبهرٌ بحضارة الغرب المادّيّة الزّائفة إلى رشده، ويرجع ضالٌّ عن غيّه، ويعتزّ مبتورٌ بأصوله، ويجد تائهٌ هويّته.

ولمّا كانت القَيْرَوان هي المركز العلميّ والعاصمة السّياسيّة والدّينية لإفريقيَّة، وموضع تجمّع أهل العلم في تلك الرّبوع من الفتح الإسلاميّ إلى منتصف القرن الخامس ـ كما سيأتي تفصيله في التّمهيد[1] ـ رأيت أن تكون الرّسالة متعلّقة بها.

ومن أجل كلّ ذلك كان اختيار هذا الموضوع بحثاً لنيل درجة الماجستير في السّنّة وعلومها بكلّيّة أصول الدّين بالرّياض بعنوان[2]: «الحديث والمحدّثون بالقَيْرَوان من سنة ٥٠ هـ إلى سنة ٤٤٩ هـ».

(١) انظر: ص ٣١، ٤٣، ٤٤، ٤٨، من هذه الرسالة.

(٢) رأيت عند الطباعة تغيير العنوان إذ إن البحث قد أثبت وجود مدرسة حديثية مكتملة العناصر.

وممّا زاد في تشجيعي على هذا الاختيار أنّ أحد الطّلبة النّابهين قد اختار قبلي موضوع «الحديث بإفريقيَّة من القرن السّادس إلى القرن الثّامن» ونبَّهني إلى أهمّيّة البحث في مدرسة القَيْرَوان في القرون الأولى ونبهني إلى بعض صعوبات هذا البحث، كندرة المادّة العلميّة[1]، فجزاه الله عني خير الجزاء، وأجزل مثوبته.

وتبدو أهمّيّة هذا الموضوع من خلال النّقاط التّالية:

١ ـ إنّه موضوع بِكر لم تسبق دراسته في العصر الحديث، وسيسدّ فراغاً في المكتبة الإسلاميّة بإذن الله تعالى.

٢ ـ إنّه يُفنّد ما شاع من القول باقتصار الأفارقة على العناية بالفقه، ويبيّن اهتمامهم الكبير بالحديث وعلومه أيضاً.

٣ ـ إنّه يُلقي الضّوء على مدرسة مبكّرة من مدارس الحديث الشّريف، كان لها دورها في نشر السّنّة وعلومها بإفريقيَّة والمغرب والأندلس، ولا تزال مجهولة المعالم، لدى كثير من أهل العلم.

٤ ـ إنّه يُعرِّف بجملة من مشاهير المحدّثين القرويّين الذين حملوا لواء السّنّة وذادوا عنها في تلك الدّيار، منذ عهد الصّحابة إلى منتصف القرن الخامس، والذين لا يزال كثير منهم مجهولاً لدى كثير من أهل الاختصاص فضلاً عن عامّة المثقّفين.

٥ ـ إنّه يَحصر ما عرف حتّى الآن ـ حسب المادّة العلميّة المتوافرة ـ من مصنّفات القرويّين، المتعلّقة بالحديث وعلومه في تلك الفترة، مع التّعريف ببعض المطبوع منها والمخطوط، وهي قليلة التّداول حتّى الآن رغم أهمّيّتها.

٦ ـ إنّه يُبرز جهود محدّثي القَيْرَوَان ونشاطاتهم في مجالات علوم الرّواية والدّراية، ويبيّن موقفهم من كثير من مسائلها.

---

(١) الحديث بإفريقيَّة من القرن السّادس إلى القرن الثّامن ١/٧، ٨.

٧ ـ إنّه يُبيّن صلة مدرسة القَيْرَوَان الحديثيَّة بغيرها من مدارس العلم ومراكزه، في المشرق والمغرب والأندلس وإفريقيَّة وصِقِلّيَّة.

٨ ـ إنّ هذا الموضوع، وإن كان عنوانُه مقتصراً على القَيْرَوان باعتبارها عاصمة إفريقيَّة وقاعدة العلم والدّين فيها إلاّ أنّه اقتضى تناول النّشاط الحديثيّ في كامل إفريقيَّة، نظراً لأنّه يندر أن نعثر على من نبغ في الحديث وعلومه من أهل مختلف مدن إفريقيَّة إلاّ ونجده قد دخل القَيْرَوان لطلب العلم، وربّما استقرّ بها فترة للعطاء، أو أوطنها وأخذ مكانه بين علمائها.

وقد بحثت في هذا الموضوع من خلال الخطّة التّالية المتكوّنة من تمهيد، وثلاثة أبواب وخاتمة.

أمّا التّمهيد فقد بدأت فيه بالتّحديد الجغرافيّ لمنطقة إفريقيَّة، وموقع القَيْرَوان منها في ذلك العصر، ثمّ تناولت فيه بالدّراسة المركّزة مختلف الأوضاع السّياسيّة والدّينيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، مع بيان أثرها جميعاً في الحياة العلمية عامّة والحديث بصفة خاصّة، وهو مدخل ضروريّ لفهم طبيعة البيئة التي سأتحدّث عن مدرستها الحديثيّة، ذلك لأنّ كثيراً من الظّواهر التي أصبحت ملازمة لأهل القَيْرَوان وإفريقيَّة لا يمكن إدراكُها، وفهم أبعادها وآثارها، إلاّ عن طريق هذا التّمهيد ـ كما سيأتي قريباً ـ مع عدم التّوسّع في ذلك إلاّ بالقدر الذي يُحتاج إليه في خدمة الموضع الأصليّ، وهو مدرسة الحديث في القَيْرَوان.

وقد تناولت في الباب الأوّل أسس الحياة العلميّة بالقَيْرَوان وأثرها في الحديث، وقسّمته إلى فصلين:

ذكرت في أوّلهما مختلف المراكز العلميّة في القَيْرَوان، وبيّنت أثرها في الحديث، ثمّ تطرّقت إلى الكلام على أهمّ العلوم الشّرعيّة التي عُرفت بالقَيْرَوان في هذه الفترة، مع ذكر بعض مشاهير علماء كلّ فنّ، ونماذج للمصنّفات في كلٍّ منها، وبيّنت منزلة الحديث بين تلك العلوم.

أمّـا الفصل الثّـاني فقد خصّصتـه لتفصيل الكـلام على الرّحلة في طلب الحديث وثمراتها، فتحدّثت عن الـرّحلة من القَيْروان إلى المشـرق والأندلس، وبالعكس، وتوسّعت في إيـراد نماذج لكـلّ ذلك، ثمّ ذكـرت ثمرات تلك الـرّحلة، وفوائدها للحديث بالقَيْرَوَان، من حيث شيوعُ روايته، وتحصيلُه بأسانيـد عالية، ودخولُ مصنّفاته، ومعرفةُ محدّثي القَيْرَوَان بنقد الحديث وفقهه وأحوال رواته.

ثمّ أشرت إلى أهمّيّة المصنّفات باعتبارها دعامة للعلم بالقَيْرَوَان.

أمّا الباب الثّاني فقد محّضته للكلام على السّنّة وعلومها بالقَيْرَوان في الفترة المذكورة، وقسّمته إلى ثلاثة فصول:

تحدّثت في أوّلها عن مظاهر النّشاط العلميّ وخصائصه في مجال روايـة الحديث، وذلك من خلال توطئه وسبعة مباحث، ذكرت فيها أهمّ أنشطة الرّواية، كالإقبال على طلب الحديث وروايته، ودخول بعض أمّهات السّنّة مثل المـوطّأ وصحيح البُخاري، مع بيان اهتمام القرويين بها، وذكر أسانيدهم إليهـا، وذكر نماذج لكل طبقة من طبقات سند الرواية بالقَيْرَوان وإفريقيَّة، مُبرِزاً الحلقة التي تمّ بها تواصل سلسلة السّند بعد خراب القَيْرَوان.

كما تحدّثت عن الإضافات الحديثيّة لمدرسة القَيْرَوان وغير ذلك.

ثم خَلَصت إلى الكـلام على مبـاحث أخـصّ في علـم الـرّوايـة لـدى القرويّين، مثل: آداب المحدّث وطالب الحديث، وكيفيّة سماع الحديث، وطرق تحمّله، وصفة أدائه، وتقييده، وضبطه، ونحو ذلك.

وفي الفصل الثّاني تحدّثت عن أهمّ مظاهر النّشاط العلميّ، وخصائصه، في مجال دراية الحديث لدى القرويّين، وذلك من خلال تمهيد، وثلاثة مباحث كبيرة:

تعلّق أوّلها بعلوم أحوال الرّواة وأسمائهم، فذكرت صفة من تُقبل روايته من المحدّثين وبيّنت بعض ما يقابلها ممّا تختلّ به الرّواية، ثم تحدّثت عن بعض أنواع علوم الرّجال عندهم، كالجرح والتّعديـل، ومعرفة الصّحابة وغير ذلك.

وذكرت في المبحث الثّاني بعض أنواع الحديث التي تناولها أهل القَيْرَوان، ونقدهم للحديث، ومدى معالجتهم للوضع، ونحو ذلك.

أمّا المبحث الثّالث فقد ذكرت فيه بعض ما وجدت للقرويّين حول علوم السّند والمتن، مثل أهمّيّة الإسناد، والألفاظ الدّالة على اتّصاله أو انقطاعه، وطلب العلوّ فيه، وتحدّثت عن بعض علوم المتن، من حيث مخرجُه ودرايتُه وفقهُه، وختمت المبحث بذكر المناظرات المستدلّ فيها بالسّنّة باعتبارها من تطبيقات فقه الحديث.

وفي الفصل الثّالث بيّنت الصّلات العلميّة لمدرست القَيْرَوان الحديثيّة ببقيّة المدارس المتواجدة في مختلف حواضرَ العالم الإسلاميّ في المشرق والأندلس والمغرب، وذكرت أثر هذه المدرسة في نشر الحديث في صِقِلّيّة ومختلف مدن إفريقيَّة.

أمّا الباب الثّالث فقد تناولت فيه التّعريف بأشهر رواة الحديث وعلمائه، وأشهر المصنّفات الحديثيّة بالقَيْرَوان في الفترة المذكورة، وقسّمته إلى فصلين كبيرين:

تحدّثت في أوّلهما عن رواة الحديث وعلمائه، وذلك من خلال مدخل وثلاثة مباحث، تعلّق أوّلها بالصّحابة الذين نزلوا القَيْرَوان، من حيث عددُهم، وأثرهم في نشر السّنّة بالقَيْرَوان، وتراجمهم، مع تحقيق القول في ذلك.

ويتعلّق المبحث الثّاني بالتّابعين، على نفس النّسق الذي سرت عليه في مبحث الصّحابة، غير أنّي قسمتهم عند التّرجمة لهم إلى أربعة أقسام:

كبار التّابعين، أعضاء بعثة عمر بن عبدالعزيز العلميَّة العشرة، التّابعون الذين استقرّوا بالقَيْرَوان وبثّوا فيها العلم غير العشرة، وأخيراً التّابعون الذين نشروا العلم في القَيْرَوان ثمّ نزحوا عنها إلى بلدانهم أو غيرها.

وذكرت في المبحث الثّالث تراجم بقيّة المحدّثين مع تحقيق القول فيهم،

وقد قسّمتهم إلى قسمين: المحدّثون القرويّون أصالة، والمحدّثون الذين هاجروا إلى القَيْرَوان واستوطنوها، مُركّزاً في كلّ ترجمة على توضيح شخصيّة صاحبها ثمّ بيان نشاطاته المتعلّقة بالحديث وعلومه.

أمّا الفصل الثّاني فقد عرّفت فيه بأشهر ما وصل إلينا من مصنّفات القرويّين الحديثيّة وذلك من خلال توطئة وثلاث مباحث:

تحدّثت في أوّلها عن حركة التّصنيف الحديثيّ في القَيْرَوان، وحصرت في الثّاني جميع ما عُرف حتّى الآن ـ حسب علمي ـ من مصنّفاتهم مع الإشارة إلى أسباب فقد معظمها.

وفي المبحث الثّالث عرَّفت بأشهر ما وصل إلينا من مصنّفاتهم، مطبوعة كانت أو مخطوطة، وهي أحد عشر كتاباً قسّمتها إلى أربعة أنواع: المصنّفات على الأبواب، كتب الطّبقات، كتب رجال الحديث خاصّة، المصنّفات التي جمعت بين الحديث وغيره من العلوم كالتّفسير بالمأثور والفقه.

أمّا الخاتمة فقد ذكرت فيها تلخيصاً مناسباً للرّسالة، وذيّلته بأهمّ النّتائج التي توصّلت إليها.

أمّا الصّعوبات التي واجهتني في إعداد هذا البحث فهي كثيرة، لم يخفّف من أثرها إلا ما أرجوه من الأجر من الله على هذا العمل ثم ما أؤمله من النفع به، وقد تمثّل أهمّ تلك الصّعوبات فيما يلي:

١ ـ صعوبة المبتدأ؛ فإنّ هذا الموضوع بِكر ـ كما أسلفت ـ، وقد خلت المكتبات من الدّراسات المتعلّقة بالنّشاطات الحديثيّة لأهل القَيْرَوان في الفترة التي أدرسها، عدا بعض التّراجم التي كثيراً ما يقع إهمال الكلام فيها على النّشاط الحديثيّ لصاحب التّرجمة، أو بعض المقالات التي لا تكاد تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، والتي تتناول عموميّات لا تكاد تضيف جديداً للمدرسة الحديثيّة.

وقد اتصلت ببعض قدماء أهل العلم في تونُس ـ وهم الزّيتونيّون ـ لأنّهم من مظانّ الإفادة في هذا الموضوع وقد استفدت من إرشادات بعضهم فجزاهم الله خيراً.

٢ ـ قلّة المادّة الحديثيّة المباشرة، وتشتّتها، وتناثرها في المصادر، ممّا جعل تتبّعها وجمعها أمراً عسيراً.

٣ ـ قلّة المادّة المتعلّقة بعلوم الرّواية والدّراية بصفة أخصّ، ممّا جعلني أستعمل أساليب التّحليل، والتّركيب، والاستقراء، والاستنباط؛ لأتمكّن من إبراز هذه الجوانب مع الحذر من التّكلّف في ذلك قدر الإمكان.

٤ ـ طول الفترة الزّمنيّة التي أدرسها، والتي زادت على أربعة قرون، وبالتّالي طول الموضوع وتوسّع مظانّه، ممّا أخذ جهداً ووقتاً كبيرين لاستقصائها، وسبر مادّتها، واستخراج ما يتعلّق بالبحث، وكثيراً ما أقرأ المجلّد والمجلّدين لأخرج بصفحة أو صفحتين.

٥ ـ لقد اضطررت أمام ندرة المادّة العلميّة في المظانّ المتخصّصة إلى الرّجوع إلى المظانّ العامّة المتعلّقة بهذه الفترة، من كتب الفقه، والتّفسير، والتّواريخ العامّة، والخاصّة، وكتب الجغرافيا، وكتب العقيدة، والفرق، والشّعر، والأدب، وطبقات الفقهاء، والقرّاء، واللّغويّين، وغير ذلك، كما هو واضح في قائمة المصادر، ولا يخفى ما يأخذه تتبّع كلّ هذه المصادر من الوقت.

٦ ـ كثرة الأحداث السّياسيّة والدّينيّة والاجتماعيّة في هذه الفترة وتضارب تواريخها، ممّا جعل إنجاز التّمهيد، وعرضه بشكل مركّز يستغرق من الجهد والوقت مثل ما بُذل في بعض أبواب الرّسالة، ومعلوم أنّ عرض هذه الجوانب لمدّة زادت على أربعة قرون له صعوبته حتّى لو كانت المادّة مُمهّدة، فكيف مع التّضارب وكثرة الأخطاء؟ وقد لا حظ هذه الصّعوبة كلّ من تعرّض لتاريخ المغرب في هذه الفترة، فيما وقفت عليه.

٧ ــ إذا كانت المادّة العلميّة قليلة حول رجال القَيْرَوان في هذه الفترة فإنّ ذلك قد شكّل عقَبة خاصّـة بالنّسبة لرجال القرن الأخير (حوالي ٥٣٠ ـ ٤٤٩)؛ لأنّ أهمّ كتابين ترجما لرجال القَيْرَوان لم يُغطّيا هذا القرن، وهما: طبقات أبي العرب (ت ٣٣٣)، ورياض النّفوس للمالكيّ (ت بعد ٤٦٤)، وتزداد هذه الصّعوبة فيما يتعلّق بالطّبقة التي خُرّبت القَيْرَوان على عهدها؛ لعدم وجود من اهتمّ بالتّدوين لها.

٨ ــ افتقار معظم المصادر المتعلّقة بهذه الفترة إلى فهارس تفصيليّة ممّا جعل الطّريق الوحيدة للاستفادة منها هو قراءتها كاملة.

٩ ــ شيوع التّصحيفات والأخطاء المتعلّقة بالتّواريخ، وأسماء عدد من الرّواة ووفياتهم، وقد أخذ التّحقيق في ذلك كثيراً من الجهد والوقت.

١٠ ــ كثيراً ما يقع الاكتفاء في ذكر شيوخ الرّواة وتلاميـذهم بالنّسبـة أو الكنية، التي لا يتّضح الشّخص المقصود بها، ولا يخفى ما يحتاج إليه تحديدهم وتمييزهم من التّقصي والنّظر.

١١ ــ لقد اضطررت إلى حصر واستقصاء جميع علماء القَيْرَوان في هذه الفترة ـ حسب المصادر المتوافرة ـ لأتمكّن من تحديد من كانت له منهم عناية بالحديث وعلومه، وهذا يحتاج إلى تتبّع كبير، وممّا زاد في صعوبته أنّ بعض المصادر تُغفل تماماً الجـانب الحديثيّ لصـاحب التّرجمـة، بينما تُبـرزه مصادر أخرى، ممّا جعل حصر جميعهم من مختلـف المصادر أمراً لا بد منه.

أمّا أهمّ ملامح المنهج الذي سرت عليه في إعداد هذه الرّسالة فهي:

١ ــ جمع المادّة العلميّة مُستقصياً جميع المظانّ التي أعلمها وتمكّنت من الحصول عليها، مع التّدبر والنّظر والنّقد والتّمحيص قدر الاستطاعة.

٢ ــ حَرَصت على الاستفادة ممّا تيسّر الوصول إليه من مخطوطات القرويّين وغيرهم ممّا له صلة بالموضوع، وكذا الرّسائل الجامعيّة والبحوث التي لم تُطبع.

٣ ـ بقيت متتبّعاً للإصدارات الجديدة إلى أن انتهيت من تحرير البحث عسى أن أظفر فيها بما يُفيد الرّسالة، وتسهل ملاحظة ذلك لمن نظر في قائمة المصادر.

٤ ـ صغت التّمهيد بشكل مُبسّط ومركّز يمكّن القارىء من استيعاب مادّة الرّسالة باعتباره مدخلاً ضروريّاً لفهم الحركة العلميّة في القَيْرَوان، والسّبيل الوحيد للوقوف على كثير ممّا اختصّ به المجتمع القَيْرَواني، والإجابة عن كثير من التّساؤلات المتعلّقة بالحديث وعلومه ورجاله، مثل:

ـ ما سبب إقبال القرويّين على السّنّة والآثار، ونفورهم من البدع والرّأي؟.

ـ ما سبب التفافهم حول العلماء ووقوف جميعهم ضدّ من كان من أرباب الحكم ظالماً منحرفاً عن تعاليم الشّرع؟.

ـ لماذا تأخّر دخول صحيح البُخاري إلى إفريقيَّة والمغرب لمدّة تزيد عن مائة عام من تاريخ تصنيفه؟.

ـ لماذا أقبل القرويّون على مذهب مالك وتخلّوا عمّا سواه؟.

ـ لماذا فتَرت الرّحلة إلى المشرق في عهد الرّافضة (٢٩٦ ـ ٣٦٢)، وتكثّفت رحلتهم إلى الأندلس؟.

ـ كيف استطاعت الحياة العلميّة أن تحافظ على بقائها في عهد الرّافضة، الذين سجنوا العلماء في دورهم، ومنعوهم من نشر العلم في المساجد، وحرّموا عليهم الاجتماع بالطّلاّب؟.

ـ لماذا لم تصل إلينا معظم مصنّفات علماء القَيْرَوان الحديثيّة وغيرها؟.

٥ ـ أبرزتُ دور المراكز العلميّة المختلفة في نشر الحديث وفقهه، والالتزام به.

٦ ـ بيّنت أثر الرّحلة في اكتساب القرويّين للحديث وللمصنّفات التي عند غيرهم، وبالعكس، وما أدّت إليه من ربط للصّلات العلميّة بينهم وبين غيرهم.

٧ ـ أبرزتُ مظاهر نشاط محدّثي القَيْرَوان وخصائصه في مجال رواية الحديث ودرايته، وخصّصت لذلك باباً كاملاً، مع التّنبيه غالباً على آراء محدّثي المشرق في تلك المسائل، والإشارة إلى موافقة القرويّين أو مخالفتهم لهم.

وقد ألّفت بين ما عثرت عليه للقرويين متناثراً من هذه العلوم وفق التقسيمات التي وضعها أهل الحديث لعلمي الرواية والدراية.

٨ ـ حرصت على إظهار دون الصّحابة والتّابعين في نشر الحديث وعلومه بإفريقيَّة والقَيْرَوان؛ لبيان أنّ أهل تلك البلاد قد أخذوا العلم من طريقه الشّرعيّ، وبسنده العلميّ الصّحيح، مع التّركيز في التّعريف بهم على الجانب الحديثيّ، وخاصّة ما تعلّق منه بالقَيْرَوان وإفريقيَّة؛ حتى لا أُطيل البحث بما لا يخدمه، مُستقصياً جميع ما أمكن الوقوف عليه من مصادر كلّ صحابيّ أو تابعيّ؛ لعلّي أعثر في ثناياها على معلومة تتعلّق بالقَيْرَوان، محقّقاً القول في كلّ ذلك قدر الاستطاعة.

٩ ـ ترجمتُ لأشهر علماء الحديث ورواته من القرويّين ومن هاجر إليهم، من بيان أحوالهم من حيث التّعديل والتّجريح وتحقيق القول في ذلك، مُقتصراً على من رأيت أنّ معظم خصائص مدرسة القَيْرَوان الحديثيّة قد تجمّعت فيهم، إذ إنّ ذكر جميع من وقفت عليه منهم ممّا تطول به الرّسالة جدّاً، عِلماً بأنّي قد جمعت المادّة المتعلّقة بجميعهم حتّى تمكّنت من تحديد الذين سأترجم لهم، ولعلّ الله عزّ وجلّ يُيسّر لي وضع معجم لمحدّثي القَيْرَوان في هذه الفترة فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ـ أشرت إلى المطبوع من مصنفات القرويين، وحددت أماكن المخطوط منها ما أسعفتني المصادر بذلك.

١٠ ــ لقد ركّزت في تراجم المحدّثين على الجوانب المتعلّقة بالسّنّة وعلومها غالباً، مع الإشارة في صدر كلّ ترجمة إلى العلوم التي برع فيها صاحب التّرجمة، حتّى لا تطول الرّسالة بما لا يخدمها.

١١ ــ اعتمدت في معظم مباحث الرّسالة ـ من تراجم وغيرها ـ نوعين من الإحالات.

أ ــ الإحالات العامّة أو الإجماليّة، ويقع ذكرها في أوّل المبحث أو التّرجمة، وهي التي رجعت إليها في ذلك الموضوع.

ب ــ الإحالات التّفصيلية: وهي ما يُعزى إليه من المصادر، ممّا له تعلّق بمعلومة معيّنة.

وقد سلكت هذا المنهج حتّى لا أكرّر ذكر جميع المصادر أو كثير منها عند كلّ نقطة، ولأفيد القارىء الذي يريد مزيداً من التوسّع حول تلك المواضيع، ولِمَا لاحظتُه من نقل كثير من المصادر بعضها عن بعض، فأذكر جميعها في الإحالات العامّة، وأقتصر غالباً على الأهم في الإحالات التّفصيليّة، مُقدّماً المصدر الأصليّ للمعلومة كلّما أمكن ذلك.

١٢ ــ قمتُ بتخريج جميع الأحاديث والحكم عليها نقلاً عن العلماء أو اجتهاداً منّي على ضوء قواعد الجرح والتّعديل، كما قمت بشرح الألفاظ الغريبة التي رأيت حاجة إلى تفسيرها.

١٣ ــ لقد ذكرت أنّ هذه الرّسالة جديدة في بابها، وكان المشرف ـ حفظه الله ـ يطلب منّي التّنبيه على ما لم يُسبق إليه هذا البحث، وهو كثير، وقد فعلتُ ذلك في بعض الأحيان، دون استقصاء، وإنّما فعلته عندما أرى فائدة في التّنبيه، كتصحيح معلومة شائعة، أو الإشارة إلى إحصاء لم يَسبق تتبّعه وإبرازه، وقد أكتفي في الإشارة إلى الجديد بقولي: وبعد البحث والنّظر والتّتبّع وجدت كذا، أو تبيّن لي كذا... وقد أشير إلى ذلك بتوهيم باحث أو مصنّف في مسألة معيّنة بقصد إظهار الحقيقة.

١٤ ــ عرّفت بالمدن التي ورد ذكرها في الرّسالة.

١٥ ــ ذيّلت الرّسالة بجملة من الفهاري الفنّية المتنوّعة، والبالغ عددها أحد عشر فهرساً؛ وذلك لمساعدة القارىء على الاستفادة من هذا البحث.

١٦ ــ أرجأت البيانات المتعلّقة بالمصادر التي أحلت عليها إلى فهرس المراجع إلّا لفائدة، وذلك حرصاً على عدم تضخيم الحواشي.

١٧ ــ إن التدوين التاريخي مع التحقيق والنقد والتمحيص في غاية الأهمية بالنسبة لمثل هذا الموضوع غير أنّي لم أكتف بذلك، بل قمت أيضاً بتتبع المسائل العلمية الدقيقة لمحدثي القيروان وذكرت نماذج موسعة من الأحاديث والآثار المتعلقة بعلوم السنة رواية ودراية وبيّنت مناهج المحدثين في تصانيفهم المتعلقة بالحديث وعلومه، وبذلك جمعت هذه الدراسة ـ بحمد الله تعالى ـ بين الجانب التاريخي وجانب الصناعة الحديثية بالقدر المناسب، وأمكن بفضل الله إبراز مدرسة حديثية مكتملة العناصر.

وبالرغم من الجهد الذي بذلته في إعداد هذا البحث فإني لا أدّعي له الكمال؛ إذ إنّ النقص ملازم للأعمال البشريّة، وقد أبى الله عزّ وجلّ أن تكون عصمة لغير ما أوحى به إلى نبيّه عليه الصّلاة والسّلام.

فلا عَدمت أخاً وقف على ما في هذه الرسالة من خطأ أو سهو فنبّهني إليه مشكوراً، مأجوراً إن شاء الله تعالى.

وفي هذا المعنى يقول الشيخ عبدالعزيز بن أحمد الغماري (ت ٧٣٠) في مقدمة كتاب كشف الأسرار عن أصول البزدوي: «... ثم إني وإن لم آل جهداً في تأليف هذا الكتاب وترتيبه، ولم أدخر جداً في تسديده وتهذيبه فلا بد أن يقع فيه عثرة وزلل، وأن يوجد فيه خطأ وخطل، فلا يتعجب الواقف عليه منه، فإن ذلك مما لا ينجو منه أحد ولا يستنكفه بشر...» إلى أن قال رحمه الله تعالى:

«فالمأمول ممن وقف عليه أن يسعى في إصلاحه بقدر الوسع والإمكان أداء لحق الأخوة في الإيمان».

وفي الختام أحمد الله عزّ وجلّ على ما أسبغ عليّ من النّعم الجليلة، والتي منها إنجاز هذا البحث قبل مدّته المقرّرة له، رغم ضيقها وطوله.

ثمّ أشكر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، التي مكّنتني من الانتظام فيها، والالتحاق بكلّيّة أصول الدّين، حيث نهلت من معين العلم الصّافي، وقد قضيت فيها أخصب فترات حياتي العلميّة، في المرحلة الجامعيّة ومرحلة الماجستير، وكان الجوّ فيها مُهيّأً للطّلب، ممّا ساعدني على الإقبال على العلم، وفسح أمامي المجال للتّفوّق بفضل الله تعالى، ثمّ بسبب جدية القائمين على الكلّيّة وتقواهم، وما اجتمع فيها من فضلاء علماء هذا العصر.

كما أنّي أشكر قسم السّنّة وعلومها، الذي حوى جماعة من أهل الفضل والعلم، تعلّمت منهم الأدب والعلم جميعاً، فجزاهم الله عنّ خير الجزاء، وأخصّ بالذّكر منهم أستاذي الفاضل العلاّمة، الجامع بين العمل والعلم والأدب والفضل: الدّكتور أحمد معبد عبدالكريم، وقد حضرت عليه لمدّة سنتين في مرحلتي الجامعة والماجستير، ثم تفضّل مشكوراً مأجوراً بقبول الإشراف على هذه الرّسالة، وكان من جدّيّته ومتابعته لهذا البحث وحرصه على إنجازه بدقّة وموضوعيّة ما كان له أبعد الأثر وأعظم الفائدة، وكان ذلك من أهمّ أسباب ظهور هذا البحث بالحالة التي هو عليها، ولم يكن الشّيخ حفظه الله يبخل عليّ بوقته من ليل أو نهار، مباشرة أو بالهاتف، كما كانت مكتبته العامرة تحت تصرّفي كلما احتجت إليها، فله الشّكر موصولاً غير مقطوع، وله الودّ والتّقدير ممدوداً غير مجذوذ.

أسأل الله تعالى أن يتقبل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وألا يجعل

حظي منه مجرد النصب والتعب، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم لقاه، وأن ينفع به المسلمين، إنه سميع قريب مجيب الدعوات.

والحمد لله أولاً وأخيراً، وهو حسبي ومولاي وناصري ووكيلي.

وكتبه/ الحسين بن محمد شواط
الرياض في ١٤٠٧/٣/١٥ هـ

الاصطلاحات الخاصّة

ـ ل = لوحة.

ـ خط = مخطوط.

ـ تح = تحقيق.

ـ مح = محقّق.

ـ ت = توفّي.

ـ د. ت = بدون تاريخ.

ـ ص = صفحة.

ـ ط (معها اسم كتاب) = طبقات، مثل ط الخشني = طبقات الخُشني.

ـ ط (وبعدها رقم) = طبقة، مثل ط ٢ = الطّبعة الثّانية.

ـ ٣/٢/١٠٠ = الجزء الثّالث، الصّفحة الثّانية، حديث رقم ١٠٠.

ـ ٢/٥٠ = الجزء الثّاني الصفحة الخمسون، وهذا بالنّسبة للكتب التي لم تُرقّم فيها الأحاديث، مثل صحيح البخاري، وسنن الدّارمي.

ـ للموطّأ (غير طبعة محمد فؤاد عبدالباقي) رمز خاص؛ لأنّه مجلد واحد وأحاديثه مرقّمة، فالرّقم الأوّل يكون للصّفحة، والثّاني لرقم الحديث مثل: الموطّأ ١٠٠/٧ = صفحة ١٠٠، حديث رقم ٧.

ـ كثيراً ما أشير إلى أسماء الكتب في الهوامش بذكر أوّل لفظ من اسم الكتاب،

خاصّة إذا كان الاسم طويلاً، مثلاً: شجرة النّور الزّكية في طبقات المالكيّة = الشّجرة، معالم الإيمان في معرفة أهل القَيْرَوان = المعالم، وهكذا.

- بالنّسبة للمجلّات، يمثّل الأوّل غالباً العدد، والثّاني السنة، والثّالث التّاريخ، مثلاً ٤/٢/١٩٧٥ م = العدد الرّابع، السّنة الثّانية، سنة ١٩٧٥ م، ثم أذكر رقم الصّفحة.

- م. ن = المصدر نفسه.

التمهيد

الأوضاع السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية وأثرها في الحياة العلمية

وفيه خمسة مباحث يتفرع كل منها إلى مطالب ونقاط:

١ ـ القيروان، وأهميتها في نشأة الحياة العلمية بإفريقية.

٢ ـ الوضع السياسي، وأثره في الحياة العلمية.

٣ ـ الوضع الديني، وأثره في الحياة العلمية.

٤ ـ الوضع الاجتماعي، وأثره في الحياة العلمية.

٥ ـ الوضع الاقتصادي، وأثره في الحياة العلمية.

* * *

تمهيد

الأوضاع السيّاسيّة والدّينيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة وأثرها في الحياة العلميّة

مدخل:

إنّ مختلف جوانب الحياة البشريّة شديدة التّرابط، يؤثر كلّ منها في غيره ويتأثّر به، ومن هنا كان لزاماً على من يدرس أحد جوانب النّشاط الإنسانيّ، في بيئة ما أن يمهّد له بالحديث عن بقيّة الجوانب، وذلك مدخل ضروريّ حتّى يصل الباحث إلى نتائج صائبة مبنيّة على دراسة متكاملة.

وفي هذا الإطار جاء هذا التّمهيد عن الأوضاع السّياسيّة، والدّينيّة، والاجتماعيّة، والاقتصادية؛ ليتسنّى لنا فهم الحركة العلميّة بالقَيْرَوان عامّة والنشاطات المتعلّقة بالسّنّة وعلومها بصفة خاصّة.

إلاّ أنّه ليس من الممكن أن أتعرّض في هذا التّمهيد لدقائق هذه الأوضاع وجزئيّاتها خلال مدّة تزيد على أربعة قرون مملوءة بالأحداث، فإنّ كلّ جانب منها يمكن أن يصلح موضوعاً لعدّة رسائل علميّة[1]، ولهذا فسأقتصر على إيراد ما

---

(١) من ذلك ما كتبه عبدالعزيز المجدوب عن الصّراع المذهبيّ بإفريقيّة، وصالح باجيّة عن الإباضية بالجريد، وعبدالمجيد بن حمدة عن الفرق الكلاميّة، ومحمود إسماعيل عن الخلافة والخوارج، وهند شلبي عن القراءات بإفريقيّة... انظر: قائمة المصادر.

يحقّق الغرض من هذا التّمهيد وهو بيان أثر هذه الأوضاع على الحياة العلميّة، دون الإخلال بأساسيّات كلّ وضع.

ومعلوم أنّ الإشارة إلى اختلافات المؤرّخين، والتّوسع في تحليل الأحداث، ليس من مقاصد هذا التّميهد إلاّ لضرورة يقتضيها البحث، وذلك حرصاً على الإفادة بأخصر الطّرق وبعداً عن الإطالة والحشو.

١ ـ القَيْرَوان وأهمّيّتها في نشأة الحياة العلميّة بإفريقيّة

يحسن بنا قبل التّطرّق إلى ما يتعلّق بفتح إفريقيَّة وتأسيس القَيْرَوان أن نبدأ بتحديد المراد بإفريقيَّة؛ ليعرف القارىء حدود هذا الإقليم الذي سيتكرّر ذكره كثيراً في هذه الرّسالة باعتبار أن القَيْرَوان عاصمته.

أ ـ حدّ إِفْرِيقِيَّة والعلاقة بينها وبين القَيْرَوان:

إِفْرِيقِيَّة بكسر الهمزة[١] ـ وهو المشهور ـ وقيل بفتحها[٢] والنّسبة إليها إفريقيّ[٣]. وقد اختلف الجغرافيّون في تحديد هذه البلاد على أقوال، أهمّها:

١ ـ قيل هي الأرض الواقعة بين بَرْقَة وطَنْجَة[٤]. وعلى هذا فهي تشمل المغرب والجزائر وتونُس والجزء الأكبر من ليبيا.

٢ ـ وقيل هي ما بين بَرْقَة وتَاهَرْت[٥] أي الجزائر وتونُس، والجزء الأكبر من ليبيا.

٣ ـ وقيل حدّها من طَرَابُلُس إلى بِجَايَة[٦] أي أنّها تشمل تونُس وجزءاً من الجزائر وجزءاً من ليبيا.

---

(١) معجم البلدان ٢٢٨/١، فتح المغيث ١٤٨/٣.
(٢) اللّباب ٩٧/١. (٣) الإكمال ١٤٩/١.
(٤) مسالك البكري ٢١، اللّباب ٧٩/١، دائرة المعارف ٣٣٧/٢.
(٥) دائرة المعارف الإسلامية ٣٣٨/٢.
(٦) معجم البلدان ٢٢٨/١، دائرة المعارف ٣٣٨/٢، قادة فتح المغرب ١٤/١.

٤ ـ وقيل إنّها بين طَرَابُلُس وقُسَنْطِينَة[1]، أي ما يقارب حدود البلاد التّونسيّة حاليّاً.

٥ ـ وقيل هي مدينة القَيْرَوَان[2].

والاختلاف في تحديد هذا الإقليم يرجع إلى الظّروف السّياسيّة التي كانت عليها هذه البلاد، فأحياناً تتّسع رقعتها، وأحياناً تضيق تبعاً لامتداد نفوذ سلطان صاحب القَيْروان، أمّا في هذا البحث فسيكون المراد بإفريقيَّة ما يعرف الآن بالجمهوريّة التّونسيّة؛ لأنّه أكثر الإطلاقات التصاقاً بها في الفترة التي أدرسها.

والقَيْرَوَان[3] هي العاصمة الدّينيّة والسّياسيّة لإفريقيَّة في الفترة التي أدرسها، وهي مركز الإشعاع العلمي، ومنطلق الحياة الثّقافيّة فيها، وسيرد كثيراً في هذه الرّسالة استعمال إفريقيَّة بدل القَيْرَوان في بعض ما وُجد من الأنشطة العلميّة المتعلّقة بالقَيْرَوان خاصّة وبإفريقيَّة عامة؛ للإشارة إلى أنّ تلك الأنشطة لم تقتصر على القَيْرَوان بل تعدّتها إلى بعض المدن إفريقيَّة الأخرى.

ب ـ فتح إفريقيَّة[4] (٢٧ هـ ـ ٩٥ هـ):

أشرق نور الإسلام في مكّة المكرّمة ببعثة النّبيّ محمد ﷺ، الذي صدع

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣٣٨/٢، معالم تاريخ المغرب ٢٧ ٤٨.

(٢) المؤنس ١٤، فتوح البلدان ٢٣٠، تاريخ ابن الفرضي ١١٢/٢.

(٣) سيأتي تحديد موقعها قريباً.

(٤) انظر: نهاية الأرب ٤١٢/٢٠ ـ ٤١٤، ٥٣/٢٤، الخلاصة النقية ١١/٣، الإمامة والسياسة ٤٩/٢ ـ ٦٨، دائرة المعارف ٣٣٧/٢، ٣٠/٦، ٣٧٧/٧، ١٢٠/٨، ١٥٥/١٠، ١٠٧/١٥، فتوح ابن أعثم ١٣٠/٢ ـ ١٣٧، تاريخ أبي زرعة ١٨٣/١، ١٨٥، ٢٩٠، ٢٩١، كتاب المحن ٢٧١، ٢٧٢، الحلة السيراء ٣٢١/٢ ـ ٣٣٤، تاريخ الإسلام للذهبي ٧٩/٢، ٨٠، ١١٥، ٢١٠، ٢١٢، تاريخ الطبري ٢٥٣/٤ ـ ٢٥٧، ٢٢٩/٥، البداية والنهاية ١٥١/٧، ٤٥/٨، تاريخ ابن عساكر ١٤٩/٤، تاريخ الرقيق ٤١ ـ ٧٠، تاريخ ابن خلدون ١٢٨/٢، ١٨٥/٤ ـ ١٨٨، النجوم الزاهرة ٧٩/١ ـ ١٦٠، =

بالحقّ، وبلّغ رسالة ربّه، وجاهد في الله حق جهاده، مع صحابته الكرام، الذين ارتضاهم الله لمؤازرة نبيّه، فأخذت رموز الباطل تتهاوى أمام قوّة الحقّ وسلطانه، وانحسر نفوذ الشّرك والكفر، ودخل النّاس في دين الله أفواجاً.

ولما توفي الرسول ﷺ كان الإسلام قد عم جزيرة العرب، ثم انتشر الصحابة خارجها في الأمصار فاتحين وناشرين لدعوة الإسلام.

وفي أقلّ من ربع قرن أتمّوا فتح كلّ من العراق (بين ١٦ - ٢١ هـ)، وجميع بلاد الشّام (بين ١٣ - ١٥ هـ)، ومصر (سنة ٢٠).

وما إن أتمّ المسلمون الفتح النّهائي لمصر بمعاهدة الإسكندريّة سنة ٢١ هـ حتّى سارع عمرو بن العاص ففتح بَرْقَة[1] سنة ٢٢ هـ، وطَرَابُلُس[2] سنة ٢٣ هـ، وترك في تلك النّواحي جزءاً من جيشه؛ للحفاظ على البلاد المفتوحة، ونشر الإسلام بين أهلها، وللتوسّع في عمق الصّحراء. وكان ضمن هذه الحامية: عُقبة بن نافع الفِهْرِيّ، الذي كان له بعد ذلك شأن عظيم في تاريخ إفريقيَّة والمغرب.

= خلاصة تاريخ تونس ٥٤ - ٦٣، إتحاف أهل الزمان ١/٧٨ - ٨٦، الاستقصاء ١/٣٦ - ١٠٠، الكامل ٣/١٢، ١٣، ٤٤ - ٤٧، ٢٣٠، ٢٣١، ٣٠٨، ٣١٠، ٤/٣٢، ٣٣، ١١٢، ١١٣، جامع السيرة ٣٤٤، فتوح مصر ١٧٠ - ٢١١، المؤنس ٣٦ - ٤٠، الحلل السندسية ١/٢/٥٣٠ - ٥٣٨، معجم البلدان ٢/٢٢٩، ٤/٤٢٠، قادة فتح المغرب ١/٥١ - ٢٣٧، حركة الفتح الإسلامي ١٥٦ - ١٧٩، تاريخ خليفة ١٥٢، ١٥٩، ١٦٧، ٢٠٤، ٢١٠، ٢٧١، معالم تاريخ المغرب والأندلس ٣١ - ٥٥، القيروان ٢٤ - ٤٤، حسن البيان ٥١ - ١٦١، تاريخ المغرب العربي ١/١٤٣ - ١٣٨، البيان المغرب ١/٩ - ٣٩، معالم الإيمان ١/٤٣ - ٦٩، أبو العرب مح ١٢ - ١٦، شجرة النور ٩٤ - ١٠٨، فتوح البلدان ٢٢٥ - ٢٣١، المغرب الكبير ١٦٥ - ٢٥٨، رياض النفوس ١/١٠ - ٥٧.

(١) برقة: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وإفريقية.. معجم البلدان ١/٣٨٨.

(٢) طَرَابُلُس أو أَطْرابلس مدينة في آخر أرض بَرْقَة وأول أرض إفريقيَّة معجم البلدان ١/٢١٧، ٤/٢٥.

وقد لاحظ عمرو بن العاص حسن انقياد أهل تلك النّاحية للإسلام، فقوي عزمه على التّوغّل في إفريقيَّة، وأخذ يرسل السّرايا فتغير على أطراف إفريقيَّة، وتعود مظفّرة، ممّا شجّعه على التّفكير في غزوها، فأرسل يستشير أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ويرغّبه في أن يفتحها الله على يديه، ويذكّره بقربها من حوزة المسلمين. وكان الجواب حاسماً: «لا، إنّها ليست بإفريقيّة ولكنها المُفَرّقة، غادرة، مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت»[1].

وهذا الموقف ليس مستغرباً من عمر رضي الله عنه، «وذلك أنّ أهلها (إفريقيّة) كانوا يؤدون إلى ملك الرّوم شيئاً، فكانوا يغدرون به كثيراً، وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم، وكان خبرهم قد بلغ عمر»[2]. كما أنّ عمر كان يخشى أن ينفرد بالمسلمين عدوُّهم، مع صعوبة نجدتهم؛ لبعدهم عن مركز الخلافة، فلم يجد عمرو بدّاً من العودة إلى مصر. وبقي الأمر كذلك إلى زمن عثمان رضي الله عنه (ولي الخلافة سنة ٢٤ هـ)، فولّى على مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح[3]، فأخذ عبدالله يرسل المسلمين في جرائد الخيل فتصيب من أطراف إفريقيَّة، فأرسل إلى عثمان يبشّره بذلك، ويستأذنه في غزوها، وكان عثمان متردّداً في أمرها لموقف عمر منها، فجمع الصّحابة واستشارهم[4]، فلم يخالف في غزوها إلا سعيد بن زيد العدويّ[5] الذي استمسك برأي عمر. فعزم

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ١٧٣، وانظر: ط أبي العرب ١٣، ١٦، فتوح البلدان ٢٢٧، الاستقصاء ٧٣/١، كما نلاحظ أن عمر قد تخوّف قبل ذلك من فتح مصر وكرهه. انظر: فتوح مصر والمغرب ٨٠، ٨١.

(٢) فتوح البلدان ٢٢٧.

(٣) سيأتي في الباب الثالث التعريف بالصحابة والتابعين الذين ذكروا في التمهيد.

(٤) انظر عن تفاصيل علميّة الشورى: طبقات أبي العرب ١٢، ١٣، والرياض ١٤/١.

(٥) صحابي جليل من العشرة، أحد السابقين أخرج له الجماعة (ت ٥١). التجريد ٢٢٢/١، الكاشف ٢٨٦/١.

عثمان على غزوها وندب المسلمين لذلك، فتسارع النّاس من الصّحابة وكبار التّابعين، من مختلف القبائل العربيّة[1]، فأرسلهم عثمان إلى مصر فسار بهم ابن أبي سرح إلى إفريقيّة في جيش يعد عشرين ألفاً[2]، بعد أن انضمّ إليهم عُقبة ومن معه ببَرْقة[3]، وذلك سنة ٢٧ هـ، وهي الغزوة المعروفة بغزوة العبادلة[4]. واتّجه بهم عبدالله نحو سُبَيْطِلَة[5]، ولم يكن هناك بدّ من القتال؛ لأنّ جرجير قد رفض الإسلام والجزية[6]، ورغم ضخامة جيش العدوّ (بين ١٠٠ و ١٢٠ ألفاً) فقد انتهت المعارك العديدة التي دارت بين الطّرفين على مشارف مدينة سُبَيْطِلَة بانتصار المسلمين، وقتل جرجير وكبار قادته، وكثير من جيشه، وغنم المسلمون أموالاً عظيمة[7]، وبثّ المسلمون سراياهم بتلك النّاحية حتّى بلغوا مدينة

---

(١) انظر في تسمية هذه القبائل وعدد المشاركين من بعضها مع تسمية بعضهم: ط أبي العرب ١٣، والرياض ١٤/١.

(٢) انظر مثلاً: البيان المغرب ٢٨/١، تاريخ ابن خلدون ١٨٥/٤.

(٣) العبر ١٢٩/٢.

(٤) وذلك لكثرة من اشترك فيها ممن اسمه عبدالله من الصحابة وسيأتي ذكر أسمائهم.

(٥) سُبَيْطِلَة: هي عاصمة ملك جرجير وتقع على ٧٠ ميلاً غربي القيروان. انظر: البيان

(٦) المغرب ١٠/١، الرياض ٢٠/١، المعالم ٣٥/١.

لقد كان ضمن الجيش الإسلامي الفاتح أناس من أقباط مصر يقومون بخدمته، ولم تشر المصادر إلى كونهم أسلموا أم لا، وكانت لهم معرفة بلغة البربر وعاداتهم (الرياض ١٧/١، وانظر: الكامل لابن الأثير ١٣/٣)، كما كان معه بعض العرب الذين يتقنون لغة الروم. فتوح ابن عبدالحكم ١٨٦.

وعن طريق هؤلاء كان يتم التفاهم بين المسلمين وبين الروم والبربر فيما يخص الأمور الحربية، وكذلك فيما يخص التعريف بالدين الإسلامي، وانظر: ورقات ٦٢، ٦٣.

(٧) بلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف مثقال ذهباً، وسهم الراجل ألف مثقال ذهباً. انظر: تاريخ خليفة ١٦٠، البيان المغرب ١٢/١. وترجع كثرة هذه الأموال إلى أنّ ابن أبي سرح قد افتتحها بكراً ولم يغزها أحد منذ عدّة قرون، البيان المغرب ١٢/١.

قَفْصَة[2]، وقد أسلم في هذه الغزوة كثير من أهل إفريقيَّة[3] والتجأ من لم يُسلِم إلى الحصون، وطلبوا من ابن أبي سرح الصّلح على مبلغ عظيم من المال، فقبل ذلك وانصرف عنهم بعد أن أقام سنة وثلاثة أشهر، «ولم يولّ على إفريقيّة أحداً ولم يكن لهذا يومئذ قَيْرَوان ولا مصر»[4]. ولا يمكن التّقليل من شأن هذه الغزوة بسبب عدم بناء مدينة يستقرّ بها المسلمون، ويكفي أنّها أذلّت الروم بإفريقيّة[5] بحيث لم يتمكّنوا من استرجاع قوّتهم بعد ذلك كما أنها عرّفت أهل البلاد - ولو جزئياً - بالإسلام حتّى اعتنقه بعضهم، ومن ناحية أخرى فقد وقف المسلمون على حالة البربر وعرفوا طبائعهم وعاداتهم عن قرب، كما أنّ المنطقة المفتوحة لا يستهان بحجمها.

أمّا الغزوتان التّاليتان فلم تكونا محلّ اتّفاق بين المؤرخين القدامى، كما أنّ بعض المعاصرين قد شكّك في وقوعهما واعتبروا أنّ المسلمين لم يلتفتوا إلى إفريقيّة إلّا عندما هدأت الفتن في المشرق وآلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه[6]، ولا يمكن أن نسلّم لهؤلاء مقولتهم، إذ يستبعد أن يفرّط المسلمون في هذا الكسب العظيم بسهولة، كما أنّ الغزوتين اللّتين هما محلّ شكّ قد وقعتا قبل اشتداد أمر الفتنة. أمّا سكوت بعض المصادر القديمة عن ذكرهما فسببه صغر حجم الغزوتين وقلّة ما فيهما من الأحداث. وقد عبر أبو العرب عن ذلك حين وصف غزوة سنة ٣٤ بأنّها «لا يعرفها كثير من النّاس»[7].

---

(١) قفصة: مدينة صغيرة في طرف إفريقيّة بينها وبين القيروان ثلاثة أيام (أي حوالي ١٧٠ كلم). معجم البلدان ٣٨٢/٤.

(٢) انظر: النجوم الزاهرة ٨٠/١، تاريخ الإسلام ٧٩/٢.

(٣) فتوح البلدان ٢٢٨ (ط - بيروت).

(٤) البيان المغرب ١٢/١.

(٥) انظر مثلاً: المغرب الكبير ١٧٤/٢، معالم تاريخ المغرب ٣٣، سيرة القيروان ١٢.

(٦) طبقات أبي العرب ١٥.

فالأرجح إذن وقوع هاتين الغزوتين، وقد كانت الأولى سنة ٣٣ هـ بقيادة عبدالله بن سعد أيضاً حين نقض أهل إفريقيّة العهد[1]، فجاهدهم حتّى دخل بعضهم في الإسلام ورضي الباقون بالجزية.

أمّا الثّانية فكانت سنة ٣٤ هـ وقادها معاوية بن حديج[2] فأعاد أهلها إلى الطّاعة.

ثمّ اشتغل المسلمون في المشرق بما أهمّهم عن شأن المغرب حتّى اعتدل الأمر لمعاوية رضي الله عنه سنة ٤١ هـ، فأرسل إليها معاوية بن حُديج[3]، وفي سنة ٤٢ هـ عزاها عُقبة بن نافع[4]، ويبدو أنّ هاتين الغزوتين لم تتوغّلا داخل أرض إفريقيّة.

أمّا الغزوة الموالية فكانت ذات شأن، وقد قادها معاوية بن جُديج سنة ٤٥ هـ[5]، وكانت ردّاً على المحاولة التي قامت بها الدّولة البيزنطيّة لإعادة إفريقيّة إلى نفوذها، فهزم معاوية جيوش البيزنطيّين، وأعاد فتح إفريقيّة مدينة مدينة، حتى وصل جبل القرن، (قريباً من موضع بناء القيروان)، فعسكر هناك وبنى مساكن للجيوش، واتخذ ذلك الموقع منطلقاً وجه منه سراياه إلى أنحاء البلاد ففتح سُوسَة وجَلُولَاء، والجمّ، وبِنْزَرْت، ولا شكّ أنه قد سيطر على جميع تلك الجهات؛

---

(١) البيان المغرب ١/١٤، النجوم الزاهرة ١/٨٠، تاريخ الإسلام ٢/١١٥، قادة فتح العرب ١/٦١.

(٢) أبو العرب ١٥، الرياض ١/٣٠، ٩٣، فتوح مصر وأخبارها ١٩٤، تاريخ ابن خلدون ٤/١٨٥، تاريخ المغرب العربي ١/١٦٧.

(٣)، (٤) البيان المغرب ١/١٠.

(٥) الرياض ١/٢٨، البيان ١/١٧، النجوم الزاهرة ١/١٣٠، قادة فتح المغرب ١/٧٩، المعالم ١/٤٥، حسن البيان ٧٦، وفي بعض المصادر سنة (٥٠ هـ) وهو خطأ إذ من الثابت أن تأسيس القيروان تم في هذا التاريخ على يد عقبة بن نافع، انظر: الإصابة ٣/٤١١.

لأنّه تمكّن سنة ٤٥ هـ من غـزو صِقِلِّيّة[1] لأوّل مرّة في التّاريخ الإسلامي، كما أغزى جيشه جزيرة جَرْبَة ففتحت سنة ٤٧ هـ بقيادة رُوَيفع بن ثابت الأنصاري[2]، ويبدو أن معاوية قد مكث في إفريقيَّة مدة لا تقلّ عن أربع سنوات؛ لأنّه لم يعزل عن ولايتها إلاّ في بداية سنة ٥٠ هـ[3]، ولذلك فقد آتت هذه الغزوة أكلها حيث ظهر الإسلام في البربر[4]، وتمكّن الجيش الإسلامي من التّوغّـل في أراضيهم وكسر شوكتهم[5]، فلم تكن هذه الغزوة من الغزوات التّمهيديّة[6]، وإنّما كانت غزوة عظيمة تركّز بها الإسلام في إفريقيّة إلى حدّ كبير وكانت خير ممهّد لبناء مدينة القَيْرَوان واستقرار المسلمين بإفريقيّة.

وفي سنة ٥٠ هـ بدأت إفريقيّة الإسلاميّة عهداً جديداً مع عُقبة بن نافع، المتمـرّس بشؤون إفريقيّة منذ حداثة سنّه، فقد لاحظ كثرة ارتداد البربر، ونقضهم العهود، وعلم أنّ السّبيل الوحيد للمحافظة على إفريقيّة، ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محطّ رحال المسلمين، ومنها تنطلق جيوشهم، فأسّس مدينة القَيْرَوان وبنى جامعها [7] وافتتح كثيراً من البلدان، وعمل على نشر الإسلام بين البربر وشرّد من بقي على الكفر.

ثمّ ولي إفريقيّة أبو المُهاجِر دينار[8] سنة ٥٥ هـ، وكانت له مع البربر سياسة

---

(١) البيان المغرب ١/١٨، الاستقصاء ١/٧٧، قادة فتح المغرب ١/٨١، فتوح ابن أعثم ١٣٧.
(٢) المؤنس ٢٨.
(٣) البيان المغرب ١/١٩ ويمكن أن يكون في هذه الفترة يتردد بين إفريقية ومصر.
(٤) الاستقصاء ١/٧٨، ولا غرابة في ذلك فقد كان في هذه الغزوة بشر كثير من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، انظر: ابن عبدالحكم ١٩٣.
(٥) انظر: تاريخ ابن خلدون ٤/١٨٦.
(٦) كما وصفها صاحب معالم تاريخ المغرب ٣٤، وانظر: سيرة القيروان ١٣.
(٧) سيأتي تفصيل الحديث عن تأسيس القيروان ص ٤٣.
(٨) هذا من الأعلام الذين أهملهم المؤرخون.

حسنة؛ فقد تألّف قادتهم وعلى رأسهم كُسَيْلَة البربريّ فانقادوا للإسلام، وازدادت رقعة البلاد المفتوحة حتّى بلغت تلمسان من بلاد الجزائر. وطالت مدة إقامة أبي المهاجر ومن معه من الصّحابة والتّابعين إلى أن عاد عُقبة ثانية إلى القَيْرَوان، سنة ٦٢ هـ، بأمر من يزيد بن معاوية، فأعاد عمارة المدينة[١]، ودعا لها ومن معه من الصّحابة كما سيأتي، وخرج إلى الغزو ففتح جميع بلاد المغربين الأوسط والأقصى، أي ما يعرف الآن الجزائر والمغرب، حتى وصل إلى البحر المحيط، فأدخل فيه قوائم فرسه، وقال كلمته الخالدة: «اللّهم اشهد أنّي قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتّى لا يعبد أحد من دونك»[٢]. ثم كرّ راجعاً وفتح في طريقه بعض بلاد السّودان، فلمّا اقترب من مدينة تَهُوَدة[٣] صرف أصحابه إلى منازلهم «ثقة بما دوّخ من البلاد»[٤] وقيل بل خالفه العدوّ إلى القَيْرَوان فأرسل أصحابه لنجدتها[٥]، وأصبح في عدد قليل، فاستغلّ الروم والبربر تلك الفرصة وأحاطوا به بقيادة كُسَيْلة[٦] في جموع عظيمة، فاستشهد عُقبة فيمن معه من الصّحابة والتّابعين وذلك آخر سنة ٦٣ هـ. وكان لهذه الحادثة أثر عميق في نفوس المسلمين، وزحف كُسَيْلَة نحو القيروان فدخلها سنة ٦٤ هـ، وأمّن من بقي بها من أهل الأثقال من المسلمين، وأمّا زُهَيْر بن قَيْس البَلَوِيّ خليفة عُقبة على القيروان فقد اضطرّ للسّير نحو المشرق، فأقام ببَرْقَة إلى أن جاءه المدد من عبدالملك بن مروان سنة ٦٩ هـ[٧]، فسار إلى القيروان، واستنقذها

---

(١) وذلك لأنّ أبا المهاجر قد بنى جوارها مدينة تِيكَرْوَان ونقل النّاس إليها، انظر: فتوح مصر ١٩٧.

(٢) الرياض ١/٣٩. وانظر: الاستقصاء ١/٨٢.

(٣) تهودة: تقع الآن بالجزائر وتعرف بسيدي عقبة. وانظر: ص ٢٧٠ هاشم ٤.

(٤) البيان ١/٢٨.

(٥) انظر: فتوح مصر ١٩٨.

(٦) هو كُسَيْلة بن لَمْزَم الأوربّي وقيل البُرْنُسيّ وهو من ملوك البربر، أسلم على يد أبي المهاجر الذي تألفه وأحسن إليه ولكن عقبة لم يتبع نفس الأسلوب بل تشدد مع كسيلة فحنق عليه (انظر: البيان ١/٢٨ - ٣٩).

(٧) المغرب الكبير ٢/٢٣٤، البيان المغرب ١/٣١، الرياض ١/٤٦.

من يد كُسَيْلَة الذي اضطربت صفوصه، لأن المسلمين البربر قد تنازعوا معه، ولم تذكر المصادر أنّ كُسَيْلَة قد أساء إلى المسلمين في الفترة التي حكم فيها القيروان، وقد دامت مدّة خمس سنوات، وفي هذه الموقعة قُتل كُسيلة وملوك الرّوم والبربر وأشرافهم وفرسانهم، وخلد أهل إفريقيّة إلى الطّاعة، وتمهّدت البلاد لزُهَيْر بن قَيْس البَلَوِيّ، فخاف على نفسه الفتنة لِما رأى من عظمة الملك «وكان من رؤساء العابدين وكبار الزّاهدين»[9] وقرّر الرّحيل إلى المشرق، بينما أقام معظم أصحابه بالقيروان، ولكنّه استشهد في قلّة من أصحابه على يد الرّوم الذين أغاروا على بَرْقَة، «وكانت المصيبة بزُهَير وأصحابه رضي الله عنهم مثل المصيبة بعُقبة بن نافع وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين»[1].

وبموت زُهَير اختلّت الأمور في إفريقيّة من جديد، إلا أنّ الوضع بالمشرق لم يكن يمسح بسرعة إرسال من يعيد الأمور إلى نصابها[2]، فمضت أربع سنوات كاملة حتّى تمكّن عبدالملك بن مروان من أن يرسل حسّان بن النّعمان إلى إفريقيّة سنة ٧٣ هـ في جيش عظيم، وقد انضمّ إليه كثير من أهل مصر وممّن أسلم من بربر إفريقيّة، وقد قصد حسّان قرطاجنّة[3] آخر قلاع الرّوم بإفريقيّة ففتحها، واضطرّ إلى هدمها؛ لأنّ أهلها غدروا به، وفرض سيطرته على كامل تلك المنطقة، وأثخن في الرّوم والبربر بالقتل.

ثمّ توجّه حسّان لمحاربة الكاهنة[4]؛ لأنّها هي الخطر الوحيد الذي بقي

---

(١) البيان المغرب ٣٣/١.

(٢) المعالم ٥٩/١، المؤنس ٣٣.

(٣) وذلك لانشغال عبدالملك بن مروان بحروبه مع عمرو بن سعيد بن العاص ثم مع عبدالله بن الزبير. انظر: تاريخ خليفة ٢٦٦، ٢٦٩.

(٤) قَرْطَاجَنَّة: بلد قديم من نواحي إفريقيّة على ساحل البحر يبعد عن القيروان مسيرة ثلاثة أيام وهو قريب من موضع تونس الآن، وانظر: معجم البلدان ٣٢٣/٤.

(٥) الكاهنة هي ملكة البربر في جبال الأوراس. انظر: فتوح مصر ٢٠٠، معالم تاريخ المغرب ٤٣.

يهدّد الكيان الإسلامي في إفريقيّة والمغرب، وقد قال له البربر المسلمون: «فإن قتلتها دان لك المغرب كلّه، ولم يبق لك مضادّ ولا معاند»[1] إلا أنّ ابن النّعمان قد انهزم أمام الكاهنة، التي كانت في جموع عظيمة جدّاً، فتتبّعته حتّى خرج من عمل قابِس[2]. وأقام في الموضع الذي عُرف فيما بعد بقصور حسّان، وقامت الكاهنة بتخريب مدن إفريقيّة ظنّاً منها أنّ ذلك هو غاية مطلب المسلمين من إفريقيّة[3] وقد أثار عَملها نقمة كثير من سكان تلك المدن فاستجاروا بالمسلمين. وبعد مضيّ خمس سنوات تمكّن حسّان من العودة لمقاتلة الكاهنة في جيش لم يدخل إفريقيّة مثله قط، فانهزمت أمامه، وقتل أكثر رجالها، وطلب الباقون الأمان، فاشترط عليهم حسّان «أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألفاً يجاهدون مع العرب، فأجابوه وأسلموا على يديه»[4]، وبذلك انكسرت شوكة الرّوم والبربر بإفريقيّة نهائياً، فاتّجة إلى ناحية قَرْطَاجَنَّة، فبنى مدينة تونُس، وأنشأ بها داراً لصناعة السّفن، وحفر إليها البحر فأصبحت ميناءاً هامّاً، وبنى جامع الزّيتونة، ثم عاد إلى القيروان فجدّد بناء جامع عُقبة، ودوّن الدّواوين وولّي على الصّدقات حَنَشاً الصّنعاني[5] وكتب الخراج على من لم يدخل في الإسلام من عجم إفريقيّة.

وبذلك تمهّدت إفريقيّة، وأصبحت دار إسلام، وحسنت طاعة أهلها، وأقام بها حسّان «لا يغزو أحداً ولا ينازعه أحد»[6]؛ لأنّ جميع من بها إمّا مسلم مطيع

---

(١) البيان ١/٣٥، وانظر: المعالم ١/٦١، الاستقصاء ١/٩٣.

(٢) قابِس: مدينة على ساحل البلاد التونسية بينها وبين القيروان حوالي ٢٠٠ كم. انظر عنها: معجم البلدان ٤/٢٨٩، اللباب ٣/٥.

(٣) قيل إن إفريقية كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة وقرى متصلة فخربت الكاهنة ذلك كله، حسن البيان ١٥٨، انظر: المعالم ١/٦٤، وابن عذارى ١/٣٦، الرياض ١/٥٣.

(٤) البيان المغرب ١/٣٨، انظر: تاريخ ابن خلدون ٤/١٨٧.

(٥) المعالم ١/٦٩.

(٦) البيان ١/٣٨.

أو كافر خاضع مستكين. ووجّه حسّان عناية كاملة لنشر الدّين الإسلاميّ، واللّغة العربيّة فدخل البربر في دين الله أفواجاً، خاصّة وأنّ حسّاناً كان إلى جانب ذلك يقسم الفيء والأرض بينهم[1]، واستمرّ حسّان في تركيز مبداىء الإسلام لدى أهل إفريقيَّة وإعادة تعمير ما خربته الكاهنة حتّى رجع إلى المشرق سنة ٨٥ هـ.

ويمكن أن نعتبر أنّ فتح إفريقيَّة قد تمّ نهائياً في هذه المرحلة، لولا وجود بعض البؤر التي لم تفتح، وبقيت تشكّل خطراً على الإسلام مثل قلعة زَغْوَان الواقعة بين القَيْرَوان وتونُس، وبعض المدن الواقعة في أطراف إفريقيّة، وذلك هو ما قام به موسى بن نُصَير لمّا قدم القيروان سنة ٨٦ هـ[2] فمهّد جميع ما تبقّى في نواحب إفريقيّة، وسيطر على قبائل المغرب الأوسط ومدنه.

ثم وجّه عنايته للغزو البحريّ، فغزا صِقِلّيَّة وافتتح سَرَقُوسَة وسَرْدَانِيَة[3]، ثمّ وجّه جيشه إلى المغرب الأقصى ففتح جميعه. وتسابق البربر إلى اعتناق الإسلام، فكلّف من يعلّمهم اللّغة العربية وشرائع الإسلام[4].

وبذلك تمّ نهائيّاً فتح إفريقيّة والمغرب، ودَانَ أهل تلك البقاع بالإسلام، وانتهت الانفاضات المتكرّرة للبربر، قال ابن أبي زيد القيروان: «ارتدّت البربر اثنتي عشرة مرّة من طرابُلُس إلى طَنْجَة، ولم يستقرّ الإسلام إلاّ على يد موسى بن نُصير»[5] وهكذا تمّ بحق خضوع بلاد إفريقيَّة والمغرب للإسلام ودخل معظم أهلها في الدّين الجديد، وشاركوا إخوانهم الفاتحين في الذّود عن حماه.

---

(١) الرياض ١/٥٦. (٢) البيان ١/٤١.

(٣) صِقِلّيّة جزيرة في البحر الأبيض المتوسط مقابل إفريقيّة على بعد ١٤٠ ميلاً. انظر: معجم البلدان ٣/٤١٦.

سَرَقُوسَة: أكبر مدينة بجزيرة صِقِلّيَّة. معجم البلدان ٣/٢١٤.

سَرْدَانِيَة: من جزائر المغرب الكبرى، وقيل مدينة بصِقِلّيَة. معجم البلدان ٣/٢٠٩.

(٤) الكامل في التاريخ ٤/١١٢، تاريخ ابن خلدون ٦/١١٠.

(٥) الاستقصاء ١/١٠٠، إتحاف أهل الزمان ١/٨٦.

إلّا أنّ هـذا الفتح، كمـا تقدّم، لم ينتـه في سنـوات قليلة كمـا اعتـاده المسلمـون في فتح مـدن المشرق، إنّمـا دام أكثر من ستّين سنـة، بذل فيهـا المسلمـون تضحيات غـالية، وقـدّموا أعـداداً هائلة من الشّهـداء من الصّحابـة والتّابعين الذين كانوا بإيمانهم، وجهادهم، وبعزمهم، وإصرارهم، سبباً في إضافة هذا القطر الهائل إلى أمّة الإسلام، فجزاهم الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء.

ولم يكن فتح إفريقيّة فتحاً استعماريّاً عسكريّاً، إنّما كان فتحاً رساليّاً سارت فيه الدّعوة إلى الله جنباً إلى جنب مع التّقـدّم في فتح البلاد، تنفيذاً لأوامر الله تعالى بتبليغ دينه العالميّ وجهاد من كفر به: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُون﴾[1]، ولم يكن أفراد الجيش الفاتح جنوداً مقاتلين فحسب، وإنّما كانوا قبل ذلك معلّمين، وهداة، وقدوة، يحملون الخير إلى كلّ بلد قصـدوه، ومنه إفريقيّة التي نحن بصدد الكلام عنها.

جـ ـ تأسيس القَيْرَوَان:

١ ـ معنى «القَيْرَوَان» وموقعها والنّسبة إليها:

القَيْرَوان ـ بفتح القاف والرّاء ـ لفظ فارسي معرّب، وقد تكلّمت به العرب قديماً، قال امرىء القيس:

وغـــارة ذات قَـيْـرَوَان كــأنّ أســرابهـا الــرّعــال

وهي اسم للقـافلة، وللجيش أيضـاً، وقيـل إنّهـا بفتـح الـرّاء: الجيش، وبضمّها: القافلة، ومن معانيها كذلك: معظم العسكر، وموضع اجتماع النّاس ومحطّ أثقال الجيش[2].

---

(١) سورة الصف: الآية ٩.

(٢) انـظر: معجم البلدان ٤/٤٢٠، مـراصـد الاطـلاع ٣/٦١٣٩، الحلل السنـدسيـة ١/١/٢٥٩، حسن البيان ١٨٦، قادة فتح المغرب ١/١٠٣، معالم تاريخ المغرب ٣٦، المعالم ١/٨.

وتقع القَيْرَوان الآن في الجمهوريّة التّونسية في جنوب غربي العاصمة على بعد ١٨٠ كلم، وقديماً حدّها البَكْرِيُّ بقوله: «ومدينة القيروان في بساط من الأرض مديد من الجوف منها بحر تونُس، وفي الشرق بحر سُوسة والمَهْدِيّة، وفي القبلة بحر صَفَاقُس وقابِس، وأقربها منها البحر الشّرقيّ بينها وبينه مسيرة يوم، وبينها وبين الجبل مسيرة يوم، وبينها وبين سواد الزّيتون المعروف بالسّاحل مسيرة يوم، وشرقيّها سبخة ملح عظيم»[١].

والنّسبة إليها: قَرَوِيّ وقَيْرَوَانِيّ[٢]، وقد تلتبس النّسبة الأولى على بعض أهل المشرق بتسمية جامع القَرَويّين في مدينة فَاس بالمغرب الأقصى، فلْيُعلم أنّ أصل هذه التّسمية راجع إلى مدينة القَيْرَوان التي معنا، فإنّ نحو خمسمائة عائلة من أهل القَيْرَوان قد رحلوا منها إلى المغرب الأقْصى في عهد إدريس الثّاني (١٨٧ ـ ٢١٣)، وسكنوا في منطقة سمّيت عدوة القرويّين، التي كانت تمثّل نصف مدينة فاس، ويقابلها عدوة الأندلسيّين، وكان ضمن الوافدين أميرة فاضلة من آل عُقبة بن نافع الفِهْرِيّ قامت ببناء جامع مدينة فاس، وهو الذي عرف بجامع القرويّين، ثمّ تحول بعد ذلك إلى جامعة لا زالت إلى اليوم تؤدّي رسالتها العلميّة[٣].

٢ ـ تأسيسها:

لا شكّ أنّ من أوّل ما ينبغي على الجيش الفاتح تحقيقه هو إيجاد مدينة يستقرّ بها المسلمون، وتكون محطّ رحال الجند: منها تنطلق سراياهم، وبها يحتمون عند الخطر، وتكون المنطلق الطّبيعي لنشأة الحياة الإسلاميّة، وتثبيت شعائر الدّين، وإقامة أحكامه في البلد المفتوح، إلاّ أنّ هذه الغاية لم تكن سهلة المنال في إفريقيّة؛ لصعوبة مراس أهلها وكثرتهم، وبُعدها عن مركز الخلافة،

---

(١) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٢٤، وانظر: حسن البيان ١٨٦.

(٢) انظر: الأنساب ١١٦/١٠، ٢٨٦، اللباب ٣٠/٣، ٦٩.

(٣) انظر: سيرة القيروان ٧٢ ـ ٧٤، معالم تاريخ المغرب ١١٤، البيان المغرب ٢١١/١.

وهذا يعني انعدام المدد المستمرّ كما يعني أنّ اهتمام الخليفة سينصبّ أولاً على البلاد القريبة منه، ولذلك فإنّ مشاكل المشرق كثيراً ما كانت تصرف أنظار وليّ الأمر عن التّفكير في وضع أفريقيَّة، ولهذه الأسباب لم يتمكّن المسلمون من تأسيس مدينة القَيْرَوان إلّا بعد أكثر من عشرين سنة من بداية الفتح.

ولقد استهوت ناحية القَيْرَوان المسلمين منذ غزوة العبادلة سنة ٢٧ هـ فإنّ ابن أبي سرح قد نزل فيها مدّة وضرب فسطاطه في أرضها[١].

وأوّل من بنى مساكن للجند وسماها «قَيْرَوان» هو معاوية بن حُديج سنة ٤٥ هـ، وكان ذلك عند القَرْن[٢]، (وهو جبل قريب من القَيْرَوان)، وفي هذه الغزوة توفّي الصّحابي أبو زمعة البَلَوِيّ، وبه سمّيت مقبرة القيروان بعد ذلك بالبلويّة[٣]، ممّا يؤكّد قرب المساكن التي بناها ابن حُديج من موقع القيروان، وذلك ما صرّح به صاحب المعالم حين قال: «فنزل بمكام القيروان اليوم»[٤].

ولمّا قدم عقبة سنة ٥٠ هـ، لاحظ كثرة ازتداد البربر، وضرورة تأسيس مدينة للمسلمين فقال لأصحابه: «إنّ إفريقيّة إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتّخذوا بها مدينة تكون عزّاً للإسلام إلى آخر الدّهر»[٥].

فاتّفق رأيهم على ذلك، ونظر عُقبة فيما بناه ابن جُديج فلم يعجبه، فتحول

---

(١) انظر: الرياض ١/ ٢٠، البيان المغرب ١/ ١٣.

(٢) انظر: الرياض ١/ ٩٣، المعالم ١/ ١٤٣، الكامل ٣/ ٢٣١، الاستقصاء ١/ ٧٧، ٨٨، حسن البيان ٧٦.

(٣) انظر: الرياض ١/ ٨٤، المعالم ١/ ١٤٢، ورقات لحسن عبدالوهاب ١/ ٤٥، وقد أرخت بعض المصادر وفاته بسنة ٣٤ هـ ولا يصح ذلك إذ لم يثبت وصول تلك الغزوة إلى نواحي القيروان بينما يوجد قبر أبي زمعة في طرف القيروان.

(٤) المعالم ١/ ١٤١.

(٥) البيان المغرب ١/ ١٩، وانظر: الرياض ١/ ١٠، حسن البيان ٧٦، أعلام ابن عاشور ٥.

عنه قليلاً وأمرهم بالبناء[1] بعد أن استشارهم حول الموقع الذي امتاز بطيب مرعاه، وبعده عن البحر حتّى لا يطرقه العدوّ ليلاً، وكان المكان وادياً كثير الشّجر تأوي إليه الوحوش والسّباع فنادى فيهم عُقبة بقوله: «يا أهل الوادي إنّا حالون إن شاء الله فاظعنوا، ثلاث مرّات، قال (الرّاوي): فما رأينا حجراً ولا شجراً إلّا يخرج من تحته دابّة حتى يهبطن الوادي، ثم قال: انزلوا بسم الله»[2].

فنزلوا وقطعوا الأشجار، وبنوا المسجد الجامع[3] ودار الإمارة، وبنى النّاس بيوتهم ومساجدهم، واستمرّ البناء خمس سنوات كان عقبة يرسل أثناءها السّرايا لتوسيع الفتح، ودعوة البربر للإسلام، وعظمت مدينة القَيْرَوان، وقصدها البربر المسلمون للتّعلُّم والاشتراك مع إخوانهم العرب في الفتح.

ولمّا تولّى أبو المهاجر إمارة إفريقيّة بنى مدينة تِيكَرْوَان على ميلين من مدينة القيروان[4] فانتقل أكثر أهل القَيْرَوان إليها، فلمّا عاد عُقبة في إماراته الثّانية أعاد

---

(١) انظر: الاستيعاب ١٠٩/٣، أسد الغابة ٤٢٠/٣.

(٢) تكاد المصادر تجمع على ذكر هذه الحادثة. انظر مثلاً: تاريخ خليفة ٢١٠، فتوح مصر والمغرب ٢٦٤، فتوح البلدان ٣٢٠، تاريخ الطبري ١٧٨/٤، البداية والنهاية ٤٥/٨، طبقات أبي العرب مح ٧٥، الاستيعاب ١٠٨/٣، وأول من ذكرها خليفة في تاريخه وقد نقلها عنه الحافظ ابن حجر في الإصابة ٣/ ٨٠ وحكم على إسنادهما بأنه حسن، ومع ذلك فقد شكك في صحتها بعض المعاصرين، زاعمين أنها مجرد أسطورة أملتها الظروف التي أحاطت بتأسيس القيروان. انظر مثلاً: المغرب الكبير ٢٠٥/٢، القيروان ٥٦، معالم تاريخ العرب ٣٦، وأنا أقول زيادة على حسن الإسناد فليس هناك مانع شرعي من وقوع مثل هذه الكرامة على يد أولئك الصحابة والتابعين الذين كانوا قمة في الفضل والدين، وقد تحملوا المشاق العظيمة مجاهدين في سبيل الله، وبناء هذه المدينة إنما يراد به وجه الله ونشر دينه.

(٣) ارتبط تحديد قبلة جامع القيروان بكرامة أخرى لعقبة بن نافع ذلك أن المسلمين لم يتمكنوا من تحديدها ولبثوا في التحري أياماً؛ لأنها ستكون إماماً لأهل المغرب فحدّدها عقبة عن طريق رؤية رآها، انظر: البيان المغرب ٢١/١، الرياض ١٢/١.

(٤) انظر: حسن البيان ٧٧.

عمارة القيروان، وكان في معسكره هذه المرّة خمسة وعشرون صحابيّاً فجمعهم في وجوه العسكر، ودار بهم حول المدينة، وجعل يدعو، وهم يؤمّنون وممّا قال في دعائه: «اللّهم املأها علماً وفقهاً، وأعمرها بالمُطيعين والعابدين واجعلها عزّاً لدينك، وذلاً لمن كفر بك، وأعزّ بها الإسلام وامنعها من جبابرة الأرض»[1].

قال المالكيّ[2]: «فشدّ إليها النّاس المطايا من كلّ مكان، وعمرت بفضلاء النّاس من الفقهاء والمحدّثين والمتطوّعين والعابدين والنّسّاك والزّاهدين، وأُعزّ بها الإسلام وأهله، ودُمغ بها أهل النّفاق والأهواء والشّكّ والضّلالة».

وسرعان ما اتّسع بناء القيروان حتّى اشتمل سورها على أربعة عشر باباً، وسبعة محارس، وقُسّمت إلى أرباض[3]، وحارات، وشوارع، وأزقّة، وأسواق، وحمّامات[4].

وقد وُصفت القيروان في كتب الجغرافيّين والمؤرخين بأوصاف جليلة تنبىء بعظمتها وتدلّ على فضلها، من ذلك قول الإدريسيّ[5]: «ومدينة القيروان أمّ أمصار، وقاعدة أقطار، وكانت أعظم مدن المغرب قطراً، وأكثرها بشراً، وأيسرها أموالاً وأوسعها أحوالاً، وأتقنها بناء، وأنفسها همماً. . .

والغالب على فضلائها التّمسّك بالخير والوفاء بالعهد والتّخلّي عن الشّبهات، واجتناب المحارم والتفنّن في محاسن العلم. . .».

---

(١) طبقات أبي العرب ٨، وانظر: البيان المغرب ٣٣/١، حسن البيان ١٨٧.

(٢) الرياض ١٣/١.

(٣) جمع ربض ومن معانيه الناحية من الشيء، وسور المدينة. انظر: القاموس المحيط ٣٣٠/٢.

(٤) انظر: بساط العقيق ١٤ ـ ١٦، ورقات ٥٢/١.

(٥) صفة المغرب ١١٠، وانظر: معجم البلدن ٢١٢/٤، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ٢٤، أحسن التقاسيم ٢٢٤، صورة الأرض ٩٦، البلدان ٣٤٧، البيان المغرب ٢٠٨/١.

ونظراً لتأسيس الصّحابة لهذه المدينة ودعائهم لها، والكرامات التي ارتبطت بتأسيسها، وكونها منطلق جيوش الفتح، وقاعدة الدّعوة إلى الله في إفريقيّة والمغرب، بالإضافة إلى أنّه لم يعبد فيها غير الله، فقد أصبحت مدينة القيروان مدينة جليلة مباركة، لها مكانة سامية في نفوس المسلمين، وقصدها النّاس من الآفاق، وسرعان ما أضحت عاصمة المغرب السّياسيّة والعلميّة والدّينية، وكثر فيها الفقهاء والمحدّثون والشّعراء والعُبّاد، قال صاحب المعالم[1]: «أمّا القيروان فهي البلد الأعظم والمصر المخصوص بالشّرف الأقدم، قاعدة الإسلام والمسلمين بالمغرب، وقطرهم الأفخر، الذي أصبح لسان الدّهر عن فضله يُعرب، وبشرفه يُغرب، قرارة الدّين والإيمان، والأرض المطهّرة من رجس الكافرين وعبادة الأوثان، قبلتها أوّل قبلة رُسمت في بلاد المغرب، وسُجد لله فيها سرّاً وعلانية، وناهيك بأرض كانت منازل أصحاب نبيّنا ﷺ ومحطّ رحالهم... مصراً مؤسّساً على التّقوى إلى يوم الدّين، دار هجرة المغرب والتّربة المقدّسة التي ضمّت شعر المصطفى، فأصبحت قسيمة يَثْرِب[2]... رابعة الثّلاثة: المدينة ومكّة وبيت المقدس والقيروان...».

د ـ أهمّيّة القيروان في نشأة الحياة العلميّة بإفريقيّة:

إذا كانت المصادر قد فَصّلت القول في الأحداث السّياسيّة المتعلّقة بتاريخ إفريقيّة فإنّا نجدها تضنّ علينا فيما يتعلّق بالحياة العلميّة، خاصّة إذا قورنت بما كتب عن هذه النّاحية في المشرق، وأمام ندرة المادّة العلميّة في هذا المجال

---

(١) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ٦/١.

(٢) يشير بذلك إلى ما ورد من أن أبا زمعة البلوي صاحب النبي ﷺ دفن بمقبرة القيروان ودفنت معه قلنسوته وفيها من شعر رسول الله ﷺ، فقاسمت المدينة بضم شيء من جسد الرسول ﷺ، ولا يعني ذلك أنها تقاسمها في الفضل الذي ثبت للمدينة شرعاً كتضعيف ثواب الصلاة في مسجدها، وموقف الدجال منها، وغير ذلك، راجع عن بداية التعليق: المعالم ١٣/١، ٩٨.

يجد الباحث نفسه مضطرّاً للإنطلاق من الإشارات القليلة، المباشرة وغير المباشرة الواردة في هذا الشّأن ثم تحليلها والاستنباط منها اعتماداً على الأصل والواقع المتمثّل في وجود مجتمع إسلاميّ متكامل في تلك البلاد يدين بما يدين به باقي المجتمعات الإسلاميةَ في مختلف المدن الإسلامية وإن اختلفت الظّروف والإمكانات.

إنّ الحياة العلميّة بإفريقيّة قد بدأت قبل تأسيس القَيْرَوان، إلاّ أنّها كانت غير منظّمة ولا مسترسلة، فقد اشتملت الغزوة الأولى سنة ٢٧ هـ على عشرين ألفاً «أكثرهم أصحاب رسول الله ﷺ»[١]، والصّحابة أداة طبيعية لنشر الإسلام وسنّة النّبي ﷺ، وذلك هو غرضهم من الفتح، ورغم قصر مدّة هذه الغزوة (سنة وثلاثة أشهر) فقد أسلم فيها كثير من البربر[٢]، وهؤلاء في حاجة إلى تعلّم اللّغة العربيّة وأساسيّات الدّين الإسلامي، ولا شكّ أنّ الصّحابة قد قاموا بهذه المهمّة خير قيام، ممّا يجعلنا نؤكّد على أن التّعريب ونشر الإسلام كانا يسيران جنباً إلى جنب مع الفتح، ولا يصح ما ذهب إليه بعض المعاصرين[٣] من أن شغل المسلمين في القرن الأوّل كان منصبّاً على إقرار سلطانهم؛ لأن السّيطرة العسكريّة لم تكن ذات يوم هي هدف أصحاب رسول الله ﷺ في فتوحاتهم، إنّما كانت الدّعوة إلى الله هي الدّافع الأسمى لتلك الفتوحات، هذا بالإضافة إلى أنّ النّتائج الهائلة التي حقّقها المسلمون في وقت قصير لتدلّ دلالة واضحة على الجهد العظيم الذي بذله الفاتحون منذ الخطوة الأولى في سبيل أسلمة البلاد[٤]، وقد ذكر العَبْدَرِيّ في رحلته أنّه شاهد في بيت الحكمة القَيْرَواني المصحف الذي بعثه عثمان

---

(١) طبقات أبي العرب ١٥.

(٢) النجوم الزاهرة ١/٨٥، تاريخ الإسلام ٢/٧٩.

(٣) انظر مثلاً: ورقات ١/٧٧، الصراع المذهبي ١٨.

(٤) مما يدل على الانتشار المبكر للّغة العربية بين البربر وجود من أتقنها من البربر إلى حد أن قال بها شعراً غاية في الفصاحة، ذلكم هو سابق البربري المطماطي الذي وعظ عمر بن عبدالعزيز بقصيدة جاء في مطلعها: =

رضي الله عنه إلى أهل المغرب[1] وإذا صحّت هذه الرّواية فإنّ هذا المصحف يكون قد دخل إفريقيَّة إمَّا في غزوة ابن سَرْح الثّانية سنة ٣٣ هـ أو في غزوة ابن حُديج الأولى سنة ٣٤ هـ.

أمّا غزوة ابن حُديج الأخيرة سنة ٤٥ هـ فلا شكّ أنّها قد اهتمّت بالجانب العلميّ اهتماماً كبيراً، وذلك لطول مدّتها (حوالي ٤ سنوات كما تقدّم)، ولكثرة من كان فيها من الصّحابة، وظهرت نتائج النّشاط العلميّ في إقبال كثير من البربر على الإسلام فقد «ظهر الإسلام في البربر ثم عاد (ابن حديج) إلى مصر بعد أن خلّد آثاراً حسنة»[2]. غير أن الحياة العلميّة المركّزة لم تبدأ إلّا بعد تأسيس القَيْروان سنة ٥٠ هـ، فسرعان ما أصبحت القيروان مركز الحضارة الإسلاميّة بالمغرب وعاصمته العلميّة، منها انطلق الدّعاة وإليها رحل طلّاب العلم من الآفاق، وممّا رشّح القيروان لهذه المكانة ما يلي:

١ ـ إنّ إنشاء مدينة القيروان يعني أنّ إفريقيّة أصبحت ولاية إسلاميّة جديدة وجزءاً لا يتجزّأ من العالم الإسلاميّ الكبير، وبالتّالي سيعيش المسلمون فيها حياتهم العاديّة، وعلى رأسها التّعليم وبثّ الثّقافة الإسلاميّة، فإنّ القيروان مدينة رسالة، وعلى أهلها تُلقى مسؤولية نشر الإسلام في المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدّعاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام، وقد شعر الصّحابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها، فقد قالوا لعُقبة عندما أراد تحديد قبلة الجامع: «إنّ أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا الجامع فأجهد نفسه في تقويمه»[3].

= إن الأمور إذا استقبلتها اشتبهت ... وفي تدبّرها التّبيان والعبر
والمرء ما عاش في الدّنيا له أمل ... إذا انقضى سفر منها أتى سفر
انظر: المغرب العربي ٥١، الإكمال ٣٩٨/١.

(١) القراءات بإفريقيّة ٥٤، نقلاً عن رحلة العبدري ٦٥.
(٢) الاستقصاء ٧٨/١.
(٣) الرياض ١٢/١.

٢ ـ لقد تمّ بناء الجامع وهو المدرسة الأولى في الإسلام، ولا شك أنّ الصّحابة الذين كانوا في جيش عُقبة قد جلسوا للتّدريس فيه على النّمط الموجود في مدن المشرق آنذاك، فقد كان مع عُقبة أثناء تأسيس القيروان ثمانية عشر صحابيّاً[1] وقد مكثوا بها خمس سنوات كاملة كان عملهم فيها، ولا شكّ، نشر اللّغة العربيّة وتعليم القرآن والسّنّة في جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القَيْرَوان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلّب غياباً طويلاً عن القيروان، أمّا في غزوة عُقبة الثّانية فقد كان معه خمسة وعشرون صحابيّاً[2] وسائر جيشه من التّابعين، وقد انتشرت رواية الحديث النّبوي الشّريف في هذه الفترة، ممّا دعا عُقبة أن يوصي أولاده ومن ورائهم جميع المسلمين بتحرّي حديث الثّقات وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن[3] وسيأتي مزيد بيان لهذه الجوانب عند الحديث عن أثر الصّحابة في نشر السّنّة بالقيروان.

٣ ـ لقد استقطبت القَيْرَوان أعداداً هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلّم الدّين الجديد، قال ابن خلدون عند حديثه عن عُقبة: «فدخل إفريقيّة وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر في الإسلام ورسخ الدّين»[4]، ولا شكّ أنّ الفاتحين قد خصّصوا لهم من يقوم بهذه المهمّة.

ومن القيروان انتشر الإسلام في سائر بلاد المغرب، فقد بنى عُقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدّة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكراً في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام[5]، ومن قبله تألّف أبو المهاجر كُسَيْلَة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا في دين الله أفواجاً. ودعّم حسّان بن النّعمان جهود عُقبة في نشر الإسلام بين البربر، حيث خصّص

---

(١) البيان المغرب ١/٢٠. (٢) البيان المغرب ١/٢٣.

(٣) شجرة النور ٢/١٠٠، وانظر: الرياض ١/٣٤، المعالم ١/٤٨، الإصابة ٣/٨١.

(٤) تاريخ ابن خلدون ٤/١٨٦، وانظر البداية والنهاية ٨/٤٥.

(٥) البيان المغرب ١/٢٧.

ثلاثة عشر فقيهاً من التّابعين لتعليم البربر العربيّة والفقه ومبادىء الإسلام[1]، وواصل موسى بن نُصير هذه المهمّة حيث: «أمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن وأن يفقّهوهم في الدّين»[2] وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهاً لتعليم أهله[3].

٤ ـ كان كثير من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتّخذ بإفريقيَّة السّراري وأمّهات الأولاد، قال أبو العرب[6]: «روى بعض المحدّثين أنّ عبدالله بن عمر بن الخطّاب لمّا غزا مع معاوية بن حُدَيج كانت معه أمّ ولد له، فولدت له صبيّة من أمّ الولد وماتت، فدفنها في مقبرة قريش بباب سَلَم، فاتّخذتها قريش مقبرة يدفنون فيها لمكان تلك الصبيّة».

ومن هنا كان لا بدّ من الاهتمام بتعليم النّشىء المسلم مبادىء الإسلام واللّغة العربيّة ولذلك فقد نشأت الكتاتيب بالقيروان في وقت مبكّر جدّاً.

فقد رُوي عن غِيَاث بن شبيب أنّه قال: «كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمرّ بنا ونحن غلمة بالقَيْرَوان فيسلّم علينا ونحن في الكُتّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه»[5]، وكان سفيان بن وهب قد دخل القَيْرَوان مرّتين أولاهما سنة ٦٠ هـ أي بعد الانتهاء من تأسيس القَيْرَوان بخمس سنوات، والثّانية سنة ٧٨ هـ[6].

---

(١) انظر: الخلافة والخوارج ٣٨.
(٢) البيان ٤٢/١.
(٣) البيان ٤٢/١، تاريخ ابن خلدون ١٣٦/١.
(٤) طبقات أبي العرب ١٨.
(٥) الرياض ٩١/١، المعالم ١٥١/١، الإصابة ٥٦/٢، الاستيعاب ٦٦/٢، أسد الغابة ٣٢٣/٢.
(٦) انظر: الرياض ٩١/١.

٥ ـ إنّ الموقع الجغرافيّ لمدينة القيروان كان له دور كبير في إثراء الحياة العلميّة وإنعاشها، فقد كانت في موقع متوسّط بين الشّرق والغرب يمرّ بها العلماء والطّلبة من أهل المغرب والأندلس في ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون من علمائها[١]، وكثير منهم يصبح أهلاً للعطاء عند عودته فيسمع منه أهلها كما فعل بَقِيّ بن مَخْلَدَ المسند القُرْطُبيّ (٢٠١ - ٢٧٦) والمحدّث درّاس بن إسماعيل الفاسي (ت ٣٥٧)[٢] وغيرهما. كما كان يدخلها من كان يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق[٣].

٦ ـ لقد كانت التّجارة في القَيْرَوان رابحة والسّلع فيها نافقة، ولذلك أمّها كبار التّجّار من المشرق والمغرب وكثير منهم من المحدّثين والفقهاء، فكان ذلك عاملاً مهمّاً في إزدهار الحياة العلميّة بالقَيْرَوان فإنّ أبا عبدالرّحمٰن المقرىء المحدّث قدم إفريقيّة سنة ١٥٦ هـ وكيلاً لأحد التّجّار وسمع منه أهل القَيْرَوان[٤]، كما قدمها عبدالعزيز بن يحيى المدني سنة ٢٢٦ هـ وأتى معه بمسك يبيعه، وقد سمع منه محمد بن سَحنون وبشر كثير من أهل القَيْرَوان[٥]، بل من هؤلاء من تاجر بالكتب، فقد جلب أبو علي إسماعيل بن القاسم البغداديّ (ولد سنة ٢٨٨ هـ) إلى القيروان عدّة أحمال من الكتب في مطلع القرن الرابع، فباع كثيراً منها، وحمل ما تبقّى فباعه في بلاد الأندلس[٦].

٧ ـ وممّا أسهم في إثراء الحياة العلميّة كون القيروان آنذاك هي العاصمة السّياسيّة، ذلك أنّه كلّما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء

---

(١) انظر مثلاً: جذوة المقتبس ٧٩، ٨٥، بغية الملتمس ١٢٧، ٢١٤.
(٢) انظر: تاريخ ابن الفرضي ١/١٠٧، نيل الابتهاج ١١٦.
(٣) انظر: نفح الطيب ٣/١٣٤، بساط العقيق ٨٢.
(٤) انظر: طبقات أبي العرب ٨١.
(٥) ن. م ٧٨، وهو ضعيف جداً متهم بالكذب، انظر: التهذيب ٦/٣٦٣
(٦) انظر: فهرسة ابن خير ٣٩٥.

والأدباء، كما فعل يزيد بن حاتم (١٥٥ ـ ١٧٠)، ومنهم من كان يرسل في طلب العلماء والكتب النّادرة من المشرق كما فعل إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (١٦١ - ٢٨٩)[١].

كما كان كثير من المحدّثين والفقهاء يفدون إلى العاصمة الإفريقيّة ضمن الجيوش القادمة من المشرق، والتي استمرّ مجيئها إلى بعد منتصف القرن الثّاني، هذا بالإضافة إلى من كان يقصد الأمراء للمدح والتّسلية من أهل الشّعر والأدب.

٨ ـ وكان بُعد القيروان عن مركز الخلافة سبباً آخر لإثراء الفكر، إذ إنّها كانت ملاذاً أميناً لأولئك الذين لاحقتهم جيوش الخلافة بالمشرق وضيّقت عليهم، فقد شهد آخر القرن الأوّل ومطلع القرن الثّاني وفود عدة من الدّعاة إلى المذهب الخارجي من الإباضيّة والصُّفْرِيّة، كما كان بها عدد من المعتزلة وكان كلّ من هؤلاء يبثّ فكرة في مسجد عُقبة بالقيروان حتّى منعهم الإمام سَحنون[٢] لمّا تولّى قضاء القيروان سنة ٢٣٤ هـ. وبسبب وجود هذه النّحل المختلفة أثيرت كثير من المسائل الكلاميّة، وكثرت المناظرات، ونشطت كلّ فرقة في الرّدّ على غيرها، وألّفت في ذلك كتب عديدة، وكانت الصّولة والكلمة الأخيرة لأهل السّنّة والجماعة[٣].

٩ ـ كما أنّ القيروان اكتسبت نوعاً من الاحترام والتّعظيم باعتبارها البلد الذي أسّسه صحابة رسول الله ﷺ، وظهر بها على أيديهم كثير من الكرامات، واستقر بها بعضهم مدّة من الزّمن، وهي آخر ما دخله الصّحابة من بلاد المغرب.

كلّ هذه الأمور هيّأت القيروان لدور الرّيادة العلميّة بإفريقيّة والمغرب حتّى

---

(١) انظر: ورقات ١/١٦١، ٣٢٧.
(٢) انظر: المؤنس ٥، طبقات أبي العرب ١٠٢.
(٣) سيأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن الوضع الديني.

وصفها أبو إسحق بالجِبِنيَانِيّ بقوله: «القيروان رأس وما سواها جسد، وما قام بردّ الشّبه والبدع إلاّ أهلها، ولا قاتل وقُتل على إحياء السّنّة إلاّ أئمّتها»[1].

وقال ابن الشّبّاط[2]: «ولم يزل بها على الزّمان من العلماء والكتاب وذوي البراعة في المعارف والآداب من تزدان بأوصافه الأقطار وتشرق بأنوار كلامه الأسطار»[3].

وقد لهج المؤلّفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب في المجال العلميّ، من ذلك ما وصفها به مقديش بأنّها: «منبع الولاية والعلوم، فهي لأهل المغرب أصل كل خير، والبلاد كلّها عيال عليها، فما من غصن من البلاد المغربيّة إلاّ منها علا، ولا فرع في جميع نواحيها إلاّ عليها ابتنى، كيف لا ومنها خرجت علوم المذهب، وإلى أئمّتها كلّ عالم ينسب... ولا ينكر هذا خاصّ ولا عامّ، ولا يزاحمها في هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيّام»[4].

وهكذا أصبحت القيروان دار العلم بإفريقيّة، برز فيها كبار المحدّثين والفقهاء والقرّاء، ورحل إليها أهل المغرب والأندلس لطلب العلم، وقد نافح أهلها عن مذاهب السّلف فصارت دار السّنّة والجماعة بالمغرب.

---

(١) انظر: مناقب أبي إسحاق الجبنياني ٦٠، ٦١، حسن البيان ١٨٩.

(٢) أبو عبدالله محمد بن علي المصري ثم التوزري الإفريقي المعروف بابن الشباط أحد أعلام العلماء وصدور القضاة الفضلاء، له تآليف مفيدة (٦١٦ - ٦٨١)، الشجرة ١٩١/١.

(٣) المؤنس لابن أبي دينار القيرواني ٢٠.

(٤) حسن البيان للشيخ محمد النيفر ١٨٩.

٢ ـ الوضع السّياسيّ وأثره في الحياة العلميّة

لم يكن الوضع السّياسي بإفريقيَّة يسير على وتيرة واحدة، فقد تعاقب على حكم القَيْرَوان دول وأشخاص تباينت نزعاتهم، هذا بالإضافة إلى الفتن الخارجيّة والانتفاضات المتعدّدة التي عرفها هذا الإقليم، وقد كان لكلّ ذلك أثره الكبير في الحياة العلميّة بالقيروان خاصّة، وبإفريقيّة عامّة، كما سيتّضح من خلال هذه الدّراسة الموجزة.

ويبدأ الوضع السّياسيّ بعصر الفتوحات، وقد تقدّم الكلام عليه، ويليه عصر الوُلّاة.

أ ـ عصر الولّاة[1] (٩٦ ـ ١٨٤ هـ):

يطلق عصر الولاة على تلك الحقبة الزّمنيّة الواقعة بين انتهاء زمن الفتح

---

(١) انظر: أعمال الأعلام ٨ ـ ١١، الحلة السيراء ٢/٣٣٥ ـ ٣٤١، ٣٥٨ ـ ٣٦٢، الخلاصة النقية ١٢ ـ ٢٣، نهاية الأرب ٢٤/٥٣ ـ ٩٩، تاريخ الطبري ٤/٢٥٤، تاريخ المغرب العربي ١/٣٦٧ ـ ٣٧١، خلاصة تاريخ تونس ٦٣ ـ ٧٥، تونس والقيروان (بالفرنسية) ٩ ـ ١٦، الاستقصاء ١/١٠٠ ـ ١٣٦، الكامل ٤/٢٢٢ ـ ٢٢٤، ٢٧٨، ٥/٢٦، ٣١ ـ ٣٣، ٨٥، ٩٤ ـ ٩٦، ١٠٣ ـ ١٠٥، تاريخ الرقيق ٩٣ ـ ٢٠٥، النجوم الزاهرة ١/٢٤٥، ٢٩٤ ـ ٢٩٥، فتوح مصر وأخبارها ٢١٣ ـ ٢٢٥، العبر ٤/١٨٨ ـ ١٩٥، إتحاف أهل الزمان ١/٨٧ ـ ٩٢، المغرب الكبير ٢/٢٨٨ ـ ٣١٤، ٣٣١ ـ ٣٦٥، القيروان ٤٤ ـ ٥٤، الشجرة ٢/١٠٨ ـ ١١٢، تاريخ الإسلام ٥/٢٧ ـ ٣٦، بساط العقيق ٥٥ ـ٥٩، البيان المغرب ١/٤٧ ـ ٩٠، حسن البيان ١٧٩ ـ ١٩٤، ٢١١ ـ ٢٢٠، معالم تاريخ المغرب ٥٧ ـ ٧٧، المؤنس ٣٨.

وقيام الدّولة الأغلبيّة، وفي هذه الفترة كان حكّام القيروان يُعيَّنون من قبل الخليفة، ويمتدّ نفوذهم إلى المغرب والأندلس إلى أن استقلّ بالأندلس عبدالرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك سنة ١٣٧ هـ.

لقد امتازت بداية هذا العصر بوئام عجيب بين عرب الفتح وإخوانهم البربر المسلمين الذين أقبلوا في شغف على تعلّم الدّين الجديد، وانضمّوا إلى الجيش الإسلامي، وحدثت بينهم المصاهرات، وكثر بناء المساجد والكتاتيب في سائر بلاد إفريقيّة، وأخذ أهل مدنها يقلّدون العاصمة الإسلامية حتّى في طرازها المعماري، وانتشرت الثّقافة الإسلامية بين البربر، ولا غرابة في كلّ هذا فإنّ أوّل الولّاة وهو محمد بن يزيد القُرَشي (٩٦ - ٩٩) قد استقر في إفريقيّة بأحسن سيرة وأعدلها، وكان يقسم ما يصيبه من غنائم على المسلمين من البربر والعرب على السّواء[1] وبذلك نعم البربر بعدالة الإسلام، فكان لهذا التّصرّف أبعد الأثر في نفوسهم، وتدعّمت هذه السيرة الحسنة بقدوم إسماعيل بن أبي المهاجر (٩٩ - ١٠١) والياً من قبل الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز، فكان على قدم من أرسله «خير والٍ وخير أمير، وما زال حريصاً على دعاء البربر إلى الإسلام فأسلم بقيّة البربر على يديه»[2]، وكان إذا عاد من الغزو افترش ذراعه فنام عليه، وكان زاهداً متواضعاً من كبار العُبّاد، فأقبل عليه البربر المسلمون يسمعون منه حديث رسول الله ﷺ، وقد كان في روايته من الثّقات، أخرج له الجماعة إلّا التّرمذيّ[3]، ونظراً لاهتمام عمر بن عبدالعزيز بتدوين السّنّة وحرصه على نشرها فقد أرسل واليه ابن أبي المُهاجر ضمن عشرة من التّابعين، من ثقات رواة الحديث؛ لتفقيه أهل القَيْرَوان ونشر السّنّة في ربوع إفريقيَّة، وكانوا أهل علم وفضل اختطّ كلّ منهم داراً بالقَيْرَوان، وبنى مسجداً وكُتّاباً[4]؛ لتعليم البربر

---

(١) انظر: البيان المغرب ١/٤٧، المغرب الكبير ٢/٢٨٩، الاستقصاء ١/١٠٠.

(٢) تاريخ الرقيق ٩٧، وانظر: إتحاف أهل الزمان ١/٨٧، تاريخ ابن خلدون ٤/١٨٧.

(٣) انظر: تهذيب التهذيب ١/٣١٧، الكشاف ١/٧٦.

(٤) ورقات ١/٨٧.

وأبنائهم اللّغة العربيّة ومبادىء الإسلام، وقد وصف كل منهم بأنّه «انتفع به أهل إفريقيَّة وبثّ فيها علماً كثيراً»[1]، ولا شكّ أنّ المقصود بالعلم هنا علم الرّواية المتعلّق بالكتاب والسّنّة بصفة عامّة، سواء من ناحية أدائها إلى طلاّبها بالإسماع والإقراء وغيرهما، أو من ناحية تبليغ أحكامها المتعلّقة بالعقيدة والعبادات والمعاملات والإخلاق؛ إذ إنّ المذاهب الفقهيّة المحدّدة بالأئمة الأربعة وغيرهم لم تكن قد ظهرت بعد، وقد استقرّ هؤلاء التّابعون بالقَيْرَوان حتّى عُدّوا من أهلها، فقد اعتبرهم المالكيّ الطّبقة الأولى من علماء القَيْرَوان[2]، ومنهم من زادت إقامته بها على ثلاثين عاماً[3]، وهم في كلّ ذلك لا يفترون عن القيام بمهمّة نشر العلم بإفريقيَّة. إلا أنّ هذا التّوجّه لم يدم طولاً بسبب فساد سياسية الولاة التّالين، فما أن توفّي عمر بن عبدالعزيز سنة ١٠١ هـ حتّى سارع يزيد بن عبدالملك بعزل إسماعيل بن أبي المُهاجر، وتولية يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجّاج وصاحب شرطته[4]، وكان ظلوماً غشوماً أساء السّيرة في البربر، وأراد وَسْم حرسه في أيديهم، (وكان أكثرهم من مسلمي البربر)، كما تفعل ملوك النّصارى، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذّمّة، متّبعاً سيرة الحجّاج في أهل العراق، فنقم عليه البربر، واتّفق حرسه على قتله، وقالوا: «جعلنا بمنزلة النّصارى»[5]، فلم يلبث أن قتلوه وتولّى بعده بِشر بن صَفْوان الكَلْبِيّ (١٠٣ - ١٠٩) ثم عُبيدة بن عبدالرحمٰن السُّلَمِيّ (١١٠ - ٢١٤) فكان همّهما الغزو، ولم يُؤثَر عنهما اهتمام بالعلم، إلاّ أنّ الثّاني ظلم البربر وتعسّف في معاملتهم فحنقوا عليه.

---

(١) الرياض ١/١٠٠، وانظر: المعالم ١/١٨٠.

(٢) الرياض ١/٩٩.

(٣) مثل بكر بن سوادة الجذامي توفي بها سنة ١٢٨ هـ. جذوة المقتبس ١٩٦.

(٤) لما تولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة سمع أن يزيد خرج في بعض جيوش المسلمين فأمر بردّه وقال: «إني لأكره أن أستنصر بجيش هو منهم» الاستقصاء ١/١٠٢.

(٥) البيان المغرب ١/٤٨، وانظر عن سوء سيرته: تاريخ ابن خلدون ٤/١٨٧، النجوم الزاهرة ١/٢٤٥، الاستقصاء ١/١٠٢، ١٠٣، إتحاف أهل الزمان ١/٨٨.

ثمّ قدمها عُبيد الله بن الحَبْحَاب سنة ١١٦ هـ فأتمّ بناء جامع الزّيتونة، ودار الصّناعة بتونُس، وغزا صِقِلّيّة وجنوب الصّحراء إلاّ أنّه استجاب لمطامع رؤسائه بالمشرق فإنّهم كانوا يستحبّون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عمّال إفريقيّة. . . فيرسلون لهم البربريات السّنيّات، فلمّا أفضى الأمر إلى ابن الحَبْحَاب منّاهم بالكثير وتكلّف لهم، أو كلّفوه أكثر ممّا كان، فاضطرّ إلى التّعسف وسوء السّيرة[1] فظلم البربر المسلمين وكلّفهم مالاً يطيقون، وتعدّى على أموالهم، وأساء عمّاله السّيرة، وخاصّة عمر بن عبدالله المُرَادِي عامل طَنْجَة فإنّه «تعدّى في الصّدقات والعشر، وأراد تخميس البربر، وزعم أنّهم فيء للمسلمين، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله، وإنّما كان الولاّة يخمّسون من لم يجب إلى الإسلام، فكان فعله الذّميم هذا سبباً لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة»[2].

واشتدّ استياء البربر المسلمين من هذه الأفعال القبيحة، ورأوا التّناقض الصّارخ بين تعاليم الإسلام وبين سلوك هؤلاء العُمّال، وأصبحت عندهم قابليّة للتّمرّد، في الوقت الذي فشت فيه النّزعة الخارجيّة في إفريقيّة والمغرب، ونادى أصحابها بشعارات خادعة، ظاهرها فيه بعض الحقّ وباطنها ينطوي على شرّ عظيم، كالمساواة بين المسلمين ووجوب الخروج على الحكّام الظّلمة وغيرها، فصادف ذلك هوى في نفوس البربر، وتحمّس كثير منهم لما نادى به دعاة الخوارج، إلا أنّهم لم يعلنوا التّمرد والعصيان إلاّ بعد أن يئسوا من إمكانيّة تبليغ صوتهم بالشّكوى إلى الخليفة، ذلك ما ذكره الطّبَرِيّ حيث قال: «فمازالوا (بربر إفريقيَّة) من أسمع أهل البلدان وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبدالملك. . . فلما دبّ إليهم دعاة العراق واستثاروهم شقّوا عصاهم، وفرّقوا بينهم إلى اليوم»، وكان من سبب تفريقهم أنّهم ردّوا على أهل الأهواء فقالوا: «إنّا لا نخالف الأئمة، بما

---

(١) البيان المغرب ١/٥٢، وانظر: الخلافة والخوارج ٦٠.

(٢) البيان المغرب ١/٥٢، وانظر: فتوح مصر وأخبارها ٢١٧، تاريخ ابن خلدون ٤/١٨٩، الاستقصاء ١/١٠٦.

تجني العمّال، ولا نحمل ذلك عليهم»، فقالوا لهم: «إنّما يعمل هؤلاء بأمر أولئك». فقالوا لهم: «لا نقبل ذلك حتّى نبورهم (أي نختبرهم)»، **فخرج مَيْسَرَة** (المطْغرِيّ، زعيم الصُّفَرِيّة) في بضعة عشر إنساناً حتّى يقدم على هشام، **فطلبوا** الإذن، فصعب عليهم، فأتوا الأَبْرَش (وزير هشام بن عبدالملك) فقالوا: **«أبلغ** أمير المؤمنين أنّ أميرنا يغزو بنا وبجنده فإذا أصاب نفلهم دوننا» وقال: **«تقدّموا** وأخّر جنده» فقلنا: «تقدّموا فإنّه ازدياد في الأجر ومثلكم كفى إخوانه... ثم إنّهم عمدوا إلى ماشيتنا فجعلوا يبقرونها على السّخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين فاحتملنا ذلك، ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سُنَّة ونحن مسلمون، فأحببنا أن نعلم عن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا؟» قال: «نفعل» فلما طال عليهم ونفدت نفقاتهم... كان وجههم إلى إفريقيَّة فخرجوا على عامل هشام فقتلوه واستولوا على إفريقيَّة...»[1].

وهكذا اندلعت بإفريقيَّة، والمغرب ثورات لا نهاية لها، ابتدأت سنة ١٢٢ هـ، وهي أوّل ثورة في إفريقيَّة في الإسلام[2]، وتضافرت جهود الإبَاضِيَّة والصُّفْرِيَّة للإطاحة بحكومة القيروان، وأصبح هَمّ الخليفة بالمشرق القضاء على هذه الثّورات فكان يرسل الجيش تلو الآخر، وقد ذكروا أنّ هذه الحروب منذ أن استعرت إلى أن تمّ القضاء عليها، في عهد يزيد بن حاتم سنة ١٥٦، بلغت ٣٧٥ موقعة[3] ذهب ضحيّتها آلاف القتلى، وقد شارك فيها العلماء مقاتلين وواعظين، فقد استنجد حَنْظَلَة بن صَفْوَان بمن تبقّى من بعثة عمر بن عبدالعزيز لمّا ثارت

---

(١) تاريخ الطبري ٢٥٤/٤، ٢٥٥، وانظر الاباضية بالجريد لصالح باجية نقلاً عن الكامل لابن الأثير ٤٥/٣.

(٢) البيان المغرب ٥٢/١، تاريخ الرقيق ١٠٩.

(٣) ابن خلدون ١١٣/٦.

عليه الخوارج[1]، وقد دامت هذه الحروب أكثر من ثلاثين سنة تمكّن الخوارج خلالها من الاستيلاء على القيروان مرّتين، حيث استولى عليها الصُّفْرِيَّة سنة ١٤٠ هـ لمدّة سنة وشهرين، وقد ربطوا دوابّهم في المسجد الجامع وقتلوا كلّ من كان فيها من قريش وعذّبوا أهلها. . .[2] ثم وليها بعدهم الإباضيّة لمدة سنتين[3].

وقد تسبّبت هذه الحروب في تعطيل الحركة العلميّة وانشغال النّاس عن الطّلب، حتّى قال الإمام سَحنون عن هذه الفترة: «كان من يعمل العلم يبقى في صدره لا يسألونه عنه فيموت به مثل عبدالرحمٰن بن زياد بن أَنْعُم (ت ١٦١) بقي العلم في صدره لا ينشر عنه ولا يعرف»[4]، ومع ذلك فقد وجد من اهتمّ بطلب العلم من أهل إفريقيَّة وبرع فيه منذ هذا الوقت المبكّر إلا أنّهم قلائل مثل: جَميل بن كُرَيْب المَعَافِرِيّ (ت ١٣٩)[5]، وزيد بن الطُّفَيْل الذي كان يرأس في هذا العهد حلقة عظيمة بجامع عُقبة[6]، وعبدالرحمٰن بن زياد (ت ١٦١)[7]، وعبدالله بن فَرُّوخ (١١٥ ـ ١٧٦) الذي رحل إلى المشرق قبل سنة ١٤٥ هـ[8] وبرع في الحديث والفقه ثمّ عاد إلى القيروان «فأقام بها يعلّم النّاس العلم، ويحدّثهم بسنّة رسول الله ﷺ حتى انتفع به كثير»[9].

---

(١) تاريخ الرقيق ١٢٠، الرياض ١/١٠٣، وقد استشهد أبو كريب قاضي القيروان وجماعة كثيرة من العلماء في قتال الصفرية سنة ١٣٩ هـ (المعالم ١/٢٢٩).

(٢)، (٣) البيان المغرب ١/٧٠ ـ ٧١.

(٤) أبو العرب ١٠٠.

(٥) انظر: الرياض ١/١٦٨، المعالم ١/٢٢٤.

(٦) انظر: الرياض ١/١٧٢، تاريخ قضاة القيروان خط ٣.

(٧) انظر: ترجمة رقم ١٦ في المحدثين.

(٨) لأنه روى في هذه الرحلة عن هشام بن عروة المتوفّى في هذه السنة أو التي تليها. انظر: التهذيب ١١/٤٨.

(٩) المعالم ١/٢٣٩، الرياض ١/١٧٧.

وفي أوّل عهد يزيد بن حاتم (١٥٥ ـ ١٧٠) «ركـدت ريح الخـوارج من البربر وتداعت بدعتهم إلى الاضمحلال»[١] فالتفت إلى النّاحية العمرانيّة، ورتّب أسواق القيروان، وأفرد لكلّ صناعة مكاناً، وجدّد بناء الجامع، وانتعشت الحياة العلميّة في عهده[٢]؛ لطول فترة حكمه، مع الهدوء والاستقرار وقلّة الحروب، وكذا الحال في عهد خلفه، إلاّ ما كان من ثورة بعض الجند وخاصّة في عهد محمد بن مُقَاتِل العَكِّيّ (١٨١ ـ ١٨٤) الذي كان سيّىء السّيرة حتّى إنّه ضرب عابد القَيْرَوان البُهلول بن راشد (ت ١٨٣) وحبسه ظلماً[٣]، ولمّـا اختلّت عليه الأمور عزله هارون الرّشيد سنة ١٨٤ هـ، وبذلك انتهى عصر الولاّة ليبدأ العهد الأغلبي كما سيأتي.

وفي الحقبة الأخيرة من هذا العصر نشطت الرّحلة إلى المشـرق[٤] وعاد الطّلاب الأفارقة بعلم مالك (ت ١٧٩)، وغيره من كبار محدّثي المشرق كسفيان الثّوري (ت ١٦١) واللّيث بن سعد (ت ١٧٥)، ودخل موطّأ الإمام مالك، وبذلك ازدهرت الحياة العلميّة من جديد، وفشت في القيروان روايـة الحديث، وكثـر العلماء والفقهاء، فعن ابن غانم (ت ١٩٠) أنّه «انصرف يوماً من جامع القَيْرَوان بعد صلاة الجمعة، فسأل بعض أصحابه: حضرت اليوم الجامـع؟ قال: نعم، قال: كيف رأيت؟ قال: رأيت، أصلحك الله، به سبعين قلنسوة تصلح للقضاء، وثلاثمائة قلنسوة فقيه، فترجّع ابن غانم وقال: مات النّاس»[٥]. كما امتازت هذه الفترة الأخيرة بعزة القضاة وقيامهم بالحقّ والعـدل، حتّى إنّ منهم من انتصف للرّعيّة من الوالي نفسه[٦].

---

(١) الاستقصاء ١/١٣٣، العبر ٦/١١٣.
(٢) انظر: تاريخ المغرب العربي ١/٣٦٧، ورقات ١/١٦٢.
(٣) البيان المغرب ١/٨٩.
(٤) سيأتي تفصيل ذلك في فصل الرحلة.
(٥) المعالم ٣/١٨، وانظر: بساط العقيق ٥٧.
(٦) انظر: تاريخ قضاة القيرْوان خط ٦، ٧.

ب ـ الدّولة الأغلبيّة[1] (١٨٤ ـ ٢٩٦):

نظراً لكثرة الفتن والانتفاضات في إفريقيَّة، كما تقدّم، لم تجد حكومة الخلافة بدّا من أن تعهد بحكم البلاد لعائلة من عرب إفريقيَّة، تكفيهم مؤونة تلك الفتن التي طالما شغلتهم، ويكون لها حرّيّة التّصرف داخل البلاد، مع التبعيّة لدولة الخلافة، فكان أن كلّف الرّشيد بهذه المهمّة إبراهيم بن الأغلب بن سالم التَّمِيميّ (١٨٤ ـ ١٩٦)، الذي كان يتمتّع بشجاعة نادرة، وثقافة عالية، بالإضافة إلى معرفته بشؤون إفريقيَّة، فإنّ أباه الإغْلَب قد تولّى حكم القَيْرَوان (١٤٨ ـ ١٥٠)، كما كان هو عاملاً على الزَّاب[2].

لقد دامت الدّولة الأغلبيّة بإفريقيَّة ما يزيد عن قرن من الزّمان، يعتبر من أزهى عصور هذه البلاد في المجال العلميّ، وفي مجال الحضارة والعمران والأمن والاستقرار.

فقد تخلّصت هذه الدّولة من فتن الخوارج، حيث أسّس الصُّفْرِيَّة دولتهم بِسِجلْمَاسَة[3] (١٤٠ ـ ٢٩٦)، وأسس الإبَاضِيَّة دولتهم بتِيهَرْت الجديدة[4] (١٦١ ـ

---

(١) البيان المغرب ١/٩٠ ـ ١٣٨، إتحاف أهل الزمان ١/١٠٢ ـ ١١٩، خلاصة تاريخ تونس ٧٨ ـ ٩١، العبر ٤/١٩٦ ـ ٢٠٦، نهاية الأرب ٢٤/١٠٠ ـ ١٥٣، الشجرة ٢/١١٨ ـ ١٢٢، الكامل ٥/١٠٤ ـ ١٠٥، ١٤١، ١٨٤ ـ ١٨٦، ٢١٥، ٢٥٢.
الخلاصة النقية ٢٤ ـ ٣٥، الحلة السيراء ١/١٦٣ ـ ١٧٩، أعمال الأعلام ١٤ ـ ٤٥، تونس والقيروان (بالفرنسية) ١٦/٢٨، تاريخ المغرب العربي ٢/٢٧ ـ ١٨٣، تاريخ الرقيق ٢١٢ ـ ٢٣٣، الدولة الأغلبية للطالبي (كاملاً)، المجتمع التونسي على عهد الأغالبة ١٩ ـ ٢١، القيروان للجنحاني ٦٥ ـ ٨٠، مقدمة طبقات أبي العرب مح ٧ ـ ١٢، معالم تاريخ المغرب ٨٣ ـ ١٠٠، ذكرى المازري ٥٤، الحياة الاجتماعية ١٣٢ ـ ١٣٧، رسالة افتتاح العدوة ١٤٦ ـ ١٤٨.

(٢) الزَّاب: إقليم بالمغرب الأوسط يشمل عدة مدن منها بِسِكْرَة وتَوْزَر وقُسَنْطِينَة وطَوْلَقَة وغيرها، انظر: معجم البلدان ٣/١٢٤.

(٣) انظر: البيان ١/٣١٧، الخوارج في بلاد المغرب ١١٢.

(٤) انظر: البيان المغرب ١/٣١٧، الخوارج في بلاد المغرب ١٤٤.

٢٩٧)، واهتمّت كلّ من الدّولتين بشؤونها الدّاخليّة، ومالتا إلى السّلامة غالباً، إذا استثنينا بعض المحاولات الفاشلة التي لم تشكّل خطراً على الأغالبة، إلا أنّ نوعاً آخر من الثّورات عرفه العهد الأغلبيّ، وقد تمثّل في الثّورات المتتالية التي قام بها قادة الجند، الذين رأوا لأنفسهم حقّاً في مشاطرة الأغالبة الحكم، وكان منبت هذه الثّورات في تونُس غالباً، وأحياناً في طَرَابُلُس، وأخطرها ثورة عمران بن مُجَالِد الرَّبَعِيّ سنة ١٩٤ هـ، وهو قائد إبراهيم بن الأغلب ووزيره، وقد تمكّن من الاستيلاء على القيروان لمدّة سنة كاملة قبل أن ينجح إبراهيم في إخماد ثورته، كما ثار على زيادة الله بن إبراهيم (٢٠١ ـ ٢٢٣) كبير قادته منصور بن نصر الطُّنْبُذِيّ سنة ٢٠٩ هـ، وتمكّن من السّيطرة على معظم إفريقيَّة، واستولى قادة الجيش على المدن، ولم يتمكّن زيادة الله من إعادة الأمور إلى نصابها إلاّ بعد أربعة أعوام (سنة ٢١٣ هـ).

وأمّا الثّورات الأخرى فلم تكن ذات بال، وبذلك تمكّن أمراء الأغالبة من تمهيد البلاد، واهتمّوا بالغزو الخارجي ففتحوا صِقِلّيَّة (٢١٢ هـ)، ومَالِطَة، وسَرْدَانِيَة وسَرَقُوسَة (٢٦٤ هـ) حتّى وصلوا إلى رُوما[١]، كما اعتنوا بالنّاحية العمرانيّة، فأسّسوا عدّة مدن كالعبّاسيّة (١٨٥ هـ)، ورَقَّادَة (٢٦٣ هـ)، وبنوا المحارس والحصون وقصور الرّباط ومواجل المياه.

وقد وُصف عامّة أمراء الأغالبة الأحد عشر بحسن السّيرة، والإحسان إلى الرّعيّة[٢]، إلاّ ما كان من عبدالله بن إبراهيم (١٩٦ ـ ٢٠١) الذي فرض العشر مالاً عوض أن يكون حَبّاً، فسخط عليه النّاس، ورفضه الفقهاء، ودعوا عليه فمات بسبب دعوتهم[٣]، ويمثّل عصر الاستبداد في العهد الأغلبي: إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٦١ ـ ٢٨٩)، فقد فسد فكره بعد مدّة من حكمه، وأتى

---

(١) ورقات ٢/١١٤.

(٢) انظر مثلاً: العبر ٤/٢٠١، إتحاف أهل الزمان ١/١٠٤، ١٠٧، الكامل ٥/٢٥٣، ٢٦٣.

(٣) انظر: العبر ٤/١٩٧، البيان المغرب ١/٩٦.

بمنكرات لا يفعلها عاقل، منها أنّه قتل ابنه وبناته الستّ عشرة، وثلاثمائة من خدمه، كما قتل كُتَّابه وحُجَّابه وثمانية من إخوته، وله طرق بشعة في القتل كالخنق، والطّرح في النّار، أو البناء على المعاقَب حتّى يهلك جوعاً وعطشاً، وكان يمارس القتل شهوة وبطراً، ويعتبر عهده بداية النّهاية للدّولة الأغلبيّة خاصّة بعد ما أوقع ظلماً بسبعمائة من رجال قلعة بَلْزَمَة، وكانوا أولي بأس شديد في الدّفاع عن الدّولة، وبقتلهم انفتح الطّريق أمام داعي الشّيعة الإسماعيليّة لدخول القيروان[1].

وثارت أطراف البلاد على ظلم إبراهيم[2]، في الوقت الذي بدأت تظهر فيه دعوة الشّيعة الإسماعيليّة بين قبائل البربر، فأعلن إبراهيم التّوبة، وتخلّى عن الملك لابنه أبي العبّاس عبدالله (٢٨٩ ـ ٢٩٠) الذي لم يحكم إلّا سنة واحدة؛ إذ قتله بعض خدمه، فتولّى بعده ابنه زيادة الله الثّالث (٢٩٠ ـ ٢٩٦) خاتمة أمراء الأغالبة، وقد استهلّ عهده بقتل جميع أعمامه، حتّى عمّه الزّاهد السّاكن بقصر سُوسَة، كما استدعى أخاه أبا عبدالله الأَحْوَل الذي كان يقاتل أبا عبدالله الشّيعي في الزّاب، وقتله ساعة وصوله، فكان ذلك أعظم فتح عند الشّيعيّ الذي بدأ يتقدّم نحو عاصمة الأغالبة.

ولمّا رأى زيادة الله الخطر محدقاً به لم يجد بداً من التّودد إلى العامّة والاستنصار بالعلماء، فعزل قاضيه المعتزلي الذي اضطهد أهل السّنّة وأبدله بحِمَاس بن مَرْوان الفقيه المالكي (٢٩١ ـ ٢٩٣)، وكتب إلى النّاس «إنّي عزلت عنكم الجافي الجلف المبتدع المتعسِّف. ووليّت القضاء حِمَاس بن مَرْوان لرأفته ورحمته وطهارته وعلمه بالكتاب والسّنّة». كما أرسل إلى العلماء وقال لهم: «إنّ هذا الصنّعاني الخارج علينا مع كُتَامة يلعن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ويزعم أنّ أصحاب النّبيّ ﷺ ارتدّوا بعده، ويسمّي أصحابه المؤمنين ومن يخالفه في

---

(١) انظر: أعمال الأعلام ٢٧، العبر ٤/٢٠٤، تاريخ المغرب العربي ٢/١١٣.
(٢) إتحاف أهل الزمان ١/١١٥.

مذهبه الكافرين، ويبيح دم من خالف رأيه». فأظهر الفقهاء لعنه والبراءة منه وحَرَّضوا النّاس على قتاله[1]؛ لعلمهم بما ينطوي عليه مذهبه من التّعطيل والإباحيّة والعداوة للإسلام.

وقد بذل زيادة الله أموالاً طائلة لتجهيز الجيوش التي أرسلها لمحاربة أبي عبدالله ثم عكف على شهواته، وفي حين كان الشيعي يحتل البلاد مدينة بعد مدينة، كان زيادة الله «قد أقبل على اللّذّات واللّهو ومعاشرة المضحكين وأهمل أمور الملك»[2] ولم ينتبه من غفلته إلا على نبأ سقوط مدينة الأُرْبُس، وهي آخر معقل يحميه من الشّيعة، فجمع ما خفّ من أمواله، وهرب ليلاً إلى مصر في خاصّته، وترك أهل إفريقيَّة نهباً للطّمع الباطنيّ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ، وخراب الملك نتيجة طبيعيّة للظّلم وسفك دماء الأبرياء، فإنّ الظّلم من أهمّ العوامل المعجّلة بزوال السّلطان، والمؤدية إلى أوخم العواقب في الدّنيا والآخرة.

أمّا عن الحياة العلميّة فإنّها شهدت في عهد الأغالبة ازدهاراً كبيراً، لطول عمر هذه الدّولة، وما شهدته من الاستقرار، بالإضافة إلى أنّ مؤسّسها قد طلب العلم في أولّ حياته وسمع من اللّيث بن سعد وغيره[3]، وكان حافظاً للقرآن يلي الصّلاة في الجامع الأعظم بنفسه[4]. فكان يعرف حقّ العلم وأهله، أمّا خلَفه فلم يكن لهم مثل ثقافته واهتمامه، إلاّ أنّهم كانوا يفزعون إلى العلماء عند الحاجة، ويعقدون في دواوينهم مجالس المناظرة والمذاكرة[5]، كما كانوا يقومون بزيارة دور العُبّاد والعلماء والكتاتيب في المناسبات المختلفة[6]، وكان الأمراء الأغالبة يميلون

---

(١) البيان المغرب ١/١٣٦، ١٣٧.
(٢) العبر ٤/٢٠٥، وانظر: البيان المغرب ١/١٤٣، الكامل ٦/١٢٣.
(٣) سير أعلام ٩/١٢٩، وانظر: شهيرات ٣٨، ورقات ١/٨٣.
(٤) إتحاف أهل الزمان ١/١٠٤.
(٥) انظر: الرياض ١/٢٧٦، ٢٨٧، ٢٨٨، ٤٨٩، ط أبي العرب ٨٨، ط الخشني ٢٣٧.
(٦) انظر: الرياض ١/٤١١.

إلى مذهب الحنفيـة، لما فيه من الرّخص والتّسهيل لهم، بالإضافة إلى أنّه كان المذهب الرّسميّ للدّولة العبّاسيّة، وكان هذا ممّا أحدث نفرة شديدة بين علماء المالكيّة وبين الأمراء.

ولمّا حدثت في بغداد محنة القـول بخلق القرآن دعـا إليها بعض أمـراء القَيْرَوان، وكتبوا السّجلّات بذلك وقرئت على المنـابر[1]، وامتُحن بسببهـا كبار علماء القَيْرَوان مثل: موسى بن معاوية الصُّمَادِحِيّ، وأحمد بن يزيد وهما من جلّة محدّثي القَيْرَوان[2]، كما امتحن بسببها الإمام سَحنون فاختفى «ثم جيء به إلى ابن الأغلب فجمع له القوّاد والوزراء والقاضي ابن أبي الجَواد (وهو حنفيّ أظهر الاعتـزال ت ٢٣٤) وقال لـه: ما تقـول في القرآن؟ فقـال سَحنون: أصلح الله الأميـر، أمّا شيء أبـدأ به من نفسي فـلا، ولكن الـذي سمعت ممّن تعلّمت منـه وأخذت ديني عنه، فهم كانوا يقولون: إنّ القرآن كلام الله وليس بمخلوق. فقال ابن أبي الجَواد: إنّه قد كفر فاقتله ودمه في عنقي، وقال مثل ذلك نصر بن حمزة القائد وغيره، فقال لداود بن حمزة: ما تقول يا داود فقال: أصلح الله الأمير، قتله بالسّيف راحة له، ولكن اقتله قتل الحياة: يُؤخذ عليـه الحُمَلاء (أي الكُفَـلاء) وينادَى عليه بسماط القيروان أن لا يفتي ولا يسمع أحداً ويلزم داره، ففعل ذلك أبو جعفر وترك قول من أشار عليه بقتله»[3]، وهكذا كانت محنـة القول بخلق القرآن سبباً في اختفاء كثير من علماء القيروان، ومنعهم من التّدريس والإفتاء.

وكان أكثر أمراء الأغالبة يميلون إلى تعيين القضاة الحنفيّة، وهؤلاء غالباً ما ينكّلون بالعلماء المدنيّين، مثل محمد بن عبدون الذي «امتحن على يديه جماعة من الفقهاء المالكيّة وأهل السّنّة، وضربهم ونكّل ببعضهم وأطلقهم، وأغرى الأمير

---

(١) المحن ٤٥٤، الحلل ٧٩٢/٣/١، المدارك ٢٢٢/٣.

(٢) ستأتي ترجمتاهما في المحدثين رقم ٣٨ ورقم ٣.

(٣) المحن ٤٥٦.

ببعضهم فقتل منهم..»[1] وقد قال الأمير إبراهيم بن أحمد بعد أن عزله: «لو ساعدته لجعلت له مقبرة على حدة»[2].

وفي المقابل كان علماء المالكيّة يرفضون كلّ عرض وظيفيّ من الأمراء متأسّين في ذلك بما فعله الإمام مالك من البعد عن السّلطان؛ توقيراً للعلم ورفعاً لشأنه، ومن قبل منهم القضاء إنّما قبله بعد أن أدير عليه مدّة طويلة، وبعد أن اشترط شروطاً استوثق معها قيامه بالعدل كما فعل الإمام سَحنون وعيسى بن مسكين وغيرهما[3].

فلم يكن الازدهار العلمي في تلك الفترة إذن ناتجاً عن تشجيع من الأمراء الأغالبة، إنّما كان سببه حرص العلماء ومقدرتهم على الاستفادة من الظّروف المتاحة لهم لنشر العلم، ونحن إذا استثنينا مسألة القول بخلق القرآن، نجد أنّ حكومة القيروان لم تكن تتدخّل في الحياة العلميّة بدليل أنّ حلقات الإباضيّة والصُّفريّة والمعتزلة كانت تعقد في جامع عُقبة لمدّة نصف قرن في العهد الأغلبي، ولم يمنعها أحد حتى جاء الإمام سَحنون فشرّدهم[4].

وفي عهد الأغالبة استقرّ المذهبان: المالكيّ والحنفيّ، ونشطت الحياة المسجديّة، وكثر العلماء وتكثّفت الرّحلة إلى المشرق، وبدأت المصنّفات الحديثيّة تدخل القَيْرَوان، كما سيأتي تفصيله، مثل جامع سفيان الثَّوري[5]، وأقبل أهل القيروان على التّصنيف، فصنّف يحيى بن سلاّم (ت ٢٠٠) تفسيره وجامعه في الحديث، ورتّب الإمام سَحنون المدوّنة وذيّل مسائلها بالأحاديث، وصنّف

---

(١) المدارك ٣/٢٣٣.　　(٢) ط الخشني ١٨٧.

(٣) انظر مثلاً: المعالم ٢/٨٤، المدارك ٣/٢١٤، وراجع تاريخ قضاء القيروان للجودي خط ٢٢.

(٤) انظر: المؤنس ٥٠، ورقات ١/٧٣.

(٥) ط أبي العرب ٥٢، وانظر: فصل الرحلة في هذه الرسالة ص ١٤٣.

محمد بن سَحنون شرحاً على الموطّأ ومسنداً في الحديث، وغير ذلك[1]. كما امتلأت الحصون والمحارس بالعلماء والعُبَّاد المرابطين، فقد بنى الأغالبة أكثر من ثلاثين ألف معقل[2]. وبهذا تكاملت جوانب الحياة العلميّة بالقيروان وأصبحت قادرة على مواجهة الخطر الباطنيّ الذي حلّ بساحتها بعد ذلك، كما سيأتي.

جـ ـ الشّيعة الإسْمَاعِيليَّة بالقَيْرَوَان[3] (٢٩٦ ـ ٣٦٢):

ينتمي العُبَيْدِيُّون[4] إلى الطَّائفة الإسماعيليَّة من الـرّافضة، وهم القـائلون بإمامة إسماعيـل بعد أبيـه جعفر الصّـادق، رغم اتّفاق أهـل التّاريـخ على وفاة

---

(١) سيأتي التوسع في ذلك عند الحديث عن المصنفات.

(٢) انظر: سير أعلام ١٣/٤٨٨.

(٣) انظر: البيان المغرب ١/١٢٤ ـ ٢١٠، ٢١٥ ـ ٢٢٨، حسن البيان ٢٢٩ ـ ٢٣٣، المغرب الكبير ٢/٥٩٣ ـ ٦٣٧، الخطط ٢/٨ ـ ٢٨، ٣٠٣ ـ ٣٠٥، تاريخ عجائب الآثار ١/٢٦، الكـامل في التـاريخ ٦/١٢٧ ـ ١٣٥، ٦/١٥١، ١٦٠، ١٩٠، ٢٣٨، ٣٠٥، ٣١١، المؤنس ٥٤ ـ ٦٥، الشجـرة ٢/١٢٢ ـ ١٢٣، معـالم تـاريـخ المغـرب ١١٩ ـ ١٣٦، القيروان ٨٣ ـ ٩٧، تاريخ المغرب العربي ٢/٥٣٥ ـ ٥٧٧، أعلام ابن عاشور ٣٩ ـ ٤٤، الاستقصاء ١/٦٠، الرياض ٢/٤١ ـ ٤٥، ٢/٥٩ ـ ٨٧، ٢٩٢، ٢٩٧ ـ ٢٩٩، ٣٣٨، ٣٣٩، الفرق الإسلاميـة ٢٠٠، ٢٠١، إتحاف أهـل الزمـان ١/١١٧ ـ ١٣٩، الوضـع الاجتمـاعي لابن حمدة ١٤٠ ـ ١٥٥، الصـراع المذهبي ١٦٧ ـ ١٩٣، ٢٠٣ ـ ٢١١، أعمال الأعلام ٤٦ ـ ٦٥، الحلة السيراء ١/١٩٠ ـ ١٩٦، ٢/٣٨٧ ـ ٣٩٣، الخلاصـة النقية ٣٥ ـ ٤٢، النجوم الزاهرة ٣/١٦٨ ـ ١٧٧، الإباضية بالجريد ١٢٠، ١٢٣ ـ ١٢٥، المـدارك ٣١٨ ـ ٣٢١، ط الخشني ٢١٥، ٢٢٥ ـ ٢٢٦، رسالـة افتتاح الـدعوة ٦٢ ـ ٢٧٤، الفكر السامي ٢/١٤٨، رحلة التجاني ٢٦٦، العبر ٤/٢٨ ـ ٤٩، البداية والنهاية ١١/١٧٩، ٣٤٥، مقـدمة ابن خلدون ٢١ ـ ٢٣، مـوقف متصوفـة إفريقيـة (كامـلاً)، المازري ٧ ـ ١٥، اتعاظ الحنفـاء ٥٥ ـ ١٠١، المغرب العـربي ١٦٦ ـ ١٧٤، مرحلة التشيع في المغرب العربي ١٧ ـ ٥٨.

(٤) نسبة إلى عبيد الله الذي لقب نفسه بالمهدي، أول ملوك الرافضة بإفريقية.

إسماعيل في حياة أبيه، ويعتبرون أنّ عُبْيد الله صاحب إفريقيَّة رابع أئمّتهم المستورين[1].

ويُلقَّبون بالبَاطِنيَّة[2] والرَّافضة، ويسمّون الملاحدة؛ لما في مقالاتهم من الإلحاد، كما سُمّوا بالمشارقة لقدومهم من المشرق[3].

وينتسب عُبَيْد الله، أوّل ملوك هذه الطّائفة، إلى آل البيت زوراً وبهتاناً، فالصّحيح أنّه دَعِيّ في نسبه، وأنّه من ولد عبدالله بن ميمون القدّاح[4] وقد كانت هذه الحقيقة شائعة في أوّل أمرهم بإفريقيَّة ومصر والحرمين[5] بما لا يدع مجالاً للشّكّ واللّبس.

أمّا عن دعوتهم في المغرب فإنّه لمّا وقعت مطاردة الرّوافض في المشرق أخذوا يبثّون دعاتهم في الأمصار البعيدة عن يد الخلافة، فكلّفوا بأمر المغرب أحد دهاتهم المسمّى أبا عبدالله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريّاء الصَّنْعَانِيّ، وقد تعلّم طرق الدّعوة في اليمن ثم اتّصل بحجيج كُتَامَة[6]، فخدعهم بالحديث

---

(1) انظر: العبر ٣٠/٤. (2) الفرق بين الفرق ٦٣.

(3) رسالة افتتاح الدعوة ٩٣.

(4) أحد كبار مؤسسي الفكر الباطني، انظر: الفرق بين الفرق ٢٢.

(5) انظر: الكامل في التاريخ ٢٦٣/٧، البيان المغرب ٢٨٢/١، وراجع عن بيان كذبهم في الانتساب إلى آل البيت: المنار المنيف ١٥٣، سير أعلام ١٨٤/٥، تعزية أهل القيروان نقل عنه ابن عذارى ٢٨٢/١، الإعلان بالتوبيخ ٨، البداية والنهاية ١٧٩/١١، النجوم الزاهرة ٧٥/٤، وصنف أبو بكر الباقلاني كتاباً سماه «كشف الأسرار وهتك الأستار» فضح فيه ادعاءهم، كما ألف في ذلك بعض الشيعة المعاصرين لهم، انظر: اتعاظ الحنفاء ٢٢.

ومِمن دافع عن صحة نسبهم: ابن خلدون في المقدمة ٢١، والتاريخ ٧/١، ٣١/٤، والمقريزي في اتعاظ الحنفاء ٢٢، ولم يستدلا بما يفضي إلى الركون إلى رأيهما.

(6) كتامة: من أكبر قبائل البربر في المغرب، وعليهم قامت دعوة الرافضة فيه، انظر: الشجرة ١٠٥/٢، البيان المغرب ١٢٤/١.

عن حبّ آل البيت حتّى ألحّوا عليه في مصاحبتهم إلى بلادهم، فأظهر التّمنّع أوّلاً ثم وافقهم بعد أن علم من أوضاع بلادهم ما شجّعه. وفي كُتَامَة أظهر دعوته والتفّ النّاس حوله، ووقعت بسببه فتن كاد يهلك فيها، ثمّ قوي أمره وقصدته قبائل البربر من كل فج، فبدأ يحتلّ بلاد المغرب بلداً بلداً، وفي أثناء ذلك دخل عُبَيد الله المغرب متخفّياً وعيون الخلافة تلاحقه حتى سُجن في سِجِلْمَاسَة، وبعد حروب دامت أكثر من خمس سنوات تمكّن أبو عبدالله من طرد الأغالبة، ودخل القيروان سنة ٢٩٦ هـ، ثم أخرج عُبَيد الله من سجنه بِسِجِلْمَاسَة، ودخلا معاً عاصمة إفريقيّة سنة ٢٩٧ هـ، وبذلك بدأ عهد الاضطهاد الذي عاشه أهل السّنّة تحت الاحتلال العُبَيْدي، وقد استمر حكم الإسماعِلِيّة بإفريقيّة والمغرب ستّاً وثمانين سنة كرّسوا فيها كلّ جهودهم لإماتة السّنّة ونشر البدع، ومنع العلم، مستعملين في سبيل ذلك أخسّ الوسائل، فتعرّض النّاس في عهدهم لظلم عظيم، وضيق شديد، وكان علماء السّنّة من قُرّاء ومحدّثين وفقهاء لهم بالمرصاد، جاء في المعالم[1]: «جزى الله مشيخة القيروان خيراً، هذا يموت، وهذا يضرب، وهذا يسجن، وهم صابرون لا يفرّون ولو فروا لكفرت العامّة دفعة واحدة».

ورغم سيطرتهم العسكريّة على جميع أنحاء المغرب وصِقِلّيّة وحوض البحر الأبيض المتوسّط فإنّ العُبَيديّين لم يحسّوا بالأمن والاستقرار، ولم تكن الثّورات الكثيرة التي شهدها عهدهم[2] هي السّبب الأكبر في قلقهم، وإنّما مثار قلقهم هم هؤلاء العزّل إلاّ من إيمانهم، الذين يعبّر صمتهم عن ألف ثورة وثورة، ومن هنا راح الرّوافض يقومون بأعمال منكرة لنشر أباطيلهم وحمل النّاس على اعتناق مذهبهم، إلا أنّها لم تزد أهل السّنّة منهم إلا نفوراً.

---

(١) المعالم ٢/٢٩٢.

(٢) من أخطر هذه الثورات ثورة داعيته أبي عبدالله الذي شكك في إمامة عبيد الله، فقتله سنة ٢٩٨ هـ. النجوم الزاهرة ١/١٥٤، وثورة أبي يزيد الخارجي الذي استولى على كامل بلاد إفريقية حتى لم يبق للعبيديين إلا المهدية. انظر: العبر ٤/٤٠ ـ ٤٤.

ويمكن أن نلخّص في النّقاط التّالية جرائمهم في حقّ الإسلام عامّة، وفي حقّ العلم وأهله بصفة خاصّة:

١ ـ لقد ادّعى عُبَيد الله الرّسالة، فإنّه لمّا وصل إلى رَقّادة طلب فقيهين من فقهاء القيروان، فدخلا عليه ـ وهو جالس على كرسي ملكه ـ، فقال لهما بعض دعاته: «اشهدا أنّ هذا رسول الله، فقالا بلفظ واحد: لو جاء هذا والشّمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان إنّه رسول الله ما قلنا ذلك، فأمر بذبحهما»[١]، بل لقد غلا فيه أصحابه حتّى ألّهوه، فقد كانت أيمانهم: «وحقّ عالم الغيب والشّهادة، مولانا الذي بَرقّادَة»[٢]، وكان بعضهم يقول: «لست ممّن يعبد مالا يُرى». وكان يتصدّى لعُبيد الله ويقول له: «اِرق إلى السّماء لِمَ تقيم في الأرض وتمشي في الأسواق»[٣]. كما أنّ أميرهم الرّابع مَعَدّ بن إسماعيل ادّعى النّبوّة وجعل من نادى فوق صومعة القيروان: «أشهد أنّ مَعَدّاً بن إسماعيل رسول الله» فارتجّ البلد لذلك[٤]. وقد أُسند لقب الرّسالة إلى كبار دعاتهم أيضاً.

٢ ـ لقد مُدح حكّامهم بأنواع من الكفر وأقرّوها، منها قول أحد شعرائهم في عُبَيد الله:

حلّ برَقّادَة المسيح ... حلّ بها آدم ونوح
حلّ بها الله ذو المعالي ... فكلّ شيء سواه ريح

وقول الآخر في المُعِزّ:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القَهّار[٥]

---

(١) سير أعلام ١٤/٢١٦، الرياض ٢/٤٩.

(٢)، (٣) البيان المغرب ١/١٦٠، ١٨٦.

(٤) البيان المغرب ١/٢٨٢، ٢٨٥، ولقد عجبت من وصف الشيخ الفاضل ابن عاشور له بأنه عاقل بني عبيد. أعلام ابن عاشور ٤٤.

(٥) انظر: الكامل ٧/٤٦.

كما شبّه شعرواؤهم المَهْدِيَّة بمكّة المكرّمة وقصر المَهْدِيّ بالكعبة:

هي المَهْـدِيَّـة الحـرم المُـوَقّى كمـا بتِهَـامَـة البلد الحـرام
وإن لثم الحجيج الرّكن أضحى لنـا بعـراص قصـركم التشـام[1]

٣ ـ أظهروا سبّ الصّحابـة، رضوان الله عليهم، وطعنـوا فيهم، وزعموا أنّهم ارتدّوا بعد النّبيّ ﷺ وخصّصوا دعاة للنّـداء بذلـك في الأسواق، وعلّقـوا رؤوس الأكباش والحمير على أبواب الحوانيت والدّواب، وكتبوا عليهـا أسماء الصّحابة[2] وكان هذا العمل الخسيس من الحرب النّفسيّة التي اشتدّ أثرها على أهل القَيْرَوان، فمن ذكـر الصّحابـة بخير أو فضّل بعضهم على عليّ، قُتـل أو سُجن[3] فلم يكن أحد يذكرهم بالثّناء إلّا في دور العلماء[4].

٤ ـ زادوا في الأذان: «حيّ على خير العمل»، وأسقطوا من أذان الفجر: «الصّلاة خير من النّوم»، ومنعوا النّاس من قيام رمضان، وليس شيء أشدّ على بني عُبَيد من هذه الصّلاة، ومنعوا صلاة الضّحى، وقدّموا صلاة الظّهر قبل الزّوال وأمروا بصلاة العصر في وقت الظّهر لفتنة النّاس[5]. أمّا خطبة الجمعة فقد أظهروا فيها سبّ الصّحابـة وضروبـاً من الكفر، فتـركها النّـاس وأقفرت المسـاجد في زمانهم. وكان بعض أئمّتهم يصلّون إلى رَقّادة فلمّا انتقل عُبَيد الله إلى المَهْدِيّة صلّوا إليها[6] وكثيراً ما يجبرون النّاس على الفطر قبل رؤية هلال شوّال[7].

---

(١) البيان المغرب ١/١٨٤.
(٢) المدارك ٣/٣١٨، الرياض ٢/٣٣٨، ٤٢٤.
(٣) المعالم ٣/٣٥، المحن ٢٧٩. (٤) المدارك ٣/٣٧٨.
(٥) مناقب أبي إسحاق ٦٥.
(٦) انظر: رحلة التجاني ٢٦٦، المدارك ٣/٣٣٨، المعالم ٣/٥، البيان المغرب ١/١٨٦، المحن ٢٨٧، الرياض ٢/٤٢.
(٧) انظر: المعالم ٣/٤٩.

٥ ــ دعوتهم إلى الإباحيَّة، وتعطيل الشّرائع، وإسقاط الفرائض عمّن تبع دعوتهم حيث يقع إدخالهم إلى داموس ويدخل عليهم عُبَيد الله لابساً فرواً مقلوباً، دابّاً على يديه ورجليه، فيقول لهم: «بَحْ»، ثم يُخرجهم ويفسّر لهم هذا العمل بقوله: «فأمّا دخولي على يديّ ورجليّ فإنّما أردت بذلك أن أعلمكم أنّكم مثل البهائم لا شيء عليكم؛ لا وضوء ولا صلاة ولا زكاة ولا شيئاً من الفروض، سقط جميع ذلك عنكم، وأمّا لباسي الفرو مقلوباً فإنّما أردت أن أعلمكم أنّكم قلبتم الدّين الذين كنتم عليه ودخلتم في هذا الدّين، وأمّا قولي لكم: بَحْ، فإنّما أردت أن أعلمكم أنّ الأشياء كلّها مباحة لكم من الزّنا وشرب الخمر. . .»[1].

وكانوا يرسلون دعاتهم بذلك إلى الأطراف لإظهاره، فإن وجدوا النّاس مغضبين عَنه أشاعوه، حتّى كان الرّجل يأتي حليلة جاره وهو ينظر، فإن قبل ذلك عُدّ عندهم من الصّابرين[2].

٦ ــ إجبار النّاس على الدّخول في دعوتهم فمن أجاب تركوه وربما ولّوه بعض المناصب، ومن رفض قُتل، كما فعلوا عقب أوّل جمعة خطبها عُبيد الله بالقَيْرَوان، ثمّ لمّا أكثر دعاتهم على أهل القيروان وقعت بين الفريقين مقتلة عظيمة فأمر الشّيعي بالكفّ عن العوامّ[3]، وطلب العلماء لتشريقهم[4]، وافتعل مناظرات صوريّة، فدارت على علماء السّنّة محن عظيمة، وقتل منهم عدّة آلاف بسبب تمسّكهم بإسلامهم ومنافحتهم عن السّنّة. قال القابِسي: «إنّ الذين ماتوا في دار البحر (سجن العُبيديين) بالمَهْدِيَّة من حين دخل عُبَيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب، ما بين عالم وعابد ورجل صالح»[5] هذا عدا من كانوا

---

(١) الرياض ٢/٥٠٤.

(٢) انظر: البيان المغرب ١/١٨٥.

(٣) انظر: الكامل ٦/١٣٣، ١٣٥.

(٤) المعالم ٣/٩١، المدارك ٣/٥٢١، ط الخشني ٢٢٥، المازري ١١.

(٥) المعالم ٣/٣٤، وانظر: الرياض ٢/٣٢٦.

يقتلون دون سجن ويُمثَّل بهم في شوارع القيروان، فأثّر ذلك على سير الحياة العلميّة، وقد خمل ذكر كثير من العلماء الذين آثروا اعتزال الفتنة، مثل أبي محمد الوَرْدَانِيّ[1]، ومع ذلك فإنّ هذه الشّدّة لم تزد أهل القيروان إلاّ تمسّكاً بسُنّيتهم.

٧ ـ منعوا العلماء من التّدريس في المساجد، ونشر العلم، والاجتماع بالطّلبة، وحبسوهم في بيوتهم: «فكان من يأخذ عنهم ويتذاكر معهم إنما يكون سِرّاً، وعلى حال خوف وريبة»[2]؛ فكان الموطّأ وغيره من كتب السّنّة لا تقرأ إلاّ في البيوت[3]، وكانت السّنّة تُعرض بالقيروان سرّاً[4]، وكان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو محمد بن التَّبَّان، وغيرهما، يأتيان إلى أبي بكر بن اللَّبَّاد، شيخ السّنّة بالقيروان، في خفية، ويجعلان الكتب في أوساطهما حتّى تبتلّ بالعرق خوفاً من بين عُبَيد[5]، وكان بعض العلماء يخرج إلى المقبرة فيستتر فيها ويقرأ على الطّلبة؛ «للخوف من بني عُبَيد؛ لأنّهم منعوا من بثّ العلم، وسجنوا العلماء في دورهم»[6].

وبذلك خلت المساجد من حلق الذّكر ومجالس العلم، وأصبحت هذه المهمّة تقع في دور العلماء، وبعض قصور الرّباط خفية. وفي مقابل ذلك فسح العُبَيديّون لدعاتهم المجال لنشر ضلالاتهم، ومكّنوهم من كلّ الوسائل في سبيل القضاء على الإسلام والسُّنَّة.

٨ ـ حرّموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضّرب والسّجن أو القتل أحياناً، ويعقب ذلك نوع من الإرهاب

---

(١) انظر: المدارك ٤/٤١٦.
(٢) المدارك ٥/١٢١، الفكر السامي ٢/١٤٨.
(٣) انظر: ط الخشني ١٩٥.
(٤) انظر: تاريخ ابن الفرضي ١/١٥٣، ٢٠١.
(٥) انظر المعالم ٣/٢٥.
(٦) المعالم ٣/ ٣٩.

النّفسيّ، حيث يُدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادى عليه: «هذا جزاء من يذهب مذهب مالك»[1]، ولم يُبيحوا الفتوى إلاّ لمن تشرّق وكفر[2].

٩ ـ مصادرة مصنّفات أهل السُّنَّة وإتلافها، ومنع النّاس من تداولها، من ذلك أنّ أبا محمد عبدالله بن أبي هاشم التُّجِيبِيّ (ت ٣٤٦) توفّي وترك سبعة قناطير كتب، كلّها بخطّ يده، فرفعت إلى سلطان بني عُبيد فأخذها، «ومنع النّاس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه»[3].

وقد وجدوا الموطّأ عند رجل فضربوه وطافوا به[4]، ورفعت إلى السّلطان أشياء على سعدون الخَوْلَانِيّ (ت ٣٢٤) المتعبّد بقصر الطّوب فأرسل إليه بعض حرسه فقيّدوه وجمعوا ما في بيته من الكتب وأخذوه إلى عُبَيد الله[5].

١٠ ـ منع التّجمّعات خوفاً من الثّورة، فقد رفع على بعض العلماء العُبَّاد أنّه يجتمع إليه العامّة، ويدور بهم على قصور الرّباط، فمنعوهم خشية الخروج عنهم، وكانوا يفرّقون النّاس الذين يجتمعون على جنازة من يموت من العلماء[6]، كما أنّهم منعوا الجولان باللّيل، ولهم بوق يضربونه أوّل اللّيل فمن وجد بعده ضرب عنقه[7].

١١ ـ حرص العُبَيديُّون على محو آثار من سبقهم، ولذلك أمر عُبَيد الله بإزالة أسماء الحكّام الذين بنوا الحصون والمساجد، وأن يكتب اسمه بدلها، كما

---

(١) إنباه الرواة ٢/٥٤، وانظر: الرياض ٢/٤١، ٢٦٥، البيان المغرب ١/١٥٩.
(٢) الرياض ٢/٥٦.
(٣) الرياض ٢/٤٢٣، وانظر: المدارك ٣/٣٤١.
(٤) انظر: الفكر السامي ٢/٧١.
(٥) انظر: الرياض ٢/٢٥٩.
(٦) انظر: المدارك ٣/٣٨٩، الرياض ٢/٢٥٨.
(٧) انظر: المدارك ٣/٣٨٤.

استولى على أموال الأحباس وسلاح الحصون، وطرد العُبَّاد والمرابطين بقصر زياد وجعله مخزناً للسّلاح[1].

وهكذا يتبيّن بكلّ وضـوح حرص العبيـديّين على مصادرة الفكـر السّنّي، وتعطيل شرائع الإسلام، وإماتة العلم الصّحيح واضطهاد أهله، وإني لأستغرب من وصف حسن حسني عبدالوهّـاب ومن تابعـه لعصرهم بـأنّه أزهى العصـور الفكريّة وأنّ العُبَيديّين قد شجّعوا العلم والأدب[2]، اللّهم إلّا إذا كانت دعوتهم الباطلة وما يتّصل بها علماً وأدباً.

ونتساءل الآن عن موقف علماء السّنّة، وطرقهم في مقاومة الكيد الباطني، والمنافحة عن السّنّة ونشر العلم، إنّها المواجهة بين الإيمان القويّ الرّاسخ وبين قوّة السّلاح، بين الحقّ والباطل، لا شكّ أنّ النّتيجة تكون دائماً لصالح أهـل الإيمان وإن طال الطّريق.

لقد تضامن علماء أهل السّنّة وعبّادهم ومتصوّفوهم[3]، وتضافرت جهودهم لردّ كيد العُبَيديّين، وإخراجهم من أرض إفريقيَّة، ومنعهم من أن ينالوا من حصن السُّنّة بالمغرب، وتمحور الشّعب حـول هؤلاء العلماء العـاملين، الذين عُـرفوا بتضحيـاتهم المثاليّـة في سبيل الحقّ، وتمسّكهم بـالسُّنَّة، وأصبحـوا هم القادة الحقيقيّين لشعوبهم، ويمكن أن نلخّص الأساليـب التي انتهجها العلماء لمقامة الإسماعيليّين والحفاظ على سُنِّيَّة إفريقيَّة فيما يلي:

١ ــ إنّ صمودهم في الميدان، ومواجهة المحنة بشجاعة، وعدم فرارهم إيثاراً للسّلامة كان له أبعد الأثر في تمسّك العامّة بالسُّنَّة ولو فرّوا لسهـل على العُبَيْديّين إغواء العامّة، وإدخالهم في دعوتهم، ولم يفهم هذه الحقيقة أحمد بن

(١) انظر: الرياض ٥٦/٢، ٢٢٢، موقـف متصوفة إفريقية ١٩.

(٢) انظر: ورقات ١٥٣/٢، القراءات بإفريقية ٦١.

(٣) لقد امتاز متصوفة القيروان عن غيرهم بالتزامهم بالسنة وبعدهم عن الغلو والتطرّف والزّيغ. انظر: متصوفة إفريقية ٧.

نصر الدَّاوُدِي (ت ٤٠٢ هـ) الذي كان بطرابُلُس وأنكر على علماء القيروان عدم خروجهم منها أيّام بني عُبيد فأجابوه: «أُسكت لا شيخ لك»؛ لأنّه لم يتلقّ علمه عن إمام مشهور، قال القاضي عِياض[1]: «يشيرون أن لو كان له شيخ يُفقّهه حقيقة الفقه لعَلِم أنّ بقاءهم مع من هناك من المسلمين تثبيتٌ لهم على الإسلام، وأنّه لو خرج العلماء عن إفريقيَّة لتشرّق من بقي فيها من العامّة»، وقد فهم العُبيديّون هذا الأمر فحرصوا كلّ الحرص على إدخال العلماء في دعوتهم؛ لأنهم عرفوا أنه إذا سقط العلماء سهل سقوط العامّة.

٢ ـ مقاطعة أهل القَيْرَوان لجميع المؤسّسات الحكوميّة، فلا يختصمون إلى قضاتهم، ولا يصلّون وراء أئمّتهم، ولا يأتون معزّين ولا مهنّئين، ولا يناكحونهم، ولا يتوارثون معهم، ولا يصلّون على موتاهم...[2].

وقد كان بعض العلماء يغتسل يوم الجمعة، ويلبس ثيابه ويتطيّب، ويخرج إلى الجامع حتى إذا وصله يرفع عينيه إلى السّماء ويقول: اللّهم اشهد، ويرجع إلى داره[3]. وقد شعر العُبيديون بهذا الإنكار الصّامت، فلم يكن شيء أشدّ عليهم منه، وكان ذلك من أهمّ أسباب انتقالهم إلى المَهْدِيَّة ثمّ إلى مصر.

٣ ـ لقد أفتى علماء القَيْرَوان بكفر بني عُبيد، وأنّهم ليسوا من أهل القبلة، كما كفّروا من دخل في دعوتهم راضياً، ومن خطب لهم، ولم يعذروا المكره، وقالوا: يختار القتل ولا يدخل في دعوتهم[4]، وقد شاعت هذه الفتاوى وعرفها الخاصّ والعامّ، فكانت حاجزاً منيعاً بين العوامّ وبين التّردّي في دعوة الرّافضة.

---

(١) انظر: المدارك ٣/٦٢٣.

(٢) الرياض ٢/٢٩٨، المدارك ٣/٧٢٠.

(٣) المدارك ٣/٥٢٦، ٣/٧١٩، الرياض ٢/٤٣.

(٤) انظر في هذه الفتاوى: المدارك ٣/٧١٩، ٧٢٠، ٧٦٧، المعالم ٣/١٧٧، الرياض ٢/٣٣٩.

٤ ــ مقاطعتهم لمن تلبّس بالعُبَيـديّين من أهل العلم وإن لم يـدخل في دعوتهم، ولذلك أفتى العلماء بطرح كتب أبي القاسم البَرَاذِعِي[١]، وكان سعيد بن الحداد يقول عن مالك بن عيسى القَفْصيّ: «لو علمتُ أنّ يقظة مالك بن عيسى أنبه من نومي لأزريت على نفسي»[٢]؛ لأنّه امتُحن بوظيفـة مع العُبَيديّين.

٥ ــ دأب علماء السُّنّة على تعرية العُبَيديين وفضح معتقداتهم الباطلة حتى يحذرها العامّة، قال أبو إسحاق السّبائي (ت ٣٥٦) لأصحابه: «افتحوا باب داري نأخذ في ذمّهم والتّحذير منهم». وكان ممّا مـلأ به مجـالسه: الإكثـار من ذكر فضائل الصّحابة والثّناء عليهم لانتشار أمر المشارقة[٣]. وكان أبو الحسن الدَّبّاغ (ت ٣٥٩) يقول للنّاس: «تمادوا على الأذان على سنّته في أنفسكم فإذا فرغتم فقولوا حيّ على خير العمل، فإنّما أراد بنو عُبيد خلاء المساجد»[٤].

٦ ــ لم يتخلّ العلماء عن التّدريس في هذه الفترة الحرجة، فلمّا منعوا من التّحديث والإقراء في المساجد فتحوا بيوتهم للطّلبة فقصدوهم للتّلقي، حتى إنّ دار أبي إسحـاق السّبائي كـانت كالمسجـد[٥]؛ لكثرة من يؤمّهـا من الطّلبـة، وكان أحمد بن يزيد الدَّبّاغ يُسمع في داره[٦]، كما كان تلاميذ أحمد بن نصر الهَوّارِيّ يقصـدونه في بيتـه بعـد أن منعـه العُبَيـديّـون من التّـدريس في مسجـد رحبـة القُرَشِيّين[٧]. وغير هؤلاء كثيرون جدّاً، فكان هذا ممّا ساهم في استمـرار نشر العلم وعدم انقطاع الحياة العلميّة ونتج عن ذلك تعميق الوعي السّنّيّ بخطورة الفكر الباطني.

---

(١) المعالم ٢/١٤٨.
(٢) ط الخشني ١٧٤.
(٣) انظر: المدارك ٣/٣٧٨.
(٤) ن. م ٣/٢٥٦.
(٥) المعالم ٣/٦٦.
(٦) الرياض ٢/٢٧٢.
(٧) المعالم ٣/٦.

٧ ـ ومن ألطف ما عثرت عليه من صور مجاهدة بني عُبَيد هو التّحيّل في تعليم أطفالهم حتّى يتربّوا على السّنّة، وذلك ما قام به أبو إسحاق الجِبِنيَانِيّ وغيره، فإنّه كان يعلّم أولاد الكُتاميّين (حَمَلة الدّعوة العُبَيْدِيَّة) ولا يأخذ منهم أجراً؛ ترغيباً لهم في الإقبال عليه «ويعلّمهم القرآن والسّنّة ولا يعلّمهم يكتبون، ويقول: ليس يضرّون النّاس بالقرآن وإنّما يضرّونهم بالأقْلَام... فعزم كلّ صبيّ كُتاميّ علّمه أبو إسحاق على الإسلام والسُّنَّة»[1].

٨ ـ المناظرة: من طرق مقاومة علماء القيروان للرّافضة طريقة الجدل والمناظرة، وقد أفحموا فيها دعاة بني عُبَيد، وأقاموا عليهم الحجّة، ودحضوا مزاعمهم بالراهين القاطعة، فحفظوا للسّنّة مكانتها وللإسلام عزّه، وقد عرف بذلك كثير من علماء القيروان، منهم: أبو بكر بن القَمُّودِيّ الذي ناظر أبا العبّاس الشّيعيّ مناظرة أفحمه فيها[2]، وإبراهيم بن محمد الضِّبّيّ[3]، وأبو محمد عبدالله بن التَّبَّان[4] إلا أنّ أقدرهم على ذلك وأشهرهم به: أبو عثمان سعيد بن محمد بن الحدّاد[5]، فقد كانت له مع بني عُبَيد «مقامات كريمة ومواقف محمودة في الدّفاع عن الإسلام والذّبّ عن السّنّة ناظر فيها أبا العبّاس المخطوم أخا أبي عبدالله الشّيعيّ الصّنْعَانِيّ[6] بملء فيه وعزّ نفسه، مناظرة القرين المساوي بل مناظرة المتعزّز المتعالي»[7].

---

(١) مناقب أبي إسحاق ٢٦، المدارك ٣/٥١٦.

(٢) انظر: ط الخشني ٢١٤.

(٣) انظر: الرياض ٢/٤٦.

(٤) انظر: المدارك ٣/٥٢١.

(٥) ستأتي ترجمته رقم ١٥ في المحدثين.

(٦) الصواب أن المناظرات كانت مع عبيد الله نفسه. انظر: الرياض ٢/٥٩.

(٧) ط الخشني ٩٩، وقد بلغت مجالسه مع الرافضة أربعين مجلساً لم يصلنا منها إلا أربعة. انظر: الرياض ٢/٥٨، المعالم ٢/٢٩٨، ط الخشني ١٩٩، ورقات ١/٢٥٩. كما يوجد منها دفتران مخطوطان في مكتبة القيروان. انظر: سجل قديم ٣٦٤.

٩ ـ المواجهة المسلّحة: لم يكن تفكير أهل القيروان في المواجهة المسلّحة متأخراً (أي مع أبي يزيد الخارجي سنة ٣٣٣) كما درج عليه الكُتّاب، بل لقد كان ذلك منذ حلول الرّافضة بالقيروان، غير أنّ الأمر كان يحتاج إلى إعداد، خاصّة مع يقظة العُبيديّين واستيلائهم على سلاح الحصون، ومنعهم من التّجمّع والجولان ليلاً كما تقدّم[1]، وممّا يؤيّد هذا الرّأي أنّه لمّا نزل عُبَيد الله بَرَقّادة ترك جَبَلَة بن حَمُود الصَدَفِيّ (ت ٢٩٧) الرّباط في قصر الطّوب ونزل رَقّادة، وقال: «كنّا نحرس عدوّاً بيننا وبينه البحر فتركناه، وأقبلنا على حراسة هذا الذي حلّ بساحتنا؛ لأنه أشدّ علينا من الرّوم»، فكان يجلس طول اليوم محاذياً لرَقّادة ومعه سلاحه، وكان يقول: «أحرس عورات المسلمين من هؤلاء القوم، فإن رأيت منهم شيئاً حرّكت المسلمين عليهم»[2]. ولكن جَبَلَة لم يعش في حكم العُبَيديّين إلاّ سنة واحدة.

وفي بداية الحكم العُبَيْدِي بايع أهلُ القيروان وكثير من قبائل إفريقيَّة أبا عبدالله السّدريّ على جهاد بين عُبيد إلا أنّ خبره بلغ عُبَيد الله، فخرج إلى مكّة، فلمّا عاد قبضوا عليه وقرّبوه للقتل ـ وكان على درجة عظيمة من العبادة والتّقوى ـ «فهرب العسكر كلّه، فلم يجدوا أحداً يقتله، فأخذوا روميّاً سقوه خمراً حتى سكر، فقتله ثمّ صلبوه»[3]، لعنهم الله تعالى، وكان قتله سنة ٣٠٩ هـ.

فلما ثار أبو يزيد مَخْلَد بن كَيْدَاد الخَارِجِيّ النَّكّارِيّ[4] واشتدّ أمره سنة ٣٣٢ هـ واستولى على القيروان كان الناس مُهيَّئين للخروج على بين عُبيد

---

(١) انظر: ص ٧٦.

(٢) الرياض ٢/٣٧، ٣٨، ومما يجدر التذكير به هنا إجماع علماء القيروان على وجوب جهاد العبيديين قبل استيلائهم على القيروان. انظر: البيان المغرب ١/١٣٧.

(٣) الرياض ٢/١٦٩.

(٤) انظر عنه وعن ثورته: الكامل ٦/٣٠٢، اتعاظ الحنفاء ٧٥، إتحاف أهل الزمان ١/١٢٤، العبر ٤/٤٠، ٧/١٣، الإباضية بالجريد ١٢٠، البيان المغرب ١/٢١٦.

«يتمنّون قائماً عليهم فيتحرّك النّاس لقيامه»[1]، وكان الأمر واضحاً أمام علماء القيروان وقد رأوا أنّ الخروج معه واجب لأنّه من أهل القبلة أمّا الرّافضة فهم مجوس زال عنهم اسم الإسلام وقالوا: «إن ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد والله يسلّط عليه إماماً عادلاً يخرجه عنّا»[2]، وخرجوا إلى المَهْدِيَّة سنة ٣٣٣ هـ بقيادة العلماء، ولكن أبا يزيد غدر بهم فاستشهد منهم خمسة وثمانون عالماً[3] فتنكّر النّاس لأبي يزيد، ومنعوه من دخول القيروان، وقد شهد عهد أبي يزيد نشاطاً علميّاً ملحوظاً حيث عادت الحياة إلى المساجد وحلّق العلماء للتّدريس[4].

ولما استردّ العُبَيديّون نفوذهم على القيروان رجع الوضع كهيئته أوّلاً، ونظراً لهذه المقاومة التي لا تهدأ فقد تأكّد بنو عُبيد أنّ القَيْرَوان ليست لهم بدار، وقد لفظهم أهلها، فانتقلوا أوّلاً إلى المَهْدِيّة ولكنّهم لم ينعموا بالأمن، ولم يجدوا من استجابة أهل إفريقيّة لأفكارهم ما يشجعّهم على البقاء فيها، فانتقلوا إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ تاركين لأنصارهم من بني زِيرِي حكم إفريقيّة نيابة عنهم.

ورغم أنّ الحياة العلميّة قد حافظت على وجودها في عهد العُبَيديّين إلا أنّها لم تشهد الازدهار المتوقّع لها بالنّظر إلى العهد السّابق وبالمقارنة مع حال العلم في المشرق، وفي النّصف الثّاني من عهدهم دخلت القَيْرَوان بعض المصنّفات الحديثيّة الهامّة مثل مصنّف عبدالرَّزَّاق[5] والجامع الصَّحيح للإمام البُخَارِي[6].

---

(١) المدارك ٣/٣١٨.

(٢) انظر عن مناقشتهم لمسألة الخروج مع أبي يزيد: الرياض ٢/٢٩٢ ـ ٢٩٩، ٣٣٨ ـ ٣٤٥، المعالم ٣/٢٩ ـ ٣٤، المدارك ٣/٣١٨ ـ ٣٢١.

(٣) انظر مثلاً: الشجرة ٨٣ والمصادر أعلاه.

(٤) انظر: المدارك ٣/٣٨٨.

(٥) انظر: الخشني ١٧٣، المعالم ٣/٤٤.

(٦) انظر: المدارك ٣/٦١٧، الشجرة ١/٩٧.

د ـ دولة بني زِيرِي أو الدّولة الصّنهاجية[1] (٣٦٢ ـ ٤٤٩):

لقد كان لعائلة بني زِيرِي الصّنهاجية[2] دور هام في القضاء على ثورة أبي يزيد النَّكَّارِيّ فكافأهم العُبيديّون بتسليم حكم إفريقيّة والمغرب، عندما انقلوا إلى مصر، ومؤسّس هذه الدّولة هو أبو الفُتوح يوسف بن زِيرِي بن مَنَاد الصّنهاجي (٣٦٢ ـ ٣٧٣) الذي استهلك سنوات حكمه في تمهيد البلاد وقمع الثّائرين، وخلفه ابنه المنصور (٣٧٤ ـ ٣٨٦)، وقد شهد عهده عدّة ثورات رغم أنّه حاول أن يأخذ النّاس بالإحسان[3].

وازدادت الحياة السّياسيّة اضطراباً في عهد ابنه باديس (٣٨٦ ـ ٤٠٦) الذي قضى أيّامه في حروب متّصلة، حتّى إن أعمامه كانوا من بين الثّائرين عليه، وأعلنوا فيما بعد استقلالهم بقلعة بني حمّاد في المغرب الأوسط.

لقد كان هؤلاء الأمراء الثّلاثة محافظين على تبعيّتهم للعُبَيديّن وولائهم للمذهب الإسماعيلي، إلاّ أنّهم لم يتشدّدوا في مطالبة النّاس بالتّشيّع، فانفسح المجال تدريجيّاً أمام العلماء لنشر السّنّة، وبذلك بدأت الحياة العلميّة تعود إلى

---

(١) انظر: نهاية الأرب ١٥٦/٢٤ ـ ٢١٧، الكامل ٤٥/٧، ٤٦، ٨٦، ٨٧، ١٢١، ١٣٣، ١٢/٨، ٣٩، ٥٥، إتحاف أهل الزمان ١٢٨/١ ـ ١٣٩، البيان المغرب ٢٢٨/١ ـ ٢٩٤، المؤنس ٧٣ ـ ٨٥، الخلاصة النقية ٤٢ ـ ٤٨، أعلام ابن عاشور ٤٤، ٤٥، أعمال الأعلام ٦٦ ـ ٧٦، بنو هلال ٩٣ ـ ٩٨، تاريخ التمدن الإسلامي ٣٢٤/٤، ٣٢٥، العبر ١٥٥/٦ ـ ١٦٣، ذكرى المازري ٥٥، ٥٦، المغرب العربي ١٨٨ ـ ١٩٨، المازري ٦، ١٤، ١٩، الحياة الأدبية في عهد بين زيري (بالفرنسية) ٢١٧ ـ ٢٢٨، المغرب الكبير ٢٤١/٢ ـ ٦٧٣، القيروان ٩٨ ـ ١٠٧، بساط العقيق ٦٩، ٧١، شهيرات ٨٩، ٩٠، الصارع المذهبي ٢٢١ ـ ٢٢٤، الفرق الإسلامية ٢٠٨ ـ ٢١٦.

(٢) نسبة إلى صنهاجة وهي قبيلة بربرية كبيرة كان لها دور في مناصرة دعوة الرافضة بالمغرب، وخاصة إبان ثورة أبي يزيد الخارجي، الشجرة ١٠٥/١، المؤنس ٧٤.

(٣) انظر: إتحاف أهل الزمان ١٣٣/١، الكامل ١٢١/٧.

المساجد والكتاتيب شيئاً فشيئاً، غير أنّ تلك المظاهر الرّسميّة من التّبعيّة لحكّام مصر والدّعوة لهم على المنابر كانت تقلق العلماء، وأسهمت في إيجاد هوّة عميقة بينهم وبين حكّام بني زِيرِي، فاستمرّوا في مقاومة هؤلاء الحكّام الذين لم يكونوا متحمّسين للدّعوة الإسماعيليّة، وخاصّة مع صمود الشّعب ومواصلتهم مقاطعة الدّولة، غير أنّهم لا يستطيعون الإعلان بذلك خوفاً على سلطانهم، وأحسّ أهل القيروان بذلك فراح علماؤهم يعملون جاهدين على نشر السّنّة وآراء السّلف، فعجّت القيروان بالعلماء من جديد، وكثرت المصنّفات في مختلف فروع الشّريعة، فقد ألّف ابن أبي زيد (ت ٣٨٦) مصنّفات عديدة في الفقه والحديث والرّد على أهل البدع[١]، كما سيأتي في ترجمته، وألّف القابِسي (ت ٤٠٣) في الحديث وأصول الدّين[٢] وغيرهما كثير.

أمّا التّخلّص النّهائي من أتباع العُبَيديّين، وانتصار السنّة على الرّفض فقد كان على عهد آخر أمراء صنهاجة بالقَيْرَوان: المعزّ بن باديس (٤٠٧ - ٤٤٩)، فقد دام حكمه قريباً من نصف قرن، شهدت فيه الحياة العلميّة بالقَيْرَوان عصرها الذّهبيّ، وعادت البلاد إلى حظيرة أهل السّنّة والجماعة بصفة رسميّة، وتوفّرت فيها أسباب العمران والحضارة، ونفقت سوق العلم والأدب، وحدث شيء من التّقارب بين المعز وعلماء القيروان؛ فإنّ هذا الأمير قد تربّى «على مذهب مالك وعلى السّنّة والجماعة»[٣]، وكان يضمر قطع دعوة العُبيديّين، فلمّا علم أهل القَيْرَوان ذلك وضعوا السّيف فيمن عندهم من الرّافضة، حتّى أبادوهم في سائر أنحاء إفريقيّة، وذلك سنة ٤٠٧ في مطلع عهد المعزّ[٤]، ولم يزل أمر السّنّة يقوى والمعزّ يعدّ العدّة للتّخلّص من سلطان بني عُبيد حتّى كانت سنة ٤٣٥ هـ، وفيها قطع دعوتهم، وأحرق بنودهم، ولعنهم على المنابر، ودخل في طاعة الدّولة

---

(١) الشجرة ٩٦/١.

(٢) المدارك ٦١٨/٣.

(٣) البيان المغرب ٢٧٣/١.

(٤) انظر تفصيل ذلك في: الكامل ٢٩٤/٧، نهاية الأرب ٢٠١/٢٤ - ٢٠٤، البيان المغرب ٢٦٨/١.

العبّاسيّة، وحمل النّاس على مذهب الإمام مالك حسماً للخلاف، ولأنّه مذهب معظم أهل إفريقيَّة، «وكانت بإفْريقيَّة مذاهب الصُّفْرِيّة والشّيعة والإباضيّة والنّكّاريّة، والمعتزلة، ومن مذاهبِ أهل السّنّة الحنفيّة والمالكيّة، فلم يبق في أيّامه إلّا مذهب الإمام مالك»[1]، ففرح أهل السّنّة بذلك، وقضوا على من بقي من الرّوافض بإفريقيَّة، ولاحقوهم في كلّ مكان، فعمّت الفوضى حتّى اضطرّ المعزّ إلى استعمال القوّة للسّيطرة على الوضع.

ولم يكن الحقد الباطني ليسكت على عودة إفريقيَّة للسُّنَّة، ونبذها علناً لطاعة بني عُبيد، فأرسلوا إليها أعراب بني هلال وبني سُلَيم، وكانوا ممنوعين من اجتياز نهر النّيل؛ لِمَا عُرفوا به الإفساد في الأرض[2]، فتسابقوا إليها ودخلوها سنة ٤٤٣ هـ، فخربوها، وأتوا على الأخضر واليابس، وتقاسموا مدنها، فما من قرية «إلّا وقد سُحقت وأُكلت، أهلها عراة أمام حيطانها، من رجل وامرأة وطفل، يبكي جميعهم جوعاً وبرداً، وانقطع المير عن القَيْرَوان، وتعطّلت الأسواق. . .»[3].

وجرت بين الأعراب وبين المعزّ حروب كثيرة كانت فيها الدّائرة عليه، وتمكّنوا من دخول القيروان سنة ٤٤٩ هـ فاستباحوها، وقتلوا أهلها، وخربوا عمرانها، وسبوا حريمها وهدموا دورها، واستولوا على خيراتها، فاستحالت أثراً بعد عين، في أخبار تشيب لها الولدان[4].

---

(١) المؤنس ٨٢. وانظر: الشجرة ٢/١٢٩.

(٢) انظر عن أصل بني هلال واشتهارهم بالتخريب والفساد ودخولهم إفريقية: العبر ٦/١٣ - ١٦/١٣ - ١٦، البيان المغرب ١/٢٨٨ - ٢٩٥، تاريخ التمدن الإسلامي ٤/٣٢٤، رحلة التجاني ١٦.

(٣) البيان المغرب ١/٢٩١.

(٤) انظر تفصيل ذلك في: الكامل ٨/٥٩، العبر ٤/٦٣، ٦/١٦، ١٥٩، البيان المغرب ١/٢٩٢ - ٢٩٤، إتحاف أهل الزمان ١/١٣٩، المعالم ١/١٥ - ٢٠، ٣/١٩٠ - ١٩٢، الشجرة ٢/١٢٨ - ١٣١، وقد ألف في ذلك محمد بن سعدون القروي (ت ٤٨٦) كتاباً =

وبذلك انتهت حضارة القَيْرَوان التي كانت العاصمة الدّينيّة والعلميّة، والسّياسيّة لإفريقيّة والمغرب، فهي «منذ الفتح إلى أن خربت دار العلم بالمغرب، إليها ينسب أكابر علمائه، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم»[1]. فلمّا خربت جلا أهلها عنها، وتفرّق من بقي حيّاً من علمائها في الأمصار[2]، ولم تعد إليها الحياة العلميّة إلا بعد أكثر من قرن من الزّمان وذلك بعد سنة ٥٥٥ هـ[3]، إلا أنها لم تعد أبداً إلى سالف عهدها، وانتقل مشعل العلم والحضارة بإفريقيَّة إلى المَهْدِيّة ثم إلى تونُس الحَفْصِيّة.

= سماه «تعزية أهل القيروان بما جرى في البدان من هيجان وتقلب الأزمان» البيان المغرب ٢٨١/١.

(١) الشجرة ١٣٠/٢، مقدمة ابن خلدون ٤٣١.

(٢) انظر: المعجب ٣٥٨.

(٣) انظر: المعالم ٢٠٣/٣.

٣ ـ الوضع الدّيني[١] بالقَيْرَوان وأثره في الحياة العلميّة

لقد وجدت بالقَيْرَوان في فترتنا هذه مذاهب متعدّدة، وفرق متنوّعة، راح كلّ منها يدافع عن كيانه، فظهرت المناظرات في عدّة مسائل علميّة في الفقه والعقيدة وخصّصت المؤلّفات للرّد على الخصوم، فنتج عن ذلك صراع فكريّ أدّى إلى إثراء الحياة العلميّة، ودام الصراع عدّة قرون انتهى بتبنّي إفريقيّة لمذهب السّلف وعقيدة أهل السّنّة والجماعة. وفي الفروع انتصر المذهب المالكيّ على غيره من المذاهب. وقبل الحديث عن هـذه المذاهب وتلك الفرق لا بدّ أن نتطرّق إلى الكلام على الحياة الدّينية قبل ظهور المذاهب، بالرّغم من أنّ المصادر لم تسعفنا بشيء كاف في هذا المجال.

أ ـ الوضع الدّينيّ قبل ظهور المذاهب:

تمّ فتح إفريقيّة على أيدي الصّحابة والتّابعين، فعلّموا أهلها القرآن واللّغة العربيّة ومبادىء الإسلام، ولقّنوهم أحكام الدّين رواية عن النّبيّ ﷺ[٢] أو اجتهاداً منهم[٣].

---

(١) المقصود بالدين هنا: التدين ومدى الالتزام بالدين في الأصول والفروع، إذ الدين بمفهومه العام يشمل جميع جوانب الحياة من سياسة واقتصاد واجتماعيات وغيرها، ولا فصل في الإسلام بين هذه الجوانب.

(٢) انظر: الرياض ١/٨١، ١٢٤، المعالم ١/١٢٣.

(٣) انظر: الرياض ١/١٢٤.

كما كان أهل القَيْرَوان يسألون من عندهم من الصّحابة فيما يشكل عليهم من أمور الدّين، فإنّ يزيد بن قاسط ـ وهـو من أهل إفـريقيَّة ـ سـأل عبدالله بن عمر[1]، كما روى عن ابن عمر ميسرةُ الزَّرُّودي[2] وهو قيرواني، وجاء قوم إلى عبدالله بن عمر بإفريقيَّة، «فلمّا أرادوا أن يفارقوه قالوا: زوّدنا منك حديثاً ننتفع به...»[3]، ولا شكّ أنّ الصّحابة الذين جاءوا مع عُقبة وبعده قد علّموا بجامع القَيْرَوان كما مرّ، وسيأتي مزيد بيانه. ثمّ كان القادة الفاتحون يكلّفون من معهم من كبار التّابعين بتفقيه الدّاخلين في الإسلام.

وقبل نهاية القرن الأوّل كثر المسلمون بإفريقيّة، وأشكلت عليهم عدّة أمور، فجمعوا مسائلهم وأرسلوا بها خالد بن أبي عِمران (ت حـوالي ١٢٥ هـ) ليسأل عنها التّابعين في المشرق فأتى سالم بن عبدالله بن عمر (ت ١٠٦)، والقاسم بن محمد بن أبي بكر (ت ١٠٦) فأبيا أن يجيباه عنها، فقال لهما: «إنّا بموضع جفاء في هذا المغرب وإنّهم حمّلوني هذه المسائل، وقالوا لي: «إنّك تقدم المدينة وبهـا أبناء أصحـاب النّبيّ ﷺ فسلهم لنا»، وإنّكمـا إن لم تفعلا كـانت حجّـة لهم»[4]، فأجاباه فدوّن عنهما وعن سليمان بن يَسَار (ت حوالي ١٠٠ هـ)[5] كتاباً كبيراً رواه أهل القَيْرَوان[6]، وعملوا بما فيه، ثم أرسل عمر بن عبدالعزيز التّابعين العشرة سنة ٩٩ هـ لتفقيه أهل إفريقيّة فـأشاعـوا بالقيـروان رواية علوم الكتـاب والسّنّـة، وتلقّاهـا عنهم أهل القيـروان[7]، وقد كثـر عدد التّـابعين بـالقيـروان،

(١) ط أبي العرب مح ٩١.

(٢) م.ن ٩٣.

(٣) الرياض ١٣٧/١.

(٤) ط أبي العرب مح ٢٣٦، الرياض ١٦٣/١.

(٥) سليمان والقاسم وسالم من فقهاء المدينة السبعة على خلاف في سالم، وهم من كبار رواة الحـديث الثقات، أخـرج لهم الجمـاعـة، انـظر: التهـذيب ٤٣٦/٣، ٢٢٨/٤، ٣٣٣/٨.

(٦) انظر: ط أبي العرب مح ٢٣٥.

(٧) انظر: ط أبي العرب ٢٠، الرياض ٩٩/١، الحياة الاجتماعية ٢٣، الصراع المـذهبي ٢١، الفرق الإسلامية ٩٧.

وتضافرت جهودهم مع هؤلاء العشرة على نشر العلم فتخرّج على أيديهم أفواج من العلماء.

وإذن فقد كان الدّين في هذه المرحلة يؤخذ بالرّواية المتعلّقة بعلوم الكتاب والسّنّة، وفتاوى الصّحابة والتّابعين، «فكان المغاربة في صدر الإسلام لذلك على مذهب جمهور السّلف من الأئمّة واعتقادهم، وهو المذهب الحق»[1]. وعلى هذا تربّى أهل القيروان فكانوا شديدي التّعلّق بالنّصوص بعيدين كلّ البعد عن أعمال الرّأي، خاصة وقد رأوا المزالق التي أدّى إليها التّأويل وما ساقه للبلاد من فتن.

ب ـ دخول المذاهب الفقهيّة:

ومع شعور أهل القيروان بقلّة منابع العلم في بلادهم، خاصّة بعد وفاة من عندهم من التّابعين، واستشهاد كثير من العلماء في الحروب الطّويلة مع الخوارج[2]، بدأ توجّههم يتكثّف نحو المشرق لطلب العلم، تعويضاً عن هذا النّقص، واتّصلوا بكبار المحدّثين والفقهاء، من أمثال: أبي حنيفة النّعمان، ومالك بن أنس، وسفيان الثّوري، وكان صاحب مذهب متبوع... وغيرهم، ثمّ عادوا إلى القيروان ونشروا علم هؤلاء الشّيوخ، فكانت تلك هي البذرة الأولى لظهور المذاهب في المغرب.

١ ـ المذاهب غير المشتهرة:

وبعض المذاهب دخلت القيروان، ولكنّها سرعان ما اندثرت ولم يكثر الآخذون بها، مثل: مذهب أبي عمر الأَوْزَاعِيّ (ت ١٥٧)، وقد روى عنه بعض أهل القيروان[3]، ومذهب سفيان الثّوري (ت ١٦١) وقد روى عنه كثير من أهل

---

(١) الاستقصاء ١/١٣٦.

(٢) من ذلك استشهاد أبي كريب القاضي في ألف من العلماء والصلحاء سنة ١٣٩ هـ في قتال الخوارج. انظر: الرياض ١/١٧٢، والناظر في تواريخ وفيات التابعين الذين دخلوا القيروان وتوفوا بإفريقية يستنتج أن أكثرهم توفي في هذه الحروب.

(٣) انظر: الرياض ١/٢٤٧، ٣٠١، ٣٨٦، ورقات ١/٧٣، الحياة الاجتماعية ٧٢.

القيروان، وسمعوا منه جامعيه الكبير والصّغير، وكان بعضهم يميل إلى رأيه[1]، ومذهب داود بن علي الأَصْبَهَانِيّ الظّاهري (ت ٢٧٥)، أدخله أبو جعفر بن خَيْرُون[2]، أمّا مذهب محمد بن إدريس الشّافعي (ت ٢٠٤)، فقد كان حظه بالقيروان أكثر من سابقيه حيث مال إليه مجموعة من أهلها[3]، وقد صنّف بعض علماء القيروان في الرّدّ على مذهب الشافعي كتبا منها: كتاب «الرّدّ على الشّافعي لمحمد بن سَحنون» (ت ٢٥٦)[4]، وكتاب «الحجّة في الرّدّ على الشّافعي فيما أغفل من كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ ليحيى بن عمر» (ت ٢٨٩)[5]، وكتاب «الرّدّ على الشّافعي لسعيد بن الحدّاد» (ت ٣٠٢)[6]. أمّا أكثر المذاهب أتباعاً بالقيروان فهما: مذهبا مالك وأبي حنيفة:

٢ ـ المذهب الحنفي[7]:

يعتبر المذهب الحنفي أسبق المذاهب في الدخول إلى القَيْرَوان، وكان هو الغالب على أهلها قبل دخول المذهب المالكي[8]؛ باعتباره مذهب الدّولة الرّسمي، ثمّ ضعف عندما أقبل النّاس على مذهب مالك، إلاّ أنّه عاد إلى

---

(١) انظر: الرياض ٢٠١/١، ط أبي العرب ٥٢، ٢٥١، ورقات ٧٣/١، الحياة الاجتماعية ٧٢.

(٢) انظر: ط الخشني ١٧٥، المدارك ٥٤/١، الصراع المذهبي ٩١.

(٣) المدارك ٥٤/١، ٤١٥/٤، ط الخشني ٢١٣، ٢١٤، ٢١٧، الصراع المذهبي ٨٧، الحياة الاجتماعية ٧١.

(٤) المدارك ١٠٦/٣.

(٥) منه نسخة مصورة بمكتبة القيروان رقم ١٢٨٨ ـ ١٣١٠، انظر: المكتبة الأثرية ٣٨.

(٦) مخطوط مصور بالقيرون رقم ١١٥٦ ـ ١٢٢١. المكتبة الأثرية ٣٨.

(٧) انظر عن المذهب الحنفي بالقيروان: الاستقصاء ١٣٦/١، المدارك ٥٤/١، الحياة الاجتماعية ٥٠، الصراع المذهبي ٦٢، تاريخ معالم التوحيد ٨٨ ـ ٩٠، الشجرة ٤٥٠، الإمام المازري ٢٣، المدارس الكلامية ٣٧، القراءات بإفريقية ٢٢٤. ٢٢٥.

(٨) المدارك ٥٤/١، تاريخ معالم التوحيد ٨٨، ٨٩.

الظّهور في عهد بني عُبيد لموافقتهم إياهم في مسألة التّفضيل ورخصة مذهبهم[1]، إلى أن زالت أسبابه في مطلع القرن الخامس فامّحت آثاره من إفريقيّة، وخاصّة بعد ما ألزم المعزّ بن باديس (٤٠٧ ـ ٤٤٩) النّاس بمذهب مالك حسماً لمادّة الخلاف في المذاهب[2].

وأوّل من أدخل مذهب أبي حنيفة إلى القيروان: عبدالله بن فرّوخ (١١٥ ـ ١٧٦)؛ فإنّه دوّن عن أبي حنيفة نحو عشرة آلاف مسألة قبل أن يصنّف أبو حنيفة كتبه[3]، ودخل بها القيروان، وسمعها منه النّاس، ثمّ كان عبدالله بن غانم (١٢٨ ـ ١٩٠)، وقد لقي أبا يوسف صاحب أبي حنيفة[4]، يخصّص يوماً في الأسبوع لتدريس كتب الأحناف[5]، رغم أنّه مالكيّ المذهب، كما كان أسد بن الفرات يدرّس كتب المذهبين[6]، وزاد إقباله على تدريس كتب الأحناف عندما ترك النّاس الأسديّة، وأقبلوا على مدوّنة سَحنون، وبذلك شاع المذهب الحنفيّ وانتشر، وقد تبيّن لي بعد البحث في كتب طبقات الأفارقة أنّ المدرسة الحنفيّة لم تنجب علماء أفذاذاً، في تلك المنطقة وتلك الفترة، وإنما كان أتباعه من متوسّطي الثّقافة وبعض العوام وأصحاب السلطان، وحتّى الثّلاثة الذين تقدّم التّنصيص على مساهمتهم في نشر المذهب الحنفيّ لم يكونوا يعتنقونه، إنّما درّسوه من باب نشر العلم.

---

(١) انظر: سير أعلام ١٤/٢١٦، المدارك ١/٥٤.

(٢) انظر: الاستقصاء ١/١٣٧. (٣) انظر: الرياض ١/١٨٠.

(٤) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الكوفي، القاضي، من أكثر أصحاب الرأي اتباعاً للحديث، اختلف النقاد في قبول حديثه، وهو ثقة إن شاء الله لأن ما ورد فيه من جرح مفسر مرده إلى الخلاف المذهبي (ت ١٨٢)، انظر: اللسان ٦/٣٠٠، الميزان ٤/٤٤٧، الطبقات الكبرى ٧/٣٣٠، التاريخ الكبير ٨/٣٩٧، ثقات ابن حبان ٧/٦٤٥، سير أعلام ٨/٤٧٠، نقد ابن حزم للرواة في المحلى في ميزان الجرح والتعديل ٤/١٢٠٤.

(٥) انظر: الحلل السندسية ٤/٢٤٧.

(٦) انظر: الرياض ١/٢٦٦، ٢٦٧.

ونظراً لضحالة علم أتباع المذهب الحنفي بالقيروان آنذاك، وتلبّسهم بالسّلطان، ومناصرة الحكام لهم، فقد امتُحن على أيدي قضاتهم كثير من العلماء المدنيّين بالضّرب والحبس والمطاردة، بل والقتل أحياناً[1].

وكان لذلك أثره البالغ على العلم حيث اضطرّ كثير من العلماء إلى الاختفاء وترك التّدريس، فقد اختفى محمد بن سَحنون من سليمان بن عِمران[2]، واختفى يحيى بن عمر من محمد بن عبدون وأُجبر على مغادرة القَيْرَوان إلى سُوسَة[3]، كما امتحن قضاتُهم علماءَ المدينة بسبب رفضهم القول بخلق القرآن[4]، وقد دارت في هذه المسألة مناظرات بين أتباع المذهبين[5]، حتّى ألّفوا في ذلك كتباً، من ذلك أنّ سعيد بن الحداد ألّف كتاباً في الرّدّ على من يقول بخلق القرآن، فردّ عليه محمد بن الكَلَاعِيّ، فتولّى إبراهيم بن المقتول الانتصار لسعيد بن الحدّاد في كتاب نقض فيه أقوالهم، فكان ذلك سبباً في قتله[6].

كما تناظر أتباع الفريقين في شرب النّبيذ[7]، وفي المفاضلة بين الصّحابة[8]، وغير ذلك، وقد وصل التّنافر بين الفريقين إلى حد أنّ البيت الذي بناه سَحنون ليقضي فيه هدمه قضاة الأحناف، فإذا ولي مالكيّ أعاد بناءه[9]. ولا شكّ أنّ للسّلطان دخلاً في إثارة هذه العداوة التي بدأت تتلاشى شيئاً فشيئاً حتّى تحوّلت في آخر القرن الرّابع إلى أُلفة وتعاون بحمد الله تعالى، قال المقدسي عن القَيْرَوان في هذه الفترة: «ليس فيها غير حنفيّ ومالكيّ مع أُلفة عجيبة، بلا شغب

---

(١) انظر: المدارك ٣/٢٣٣.
(٢) ط الخشني ١٣٠.
(٣) انظر: المدارك ٣/٢٤٠.
(٤) انظر: المعالم ١/٩٤.
(٥) انظر: ط الخشني ٢١٣، ٢١٥، ٢٢١.
(٦) م. ن ٢٢١، ٢٢٢.
(٧) انظر: المعالم ٢/٣٦، الرياض ١/٢٨٨.
(٨) انظر: الرياض ١/٢٨٧.
(٩) انظر: المعالم ٢/٨٨.

بينهم ولا عصبيّة، لا جرم أنّهم على نور من ربهم، قد أقبلوا على ما يعنيهم، وارتفع الغلّ من قلوبهم»[1].

٣ ـ المذهب المالكي[2]:

لقد تلّقى أهل القيروان مذاهب السّلف على يد الصّحابة والتّابعين، كما مر، وشاهدوا بأعينهم الفتن التي أدّى إليها التّأويل والبُعد عن النّصوص، ولذلك ما إن أدخل علي بن زياد (ت ١٨٣) الموطّأ إلى إفريقيَّة وفسّر لهم قول مالك[3]، ولم يكونوا يعرفونه، حتّى أقبلوا عليه إقبالاً منقطع النّظير؛ لأنّهم وجدوا فيه ضالّتهم المنشوده لجمعه بين البساطة والأصالة، واعتماده على الحديث، فإنّ صاحب هذا المذهب يدرّس في مدينة الرّسول ﷺ، ويلتزم النّص من الكتاب والسّنّة، ولا يأخذ إلاّ عن الثّقات، وبرع في السّنّة حتّى سمّي أمير المؤمنين في الحديث، وهو إلى جانب ذلك شديد الورع لا يفتي إلاّ بحذر شديد وينفر من الرّأي والتّأويل[4]، فلم يكن انتشار مذهب مالك في إفريقيَّة بسبب السّلطان كما ذهب إليه ابن حزم[5]، إذ «لو أنّ السّلطان يقهر الأفكار على المبادىء لكان لسلطان العبيديّين من اجتذاب الأفكار ما أبقى مذهبهم سائداً في الشّمال الإفريقي»[6].

وإنّما كان ميل الأفارقة إليه بسبب اعتماد صاحبه على الحديث كما تقدّم، وذلك ما ذهب إليه الشّيح الشّاذلي النّيفر أيضاً، فإنه علّل اتّباع الأفارقة لمذهب

---

(١) أحسن التقاسيم ٢٢٤.

(٢) انظر عن المذهب المالكي بالقيروان: المدارك ١/٨ ـ ١٢، ٥٤، الاستقصاء ١٣٧ ـ ١٤٠، الفرق الإسلامية ١٢٧، موطأ ابن زياد ٧، ٨، الصراع المذهبي ٣٩، الحياة الاجتماعية ٥٨، معالم تاريخ المغرب ٧٣ ـ ٧٧، القراءات بإفريقية ٢٢٤ ـ ٢٢٦، المدارس الكلامية ٣٧، جذوة الاقتباس ١/١٩٤، مقدمة ابن خلدون ٤٤٩.

(٣) الرياض ١/٢٣٤.

(٤) انظر: الفكر الإسلامي ١/٣٨٣، مقدمة الرياض لمؤنس ص ١١ فيما بعدها.

(٥) انظر: جذوة المقتبس ٣٦٠.

(٦) موطأ ابن زياد ٣٠، ٣١.

مالك بأنّه «مذهب بني على حديث أهل الحجاز[1]، وهم الصّفوة والكثرة من الصّحابة والتّابعين، وإلى تعطّشـ(هم) إلى الموصول إلى المذهب الذي تتمثّل السّنّة النّبويّة في أقوى رجالها فيه...»[2].

وهناك أمر آخر يجدر التّنبيه عليه، وبه يكتمل هذا التّعليل، وهو التّقدم الزّمني للمذهب المالكي على غيره من المذاهب الأخرى المشتهرة بالاعتماد على الحديث، وخاصة مذهب الإمام الشّافعي ومذهَب الإمام أحمد، فكان الخيار أمام القرويّين محصوراً في المذهبين الحنفيّ والمالكيّ، فتجنّبوا الأوّل لاشتهاره بالميل إلى الرّأي، الذي كان سبباً في الفتن التي عاشوها كما تقدّم، وأقبلوا على الثّاني؛ لاعتماده على الحديث وموافقة ذلك ما في نفوسهم من التعطّش إلى السّنّة.

ويأتي في الدّرجة الثّانية من التّعليل ما ذهب إليه ابن خلدون[3] من أنّ رحلة أهلها (إفريقيَّة) كانت غالباً إلى الحجاز فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة[4]، وكذلك لمناسبة البداوة بين الشّعبين. وعلى يد عليّ بن زياد تخرّجت الطّبقة الأولى من علماء المالكيّة بالقَيْرَوان، مثل: أسد بن الفُرات، والبهلول بن راشد، وعبدالله بن غانم، وغيرهم، ثمّ تسارع أهل هذه الطّبقة للأخذ مباشرة عن الإمام مالك، حتى زاد الرّواة عنه من أهل القيروان عن ثلاثين تلميذاً[5]، وبذلك

---

(١) الأولى التعميم لأن مالكاً لم يقتصر على حديث أهل الحجاز، ومن ذلك أنه حدث من طريق المصريين. انظر: الجرح والتعديل ٣١/١.

(٢) موطأ ابن زياد ٣١. (٣) المقدمة ٤٤٩.

(٤) هذا الكلام ليس على إطلاقه فقد رحل أهل القيروان منذ وقت مبكر إلى العراق وخراسان والشام وغيرها. انظر: فصل الرحلة من هذه الرسالة.

(٥) انظر: المعالم ٨٣/٢، وبعد البحث تبين لي أنهم ٤٤ راوياً كما سيأتي في مبحث الرواة عن مالك.

كثر رواة الموطّأ بالقيروان، وانتشر علم مالك، فأقبل عليه النّاس ووجدوا فيه الحصن الواقي من الاتّجاهات الخارجيّة الخطرة التي كانت تجتاح البلاد.

ثمّ جاء الإمام سَحنون فجمع في مدوّنته علم مالك وفقهه، واستشهد لمسائلها بالآثار، فأصبحت عمدة المذهب، والكتاب الثّاني بعد الموطّأ، وقد أخذها عنه أهل إفريقيَّة والمغرب والأندلس، حتى بلغ تلاميذه نحو السّبعمائة[1]، نشروا علم مالك في هذه البلاد، قال الخُشَنِيّ: «ثمّ قدم سَحنون بذلك المذهب، وجمع مع ذلك فضل الدّين والعقل والورع والعفاف والانقباض، فبارك الله تعالى فيه للمسلمين، فمالت إليه الوجوه وأحبته القلوب، وصار زمانه كأنه مبتدأ، وقد محا ما قبله فكان سراج القَيْرَوان»[2]، وأقبل تلاميذ سَحنون ومن بعدهم على التّصنيف في المذهب واهتمّوا بالمدوّنة خاصّة، ما بين شارح ومختصر ومعلّق، ثم جاء ابن أبي زيد (٣٨٦) الملقّب بمالك الصغير، وعلى يديه استقرّ المذهب، فهو الذي «لخّص المذهب وضمّ نشره، وذبّ عنه، وملأت البلاد تآليفه»[3]، واستمرّ المذهب في نموّ حتّى صار في مطلع القرن الخامس هو المذهب الوحيد بإفريقيَّة، وهكذا أصبحت القيروان هي المركز الثّاني للمذهب المالكي بعد المدينة المنوّرة، وقد وجد أهل إفريقيَّة في علماء هذا المذهب المثال الصّادق للالتزام بالإسلام، من التقوى والورع والقيام بالحق، فهم كإمامهم مالك يكرهون مداخلة السّلطان، ويتعفّفون عن عطايا الأمراء، ويقومون بوظيفة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر[4]، مهما أدى إليه ذلك من تضحيات، فارتفعوا في أعين النّاس إلى مقام الأولياء[5]، فالتحموا معهم في جبهة قوية، صمدت أمام ظلم الحكّام واستبدادهم، وأمام أهل الأهواء والبدع، حتّى انتصروا للسّنّة ومذاهب السّلف.

---

(١) انظر: الشجرة ١/٦٩.

(٢) المعالم ٢/٨٣.

(٣) الديباج ١٣٧.

(٤) انظر: الرياض ١/٤٤٧.

(٥) مقدمة الرياض لمؤنس ١/١٤ م.

جـ ـ الفرق الكلاميّة بالقَيْرَوان:

إنّ معظم الفرق التي ظهرت بالمشرق قد وجدت لها صدى في إفريقيّة، ويكون ذلك غالباً عن طريق الدّعاة الذين يرسلونهم إلى الآفاق؛ للبحث عن أنصار في مواطن بعيدة عن متناول يد الخلافة التي ما انفكت تطاردهم، وربما كان عن طريق بعض أهل إفريقيَّة الذين يتأثّرون أثناء رحلتهم إلى المشرق بأفكار هذه الفرق[1]، وقد كان لوجود هذه الفرق أثر واضح في الحياة العلميّة كما سيتبيّن من خلال هذا العرض السّريع:

١ ـ الخــوارج[2]:

ظهرت هذه الفرقة إثر التّحكيم بين عليّ ومعاوية، رضي الله عنهما، في موقعة صِفّين، وكانوا في جيش علي فخرجوا عليه عندما رضي بالتّحكيم، فقاتلهم علي، رضي الله عنه، ومن بعده من الخلفاء حتّى تشتّت شملهم، وتفرّقوا في الأمصار، فانقسموا إلى عشرين فرقة[1]، وقد ساعد على ظهور النّزعة الخارجية في المغرب ما تعرّض له البربر المسلمين من ظلم بعض العمال، كما تقدم، في عصر الولاة، فوجدوا في تعاليم الخوارج سنداً للخروج على الحكّام، قال السَّلَّاوي: «. . . وحسُن موقعها لديهم؛ بسبب ما كانوا يعانون منه من وطأة

---

(١) انظر مثلاً: ط الخشني ٢٢٠.

(٢) انظر عن الخوارج في إفريقية: الاستقصاء ١٠٧/١، ١٠٨، الخلافة والخوارج ٢٠ ـ ١٣٥، تاريخ المغرب العربي ٢٨٤/١ ـ ٢٩٥، المؤنس ٤٦، ٥٠، ٥٧ ـ ٦٢، الفرق الإسلامية ١٤٠ ـ ١٥١، الحياة الاجتماعية ٩٣، ٩٤، الصراع المذهبي ١٩٤ ـ ١٩٧، المدارس الكلامية ٦٧ ـ ١٥٦، العبر ٤٠/٤، ١١٠/٦، ١٣/٧ ـ ١٧، معالم تاريخ المغرب ١٠٠ ـ ١٠٧، النظم الاجتماعية ١٦ ـ ٢٠، الخوارج في بلاد المغرب ٢٤ ـ ٩٥، رحلة التجاني ١٢٧، ١٨٧، ٢٠٨، ٣٢٢، أهم الفرق الإسلامية ٦٦، ٦٩.

(٣) الفرق بين الفرق ٧٢.

الخلافة القُرشيَّة وجور بعض عمالها، فلقّنهم أهل البدع أنّ الخلافة لا يشترط فيها القُرَشيّة، وأروهم ما هم عليه من التّصلّب في دينهم، فظهر للبربر ببادىء الرّأي أنّ ذلك هو عين التّقوى المأمور بها شرعاً»[1].

وقد دخل المغرب فرقتان فقط من فرق الخوارج هما: الإبَاضِيَّة والصُّفْرِيَّة، وكان ظهورهما في مطلع القرن الثّاني.

أ ـ الإباضيّة[2]:

تنسب هذه الفرقة إلى عبدالله بن إباض المِرّي[3]، ومن أهم مبادئهم: تكفير مخالفيهم من المسلمين كفر نعمة، تكفير مرتكب الكبيرة، عدم اشتراط القُرَشيّة في الخلافة، نفي رؤية الله في الآخرة، القول بخلق القرآن، إنكار الشّفاعة لمرتكب الكبيرة، تكفير بعض الصّحابة، يكثرون من التّأويل الباطل كتأويل الميزان بأنّه العدل، وتأويل الصّراط بأنه الدّين القيّم، تحريم دماء مخالفيهم من المسلمين وسبي ذراريهم، واعتبار دراهم دار توحيد إلا معسكر السّلطان، وجوّزوا مناكحتهم وموارثتهم، وهذا ما جعلهم أقدر من غيرهم على الاستمراريّة في المجتمعات السّنّيّة، وأوّل من أدخل الإباضيَّة إلى القَيْرَوان هو سلمة بن سعد الحَضْرَمِيّ[4]، وعنه فشت في قبائل المغرب، ثم وقع إرسال بعثة إلى البصرة، حيث تمّ تكوينهم لمدّة خمس سنوات، على يد مُسلِم بن أبي كريمة زعيم الإباضيَّة، وسمّوا طلبة العلم، وبعد رجوعهم تفرّقوا بين القبائل ناشرين لأفكارهم، وكانت ثمرة جهودهم أن قامت في كامل أنحاء المغرب فتن

---

(١) الاستقصاء ١/١٣٦، ١٣٧.
(٢) راجع التعليق رقم (٢) ص ٩٦.
(٣) الفرق بين الفرق ١٠٣.
(٤) انظر: الخوارج في بلاد المغرب ٤٦، النظم الاجتماعية ١٦.

كقطع اللّيل المظلم، تمثّلت في تلك الحروب التي استمرت أكثر من عشرين سنة تمّ بعدها إقصاء الإباضيَّة عن إفريقيَّة، فأسَّسوا دولتهم بتَاهَرْت سنة **١٦١** هـ. ومع ذلك فقد استمر دعاتهم في إلقاء دروسهم في جامع القَيْرَوان إلى أن منعهم سَحنون سنة **٢٣٤** هـ.

ومن أكبر علمائهم محمد بن أفلح (ت **٢٨١**) الذي ألّف أربعين كتاباً في الاستطاعة لم يبق منها إلاّ رسالة في خلق القرآن[١]، وأبو خزر الحامّي (ت **٣٨٠**) صاحب كتاب الرّدّ على جميع المخالفين[٢]، وفي تَاهَرْت انقسم الإباضيّون على أنفسهم، وظهرت فرقة النُّكار الذين أنكروا إمامة عبدالوهاب بن عبدالرحمٰن بن رُسْتُم، ومن زعمائهم: أبو يزيد صاحب الثّورة الشّهيرة ضدّ العُبَيديّين، وقد قام بمنكرات لا يفعلها حتّى أعداء الدين؛ لأنّ مذهبه تكفير أهل السّنّة واستباحة أموالهم ونسائهم[٣].

ب ـ الصُّفْرِيَّة[٤]:

اختُلف في نسبتهم والرّاجح انتسابهم إلى زياد بن الأصفر[٥]. ويشترك الصُّفْرِيَّة مع الإباضيَّة في أغلب مبادئهم، إلا أنّهم أكثر تشدّداً مع المخالفين حيث كانوا يستحلّون سبيهم، ودماءهم، ونساءهم، ولذلك لم تطل حياة هذه الفرقة في المغرب، وتكاد المصادر تجمع على أنّ أوّل داعية للصُّفْرِيّة بالقَيْرَوان هو عِكْرِمَة

(١) انظر: المدارس الكلامية ١٤٦.

(٢) المدارس الكلامية بإفريقية ١٤٤.

(٣) انظر: المؤنس ٥٧، رحلة التجاني ٣٢٨.

(٤) انظر عن الصفرية بإفريقية: الاستقصاء ١/١٠٨، تاريخ المغرب ١/٣٣٩، ٣٤٢، المدارس الكلامية ١١٢، ١٢٥، ١٤٧، ١٤٩، المغرب العربي ٨٨، البيان المغرب ١/٥٩، الرياض ١/١٦٠، أهم الفرق الإسلامية ٦٥، ٦٩.

(٥) انظر: الفرق بين الفرق ٩٠، دائرة المعارف ١٤/٢٢٩.

مولى ابن عبْاس[1]، الذي دخلها في مطلع القرن الثاني ودرّس بجامع القيروان، واتصل به بعض رؤساء القبائل خفية، ومن أشهرهم مَيْسَرَة المَطْغَرِي الذي تزعّم الصُّفْرِيّة بعد ذلك، وهو الذي أعطى إشارة الإنطلاق لثورات البربر بقيادته لثورة سنة ١٢٢ هـ، ضدّ عُبَيد الله بن الحَبْحَاب، وفي سنة ١٤٠ هـ استولى الصُّفْرِيَّة على القيروان فاستباحوها، وعاثوا فيها فساداً حتّى ربطوا دوابّهم في جامع عُقبة[2] ثمّ طُردوا منها، فسارعوا بتأسيس دولتهم في سِجِلْمَاسَة في نفس السّنة.

وقد استمرّ دعاة الصُّفْرِيَّة أيضاً في نشر أفكارهم بجامع عُقبة بالقيروان إلى أن جاء سَحنون ففضّ حلق المخالفين.

ولم أعثر فيما بين يديّ من المصادر على أسماء لعلماء من الصُّفْرِيّة، أو لمؤلّفات تبسط أفكارهم، غير إنّ ردود أبي خزر الحاميّ الإباضي (ت ٣٨٠) تجعلنا نعتقد وجود مؤلّفات لهم لم تصلنا أسماؤها[3].

إنّ وجود الخوارج بإفريقيّة والويلات التي جرّوها على البلاد جعل أهل القيروان يزدادون تمسكاً بالنّصوص الشّرعيّة، ووقوفاً عندها، وينفرون من التّأويل والجدل، ويرفضون كلّ دعوة منحرفة، «ومن هنا كان تعلّق النّاس بسنّة الرّسول ﷺ فنبذوا كل من يُجَافيها، ولذلك لم تستطع المذاهب المبتدعة أن تعمّر طويلاً في هذه البلاد، فما تكاد تطفو على السّطح حتّى يلتفّ حولها الوعي السّنّي فيدحرها ويفلّ أسلحتها مهما كانت عاتية ومرهقة»[4].

ولم يكن العلماء في هذه المرحلة المبكّرة يستمرئون طريقة الجدل، فقد

---

(١) انظر مثلاً: الخوارج في بلاد المغرب ٤٦، التهذيب ٢٦٧/٧ مع الملاحظ أن أبا العرب والمالكي لم يشيرا إلى ذلك وذكراً بثه للعلم. انظر: الرياض ١٤٦/١، ط أبي العرب ١٩.

(٢) انظر: البيان المغرب ١/ ٧٠.

(٣) انظر هذه الردود في: الفرق الكلامية ١٤٦، ١٤٧.

(٤) تدريس السنة النبوية في الزيتونة ص ١.

أحجموا عن المناظرة والخوض في المسائل العقائديّة اقتداءاً بسلف الأمّة[1]، ولذلك لم يدخل علماء القيروان في مجادلات مع الخوارج، ولم يؤلّفوا في الرّدّ عليهم، فقد كتب عبدالله بن فروخ إلى الإمام مالك: «إنّ بلدنا كثير البدع، وإنّه ألّف كلاماً في الرّدّ عليهم، فنهاه الإمام مالك عن ذلك خشية «أن يكون ذلك سبباً لإظهار طريقة الجدل بإفريقيّة... فأراد حسم الباب»[2].

وقد تمثّلت مقاومتهم للخوارج في مقاطعتهم، فلا يسلّمون عليهم، ولا يردّون عليهم السّلام، ولا يجالسونهم ولا يخالطونهم، وينبذون من يجالسهم، ولا يمشون في جنازة من مات منهم، وقلّدهم العامّة في ذلك، واشتدّوا على أهل البدع، ومن هنا نجد كتب تراجم الأفارقة تثني على المترجم له بمباينة أهل الأهواء، والمعاداة لهم، والشدّة عليهم[3].

٢ ـ المعتزلة[4]:

تعود نشأة الاعتزال إلى الاختلاف الواقع بين واصل بن عطاء (ت ١٣١) والحسن البصري (ت ١١٠) حول مرتكب الكبيرة[5]، فكان واصل أوّل من أظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين، ودعا إلى بدعته حتّى صار له أتباع، فوجّه دعاته إلى أنحاء العالم الإسلامي، وكا مبعوثه إلى إفريقيّة هو عبدالله بن الحارث[6] الذي دخلها في بداية القرن الثّاني، بُعيد دخول دعاة الخوارج، ولم تشر المصادر إلى نشاط ابن الحارث في إفريقيّة، غير أنّ ظهور الاعتزال في القيروان ـ حتى

---

(١) انظر: المسائل الكلامية ١٠، ٤١.
(٢) الرياض ١/١٧٧.
(٣) انظر مثلاً: المعالم ١/٢٦٦، ط أبي العرب ٥٤، الرياض ١/١٧٦.
(٤) انظر عن الاعتزال بالقيروان: ط أبي العرب ٥٥، ٨٢، ١٢٩، ط الخشني ٢١٩، ٢٢١، سير أعلام ١٤/٢٠٦، المدارك ١/٦٤، ٣/٤٨٦، الصراع المذهبي ٩٢، الوضع الاجتماعي ٩٥، المدارس الكلامية ١٥٨.
(٥) انظر: الفرق بين الفرق ٢٠، ١١٥، ١١٧، ١١٨.
(٦) انظر: المدارس الكلامية ١٦٢، الصراع المذهبي ٩٢.

تبنّاه بعض الولاة الأغالبة - وبين قبائل البربر يدلّ على أنّه قد بذل جهداً كبيراً في سبيل نشر أفكاره، هذا الجهد الذي تدعّم فيما بعد بالوافدين ضمن الجند من معتزلة العراق، وببعض طلبة القيروان الذين رحلوا إلى العراق[1]، بل إنّ بعض معتزلي المشرق راسل فقهاء القيروان يدعوهم إلى الاعتزال[2]. وقد كان للمعتزلة بالقيروان سقيفة يتناظرون فيها[3]، كما كانوا يدرّسون نظريّاتهم في جامع عُقبة[4]، وتمكن المعتزلة في هذه الفترة من منصب القضاء مرّتين بالقيروان شدّدوا فيهما على أهل السّنّة، وامتحنوهم بسبب امتناعهم عن القول بخلق القرآن[5].

وقد أثار المعتزلة بالقيروان عدة مسائل كلاميّة منها: مسألة الأسماء والصفات، ورؤية الله في الآخرة، والقدر، والوعد والعيد، والاستطاعة والإرادة، غير أنّ جلّ اهتمامهم كان منصبّاً على مسألة خلق القرآن، التي نافحوا عنها ووضعوا فيها المصنّفات، وقد كثر المناظرون من المعتزلة بالقيروان حتّى خصّص لهم الخشني فصلاً في طبقاته[6]، وقد وقف علماء القيروان منهم في البداية موقف الاعتزال والمقاطعة. قال محمد بن الحدّاد: «جزت بسقيفة العراقي وهم يتناظرون في الاعتزال، فوقفتُ أسمع منهم، فبلغ ذلك بُهلولاً فلما جئته أقبل عليّ وجعل يقول: أما بلغني أنّك مررت بسقيفة العراقي وهم يتناظرون في القدر فوقفتَ إليهم تستمع منهم؟ وأغلظ عليّ»[7]. كما كانوا لا يصلّون على موتى المعتزلة[9]، ولا يسلمون عليهم، وعلى ذلك مدار معرفة الحقّ من الباطل عندهم، غير أنّ أمرهم بدأ يذيع، فاضطرّ علماء أهل السّنّة للدّخول في الحجاج

---

(١) انظر: ط الخشني ٢٢٠. (٢) انظر: المدارك ٣/٤٨٦.

(٣) انظر: الرياض ١/٢٠٤، ط أبي العرب ٥٥.

(٤) انظر: المؤنس ٥٠، الرياض (مؤنس) ١/٢٧٦.

(٥) وذلك على يد ابن أبي الجواد والصدفي. انظر: تاريخ قضاء القيروان خط ٢٠، ٣٨.

(٦) ط الخشني ٢١٩.

(٧) ط أبي العرب مع ١٢٩، الرياض ١/٢٠٤.

(٨) انظر: ط أبي العرب ٣٤.

والمناظرة؛ للمنافحة عن السّنّة بعد إحجامهم عن الجدل في المرحلة السّابقة، كما أقبلوا على التّصنيف للرّدّ على المبتدعة. ومن هذه المناظرات ما وقع بين أسد بن الفُرات، وسليمان الفرّاء شيخ المعتزلة بالقيروان (ت ٢٦٩) حول رؤية الله في الآخرة، حيث أنكر الفرَّاء دلالة الآية والحديث اللّذين استشهد بهما أسد فقام إليه وضربه[١].

كما ناظر محمدُ بن سَحنون (ت ٢٥٦) الفرّاءَ في مسألة الأسماء والصّفات. قال الفرّاء: «يا أبا عبدالله، الله سمى نفسه؟» أراد أن يقول له: نعم، فيثبت عليه الإقرار بحدوث الأسماء والصّفات، فقال له ابن سَحنون: «الله سمّى نفسه لنا ولم يزل وله الأسماء الحسنى»[٢]، كما كان لسعيد بن الحدّاد معهم مناظرات رجع بها عدد من المبتدعة[٣]. منها ما دار بينه وبين الفرّاء حول الجهة، قال الفرّاء: أين كانت ربّنا إذ لا مكان؟ فقال له ابن الحدّاد: «السؤال محال؛ لأنّ قولك: أين كان، يقتضي المكان، وقولك: إذ لا مكان، ينفي المكان، فهذا نعم لا...»[٤].

ولقد كانت أغلب مناظرات المعتزلة حول خلق القرآن، فقد كان شيخهم الفرّاء يناظر فيه وله فيه كتب، وكان أبو إسحاق المعروف بالعمشاء «يذهب إلى خلق القرآن، ويناظر فيه المناظرة الشّديدة، وله في ذلك داعية ولمَّة وأصحاب وأحزاب»، وكان محمد بن الكَلاَعِيّ يجادل عن القول بخلق القرآن، وألّف في ذلك كتاباً، وكان محمد المُسَحي من مقدّميهم في المناظرة في خلق القرآن...[٥].

وقد ناظرهم في ذلك علماء السّنّة، وأشاعوا الرّدود على هذا الأمر في

(١) انظر: الرياض ١/٢٦٤، ٢٦٥. (٢) ط الخشني ١٩٨.
(٣) انظر: سير أعلام ١٤/٢٠٦، الرياض ٢/٧٠.
(٤) انظر: ط الخشني ١٩٨.
(٥) انظر عن هذه النماذج: ط الخشني ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢.

مجالسهم العلميّة، من ذلك أنّ أسداً كان يفسّر لتلاميذه قول الله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِي﴾، فقال: «ويح لأهل البدع، هلكت هوالكهم، يزعمون أنّ الله عزّ وجلّ خلق كلاماً يقول ذلك الكلام: أنا الله»[1].

ولذلك كان موقف العامّة ممّن رُمي بهذه البدعة شديداً فضلاً عمّن ثبتت عليه ودافع عنها، من ذلك أنّ البُهلول بن عمر التُّجِيبِي، وهو من أصحاب مالك، نُسب إلى القول بخلق القرآن فلمّا مات «رُمي نعشه بالحجارة، وقال النّاس: الوادي الوادي، أي ألقوها في الوادي»[2]. وبلغ من مقاومة أهل إفريقيَّة لهذه البدعة أن نقشوا في مساجدهم: «القرآن كلام الله ليس بمخلوق»[3]، بل إنّ منهم من يوصي بكتابتها على قبره بعد وفاته[4].

وقد شاع في هذه المرحلة التّصنيف في الرّدّ على أهل البدع كطريقة أخرى لمقاومتهم، من ذلك أنّ محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦) ألّف الحجّة على القدريّة، الرّدّ على أهل البدع، وألف أحمد بن يزيد القُرَشِي (ت ٢٨٤) كتاب السّنّة، وقد تضمّن الأحاديث النّاهية عن البدع، وألّف يحيى بن عون الخُزَاعِي (ت ٢٩٨) كتاب الحُجَّة، وألّف سعيد بن الحدّاد (ت ٣٠٢) كتاب الاستواء، وكتاباً في الرّدّ على من يقول بخلق القرآن، وكتب محمد بن مَحْبُوب (ت ٣٠٧) في الرّدّ على القَدَرِيَّة، كما ألّف ابن أبي زيد (ت ٣٨٦) رسالة في الرّدّ على القدريّة، ناقض بها الرّسالة التي كتبها علي بن أحمد البغدادي المعتزلي نزيل مصر ووجّهها إلى فقهاء القيروان يدعوهم فيها للاعتزال.

ومن صور مقاومة الاعتزال في القيروان ما قام به الإمام سحنون، فإنّه منعهم من إلقاء مسائلهم في المساجد، «وعزلهم أن يكونوا أئمّة للنّاس أو معلّمين

---

(١) انظر: ط أبي العرب ٨٢، الرياض ١/٢٦٥، والآية في سورة طه ١٤.

(٢) انظر: ط أبي العرب ٩١.

(٣) انظر: حسن البيان ١٩٩، المدارك ١/١١.

(٤) المدارك ١/٦٠٠.

لصبيانهم أو مؤدّبين، وأمرهم ألّا يجتمعوا، وأدّب جماعة منهم بعد هذا خالفوا أمره، وأطافهم وتوّب جماعة منهم»[1].

كما أنّه أفتى في أهل البدع أنه: «لا يسلّم عليهم، ولا يناكحوا، ولا يعاد مريضهم، ولا تشهد جنائزهم أدباً لهم، ويؤدّبون ويسجنون حتّى يرجعوا عن بدعتهم[2]»، فلم يزل لذلك أمر المعتزلة في تناقص، ولمّا جاءت دولة بني عُبيد تشرّق بعضهم[3]، غير أنّ ذلك لم يفدهم، وزال أثرهم من إفريقيَّة.

وهكذا أسهم الاعتزال في إثراء الحياة الفكريّة بالقيروان، إذ كان من أهمّ الأسباب التي دفعت بعلماء أهل السّنّة إلى انتحال النّظر والتّحلّي بالجدل؛ للدّفاع عن السّنّة، ووضعوا في ذلك المصنّفات[4].

٣ ـ الشّيعة الإسماعيليَّة:

تمتاز هذه الفرقة عن سابقاتها بأنّها كانت صاحبة سلطان استعملته لقهر النّاس على اعتناق فكرها، ولقد سبق الحديث بما فيه الكفاية[5] عن نشأتهم في إفريقيَّة وأساليبهم في نشر أفكارهم، من التّعطيل والإباحيّة وإماتة السّنّة، وكذا الحديث عن مقاومة أهل السّنّة لهم. ولعلّه من المفيد هنا أن أشير إلى أهمّ المسائل الفكريّة التي أثاروها في القيروان أثناء مناظراتهم لعلمائها، ويمكن أن نلاحظ عن هذه المناظرات ما يلي:

ـ إنّه لم يصلنا منها إلّا القليل، فإنّ مناظرات ابن الحدّاد وحدها قد قاربت الأربعين مجلساً لم يصلنا منها إلّا أربعة[6]، هذا عدا مناظرات ابن التّبّان التي لم

---

(١) الجامع في السنن ١٢٦.
(٢) انظر: ط الخشني ٢٢٤.
(٣) انظر: ط الخشني ١٩٨ ـ ٢١٩.
(٤) انظر: ما تقدم في الجانب السياسي من الحديث عن هذه الفرقة.
(٥) انظر: ورقات ١/٢٥٩.
(٦) انظر: المدارك ٣/٥٢١.

يصلنا منها إلا مجلس واحد[1]، ومناظرات ابن القَمُّودِي التي لم يصلنا منها شيء. . .

ـ لقد كان العُبيديّون وهم يناظرون كبار علماء السّنّة شديدي الحيطة، فلم ينزلقوا في الاستشهاد بأحاديث موضوعة، كالتي شاعت في مصنّفاتهم[2]، وذلك حتّى لا تكون حجّة سهلة في يد الخصم، كما أنّهم تجنّبوا المواضيع العقائديّة الشّائكة البيّن بطلان رأيهم فيها، حتّى لا تكون مدعاة للنّفور السّريع من مذهبهم.

ـ نلاحظ فيما وصلنا من هذه المناظرات أنّ أكثر ما نقل عن العُبيديّين فيها هو الأسئلة، أمّا الأجوبة فكانت من نصيب السّنّيّين.

ـ إنّ هذه المجالس تنتهي عادة بدعوة المناظر السّنّي للدّخول في دعوتهم[3].

وقد تناولتْ هذه المناظرات الموضوعات التّالية:

ـ المفاضلة بين الصّحابة، وقد حاول العُبيديّون إبراز فضائل عليٍّ، والتّنقيص من بقيّة الصّحابة وخاصّة أبي بكر وعمر رضي الله عنهم جميعاً، كما أثاروا مسألة موالاة علي، وأرادوا الاستدلال بها على وجوب تعبيد النّاس لهم[4].

ـ المفاضلة بين عائشة وفاطمة رضي الله عنهما[5].

ـ حجّية القياس، وقد أنكرها العُبيديّون[6].

---

(1)، (2) انظر مثلاً: المدارس الكلامية، وقد نقل عن كتبهم بعض الأحاديث ص ٢٣٥ ـ ٢٧٢.

(3) انظر مثلاً: ط الخشني ٢٠٢، المدارك ٥٢٢/٣.

(4) انظر: الرياض ٥٩/٢، ٧٩، ٨١، ٨٣ ـ ٨٥، سير أعلام ٢٠٧/١٤، ٢٠٩، ط الخشني ٢٠٠، المدارك ٥٢٢/٣.

(6) انظر: الرياض ٧٧/٢، سير أعلام ٢٨/١٤، ط الخشني ٢٠٠.

ـ تعريف الألوهية، والسّنّة، والعمل في مختلف الحديث[1].

ـ تقديم المفضول على الفاضل وقد رفضها العُبَيديون[2].

ـ النّصّ على خلافة علي رضي الله عنه[3].

ـ معرفة أهل الجاهليّة لربهم؟[4].

ـ مدى احتياج المتعلّم إلى المعلّم[5].

ـ صلاة قيام رمضان، وقد انتهت بقول داعيتهم: «من صلى القيام ضربت عنقه»[6].

ـ أدلّة حد شارب الخمر[7].

ـ كون محمد ﷺ خاتم النّبيّين، وقد أنكر ذلك العُبيديّون[8].

أمّا كتب مفكْريهم فقد اشتملت على طامّات كبرى يستغرب الباحث من عدم إشارة ما وصلنا من الكتب الإفريقيّة إليها، فلعلّها لم تقع بين أيديهم لحرص العُبيديّين على إخفائها، وقد لاحظ صاحب المدارس الكلاميّة أنّ: «للإسماعيليّة كتب تسمّى كتب الظّاهر وأخرى كتب الباطن... أما كتب الباطن فهي تضمّ حقيقة المذهب، وقد كانت تأويليّة رمزيّة، وهي في أغلبها بقيت سرّية... ولعلّ في وجود كتب الظّاهر رغبة من الإسماعيليّة في إبراز وجههم المعتدل حتّى يخفّفوا من ضغط الخصوم»[9]، وقد ساهم بعض أمرائهم في وضع أسس

---

(١) انظر: الرياض ٢/٧٦، ٧٧، ٩٢، سير أعلام ١٤/٢٠٨، ٢١٢، ط الخشني ٢٠٢.

(٢) انظر: ط الخشني ٢٠٨.

(٣) انظر: ط الخشني ٢٠٩، ٢١٠.

(٤) انظر: الرياض ٢/٩٢، سير أعلام ١٤/٢١٣، ط الخشني ٢٠٦.

(٥) انظر: الرياض ٢/٨٦، ط الخشني ٢٠٤.

(٦) انظر: الرياض ٢/٦٠ ـ ٦٢.

(٧) انظر: الرياض ٢/٧٨.

(٨) انظر: الرياض ٢/٦٢.

(٩) المدارس الكلامية ٢٩٢، ٢٩٣.

المذهب[1]، إلّا أنّ أبرز مفكّريهم في القَيْرَوان هو أبو حنيفة النُّعمان بن محمد القاضي[2] وهو يعدّ مؤسّس الفقه الإسماعيليّ، ذكر له صاحب تاريخ التّراث **٢٦** كتاباً صنّفها في فقههم، وقد قال الحافظ ابن حَجَر في لسان الميزان: «في تصانيفه ما يدلّ على انحلاله»[3]، ومن مصنّفاته: مختصر الآثار فيما روي عن الأئمّة الأطهار[7] ـ مناقب بني هاشم ومثالب بني أُميّة ـ أساس التّأويل ـ المجالس والمسايرات ـ دعائم الإسلام ـ اختلاف أصول المذاهب، وغيرها.

أمّا أصول مذهبهم فهي: القرآن، ويتأوّلونه حسب أهوائهم، والحديث المرويّ عن رجالهم، وجلّه موضوع أو مؤوّل على غير وجهه، ثم اجتهاد الأئمة، فالإمام عندهم هو المصدر الثّالث للتّشريع[4] وينكرون الإجماع والقياس.

ويذهبون إلى أنّ لفظ القرآن من عند الرسول ﷺ أمّا المعنى فمن الله، كما أنّ النّبيّ عندهم يمرّ بعدة مراحل قبل أن يتّصل بالرسالة، وأنّه مختصّ بعلم الظّاهر بينما يختصّ الأئمّة بعلم الباطن[5]. وضلالهم غير هذا كثير، تركته رغبة في الاختصار، وفيما ذكرته كفاية لخدمة هذا المبحث.

٤ ـ المُرْجِئَة:

وهم الذين يؤخّرون العمل عن الإيمان[6]، فالإيمان عندهم مجرّد الإقرار، ولم يُعرَف لهذه الفرقة بالقيروان أتباع ولا مصنّفات، غير أنّ الذي يجعل الباحث يجزم بدخولها إلى إفريقيّة ـ وإن لم تعمّر فيها ـ وجود تصنيف في الرّدّ عليها،

---

(١) انظر: تاريخ التراث ٣٥٩/٣/١.

(٢) انظر عنه: الخطط ٣٤١/٢، الولاة والقضاة ٤٩٤، تاريخ التراث ٣٦٣/٣/١، اللسان ١٦٧/٦.

(٣) اللسان ١٦٧/٦.

(٤) انظر: المدارس الكلامية ٢١٩، ٢٤٥، وراجع إحالاته على كتبهم.

(٥) انظر: المدارس الكلامية ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٩٢.

(٦) انظر: الفرق بين الفرق ٢٠٢.

حيث ألّف يحيى بن عمر (ت ٢٨٩) كتاب الرّدّ على المرجئة[١]، كما أنّ يحيى بن سلّام (ت ٢٠٠) قد رُمِي بالإرجاء خطأ فأقسم أنْه ما عَبَد الله على شيء من الإرجاء قط[٢]، وقد ظهرت بعد ذلك براءته.

وهكذا تبيّن لنا أنّ إفريقيَّة قد تلقّت الإسلام النّقي على يد الصّحابة والتّابعين، فتربّت على مذاهب السّلف، ثمّ دخلتها نحل الخارجيّة والرّفض والاعتزال، فقاوم أهلها هذه البدع، ونافحوا عن السنة، وقد اعتصموا بمذهب مالك لتمسّكه بنصوص الكتاب والسّنّة وبعده عن التّأويل ومزالقه، وقد أحجم أهل إفريقيَّة في البداية عن جدال المبتدعة ثم اضطرّوا لذلك، فظهر منهم علماء أفذاذ برعوا في المناظرات، والرّدّ على المخالفين، وصنّفوا في ذلك المصنّفات فالمحت البدع، وتمحّضت إفريقيَّة للسّنّة ومذهب مالك، قال السَّلَّاوي: «فبعد أن طهّرهم الله تعالى من نزعة الخارجيّة أوّلاً والرّافضة ثانياً أقاموا على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة مقلّدين للجمهور من السّلف رضي الله عنهم في الإيمان بالمتشابه، وعدم التّعرّض له بالتّأويل، مع التّنزيه عن الظّاهر، وهو ـ والله ـ أحسن المذاهب وأسلمها»[٣].

---

(١) انظر: المدارك ٣/٢٣٦.

(٢) انظر: ط أبي العرب ٣٧.

(٣) الاستقصاء ١/١٤٠.

٤ ـ الوضع الاجتماعي[1] وأثره في الحياة العلميّة

عندما فتح المسلمون إفريقيَّة كان يقيم فيها الرّوم البيزنطيّون وهم الفَرَنْجَة[2]، وكانوا قد استولوا على البلاد وأذلّوا أهلها، كما كان فيها البربر[3] وهم سكّانها الأصليّون، والأفارقة وهم سكان إفريقيَّة الذين وفدوا إليها من مختلف البلاد وهم لا يرجعون فيها إلى أصل بعيد.

وقد استمات الرّوم في مقاومة المسلمين دفاعاً عن سلطانهم، فأبيد كثير منهم، ومنهم من عادوا إلى بلادهم، ولم يبق في إفريقيَّة إلّا القليل، وكذا الأفارقة لارتباط مصالحهم بمصالح الرّوم؛ فإنّهم دخلوا في خدمتهم، أمّا البربر فقد كانت مقاومتهم أوّل الأمر شديدة ظنّاً منهم أنّ هذا الغازي كسابقيه لم يأت إلّا لاستغلال خيراتهم وتسخيرهم، فلمّا عرفوا سماحة الإسلام وعدله دخلوا فيه أفواجاً.

---

(١) انظر عن المجتمع القيرواني: المغرب الإسلامي ٨٥ ـ ٩٤، القيروان ١٤٦ ـ ١٥٣، قادة فتح المغرب ١/١٥ ـ ٢٠، حسن البيان ٨٤، ٨٥، ١٦٠، الحياة الاجتماعية ١٨٩ ـ ٢٠٠، الصراع المذهبي ٢٣٥ ـ ٢٣٩، المغرب الكبير ٢/١٣٣ ـ ١٤٠، البلدان ١٠٠، المجتمع التونسي ٣٦، الحياة الأدبية (بالفرنسية) ٢٥٠ ـ ٢٥٩، شهيرات التونسيات ١٠، ٢٥، ٦٢.

(٢) انظر: تاريخ ابن خلدون ٦/١٠٧.

(٣) يذهب كثير من المؤرخين إلى أن البربر هم قوم جالون فلما قتله داود عليه السلام انتقلوا من فلسطين إلى بلاد المغرب. انظر: مسالك ابن خرداذبة ٩١، فتوح مصر ١٧٠، العبر ٢/١٢٨.

ولمّا أسّس المسلمون مدينة القَيْرَوان سنة ٥٠ هـ سكنها أوَّلاً العرب ومن أسلم من البربر، ثمّ بدأت تستقطب مع الزّمن أجناساً متعـدّدة، وذلك مـا عبّر عنـه اليَعْقَـوبِيّ الـذي زار القيـروان في آخر القـرن الثّالث حيث قـال: «وفي مدينـة القَيْرَوان أخلاط من قُرَيش ومن سائر بطون العرب، من مُضَر وربيعة وقحطان، وبها أصناف من عجم البلاد: البربر والرّوم، وأشباه ذلك»(١).

أ ــ أهمّ عناصر المجتمع القيرواني:

يمكن أن نحصرهم فيما يلي:

١ ــ **العرب**: وأوّلهم الذين جاءوا مع عُقبة، ثمّ مع حسّان بن النّعمان وغيره من القادة، وقد تواتر وفودهم المكثّف على القيروان إلى آخر القرن الثّاني، وهم الذين قاموا بمهمّة التّعليم ونشر الإسلام واللّغة العربيّة في إفريقيَّة، كما كانت إدارة البلاد بأيديهم، وهم من قبائل شتّى من قريش وغيرها كما مر.

٢ ــ **البربر**: وقد كثرت انتفاضاتهم وارتدادهم عن الإسلام في أوّل الأمر، ثمّ أقبلوا على الإسلام والعلم، وحسن تديّنهم، غير أنّ سوء معاملة بعض العمّال لهم شجّعهم على الانتقاض من جديد، وكان هذا من أهمّ عوامل تقبّلهم للنّحل الخارجيّة، خاصّة في أطراف إفريقيّة، ممّا تسبّب في شلّ الحركة العلميّة فترة من الزّمن كما تقدّم، أمّا عمليّة التّعريب فرغم أنّها سارت مع الفتح جنباً إلى جنب، إلّا أنّها أخذت جهداً ووقتاً لا شكّ أنّه كان على حساب إثراء الحياة العلميّـة وسـرعة تقـدمها. وقـد شاع في إفـريقية التّصـاهر بين العـرب والبـربـر، وأدى إلى التمـازج وتقويـة الرّوابط الاجتمـاعيـة بين العنصـرين، وكـان ذلـك من أهمّ أسباب استقرار الإسلام لدى البربر، وانتشار لغته بينهم، وسرعان ما شارك البربر المسلمون إخوانهم العرب في طلب العلم، وزاحموهم بـالمناكب في حلقـات الـدرس، حتّى نبغ كثيـر منهم، فأصبحـوا معلّمين وساهمـوا في نشـر الثّقـافـة

---

(١) البلدان ١٠٠.

الإسلاميّة في إفريقيَّة، من أمثال عمر بن سُمُك مولى موسى بن نُصير، وهو من الرّواة عن مالك[1]، ومروان بن أبي شَحْمَة من طبقة سَحنون، سمع من وَكيع بن الجرَّاح وابن مَهْدِي فبرع في الحديث، وكان سَحنون يعرف له فضله[2]. وعيسى بن مِسكين (ت ٢٩٥)[3] الذي أدخل إلى القَيْرَوان مسند ابن سنجر، وأبي عِمران الفاسي[4] (ت ٤٣٠)، فقيه القيروان ومحدّثها، وغير هؤلاء كثيرون[5] برعوا في مختلف العلوم وكان لهم أبعد الأثر في إثراء الحياة العلميّة وازدهارها.

٣ ـ **فئات أخرى**: مثل الصّقالبة، والسّودان، وعجم الروم، وأكثرهم من الرّقيق أو الجند ولم يكن لهم في الحياة العلميّة دور يذكر.

٤ ـ **اليهود والنّصارى**: لقد وجدت الدّيانتان قبل الفتح الإسلاميّ[6]، ولكن لم يكثر انتشارهما بين البربر.

وقد عاش أتباع الدّيانتين في ظل الإسلام في أمان تام، حيث تمكّن النّصارى من بناء كنيسة لهم في القيروان في وقت مبكّر سنة ١٧٧ هـ[7]، وكانت لهم صلة بالسّلطان، وخاصّة العُبيديّين ومن بعدهم[8]، وقد وقعت مناظرات بينهم وبين المسلمين، من ذلك أنّ أحد كبار النّصارى دخل القيروان فناظره أبو محمد بن التَّبَّان (ت ٣٧١) مناظرة أفحمه فيها، حيث قال له: «أنتم تعتقدون

(١) انظر: الرياض ١/٢٥٣.

(٢) انظر: المعالم ٢/١٠٥، ط أبي العرب ١١٥.

(٣)، (٤) ستأتي ترجمتاهما رقم ٢٧ في المحدثين ورقم ٧ في المهاجرين.

(٥) انظر مثلاً: الشجرة ١/٦٨/٧٤، ١/٧١/٨٥، ١/٧٢/٩١، ١/٨١/١٥٢.

(٦) فالمسيحية دخلت حوالي ق ٣ م في الدولة الرومانية (١٤٦ق م ـ ٤٣٨)، الشجرة ٢/١٠٤، أما اليهودية فلعلها دخلت مع الجالية اليهودية إلى إفريقية بعد خراب بيت المقدس في ق ٢ م، ورقات ٢/٥٣، كما جاءت جالية في ق ٤ م، تاريخ معالم التوحيد ١٢٦.

(٧) أنظر: تاريخ الرقيق ١٨٥، المدارك ١/٦٢٣، الحلل ١/٣/٨٠٤.

(٨) انظر: المدارك ٣/٦١٩، ٧١٤.

ثلاثة؟ قال: نعم. فقال له: أخبرني: الواحد مفتقر إلى الاثنين أو مستغن عنهما؟، فضرب النّصراني على وجهه وأطرق وعليه كآبة الانقطاع»[1].

أمّا اليهود فيبدو أنّ عددهم كان أكبر؛ لأنّه كان لهم في القيروان حيّ خاصّ لسكناهم يسمّى اليَهُودِيَّة[2]، ولهم مقابر خاصّة، كما اختصّوا بسوق أيضاً[3]، وكانوا مقرّبين لبني عُبَيد وغيرهم، وأكثر أطبّاء الحكّام منهم، وكانوا يتصرّفون في التّجارة، وربما تقبّل بعضهم أسواق بعض القرى[4].

وكانوا يتدارسون أمور دينهم، ومنهم من برع فيها حتّى كانت الأسئلة ترد عليه من يهود الأندلس ومصر والعراق، ومن القيروان يتمّ تحديد مواقيت مواسم اليهود الدّينيّة، ولهم اتّصالات ومراسلات مع يهود بقيّة الأمصار[5]، كما أقبل اليهود على دراسة الطّبّ والفلك ونحوها، ولهم في ذلك مصنّفات. وقد اشترط الفقهاء على أهل الذّمّة صبغ طرف العمامة لتمييزهم عن المسلمين[6]، ولكن يبدو أنّهم في فترة ما حاولوا إفساد المجتمع القيرواني بتوسيع الملاهي، وإدخال الرّبا في المعاملات، فتشدّد معهم عبدالله بن طالب القاضي (٢١٧ ـ ٢٧٥)، وجعل على أكتافهم «رقاعاً بيضاء في كلّ رقعة صورة قرد وخنزير، وعلى أبواب دورهم ألواحاً مسمّرة مصوّر فيها قردة، وضيّق على أهل القيروان في ملاهيهم وملاعبهم وقطع المنكر والملاهي من القيروان»[7].

ب ـ المرأة القيروانيّة والعلم:

إنّ النّتف اليسيرة الواردة في هذا الشّأن رغم قلّتها تجعلنا نجزم بأنّ المرأة القيروانيّة قد نالت حظّاً وافراً من العلم، فقد كانت للبنات كتاتيب خاصة بهن؛

---

(١) المعالم ٣/٩٠.
(٢) انظر: الرياض ٢/٣١٠.
(٣) ط أبي العرب مح ١٣٠، بساط العقيق ١٥.
(٤) انظر: الرياض ٢/٥٠١.
(٥) انظر: ورقات ١/٢٨، ٢٩٧.
(٦) انظر: المعالم ٣/١٦١.
(٧) الرياض ١/٤٧٦.

لأنّ الإمام سَحنون كره خلطهنّ بالغلمان[1]، وكان المحدّث عيسى بن مسكين (ت ٢٩٥) قد خصّص فترة ما بعد العصر لتدريس بناته وبنات أخيه[2]، كما علّم سَحنون ابنته خديجة (ت ٢٧٠) حتّى برعت في الحديث والفقه فكانت لها بعد ذلك حلقة لتعليم النّساء، وكانت مفتية نساء أهل زمانها، وكذا علّم أسد ابنته أسماء (ت حوال ٢٥٠) حتّى برعت في رواية الحديث[3]، وقد وجد من نساء القيروان من حفظت القرآن الكريم وموطّأ الإمام مالك. قال أحمد بن نصر الفقيه (ت ٣١١): «تزوّجت امرأة حافظة لكتاب الله عزّ وجلّ، وحفظت الموطّأ، ولقد توفّي لها ولد أكله السّبع، فلمّا بلغها ذلك توضّأت وجلست تقرأ، ولم تعبأ بما طرأ عليها ولم تحزن»[4].

وبعضهنّ برع في الأدب والشّعر مثل: مَهْرِيّة الأغلبيّة (ت حوالي ٢٩٥)[5]، وأخريات برعن في الخطّ وكتبن المصاحف وحبّسنها علىٰ مكتبة جامع عُقبة[6].

جـ ـ من سمات المجتمع القيرواني:

يمكن إبراز أهمّ ملامح هذا المجتمع في النّقاط التّالية:

ـ لقد كان المجتمع القيرواني مجتمعاً نظيفاً، غلب على أهله التّعبّد وحبّ الخير والتّمسّك بالفضيلة، وكان العلماء بالمرصاد لكلّ بادرة من بوادر التّحلّل، فقد قطع القاضي ابن طالب (ت ٢٧٥) الملاهي[7]، وكسر مَرْوان بن أبي شَحمة

---

(١) انظر: آداب المعلمين ١١٧، وربما كُنّ أولاً يدرسن مع الصبيان حتى منعهن سحنون.

(٢) المدارك ٣/٢٢٧.

(٣) انظر عنهما: المجتمع التونسي ٣٦، المغرب العربي ٦٩، شهيرات ٤٦ ـ ٤٨ سحنون مشكاة نور ٩٠.

(٤) الرياض ٢/١٨٦.

(٥) انظر: ورقات ١/٨٦، بساط العقيق ٥٩.

(٦) انظر: المكتبة الأثرية بالقيروان ١٤ ـ ١٧.

(٧) انظر: الرياض ١/٤٧٦.

عوداً وجده بيد بعض الفتيان على باب الأمير[1]، وبنى الإمام سَحْنُون باب دار امرأة عُرفت بالفساد ونقلها بين قوم صالحين، وهكذا حافظت العاصمة الدّينيّة على مستوى رفيع من الأخلاق، إلاّ أنّ حياة المدن المجاورة، والتي كان يسكنها الأمراء وحاشيتهم، مثل: رقَّادَة وصَبْرَة والعَبَّاسِيّة قد عرفت المجون واللّهو، حتّى قال بعض الظّرفاء من أهل القيروان:

يا سيّد النّاس وابن سيّدهم ومن إليه الرّقاب منقادة
ما حرّم الشّرب في مدينتنا وهو حلال بأرض رَقَّادة[2]

أمّا ما ورد من حكايات في اللّهو، فقد وجدتُ أنّها خارج القيروان، أو داخل البيوت الخاصّة، ولم أجد سلفاً لصاحب الورقات في قوله بوجود حيّ للملاهي في القيروان يسمّى ربض البقريّة[3].

وقد عرف المجتمع القيرواني تكافلاً كبيراً وتضامناً بين أفراده، فقد كان العلماء والفقهاء وصلحاء الأغنياء يواسون الفقراء، ويهتمّون بأمر المحتاجين، ويتفقّدون أحوالهم، والأمثلة على ذلك لا تحصى، منها ما فعله البُهلول بن راشد (ت ١٨٣) عندما أخذ من أحد أصحابه مائة دينار كان عزم أن يحجّ بها، (وكان قد حجّ حجّة الإسلام)، وكان النّاس في ضيق، فأخذ يوزّعها على المحتاجين، «فواحد يقول له: تزوّج منها وعش بالباقي، وآخر يقول له: وسّع بها على عيالك وصبيانك، وآخر يقول له: استر بها وجهك»[4].

وكان سَحنون قد وضع نفسه في ماله كبقيّة الفقراء، فلا يأخذ منه إلاّ ما يحتاجه ويتصدّق بالباقي، قال بعض تلاميذه: «باع سَحنون زيتوناً له بنحو ثمانمائة

---

(١) ط أبي العرب ١١٥.
(٢) انظر: مسالك البكري ٢٨، ورقات ٢/١٩١.
(٣) ورقات ٢/١٨٣. (٤) المعالم ١/٢٧٢.

دينار فدفع ذلك المال إليّ فكان يبعث إليّ رقعة يقول: ادفع لفلان كذا وكذا دينار، ولفلان كذا، صدقة منه عليهم، حتّى فني المال كلّه»[1].

ـ وممّا تميّز به المجتمع القيرواني كثرة من فيه من العُبّاد، والزّهّاد، والصّلحاء، الذين غصّت بهم المساجد والحصون وقصور الرّباط، ولم تظهر لديهم انحرافات عقديّة كالقول بالحلول ونحو ذلك من البدع والضّلالات، فقد حافظوا على سنّيّتهم، وابتعدوا عن التّأويل ومزالقه[2]، وذلك لاشتغالهم بالعلم إلى جانب العبادة.

ـ ولقد شاهد تاريخ القيروان التحاماً كبيراً بين العلماء والعُبّاد وبين العامّة، حتّى أصبح العلماء هم القادة الحقيقيّين للشّعب وذلك لما عُرفوا به من التّقوى، والعزوف عن المناصب، والتّرفّع عن الدّنيا، والصّبر على المحن، والدّفاع عن المظلومين، والوقوف في وجوه الحكّام دفاعاً عن الدّين.. وكسبوا بذلك مكانة خاصّة لدى النّاس ولذلك تجدهم يفزعون إليهم في المُلمّات[3] ويقفون إلى جانبهم في محنهم، أمّا إذا مات أحد العلماء فإنّ الأخبية تضرب على قبره الأيّام الطّويلة، وتُنصب الأسواق عنده، حتّى يضطّر الحاكم إلى تفريقهم[4]، فكان المجتمع القيرواني من هذا المنظار ينقسم إلى قسمين: العلماء والعُبّاد وعامّة الشّعب من ناحية، والحكّام ومن سار في ركابهم من ناحية أخرى.

ـ وكان الإقبال على حضور مجالس العلم والذّكْر بالقيروان يشمل أغلب أفراد المجتمع ولم يكن خاصّاً بفئة معينة، لهذا نجد حتّى المزارعين يشاركون في ذلك[5]، فكثر عدد المتعلّمين.

---

(١) الرياض ١/٣٦٢.

(٢) موقف متصوّفة إفريقيّة ٧.

(٣) انظر مثلاً: الرياض ٢/١٢٤.

(٤) انظر مثلاً: المعالم ٢/١٣٦، الرياض ١/٤٥٥.

(٥) انظر: الرياض ١/٢٦٩.

٥ ـ الوضع الاقتصادي[1] وأثره في الحياة العلميّة

لقد زخرت كتب تاريخ المغرب بالحديث عن وفرة الغنائم التي أصابها المسلمون في إفريقيَّة[2]، والتي كان كثير منها يُحَوَّل إلى المشرق، واستمرّ ذلك طيلة فترة الفتح، فلمّا استقرّ الإسلام في البربر بدأ النّاس يشتغلون في الفلاحة والتّجارة، غير أنّ كثرة الثّورات والحروب شلّت الحركة الاقتصاديّة ومنعتها من النّمو، ولذلك كانت الخلافة تعين ولاّة إفريقيَّة بمائة ألف دينار سنويّاً[3]، إلى أن ازدهرت الأوضاع الماليّة في بداية عهد الأغالبة فتنازل إبراهيم بن الأغلب (١٨٤ - ١٩٦) عن المائة ألف، وتعهّد بإرسال أربعين ألفاً إلى الخلافة[4]، وقد بلغت إفريقيّة في ظلّ الأغالبة مبلغاً عظيماً من التّمدّن والحضارة، حيث نشطت الحركة التّجاريّة، وازدهرت الفلاحة والصّناعة، وظهر أثر ذلك في كثرة المنشآت العمرانيّة كالمساجد، والحصون، والقصور، والحمّامات، والفنادق، والأسواق، ومواجل المياه، كما أنشىء مستشفى (وهو المعروف بالدِّمْنة) للعلاج وإيواء العجزة، وكان من بينهم كثرة من أهل العلم[5]، وقد بلغ عدد الحصون والمحارس وقصور الرّباط التي أنشئت في عهد الأغالبة ثلاثين ألفًا، فإذا حدث

(١) انظر: القيروان ١٣٠ - ١٣٨، المجتمع التونسي ١١ - ١٤، بساط العقيق ٣٢ - ٣٨، الحياة الاجتماعية ١٧٤ - ١٨٣، الصراع المذهبي ٢٢٧ - ٢٣٣، المغرب الإسلامي ٥٤ - ٨٣، ذكرى المازري ٥٤، ٥٥.

(٢) انظر مثلاً: ط أبي العرب ١٦، المؤنس ٢٧.

(٣)، (٤) انظر: العبر ٤/١٩٦، الاستقصاء ١/١٣٥.

(٥) انظر: الرياض ١/٤١١.

أمر تُوقد النّار، فيتّصل الخبر في ليلة واحدة من سَبْتَة إلى الإسْكَنْدَرِيّة[1]، وكان أكثر من يؤمّها العبّاد وأهل العلم لحراسة المسلمين، كما أمّن الأغالبة طرق القوافل التّجاريّة وقضوا على قطّاع الطّرق.

وهذا الازدهار لا يعني عدم وجود بعض الأزمات الاقتصاديّة في عهد الأغالبة كما حدث في عهد إبراهيم بن أحمد (٢٦١ - ٢٨٩) حتّى اضطرّ إلى سبك حليّ نسائه، وثار عليه النّاس الثّورة المعروفة بثورة الدَّرَاهم[2].

فلمّا جاء العُبيديون افتعلوا الأسباب لأخذ أموال النّاس بكلّ طريق، وكثرت المغارم على الضّياع وغيرها، وحالوا بين الأموال وبين مستحقّيها وأعطوها إلى أتباعهم وإلى «. . . اليهود والنّصارى وأنفقوها في الخمور»[3] فأصاب النّاس في عهدهم ضيق شديد.

أمّا في عهد بني زيري فقد أخذت الحياة الاقتصاديّة تستعيد حيويّتها وازدهارها شيئاً فشيئاً، وخاصّة بعد مجاعة سنة ٣٩٥ هـ، التي خلت بسببها المساجد، ومات فيها كثير من العلماء والصّلحاء[4]، فلم يأت عهد المعزّ بن باديس (٤٠٧ - ٤٤٩) حتّى بلغت البلاد من الثّروة والبذخ والأبّهة ما لم يسبق لها أن شهدته، واستقرّ الوضع، وأقبل النّاس على ما ينفعهم من التّحصيل العلمي والتّصنيف في شتّى فنون العلم، كما سأفصّله في مواضعه من هذه الرّسالة.

ولقد قام الاقتصاد القيرواني على التّجارة والفلاحة والصّناعة، وبلغ كلّ منها شأواً بعيداً، حتّى إنّ الباب الواحد من أبواب صَبْرَة[5] كان يدخله كلّ يوم ٢٦

---

(١) سير أعلام ٤٨٨/١٣.

(٢) انظر: البيان المغرب ١١٩/١، ١٢٠.

(٣) المدارك ٧١٤/٣، وانظر: ط الخشني ١٦٨.

(٤) انظر: المعالم ١٢٧/٣، البيان ٢٥٦/١.

(٥) صَبْرة وتسمّى أيضاً المَنْصُورِيَّة مدينة على بعد نصف ميل من القيروان يسكنها ملوك القيروان، انظر: المؤنس ٦٢، بساط العقيق ٢٨.

ألف درهم[1]، وكثرت الصّناعات ورتّبت حتى خُصّت كلّ صناعة بسوق[2]، وبلغ تجّار القيروان أقاصي المعمورة[3]، وخاصة بعد فتح صِقِلِّيَّة، وسيطرة الأغالبة على حوض البحر الأبيض المتوسّط. وليس يعنينا هنا أن نعدّد المنتوجات الفلاحيّة أو أنـواع الصّناعـات ونحو ذلـك، إنّما يهمّنـا أن نشير إلى العـلاقة بين الجـانب الاقتصادي وبين الحياة العلميّة:

من الطّبيعي أن يكون الازدهار الاقتصادي سبباً في إثراء الحياة العلميّة، فقد نشطت الحركة التّجاريّة، وتنج عنها كثرة المنشآت العمرانيّة، وفي مقدّمتها المساجد، وقد قارب عددها بالقيروان ثلاثمائة مسجد[4]، كانت تضمّ حلقات العلم والوعظ والتّوجيه، وتزخر بنشاط العلماء وطلبة العلم، وكذا كثرت قصور الرّباط، كما تقدّم، وكانت من أهمّ المراكز العلمية بإفريقيَّة، وصدرت بعض المؤلّفات العلميّة المواكبة للحركة الاقتصاديّة، واستوردت بعض الكتب من خـارج البلاد بكمّيّات كبيرة، وحرص العلماء والقضاة على إخضاع الحيـاة الاقتصاديَّـة لنظم الشّريعة وأحكامها، وسيتّضح ذلك بما يلي:

إنّ ممّا ينبغي التّأكيد عليه هنا هو خضوع الحياة الاقتصـاديّة عمـوماً في القيروان لأحكام الشّريعة الإسلاميَّة، وفق مـذهبي مالـك وأبي حنيفة، رغم أنّ العُبيديّين حاولوا فرض مذهبهم على الاقتصاد أثناء حكمهم، وقد كـان الفقهاء وقضاة أهل السّنّة بالمرصاد لكلّ خروج عن تعاليم الشّرع.

وكان أوّل من ولي عشور إفريقيَّة في الإسلام هو حَنَش بن عبدالله الصنّعاني

(١) انظر: مسالك البكري ٢٥، وكان لا يدخل شيء القيروان حتى يمر على صبرة لـدفع الجباية.

(٢) انظر: تاريخ الرقيق ١٤٩، الشجرة ١١١/٢.

(٣) انظر: حسن البيان ٢٢٣، الرياض ١٠١/٢.

(٤) انظر: بساط العقيق ١٧.

(ت ١٠٠)، وذلك سنة ٨٢ على عهد حسَّان بن النُّعمان[١]، ولا شكّ أنّه سار فيها بالكتاب والسّنّة، واستمر الأمر على ذلك إلى عهد عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب (١٩٦ - ٢٠١) فخالف السّنّة حيث «قطع العشر حبّاً، وجعله ثمانية دنانير للفقير، أصاب أو لم يصب»[٢]، فضجّ النّاس لذلك، وقصده العلماء ناصحين فلم يقبل منهم، واستخفّ بهم فدعوا عليه، فمات في اليوم السّابع من دعائهم.

ولمّا تولّى الإمام سَحنون القضاء لاحظ عدم الدّقّة في مراقبة سير الأسواق، وكان ذلك بيد الولاّة فجعله سَحنون من عمل القضاة؛ قال القاضي عِياض: «أوّل ما نظر سَحنون في الأسواق، وإنّما كان ينظر فيها الولاّة دون القضاة، فنظر فيما يصلح من المعاش ويُغشّ من السّلع، ويجعل الأُمناء على ذلك، ويؤدّب على الغشّ وينفي من الأسواق من يستحق ذلك»[٣]، ولا شكّ أنّ تدخّل سَحنون هذا ناتج عن انحراف المعاملات عمّا جاء به الشّرع، وإلاّ لم تكن هناك حاجة لتدخّله. وألّف يحيى بن عمر (٢٢٣ - ٢٨٩) كتاب «النّظر والأحكام في جميع أحوال السوق»[٤]، تعرّض فيه لبيان حكم الشّرع في المعاملات التّجاريّة، ودور وليّ الأمر في سلامة تطبيقها.

وكان لليهود مشاركة في التّجارة بالقيروان، وقد حاولوا إدخال الرّبا في المعاملات[٥]، فكان موقف القاضي ابن طالب منهم حازماً وصارماً؛ حيث وسَمَهم بعلامات مخزية جعلها على أكتافهم، وعلى أبواب منازلهم، فيها صور قردة وخنازير[٦]، وذلك ردعاً لهم وزجراً حتّى لا يفسدوا على المسلمين حياتهم،

---

(١) انظر: الرياض ١/٥٧، المعالم ١/٦٩، بغية الملتمس ٢٣٥، تاريخ ابن الفرضي ١/١٤٩.

(٢) البيان المغرب ١/٩٥، وانظر: الرياض ١/٣٣٢.

(٣) المدارك ١/٦٠٠، وانظر: المعالم ٢/٨٧.

(٤) تراجم المؤلفين ٣/٤٢٤، وقد طبع بتونس سنة ١٩٧٥.

(٥) انظر: المغرب الإسلامي ٥٥، ٥٧. (٦) انظر: الرياض ١/٤٧٦.

ودعّم ابن طالب هذه الخطوة بأن أصدر للصّيارفة أمراً بألاّ يصرفوا لأحد حتّى ينظروا في كتاب الصّرف، فلجأوا إلى أبي جعفر الصوّاف الفقيه (ت ٢٩١) فقرأه عليهم في مسجده[1]، وبذلك أسهم ابن طالب مساهمة كبرى في حماية البلاد من الرِّبا. كما كان للعلماء دور بارز في مقاومة الاحتكار والتّحذير منه في مجالسهم، بذكر عواقبه الوخيمة في الدّنيا قبل الآخرة، من ذلك أنّ أبا بكر بن اللَّبّاد (ت ٣٣٣) كان يقول في مجلسه: «أدركت بالقيروان رجالاً أملياء افتقروا، ما دخلوا فتناً ولا أغرمهم سلطان مالاً، ولكنّهم اتّجروا بالحنطة في أيام الشّدائد»[2].

ولمّا شرع أهل القيروان في مزوالة التّجارة البحريّة، وهي أمر جديد عليهم، ألّف لهم يحيى بن عمر كتاب «أكرية السّفن»[3] ليبيّن لهم كيف يزاولونها وفق شرع الله. وكان أهل القيروان شديدي الحرص على سلامة معاملاتهم الماليّة ومكاسبهم من الدّخن؛ ولهذا نجدهم يستفتون العلماء عنها، قال أحد التّجّار: «كنت أعمل السّلاسل من نحاس، وأطليها بماء الذّهب الذي يُجعل في اللُّجم، وأبعث بها تباع ببلد السّودان، فوقع في قلبي منها شيء، فسألت البُهلول بن راشد (ت ١٨٣) فقال: ما عندي فيها علم، ولكن اذهب إلى ابن فَرُّوخ الفارسي وانظر الجواب وأخبرني؛ فذهبتُ إلى ابن فَرُّوخ فسألته فقال: أهؤلاء الذين تبعث إليهم هذه السّلاسل معاهدون؟ قلت: نعم. فقال: ما أرى هذا ، وهذا غشّ»[4].

وتنازل أحدهم عن ثورة طائلة كانت نصيبه من ميراث أبيه، فلما سئل عن ذلك قال: «كان ذلك من تجارة العاج فكرهت أن أتلبّس بشيء جاء فيه عن أهل العلم كراهية»[5] وقد ترك النّاس السّماع من محمد بن رُشَيد لتساهله في المعاملة بالعينة[6].

---

(١) م. ن ١/٥٠٧.
(٢) الرياض ٢/٢٩٢، المعالم ٣/٢٣.
(٣) المغرب الإسلامي ٦١.
(٤) الرياض ١/١٨٢.
(٥) م. ن ١/٤٧٩.
(٦) ط أبي العرب ١١٠.

ويظهر لنا أثر الاقتصاد في الحياة العلميّة من ناحية أخرى، وهي دخول التّجّار إلى القيروان من شتّى البلدان، ومنهم كثير من حملة العلم، مثل أبي عبدالرحمٰن المُقرىء (ت ٢١٣)، قدم وكيلاً لأحد التّجّار، وهو من ثقات رواة الحديث، وقد سمع منه أهل القيروان سنة ١٥٦ هـ[١]، كما دخلها عبدالعزيز بن يحيى المدني (ت بعد ٢٣٥) بائعاً للمسك، وقد سمع منه محمد بن سَحنون وغيره، وقد استعانوا عليه ببعض الوجهاء عندما أراد الخروج حتّى يستوعب النّاس أسمعتهم منه[٢]، ودخلها في بداية القرن الثالث أحد تجّار الكتب وباع فيها عدّة أحمال[٣].

وممّا يلاحظ في هذا الصدّد أيضاً أنّ أكثر علماء القيروان كانوا فقراء، ومع ذلك فقد حفظوا للعلم عزّته، وصانوا منزلته، فلم يتزلّفوا للحكّام، بل كانوا يتعفّفون عمّا يأتيهم من العطايا فضلاً عن أن يطلبوها، ومن ذلك أنّ إبراهيم بن الأغلب (١٨٤ ـ ١٩٦) عرض مساعدة ماليّة على أحد العلماء فرفضها، فظنّ الأمير أنّه استقلها فزاد فيها حتّى بلغت خمسمائة دينار، ومع ذلك لم يقبلها، فقال له إبراهيم: «أفسدكم البربريّ ـ يعني البُهلول (لزهده) ـ والله لو أدركته لجعلته يرقص خلفي، قال: فأحسست شعري قد خرج من عمامتي، ثمّ أقبلت عليه فقلت له: والله لو أدركتَه لكنتَ أهون عليه من هذا الطَين الذي يعجن بين يديك»[٤].

وقد عوتب سَحنون على خروجه للبادية لخدمة أرضه، مع حاجة الطّلبة إليه، فقال: «تريد أن ترى كتبي في هذا الغدير؟» وأشار إلى غدير بين يديه، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: أحتاج إلى دراهم هؤلاء القوم ـ يريد الملوك ـ فآخذها،

---

(١) انظر: ط أبي العرب ٨١، التقريب ١/٤٦٢.

(٢) وقد تركه أهل المشرق، ووصفه أبو العرب بالحفظ. انظر: ط أبي العرب ٧٨، ١٠٠، التهذيب ٦/٣٦٣.

(٣) انظر: فهرسة ابن خير ٣٩٥.

(٤) الرياض ١/٣٢٨.

فإذا أخذتها فارموا كتبي في هذا الغدير[1]، هـذا من سَحنون دلالة على أنّ صيانة العلم لا تكون إلّا بالاستقلال المادّي عن أرباب الحكم، ولذلك نجد علمـاء القيروان يتكسّبون من عمل أيديهم، فهذا سَحنون يفلح أرضه، وكان لابن فَرُّوخ دكّان يتّجر فيه، وكان حمديس يبيع القطن، وكان مروان بن أبي شَحْمة يصنع الطّوب بيده ويبيعه. . .[2].

وهكذ يتّضح لنا أنّ التّرابط بين الوضع الاقتصادي والعلم كان قائماً تأثّراً وتأثيراً.

---

(١) ن. م ٣٦٨/١.

(٢) انظر: ط أبي العرب ١١٥، الرياض ١٨٧/١، ٣٥٦، ٣٥٩.

البابُ الأوّل

أسس الحياة العلمية بالقيروان
في هذه الفترة (٥٠ - ٤٤٩ هـ)
وأثرها في الحديث

وفيه فصلان يتفرع كل منهما إلى مباحث ومطالب ونقاط:

- **الفصل الأول**: المراكز العلمية في القيروان، وأثرها في نشر الحديث وغيره من العلوم الشرعية.
- **الفصل الثاني**: الرحلة في طلب ونشر الحديث وغيره، وثمراتها.

تمهيد

لقد تقدّم أنّ الفتح الإسلاميّ لإفريقيَّة لم يتمّ في فترة قصيرة كما اعتاد المسلمون في فتح بلاد المشرق، فقد دام أكثر من ستّين سنة، تمحّضت بعدها إفريقيَّة للإسلام وأصبحت جزءاً من وطنه الكبير.

ولقد كان العلم ـ متمثّلاً في التّعريب والدّعوة إلى الله وتعليم أساسيّات الدّين ـ يسير جنباً إلى جنب مع التّقدّم في فتح البلاد، وإنّ كثرة ارتداد البربر وصعوبة مراسهم وطول مدّة الفتح . . . كلّ ذلك لم يشغل المسلمين عن الجانب العلمي، لأنّ نشر الإسلام كان هو الهدف الأسمى والأوّل لهذه الفتوحات، وإن كانت المصاعب الآنفة الذّكر قد أسهمت في تأخير تعمّق العلم وازدهاره.

وما إن تأسّست القيروان وبُني جامعها سنة ٥٠ هـ حتّى تسابق النّاس إلى بناء المساجد والكتاتيب، وجلس فيها بعض الصّحابة والتّابعين لنشر العلم بين من أسلم من أهالي البلاد، ومن استوطن القَيْرَوان من الفاتحين ومن وفد إليها، غير أنّ الذي لاحظته بالنّسبة للحديث وعلومه أنّ أثر الصّحابة في نشره بالقيروان، مع وجوده، لم يكن كأثرهم في غيرها من بلاد المشرق لارتباط مقامهم فيها بالفتح والجهاد، فلم يوجد منهم من استمرّت إقامته فيها بهدف نشر العلم[1].

وإنّ وصيّة عُقبة بن نافع (ت ٦٣) ـ مؤسّس القَيْرَوان ـ لأولاده بألاّ يأخذوا

(١) سيأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن أثر الصحابة في نشر السنّة بالقيروان في مطلع الباب الثاني.

الحديث إلاّ عن الثّقات، وألاّ يكتبوا ما يشغلهم عن القرآن[1]، لتدلّ على ظهور رواية الحديث وكتابته منذ هذه الفترة المبكّرة في القيروان، مع مراعاة ضوابط الرّواية وقواعدها، وذلك في غزوة عُقبة الثّانية سنة ٦٢ هـ وكان معه خمسة وعشرون صحابياً[2].

وكان قادة الفتح يكلّفون من معهم من كبار الفقهاء والرّواة من الصّحابة والتّابعين بنشر اللّغة العربيّة ومبادىء الإسلام بين البربر، وتفقيه من أجاب منهم إلى الدّخول في الدّين[3].

وما أن انتهت الفتوح في إفريقيّة واستقَرّ الإسلام بين البربر حتّى قدمت من المشرق دعامة عظيمة للحياة العلميّة بالقيروان، تلكم هي بعثة عمر بن عبدالعزيز العلميّة سنة ٩٩ هـ[4]، وقد تكوّنت من عشرة من التّابعين الرّواة[5]، وأكثرهم من رجال الكتب السّتّة، كما سيأتي في تراجمهم، فبنوا المساجد، والكتاتيب، في القيروان، وأقبلوا على نشر العلم بها، وانتفع بهم أهل إفريقيّة، وطال مقام بعضهم بالقيروان حتّى زاد على الثّلاثين عاماً[6]، وعلى أيديهم تخرّجت طلائع علماء القيروان، كما سيأتي.

وفي حوالي منتصف القرن الثّاني بدأت الرّحلة إلى المشرق تتكثّف لاقتباس ما عند أهله من علوم الكتاب والسّنّة، وكان أكثر إقبال أهل القيروان على محدّثي

---

(١) الشجرة ٢/١٠٠، الإصابة ٣/٨١.

(٢) البيان المغرب ١/٢٣.

(٣) انظر مثلاً: البيان المغرب ١/٤٢.

(٤) انظر: ط أبي العرب ٢٠، الرياض ١/٩٩، تاريخ ابن الفرضي ١/١٤٦، المعالم ١/٢٠٣.

(٥) انظر: عن هؤلاء العشرة ودورهم في نشر السنة بالقيروان ما يأتي في مبحث التابعين، وأثرهم في نشر السنة بالقيروان.

(٦) منهم إسماعيل بن عبيدالله بن أبي المهاجر، فقد بقي بها بين سنتي (٩٩ - ١٣١)، انظر: ترجمته رقم ١ في التابعين العشرة.

المدينة، لوفرتهم من جهة، ولكثرة تردّد القرويّين على مدنية الرسول ﷺ، وكان في المقدمة عندهم الإمام مالك بن أنس، فأقبلوا عليه واتّبعوا مذهبه، لاعتماده على الحديث، وموافقة ذلك ما في نفوسهم من التّعطّش إلى السّنّة والسّعي إلى التزام الآثار، خاصّة وأنّه المذهب الوحيد، آنذاك، الذي يعتمد على الحديث إذ لم يظهر بعد مذهبا الشّافعي وأحمد[1].

وإنّ أثر الصّحابة والتّابعين، كما سيأتي تفصيله، لواضح في تمسّك القرويّين بالسّنّة، وإقبالهم على الحديث، ونفورهم من الرّأي، وقد زاد هذا التّوجهَ رسوخاً ما شهده أهل القيروان من الحروب والفتن، التي تعرّضت لها بلادهم بسبب المبتدعة، تلك الفتن التي تسبّبت في شلّ الحركة العلميّة أكثر من ثلاثين سنة ابتداء من سنة ١٢٢[2].

وعاد المرتحلون إلى المشرق من القرويّين بعلوم جمّة، وجلس كلّ منهم في مسجده أو بيته ينشر علمه، وأقبل النّاس على الأخذ عنهم بشغف، وسرعان ما ازدهرت الحياة العلميّة، وكثر أهل العلم ابتداء من الرّبع الأخير من القرن الثّاني، وخاصّة في مجالي الفقه والحديث اللّذين عرفاً بالتّلازم والارتباط كما سيأتي، ثمّ تعرّضت العلوم لبعض الفتور في عهد العُبَيديّين الرّوافض (٢٩٦ - ٣٦٢)، الذين منعوا من نشر العلم، وقاوموا السّنّة، وحرصوا على إماتتها، وضغطوا على العلماء، وما إن تخلّصت إفريقيّة منهم حتّى انطلقت العلوم من جديد، وعادت إلى قوّتها وازدهارها، إلى أن انطمست معالمها بخراب القيروان سنة ٤٤٩ هـ.

وقد قامت الحياة العلمية بالقَيْرَوان على الأسس الطّبيعيّة لاكتساب العلوم وتلقّيها وإشاعتها، والمتمثّلة أوّلاً في المساجد والكتاتيب وغيرها من المؤسّسات

(١) راجع ما سبق ذكره في التمهيد عن المذهب المالكي.
(٢) انظر: البيان المغرب ١/٥٢.

العلميّة الآتي ذكرها، وقد جلس فيها العلماء لنشر علوم الكتاب والسّنّة، والفتوى، والوعظ، والتّوجيه، وأقبل عليهم الطّلّاب والعامّة في رغبة وشغف وحماس للأخذ عنهم.

ثم الرّحلة التي كانت وسيلة عظيمة لاقتباس علوم المشارقة وغيرهم، ونشرها في القيروان.

ثمّ المصنّفات المختلفة التي ألّفها القرويّون، أو التي صنّفها غيرهم ودخلت إلى بلادهم، وكانت تُقرأ في المساجد ودور العلماء وقصور الرّباط...

وسأفصّل القول فيما يلي عن كلّ واحد من هذه الأسس في مبحث خاصّ به، إن شاء الله تعالى.

الفصل الأوّل

المراكز العلميّة في القَيْرَوَان وأثرها في نشر الحديث وغيره من العلوم الشرعيّة

ظهرت الحياة العلميّة بإفريقيَّة قبل تأسيس القَيْرَوان وذلك لوجود الصّحابة بها في الفتوح منذ سنة ٢٧ هـ، وهم منهل طبيعيّ لنشر علوم الكتاب والسّنّة قولاً وعملاً، غير أنّ المراكز العلميّة، متمثّلة في المساجد والكتاتيب وغيرها، لم توجد إلّا بعد إنشاء مدينة القَيْرَوان وبناء جامعها سنة ٥٠ هـ، كما مرّ، وقد ظهرت بها بعض الأنشطة العلميّة التي تركّزت وتعمّقت في مطلع القرن الثّاني للهجرة.

وسأذكر فيما يلي أشهر هذه المراكز، ودورها في نشر العلم عامّة، والحديث بصفة خاصّة بالقَيْرَوان، ثمّ أتعرّض إلى أهمّ العلوم الشّرعيّة التي ظهرت فيها.

أ ــ المراكز العلميّة:

أوّلاً: المساجد:

إن المسجد هو المؤسّسة التّعليميّة الأولى التي عرفت في الإسلام على يد الرّسول ﷺ، ثمّ الصّحابة فمن بعدهم، وقد ترجم الإمام البُخاري لبعض أبواب كتاب العلم بقوله: «ذكر العلم والفتيا في المسجد»[1]، فهو بالإضافة إلى وظيفته

(١) صحيح البخاري ٤٢/١.

العباديّة المتمثّلة في الصّلاة وغيرها يعتبر المكان الرّئيسيّ لنشر الثّقافة الإسلاميّة، فخطبة الجمعة وسيلة مستمرة للتّعليم، كما وجدت فيه الحلقات آلدّراسيّة منذ نشأته[1]، فقد كان الرّسول ﷺ يعلّم أصحابه في مسجده[2]، ويبلّغهم الوحي، ويسمعهم الحديث، وإذا جدّ أمر جمعهم فيه، وخطب فيهم، فكانوا يتحلّقون حوله في المسجد بشغف منقطع النّظير يَعُون أقواله، ويترجمونها إلى سلوك يلتزمونه، وآداب يعيشونها ويُبلِّغ حاضرهم من غاب في بعض شئونه[3]، كما كان يفد عليه الغرباء فيعلّمهم في مسجده، وربما قطع خطبته من أجل تعليم غريب جاء يسأل عن دينه[4].

وبعد وفاة الرّسول ﷺ انتشر الصّحابة في الأمصار معلّمين، وساروا على خطى الرّسول ﷺ، والتزموا هديه، فأنشأوا المساجد لتعليم النّاس ونشر علوم الكتاب والسُّنّة[5] في مختلف حواضر العالم الإسلامي، ثمّ نسج التّابعون على منوالهم في ذلك وجرى العمل به، ولم يكن للسّلف مدارس على الطّريقة التي عرفت في القرون المتأخرة، وإنّما كان المسجد هو المركز الأساسي الذي يقصده طالب العلم، وناشره، فكانت المساجد تستقطب عدداً «ليس بالقليل للرّواية أو الدّراية، والاستفادة فيما يعرض لهم من قضايا ومشكلات، تتّصل بشؤون حياتهم المتعلقة بالدنيا والآخرة.

وقد اتّسمت هذه المؤسّسات بالظّاهرة العلميّة من عهد الرّسول ﷺ، واشتهرت بالمدينة والشّام والعراق ومصر، ولعبت دوراً جليلاً بإفريقيَّة أيضاً، في

---

(١) انظر: تاريخ التربية الإسلامية ١٠٢.

(٢) انظر: صحيح البخاري كتاب العلم باب من قعد حيث ينتهي به المجلس ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها ١/٢٤.

(٣) انظر: ن. م كتاب العلم باب التناوب في العلم ١/٣١.

(٤) انظر: صحيح مسلم كتاب الجمعة باب التعليم في الجمعة ٢/٥٩٧/٦٠، وراجع الروض الأنف ٢٢١.

(٥) انظر: شجرة النور ١/٤٤، وانظر: سيرة ابن هشام ٤/١٤٤٦.

القيروان والمَهْدِيَّة وتونُس»[1]، واستمرّ الأمر على ذلـك حتّى ظهرت المـدارس فزاحمت المسجد في دوره التّعليميّ، وقلّصته لانتقال كثير من الحلقات العلميّة إليها.

وكانت المساجد أوّلَ ما يهتمّ المسلمون ببنائه في البلاد التي يفتحونها، أو المدن التي يؤسّسونها[2]، ولذلك كان أوّل عمل قام به عُقبة بن نـافع الفِهْـرِيّ (ت ٦٣) عنـدما اختطّ مـدينة القَيْـرَوان سنة ٥٠ هـ هـو بناء جـامعها الأعـظم، بمشاركة جماعة كثيرة من الصّحابة رضوان الله عليهم[3]، ثمّ شرع النّاس في بناء المساجد[4] للعبادة والتّعليم.

فقد بنى التّابعون كثيراً من المساجد، كما سيأتي، وهكذا كلّ جيل، كان ينشىء علماؤه وأفاضل أغنيائه المساجد، حتّى زخرت بها مدينة القيروان، وبلغ عددها في عصور ازدهارها ثلاثمائة مسجد[5] من أشهرها:

- الجامع الذي بناه عُقبة بن نافع ومن معه من الصّحابة والتّابعين سنة ٥٠ هـ[6]، ويعرف بالجامع الأعظَم بالقَيْرَوان، وهو أوّل معهد للإسلام بإفريقيَّة، والكُلّيّة الوحيدة بها في عهودها الأولى[7]، وكان عدد أعمدتـه كعدد أيّـام السّنة[8]، وبقبلته احتذى أهل إفريقيَّة والمغرب والأندلس عند بناء مساجدهم[9].

---

(١) الحياة الثقافية ص ٣٩، النشرة العلمية للكلية الزيتونية ٤/٤/٧٦ ـ ٧٧.
(٢) انظر مثلاً: دراسات في لعمارة ٣٨، ٤٤، ٥٠، ٥٥، ٦٠، ٦١، ٦٥.
(٣) انظر: الرياض ١/١٢، ط أبي العرب ٢٨، المعالم ١/١٠.
(٤) انظر: الرياض ١/١٣. (٥) انظر: بساط العقيق ١٧.
(٦) انظر: حسن البيان ١٨٢، مسالك البكري ٢٢، المغرب الكبير ٢/٤٢٢.
(٧) انظر: الشجرة ١/٤٤١، بساط العقيق ١٧.
(٨) المعالم ٢/٢٥٢.
(٩) الرياض ١/١٣، المعالم ١/٨١.

- مسجد الأنصار: يقال أنّه أنشىء قبل اختطاط القَيْروان على يد الصّحابي رُوَيفع بن ثابت الأنصاري سنة ٤٧ هـ[1].

- مسجد الزّيتونة، وهو مسجد كبير أسّسه التّابعي إسماعيل بن عُبيد الأنصاري المعروف بتاجر الله، وذلك سنة ٩١ هـ[2]، أقول: وقد رأيت هذا المسجد لا يزال قائماً يؤمّه النّاس لأداء الصلاة.

- مسجد أبي ميسرة[3]، وقد بناه أحد التّابعين في نهاية القرن الأوّل، وإنّما ينسب إلى أبي مَيْسَرة أحمد بن نِزَار الفقيه (ت ٣٣٧)، ولا يزال موجوداً بالقَيْرَوان حتّى الآن.

- مسجد حَنَش الصّنعاني التّابعي (ت ١٠٠)[4]، وكان قد بناه لعبادته ومجالسه العلميّة.

- مسجد أبي عبدالرحمٰن عبدالله بن يزيد الحُبُلِيّ (ت ١٠٠)[5]، وكان ينشر فيه العلم.

- مسجد عُلَيّ بن رباح اللَّخْمِيّ (ت حوالي ١١٤)[6]، وقد بثّ من خلاله علما كثيراً، كما سيأتي.

- مسجد السّبت، وكان يجتمع فيه الصُّلحاء، والقُرّاء، والحفّاظ، فيكون فيه خير كثير كلّ يوم سبت من أوّل النّهار إلى الزّوال ١٠ .

---

(١) المعالم ١/٢٧، وستأتي ترجمته في الصحابة.

(٢) انظر: الرياض ١/١٠٧، ١٠٩، وانظر: ترجمة إسماعيل رقم ١ في التابعين الذين سكنوا القيروان غير العشرة.

(٣) المعالم ١/٣٠، وانظر: ترجمة أبي ميسرة في الرياض ٢/٣٦١.

(٤) الرياض ١/١٢١، المعالم ١/٣١، وانظر: ترجمة حنش رقم ٢ في التابعين غير العشرة.

(٥) المعالم ١/٣٠، وانظر: ترجمة الحلبي رقم ٩ في التابعين العشرة.

(٦) الرياض ١/١١٩، وانظر: ترجمة عُلي رقم ٩ في التابعين غير العشرة.

(٧) المعالم ١/٣١، وانظر: الرياض ١/٤٧١، ٤٩٣.

- مسجد الخميس، يجمع فيه الصّلحاء والقرّاء وأهل الخير، كلّ يوم خميس من العصر إلى اللّيل[1]. وغيرها.

وهناك كثير من المساجد عُرفت بأسماء الشّيوخ الذين يتولّون التّدريس فيها، مثل: مسجد ابن سَحنون، ومسجد البُهلول بن راشد، ومسجد يحيى بن عمر[2]، وغيرها.

وقد قامت هذه المساجد بالدَّور الأكبر في نشر العلوم بالقَيْرَوان، وعلى رأسها الفقه والحديث، وفي رحابها عقدت المجالس العلميّة، وانتصبت الحلقات الدّراسية التي رُويت فيها المصنّفات، وقرئت على كبار العلماء، وتلقّاها الطّلاب من سائر بلاد إفريقيَّة والمغرب والأندلس، كما سيأتي تفصيله في مواضع متعدّدة.

وكان الحظّ الأوفر في ذلك من نصيب جامع عُقبة، الذي أحسبُ أنّ التّدريس فيه قد بدأ على عهد الصّحابة، بعد تأسيسه مباشرة في غزوة عُقبة الأولى، التي استمرت لمدّة خمس سنوات كاملة (٥٠ ـ ٥٥)، كان أهمّ عمل للمسلمين فيها هو اختطاط المدينة، ولم تقع أثناءها غزوات كبيرة تتطلّب غياباً طويلاً عن القَيْرَوان، وقد سكن النّاس واستقرّوا[3]، وذلك يستلزم أنّ الصّحابة الثّمانية عشر[4]، الذين كانوا مع عُقبة، قد جلسوا في الجامع لنشر علوم الكتاب والسُّنّة، وتعليم مبادىء الإسلام لمن أسلم من البربر.

أمّا غزوة عُقبة الثّانية، سنة ٦٢ هـ، فقد ثبتت فيها رواية الحديث، حيث ورد أنّ عُقبة أوصى أولاده ـ والمسلمين من ورائهم باعتباره قائد الجيش ـ بعدم رواية الحديث إلاّ عن الثّقات، وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن[5]، ولا شكّ أنّ

---

(١) المعالم ١/٣٢، وانظر: الرياض ٢/١٣٧.
(٢) انظر: الرياض ١/٤٣٦، ٢٠٧، ٤٩٤.
(٣) انظر: ط أبي العرب ٨، الرياض ١/١٣.
(٤) البيان المغرب ١/٢٠.
(٥) انظر: الشجرة ٢/١٠٠، الرياض ١/٣٤، المعالم ١/٤٨. الإصابة ٣/٨١.

انتشار رواية الحديث والتّفكير في كتابة ما يُروى هو الذي دعا عُقبة لإعلان هذه الوصيَّة، وخير مكان يقع فيه ذلك هو المسجد الجامع، وممّا يؤكده أنّ القيروان كانت في هذه الفترة قد شهدت نوعاً من الاستقرار، بعد أن مضى على بداية تأسيسها قرابة اثني عشر عاماً، وقد سكنها النّاس وبدأوا يعيشون حياة طبيعيّة، ومن لوازم ذلك أنّ الصحابة الذين كانوا موجودين آنذاك وهم خمسة وعشرون رجلاً[1]، قد جلسوا في جامع القيروان لرواية السُّنّة وتعليم مبادىء الإسلام لمن أسلم من البربر.

أمّا في عهد التّابعين فقد زادت الرّسالة العلميّة للمسجد الجامع، واتّسعت عن ذي قبل، فكان حافلاً بالمجالس العلميّة، لوفرة من كان بالقيروان من التّابعين واهتمامهم بالرّواية[2].

وقد ثبت أنّ عِكْرِمة مولى ابن عبّاس لم يدخل إفريقيَّة غازياً، وإنّما دخلها لنشر العلم، وكان قد نشر علمه من حديث وتفسير في جامع عُقبة، وله مجلس معروف في مؤخرّةِ الجامع يقصده الطّلاّب فيه[3].

كما كان لكثير من التّابعين مساجد عُرفت بنسبتها إليهم[4]؛ لأنّهم كانوا يجلسون فيها لنشر العلم، وخاصّة أعضاء البعثة العلميّة التي أرسلها عمر بن عبدالعزيز لتفقيه أهل القيروان، فإنّ كلّ واحد منهم قد بنى مسجداً قام بنشر علمه من خلاله، عن طريق مجالسه العلميّة[5].

وممّا يصوّر دور جامع عُقبة التّعليمي في حوالي العقد الرّابع من القرن الثّاني قول المالكي: «قدم وزير للخليفة، فدخل المسجد الأعظم فرأى حلقة

(١) ط أبي العرب ١٧، الرياض ١/١٠.

(٢) انظر: مبحث التابعين وأثرهم في نشر السنة بالقيروان.

(٣) انظر: ط أبي العرب ١٩، الرياض ١/١٤٦.

(٤) انظر مثلاً: الرياض ١/١٠٧، ١٠٩، ١٢١، ١٢٩.

(٥) انظر: ورقات ١/٧٨.

عظيمة، وفيها شابّ، كلّما اختلف اثنان ممّن حضر الحلقة رجعا إليه وصدرا عن رأيه...»[1].

غير أنّ جامع عُقبة لم يقتصر على استقطاب علماء أهل السُّنّة، وخاصّة في عهود الأغالبة الأولى، وإنّما كان يجتمع فيه المخالفون أيضاً، فكانت فيه حلقات المبتدعة من الصُّفْرِيَّة والإِبَاضِيَّة والمعتزلة يتناظرون فيه، ويظهرون ضلالاتهم، ولم يكن للدّولة اهتمام بمراقبتهم، واستمرّت حلقاتهم في الجامع إلى أن تولّى سَحنون القضاء سنة ٢٣٤ هـ، فطهّر جامع عُقبة من حِلق المبتدعة، ومنع من لم يكن سُنّيّاً من التّدريس فيه.

فقد ذكرت المصادر أنّه «أوّل القضاة فرّق حِلق أهل البدع، وشرّد أهل الأهواء منه، وكانوا فيه حِلَقاً من الصُّفْرِيَّة، والإِبَاضِيَّة، والمعتزلة، يتناظرون فيه ويظهرون زيغهم، وعزلهم أن يكونوا أئمّة للنّاس أو معلّمين لصبيانهم أو مؤذّنين»[2].

وبذلك تمحّض جامع عُقبة لأهل السُّنّة ينشرون فيه علومهم، «وكانت الحلقة (فيه) مكتظّة من سائر أنحاء إفريقيّة، والمغرب، والأندلس، وحتّى من السّودان الغربي، على نمط ما نعرفه في الجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع الزّيتونة بتونُس، والقرويّين بفاس...»[3].

ومن نماذج هذه الحلقات حلقة يحيى بن عمر (ت ٢٨٩)، التي كانت عظيمة العدد حافلة بالطّلاّب، إلى درجة أنّه كان يَنصب كرسيّاً يجلس عليه؛ ليتمكن من بَعُد من السّماع، ومع ذلك لم يصل صوته إلى كثير منهم؛ لبعدهم،

---

(١) الرياض ١/١٧٢، تاريخ قضاة القيروان خط ص ٣.
(٢) المدارك ١/٦٠٠، ط أبي العرب ١٠٢، المعالم ٢/٨٧.
(٣) ورقات ١/١٠٧.

فسألوه عن سماعهم فقال: «يجزئهم»[1]، وكذا حلقة مُسافر بن سِنان، قال البُهلول بن راشد (ت ١٨٣): «وكنت أُمرّ على مُسافر بن سِنَان في المسجد الجامع وهو يُذكّر النّاس ويعظهم، وقوم من القرّاء يقرأون»[2].

وكانت المساجد الخاصّة أيضاً حافلة بالمجالس العلميَّة، مُدعِمَة لدور جامع عُقبة، فقد كان لسَحنون (ت ٢٤٠) مجلس حفيل في مسجده[3]، وكذا كان ابنه محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦) يعلم أصحابه في مسجده[4]، وعون بن يوسف الخُزَاعي (ت ٢٣٩)[5]، وغيرهم.

وهكذا كانت المادّة العلميّة التي تلقى في المساجد شاملة لتحفيظ القرآن الكريم، وتلاوته، ورواية الحديث، وإلقاء المواعظ...

وممّا تجدر الإشارة إليه الدّور التّربويّ والتّعليميّ الذي قام به مسجد السّبت[6]؛ فإنّه كان يجتمع فيه العلماء، والصّلحاء، والعُبّاد، كلّ يوم سبت، من أوّل النّهار إلى الزّوال، ويحضره جمع غفير من النّاس، وكانوا في العهود الأولى يقرءون فيه الرّقائق، من الآيات والأحاديث المذكّرة بالآخرة، فلما طال الأمد أصبحت الأشعار المرغّبة في الزّهد ونحوه أكثر ما يقرأ فيه، وكان أثر ما يلقى فيه من الوعظ يبقى إلى الأسبوع الموالي، وأكثر مشيخة القيروان يرون جواز حضوره حتّى في حالته الثّانية، ولكن نهى عن ذلك ثلاثة من كبار العلماء يرون أنّ ذلك من فعل المبتدعة، وهم: يحيى بن عمر (ت ٢٨٩)، وقد ألّف كتاباً في النّهي عن حضوره، وأبو الحسن القابِسي (ت ٤٠٣)، وأبو عِمران الفاسي (ت ٤٣٠).

---

(١) انظر: المعالم ٢/٢٣٥، الرياض ١/٤٩٣، اللسان ٦/٢٧٠.
(٢) الرياض ١/١٩٩.
(٣) انظر: الرياض ١/٣٧٠، المعالم ٢/٩٨.
(٤) انظر: الرياض ١/٤٣٦.
(٥) انظر: الرياض ١/٣٧٥.
(٦) انظر: المدارك ٣/٢٣٧، المعالم ٢/١١٤، ٣/٢٤، الرياض ١/٤٧١، ٤٩٣، ٤٩٥، ٢/٢١٥، ٢٨٦.

واستمر هذا الدّور التّعليمي للمساجد، تُروى فيها المصنّفات الحديثيّة وغيرها إلى أن احتل العُبَيديّون الرّوافض إفريقيَّة، وحكموا البلاد سنة ٢٩٦ هـ، فمنعوا العلماء من التّدريس في المساجد، وحرّموا عليهم نشر العلم، والاجتماع بالطّلبة[١]، وحبسوهم في بيوتهم ومن ضبط متلبّساً بشيء من ذلك أُخذ وعُذّب، ونتج عن ذلك خلوّ المساجد وإقفارها من النّشاط العلميّ، فكان الطّلبة يقصدون العلماء في دورهم، في غاية الحذر والحيطة، وكان السُّنّة في القيروان على عهدهم تعرض وتقرأ سرّاً في البيوت[٢].

وإذن فإنّ الحياة العلميّة لم تتوقّف، فقد استعاض العلماء عن المساجد بالدّور وغيرها من المراكز، حيث قاموا بنشر السّنّة من خلالها، مدفوعين بإيمانهم القويّ بصحّة ما هم عليه من الحقّ، وتيقّنهم بما عليه الرّوافض من الزّيغ والضّلال.

وما أن انزاح كابوس العُبَيديّين، وتركوا إفريقيَّة سنة ٣٦٢ هـ، حتّى عادت الحياة إلى المساجد، وانتصب فيها العلماء للتّدريس من جديد، فعرفت الحياة العلميّة بسبب ذلك ما لم يسبق لها أن شهدت مثله في تاريخ القَيْرَوان، ودام الأمر على ذلك إلى أن خرّبها الأعراب سنة ٤٤٩ هـ.

وهكذا فقد كان للمساجد أبعد الأثر في نشر العلم بالقَيْرَوان، وتخريج أفواج من العلماء، قاموا بنشر السُّنّة، والمنافحة عنها، ووضع المصنّفات في ذلك.

ثانياً: المكاتب:

«المكاتب» جمع مكتب وهو موضع التّعليم[٣] للصّبيان كما هو معتاد، ويقال أيضاً «الكُتّاب»، والأوّل أفصح، وإن كنت قد أستعمل الثّاني أيضاً لشهرته.

---

(١) انظر: المدارك ٥/١٢١، الفكر السّامي ٢/١٤٨.

(٢) انظر: ط الخشني ١٩٥، تاريخ ابن الفرضي ١/١٥٣، ٢٠١، الفكر السامي ٢/١٤٨، المدارك ٥/١٢١، المعالم ٣/٢٥.

(٣) القاموس المحيط ١/١٢١.

والمكتب هو المؤسّسة التّعليميّة الثّانية التي عرفها المسلمون، وخصّصوها لتعليم الأطفال، فكانت تقوم بالدّور الذي تلعبه المدارس الابتدائيّة في العصر الحاضر.

وقد وجدت دور تعليم الصّبيان منذ عهد النّبيّ ﷺ، فقد جاء الأمر بإبعاد الأطفال عن المساجد لعدم احترازهم من النّجاسات، حيث رُوي أنّ الرّسول ﷺ قال: «جَنّبُوا مساجدكم صبيانكم»[1]، وثبت تعليم الصّبيان على العهد النّبويّ، فقد ترجم البُخاري لبعض أبواب صحيحة بقوله: باب تعليم الصّبيان القرآن، وروى بسنده إلى عبدالله بن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: «توفّي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد جمعت المحكم»[2]. فإذا جمعنا بين الأمرين اقتضى ذلك وجود دور مخصّصة لذلك في عهد الرّسول ﷺ، ويرى بعضهم أنّ تعليم الصّبيان في العهد النّبوي كان يتمّ في حوانيت في أطراف الأسواق[3]، وقد جعل الرّسول ﷺ، فداء بعض أسرى بدر «أن يعلّموا أولاد الأنصار الكتابة»[4]. ولا شك أنّه اتّخذ لهم موضعاً يقومون فيه بهذه المهمّة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه من طريق واثلة بن الأسقع في أبواب المساجد، باب ما يكره في المساجد ١/٢٥٣/٧٥٦، وكذا الطبراني في الكبير من هذا الطريق ٥٧/٢٤، كما أخرجه الطبراني أيضاً في مراسيل معاذ بن جبل ١٧٣/٢٠، والحديث ضعيف، فإن طريق واثلة فيه عتبة بن يقظان وهو ضعيف كما في التقريب ٤/٢، وأبو سعيد الشامي وهو مجهول (التقريب ٤٢٨/٢)، أما طريق معاذ فهو منقطع؛ لأن مكحولاً لم يسمع من معاذ كما في مجمع الزوائد وكذلك فإني لم أعثر عليه في تلاميذ معاذ، ولم أعثر على معاذ في شيوخ مكحول. انظر: تهذيب الكمال ١٣٣٨/٣، ١٣٦٩، وقد ضعف هذا الحديث الهيثمي أيضاً (مجمع الزوائد ٢٥/٢، ٢٦).

(٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل تعليم الصبيان القرآن ١١٠/٦.

(٣) انظر: الحياة الاجتماعية في القيروان ٣٨نقلاً عن نهاية الرتبة ١٠٠.

(٤) مسند الإمام أحمد ٢٤٧/١، وانظر: الروض الأنف ٨٤/٣، وهو حديث حسن، فإن رجاله في المسند ثقات إلا علي بن عاصم فقد اختلف فيه وأخذوا عليه أحاديث غلط فيها وسائر حديثه مستقيم إن شاء الله، انظر: التقريب ٣٦٦/٢، التهذيب ٣٤٤/٧.

أمّا في عهد الصّحابة فقد شاع أمر المكاتب وانتشر[1]، وقد قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، «. . . ولا بدّ للنّاس من معلّم يعلّم أولادهم، ويأخذ على ذلك أجراً، ولولا ذلك لكان النّاس أمّيين»[2]، ولمّا تفرّق الصّحابة في الأمصار أسّسوا المكاتب لتعليم أطفال المسلمين، ثمّ تبعهم النّاس في ذلك، قال ابن خلدون: «اعلم أنّ تعليم الولدان للقرآن شعار الدّين، أخذ به أهل الملّة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم»[3].

وقد وُجدت المكاتب في القيروان منذ عهد مبكّر؛ فإنّ الذين أسّسوا المدينة من الصّحابة والتّابعين كان معظمهم يصطحب عياله[4]، ومن البَدَهِي أنّهم اهتمّوا بتعليمهم، وتعليم أبناء مسلمي البربر، وخصّصوا مجلّات لذلك.

وقد ثبت قدم وجود المكاتب في القيروان بالخبر الذي نقله المالكيّ عن أبي الحسن الدَّارقُطْنِيّ[5] بسنده إلى غِيَاث بن أبي شَبِيب قال: «كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمرّ بنا ونحن غلمة بِالقَيْرَوان، فيسلّم علينا، ونحن في الكُتَّاب، وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه»[6]، وقد دخل سفيان بن وهب

---

(١) انظر: صحيح البخاري كتاب الديات، باب من استعان عبداً ٨/٤٦، آداب المعلمين ٨٦.

(٢) آداب المعلمين ٨٢.

(٣) المقدمة ٥٣٧، وانظر: أقوال بعض السلف في ذلك في سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال ٢/٥١٦/٤١٤٣، سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في تعاهد القرآن ٢/٤٣٩.

(٤) انظر: مقدمة آداب المعلمين ح ح ع ٣٣.

(٥) لا يوجد في سنن الدارقطني.

(٦) انظر عن غِيَاث: التاريخ الكبير ٧/١٠٩، الجرح والتعديل ٧/٥٧. والحديث في: الرياض ١/٩١، وانظر: التاريخ الكبير ٤/٨٧، تعجيل المنفعة ١٥٦، الاستيعاب ٢/٦٦، أسد الغابة ٢/٣٢٣، المعالم ١/١٥١، ولم يسنده غير البخاري في التاريخ الكبير حيث لم أعثر على سند الدارقطني، والحديث بإسناد البخاري في التاريخ حسن، فإن رجاله ثقات إلا الحكم بن المبارك فإنه مع توثيقه قد يهم، انظر عنه: التهذيب ٢/٤٣٨، التقريب ١/١٩٢.

القيروان مرّتين: سنة ٦٠ هـ وسنة ٧٨ هـ[1]، فهذا يؤكّد أنّ الكتاتيب قد شاعت وانتشرت في القيروان بعد تأسيسها بزمن يسير، وهو أمر عاديّ بالنّظر إلى اهتمام الإسلام بالعلم وبتربية النّشء وتـزويدهم بـالثّقافـة الإسلاميّـة، وبتعليم فرائض الدّين.

وأخذت المكاتب تنتشر شيئاً فيشئاً في القَيْرَوان مع اتّساع المدينة، وازدياد عمرانها ومساجدها؛ إذ إنّ المكاتب عادة ما تكون ملحقة إلى جانب المساجد في إفريقيَّة[2].

وكان لبعثة عمر بن عبدالعزيز العلميَّة دور هام في إنشـاء هذه المكـاتب والقيـام عليها، فقـد اختطّ كلّ منهم داراً لسكنـاه، ومسجداً لعبـادته ومجـالسه العلميّة، وكُتَّاباً لتحفيظ القرآن وتلقين مبادىء العربيّة لأطفال المسلمين[3]، وقد كـان لبعض أفـراد البعثـة سـابقـة خبـرة في تـأديب الأطفـال وتعليمهم، فهـذا إسماعيل بن عُبَيد الله بن أبي المُهاجر (ت ١٣١) كان يؤدّب أولاد عبدالملك بن مروان، ويعلّمهم القرآن والعربيّة قبل قدومه إلى القَيْرَوان[4].

ولم يقتصر الأمر على هؤلاء العشرة، وإنّما كانت لكثير من التّابعين غيرهم مساجدهم وكتاتيبهم، يبثّون العلم في القَيْرَوان من خلالها[5].

وإنّ انتشار الكتاتيب بإفريقيَّة هو السّرّ في سرعة انتشار التّعريب بين البربر وسيره جنباً إلى جنب مع الفتح، حتّى وجد منهم من أجاد نظم الشعّر على رأس المائة الأولى للهجرة[6].

---

(١) الرياض ٩١/١، وانظر: ترجمة سفيان رقم ١٨ في الصحابة.
(٢) انظر: ورقات ٩٤/١.
(٣) انظر: ورقات ٧٨/١.
(٤) انظر: تهذيب ابن عساكر ٣١١/٢.
(٥) انظر مثلاً: الرياض ١٠٧/١، ١٠٩، ١٢١، ١٢٩.
(٦) انظر: المغرب العربي تاريخه وثقافته ٥١.

ولم يكن في القَيْرَوان شارع أو حارة إلاّ وقد وجد فيها مكتب أو أكثر، بل إنّها وجدت في قصور الأمراء أيضاً[1]، وكان بعض الموسرين يخصّصون المعلّمين لصبيانهم[2]، وإذا علمنا أنّ مدينة «بَلَرْم» (عاصمة صِقِلِّيَّة) وحدها قد وجد فيها أكثر من ثلاثمائة مكتب لتعليم الصّبيان[3] أمكن لنا أن نتصوّر عدد المكاتب الذي اشتملت عليه القَيْرَوان، عاصمة إفريقيَّة، وهي المدينة التي توسّع عمرانها واستبحر حتّى إن «بَلَرْم» لتوازي بعض قراها.

وقد نسجت بقيّة مدن إفريقيَّة وقراها على منوال القَيْرَوان في الاهتمام ببناء المكاتب لتعليم أطفال المسلمين، من ذلك أنّ أسد بن الفُرات قد علّم القرآن في بعض قرى إفريقيَّة قبل أن يرحل إلى المشرق في طلب العلم[4]، غير أنّ هناك بعض الجهات النّائية التي لم تحظ بذلك في العهود الأولى، ممّا جعل أهلها يبذلون جهوداً ذاتيّة لتعلّم القرآن، ومن نماذج ذلك ما فعله عُمر بن يَمَكْتَن (كان حياً سنة ١٤٠ هـ) الذي كان يخرج إلى الطّريق، فيتلقّى القادمين من المشرق فيكتب عنهم نصيباً من القرآن، ثمّ يعود إلى منزله فيحفظه، ثمّ يعود ثانية فيكتب قسطاً آخر، وهكذا إلى أن أتمّ حفظ القرآن، ثمّ اتّخذ لنفسه مكتباً يعلم فيه القرآن ببعض قرى جبل نَفُوسَة[5].

وكان العلماء وصالح الأمراء يشعرون بقيمة المكاتب وأهمّيّتها في تربية النّشء وتعليمه، فكانوا يشجّعون المعلّمين بالعطايا، ويعطفون على الصّبيان، فهذا عبدالله بن عمر بن غانم القاضي الفقيه المحدّث (ت ١٩٠)[6] يصل مؤدّب

---

(١) انظر: ط الخشني ١٣٠، الرياض ٣١٧/٢.
(٢) انظر مثلاً: المدارك ٤٩٨/٣.
(٣) انظر: ورقات ٩٠/١، الحياة الاجتماعية ٤٠ نقلاً من مسالك ابن حوقل ٨٧.
(٤) انظر: الرياض ٢٥٥/١، وانظر: ترجمة أسد رقم ٤ في المحدثين.
(٥) انظر: ورقات ٨١/١، القراءات بإفريقية ٤٣، نقلاً عن سير الشماخي ١٤٢.
(٦) انظر: ترجمته رقم ٢١ في المحدثين.

ابنه بحوالي عشرين ديناراً حين أتمّ حفظ سورة الفاتحة وتعلّم هجاءها، فلمّا استغرب المؤدّب من صنيعه قال له ابن غانم: «أتدري ما علّمته؟ كلّ حرف منها خير من الدّنيا وما فيها»[1]، وكان أمراء بني الأغلب يعطون المعلّمين والقُرّاء الأموال الطّائلة[2]، وكان هاشم بن مَسْرُور (ت ٣٠٧) إذا جاء وقت الفاكهة يدور على مكاتب القَيْرَوان فيطعم الصّبيان الفاكهة، ويدهن رؤوسهم، ويقبّل بين أعينهم[3].

وقد استمرّت الكتاتيب في القيام بدورها التّعليميّ حتّى في عهد بني عُبيد، وممّن كان يدرّس بها في عهدهم أبو إسحاق الجِبِنْيَانيّ (ت ٣٩٩)[4].

وإنّ شيوع المكاتب بإفريقيَّة وأهمّيّة دورها التّعليميّ هو الذي دفع محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦)، ومن بعده علي بن محمد القابِسي (ت ٤٠٣) إلى التّأليف في ذلك، والاعتناء بوضع قواعد وطرق لهذا التّعليم، وتحديد مواصفات المعلّم وواجباته، والمواد التي يجب أن يعلّمها للصّبيان وحدود تأديبهم...[5].

وممّا ينبغي لفت الانتباه إليه أنّ طلاّب المكاتب بإفريقيَّة كانوا يتلقّون الحديث الشّريف[6]، ويتعلّمون السُّنن[7]، بالإضافة إلى حفظ القرآن، وتعلّم إعرابه، وترتيله، والشّكل، والهجاء، والخطّ الحسن، والدّعاء، والتدرّب على الخطابة، وتعلّم الوضوء، والصّلاة...[8] وممّا يبيّن ما كان عليه مستوى التّعليم

---

(١) المعالم ٣٠٥/١، الرياض ٢١٨/١.

(٢) انظر: الرياض ٤١١/١، مقدمة آداب المعلمين ٣٧.

(٣) الرياض ١٤٥/٢.

(٤) انظر: مناقب أبي إسحاق ٢٦، المدارك ٥١٦/٣.

(٥) انظر: التعريف بكتاب آداب المعلمين في المصنفات.

(٦) انظر: مقدمة ابن خلدون ٥٣٨.

(٧) انظر: آداب المعلمين ١١٠، ١١٢.

(٨) انظر: آداب المعلمين ١٠٢، ١٠٣، ١١٠، ١١١، ١١٢.

في الكُتَّاب بإفريقيَّة أنّ رسالة ابن أبي زيد القَيْرَوان وُضعت من أجل أن تُدرَّس في المكاتب، ويتعلّمها الأطفال كما يتعلّمون حروف القرآن[1]، كما كان صبيان المكاتب يستعيرون كتب الشّعر والغريب وأخبار العرب ويدرسون فيها[2].

وهكذا تكون المكاتب قد أدّت دوراً في نشر رواية الحديث ودرايته، ضمن ما قامت به من تعليم النّشء الأسس العلميّة والتّربويّة، وتزويدهم بتكوين متكامل، وتهيئتهم للانتقال إلى المساجد في مستوى علمّي أعلى، حيث يتلقّون عن الشّيوخ، ويترقّون في مدارج العلوم المختلفة.

ثالثاً: المكتبات:

يعتبر الكِتَاب من أهم الركائز العملية التّعليميّة، خاصّة في العلوم النّقليّة، كما أنّ التّأليف هو الثّمرة الطبيعيّة لازدهار العلوم، وصيانة نصوص الشّرع وفقهه، من كتاب وسُنّة، وأقوال السّلف، ولذا فإن توفير نسخ من القرآن الكريم ومن كتب السُّنَّة والفقه وغيرها، وصيانتها من التّلف، وتسهيل عمليّة الاطّلاع عليها وتنظيمها من أخصّ لوازم ذلك حتّى يمكن الاستفادة منها في الدّراسة والمذاكرة، والرّجوع إليها عند الحاجة، وإلاّ كان تصنيفها ضرباً من العبث، ومن هنا جاءت فكرة إنشاء المكتبات لحفظ الكتب وتوفيرها وصيانتها من الضّياع، وتسهيل الاستفادة منها، فكان ذلك من أولى اهتمامات المشتغلين بالعلم، ولم يقتصر دَوْر المكتبة على ما تقدّم ذكره، بل كثيراً ما تكون موضعاً للتّدريس، أو المناظرة، أو المذاكرة، أو مقابلة الكتب وتصحيحها، بل ونسخها أيضاً، حيث لم تكن الطّباعة قد عرفت بعد.

وقد وجد بالقَيْرَوان في عصور حضارتها ثلاثة أنواع من المكتبات هي: المكتبات العامّة، والمكتبات الخاصّة، والمكتبات التّجاريّة.

---

(١) انظر: المعالم ٣/١١١.

(٢) انظر: نكت الهيمان ١٨٤.

١ ـ المكتبـات العامّـة:

وهي المكتبات الملحقة بالمساجد، غالباً، لتكون في متناول من يطلبها من الدّارسين[١] كما امتازت إفريقيَّة بنوع آخر من المكتبات العامّة، وهي المكتبات الملحقة بقصور الرّباط[٢]، وسيأتي الحديث عنها عند الكلام على العلم في قصور الرّباط.

والمكتبة العامّة التي عُرفت واشتهرت بالقَيْرَوان هي مكتبة جامع عُقبة بن نافع، الموجودة بالمقصورة الأغلبية قِبْلِيّ بيت الصّلاة[٣]، وقد أنشئت هذه المكتبة تدريجيّاً ابتداء من أوّل القرن الثّالث على عهد الأغالبة، عندما ازدهرت الحياة العلميّة في زمن سَحنون وتمحّض الجامع لدراسة الفكر السُّنّيّ كما أشرت من قبل، قال صاحب الحلل: «وفيها كتب مُحَبَّسة ـ أي موقوفة ـ قديمة التّاريخ من عهد سَحنون (ت ٢٤٠) وقبله منها: موطّأ ابن القاسم وغيره»[٤]، وأقدم ما يوجد بها الآن هو المصحف الذي حبّسته «فضل» مولاة أبي أيّوب أحمد بن محمد في محرّم سنة ٢٩٥ هـ[٥].

ويعتبر التَّحبيس هو المورد الأساسي لهذه المكتبة، ويكون من قبل العلماء والأمراء والأثرياء، ويتمّ التّحبيس غالباً على أيدي القضاة[٦]، ويكون وقفاً على طلبة

---

(١) انظر: تاريخ التربية الإسلامية ١٨١.

(٢) انظر: ورقات ١/٣٣٩.

(٣) المكتبة الأثرية ٨.

(٤) المحلل السندسية ١/١/٢٦١، برنامج المكتبة العبدلية المقدمة «ت»، واعتبر شَبّوح أن تاريخ المكتبة يعود إلى أواسط القرن الثالث (سجل قديم ٣٣٩)، وذكر ح ح ع أنها أنشئت في عهد الأغالبة (ورقات ١/١١٤)، وقد أغرب النيال حين ذكر أن بداية حفظ الكتب في هذه المكتبة كان سنة ٤١٠ هـ (المكتبة الأثرية ٨).

(٥) المكتبة الأثرية ١٤، سجل قديم ٣٣٩.

(٦) انظر: المكتبة الأثرية ١٤، شهيرات ٨٠، ٨٢.

العلم، عموماً، أو على من يقول بقول مالك وأصحابه، أو حُبُس على جماعة العلم من المسلمين وحرام من الله ورسوله على من باعه أو رهنه...»[1].

وقد ضَعُف توقيف الكتب على مكتبة جامع عُقبة في عهد بين عُبَيد، لمنعهم من نشر علوم السُّنَّة، وتضييقهم على أهلها، ومتابعتهم لمصنّفات أهل السُّنَّة بالاغتصاب والإتلاف، فلمّا غادروا إفريقيَّة، وعادت الحياة العلميَّة إلى سالف مجدها، كثر الاهتمام بمكتبة الجامع، وتكثّف التّحبيس عليها؛ لتوافر الأسباب الدّاعية إلى ذلك، من ازدهار العلوم، وكثرة الثّراء، ونشاط استيراد الكتب، مع ما انضاف إلى ذلك من الأمن والاستقرار، ومن ذلك ما حبَّسه الشّيخ أبو القاسم عبدالخالق بن عبدالوارث السُّيُورِيّ خاتمة علماء القيروان (ت ٤٦٢) وكان محدّثاً فقيهاً مقرئاً[2]، وممّا أوقفه صحيح مُسْلِم[3]، ومن أهمّ هذه المُحبَّسات الكتب الكثيرة التي أهداها المعزّ بن باديس أمير القَيْرَوان (٤٠٧ ـ ٤٤٩) إلى أبي بَكر عَتِيق السُّوسِيّ الفقيه المحدّث، فرفض قبولها وطلب منه أن يحبّسها فكتب عليها: «ممّا أمر بتحبيسه سيّدنا سيف الله وعبده المعزّ لدينه المؤيد لسنّة نبيّه أطال الله بقاءه وأدام نعمه، بالمسجد الجامع بمدينة القَيْرَوان، طلباً لثواب الله عزّ وجلّ على يد قاضي القضاة عبدالرّحمٰن بن محمد بن عبدالله بن هاشم، في سنة أربع وعشرين وأربعمائة»[4] واستمرّت المكتبة في زيادة ونموّ، وكانت في متناول طلبة العلم يدرُسون في كتبها وينسخون منها ويذاكرون بها، إلى أن اجتاحت القَيْرَوان فتنة الأعراب الذين خرّبوا المدينة وأتوا على ما فيها، فلم يبق من كتب الجامع «إلا نزر قليل لا يُعدّ شيئاً مذكوراً بالنّظر لما كانت عليه»[5].

---

(١) انظر: المكتبة الأثرية ٨، سجل قديم ٣٣٩، بساط العقيق ٦٣.

(٢) انظر: المعالم ٣/١٨١ ونص تحبيسه في المكتبة الأثرية ١٤.

(٣) انظر: سجل قديم ٣٦٢.

(٤) المكتبة الأثرية ١٤، وانظر: المعالم ٣/١٨١، الشجرة ١/١٠٧.

(٥) بساط العقيق ٦٣، وانظر: سجل قديم ٣٤١، المكتبة الأثرية ٨، مقدمة موطأ مالك برواية ابن زياد ٩٧.

وقد ألحقت محتويات مكتبة جامع عُقبة بدار الكتب الوطنيّة بتونُس، لعدّة سنوات في العقد الماضي، ثمّ أعيدت الآن إلى القَيْرَوان ولا يزال العمل جارياً لترتيبها وفهرستها.

وأقدم سجلّ عرف للمكتبة يعود تاريخه إلى سنة ٦٩٣ هـ، وقد عرّف به النَّيَّال[١] ونشره إبراهيم شَبُّوح[٢]، وقد صُوّرت كتبها بالميكروفيلم بأرقام مسلسلة من ١ إلى ٢٧٩٥[٣].

٢ ـ المكتبات الخاصّة:

لقد اهتمّ علماء القَيْرَوان بتدوين المصنّفات ونسخها، وكان لهم شغف كبير باقتنائها وجمعها، فتكوّنت لدى كثير منهم قناطير من الكتب، وأصبح لكلّ عالم مكتبة خاصّة به تحتوي على مصنّفاته، ومرويّاته، والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

ـ مكتبة الإمام سَحنون[٤]، فقد كانت تحتوي على جميع كتب عبدالله بن وهب، وهي كتب أغلبها حديثيّة: كالجامع، والمغازي، والزّهد، والموطّأ بروايته عن مالك وغيرها، وكان سَحنون عنده سماع سنتين عن سفيان بن عُيَيْنة، وإذا علمنا أنّهم كانوا يلقون المُدوَّنة في شهر، على كبر حجمها[٥]، أمكن لنا أن نتصوّر مقدار هذا السّماع عن سفيان، هذا عدا سماعه من بقيّة شيوخه.

ـ مكتبة علي بن حُميد التِّمِيمي (ت ٢٥١)، وقد كان من الأمراء، ولكنّه

---

(١) المكتبة الأثرية ١٢.

(٢) سجل قديم لمكتبة جامع القيروان، مجلة معهد المخطوطات العربية ٢/٢/ ربيع الثاني ١٣٧٦، نوفمبر ١٩٥٦.

(٣) المكتبة الأثرية ٣٧ ـ ٤١، ولا يعرف موضع هذا الميكروفيلم الآن وقد بذلت جهوداً للحصول عليه لكن دون جدوى.

(٤) انظر: ترجمته رقم ١٣، في المحدثين.

(٥) انظر: مناقب أبي إسحاق الجبنياني ١١.

انقطع للعلم، واعتنى بجمع الكتب ونسخها، حتّى وُصف بكثرة الكتب وسعة الرّواية، وقد بيعت كتبه بعد وفاته بألف ومائتي دينار[1].

ـ مكتبة محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦) الذي فتح له باب التّأليف[2]، وبلغت مصنّفاته مائتي كتاب[3] في جميع العلوم، منها: الحديث، والرّجال، وعلوم القرآن، والفقه، والتّاريخ والسّير، وغيرها، هذا عدا مرويّاته وكتب أبيه.

ـ مكتبة عيسى بن مِسكين (ت ٢٩٥)[4]: فقد خصّص عيسى لمكتبته غرفة من منزله، كانت مملوءة بالكتب، وقد وُصف بأنّه أروى أصحاب سَحنون للكتب والحديث[5]، وقال تلميذه أبو الحسن الكانشي: «أدخلني عيسى بن مِسكين إلى بيت مملوء بالكتب، ثمّ قال لي: كلّها رواية، وما فيها كلمة غريبة إلاّ وأنا أحفظ لها شاهداً من قول العرب»[6].

ـ مكتبة محمد بن بِسْطَام الضَّبّيّ (ت ٣١٣): وقد كان كثير النَّسخ للكتب، حتّى إنّه اشترى وصيفاً ليصلح له المصباح أثناء نسخه باللّيل، فإذا نعس الغلام وضع له في فيه قطعة من القصب الحلو ليزيل عنه النّعاس[7].

ـ مكتبة حَمْدون بن مجاهِد الكَلْبِيّ (ت ٣١٩ أو ٣٢١)، وقد اشتملت على ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب كلّها بخطّ يده[8]، وكان لا يكتب إلاّ بالفهم ويضبط كلّ مشكل، ويحبّ نشر العلم وإذاعته[9].

---

(١) انظر: المدارك ٤/٤٠٨.
(٢) المدارك ٣/١٠٤، المعالم ٢/١٢٤.
(٣) الرياض ١/٤٤٣، الديباج ٢٣٤، وانظر: مصنفاته في ترجمته رقم ٣٢ في المحدثين.
(٤) انظر: ترجمته رقم ٢٧ في المحدثين.
(٥) المدارك ١/٥٩١.
(٦) الديباج ١٧٩، المدارك ٣/٢١٣.
(٧) انظر: الرياض ٢/١٨١.
(٨) انظر: الرياض ٢/٢٠٣.
(٩) المدارك ٥/١٤٧.

ـ مكتبة أحمد بن محمد القَصْرِيّ (ت ٣٢٢)، فإنّه كان شغوفاً بجمع الكتب، كثير النّسخ لها، وكان يقول: «منذ أربعين سنة ما جفَّ لي قلم»[١]، وقد زار مرّة يحيى بن عمر (ت ٢٨٩)[٢] في سُوسَة، فوجده ألّف كتاباً ولم يجد القصْرِي ثمن الرّقوق لينسخه عليها، فباع قميصه واشترى الرّقوق ونسخ الكتاب وقابله، وأتي به القَيْرَوان[٣].

ـ مكتبة أبي العرب محمد بن أحمد التَّمِيمِي حافظ القيروان (ت ٣٣٣)، وقد اشتملت على ثلاث آلاف وخمسمائة كتاب، كلّها بخط يده[٤].

ـ مكتبة عبدالله بن أبي هاشم بن مسرور التُّجِيبيّ (ت ٣٤٦)، وقد اشتملت على سبعة قناطير من الكتب كلّها بخطّ يده إلّا كتابين[٥]، وكان لكثرة نَسْخه يُصنع له مقدار أربعين لتراً من الحبر كلّ سنة[٦].

ـ مكتبة بني الجَزَّار، وهي من أكبر المكتبات القَيْرَوانيَّة، وقد اشتملت مكتبة أحمد بن الجزّار (ت ٣٦٩) وحدها على عشرين قنطاراً من الكتب[٧].

ـ مكتبة عبدالله بن أبي زيد القيروان (ت ٣٨٦) وقد قال عنه عِياض: «ملأت الدّنيا تآليفه، عارض كثير من النّاس أكثرها، فلم يبلغوا مداه، مع فضل السّبق وصعوبة المُبْتَدَأ»[٨]. وقد عُرف له منها أكثر من ثلاثين كتاباً، بعضها يتكوّن من عدّة مجلّدات[٩].

---

(١) ورقات ١/٣٤٠.
(٢) انظر: ترجمته رقم ٩ في المهاجرين.
(٣) انظر: الرياض ٢/١٩٧.
(٤) انظر: المدارك ٣/٣٣٤، الشجرة ١/٨٤، وانظر: مصنفاته في ترجمته رقم ٣٠ في المحدثين.
(٥) انظر: المدارك ٣/٣٤١.
(٦) انظر: ورقات ١/٣٤١.
(٧) انظر: ورقات ١٢/٣٤٢ نقلاً عن طبقات الأطباء لابن جلجل ١/٣٨.
(٨) المدارك ٣/٤٩٣.
(٩) انظر: مصنفاته في ترجمته رقم ١٩ في المحدثين.

ومن المكتبات الخاصّة أيضاً خزائن الكتب التي كانت في قصور الأمراء؛ إذ كانت الاستفادة منها مقصورة عليهم، ومن هذه المكتبات:

ـ خزانة العَبَاسِيَّة، وهي المكتبة الموجودة بالقَصر الأبيض بالعبَّاسِيَّة[1]، ويؤمّها أمراء بني الأغلب وأهل بيتهم، للمطالعة والتّعليم، ثمّ نقلت إلى «رَقَّادَة» عندما أصبحت منزل أمرائهم[2].

ـ خزانة المَنْصورِيَّة[3]، وهي مكتبة العُبَيْدِيّين الرّافضة لمّا حكموا القَيْرَوان، وقد اشتملت على الكتب التي استحوذوا عليها من خزانة رَقَّادَة، كما اشتملت على كتب الدّعوة الإسماعيليَّة[4]، وقد نقلها العُبَيديّون معهم عندما خرجوا إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ.

ـ خزانة كتب المعزّ بن باديس خاتمة أمراء القَيْرَوان (٤٠٧ ـ ٤٤٩)؛ ويستفاد وجودها من الخبر الذي أوردته المصادر عن إهداء المعزّ لأبي بكر عَتِيق السُّوسِي أحمالاً من الكتب، فرفض أبو بَكْر قبولها، فقال له الرّسول: «يقول لك المعزّ هذه الكتب في خزانتنا ضائعة، وبقاؤها عندنا ممّا يزيدها ضياعاً، وأنت أولى باقتنائها. . .»[5].

٣ ـ المكتبات التّجاريّة:

لقد كانت سوق الكتب بالقَيْرَوان نافقة، وتجارتها رابحة، وقد اتّخذت لبيعها مواضع بأسواق القَيْرَوان، وهي شبيهة بحوانيت الورّاقين، تعرض فيها

---

(١) هي دار حكم الأغالبة من سنة ١٨٥ إلى سنة ٢٦١ هـ، على بعد ثلاثة أميال من مدينة القيروان، وتسمى أيضاً القصر القديم. انظر: البيان المغرب ٩٢/١، بساط العقيق ٢٥.

(٢) انظر: ورقات ٣٢٧/١ نقلاً عن تاريخ الرقيق.

(٣) والمنصورية هي مدينة صبرة، وهي دار حكم العبيديين في عهد ثالث ملوكهم إسماعيل المنصور (٣٣٤ ـ ٣٤١) وقد أسسها سنة ٣٣٦ هـ. انظر: البيان المغرب ٢١٨/١ ـ ٢٢١.

(٤) انظر: ورقات ٣٣٣/١.

(٥) المعالم ١٨١/١، الشجرة ١٠٧/١.

الكتب للبيع، وفيها تستنسخ الكتب أيضاً، كما يجتمع بها بعض العلماء للمذاكرة والدّرس والمناظرة، وممّا يصوّر لنا ذلك هذا النّص الذي ذكره المالكيّ في ترجمة أبي عبدالله محمد بن نظيف البَزَّار (ت ٣٥٥) قال: «ذُكر عنه رحمه الله تعالى أنّه دخل إلى موضع تُباع فيه الكتب، وقد حضر ذلك المكان جماعة من العلماء والصّالحين، فلمّا دخل قاموا كلّهم على أرجلهم إجلالاً له وهيبة... وكان في ذلك المجلس السَّكَاكِينِيّ الشّاعر، فلما رأى تعظيمهم له وقيامهم هاله ذلك، وقال: لقد أُعطي هذا الرّجل أمراً كبيراً والله لأختبرنّه، قال: فألقى عليه مسائل من معاني القرآن للزّجَّاج (إبراهيم بن إسحٰق ت ٣١١) فوجده بحراً لا تكدره الدّرء وكأنّه إنّما يجيب من الكِتاب لا يتعلثم في حرف منه...»[١].

وكان الطّلاب القادمون للدّراسة بالقَيْرَوان يقبلون على شراء الكتب، ومن صور ذلك تنافسهم في اقتناء المدوّنة وتغاليهم في ثمنها حتّى عُدمت من القَيْرَوان[٢].

كما كان من الشّائع بيع كتب العالم بعد وفاته، إذا لم يحبّسها، ولم يكن له عقب من أهل العلم[٣].

وقد تسامع أهل المشرق برواج سوق الكتب بالقَيْرَوان فرحلوا إليها في تجارة الكتب، فهذا أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي (ولد سنة ٢٨٨)، قد جلب إلى القيروان أحمالاً كثيرة من الكتب، باع منها لأهل إفريقيّة مدّة عام كامل، ثم انتقل إلى الأندلس بما بقي منها سنة ٣٣٠ هـ، وإنّه لممّا يؤسف له أن لا نجد من اهتمّ بذكر أسماء الكتب التي باعها أبو علي في القيروان، أمّا ما باعه في الأندلس فقد ذكره ابن خَيْر في فَهْرَسَتِه[٤]، وكلّه في الشّعر والأدب، والذي

---

(١) الرياض ٢/٤٦٧.

(٢) ورقات ١/٣٤٩ نقلاً عن المعالم ٣/٢٢٦.

(٣) انظر مثلاً: المعالم ٢/٣٢٣، الرياض ١/٤٧٩، الديباج ٣٢.

(٤) انظر: فهرسة ابن خير ٣٩٥، ورقات ١/٣٤٢.

يظهر لي أنّ الذي باعه في القيروان يشتمل على أمّهات المصنّفات في علوم الكتاب والسُّنَّة؛ لرواج سوقها في القيروان، ولإقبال الطّلاّب عليها، كما أنّه لا يعقل أن يقدم من المشرق إلى مدينة اشتهرت باهتمام أهلها بالعلوم النّقليّة ليتاجر فقط بالكتب الأدبيّة، فكان أن ن قد ما جلبه من المصنّفات المتعلّقة بالعلوم الشّرعيّة في القيروان، وبقيت كتب الشّعر والأدب لزهادتهم فيها، فباعها في بلاد الأندلس.

رابعاً: بيت الحكمة القيروانيّ:

اكتفت بعض المصادر القديمة بالإشارة إلى اسم بيت الحكمة القيرواني، واسم الشّخص الذي ترأسه، ولم تذكر طبيعة مهمّته، أو تاريخ تأسيسه، أو العلوم التي كانت تدرّس فيه[1]، ولم تشر إليه كتب الأفارقة الواصلة إلينا باعتباره مؤسّسة رسميّة، بسبب الحواجز التي كانت تفصل العلماء عن أصحاب السّلطة، هذا بالإضافة إلى أنّ أنواع العلوم التي كانت تدرّس فيه لم تكن مستساغة من قبل العلماء.

وفي العصر الحديث توسع الأستاذ ح. ح. ع في الكلام عنه[2]، وينبغي أن نأخذ ما ذكره بكثير من الحذر؛ لأنّ معظمه مبنيّ على التّخمين والاستنتاج البعيد، ولم يستند فيه إلى معلومات موثّقة.

والذي يمكن قوله بخصوص بيت الحكمة القيرواني أنّ الأمراء الأغالبة كانوا يقلّدون الخلفاء العبّاسيّين في كثير من أمورهم، ومن ذلك تأسيسهم لبيت الحكمة القيرواني على غرار بيت الحكمة ببَغْداد، حرصاً منهم على مواكبة حركة العلوم الرّياضيّة والفلسفيّة بالمشرق.

---

(١) انظر: التكملة ١/١٧٣، نفح الطيب ٣/١٣٤، ونقل عنهما صاحب الأعلام ١/٢٢.
(٢) ورقات عن الحضارة العربية ١/١٩٢ - ٢١٩. (لحسن حسني عبدالوهاب).

ويعتبر بيت الحكمة القيرواني أوّلَ جامعة للعلوم التّجريبيّة بإفريقيَّة[1]، وقد أنشىء بمدينة رَقَّادة التي تقع في جنوب غربيّ القيـروان على بعد ثمـانية كيلو مترات، وكان الأغالبة قد اتّخذوها داراً لملكهم في عهد إبـراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٦١ ـ ٢٨٩)[2]، وكان هذا الأمير مولعاً بالعلوم الرّياضيَّة، وهو الذي أسّس بيت الحكمـة وجلب له العلمـاء والمصنّفات في مختلف الاختصـاصات كالطّبّ والفلك والفلسفـة والهندسـة[3]، وقد اتُخـذ بيت الحكمة لتـدريس هذه العلوم، وترجمة المصنّفات ونسخها ومقابلتها[4]. وبالإضافة إلى ذلك كان بيت الحكمة يحتضن المناظرات الكثيرة والمجالس العلميّة التي كان يعقدها الأمراء الأغالبة، ويستدعون لها بعض علماء القيروان[5].

على أنّ بيت الحكمة لم يستمرّ على حالته هذه من الاهتمام بالعلوم العقليّة فحسب، فـإنّ اتخاذ محـدّث مقرىء أديب لـرئاستـه في عهد زيـادة الله الثّالث (٢٩٠ ـ ٢٩٦)[6] يجعلنا نعتقد أنّ العلوم الشّرعيّة أيضاً قد بدأت تأخذ مكانتها في بيت الحكمة؛ فإنّ إبراهيم بن أحمد الشَّيْبَانِيّ (ت ٢٩٨) رئيس البيت له مسند في الحـديث، وكتاب سـراج المهدي في القـرآن ومشكله وإعرابـه ومعـانيـه، إلى مصنّفات كثيرة في الأدب، وهـو الذي أدخـل إلى القيروان رسـائل المحـدِّثين وأشعارهم وطرائف أخبارهم[7]. كما كان بعض أهل القَيْرَوان يذهبون إليه لشكل الكتب وتصحيحها[8]. غير أنّ هذا الاهتمام بالعلوم الشّرعيّة في بيت الحكمة لم

(١) انظر: ورقات ٢٧/١.
(٢) انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء ٤٨٧/١٣.
(٣) انظر: ورقات ١٩٣/١.
(٤) انظر: الحياة الاجتماعية ٧٥، ورقات ٢١٣/١.
(٥) انظر: طبقات النّحويين واللّغويّين ٢٥٨.
(٦) البيان المغرب ١٣٤/١.
(٧) وإبراهيم بن أحمد أصله من بغداد، ونزل القيروان، انظر: ترجمته رقم ١ في المهاجرين.
(٨) انظر: طبقات النحويين واللغويين ٢٥٨.

يدم طويلاً، حيث احتلّ العُبَيديّون إفريقيّة سنة **٢٩٦** هـ، واستحوذوا على ما في بيت الحكمة، واتخذوه مجلساً لدعاتهم ومكاناً لمناظراتهم مع بعض علماء السُّنّة[١].

ولمّا انتقلوا إلى مصر أخذوا معهم ما فيه من المصنّفات، ووضعوها في خزائن كتبهم بالقاهرة، فقد ورد أنّ إحدى خزائنهم كان بها ستّة آلاف وخمسمائة مجلّد في الفلك والطّبّ[٢] وهما من أهمّ الاختصاصات التي اعتنى بها بيت الحكمة القيرواني.

خامساً: قصور الرّباط:

وهي الحصون التي تنشأ قريباً من السّواحل غالباً، والتي تتّخذ لمراقبة العدوّ القادم من البحر، وحماية المسلمين من مباغتاته.

وقد امتازت إفريقيَّة في الفترة التي أدرسها بكثرة ما فيها من قصور الرّباط، المنتشرة على سواحلها، والتي بدأ إنشاؤها من منتصف القرن الثّاني للهجرة على يد بعض ولاة الدّولة العبّاسِيَّة بإفريقيَّة، منهم هَرْثَمَة بن أَعْيُن والي هارون الرّشيد على إفريقيَّة، فقد بنى قصر رباط المُنَسْتِير سنة ١٨٠ هـ[٣]، ثمّ تكاثرت وشاعت على يد أمراء الدّولة الأغلبيَّة، فقد ورد أنّ جملة ما بنوه من الحصون والمحارس والقلاع يصل إلى ثلاثين ألفاً بحيث إنّ الإشارات الضّوئيّة التي كانت تستعمل للإنذار بالخطر بين هذه المراكز، كانت تصل من سَبْتَة بالمغرب إلى الإسْكَنْدَرِيّة في ليلة واحدة[٤].

وقد كان العلماء والصّالحون يسهمون أيضاً في بناء قصور الرّباط، من ذلك أنّ محمد عبدالرّحيم بن عبد ربّه الفقيه الزّاهد (ت ٢٤٧) بنى قصر زياد

---

(١) انظر: ورقات ١/٢٠٥.

(٢) انظر: النجوم الزاهرة ٤/١٠١، الكامل ٧/٧٧.

(٣) انظر: البيان المغرب ١/٨٩، تاريخ ابن خلدون ٤/٤١٧، ذكرى المازري ٣٥، ٧٠.

(٤) انظر: سير أعلام ١٣/٤٨٨، تاريخ ابن خلدون ٤/٤٢٩، ٤٣٤، أعلام ابن عاشور ١٧.

بمشاركة بعض إخوانه[1]، وبنى سَهْل بن عبدالله بن سَهْل القُبْرِيَاني (ت ٢٨٢) قصر الرّباط بسُوسَة وقد اشتهر بعد ذلك بقصر سَهْل[2]، وسَهْل هذا فقيه له مشاركة في الحديث، سمع منه عالم كثير[3].

وبالرّغم من أنّ الغالبيّة العظمى لهذه القصور قد بنتها الدّولة إلاّ أنّ مهمّة الإشراف عليها وتسييرها كانت دائماً منوطة بالعُبَّاد والعلماء[4]، وخاصّة في المناطق القريبة من القَيْرَوان، كما أنّ الحراسة بها كانت من باب التّطوّع، ومع ذلك كانت الحصون مكتظّة دائماً لرغبة النّاس في الثّواب؛ قال الشيخ محمد الفاضل بن عاشور: «وقد أنشئت هذه الرّبط مباني رسميّة أسّسها الولاة والأمراء من أموال الدّولة، ولكن دخول القيام بها في نطاق الجهاد وفضله الشّرعيّ، قد جعل عمارة الرّباط، والقيام به، وتجهيزه، وإعانة القائمين عليه، وخدمتهم، من أعمال البرّ التي يتسابق المسلمون بداعي التّقوى إلى بذل جهودهم وأموالهم في سبيلها بقدر الطّاقة...»[5].

وكانت هذه الرّبط من جملة مواضع التّعليم بإفريقيَّة[6] ويسكنها مقيمون رسميّون من العلماء والعُبَّاد، كما يتناوب الحراسة بها أهل القَيْرَوان وغيرهم[7]، وكان العلماء كثيراً ما يقصدونها وخاصّة في شهر رمضان حيث يعتكفون ويعلّمون النّاس[8].

فإذا كانت مهمّة الرّباط في أوّل أمره عسكريّة تتمثّل في حراسة المسلمين خشية نزول الأعداء من جهة البحر، فإنّ هذه القصور سرعان ما أصبحت مراكز

---

(١) انظر: المدارك ٣/٩٩.
(٢) انظر: المعالم ٢/١٩٦، ورقات ٢/٩١.
(٣) انظر ترجمته في: المدارك ٣/٢٧٤، المعالم ٢/١٩٦، ط الخشني ١٣٤.
(٤) انظر مثلاً: الشجرة ١/٨٣.
(٥) أعلام الفكر الإسلامي ١٨.
(٦) انظر: أعلام ابن عاشور ١٩.
(٧) ذكرى المازري ٧٦، ٧٧.
(٨) انظر مثلاً: المدارك ٣/٦٢٧، الرياض ١/٤٩٧.

علميّة نافست مساجد القيروان لكثرة من كان بها من العلماء وما يلقى بها من الدروس، وخاصة بعد أن سيطر الأغالبة على حوض البحر الأبيض المتوسّط وأَمِن أهل إفريقيَّة من مهاجمة الأعداء «فأصبحت تلك القصور معاهد تعليم وتربية وعبادة وتوجيه، واستشعر العلماء أنّ مقامهم فيها يفتح لهم أبواباً من إيصال النّفع إلى عموم المسلمين من طرق بعيدة عن الذّكر والسّمعة، مستوفية لعوامل الانتفاع بالعلم فأقبلوا عليها... وأصبح الشّيوخ يوصون خِرّيجيهم بتعمير الرّبط وإقامة العبادات وعقد حِلَق التّعليم فيها...»[1].

ويعتبر «ألفردبل» أنّ الرّباط كان له نفس دور المسجد في نشر الإسلام[2].

وقد كانوا يسمّون قصر زياد[3] دار مالك لكثرة من فيه من العلماء، وما يعقد فيه من المجالس العلميّة، وقد اجتمع فيه أربعة عشر رجلاً من أصحاب سحنون[4]، كما اجتمع في قصر ابن الجَعْد بالمُنَسْتِير قبل تمامه ٤٨ رجلاً كلّهم قد حفظ القرآن[5].

وكان نشر الحديث عن طريق تلك القصور لا يقلّ أهمّيّة عن غيره من العلوم كالقرآن والفقه وغيرهما، فممّن نزلها لنشر العلم: سعيد بن إسحٰق الكَلْبِي (ت ٢٩٤ أو ٢٩٥)، وهو محدّث، عالم بالرّجال والمغازي، كثير الرّواية، فكان ينزل قصر الطّوب الواقع قرب مدينة سُوسَة للعبادة والتّعليم، فيقيم به الشّهور العديدة، ثمّ يخرج إلى القَيْرَوان من أجل الإسماع، فيجلس للطّلبة يحدّثهم مدّة ثمّ يعود إلى الرّباط[6].

---

(١) أعلام ابن عاشور ١٩.   (٢) انظر: الفرق الإسلامية ١٠٠.

(٣) يقع على ساحل البحر بجهة جبنيانه قريباً من مدينة صفاقس. انظر: ورقات ١٤٥/٢.

(٤) انظر: المدارك ٢٥٩/٣، مناقب أبي إسحاق ١٠.

(٥) انظر: الرياض ١١٧/٢.

(٦) انظر: ترجمته رقم ١٤ في المحدثين.

ومنهم جَبَلَة بن حَمّود الصَّدَفِيّ (ت ٢٩٧)، وهو فقيه له مشاركة في الحديث، وكانت أغلب إقامته بقصر الطّوب يحدّث المرابطين ويقصده الطّلبة للأخذ عنه[١].

ويوسف بن مَسْرُور اللّخميّ (ت ٣٢٤)، كان فقيهاً محدّثاً، نزل بقصر سَهْل يقرىء الطّلبة ويدلّ على أعمال البرّ إلى أن توفّي[٢]، وكان قد ألّف كتاباً في أهمّيّة الحصون وما يجب على المرابطين في ذلك[٣].

وكان المحدث مَسرّة بن مُسلم (ت ٣٩٣) يُسمع أصحابه تحت صومعة قصر زياد[٤]، كما كان الطّلبة يقصدون هذا القصر للسّماع من أبي جعفر عمر بن مُثنّى[٥]، وكان أبو القاسم عبدالرحمٰن بن محمد اللَّبِيدِي (ت ٤٤٦) يأتي إلى قصور الرّباط للسّماع ممّن بها من العلماء، ولذلك كان أكثر شيوخه من المرابطين[٦].

وبالإضافة إلى هؤلاء العلماء الذين يطول مقامهم بقصور الرّباط كان هناك علماء آخرون يرابطون في شهر رمضان، ويستفيدون من تلك الفرصة في نشر العلم ورواية الحديث، ومن هؤلاء: الإمام سَحنون الذي كان من أكثر علماء القيروان مداومة على هذه العادة، ومعه موسى بن معاوية الصُّمَادِحِيّ المحدّث (ت ٢٢٥) وغيرهما[٧]، وكان سَحنون قد حدّث بكتب ابن وهب كلّها في قصر زياد عندما خرج إليه فراراً من محنة القول بخلق القرآن[٨].

---

(١) انظر: الرياض ٣٥/٢، وانظر: ترجمته في الشجرة ٧٣/١، الرياض ٢٧٧/٢، المعالم ٢٧٠/٢، ط الخشني ١٤٣.

(٢) ورقات ١٤٧/٢.

(٣) انظر: الرياض ٢٣٥/٢.

(٤) الرياض ٤٢٢/١.

(٥) المدارك ٦٢٧/٣.

(٦) انظر: الشجرة ١٠٩/١، المدارك ٧٠٧/٣.

(٧) انظر: الرياض ٣٨١/١.

(٨) انظر: الرياض ٤٢٦/١.

وكان يحيى بن عمر الفقيه المحدّث (ت ٢٨٩) يعتكف بقصر المُنَسْتِير، ويحدّث به، قال أحد المرابطين بالقصر: «كان يحيى بن عمر يأتي إلينا إلى المُنَسْتِير يصوم رمضان وكان يحدّثنا»[1].

وممّا يمثّل انتشار العلم ورواية الحديث في قصور الرّباط هذه القصيدة التي قيلت في أبي الفضل مولى نجم (ت ٣٢٤)، وهو فقيه زاهد كان يعلّم بقصر المُنَسْتِير:

ألا يا أخلّائي وأهلي وجيرتي ... ومن يرد التّصحيح في الدّين عن أصل
بقصر المُنَسْتِير المبارك عالم ... نزيل غريب الدّار يُكْنَى أبا الفضل
فشدّوا المطايا نحوه وتغرّبوا ... لكي تسمعوا ما جاء حقّاً عن الرّسل
وما عنده في صحّة الدّين رخصة ... وكالذّهب الإبريز في القول والفعل
وينشر نور العلم في كلّ مشهد ... فأصبح محموداً بريّاً من البخل
وكالحسن البصريّ في الزّهد والتّقى ... ونصح البرايا حذوك النّعل بالنّعل
أنار حصون الغرب بالعلم فاهتدى ... رجال وقد كانوا من الّدين في جهل[2]

ونظراً لشيوع العلم وانتشاره في قصور الرّباط فقط سلم من فيه من العُبَّاد والمتصوّفة من الابتداع في الدّين والغلوّ والتّطرّف، فهم شديدو التّمسّك بالسّنّة والمنافحة عنها، وكانوا عنصراً أساسيّاً في مجابهة بني عُبيد كما تقدّم في التّمهيد.

وكانت قصور الرّباط بالإضافة إلى ذلك مركزاً لنسخ كتب الحديث وغيرها وتصحيحها، ومقابلتها، فهذا حمدون بن مجاهد الكبي (ت ٢٢١) نسخ برباط المُنَسْتِر أكثر دواوين العلم، وكتب بيده ٣٥٠٠ كتاب، مع تصحيحها وضبط مشكلها[3]، فهي دار لاستنساخ المصاحف ومجامع الحديث وكتب الفقه[4].

(١) الرياض ١/٤٩٧، ورقات ١/١٣٠. (٢) الرياض ٢/٢٥٠.
(٣) انظر: الرياض ٢/٢٠٣، المدارك ٥/١٤٧.
(٤) انظر: الحياة الاجتماعية ٤٦ نقلاً عن مراكز الثقافة ١٦.

كما كانت الرُّبُط تضمّ مكتبات تشتمل على مصنّفات عديدة، مُحبَّسة على المرابطين للانتفاع بها، من ذلك أنّ أبا محمد عبدالرّحيم الزّاهد (ت ٢٤٧) كتب بخطّه كتباً كثيرة، وضبطها وحبّسها على المرابطين بقصر زياد[1]، وقد قال ح. ح عبدالوهاب: «إنّني كثيراً ما رأيت أجزاء مخطوطة على الرّقّ، يرجع تاريخها إلى القرن الرّابع والخامس مرسوماً تحت عنوانها: حُبُس على جماعة المرابطين بقصر كذا، ويذكر حصن الرّباط الموقوف عليه، وأحياناً تكون عبارة التّحبيس هكذا: حُبُس على من يسكن حجرتي برباط كذا...»[2].

وفي عهد بني عُبيد كانت قصور الرّباط مصدراً لخوفهم وقلقهم، فاستولوا على سلاح الحصون، وأخلوا أكثر القصور وأفسدوها، وأخرجوا مرابطي قصر زياد وجعلوه مخزناً للسّلاح[3] ولم يسلم إلّا قصر المُنَسْتِير؛ لأنّ شيخ القصر سعدون بن أحمد الخَوْلَانِيّ (ت ٣٢٤) كان يداريهم ليكفّ أذاهم عن القصر، فكان يجتمع إليه فيه نحو أربعة آلاف رجلٍ حتّى خاف منه الرّافضة[4]. وكان بعض العلماء المرابطين قد ترك سكنى الرّباط لمّا احتلّ بنو عُبيد إفريقيَّة، ونزلوا القَيْرَوان، ومن هؤلاء جَبَلَة بن حَمُّود الصَّدَفِيّ (ت ٢٩٧)، فلمّا سئل عن ذلك قال: «كنّا نحرس عدوّاً بيننا وبينه البحر، ولآن حلّ العدو بساحتنا»[5] وقال: «أحرس عورات المسلمين من هؤلاء القوم فإن رأيت منهم شيئاً حرّكت المسلمين عليهم...»[8].

ولمّا خرج العُبيديّون إلى مصر عادت قصور الرّباط إلى القيام بوظيفتها التّعليميّة.

---

(١) انظر: الورقات ١/٤٢١. (٢) ورقات ١/٣٣٩.

(٣) انظر: الرياض ٢/٥٦، ٢٢٢، ٢٦٠، موقف متصوفة إفريقية ١٩.

(٤) انظر: الشجرة ١/٨٣، الرياض ٢/٦٠.

(٥) الشجرة ١/٧٣. (٦) الرياض ٢/٣٨.

وهكذا يتبيّن لنا أنّ قصور الرّباط كانت من أهمّ المراكز العلميّة بإفريقيَّة، أسهمت في التزام النّاس بالدّين، ونشر الثقافة الإسلاميَّة بصفة عامّة، وعلوم الحديث بصفة خاصّة، وقد تخرّج فيها أفواج من العلماء، فكلّ رباط منها كان معهداً علميّاً تدرّس به مختلف العلوم الشّرعيّة، وتروى فيه الأحاديث النّبويّة، وتتوفّر فيه مكتبة جامعة تضمّ نفائس الكتب وأعظم الذّخائر، ومن بينها المصنّفات الحديثيّة، كما كان داراً لنسخ الكتب ومقابلتها وتصحيحها[1].

سادساً: دور العلماء:

إنّ اتّخاذ المنازل الخاصّة لنشر العلم أمر قديم في الإسلام، فقد كان الرّسول ﷺ يجتمع بأصحابه في أوّل البعثة بمكّة في دار الأرقم بن أبي الأرقم، يعلّمهم مبادئ الإسلام، ويتلو عليهم ما ينزل من القرآن، ويقصده فيها من يرغب في الدّخول في الدّين الجديد[2].

ولمّا أظهر الله الإسلام وانتشرت المساجد وغيرها من المراكز العلميّة كانت هي المواضع الأساسيّة للتّعليم، وقلّت الحلقات في المنازل، لصعوبة التّوفيق بين هدوء المنزل وبين ما تستدعيه حلقة الدّرس من حركة ونشاط، فلم تتّخذ الدّور للدّرس إلا عند الضّرورة غالباً[3].

أمّا في القيروان فإنّ كثيراً من العلماء قد اعتبروا المنازل مكاناً صالحاً للتّعليم، فعقدوا فيها المجالس العلميّة، وفتحوا أبواب دورهم لاستقبال من يقصدهم من طلبة العلم، ولهم في هذا الأمر قدوة بمن عُرف عنه ذلك من أهل العلم، كالإمام مالك الذي كانت له حلقة في داره[4].

---

(١) انظر: مدرسة البخاري في المغرب بتصرف ٢/٤٧٩.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد ٣/١١٦، ٤/٤٢، وراجع سيرة ابن هشام ١/٣٥٥.

(٣) انظر: تاريخ التربية الإسلامية ٦٦، ٦٧.

(٤) انظر: الرياض ١/٢٨٤.

وقد كان للحديث نصيبه في حلقات بيوت العلماء بالقيروان، وممّن كان يُسمع في داره من القرويّين البُهلول بن راشد (ت ١٨٣)، فقد كانت له حلقة في منزله يحدّث فيها أصحابه[١]، وأسمع عليّ بن زياد (ت ١٨٣) الموطّأ للإمام سَحنون في المنزل الذي سكنه عندما رحل إلى تونُس[٢].

وكان الإمام سَحنون (ت ٢٤٠) حلقة عظيمة في داره يختلف إليه فيها تلاميذه[٣] بالإضافة إلى مجلسه في المسجد[٤].

ولمحمد بن يحيى بن سلاَّم (ت ٢٦٢) في داره حلقة كبيرة أعجب بها الحافظ أبو العرب التَّمِيميّ، وكانت سبباً في إقباله على طلب العلم[٥].

وكان عيسى بن مِسكين (ت ٢٩٥) يحدّث في منزله بجامع ابن وهب وغيره من مرويّاته[٦].

وقد قامت دُور العلماء بدَور عظيم في نشر العلم ورواية الحديث ودراسته، وخاصّة في عهد بني عُبيد الذين منعوا التّدريس في المساجد، وحرصوا على إماتة السّنّة، ممّا جعل العلماء ينقلون حلقاتهم العلميّة ودروسهم إلى البيوت والمجالس الخاصّة، فكانت السُّنَّة في عهدهم تقرأ سرّاً[٧].

وقد كان لأبي عمرو ميمون بن العَلاَّف (ت ٣٠٤) حلقة في بيته يُقرأ عليه فيها الموطّأ وغيره[٨].

---

(١) انظر: الحلل السندسية ١/٣/٧٢٠. (٢) انظر: الرياض ١/٣٥٠.
(٣) انظر: الرياض ١/٣٦٥، ٣٦٨، ٢/٢٩.
(٤) انظر مثلاً: ط أبي العرب مح ١٤٦.
(٥) انظر: المدارك ٣/٣٣٥، وترجمته رقم ٣٥ في المحدثين.
(٦) انظر: المكتبة الأثرية ٣٤.
(٧) انظر: تاريخ ابن الفرضي ١/١٥٣، ٢٠١.
(٨) انظر: ط الخشين ١٩٥.

وكان أحمد بن نصر الهَوَّارِي (ت **٣٢٧**) يدرِّس في مسجد رَحْبة القُرَشِيِّين بالقَيْرَوان، فسجنه العُبيديّون ومنعوه من التّدريس به، وأمروه بلزوم بيته، فكان يجتمع إليه فيه من يقصده من طلبة العلم[1].

ومثل هذا وقع لأبي بكر محمد بن محمد بن اللَّبَّاد (ت **٣٣٣**) شيخ السُّنّة بالقَيْرَوان، فإنّه «سُجن أيّاماً، ثمّ أُطلق ومُنع الفتوى والإسماع واجتماع الطّلبة عليه»[2]، فكان الطّلبة يجتمعون إليه في بيته سرّاً، وربما وضعوا الكتب في أوساطهم حتّى تبتلّ بالعرق خوفاً من بني عُبيد[3]، وكانت حلقة ربيع القطّان في منزله حافلة بالطّلبة على عهد بين عُبَيد[4].

وكان لأبي مَيْسَرة أحمد بن نِزَار الفقيه (ت **٣٣٧**) حلقة في بيته[5]، أمّا أبو إسحٰق إبراهيم بن أحمد السَّبَائِيّ (ت **٣٥٦**) فقدِ كانت داره كالمسجد لكثرة من يقصده من طلبة العلم[6]، ولم يكن أحد يذكر الصّحابة بخير إلاّ في داره؛ لانتشار أمر الرّافضة وسبّهم للصّابة رضي الله عنهم[7].

وبعد خروج بني عُبَيد إلى مصر سنة **٣٦٢** هـ عادت الحياة العلميّة تدريجيّاً إلى المساجد، ومع ذلك فقد استمرت دُور العلماء في أداء وظيفتها التّعليميّة والحديثيّة، من ذلك أن الحافظ أبا الحسن القابِسي (ت **٤٠٣**) قد خصّص الدُّور العلويّ من منزله للطّلبة الذين يقصدونه من مختلف البُلدان، قال تلميذه حاتم بن محمد الطَّرَابُلْسِيّ ثمّ الأندلسيّ (ت ٤٦٩): «كنّا عند أبي الحسن القابِسي في نحو ثمانين رجلاً من طلبة العلم، من أهل القَيْرَوان والأندلس وغيرهم من المغاربة في عَلِيَّة له، فصعد إلينا الشّيخ . . .»[8].

---

(١) انظر: المعالم ٦/٣.
(٢)، (٣) المعالم ٢٥/٣.
(٤) انظر: الرياض ٣٢٦/٢، ٣٢٧.
(٥) انظر: المدارك ٣٦٠/٣.
(٦) انظر: المعالم ٦٦/٣.
(٧) انظر: المدارك ٣٧٨/٣.
(٨) الصلة ١٥٦/١.

سابعاً: مجالس الأمراء:

من المواضع التي يقع فيها تداول العلم والمذاكرة فيه: المجالس التي كان يعقدها أمراء القيروان ويستدعون لها العلماء، وقد وجد ذلك منذ عهد الولاة؛ فإنّ محمد بن الأشعث الخُزَاعِيّ لمّا تولّى إمارة إفريقيَّة ونزل القيروان سنة ١٤٤ هـ[١] قال: «هل في بلدكم أحد من أهل الحديث؟» قالوا: نعم، رجل يقال له يزيد بن أبي منصور[٢]، هو من التّابعين من بقايا النّاس، فبعث إليه فجاءه وهو شيخ كبير قد خرف وضعف، فحادثه ساعة. . .[٣] وتذاكر معه بعض الأحاديث.

وفي عهد الأغالبة تكثّفت هذه المجالس وكثرت، بالرّغم من الحواجز التي كانت قائمة بين أكثر أمراء هذه الدّولة وبين علماء المالكيّة بالقَيْرَوان، الذين لم يكونوا يستجيبون غالباً لهذه المجالس إلاّ لضرورة، كالنّظر في حكم مسألة نازلة.

ومن صور هذه المجالس ما ذكره أبو العرب قال: «نزلت نازلة أحضر لها محمد بن الأغلب (٢٢٦ - ٢٤٢) علماء القيروان، فتقدّم عون[٤]، فقال له ابن الأغلب: تقدّم يا أبا محمد فلك السّنّ ولك الجلالة، ألم يقل مالك كذا؟ ألم يقل مالك كذا؟ وهو يقول: نعم. . .»[٥].

وقال المالكي: «أُخذ في زمن زيادة الله (٢٠١ - ٢٢٣) زنديق فأرسل إلى أسد وأبي مُحْرِز وزكريّاء بن محمد - وكان من أصحاب مالك - يسألهم عن وجه الحكم فيه. . .»[٦]، فتناظروا عنده وخرجوا بحكم نفّذه زيادة الله.

---

(١) انظر: البيان المغرب ٧٢/١.

(٢) انظر: ترجمته رقم ٢ في القسم الرابع من التابعين.

(٣) طبقات أبي العرب ٢١.

(٤) هو عون بن يوسف الخزاعي، فقيه محدث (ت ٢٣٩)، انظر: ترجمته رقم ٢٦ في المحدثين.

(٥) ط أبي العرب ١٠٦.

(٦) محدث فقيه لغوي من تلاميذ مالك (ت ٢٢٧)، انظر: ترجمته رقم ١٨ في المحدثين.

وقال عبدالله بن أبي حسَّان اليَحْصُبِيّ[1]: «دخلت على زيادة الله بن إبراهيم (٢٠١ - ٢٢٣) فأصبت عنده أسد بن الفُرات وأبا مُحْرِز وهما يتناظران في النّبيذ المسكر...»[2].

ومن المجالس الأميريّة الثّابتة مجلس إبراهيم بن أحمد (٢٦١ - ٢٨٩)، قال حَمْدِيس القَطّان (ت ٢٨٩)[3]: «اجتمعنا عند إبراهيم بن أحمد أنا ويحيى بن عمر وجماعة، فطال بنا المجلس والمذاكرة... فقلت له: «لي إلى الأمير حاجة» فنشط إليها وقال: «أُذكر حاجتك» فقلت له: تعافيني من المجيء إليك بعد هذا المجلس؛ فإنّك لست تجد عندي ما تريده» فسكت ساعة ثم قال: «قد فعلتُ» فعطف عليه يحيى بن عمر وقال: «وأنا أيّها الأمير» فقال: «لست أفعل»، ثمّ انصرفنا»[4].

وقال الخُشَنِيّ: «استقضى إبراهيمُ بن أحمد سليمانَ بن عِمران[5]، وأمره بالنّظر على ابن طالب[6] فنظر عليه في ثلث الجَدّة[7]، ودار في ذلك عند إبرهيم مجلس مناظرة بحضرة شيوخ القَيْرَوان»[8].

---

(١) الرياض ١/٢٧٦. (٢) ط أبي العرب ٨٨.

(٣) كان فقيهاً ورعاً صلباً في السنة، شديداً على أهل البدع، انظر: الرياض ١/٤٨٨، المعالم ٢/٢٥٠.

(٤) الرياض ١/٤٨٩.

(٥) أحد قضاة الأحناف تولى القضاء قبل ابن طالب وبعده، انظر: ترجمته في طبقات الخشني ١٨٠، ٢٣٦، ٢٣٧.

(٦) عبدالله بن أحمد بن طالب التميمي، عم أمراء بني الأغلب، كان عالماً، من كبار أصحاب سحنون، وكان محبوباً من قبل الناس فخاف إبراهيم بن أحمد منه على ملكه، فعزله عن القضاء وامتحنه، وتسبب في قتله سنة ٢٧٥ هـ، انظر: الرياض ١/٤٧٤، الديباج ١٣٤، المعالم ٢/١٥٩، طبقات الفقهاء ١٥٨، المدارك ٣/١٩٤.

(٧) هكذا في نص الخشني، والمعروف أن الجدة لها السدس، انظر مثلاً: الشرح الكبير ٤/١٧.

(٨) ط الخشني ٢٣٧.

ومن القضايا التي أخذت حيزاً كبيراً في مجالس بني الأغلب مسألة القول بخلق القرآن، وخاصّة في عهد أحمد بن الأغلب سنة ٢٣١ هـ الذي امتحن بسببها كثيراً من علماء القيروان، وعقد المجالس لمناظرتهم[١].

وفي عهد بني عُبَيد اتُّخذت المجالس لمناظرة علماء السّنّة بالقَيْرَوان، ومحاولة إدخالهم في دعوتهم، وكانت المناظرات تدور حول المفاضلة بين الصّحابة، وحكم تقديم المفضول على الفاضل، وصلاة قيام رمضان، وتعريف الألوهيّة، والسّنّة، والعمل في مختلف الحديث، وغير ذلك[٢]. ومن أشهر من ناظرهم من علماء السّنّة أبو عثمان سعيد بن محمد بن صُبَيح المعروف بابن الحَدّاد (ت ٣٠٢)[٣]، وقد بلغت مجالسه معهم أربعين مجلساً، لم يصلنا منها حاليّاً إلّا أربعة[٤]، كما ناظرهم عبدالله بن إسحاق المعروف بابن التَّبَّان (٣٧١)[٥] وأبو بكر بن القَمُّودي[٦]، وغيرهم.

أمّا في عهد صنهاجة فقد اشتهر بلاط المعزّ بن باديس (٤٠٧ - ٤٤٩)، وهو واسطة عَقْدهم وخيرة أمرائهم، بكثرة مجالسة العلميّة، وكان يتودّد إلى العلماء ويهدي لهم الكتب[٧]، ويزيّن مجالسه بحضورهم ومذاكرتهم[٨].

ثامناً: حوانيت العلماء:

لقد اشتغل بعض علماء القيروان بالتّجارة، واتّخذوا فيها المجالس

---

(١) انظر: المحن ٤٥٤، ٤٥٦، الحلل السندسية ١/٣/٧٩٢، المدارك ٣/٢٢٢، ط أبي العرب ٨٩.

(٢) انظر: رقم ٣ من الفرق الكلامية في التمهيد.

(٣) انظر: ترجمته رقم ١٥ في المحدثين.

(٤) انظر: ورقات ١/٢٥٩، الرياض ٢/٢٨، ط الخشني ١٩٩، سجل قديم ٣٦٤.

(٥) انظر: المدارك ٣/٥٢١.

(٦) انظر: ط الخشني ٢١٤.

(٧) انظر: المعالم ٣/١٨١، الشجرة ١/١٠٧.

(٨) انظر: ورقات ١/٣٤٣، بساط العقيق ٧٨.

للمذاكرة، فكان يقصدهم فيها الطّلبة، ومن هؤلاء أبو طالب عبدالله بن عثمان الأَبْـزَارِي المَعَافِـرِيّ تلميذ مـالك[1]، روى أبـو العرب بسنـده إلى أبي الهَيْثَم اللُّؤْلُؤِيّ[2] قال: «جلست أنا ودَحْيُون إلى أبي طالب الأَبْزَارِيّ في حانوته فجاء يحيى بن سلاَّم (ت ٢٠٠) فذكر حديثـه. . . »[3].

وكان ربيع القطّان (ت **٣٣٣**)[4] قد حوّل حلقته إلى حانوتـه في عهد بين عُبيد، قال عياض: «وكان جعل على نفسه ألاّ يشبـع من طعام ولا نـوم حتّى يقطع الله دولة بني عُبيد، وكان مع ذلك ملتزماً في حانوته يبيع فيه القطن، وفيه يأتيه من يطلب منه ويسأله»[5].

وقال أحد إخوة ربيع: «يأتي إليه قوم فيقعدون عنده فيسألونه عن علم رفيع فيجيبهم بكلام عال، فإذا قاموا عنه رجع إلى حلقة القطن يبصر فيهـا ويطلب الحبّة والخَرّوبة»[6].

وكان رباح بن يزيد اللّخمي (ت ١٧٢)[7] إذا دخل حانوته استقبـل القبلة وذكر الله تعالى ثمّ يقبل على غلامه بالوعظ، وكان يفعل ذلك كلّ يوم[8].

تاسعـــاً: الباديـــة:

لم تقتصر مواضع التّعليم على المدن والحواضر، وإن كـان معظمهـا قد وجـد فيهـا، فإنّ البادية أيضاً قد أخذت حظّها من العلم عن طريق انتقال أساتذته إليها ومنهم المحدّثون وغيرهم.

---

(١) انظر: ترجمته في الرياض ٢٥٣/١، المدارك ٤٨٥/١، ط أبي العرب ١٠٠.
(٢) محدث ثقة، انظر: ط أبي العرب ٧٦.
(٣) ط أبي العرب ١٠٠.
(٤) انظر: ترجمته في رقم ١١ في المحدثين.
(٥)، (٦) المدارك ٣١٣/٥.
(٧) انظر: ترجمته رقم ١٠ في المحدثين.
(٨) انظر: ط أبي العرب ٤٨.

فقد كان بعض علماء القيروان يحدّث في البادية، وقد يقصده إليها من جاء للسّماع منه فلم يجده بالقيروان، بالإضافة إلى سكّان البادية، ومن هؤلاء الإمام سَحنون الذي كان يكثر من الخروج إلى البادية وخاصّة قبل تولّيه القضاء، قال يحيى بن عمر: «لمّا قدمت إلى سَحنون سألت عنه، فقيل لي: خرج إلى البادية فمضيت إلى البادية فاجتمعت به، فرأيت رجلاً أشعر عليه جُبَّة صوف ومنديل، وهو يتولّى حرث ضيعته وأسباب مؤنته، فاستقللته فقلت: «إنّا لِلّه وإنّا إليه راجعون، جئت من المشرق وخلّفت به العلماء، وجئت إلى هذا الرّجل وما أراه يحفظ من العلم شيئاً ولا معه شيء، فأنزلني ورحّب بي، فلمّا كلّمته وسألته في العلم رأيت بحراً لا تُكَدّره الدّلاء...»[1]، وكان يجتمع لدى سَحنون في باديته كثير من طلبة العلم[2].

وكان عيسى بن مِسكين (ت ٢٩٥)[3] يذاكر حديثه في باديته، ويقصده فيها بعض طلّابه[4] وأهدى أبو علي حسن بن خلدون (ت ٤٠٧)، وهو شيخ السّنّة في وقته[5]، كتاب جامع عبدالله بن وهب إلى أحمد بن عوانة الفقيه «فسار به إلى باديته»[6]، ولا شكّ أنّه قد حدّث هناك به وبغيره من مرويّاته.

عاشراً: ساحات الجهاد:

لقد كانت ساحات الجهاد من مواضع التّعليم التي عرفها القرويّون، من ذلك ما حدث أثناء الحروب مع الخوارج حيث كان الولاّة يستقدمون العلماء إلى مواقع القتال؛ لتوعية الجند بحقيقة الخوارج ومعتقداتهم، ويسمعونهم الآيات والأحاديث المرغّبة في الجهاد، ومن أمثلته ما حدث قُبيل وقعتَي القَرْن

---

(١) الرياض ١/٤٩١. (٢) انظر مثلاً: الرياض ١/٣٥٩.
(٣) انظر: ترجمته رقم ٢٧ في المحدثين.
(٤) انظر: المدارك ٣/٢٢٧، ورقات ٢/١٠٤.
(٥) انظر ترجمته في: المعالم ٣/١٥١.
(٦) المعالم ٣/١٥٢.

والأَصْنَام[1] سنة ١٢٤ هـ، جاء في تاريخ الرّقيق على لسان بعض من شهد الوقعتين قال: «. . . وإذا بقُرّاء من أهل العلم والدّين والفقه قد أرسلهم إلينا، (حَنْظَلَة بن صَفْوان الكَلْبِيّ أمير القيروان)، فتفرّقوا فينا، وحرّضوا على الجهاد وذكروا فضله، وذكروا مذهب عدوّنا وعِظم ما يريدونه من السّبي وهتك الحريم وسفك الدّماء، وأنّه ليس هناك ملجأ بعد هذ المقام»[2]، وكان النّصر حليفاً لهم، ووقعت في الخوارج مقتلة عظيمة، فكان اللّيث بن سعد يقول: «ما من غزوة كنت أحبّ أن أشهدها بعد غزوة بدر أحبّ إليّ من غزوة القَرْن والأَصْنام»[3].

ولمّا خرج علماء القيروان فيمن معهم من أهل السُّنّة لقتال بني عُبيد في المَهْدِيَّة وحاصروها، وذلك سنة ٣٣٣ هـ، قرأ أبو العرب على النّاس كتابي الإمامة لمحمّد بن سَحنون فقال بعد الفراغ منهما: «كتبت بيدي هذه ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب، فوالله الذي لا إله إلاّ هو لسماع هذين الكتابين عليّ هنا في هذا الموضع أفضل من كلّ ما كتبت»[4].

قال ابن ناجي: «يريد لكثرة من سمعه من الخلق الذين اجتمعوا إليه من سماع ذلك من علماء وغيرهم»[5]، قلتُ: ولشرف الموضع والظّرف فإنّهم في ساحة الجهاد يقاتلون عدوّاً عاتياً يعمل على تعطيل الشّرائع وإماتة السُّنّة.

أحد عشر: المقابر:

لمّا منع الرّافضة على علماء القيروان نشر العلم راحوا يتلمّسون المواضع لمواصلة التّدريس بعيداً عن أعين بني عُبَيد، ومن ذلك الاستتار في المقابر والاجتماع بها للقراءة والسّماع، فقد ورد أنّ أبا عبدالله محمد بن الفتح (ت ٣٣٤)

---

(١) انظر: البيان المغرب ١/٥٨، ٥٩.

(٢) تاريخ الرقيق ١١٩.

(٣) البيان المغرب ١/٥٩.

(٤) الرياض ٢/٣١٠، المعالم ٣/٣٧.

(٥) المعالم ٣/٣٧.

«كان يخرج إلى مقبرة باب سَلَم فيستتر خلف حائط فيقرأ هنالك على أصحابه خوفاً من بين عُبَيد؛ لأنّهم، لعنهم الله، منعوا من بثّ العلم، وسجنوا العلماء في ديارهم»[1]، ويبدو أنّ أمثال أبي عبدالله هذا كثيرون ممّن اتّخذ المقابر موضعاً لنشر العلم فراراً من ملاحقة الرّافضة، غير أنّ المصادر قد أغفلت ذكرهم.

وفي هذه المراكز المتعدّدة انتشرت العلوم المختلفة، ومنها الحديث وعلومه، وفي رحابها تخرّجت أفواج من العلماء في كلّ طبقة، قال صاحب المعالم في ترجمة أبي القاسم بن عبدالله (ت ٣٣٠)، بعد أن أورد اسم ٢٩ عالماً شهدوا احتضار هذا الشّيخ، قال: «حضور هؤلاء المشيخة لاحتضار هذا الشّيخ ينبئك بما احتوت عليه القَيْرَوان من كثرة العلماء والزّهّاد في ذلك الزّمان، والذي كان في زمن سَحنون وقبله أكثر، وقال سأل عبدالله بن عمر بن غانم (ت ١٩٠) القاضي بعض ثقاته يوم الجمعة فقال: هل حضرت للجامع اليوم؟ قال: نعم، قال: من رأيت به؟ قال: رأيت سبعين قلنسوة يستحقّون القضاء، ورأيت ثلاثمائة قلنسوة فقيه فاسترجع ابن غانم عندما سمع ذلك وقال: «ذهب النّاس»، فاسترجاعه يدلّ على أنّ علماء زمانه أقلّ ممّا كان عليه العلماء في القديم من الكثرة...»[2].

ب ـ أهمّ العلوم الشّرعيّة التي عُرفت بالقَيْرَوان وإجمال منزلة الحديث بينها:

من المفيد بعد أن أتيت على ذكر المراكز العلميّة بالقيروان وسرد نماذج تتعلّق بنشر الحديث وغيره فيها، أن أذكُر بشيء من التّفصيل أهمّ العلوم الشّرعيّة التي كانت تدرّس في هذه المراكز.

---

(١) الرياض ٢/٣١٣، المعالم ٣/٣٩.

(٢) المعالم ٣/١٨.

أولاً: القرآن وعلومه[1]:

إنّ القرآن الكريم هو أهمّ ما يحرص المسلم على تلاوته وحفظه وفهم معانيه والعمل به، وهو أوّل ما تسعى الجيوش الفاتحة لأن تُلقّنه لمن أسلم من أهل البلاد المفتوحة، وذلك يستلزم ضرورة أن تتضمّن تلك الجيوش أعداداً كبيرة من القُرّاء، ولم يتخلّف هذا الأمر عند فتح إفريقيَّة؛ فقد اشتهر بعض من دخلها من الصّحابة بالنّبوغ في القرآن ومعرفة معانيه[2]، هذا بالإضافة إلى ما عُرف عن الصّحابة جميعاً من العناية الفائقة بالقرآن والاهتمام بشأنه، وعلى عهد الصّحابة نشأت الكتاتيب بالقَيْرَوان[3]، كما أسلفت، وكانت مهمّتها الأساسيّة تعليم القرآن، ثمّ ازدادت انتشاراً في عهد التّابعين[4]، الذين عُرف كثير منهم بالتّقدّم في علوم القرآن، مثل عِكْرِمَة مولى ابن عبّاس وراوي علمه، وقد كانت له حلقة علميّة في جامع عُقبة[5]، وإسماعيل بن عُبيد الله مؤدّب ولد عبدالملك بن مروان الخليفة[6]، وجُعثُل بن عَاهَان الرُّعَيْنِي الذي كان من القُرّاء[7]، وغيرهم.

وعن طريق التّابعين تلقّى أهل القيروان علوم القرآن المنقولة بالرّواية، والتي كانت في تلك المرحلة تعتبر من أبواب الحديث كما سيأتي[8].

---

(١) لقد كانت عناية القرويين في الفترة التي أدرسها متجهة أساساً إلى الفقه والحديث، وإنما قدمت الكلام على القرآن لشرفه وعلو منزلته.

(٢) منهم عبدالله بن عباس ترجمان القرآن، وعبدالله بن سعد أحد كتبة الوحي، وعبدالله بن الزبير أحد الذين كتبوا المصاحف في عهد عثمان، وغيرهم. وسيأتي التعريف بهم في مبحث الصحابة في مطلع الباب الثالث.

(٣) انظر: الرياض ٩١/١، التاريخ الكبير ٨٧/٤، الاستيعاب ٦٦/٢.

(٤) انظر: ورقات ٧٨/١.

(٥) الرياض: ١٤٦/١.

(٦) تهذيب ابن عساكر ٣١١/٢.

(٧) انظر ترجمته: رقم ١٠ في القسم الثاني من التابعين.

(٨) انظر: ص ١٥٤.

وبعد منتصف القرن الثّاني دخلت بعض أجزاء تفاسير المشارقة إلى القيروان ورويت بها، مثل تفسير المسيَّب بن شَرِيك الكُوفِيّ[1]، الذي كان يُقرأ على أسد بن الفُرات في جامع عُقبة[2].

ثمّ ظهر في القيروان على يد يحيى بن سلاَّم (ت ٢٠٠) أوّل تفسير كامل للقرآن عُرف حتّى الآن[3]، وهو التّفسير الوحيد الذي ظهر بالقَيْرَوان في هذه الفترة إذا استثنينا تفسير أبي العباس أحمد بن عمَّار المَهْدَوِيّ (ت ٤٤٠)، الذي يغلب على الظّنّ أنّه ألّفه في بلاد الأندلس بعد هجرته إليها[4]، وكذا تفسيرَا أبي الحسن علي بن فَضال القيرواني (ت ٤٧٩)، الذي ولد وعاش خارج القَيْرَوان[5]، هذا بالرّغم من أنّ المصادر قد وصفت العديد من علماء القيروان بمعرفة التّفسير ومعاني القرآن[6].

والذي يمكن الجزم به استناداً إلى المصادر أنّ مختلف علوم القرآن كانت تدرَّس بمواضع التّعليم بالقيروان، وخاصّة القراءات، والنّاسخ والمنسوخ، وإعراب القرآن، وبيان مشكلة. . .[7] وقد عرف بذلك عدد الكبير[8] من العلماء منهم:

---

(١) أجمع النقاد على ترك حديثه، انظر: اللسان ٣٨/٦، الديوان ٢٩٨، الضعفاء الكبير ٢٣٤/٤، الكامل في الضعفاء ٢٣٨٢/٦، الضعفاء والمتروكين ٣٦٠.

(٢) انظر: الرياض ٢٦٥/١.

(٣) انظر: التعريف بتفسير يحيى في المصنفات.

(٤) لأن قدامى الأفارقة لم يترجموا له، وإنما عرّف به المصنفون الأندلسيون، ثم إن تلاميذه كلهم من أهل الأندلس، انظر: طبقات المفسرين للسيوطي ٣٠، الشجرة ١٠٨/١، القراءات بإفريقية ٣٤٩.

(٥) له «برهان العميدي» في التفسير، وهو عشرون مجلداً، والإكسير في علم التفسير، خمسة وثلاثون مجلداً، انظر: طبقات المفسرين للسيوطي ٨٢.

(٦) انظر مثلاً: المدارك ٦٢٧/٣، ٣١١/٥ (ط المغرب)، المعالم ١٢٨/٣.

(٧) انظر مثلاً: الشجرة ٧٤/١، تاريخ ابن الفرضي ١١٢/٢، الرياض ٣٢٤/٢.

(٨) ذكرت هند شلبي ٧٥ عالماً من أهل القيروان، ممن عرفوا بالعناية بعلوم القرآن، وخاصة القراءات، انظر: القراءات بإفريقية ٢٦٩ ـ ٣٦٥.

ـ يحيى بن سلّام البَصْرِيّ ثمّ القيرواني (ت ٢٠٠)، صاحب التّفسير الآنف الذكر، والذي وُصف بأنه ليس لأحد من المتقدّمين مثله[١].

ـ أسد بن الفُرات (ت ٢١٣)، وقد كان يُدرّس التّفسير في جامع عُقبة[٢].

ـ محمد بن برغوث القَرَوِيّ (ت ٢٧٢)، كان يدرّس مختلف القراءات في جامع عُقبة، ويتوسّع في ذلك، فأمره القاضي عبدالله بن أحمد بن طالب (ت ٢٧٥) بالاقتصار على قراءة نافع[٣].

ـ إبراهيم بن أحمد الشَّيْبَانِيّ (ت ٢٩٨)، صاحب كتاب سراج الهدى في القرآن ومشكله وإعرابه ومعانيه[٤].

ـ أبو عبدالله محمد بن عمر بن خَيْرُون الأندلسيّ نزيل القيروان (ت ٣٠٦)، كان إماماً في القراءة[٥]، أخذها عنه عامّة أهل القيروان وسائر المغرب[٦]، له كتاب الابتداء والتّمام، وهو في فن القراءات، وكتاب الألِفَات واللّامات، وهو في رسم المصحف، وكتاب الأداء، وهو ملخّص لما رواه ابن خَيْرُون عن أصحاب وَرْش وقراءة نافع[٧].

ـ ربيع بن سليمان القَطّان (ت ٣٣٣)، «كان حافظاً لكتاب الله عزّ وجلّ، قارئاً له بالرّويات، عالماً بتفسيره، ومعانيه، وغريبه»[٨]، بالإضافة إلى علمه بالحديث[٩].

---

(١) غاية النهاية ٢/٣٧٣، وانظر ترجمة: يحيى رقم ٨ في المهاجرين، وانظر تفسيره في: التعريف بالمصنفات.

(٢) انظر: الرياض ١/٢٦٥.

(٣) انظر: القراءات بإفريقية ٢٨١.

(٤) انظر ترجمته: رقم ١ في المهاجرين.

(٥) الرياض ١/١٣٥.

(٦) الشجرة ١/٨١.

(٧) انظر: القراءات بإفريقية ٢٩٢، ٢٩٣.

(٨) الرياض ٢/٣٢٤.

(٩) انظر ترجمته: رقم ١١ في المحدثين.

ـ أبو بكر محمد بن سَعْدون التَّمِيمِيّ (ت ٣٤٤ أو ٣٤٥)، كان مجوّداً للقراءات، حسن الصّوت بالقرآن، أمَّ النّاس بجامع القيروان، وأخذوا عنه القراءات[١].

ـ أبو بكر أحمد بن أبي بكر الزويلي (ت ٣٩١): كان حافظاً للقرآن، عالماً بالقراءات، والناسخ والمنسوخ، مقدّماً في ذلك على معاصريه[٢].

ـ أبو إسحاق إبراهيم أحمد الجِبِنْيَانِيّ (ت ٣٩٩): من كبار علماء إفريقيَّة، وكان يتولّى الإقراء، «ويحسن تفسير القرآن، ومعانيه، وإعرابه، وناسخه ومنسوخه. . .»[٣].

ـ أبو جعفر عمر بن مُثَنّى: كان عالماً بالقراءات يجيد رواية وَرْش، ويدرّسها، عارفاً بالنّاسخ والمنسوخ، والخاص والعام، والتّفسير وغيرها[٤].

ـ أبو عبدالله محمد بن سفيان الهَوَّارِي المقرىء (ت ٤١٥): كان عالماً بالقرآن وعلومه، متفوّقاً في علم القراءات حتّى وُصف بأنّه «أشهر من في المغرب في وقته بالقراءات وأبصرهم بها»[٥]، وهو من أكبر من أسهم في ازدهار هذا الفنّ بالقيروان تدريساً وتأليفاً، ومن مصنّفاته[٦]: الهادي في القراءات، اختلاف قرّاء الأمصار في عدد آي القرآن، الإرشاد في مذاهب القُرّاء، التّذكرة في القراءات، وشاعت رواية هذه الكتب في جميع بلاد المغرب حتّى وصلت الأندلس[٧].

---

(١) انظر: الرياض ٢/٤١٤، المعالم ٣/٥٤.

(٢) انظر: المعالم ٣/١٢٨، القراءات ٣٠٦.

(٣) مناقب أبي إسحاق ٢٣، المدارك ٣/٤٩٩.

(٤) انظر: المدارك ٣/٦٢٧، القراءات ٣١٠.

(٥) المدارك ٣/٢١٧.

(٦) انظر: الشجرة ١/١٠٦.

(٧) انظر: فهرسة ابن خير ٢٤، ٢٥، ٣٨، ٣٩.

ـ أبو محمد مكي بن أبي طالب القَرَوِي نزيل قُرْطُبَة (ت ٤٣٧)[١]: لم تعرف القيروان وسائر بلاد المغرب عالماً بلغ مبلغ مكّي بن أبي طالب في القراءات وعلوم القرآن، فكان من أئمّة هذه الفنون وكبار أساتذتها، صنّف في ذلك ثمانين كتاباً[٢]، كلّها حسنة مفيدة، منها: الإبانة عن معاني القراءات[٣]، التّبصرة في القراءات السّبع[٤] الهداية إلى بلوغ النّهاية في معاني القرآن الكريم وأنواع علومه[٥]، الإيضاح في ناسخ القرآن ومنسوخه ثلاثة أجزاء[٦]، المأثور عن مالك في أحكام القرآن وتفسيره عشرة أجزاء[٧] وغيرها من الكتب النّافعة في علوم القرآن.

ـ أبو بكر عَتِيق بن أحمد التَّمِيمِيّ القَصْرِي (ت ٤٤٧): كان عالماً بعلوم القرآن، أخذها عن محمد بن سفيان المقرىء، تخرّج عليه كثير من العلماء، وقد اختصّ في جلساته العلميّة بتوقيت لم يعرف لغيره، حيث كان يجلس للطّلبة من سدس اللّيل الآخر إلى الضّحي، ومن العصر إلى اللّيل[٨].

وهؤلاء القُرّاء وغيرهم أسّسوا مدرسة علوم القرآن بإفريقيَّة، تلك المدرسة التي كثيراً ما يكون أهل المغرب والأندلس عالة عليها، وخاصّة في عهد محمد بن سفيان (ت ٤١٥) ومكّي بن أبي طالب هـ٤٣٧).

---

(١) انظر ترجمته في: المدارك ٧٣٧/٣، وفيات الأعيان ٧٣٧/٥، المعالم ١٧١/٣، بغية الملتمس ٤٥٥، الصلة ٥٩٧/٢، سير أعلام ٥٩١/١٧، القراءات بإفريقية ٣٣٣.

(٢) انظر: سير أعلام ٥٩١/١٧، البغية ٤٥٥.

(٣) حققه عبدالفتاح شلبي وطبع مصر د. ت.

(٤) حققه محمد غوث الندوي وطبع بالهند، سنة ١٣٩٩ هـ.

(٥) توجد منه أجزاء في الخزانة العامة بالرباط، والخزانة الملكية بالرباط، انظر: مخطوطات مغربية ٦٦.

(٦) المدارك ٧٣٧/٣، وفيات الأعيان ٧٣٧/٥.

(٧) وفيات الأعيان ٧٣٧/٥.

(٨) انظر: معالم الإيمان ١٨٠/٣، القراءات بإفريقية ٣٥٨.

ثانياً: الحديث وعلومه:

إنّ الحديث هو موضوع هذه الرّسالة، والمقصود من ذكره هنا الإشارة المجملة إلى عناية القرويّين به، وبيان العلاقة الوثيقة التي تربطه بالفقه في إفريقيَّة، أمّا التّفاصيل الكافية عنه فهي مبسوطة في مواضعها من الرّسالة.

وبالتّأمل في سير الحركة العلميّة نجد أنّ الحديث في القَيْرَوان كان يمثّل معظم مادّة الفقه الأولى التي دخلت القيروان، وهو أسبق وجوداً من الفقه المحض المبنيّ على المسائل، ومن سائر العلوم، شأنه في ذلك شأن الحديث في سائر حواضر العالم الإسلاميّ، ذلك أنّ عامّة العلوم الشّرعيّة كانت تستمد أدلّتها، بعد القرآن، من السّنّة وفتاوى الصّحابة والتّابعين، وكلّ ذلك كان ينقل بالرّواية، فكان التّفسير باباً من أبواب الحديث[1]، وكذا الفقه[2] بأبوابه المختلفة كما يظهر من تبويب الموطّأ ومادّته.

واستمرّ ذلك إلى القرن الثّالث، حيث ظهرت المصنّفات المستقلّة[3] في كلّ فنّ من الفنون المختلفة، مع نقلها لأدلّتها من الكتاب والسّنّة، ثمّ التّفريع عليها، كما هو الحال في تصنيف المدوّنة.

وقد تلقّى أهل القيروان بعض علم الحديث عن الصّحابة[4]، وكثيراً منه عن التّابعين الذين كان جلّهم من الرّواة، وكثير منهم من رجال الكُتب السّنّة[5]، وخاصّة رجال بعثة عمر بن عبدالعزيز الذين جاءوا خصّيصاً لنشر العلم ورواية الحديث بالقَيْرَوان[6]، وقد دخل معهم أو بعيد دخولهم الأحاديث التي دوّنها

(١) انظر: مباحث في علوم القرآن ١٢. (٢) انظر: بحوث في تاريخ السنة ٢٣٤.

(٣) سيأتي الحديث عنها في المصنفات ص ٥٧٢.

(٤) انظر: مبحث أثر الصحابة في نشر السنة بالقيروان.

(٥) انظر: مبحث أثر التابعين في نشر السنة بالقيروان.

(٦) انظر: ط أبي العرب ٢٠، الرياض ٩٩/١، تاريخ ابن الفرضي ١٤٦/١، المعالم ٢٠٣/١.

محمد بن شِهاب الزُّهْرِيّ (ت ١٢٤) بأمر من الخليفة عمر بن عبدالعزيز، كما يفهم ذلك ممّا رواه ابن عبدالبرّ بسنده إلى ابن شهاب قال: «أمرنا عمر بن عبدالعزيز بجمع السّنن فكتبناها دفتراً دفتراً، فبعث إلى كلّ أرض له عليها سلطان دفتراً»[1]، ولا شكّ أنّ القيروان قد وصلها نصيبها من هذه الدّفاتر، لمسيس الحاجة إلى ذلك، نظراً لبعدها عن مواطن العلم، ولاهتمام عمر بن عبدالعزيز بأمرها.

واستمرّ هؤلاء التّابعون في القيام بمهمّتهم التّعليميّة ناشرين لعلوم الكتاب والسُّنَّة المنقولة بالرّواية أمداً طويلاً، فإنّ أكثرهم قد توفّي بها، ومنهم من كان مقامهم بها معلِّماً أكثر من ثلاثين عاماً، مثل إسماعيل بن عُبيد الله بن أبي المُهاجِر (ت ١٣١) وبَكر بن سَوادة الجُذاميّ (ت ١٢٨)[2].

وهكذا يمكن القول بأنّ رواية الحديث ودرايته بإفريقيَّة عامَّة وبالقيروان خاصّة، قد عُرفت منذ عهد الصّحابة، ثمّ شاعت وانتشرت في عهد التّابعين، فيكون أهل إفريقيَّة، قد تلقّوا هذا العلم من مصدره الطّبيعيّ، وتوجّهوا منذ البادية توجّهاً سُنّيّاً، وممّا زاد في تدعيم هذا المسار ما عايشه الأفارقة من الويلات التي شهدتها بلادهم بسبب الخوارج وغيرهم من المبتدعة الخارجين عن السُّنّة، فازدادوا تمسّكاً بالسّنّة، ونفوراً من الرّأي والتّأويل ومزالقهما.

ثمّ عرف القرويّون طريقهم إلى الرّحلة واتّصل سندهم بكبار محدّثي المشرق[3] قبل ظهور المذاهب الفقهيّة المحضة، فازدادت رواية الحديث عندهم انتشاراً، وممّن يمثّل هذه المرحلة عبدالرحمٰن بن زياد الإفريقيّ (ت ١٦١)، الذي

---

(١) جامع بيان العلم ٧٦/١.

(٢) انظر ترجمتيهما: رقم ١ و٢ في القسم الثاني من التابعين.

(٣) سيأتي توضع ذلك في فصل الرحلة.

نقل إلى القَيْرَوان كثيراً من حديث المشارِقة، بالإضافة إلى روايته عن جلّ من دخل القيروان من التّابعين[1].

ولمّا ظهرت المذاهب مال القرويّون إلى المذهب الذي سبق إلى الاعتماد على الآثار، والذي يتلاءم مع اهتمامهم بالحديث، ذلكم هو مذهب مالك المبنيّ بالدّرجة الأولى على حديث أهل مدينة الرسول ﷺ[2]، ومن هنا توطّدت عمليّة الارتباط بين الفقه والحديث بإفريقيّة، وتخرّج بها أجيال من العلماء الذين جمعوا بين العلمين، غير أنّ تسمية الفقيه كانت أغلب عليهم، رغم أنّه كان منهم من برع في الحديث أكثر من الفقه مثل محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦)، وأبي العرب التّميميّ (ت ٣٣٣)، وأبي الحسن القابِسي (ت ٤٠٣)[3]، وغيرهم ممّن ستأتي التّرجمة لهم، وقد تبيّن لي بالتّتبّع أنّ لفظ الفقيه يطلق عند القرويّين على العالم المتفنّن في مختلف العلوم وعلى رأسها الحديث والفقه، وأحياناً علوم القرآن أيضاً، فهذا المصطلح له في القيروان، في الفترة التي أدرسها، دلالة أوسع ممّا عرف من أنّ الفقيه هو العالم القادر على استنباط الأحكام الشّرعيّة من أدلّتها[4].

ومن أدلّة ارتباط الحديث بالفقه في هذه الفترة (ت ٥٠ ـ ٤٤٩) ما يلي:

١ ـ تفضيل مذهب مالك على غيره؛ لاعتماده على الحديث **ولتقدّمه** على غيره من المذاهب التي سلكت نفس النهج، فقد أكّد الشّيخ الشّاذلي النّيفر ما لاحظته أكثر من مرّة من أنّ السبب في اختيار الأفارقة لمذهب مالك يعود إلى

---

(١) انظر ما يتعلق بأثره العلمي وتحقيق القول في منزلته من حيث الجرح والتعديل في ترجمته رقم ١٦ في المحدثين.

(٢) انظر: مقدمة موطأ ابن زياد ٣١، وراجع مبحث المذهب المالكي في **التمهيد**.

(٣) اانظر تراجم هؤلاء الثلاثة في المحدثين رقم ٣٢، ٣٠، ٢٤.

(٤) انظر: مقدمة ابن خلدون ٤٤٥.

تعطّشهم للوصول إلى المذهب الذي تتمثّل السّنّة فيه في أقوى رجالها، وقد وجدوا ذلك في مذهب مالك المبنيّ أساساً على حديث أهل الحجاز[1]، وهم الصّفوة والكثرة من الصّحابة والتّابعين[2]، كما أشار الأستاذ حسن حسني عبدالوهّاب إلى أنّ السّبب في ميل الأفارقة إلى مذهب مالك هو اتّحاد سندهم وسند مدرسة مالك، حيث ذكر «أنّ رواية الأفارقة للحديث (أي قبل نشأة المذاهب) أكثر ما كانت بطريق المدنيّين وسندهم»[3].

٢ ــ إنّ طريقة أهل الحجاز التي أخذ بها القرويّون هي طريقة أصحاب الحديث، «وإنّما سمّوا أصحاب الحديث لأنّ عنايتهم (كانت) بتحصيل الأحاديث، ونقل الأخبار، وبناء الأحكام على النّصوص، ولا يرجعون إلى القياس الجليّ والخفيّ ما وجدوا خَبَراً أو أثراً. . .»[4].

٣ ــ إنّ القرويّين حافظوا على أصول المذهب كما جاءت في الموطّأ، فلم يتوسّعوا في الاجتهاد وطرح المسائل إلّا بقدر النّوازل، حيث قال ابن خلدون: «لم يزل المذهب المالكيّ غضّاً عندهم، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها»[5].

٤ ــ إنّ الحديث من المواد التي يتلقّاها الطّالب القرويّ في الكُتّاب[6]، ولمّا يتخرّج منه يكون الموطّأ أوّل ما يدرس من المصنّفات، حتّى إنّ منهم من يحفظه وهو دون الخامسة عشر من عمره[7]، وبذلك يكون تكوينه مؤسّساً على الحديث الشّريف.

---

(١) الأولى التعميم لأنّ مالكاً لم يقتصر على حديث أهل الحجاز، فقد ثبت عنه أنه روى الحديث بسند مصري كما في مقدمة الجرح والتعديل ٣١/١.

(٢) انظر: مقدمة موطأ ابن زياد ٣١.

(٣) الإمام المازري ١٥.

(٤) الملل والنحل ٣٨/١، وانظر: مقدمة ابن خلدون ٤٤٦.

(٥) مقدمة ابن خلدون ٤٤٩.

(٦) انظر: آداب المعلمين ١١٠، ١١٢، مقدمة ابن خلدون ٥٣٨.

(٧) انظر: المدارك ٣١٧/٣.

٥ ـ لمّا عاد أسد بالأسديّة إلى القيروان أنكر عليه أهلها خلوّها من الأحاديث وجنوحها إلى الرّأي، وقالوا له: «يا أبا عبدالله جئتنا بالرّأي وتركت الآثار وما كان عليه السّلف»[١]، فهذا دليل على تشبّث أهلها بالحديث، وأنّ فقههم مؤسّس على الآثار، وكان هذا النّقص الذي في الأسديّة من أهمّ الأسباب التي دفعت بالإمام سَحنون إلى أن يرحل بها ليعيد سماعها على ابن القاسم، فلمّا فرغ من ذلك أقبل على كبار رواة الحديث من أهل المشرق فسمع منهم حديثاً كثيراً أهّله إلى تأصيل مسائل الأسديّة بردّ معظمها إلى أدلّتها من الأحاديث والآثار، وبذلك سدّ باب الرّأي، وعاد بالفقه المالكيّ إلى طريقته المدنيّة حيث يُبنى الفقه على الحديث والآثار[٢].

٦ ـ إنّ طريقة القرويّين في دراسة المدوّنة، عمدة المذهب عندهم بعد الموطّأ، تدلّ على اهتمامهم بالحديث كأساس يعتمد عليه الفقه، فإنّهم يعتنون بتصحيح الرّوايات ويتتبّعون الآثار ونحو ذلك، قال المَقَّري: «وقد كان للقدماء رضي الله عنهم في تدريس المدوّنة اصطلاحان: اصطلاح عراقيّ واصطلاح قرويّ، فأهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدوّنة كالأساس، وبنوا عليها فصول المذهب بالأدلّة والقياس، ولم يعرّجوا على الكتاب بتصحيح الرّوايات، ومناقشة الألفاظ، ودأبهم القصد إلى إفراد المسائل، وتحرير الدلائل على رسم الجدليّين وأهل النّظر من الأصوليّين. وأمّا الاصطلاح القرويّ فهو البحث عن ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب، وتصحيح الرّوايات، وبيان وجوه الاحتمالات، والتّنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب، واختلاف المقالات، مع ما انضاف إلى ذلك من تتبّع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار، وضبط الحروف على حسب ما وقع في السّماع، وافق ذلك عوامل الإعراب أو خالفها...»[٣].

---

(١) الرياض ١/ ٢٦٦.

(٢) انظر: أعلام الفكر الإسلامي ٢٧، ٢٨. (٣) أزهار الرياض ٣/٢٢.

وهكذا يتبيّن لنا إلى أيّ مدى كانت الصّلة وثيقة بين الحديث والفقه في القيروان، وقد كانا على رأس العلوم التي اهتمّ بها الأفارقة، وكان ازدهار الفقه ازدهاراً له بالتّبع، بالإضافة إلى ازدهاره من حيث العنايةُ به ابتداء.

ثالثـاً: الفقـه:

لقد كان الفقه في البداية يعتمد على الرّواية في أدلّته ومسائله الفرعيّة، وذلك إلى حدود منتصف القرن الثّاني[1]، ثمّ ظهرت المذاهب الفقهيّة المعروفة وتركّزت بالقيروان، وصار لها أتباع، وكان المذهبان الحنفيّ والمالكيّ أكثر المذاهب أتباعاً، وأوسعها انتشاراً، وقد تقلّص أتباع المذهب الحنفيّ تدريجيّاً، بسبب اعتماده أكثر من غيره على الرّأي وركون أعلامه إلى السّلطان حتّى تعاون بعضهم مع الرّافضة[2]، إلى أن كاد يزول من إفريقيَّة، وخاصّة في مطلع القرن الخامس عندما ألزم المعزّ بن باديس (٤٠٧ - ٤٤٩) جميع النّاس بمذهب مالك وترك ما عداه حسماً لمادّة الخلاف في المذاهب[3]. ولم أجد فيما بين يديّ من المصادر مصنّفات لأتباع المذهب الحنفي بالقيروان، وإنّما كان اعتمادهم على كتب أبي حنيفة وتلاميذه[4]. وقد أهمل الأفارقة تراجم رجال المذهب الحنفيّ، إلّا ما كان من الخُشَنِي الذي خصّص لهم فصلاً من طبقاته، ولم يأت في تراجمهم بشيء يذكر[5].

أمّا المذهب المالكي فقد حظي بتبعيّة معظم القرويّين؛ بسبب اعتماد مؤسّسه على الحديث والآثار بالدّرجة الأولى، وبعده عن الرّأي والتّأويل[6]

---

(١) انظر: الوضع الديني قبل ظهور المذاهب في التمهيد.

(٢) انظر: سير أعلام ١٤/٢١٦، المدارك ١/٥٤.

(٣) انظر: الاستقصاء ١/١٣٧.

(٤) انظر: المعالم ٢/٢٤٨، الرياض ١/١٨٠، الحلل ٤/٢٤٧، مقدمة ابن خلدون ٤٤٨.

(٥) انظر: ط الخشني ١٨٠ - ١٩٧.

(٦) انظر: مقدمة الرياض لمؤنس ١١، الفكر السامي ١/٣٨٣، مقدمة موطأ ابن زياد ٣١.

بالإضافة إلى تقدّمه زمنياً على غيره من المذاهب التي سلكت نفس النّهج في الاعتماد على الحديث[1].

وكان الموطّأ هو رأس مذهبه، وقد ظهرت أوّل رواية له بإفريقيّة[2] على يد عليّ بن زياد التّونُسي (ت ١٨٣)، الذي كان في طليعة الآخذين عن الإمام مالك، وهو الذي فسَّر للأفارقة قوله[3]، وسرعان ما فشا المذهب وكثر أتباعه حتّى صارت إفريقيّة هي المركز الثّاني لهذا المذهب بعد المدينة المنوّرة، بل إنّ المغرب كلّه أصبح عنواناً على مذهب مالك[4].

وفي القيروان ظهر على يد الإمام سَحنون (ت ٢٤٠) أوّل مصنّف جامع لمسائل المذهب مؤسّسه على الحديث والآثار، ذلكم هو كتاب المدوّنة الكبرى، عمدة المذهب المالكي في إفريقيّة والمغرب[5]، وقد وُضع عليها من الشّروح والاختصارات والتّعاليق ما لم يعرف لغيرها من أمّهات الفقه[6].

وقد خرّجت القيروان ما لا يحصر من علماء المذهب المالكي، منهم أكثر من ثلاثين تتلمذوا على الإمام مالك[7]، وكان لكثير منهم سماعات مدوّنة عنه غير الموطّأ[8].

---

(١) راجع **التمهيد**، مبحث المذهب المالكي.

(٢) انظر: مقدمة موطأ ابن زياد ٩.

(٣) الرياض ١/٢٣٤.

(٤) انظر: مقدمة ابن خلدون ٤٤٩ - ٤٥٠.

(٥) انظر مثلاً: فهرسة ابن خير ٢٤٠، الشجرة ١/١٠٣، ورقات ١/٣٤٩ عن المعالم ٣/٢٢٦.

(٦) انظر: التعريف بالمدونة في المصنفات، ومقدمة ابن خلدون ٤٥٠.

(٧) انظر: المعالم ٢/٨٣.

(٨) انظر مثلاً: المدارك ١/٣١٧، ٤٩٠، ط أبي العرب ١٥١.

ـ ومن مشاهير علماء المذهب بعد سَحنون ابنه محمد (ت ٢٥٦) حامل لواء المذهب بعد أبيه، وهو أوّل شارح للموطّأ ولبعض كتب المدوّنة بإفريقيَّة[٧].

ـ ومحمد بن عَبْدُوس (ت ٢٦١)، وهو أحد أئمّة المذهب[٢]، ألّف كتاباً كالمدوّنة سمّاه المجموعة[٣]، وهو معتمد في المذهب، وله شرح على المدوّنة، وكتاب التّفاسير في أبواب الفقه، يقال إنّه أقام أربع عشرة سنة يصلّي الصّبح بوضوء العشاء الآخر مشتغلاً بدراسة العلم[٤].

ـ وعبدالجَبّار بن خالد السُّرْتي (ت ٢٨١) وقد ذكرت المصادر أنّه بلغ من العلم مبلغ سَحنون أو قريباً منه[٥].

ـ وأبو جعفر أحمد بن أبي سليمان المعروف بالصّوّاف (ت ٢٩١)، وكان من كبار علماء المذهب ووجوههم، صبوراً على التّدريس وكان يقول: أنا حُبُس وكتبي حُبُس[٦]، وإذا أكثر عليه الطّلبة وملّت نفسه قال[٧]:

سألبس للصّبر ثوباً جميلاً ... وأفتل للضّجر حبلاً طويلاً
وأصبر بالرّغم لا بالرّضا ... أخلّص نفسي قليلاً قليلاً

ـ وأبو بكر محمد بن محمد بن اللّبّاد (ت ٣٣٣)[٨]، كان فقيهاً جليل القدر، عالماً باختلاف أهل المدينة واجتماعهم، وكان من كبار حفّاظ المذهب،

---

(١) انظر مصنفاته ومصادره في ترجمته رقم ٣٢ في المحدثين.
(٢) الشجرة ١/٧٠. (٣) طبقات الفقهاء ١٥٨.
(٤) انظر ترجمته في: الرياض ١/٤٥٩، ط الخشني ١٣٣، الديباج ٢٣٧، سير أعلام ١٣/٦٣، المدارك ٤/٢٢٢، المعالم ٢/١٣٧.
(٥) انظر: المعالم ٢/١٨٥، الرياض ١/٤٦٣، المدارك ٤/٣٨٤، ط الخشني ١٤٥.
(٦) المدارك ٣/٢٤٣.
(٧) الرياض ١/٥٠٥، والأبيات لصاحب الترجمة.
(٨) انظر: الشجرة ١/٨٤، الرياض ٢/٢٨٣، تراجم المؤلفين ٤/١٩٩، الديباج ٢٤٩، ط الخشني ٢٣٢، المدارك ٣/٣٠٤، المعالم ٣/٢١، سير أعلام ١٥/٣٦٠، الفكر السامي ٢/١٩٨، ألف سنة من الوفيات ٤٩.

وبه تفقّه أكثر القرويّين، له كتاب الآثار والفوائد في عشرة أجزاء، وكتاب فضائل مالك، وكتاب الطّهارة، وكتاب الحجّة في إثبات العصمة للأنبياء، وغيرها، وكانت بعض مصنّفاته في المذهب تروى بالأندلس[1]، وقد امتحنه الرّافضة بالسّجن، ومنعوه من التّدريس والإفتاء، فكان الطّلبة يقصدونه في بيته خفية[2].

ـ وأبو الحسن حسن بن محمد الكانشي (ت ٣٤٧)، كان من كبار علماء المذهب، انتفع به أهل القيروان، ورحل إليه النّاس من الأقطار، وكان مجانباً لمن يخالف مذهب أهل المدينة[3].

ـ وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد السَّبَائِيّ (ت ٣٥٦)، كان فقيهاً عالماً، من نظراء ابن أبي زيد، وكان علماء المالكيّة يتذاكرون بحضرته وهو الملقي عليهم، فإذا تنازعوا فصل بينهم فيرجعون إلى قوله، وكانت داره كالمسجد لكثرة من يقصده من أهل العلم[4].

ـ وأبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦)، الملقَّب بمالك الصّغير، وعلى يديه استقرّ المذهب، فهو «الذي لخّص المذهب، وضمّ نشرة، وذبّ عنه، وملأت البلاد تآليفه»[5]. حيث صنّف النّوادر والزّيادات على المدوّنة في نحو مائة جزء، ومختصر المدوّنة، وعلى هذين الكتابين المعوّل بالمغرب في التّفقّه[6]، وله مصنّفات كثيرة في المذهب كلّها مفيدة[7].

ـ وأبو القاسم عبدالخالق بن خَلَف بن شَبْلُون (ت ٣٩٠)، كان من كبار

---

(١) انظر: فهرسة ابن خير ٢٩٥. (٢) انظر: المعالم ٣/٢٥.
(٣) انظر: المدارك ٣/٣٦٧، الشجرة ١/٨٥.
(٤) انظر: الرياض ٢/٤٦٩، المعالم ٣/٦٤، المدارك ٣/٣٧٦، الديباج ٨٥.
(٥) الديباج ١٣٧.
(٦) المدارك ٣/٤٩٤.
(٧) انظر: مصنفاته ومصادره في ترجمته رقم ١٩ في المحدثين.

الفقهاء، وعليه الاعتماد بالقيروان في الفتوى والتّدريس بعد أبي محمد بن أبي زيد، وله كتاب المقصد، أربعون جزءاً[1].

ـ وأبو الحسن علي بن محمد القابِسي (ت ٤٠٣) وهو كبير علماء المذهب في زمانه، جمع بين الإمامة في الفقه والإمامة في الحديث، وبه انتفع النّاس من مختلف بلاد المغرب، من مصنّفاته كتاب الممهّد، وهو كتاب كبير كثير الفائدة، رتّبه على أبواب الفقه، وجمع فيه بين الحديث والأثر والفقه[2].

ـ وأبو بكر أحمد بن عبدالرحمٰن الخَوْلَانِيّ (ت ٤٣٢)، وهو شيخ فقهاء القيروان في وقته، انتفع به النّاس، وكان أصحابه الملازمون له نحو مائة وعشرين كلّهم إمام يقتدى به، وكان آية في الحفظ، فكان ربما ألقى كتاباً كاملاً من حفظه، وبقي مواظباً على التّدريس إلى أن مات[3].

ـ وأبو القاسم عبدالرحمٰن بن محمد الحَضْرَمِي المعروف باللَّبِيدِيّ (ت ٤٤٠)، وهو من مشاهير علماء المذهب المؤلّفين فيه، انتفع به خلق كثير، ووجّهه أبو الحسن القابِسي لتفقيه أهل المَهْدِيّة، وقد امتدّ عمره وحاز رئاسة العلم والتّشييخ بالقيروان، له كتاب جامع في المذهب أكثر من مائتي جزء كبار في مسائل المدوّنة وبسطها والتّفريع عليها، وكتاب في اختصار المدوّنة سمّاه الملخّص[4].

ـ وأبو القاسم عبدالخالق بن عبدالوارث السُّيُورِيّ (ت ٤٦٢)، وهو خاتمة علماء القيروان، وآخر الشّيوخ القائمين على المذهب بها قبل خرابها، وكان يملي المدوّنة من حفظه وله عليها تعليق أخذه عنه أصحابه، وإلى جانب الرّئاسة

---

(١) المعالم ١٢٣/٣، طبقات الفقهاء ١٦٠.

(٢) المعالم ١٦٣/٣، وانظر ترجمته: رقم ٢٤ في المحدثين.

(٣) انظر: الشجرة ١٠٧/١، المدارك ٧٠١/٣، سير أعلام ٥١٨/١٧، المعالم ١٦٥/٣، ألف سنة من الوفيات ٥٥.

(٤) انظر: المدارك ٧٠٧/٣، المعالم ٧٥/٣، الشجرة ١٠٩/١.

في الفقه كان له اهتمام بالحديث، والقراءات، والأصول، والنّحو، وغيرها من العلوم[1].

وما هؤلاء إلا نماذج قليلة جدّاً لفقهاء القيروان الذين بلغوا عدّة مئات في كل طبقة؛ فإنَّ الذين تتلمذوا على سَحنون وحده قد زادوا عن السّبعمائة[2]، أكثرهم من أهل القيروان، وكذا تلاميذ ابنه محمد، وابن أبي زيد وغيرهم، وكان لأحمد بن عبدالرحمٰن (ت ٤٣٢) مائة وعشرون صاحباً كلّهم من أئمّة المذهب كما تقدّم قريباً.

وعلى أيدي هؤلاء الفقهاء تكوّنت مدرسة القيروان الفقهيّة، وكانت محطّ أنظار الدّارسين في مختلف بلاد المغرب والأندلس الذين وفدوا عليها للأخذ عن شيوخها[3]، وبلغت هذه المدرسة من الازدهار درجة عظيمة غطّت على بقيّة العلوم التي ظهرت بالقيروان، حتّى ساد في الأذهان أنّ حُذّاق القرويّين لا عناية لهم إلاّ بتحقيق الفقه[4]، وأنّ إفريقيّة ذات ثقافة فقهيّة خالصة[5]، والواقع أنّ مختلف العلوم قد ازدهرت بالقيروان وخاصّة الحديث الذي كان وثيق الصّلة بالفقه ومادّة لمعظم العلوم لدى القرويّين، كما ظهر من عرض مختلف العلوم، وكما يتّضح من أوصاف النّماذج التي قدمتُها لعلماء الفقه.

رابعاً: العقيدة والكلام:

تلقّى أهل إفريقيَّة العقيدة الصّافية على أيدي من دخلها من الصّحابة ومن استقرّ بها من التّابعين، «فكان المغاربة في صدر الإسلام، لذلك، على مذهب جمهور السّلف من الأمّة واعتقادهم، وهو المذهب الحقّ»[6] وكان اعتمادهم في

---

(١) انظر: الديباج ١٥٨، الشجرة ١/١١٦، تراجم المؤلفين ٣/١١٦، الفكر السامي ٢/٢١٢، المدارك ٣/٧٧٠، المعالم ٣/١٨١.

(٢) انظر: الديباج ١٦٤، الشجرة ١/٦٩، سير أعلام ١٢/٦٨.

(٣) انظر: سيرة القيروان ٢٣.

(٤) انظر أزهار الرياض ٣/٢٦.

(٥) انظر: المدارس الكلامية ٧.

(٦) الاستقصاء ١/١٣٦.

العقيدة على الكتاب والسّنّة، وقد أحجموا عن الخوض في المسائل العقديّة اتّباعاً لمسلك سلف الأمّة[1].

ويعتبر التّابعين أبو قَبِيل المَعافِرِيّ (ت ١٢٨) أوّل من نهى عن الخوض في الكلام بإفريقيّة[2]. وكان الإمام مالك يتعهّد هذا التّوجّه لدى الأفارقة. ويُرشّده ويحرص كلّ الحرص على أن يجنّب أهل القَيْرَوان الوقوع في الجدل حول أصول الدّين، ولذلك نجده يمنع عبدالله بن فَرُّوخ (ت ١٧٦) من التّأليف في الرّدّ على المبتدعة، وقد علّق المالكي على ذلك بقوله: «أشفق مالك رضي الله تعالى عنه أن يكون ذلك سبباً لانتشار طريقة الجدل بإفريقيّة... فأراد حسم الباب»[3].

غير أنّ هذا الإحجام من قبل علماء القيروان عن الخوض في مسائل العقيدة لم يدم طويلاً؛ فقد وجدوا أنفسهم مضطرّين إلى ذلك، بسبب وجود كثير من الفرق المبتدعة بالقيروان، وإثارتهم لمسائل تتعلّق بأصول الدّين[4]، وكذلك بسبب ما ينقله إليهم بعض المرتحلين إلى المشرق من المسائل المثارة هناك[5].

ففي أواخر القرن الثّاني أُثيرت في القيروان بعض القضايا المتعلّقة بالعقيدة مثل: الإرادة، والاستطاعة، ورؤية الله في الآخرة...[6].

وفي القرن الثّالث احتدّت المناظرات في مسائل العقيدة، وكثرت المصنّفات في الرّدّ على أهل الأهواء، وأنجبت مدرسة السّنّة بالقيروان عدداً من المناظرين[7]، الذين تصدّوا للرّدّ على المخالفين من معتزلة وخوارج ورافضة،

---

(١) انظر: المدارس الكلامية ١٠، ٤١.
(٢) انظر: الرياض ١/١٤٤، الصراع المذهبي ١٤٠.
(٣) الرياض ١/١٧٧.
(٤) انظر مبحث الفرق الكلامية في التمهيد.
(٥) انظر: ط الخشني ٢٢٠، وقد سبق التمثيل لذلك في **التمهيد، مبحث الفرق الكلامية**.
(٦) انظر: الرياض ١/٢٣٦، ٢٦٤، ٢٦٥، ط أبي العرب ٨٢.
(٧) انظر الفصل الذي عقده الخشني لذكرهم. ط الخشني ١٩٧ - ٢١٩.

ودحضوا أفكارهم الباطلة، وظهرت بالقيروان حركة كلاميّة سُنّيّة عادلت الحركة الكلاميّة السّنية بالمشرق[1]، ومن أشهر المتكلّمين على طريقة أهل السّنّة في هذه الفترة:

ـ محمد بن نصر بن حَضْرَم، كان ذا جدال وحجّة، وهو الذي علّم محمد بن سَحنون طريقة الجدل[2].

ـ محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦)، وهو من أشهر متكلّمي القيروان في المناظرة، وأعرفهم بطرقها، وقد كتب جزءين في أدب المتناظرين، كما كانت له عدّة مصنّفات في الرّدّ على المخالفين من أهل البدع، منها: كتاب الحُجّة على القدريّة، كتاب الرّدّ على البَكْريّة، كتاب الإيمان والرّدّ على أهل الشّرك، كتاب الحُجّة على النّصارى، كتاب الرّدّ على أهل البدع[3] وغيرها، وكانت له مع المعتزلة مناظرات في الأسماء والصّفات[4]، ومسألة القول بخلق القرآن[5].

ـ سعيد بن محمد بن صُبيح المعروف بابن الحدّاد (ت ٣٠٢): يعتبر ابن الحدَّاد إمام متكلّمي أهل السّنّة بالقيروان، كان قويّ الحجّة بارعاً في المناظرة، أفحم رؤوس المعتزلة في عصره[6]، وكانت له مع الرّافضة مواقف عظيمة دافع فيها عن معتقدات أهل السّنّة بقوّة واعتزاز وانتصر لها[7]، ومن مصنّفاته في الرّدّ على المبتدعة: كتاب المقالات، ردّ فيه على جميع المخالفين[8]، كتاب الاستواء[9]، كتاب في الرّدّ على من يقول بخلق القرآن[10]، مجالسه الأربعون في مناظرة الرّافضة[11].

(١) انظر: أعلام ابن عاشور ٤٣. (٢) انظر: ط الخشني ١٩٨.
(٣) انظر: المدارك ١٠٦/٣، وانظر ترجمته: رقم ٣٢ في المحدثين.
(٤) انظر: ط الخشني ١٩٨. (٥) انظر: الرياض ٤٤٩/١.
(٦) انظر: الرياض ٢/ ٧٠ ـ ٧٥.
(٧) انظر: ط الخشني ١٩٩، الرياض ٥٨/٢، المعالم ٢٩٨/٢.
(٨) (٩) انظر مثلاً: المعالم ٢٩٦/٢.
(١٠) ط الخشني ٢٢١. (١١) ورقات ٢٥٩/١.

ـ عبدالله بن إسحٰق المعروف بابن التّبّان (ت ٣٧١)، وكان قد قـام في مناظرة بني عُبَيد مقام ابن الحدّاد في زمانه، وأَبْلغ في دحض مفترياتهم حتّى قطعهم، فتركوا مناظرة شيوخ القَيْرَوان بسببه[١].

ـ عبدالله بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦): وهو على طريقة السّلف في الأصول، بعيد عن التّأويل[٢]، وكان شديداً على من خالف هذه الطّريقة، مُكثِراً من التّصانيف في الرّدّ عليهم وبيان زيفهم بالأدلّة، ومن مؤلفاتـه في ذلك[٣]: الاستظهار في الرّدّ على البَكْرِيّة، كشف التّلبيس، الرّدّ على القدريّة، مناقضة رسالة علي بن أحمد البغدادي المعتزلي نزيل مصر، الرّدّ على ابن مَسَرّة المارق (ت ٣١٩).

كما صنّف في عقيدة السّلف جملة من المؤلّفات منها[٤]: أصول التّوحيد، الاقتداء بأهل السّنّة، الثّقة بالله والتّوكّل عليه، المضمون من الرّزق، الرّسالة وقد اشتملت مقدّمتها على مختصر نافع لعقيدة أهل السّنّة، كتاب السّنن وقد تضمّن جملة من عقائد السّلف.

ويعتبر عصر ابن أبي زيد هو خاتمة عهد الصّراع الجدليّ حول مختلف المسائل العقديّة، فقد اختفت الفرق المبتدعة من القيروان، وامّحت آراؤهم منها، وتمحّضت إفريقيّة لمذهب أهل السّنّة، قال صاحب الاستقصاء: «فبعد أن طهّرهم الله تعالى من نزعة الخارجيّة أوّلاً، والرّافضة ثانياً، أقاموا على مذهب أهل السّنّة والجماعة، مقلّدين للجمهور من السّلف، رضي الله عنهم، في الإيمان بالمتشابه، وعدم التّعرّض له بالتّأويل، مع التّنزيه عن الظّاهر، وهو ـ والله ـ أحسن المذاهب وأسلمها»[٥].

---

(١) انظر: المدارك ٣/٥٢١ ـ ٥٢٣.
(٢) انظر: سير أعلام ٧/١٠.
(٣) انظر: المدارك ٤٩٣، وانظر ترجمته: رقم ١٩ في المحدثين.
(٤) انظر: المدارك ٣/٤٩٤، وانظر ترجمته: رقم ١٩ في المحدثين.
(٥) الاستقصاء للسلاوي ١/١٤٠.

أمّا أشهر المسائل العقديّة التي طرحت في هذه المرحلة، فهي:

ـ مسألة الإيمان، وخاصّة ما يتعلّق بدخول العمل فيه وكونه يزيد وينقص[1]، وهل يجوز للإنسان أن يجزم بأنّه مؤمن أم لا بدّ من الاستثناء؟، وقد شغلت هذه المسألة الأخيرة أهل القيروان أكثر من قرن من الزّمان[2].

ـ مسألة الأسماء والصّفات، وكانت المناظرات فيها شديدة مع المعتزلة[3].

ـ مسألة رؤية الله في الآخرة، وقد أثبتها أهل السّنّة ونافحوا عن ذلك، ونفاها المعتزلة[4] والإباضيَّة[5].

ـ مسألة القدر والوعد والوعيد وأفعال العباد[6]، وقد ألّف محمد بن مَحْبُوب القروي (ق ٣) رسالة في تناقض مقالة القدريّة[7]، وألّف ابن أبي زيد رسالة في الرّدّ على القدريّة.

ـ مسألة خلق القرآن، وقد أنكر علماء السّنّة أنّ القرآن مخلوق وناظروا المعتزلة في ذلك، وألّف كلّ فريق في الرّدّ على الآخر، فلمّا تبنّى المسألة بعض أمراء الأغالبة امتحنوا كثيراً من علماء القَيْرَوان بسبب ذلك[8].

---

(٣) انظر: الحياة الاجتماعية ٢٢٠.

(٤) انظر: المدارك ١٢٣/٣، ٢٧٣، ٥١٩، ٥٢٣، ٥٢٧، ٥٢٨، المعالم ١٣٩/٢، ١٤٠.

(٥) ط الخشني ١٩٨، ٢١٣، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٢.

(٦) انظر مثلاً: الرياض ٢٦٤/١، ٢٦٥، المدارك ٤٧٤/١.

(٧) انظر: المدارس الكلامية ١٠٩.

(٨) انظر: ط الخشني ١٩٠، ٢٢٠، الرياض ١٤٤/١، ٣٨٦، المدارس الكلامية ٦٠.

(٩) ط الخشني ٢١٣.

(١) انظر: ط أبي العرب ٨٩، المحن ٤٥٤، ٤٥٦، الرياض ٤٤٩/١، المدارك ٤٧٤/١، ٢٢٢/٣، الحلل ٧٩٢/٣/١، ط الخشني ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢.

ـ الاستواء، وقد أنكره المعتزلة وتأوّلوا الآيات الواردة في ذلك، فردّ عليهم أهل السّنّة[١]، وألّف سعيد بن الحدّاد في ذلك كتاباً[٢].

ـ الجهة والمكانيّة بالنّسبة لله عزّ وجلّ، وهما من الألفاظ التي لم يرد بها نص في الكتاب أو السّنّة، فلا ينبغي نفيها أو إثباتها إلاّ بعد معرفة المراد منها؛ فإن أريد بها أمر وجوديّ كانت من المخلوقات، والله تعالى مباين لمخلوقاته، وإن أريد بها ما فوق العالم فإنّ صفة الفوقيّة (العُلُوّ) ثابتة لله تعالى بالكتاب والسّنّة والعقل والفطرة[٣]، وقد أثبت ذلك علماء السّنّة بالقيروان، مثل: سعيد بن الحَدّاد وابن أبي زيد[٤]، وناظروا فيه المعتزلة[٥].

ـ كون محمد ﷺ خاتم النّبيّين، وقد أنكر ذلك الإسماعيلية بالقيروان فردّ عليهم ابن الحدّاد[٦].

ـ المفاضلة بين الصّحابة: ويذهب أهل القيروان كغيرهم من أهل السّنّة إلى أنّ أفضل الصّحابة: أبو بكر ثمّ عمر ثمّ عثمان ثمّ علي، وينبغي السّكوت عما وراء ذلك[٧]، واعتبر الرّافضة بالقيروان أنّ ذلك تنقّص من عليّ، رضي الله عنه، الذي هو عندهم أولى بالتّقديم، وناظروا في ذلك بعض العلماء وامتحنوهم[٨].

---

(١) انظر: الرياض ١/٢٦٤، الجامع في السنن والآداب ١٢٣، المدارس الكلامية ٥٥.

(٢) كتاب الاستواء لابن الحداد، منه قطعة بمكتبة القيروان، المكتبة الأثرية ٣٨.

(٣) انظر: مختصر العلو ٧٠ ـ ٧٨، شرح الطحاوية ٢٢٧، ٢٤٠.

(٤) انظر: المدارس الكلامية ٥٤.

(٥) انظر: ط الخشني ١٩٨.

(٦) انظر: الرياض ٢/٦٢.

(٧) انظر: الجامع في السنن والآداب ١١٥، شرح العقيدة الطحاوية ٤٣٢، وهناك من أهل السنة من يقدم عثمان على علي، انظر: المصدرين أعلاه.

(٨) انظر: المدارك ٣/٥٢٢، ط الخشني ٢٠٠، سير أعلام ١٤/٢٠٧، ٢٠٩، الرياض ١/٥٩، ٧٩، ٨١، ٨٣ ـ ٨٥.

خامساً: أصول الفقه:

لقد وُجد علم الأصول بالقيروان في مرحلة متأخّرة كعلم مستقلّ يُتدارس ويُؤلّف فيه، ولم يزدهر بها ازدهار غيره من العلوم. وأوّل من عرف بالكلام فيه سعيد بن محمد بن صُبيح المعروف بابن الحدّاد (ت ٣٠٢)، وخاصّة في كتاب المقالات[١].

كما كان لابن الصّبّاغ (بداية القرن الرّابع) اهتمام بهذا الفن، وكان يناظر فيه وينكر حُجّة الإجماع[٢] ويقول: «لم يكونوا في بيت واحد ولا مصر واحد فيُسألوا فيُعرف اجتماعهم، من ادّعى الإجماع فقد ادّعى المحال الذي لا يصحّ أبداً»، وكان يقول: «ما أبالي إذا قامت لقول حجّة من كتاب الله أو من سّنة رسول الله لو أُتي بها على قرن جبل»[٣].

ثمّ نزل القيروان محمّد بن أبي المنظور الأندلسي (ت ٣٣٧)، وكان عالماً بأصول الفقه[٤]، وقد أخذها عنه بعض أهلها، غير أنّ أثره لم يكن كبيراً؛ لأنّه

(١) انظر: معجم المؤلفين ٢١٣/٤ وراجع ترجمة سعيد رقم ١٥ في المحدثين.

(٢) الإجماع هو أن يجتمع علماء المسلمين في عصر من العصور بعد وفاة النبي ﷺ على حكم شرعي، وهو ثالث الأدلة الشرعية المعتبرة بعد الكتاب والسنة.
وإن إنكار حجيّة الإجماع أمر في غاية الخطورة وهو رأي شاذ مخالف لما أجمعت عليه جماهير علماء الأمة سلفاً وخلفاً من أن الإجماع إذا انعقد بشروطه كان حجة موجبة للعمل ولا تجوز مخالفته.
أما إمكان إنعقاده عادة فقد قال به الجمهور وخالف فيه بعض الأصوليين وأنكره بعض أهل البدع من الشيعة والمعتزلة.
(انظر: إحكام الفصول للباجي ٤٣٥ - ٤٨٠، أصول الفقه وابن تيمية ٢٦٨/٢، ٢٧٠، ٢٧٨، المحصول للرازي ٢١/١/٢ - ١٤٢، علم أصول الفقه، عبدالوهاب خلاف ٤٥ - ٥٢، الإحكام للآمدي ١٩٨/١ - ٢٢٤).

(٣) ط الخشني ٢١٥.

(٤) انظر: الشجرة ٨٤/١، المعالم ٤٦/٣.

أغلق على نفسه باب السّماع، بعد أن جلس للعلم مدّة، بسبب شيء بدر من بعض القرويّين في حقّه، وكان ربما يسمع الرّجل الغريب[1].

وشهد هذا العِلم شيئاً من الازدهار في عهد عبدالله بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦) الذي برع فيه[2]؛ وقد بحث في كتاب الاقتداء له بعض مسائل أصول الفقه منها الإجماع[3].

ثمّ نزل القيروان بعض تلاميذ أبي بكر محمد بن الطّيّب البَاقِلاَّنِيّ (ت ٤٠٣)[4] ممّن برع في أصول الفقه، منهم: أبو طاهر البغدادي، وقد تتلمذ عليه بعض القرويّين[5]، وأبو عبدالله الحسين بن عبدالله الأَزْدِيّ (ت ٤٢٣) وقد درّس بالقيروان بعض كتب الأصول[6].

وفي هذه المرحلة الأخيرة برع في أصول الفقه جماعة من القرويّين منهم: أبو عِمران موسى بن عيسى الفاسي (ت ٤٣٠)[7]، وعبدالمُنعم بن محمد الكِنْدِيّ، المعروف بابن بنت خلدون (ت ٤٣٥)[8]، وعبدالخالق بن عبدالوارث السُّيُورِيّ (ت ٤٦٢)، وهو ممّن تتلمذ على أبي عبدالله الأَزْدِيّ[9].

---

(١) انظر: الرياض ٢/٣٥٨.

(٢) انظر: تبيين كذب المفتري ١٢٢.

(٣) انظر: مقدمة كتاب الجامع في السنن ٤٦، ٤٧.

(٤) شيخ السنة، فقيه أصولي، متكلم على مذهب أهل الحديث، انظر: ترتيب المدارك ٣/٥٨٥.

(٥) تبيين كذب المفتري ١٢١

(٦) انظر تراجم المؤلفين ١/٥٣، تبيين كذب المفترى ١٢٠، معجم البلدان ٤/٤٢١.

(٧) انظر ترجمته: رقم ٧ في المهاجرين.

(٨) انظر: المدارك ٣/٧٧١، الشجرة ١/١٠٧، المعالم ٣/١٥٨، تراجم المؤلفين ٤/١٧٩.

(٩) انظر: المدارك ٣/٧٧٠، المعالم ٣/١٨١.

سادساً: **اللّغة العربيّة وعلومها:**

لقد حرص قادة الفتح في إفريقيَّة على أن يسير التّعريب جنباً إلى جنب مع التّقدّم العسكري، إذ إنّ ذلك هو السّبيل الوحيد ليدخل البربر في الإسلام عن فهم واقتناع، وقد نجحوا في ذلك نجاحاً منقطع النّظير، ممّا أثار دهشة كثير من المؤرّخين الأروبّيّين الذين لم يدركوا طبيعة الإسلام[1].

وكانت الكتاتيب من أكبر الوسائل التي أسهمت في تنشيط عمليّة التّعريب، ثم تدعّمت بوسيلة أخرى هامة تتمثّل في المصاهرات التي تمّت بين العرب والبربر والتي كان لها أثر كبير في سرعة تعريب البلاد.

وكان بعض ولاة القيروان يصطحبون معهم من المشرق الأدباء والشّعراء، وهؤلاء أسهموا في رواية الشّعر والأدب وأخبار العرب بإفريقيَّة[2].

وسرعان ما تطوّرت الحركة الأدبيّة بإفريقيَّة وأنجبت القيروان أعداداً هائلة من الشّعراء والنّحويّين وكبار اللّغويين، وقد اشتمل كتاب الأنموذج[3] وحده على مائة شاعر من أهل القيروان، وورد في الورقات التّمثيل بأكثر من عشرين من الأدباء والنّحويّين الأفارقة[4]، وقد اشتهر أكثر المحدّثين والفقهاء والقُرّاء بإتقان علوم اللّغة العربيّة، ولا غرابة في ذلك فهي من علوم الوسائل التي لا يستغني عنها علماء الشّريعة.

وسأكتفي بذكر نماذج قليلة لأهل اللّغة بالقيروان تكون دليلاً على غيرها، وتتناسب مع الغرض من الحديث عن هذا العلم في هذه العجالة:

---

(١) انظر: المغرب العربي ٢٢، ٢٣.

(٢) انظر: ورقات ١/١٤٠ - ١٥٠.

(٣) أنموذج الزمام في شعراء أهل القيروان للحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦) جمع وتحقيق المطوي والبكوش. انظر: قائمة المصادر.

(٤) انظر: ورقات ١٣١ - ١٨٩، وألفت انتباه أهل الاختصاص إلى أن المدرسة اللغوية بالقيروان مادة دسمة للبحث، ولم تحض حتى الآن بدراسة شاملة.

ـ عبدالله بن أبي حسّان اليَحْصُبِيّ (ت ٢٢٧)، تلميذ مالك وأحد محدّثي القيروان، وكان عالماً باللّغة راوية للشّعر، تتلمذ في ذلك على سِيبَوَيه والكِسَائِيّ[١].

ـ عبدالملك بن قَطَن المَهْرِيّ (ت ٢٥٦)، «كان شيخ أهل اللّغة والعربيّة والرّواية، ورئيسهم وعميدهم والمقدّم في زمانه»[٢]، وكانت الأشعار المشروحة تقرأ عليه بالقيروان مجرّدة من الشّرع فيفسّر للطّلبة معانيها، فلمّا دخلت الشّروح ونظر فيها الطّلبة وجدوها مطابقة لقوله، من مؤلّفاته: تفسير مغازي الواقدي، كتاب في الألفاظ، كتاب في اشتقاق الأسماء[٣].

ـ أبو محمد عبدالله المكفوف النّحويّ (ت ٣٠٨): كان عالماً بالغريب والعربيّة وتفسير الشّروح، وتقريب معانيها للطّلبة، وإليه كانت الرّحلة من جميع إفريقيَّة؛ لأنّه كان أعلم من فيها باللّغة والنّحو والشّعر وأيام العرب، له كتاب في العَروض يفضّله أهل العلم على كلّ من صنّف في بابه، وكان إذا سمع الكتاب مرّتين حفظه وأملاه من حفظه[٤].

ـ إبراهيم بن عثمان بن الوَزَّان (ت ٣٤٦)، كان إماماً في النّحو واللّغة، حفظ مصنّفات أهل اللّغة ككتاب سِيبَوَيْه، وكتب الفَرَّاء، وكتاب الخليل بن أحمد، وغيرها، حتّى قيل فيه: «لو أنّ قائلاً قال إنّه أعلم من المبرّد وثعلب، لصدّقه من وقف على سعة علمه ونفاذه»[٥].

---

(١) انظر: الشجرة ١/٦٣، المدارك ١/٤٨٠، وراجع ترجمته رقم ١٨ في المحدثين.

(٢) الرياض ١/٤٠٣.

(٣) انظر: معجم المؤلفين ٦/١٨٨، الأعلام ٤/١٦٢، ورقات ١/٩٥، تراجم المؤلفين ٤/٤٠٨، كشف الظنون ١/١٠٢، الإكمال ٧/١٢٥، هدية العارفين ٥/٦٢٤.

(٤) انظر: نكت الهيمان ١٨٤، ورقات ١/٩٨، تراجم المؤلفين ٤/٣٦٥، طبقات النحويين ٢٥٨.

(٥) ورقات ١/١٠٠، وانظر: الديباج ٩١، طبقات النحويين ٢٦٩، تراجم المؤلفين ٥/١٣٤.

ـ محمد بن جعفر التَّمِيمي المعروف بالقَزَّاز (ت ٤١٢)، وهو أشهر القرويّين في علوم اللّغة، وإمام الأدب فيها بلا منافس، وله في ذلك عدّة مصنّفات منها: كتاب الجامع في اللّغة، أكثر من ألف ورقة، وقد رتّبه على حروف المعجم على وجه لم يُسبق إليه، أدب السّلطان في عشرة مجلّدات، ضرائر الشّعر، كتاب الضّاد والظّاء، المفترق في النّحو، ما أخذ على المتنبّي، التّعريض فيما دار بين النّاس من المعاريض، وغيرها، وله شروح وأشعار كثيرة[1].

ـ الحسن بن رَشِيق الأَزْدِيّ القيروانيّ (ت ٤٥٦)، كبير معاصريه في الأدب واللّغة والنّحو، مع منافسه محمد بن شَرَف الأَجْدَابِيّ[2]، له مصنّفات عديدة منها: كتاب العمدة في صناعة الشّعر ونقده وعيوبه، قراضة الذّهب في أشعار العرب[4]، أنموذج الزّمان في شعراء القيروان[3]، كشف المساوىء، وهو في السّرقات الشّعريّة، كتاب الشّذوذ، في المفردات اللّغويّة الشّاذّة. وغيرها[5].

وعلى يد هؤلاء العلماء وغيرهم شاعت علوم اللسان بالقيروان منذ وقت مبكّر، وأصبحت العربيّة هي الأم في إفريقيَّة وغيرها من بلاد المغرب.

وبعد أن أتيتُ على ذكر مواضع التّعليم بالقَيْرَوان، وأهمّ ما ظهر فيها من العلوم الشّرعيّة أخلص إلى الحديث عن الرّحلة كوسيلة لاكتساب الحديث وغيره من العلوم ونشرها، وهي من الأهمّيّة بمكان بالنّسبة للقَيْرَوان البعيدة عن مواطن العلم وحواضر العالم الإسلاميّ، وخاصّة في عهودها الأولى.

---

(١) انظر: وفيات الأعيان ٤/٣٧٤، مرآة الجنان ٣/٢٧، سير أعلام ١٧/٣٢٦، كشف الظنون ١/٥٧٦، هدية العارفين ٦/٦١، أنموذج الزمان ٣٦٥، تراجم المؤلفين ٤/٨١، ورقات ١/١٧٤.

(٢) انظر عنه: المعالم ٣/١٩٣.

(٣) طبع مرتين، القاهرة ١٩٢٦، تونس ١٩٧٢ بتحقيق الشاذلي بو يحيى.

(٤) جمعه المطوي والبكّوش سنة ١٤٠٦ هـ الجزائر ـ تونس.

(٥) انظر: سير أعلام ١٨/٣٢٥، بساط العقيق ٨٦ ـ ١٣٣، كشف الظنون ١/١١٦٩، هدية العارفين ٥/٢٧٦، الشجرة ١/١١٠، المغرب العربي ٣٠٤.

الفصْل الثاني

الرّحلة في طلب ونشر الحديث وغيره، وثمراتها

تمهيـد:

تفرّق الصّحابة في الأمصار بعد وفاة الرّسول ﷺ لبثّ العلم، وعند بعضهم من الحديث ما ليس عند البعض الآخر، فكان السّبيل الوحيد لسماع هذه الأحاديث المنتشرة في مختلف البلاد هو الرّحلة في طلبها[1].

وكان الصّحابة رضوان الله عليهم أوّل من تحمّل المشاقّ في سبيل ذلك؛ فقد رحل جابر بن عبدالله مسيرة شهر إلى عبدالله بن أُنَيْس في حديث واحد[2]، ورحل أبو أيّوب الأنصاري إلى عُقبة بن عامر في مصر من أجل حديث واحد[3]، وخرج بعض الصّحابة من المدينة إلى دمشق ليسمع حديثاً من أبي الدّرداء[4].

---

(١) انظر: الحديث المحدثون ١٠٩.

(٢) أخرجه الإمام أحمد كاملاً ٤٩٥/٣، وعلقه الإمام البخاري بصيغة الجزم على جابر بن عبدالله في كتاب العلم باب الخروج في طلب العلم ٢٧/١، وأخرجه الخطيب من عدة طرق في الرحلة في طلب الحديث ١٠٩ ـ ١١٨، فهو حديث صحيح بناء على تعليق البخاري له بصيغة الجزم.

(٣) مسند أحمد ١٥٣/٤، فتوح مصر ٢٧٥، الرحلة في طلب الحديث ١١٨ ـ ١٢١، وقد تكلم الدكتور نور الدين عتر على طرق هذا الحديث، وذكر أنها كلها لم تخل من المقال، ولكن لكثرتها يرتقي الحديث إلى درجة الحسن، حاشية الرحلة في طلب الحديث ١٢٠.

(٤) انظر: سنن أبي داود كتاب، العلم، باب الحث على طلب العلم ٣٦٤١/٥٧/٤، وسنن =

وقد صُنِّفَت بعض الكتب الخاصّة بالرّحلة، منها كتاب الرّحلة في طلب الحديث لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغداديّ (ت ٤٦٣)[1]، كما ضُمِّنت في كثير من المصنّفات منها كتاب علوم الحديث لابن الصّلاح[2] (ت ٦٤٣)، وتدريب الرّاوي لجلال الدّين السّيوطي[3] (ت ٩١١)، وفتح المغيث للسّخاويّ (ت ٩٠٢)[4].

وهكذا سنّ الصّحابة الكرام الرَّحلة في طلب الحديث وأخذها عنهم التّابعون[5]، فأصبحت أدباً ملازماً للمحدّثين، حتّى لا نكاد نعثر على محدّث لم يرحل إلاّ القليل، وقد عقد الإمام البخاري في صحيحه باباً للخروج في طلب العلم[6]، وذكر الحافظ ابن الصّلاح أنّ المحدّث إذا فرغ من السّماع عن شيوخ بلده فإنّ عليه أن يرحل إلى غيره[7]، وهذا أمر قد اتّفق عليه الأئمّة[8]، بل إنّ عدم الارتحال ممّا يُشان به المحدّث، فقد قال يحيى بن معين[9]: «أربعة لا تؤنس منهم رشدا. . .» وذكر منهم من لم يرحل في طلب الحديث.

= الترمذي، كتاب العلم، باب فضل الفقه على العبادة ٢٦٨٢/٤٨/٥، الرحلة في طلب الحديث ٧٨، جامع بيان العلم ٣٣/١، والحديث في جميع المصادر السابقة من طريق عاصم بن رجاء عن داود بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء، فأما عاصم فصدوق يهم (التقريب ٢٨٣/١)، وأما داود وكثير فضعيفان (التقريب ٢٣١/١، ١٣٣/٣)، وعلى هذا فالحديث ضعيف بهذا الإسناد وقد ذكر له ابن عبدالبر (٣٤/١) تابعاً وحسّنه فيرتقي الحديث بمجموع الطريقين إلى درجة الصحيح لغيره.

(١) طبع بتحقيق د. نور الدين عتر، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٣٩٥ هـ.

(٢) انظر: ص ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٣١.

(٣) انظر: ١٤٢/٢، ١٦٠.

(٤) انظر: ٣٥٥/٢.

(٥) انظر مثلاً: الإلماع ٢٣٣، الرحلة في طلب الحديث ١٢٧.

(٦) صحيح البخاري كتاب العلم ٢٧/١.

(٧) علوم الحديث ٢٢٢.

(٨) انظر: تدريب الراوي ١٦١/٢.

(٩) علوم الحديث ٢٢٣، الرحلة في طلب الحديث ٨٩، ٩٠.

وقد تيمّن سلفنا الصّالح بالرّحلة في طلب الحديث حتّى اعتبروها من أسباب دفع البلاء، قال إبراهيم بن أدهم: «إنّ الله تعالى يدفع البلاء عن هذه الأمّة برحلة أصحاب الحديث»[1].

وقد عرف أهل القيروان أهمّيّة الرّحلة ولمسوا ضرورتها، فتأدّب بها محدّثوهم، وتسارعوا في شدّ المطايا إلى مختلف حواضر العالم الإسلاميّ لتوسيع مرويّاتهم، وإشباع نهمهم العلميّ، ثمّ العودة إلى بلدهم لتصدّر مجالسها العلميّة.

وكان الارتحال شرفاً ومفخرة يزهو به أصحابه، فهذا أسد بن الفُرات (ت ٢١٣) يقول: «ضربنا في طلب العلم آباط الإبل، واغتربنا في البلدان، ولقينا العلماء، وغيرنا إنّما طلب العلم خلف كانون أبيه ووراء منسج أمّه، ويريدون أن يلحقوا بنا»[2].

وقد أسهمت رحلات القرويّين في إثراء الحياة العلميّة بها، وخاصّة فيما يتعلّق بالسّنّة وعلومها كما سيتبيّن من خلال المباحث التّالية، علماً بأني سأركّز على ما يتعلّق بالحديث؛ لأنّه هو المتعلّق بموضوع الرّسالة.

أوّلاً: الرّحلة من القَيْرَوان إلى المشرق والأندلس:

لقد كان أكثر ارتحال القرويّين في طلب الحديث إلى المشرق الذي عرفوا طريقهم إليه في وقت مبكّر، أمّا الأندلس فقد كانت رحلتهم إليها متأخّرة، ولم تكن بالكثافة التي عرفتها رحلاتهم المشرقيّة، كما أنّها قد ارتبطت غالباً بالظّروف السّياسيّة أو الاقتصاديّة وكان العطاء فيها أغلب من الأخذ.

وقد وجدت بعد النّظر والتّتبّع أنّ عدد المرتحلين في طلب الحديث من

---

(١) علوم الحديث ٢٢٣، الرحلة في طلب الحديث ٨٩، ٩٠.

(٢) رياض النفوس ٢٦٧/١.

القرويّين قد وصل إلى ١٢٦، أي بنسبة ٢٣، ٦٩ بالمائة من مجموع المحدّثين الذين عثرت عليهم، والبالغ عددهم ١٨٢ محدّثاً[١]، أمّا عدد المرتحلين في طلب العلم عامّة فهم من الكثرة بحيث يتعذّر استقصاؤهم.

١ ـ الرّحلة إلى المشرق:

نشأت الحياة العلميّة بالقيروان على أيدي الصّحابة[٢]، ثمّ تركّزت على أيدي التّابعين الذين بثّوا فيها علماً كثيراً، كما أشرت من قبل[٣]، وفتحوا أعين الأفارقة على المشرق وما فيه من العلوم الغزيرة، فنشأت لديهم الرّغبة في الارتحال للالتقاء بكبار علماء المشرق والرّواية عنهم.

وقد رحل القرويّون إلى معظم عواصم المشرق ومدنه المشتهرة بالعلم والرّواية، واستفادوا من محدّثيها، وكان أكثر مقصدهم بعد المدينة المنّورة إلى مصر ـ مروراً بطرابُلُس الغرب ـ وخاصّة بعد انقراض تلاميذ مالك، ثمّ مكّة[٤]، كما رحل كثير منهم إلى بلاد الشّام[٥] والعراق[٦] واليَمَن[٧] وخُرَاسان[٨].

ولم يكن الحجّ هو الدّافع الأساسي للرّحلة في طلب الحديث كما قد يُتوهّم، بل إنّ طلب الحديث كان غرضاً مستقلاً من أغراض الرّحلة، ولذلك نجد

---

(١) انظر: مبحث المحدثين القرويين في الباب الثالث.

(٢) انظر: مبحث أثر الصحابة في نشر السنة بالقيروان.

(٣) وانظر: مبحث أثر التابعين في نشر السنة بالقيروان.

(٤) انظر: الرياض ٣٥٣/١، المعالم ٨٣/٢، حيث وصف الإمام سحنون خط سير الرحلة العاديّة لأهل القيروان.

(٥) انظر مثلاً: الرياض ٢١٥/١، ٣٠١، ٣٤٨، تهذيب تاريخ دمشق لعبدالقادر بدران ٢٣٥/٤، ١٧٣/٥، ٤٣٤/٧.

(٦) انظر مثلاً: الرياض ٢٣٤/١، ٢٥٥، ٤٥٤، تاريخ بغداد ٦٧/٣، ٢٢٣/١٤.

(٧) انظر: الديباج ٣٥٦، تاريخ ابن الفرضي ٢٠١/٢.

(٨) انظر: الرياض ٣٨١/١.

أبا العرب يعبّر عن ذلك بوضوح في تراجمه فيقول مثلاً: «كان ممّن رحل في الحديث»[1] أو يعيّن المحدّث الذي قصده، فيقول مثلاً: «كان قد رحل إلى سفيان الثّوري . . .»[2].

كما نجد من القرويّين من رحل مرّتين وخصّص إحداهما للحديث، فهذا عيسى بن مِسكين (ت ٢٩٥) جعل رحلته الثّانية خاصّة للقاء الحافظ محمد بن سنجر (ت ٢٥٨) وسماع المسند منه[3]. وقد محّض ربيع القطّان رحلته الأولى لسماع الحديث[4]، وجعل الثّانية للعبادة.

ولكن من المقرّر أيضاً أنّ الرّحلة المزدوجة بقصد الحجّ والطّلب كانت موجودة ولها تأثيرها. ثم إنّ المحدّث كان إذا رحل أقام في رحلته مدّة تتفاوت قصراً وطولاً، حتّى تبلغ عدّة سنوات، يطوف فيها على مختلف عواصم العلم، البعيدة عن طريق الحجّ، يتتبّع المحدّثين ويأخذ عنهم، فقد دامت رحلة أسد بن الفُرات (ت ٢١٣) قريباً من عشر سنوات[5]، وبقي الإمام سَحنون في رحلته خمس سنوات[6]، أمّا رحلة الإمام القابِسي (ت ٤٠٣) فقد قاربت مدّتها السّت سنوات[7].

وقد غطّت رحلة القرويّين إلى المشرق كامل هذه القرون الأربعة، ابتداء من أواخر القرن الأوّل، غير أنّها لم تكن دائماً بنفس الكثافة. وهذا واضح لمن نظر في كتب طبقات الأفارقة[8]، ولا يصحّ ما ذهب إليه الأستاذ ح. ح.

---

(١) ط أبي العرب ١٢١.

(٢) ط أبي العرب ٩٠.

(٣) انظر: المدارك ٣/٢٢٣.

(٤) انظر: المدارك ٣/٣٢٥.

(٥) انظر ترجمته: رقم ٤ في المحدثين.

(٦) انظر ترجمته: رقم ١٣ في المحدثين.

(٧) مثل ط أبي العرب، وط الخشني، ورياض النفوس، وشجرة النور، ومواضع الأفارقة في ترتيب المدارك.

(٨) انظر ترجمته: رقم ٢٤ في المحدثين.

عبدالوهاب من أنّ حركة الارتحال إلى المشرق لم تدم إلّا أكثر من مائة عام[1]، ولا ما ذهب إليه الشّيخ محمد الطاهر بن عاشور من أنّ الرّحلة توقّفت بعد عودة سَحنون من المشرق سنة ١٩١ هـ لاشتغال العلماء بالأخذ عنه[2]؛ فإنّ سَحنون نفسه كان يشجّع تلاميذه على الرّحلة وفي مقدّمتهم ابنه[3].

وأوّل رحلة للأفارقة في طلب الحديث، فيما وقفتُ عليه بعد البحث والتّتبّع، كانت قبل سنة ٩٤ هـ[4]، أي قبل قدوم بعثة عمر بن عبدالعزيز العلميّة سنة ٩٩ هـ[5] بعدّة سنوات، وتاريخ هذه الرّحلة مبكّر جدّاً بالنّظر إلى أوضاع إفريقيَّة آنذاك[6]، وفي ذلك دلالة على ظهور العلم بإفريقيّة في تلك الفترة، خاصّة وأنّ هذه الرّحلة مثّلت توجّهاً عاماً لدى الأفارقة، الذين أحسّوا بحاجتهم إلى علوم أهل المشرق ورواياتهم، فجمعوا مسائلهم في مختلف أمور الدّين، وأوفدوا بها المحدّث خالد بن أبي عِمران (ت ١٢٥ أو ١٢٩) ليسأل عنها أبناء الصّحابة[7]، وإنّ الباحث ليعجب من سكوت المصادر عن مرافقي خالد في هذه الرّحلة حيث يُستبعد أن يكون قد ارتحل بمفرده.

وقد احتفظ لنا أبو العرب والمالكي بصورة عن هذه الرّحلة حيث قالا: «وعن خالد بن أبي عِمران أنّه أتى القاسم (ابن محمد بن أبي بكر الصديق ت ١٠٦)، وسالماً (ابن عبدالله بن عمر ت ١٠٦) بمسائل من المغرب، فذهب

---

(١) انظر: بساط العقيق ٥٦.

(٢) انظر: أليس الصبح بقريب ٦٧.

(٣) انظر مثلاً: الرياض ٣٥٣/١، المدارك ٥٢١/١، المعالم ٨٣/٢.

(٤) لأن خالد بن أبي عمران صاحب هذه الرحلة قد روى فيها عن عروة بن الزبير المتوفّى سنة ٩٤ هـ على الصحيح. انظر: التقريب ١٩/٢، سير أعلام ٣٧٨/٥.

(٥) انظر مثلاً: المعالم ٢٠٣/١.

(٦) انظر: مبحث فتح إفريقية في التمهيد.

(٧) انظر: الرياض ١٦٣/١.

يسائلهما عنها، فأبيا عليه أن يجيباه، فقال لهما خالد: «إنّا بموضع جفاء، وإنّهم حمّلوني هذه المسائل، وقالوا لي: إنّك تقدم على المدينة، وبها أبناء أصحاب رسول الله ﷺ فسلهم لنا»، وإنّكما إن لم تفعلا كانت حجّة لهم، فما شئتما، فقال له القاسم: «سل»، فسألهما خالد فأجاباه فيما سألهما فيه، وكثير منها (أي المسائل) في مدوّنة سَحنون»[1]، وقد سأل أيضاً سليمان بن يسار الهِلاَلِيّ (توفّي بعد المائة وقيل قبلها)[2]، وهؤلاء الثّلاثة من كبار علماء التّابعين بالمدينة، وقد عُدّ القاسم وسليمان من الفقهاء السّبعة باتّفاق، وأمّا سالم فقد ألحقه بالسّبعة عبدالله بن المبارك وغيره[3].

وقد دوّن خالد بن أبي عمران عن هؤلاء التّابعين كتاباً كبيراً أخذه عنه أهل إفريقيّة، وكان يُروى بالقَيْرَوان[4]، وهو شبيه بالموطّأ؛ لأنّه مبنيّ على رواية الحديث بالإضافة إلى اشتماله على أصول فقهيّة[5]، وكان له أبعد الأثر في نشر حديث هؤلاء التّابعين بإفريقيَّة، وتدعيم إقبال الأفارقة على التّمسّك بالسّنّة والتزام الآثار.

وفي مطلع القرن الثّاني كانت القيروان تعجّ بالتّابعين، الذين قاموا بمهمّة التّعليم والرّواية خير قيام، وأغنوا الأفارقة عن ضرورة الاتحال لذلك، وقد كان وجود التّابعين بالقيروان مكثّفاً إلى حدود العقد الثّالث من المائة الثّانية[6]، ثمّ وُجدوا بعد ذلك آحاداً إلى حوالي سنة ١٤٤ هـ[7].

---

(١) الرياض ١٦٣/١، ط أبي العرب ٢٤٦ وليس فيه الجملة الأخيرة، وانظر: المدونة ٢٨/١، ٣٩٨، ٤٠/٢، ٣/٣، ٤٨/٤، ٥٨.
(٢) انظر: ط أبي العرب ٢٤٥.
(٣) انظر: علوم الحديث ٢٧٣، ٢٧٤، الباعث الحثيث ١٩٤، وانظر: تيسير مصطلح الحديث ٢٠٢.
(٤) انظر: ط أبي العرب ٢٤٥.
(٥) انظر: مقدمة النيفر لموطأ مالك برواية ابن زياد ٢٤.
(٦) حيث إن حنظلة بن صفان جمعهم واستنجد بهم لما ثارت عليه الخوارج سنة ١٢٤، انظر: الرياض ١٠٢/١، البيان المغرب ٥٩/١.
(٧) انظر: ط أبي العرب ٢١، البيان المغرب ٧٢/١.

وقد أقبل الأفارقة ـ وخاصّة أهل القيروان ـ على هؤلاء التّابعين يأخذون عنهم العلم واستغنوا بذلك عن إكثار الرّحلة، ولهذا فقد قلّ من ارتحل من القرويّين في عده التّابعين، ومن هؤلاء القلائل نجد عُرفُطة بن حكيم الإفريقيّ الذي ارتحل قبل سنة ١١٠ هـ لأنّه يحدث عن الحسن البصري المتوفّى في هذه السّنة[(١)].

أمّا أشهر المرتحلين في هذه الفترة وأكثرهم أثراً في نشر السّنّة بالقيروان فهو عبدالرحمٰن بن زياد الإفريقيّ (ت ١٦١)، وقد كانت رحلته في الحديث قبل سنة ١١٨ هـ، وهو تاريخ وفاة شيخه عبدالله بن نُسَيّ[(٢)]، وقد أخذ في هذه الرّحلة عن كثير من تابعي أهل مصر والشّام والعراق[(٣)]، ثمّ رجع إلى القيروان لينشر علمه رواية ودراية بين أهلها، وقد تتلمذ عليه كثيرون، وعُرف له كتابان دوّن فيهما بعض حديثه، ورواهما عنه أهل القيروان[(٤)].

وقد عاد عبدالرحمٰن بعد ذلك إلى المشرق مرّتين، مُوفداً من أهل إفريقيَّة إلى الخلافة بالمشرق، للاستنصار بها على الخوارج، وذلك سنة ١٢٢ هـ وسنة ١٤٠ هـ، وقد جمع في هاتين الرّحلتين بين الأخذ والعطاء، فقد كتب عنه يحيى القطّان بالكوفة، وسمع منه سفيان الثّوري بمكّة، وعبدالله بن وهب المصري، وغيرهم كما سيأتي في ترجمته[(٥)].

وفي هذا العهد أيضاً رحل عبدالله بن علي الإفريقيّ قبل سنة ١٢٤ هـ،

---

(١) انظر: المراسيل للرازي ١٣٤، وقد ورد في اللسان ١٦٢/٤، والجرح والتعديل ٤٢/٧: عُرْفُطَة بن أبي الحارث يروي عن الحسن، مجهول، فلعله الإفريقي الذي معنا، وانظر ثقات ابن حبان ٣٠٦/٧.

(٢) انظر: التهذيب ١١٣/٥.

(٣) انظر ترجمته: رقم ١٦ في المحدثين.

(٤) ط أبي العرب ٣٠، وانظر: دراسات في الحديث النبوي ١٨٤/١.

(٥) انظر ترجمته: رقم ١٦ في المحدثين.

وهي السّنة التي توفّي فيها ـ على الرّاجح ـ شيخه محمد بن مسلم بن شهاب[١]، كما رحل عُبيد الله بن زَحْر الكِنَانِيّ في هذه الفترة[٢]، وكلاهما لم يعد إلى القيروان بعد رحلته حسب المادّة المتوافرة حتّى الآن، بالرّغم من أنّ الثّاني معدود في شيوخ إفريقيَّة[٣]، إلاّ أنّي لم أجد له تلاميذ من أهلها أو الوافدين عليها.

وقد أسهمت الحروب التي أثارها الخوارج ابتداء من سنة ١٢٢ هـ[٤] في تعطيل الحركة العلميّة، كما مرّ في التّمهيد، وكانت تلك الحروب سبباً في التّقليص من عدد المرتحلين، بالرّغم من أنّ الحاجة كانت ماسّة إلى ذلك، خاصّة ابتداء من العقد الرّابع حين توفّي معظم تابعي القيروان.

وفي خضمّ هذه الحروب رحل إلى المشرق عبدالله بن فَرُّوخ (ت ١٧٦)، وكانت رحلته في بداية العقد الخامس[٥]، وتُعتبر هذه الرّحلة عظيمة الفائدة للحياة العلميّة عامّة وللسّنّة بصفة خاصّة؛ لأنّها أعقبت فترة من الرّكود النّسبيّ الذي دام عدّة سنوات بسبب وفاة أكثر التّابعين وانشغال النّاس بفتن الخوارج، وقد سمع فيها عبدالله بن فَرُّوخ من كبار محدّثي المشرق كالإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩) وسفيان الثّوري (ت ١٦١) وسليمان بن مِهْرَان الأعمش (ت ١٤٧) وعبدالملك بن جُريج (ت ١٥٠ أو بعدها) وغيرهم[٦]، وسمع وكتب في رحلته هذه حديثاً كثيراً، ثمّ عاد إلى القيروان، وهو يدرك مسيس الحاجة إلى ما عنده من العلم، فجلس في جامع عُقبة أكثر من عشرين سنة «يعلّم النّاس ويحدّثهم بسنّة رسول الله ﷺ حتّى انتفع به خلق كثير»[٧].

(١) انظر: التهذيب ٥/٣٢٦، ٩/٤٥٠، الكاشف ٣/٨٥، طبقات الحفاظ ٤٩، ٥٠.

(٢) انظر ترجمته: رقم ٢٣ في المحدثين.

(٣) انظر: المعالم ١/٢٤٨.

(٤) انظر: الوضع السياسي في التمهيد.

(٥) لأن من شيوخه في رحلته هشام بن عروة المتوفي سنة ١٤٥ أو ١٤٦، انظر: التهذيب ١١/٤٨.

(٦) انظر ترجمته: رقم ٣ في المهاجرين.

(٧) الرياض ١/١٧٧، المدارك ١/٣٤٠، المعالم ١/٢٣٩.

وقد رافقه في هذه الرّحلة البُهلول بن راشد (ت ١٨٣)، وعبدالله بن عمر بن غانم (ت ١٩٠)[١] في رحلته الأولى[٢]، وكان لكلّ منهما أثره في نشر الحديث بالقيروان.

وفي منتصف القرن الثّاني فما بعده كثر طلبة العلم بـالقيروان، وتكثّفت الرّحلة إلى المشرق، وخاصّة بعد أن قضى يزيد بن حاتم (١٥٥ ـ ١٧٠) على فتن الخوارج سنة ١٥٦ هـ[٣]، فلا نكاد نعثر في هذه الفترة على عالم لم يرحل إلى المشرق[٤].

وكان في طليعة هؤلاء المرتحلين: معاوية بن الفضل الصُّمَادِحِي (ت ١٩٩)، وقد كانت رحلته قبل سنة ١٥١ هـ[٥]. سمع فيها من جلّة محدّثي المشرق، ونشر حديثهم بالقيروان إلاّ أنّه لم يكن من المُكْثِرين[٦].

أمّا أبعد الرّحلات أثراً في ازدهار السّنّة وعلومها بإفريقيّة في هذه المرحلة فهي رحلة علي بن زياد (ت ١٨٣)[٧]؛ لأنّها توافقت مع انتهاء الإمام مالك من وضع موطّئه، فسمعه منه علي بن زياد، كما سمع من سفيان الثّوري (ت ١٦١) جامعه الكثير الآثار، وجامعه الأوسط، وهو آثار كلّه، وتفقّه على الإمام مالك،

---

(١) انظر: الرياض ١/٢١٦، المدارك ١/٣١٧، المعالم ١/٣٠٤.

(٢) انظر ترجمة: ابن غانم رقم ٢١ في المحدثين.

(٣) انظر: البيان المغرب ١/٧٩، الاستقصاء ١/١٣٣، العبر ٦/١١٣.

(٤) انظر مثلاً: الشجرة ١/٦١ ـ ٧٣، ٦٨ ـ ٧١.

(٥) وهي السنة التي توفي فيها شيخه حنظلة بن أبي سفيان المكي، انظر: التقريب ١/٢٠٦.

(٦) انظر ترجمته: رقم ٣٧ في المحدثين.

(٧) لقد كانت رحلة علي بن زياد في آخر العقد السادس لأنه أدرك سفيان الثوري المتوفّى سنة ١٦١ هـ، ثم إن من رحل قبله لم يسمع الموطأ من الإمام مالك الذي انتهى من تأليفه في آخر حياة أبي جعفر المنصور المتوفي سنة ١٥٨ هـ، انظر: المدارك ١/١٩٢، البيان المغرب ١/٧٩.

وعاد بهذه المصنّفات إلى إفريقيّة[1] فكان أوّل من أدخلها إليها[2]، وهي أوّل ما عرفه أهل إفريقيّة من المصنّفات، وبها توطّدت فيها دعائم السّنّة، وقد أقبل أهل القيروان على علي بن زياد يسمعونها منه، وفي مقدّمتهم البُهلول بن راشد (ت ١٨٣)[3]، وأسد بن الفُرات (ت ٢١٣)[4] وموسى بن معاوية (ت ٢٢٥)[5] والإمام سَحنون (ت ٢٤٠)[6] وغيرهم.

ولما سمع القرويّون الموطّأ وفهموا قول مالك من علي بن زياد[7] اتجهت أنظارهم نحو الإمام مالك، وتسابقوا في الرّحلة إليه، حتى زاد من تتلمذ عليه منهم على الثلاثين[8]، سمعوا منه ومن غيره من محدّثي المشرق، وكان لهم أثرهم في نشر الحديث في القيروان[9]، ومن أشهرهم أسد بن الفُرات (ت ٢١٣)، الذي دامت رحلته قريباً من عشر سنوات كما تقدّم، وقد لقي فيها كثيراً من العلماء عرفنا منهم أحد عشر من كبار محدّثي المشرق[10]،وقد أعاد سماع الموطّأ على الإمام مالك، وسمع من هُشَيْم بن بَشِير (ت ١٨٣) اثني عشر ألف حديث[11]، كما سمع من يحيى بن زكريّاء بن أبي زائدة عشرين ألف حديث[12]، هذا عدا سماعه من بقيّة شيوخه، كما تفقّه بحمد بن الحسن[13] وبعبدالرحمٰن بن

---

(١) انظر: ط أبي العرب ٢٥١.

(٢) انظر: الشجرة ١/٦٠، المدارك ١/٣٢٦، الرياض ١/٢٣٤.

(٣) ط أبي العرب ٢٥١.

(٤) الرياض ١/٢٥٥.

(٥) انظر: المكتبة الأثرية ٣٨.

(٦) انظر: الرياض ١/٣٥٠، المعالم ٢/٨٠، المدارك ١/٥٨٧.

(٧) انظر: الرياض ١/٢٣٤.

(٨) انظر: المعالم ٢/٨٣. وبعد التتبّع وجدت أن عددهم يصل إلى ٤٤ كما سيأتي في مبحث الرّواة عن مالك.

(٩) انظر: الرياض ١/١٧٦ - ١٨٨، ٢٠٠ - ٢٩٢، المدارك ١/٣١٦ - ٣٤٦، ٤٦٥ - ٤٩١.

(١٠) انظر شيوخه في ترجمته: رقم ٤ في المحدثين.

(١١)، (١٢) المدارك ١/٤٧٤.

(١٣) انظر: المدارك ١/٤٦٧.

القاسم[1]، فلمّا عاد إلى القيروان نشر فيها علمه الغزير، وفي مقدّمته هذا العدد الهائل من الأحاديث؛ لأنّه جلس للتّحديث وسمع منه النّاس[2].

واستمرّت الرّحلة إلى المشرق بصفة مكثّفة حتّى بعد وفاة الإمام مالك، وكان من أبرز هؤلاء المرتحلين ممّن لم ير مالكاً، المحدّث موسى بن معاوية الصُّمادِحِي الذي رحل سنة ١٨٤ هـ، ودامت رحلته خمس سنوات، دخل فيها طرابُلُس ومصر والمدينة ومكّة والبصرة والكوفة وبغداد وبلاد خُراسان، ولقي في كلّ بلدة كبار محدّثيها[3]، حتّى نبغ في الحديث وعلومه[4]، ثمّ عاد إلى القيروان، وجلس في جامع عُقبة يسمع مرويّاته الكثيرة، وعلى رأسها الموطّأ ومصنّف وكيع بن الجراح[5].

كما رحل الإمام سَحنون لمدّة خمس سنوات والتقى بثلاثة وعشرين من كبار محدّثي المشرق وفقهائه[6]، ونشر ما رواه عنهم بالقيروان، فكان من أكبر المشيعين لعلوم السّنّة بها[7].

وقد شهد النّصف الثّاني من القرن الثّاني كثافة في الرّحلة إلى المشرق لم تشهدها فترة أخرى. وقد بدت ثمار هذه الرّحلة واضحة، حيث ازدهرت الحياة العلميّة، وكثر العلماء بالقيروان، ولذلك نجد أنّ القرن الثّالث قد شهد تقلّصاً في عدد المرتحلين بالمقارنة إلى المرحلة السّابقة، وذلك راجع إلى أنّ معظم أهل هذا القرن قد انكبّوا على سماع وتدوين علوم المرتحلين في آخر القرن الثّاني، ومع ذلك فإنّ هذا لم يمنع من استمرار الرّحلة لجلب مصنّفات المشارقة، ومن

---

(١) ن. م ١/٤٦٩.

(٢) انظر: الرياض ١/٢٥٥، ٢٦٤.

(٣) انظر ترجمته: رقم ٣٨ في المحدثين.

(٤) انظر: ط أبي العرب مح ١٩٠، ١٩١، المعالم ٢/٥١، الشجرة ١/٦٨.

(٥) انظر: فهرس ابن عطية ٦٤، المكتبة الأثرية ٣٨.

(٦)، (٧) انظر: شيوخه وأثره العلمي في ترجمته رقم ١٣ في المحدثين.

أشهر من ارتحل في هذا القرن محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦)[١]، وأحمد بن مُعَتِّب بن أبي الأزهر (ت ٢٧٧)[٢]، ويحيى بن عمر (ت ٢٨٩)[٣]، وكلّ هؤلاء سمعوا الحديث والفقه كما سيأتي في تراجمهم، وعيسى بن مسكين (ت ٢٩٥) الذي أدخل مسند محمد بن سنجر إلى القيروان[٤]، ومالك بن عيسى القَفْصِيّ (ت ٣٠٥)، وقد دامت رحلته في طلب الحديث عشرين سنة[٥].

وفي القرن الرّابع كان الرّافضة يجثمون على صدر إفريقيَّة، وقد منعوا العلماء من نشر علم أهل السّنّة من حديث وغيره، وضيّقوا على النّاس في أمور معيشتهم، وتسبّبوا في أخذ أموالهم بكلّ سبيل، فكان ذلك سبباً في تخفيف الرّحلة إلى المشرق؛ لأنّ العلماء رأوا أنه لا يسعهم في تلك الظّروف إلاّ الحضور، ومواجهة ضلال الإسماعيليّة حتّى لا يكفر العامّة دفعة واحدة، هذا بالإضافة إلى الضّرائب التي وضعها العُبيديّون على الحجيج والتّجّار، فمن هنا قلّ عدد المرتحلين في هذا العهد، وكان ممّن رحل في الحديث آنذاك مَسَرَّة بن مسلم الذي رحل سنة ٣٠٠ هـ[٦]، وربيع القطّان (ت ٣٣٣)[٧]، وعبدالله بن أبي هاشم (ت ٣٤٦)[٨] وأبو محمد عبدالله بن أبي زيد (ت ٣٨٦)[٩]، وأبو الحسن علي بن محمد القابِسي (ت ٤٠٣) الذي ارتحل سنة ٣٥٢ هـ، وكان أوّل من أدخل صحيح البخاري إلى بلاد المغرب[١٠].

---

(١) انظر: ترجمته رقم ٣٢ في المحدثين.
(٢) انظر: ترجمته رقم ٢ في المحدثين.
(٣) انظر: ترجمته رقم ٩ في المهاجرين.
(٤) انظر: ترجمته رقم ٢٧ في المحدثين.
(٥) انظر: ترجمته رقم ٥ في المهاجرين.
(٦) انظر: المدارك ٣٥٢/٣، ٥٣٤.
(٧) انظر: ترجمته رقم ١١ في المحدثين.
(٨) انظر: ترجمته رقم ٢٢ في المحدثين.
(٩) انظر: ترجمته رقم ١٩، في المحدثين.
(١٠) انظر: ترجمته رقم ٢٤، في المحدثين.

وبعد أن خرج العُبَيديّون من إفريقيّة إلى مصر، سنة ٤٦٢ هـ، أُزيحت القيود عن العلماء تدريجيّاً، وزالت أسباب قلّة الارتحال، فعاودت الرّحلة كثافتها في الوقت الذي شهدت فيه الحياة العلميّة بالقيروان عصر ازدهارها.

وممّن رحل في الحديث وسمع الفقه وغيره في هذه المرحلة محمد بن تميم، حفيد الحافظ أبي العرب (ت ٤١٧)، وقد ارتحل سنة ٣٧١ هـ وطاف مختلف بلاد المشرق[١]، وأبو بكر عَتِيق بن خَلَف التُّجِيبي (ت ٤٢٢)[٢]، وأبو عِمران موسى بن عيسى الفاسي (ت ٤٣٠) الذين أدخل عدّة مصنّفات، مثل: التّاريخ الكبير للبُخاري، وتصحيف المحدّثين للدّارقطني وغير ذلك[٣]، وعبدالمنعم الكندي (ت ٤٣٥)[٤]، وأبو محمد مكّي بن أبي طالب (ت ٤٣٧)، وقد اشتهر بالنّبوغ في علوم القرآن وخاصّة القراءات بالإضافة إلى إلمامه بالحديث[٥]، وأبو عبدالله محمد بن عبدالله المالكي (ت ٤٣٨ وقيل ٤٤٤)[٦]، وأبو إسحاق إبراهيم بن حسن المَعَافِري (ت ٤٤٣)[٧]، وأبو القاسم عبدالرحمٰن بن مُحْرِز[٨]، وعبدالرحمٰن بن محمد بن رَشِيق[٩]، ومحمد بن سَعْدون القروي (ت ٤٨٥)[١٠]، وغيرهم.

ولم يقتصر القرويّون في رحلاتهم على التّلقّي بل إنّ كثيراً منهم حدّث أثناء

---

(١) انظر: المعالم ١٥٨/٣، الصلة ٥٦٧/٢.
(٢) انظر: المعالم ١٥٨/٣، الشجرة ١٠٦/١.
(٣) انظر: ترجمته رقم ٧ في المهاجرين.
(٤) انظر: المعالم ١٨٤/٣، الشجرة ١٠٦/١.
(٥) انظر: المعالم ١٨٤/٣، الشجرة ١٠٦/١، البغية ٤٥٥، سير أعلام ٥٩١/١٧، الصلة ٥٩٧/٢، مخطوطات مغربية ٦٦.
(٦) انظر: المعالم ١٧٣/٣، الشجرة ١٠٨/١.
(٧) انظر: المعالم ١٧٩/٣، الشجرة ١٠٨/١.
(٨) انظر: المعالم ١٨٥/٣، الشجرة ١١٠/١.
(٩) انظر: المعالم ١٨٦/٣، الشجرة ١١٠/١. (١٠) انظر: ترجمته رقم ٣٣ في المحدثين.

رحلته، مثل عبدالرحمٰن بن زياد (ت ١٦١) فقد حدث بمصر، ومكّة، وكتب عنه يحيى بن سعيد القطّان كتاباً بالكوفة، وتتلمذ عليه جماعة من كبار المحدّثين، مثل سفيان الثّوري وعبدالله بن المبارك[1].

وحدّث أسد بن الفُرات (ت ٢١٣) بالموطّأ في العراق[2]، وحدث محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦) بمصر وألقى بعض المسائل بالمدينة[3]، أمّا عبدالله بن أبي هاشم (ت ٣٤٦) فقد سمع منه أهل مصر والإسكندريّة وطرابُلُس[4]، وسمع أهل دمشق من أبي سعيد القيرواني[5].

وقد استهوى المشرق بعض علماء القيروان فاستوطنوا بعض مدنه، ولم يعودوا إلى القيروان إثر رحلاتهم، مثل عُرْفُطة بن حكيم الإفريقي[6]، وعبدالله بن علي الإفريقي نزيل الكوفة[7]، ومحمد بن علي بن عبدالله القروي نزيل بغداد[8]، والحسين بن علي بن القاسم القروي نزيل دمشق[9]، وعبدالله بن سَبْعُون القيرواني نزيل بغداد (ت ٤٧١)، وكان محدّثاً سمع منه الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣)، وحدّث بمكّة أيضاً[10].

وهكذا اشتملت الرّحلة إلى المشرق على من سمع الحديث ورجع إلى القيروان، وهم الأكثر، وعلى من سمع وحدّث أيضاً بالمشرق ثمّ عاد، وعلى من استوطن بلاد الشرق وهم قلّة.

---

(١) انظر: تهذيب الكمال ٧٨٧/٢، وانظر: ترجمة عبدالرحمٰن رقم ١٦ في المحدثين.
(٢) انظر: ط أبي العرب ٨٢.
(٣) انظر: الرياض ٤٤٤/١، المعالم ١٢٦/٢، المدارك ١١٥/٣.
(٤) انظر: المعالم ٥٧/٣.
(٥) انظر: تهذيب تاريخ دمشق ١٧٣/٥.
(٦) انظر: المراسيل للرازي ١٣٤.
(٧) انظر: معرفة علوم الحديث ٢٤٧، وانظر: ترجمته رقم ٢٠ في المحدثين.
(٨) انظر: تاريخ بغداد ٦٧/٣.
(٩) انظر: تهذيب تاريخ دمشق ٢٣٥/٤. (١٠) انظر: تهذيب تاريخ دمشق ٤٣٤/٧.

٢ ـ الرّحلة إلى الأندلس:

لقد تأخّر فتح بلاد الأندلس[١] وتأخّر ظهور العلم بها، **حيث لم يدخلها** أحد من الصحابة على الرّاجح من خلال المادّة المتوافرة[٢]، **ولم يبطىء بها** من دخلها من التّابعين للجهاد وهم قلّة[٣].

كما أنّ كثرة الاضطرابات والحروب شغلت أهلها عن الاهتمام بالعلم، ولذلك لم يظهر بها العلم ظهوراً بيّناً، فيما وقفت عليه من المصادر، إلّا بعد منتصف القرن الثّاني[٤]. ولم يكن فيها من العلم في البداية ما يغري القرويّين بالرّحلة لاكتسابه، ثم إنّ من بها من العلماء كانوا يدخلون القيروان عادة عند رحلتهم إلى المشرق فيأخذ عنهم الأفارقة ويستغنون بذلك عن الرّحلة إليهم في بلادهم، فلم ترتبط الرّحلة إلى الأندلس بالطّلب، بل ارتبطت غالباً بالظّروف السّياسيّة أو الاجتماعيّة أو الاقتصاديّة، كما أنّ المرتحل يكون في الغالب قد أكمل أغلب أصول تكوينه العلميّ، وأصبح أهلاً لنشر العلم فينتفع به أهل الأندلس، أي أنّ رحلاتهم قد جمعت بين الطّلب والعطاء في معظم الأحيان، ومن الملاحظ أنّ كثيراً منهم يقيم بها، ولا يعود إلى القيروان.

وقد ابتدأت الرّحلة إلى الأندلس في آخر القرن الثّالث حسب ما تفيده المادّة المتوافرة، ولم تكن مكثّفة، وممّن ارتحل في هذه الفترة أبو جعفر أحمد بن سليمان (ت ٢٩٦)، وقد حدّث بالأندلس[٥].

وفي القرن الرّابع شهدت الرّحلة إلى الأندلس شيئاً من الحيويّة بسبب

---

(١) ابتدأ فتحها سنة ٩٢ هـ، انظر: البيان المغرب ٢/٩.

(٢) انظر: الإصابة ٣/٤٤٤، التكملة ٢/٧٣١.

(٣) انظر: بغية الملتمس ١٣.

(٤) انظر: الشجرة ١/٦٣، المدارك ١/٣٤٧.

(٥) انظر: تاريخ رواة العلم ١/٧٤.

اضطهاد العُبَيديّين للعلماء، وصعوبة الخروج إلى المشرق في عهدهم كما تقدّم، فقد رحل حينذاك إلى الأندلس حكَم بن محمد بن هشام (ت ٣٠٧)، المحدّث المقرىء، بعد أن امتحنه الرّافضة بسبب تصلّبه في السُّنّة، وقد سمع منه النّاس بالأندلس، وكتبوا عنه الحديث[١].

ورحل سعيد بن خَلَف بن جَرِير (ت ٣٢٣)، وقد حدّث بها أيضاً[٢]، كما رحل إليها حُبَاشة بن حسن اليَحْصُبِيّ المحدّث (ت ٣٧٤)، وهو من رواة صحيح البُخاري، وقد سمع بالأندلس من جماعة من المحدّثين، منهم المحدّث محمد بن معاوية[٣]، ومحمد بن أحمد بن الخَزَّاز القروي وغيرهما، وكان له بها آثار[٤]، وقد صاحبه في رحلته محمد بن أحمد الفارسي القروي الذي امتحنه العُبيديّون بسبب تمسّكه بالسُّنّة وإنكاره على المبتدعة فغادر القيروان[٥].

ومن أشهر المرتحلين في هذه المرحلة محمد بن أحمد بن حارث الخُشَنِيّ، المحدّث الفقيه المؤرّخ (ت ٣٦١)، وقد رحل في مقتبل عمره صحبة عائلته بعد أن سمع من علماء القيروان ثمّ واصل الطّلب بالأندلس فسمع من المحدّث قاسم بن أصبغ (ت ٣٤٠)[٦]، ومحمد بن عبدالملك بن أَيْمَن (ت ٣٣٠)[٧]، ومحمد بن يحيى بن لُبابة (ت ٣١٤)[٨]، وغيرهم. وقد جال في عدّة مدن،

---

(١) انظر: تاريخ ابن الفرضي ١/١٤٥.

(٢) انظر: تاريخ ابن الفرضي ١/٢٠٩، التكملة رقم ٢٦٤٨.

(٣) من محدثي الأندلس الثقات، وأول من أدخل سنن النسائي إلى الأندلس، توفي بعد ٣٤٧، البغية ١١٦.

(٤) انظر: تاريخ ابن الفرضي ١/١٥٢.

(٥) انظر: تاريخ ابن الفرضي رقم ١٣٩٩.

(٦) له بصر بالحديث والرجال، وله كتاب المجتبى على سنن أبي داود، طال عمره فسمع منه الكهول والأحداث، وإليه كانت الرحلة في وقته. تاريخ ابن الفرضي ١/٤٠٦، نفح الطيب ٢/٤٧.

(٧) محدث، صنّف كتاباً حسناً على سنن أبي داود، (ت ٣٣٠)، الشجرة ١/٨٨.

(٨) فقيه حافظ مفت. الشجرة ١/٨٦.

واستقرّ بقُرْطُبَة وبثّ فيها علماً كثيراً، وصنّف بها نحو مائة ديوان في الحديث والتّاريخ والفقه والرّجال[١].

كما رحل إليها تميم بن الحافظ أبي العرب التَّمِيمِي، وحدث فيها بكتب والده[٢]، وحدّث بها سليمان بن محمد المؤذّن القيرواني (ت ٣٧٥)[٣].

وهاجر إليها المحدّث المكثر عبدالله بن محمد بن علي المعروف بالباجي نسبة إلى باجة القيروان، وقد سكن إِشْبِيلِيَة وبها توفّي سنة ٣٧٨ هـ[٤].

ولقد جمع أبو عِمران موسى بن عيسى الفاسي هـ٤٣٠) في رحلته إليها آخر القرن الرّابع، بين الأخذ والعطاء، فقد سمع بها من جماعة من المحدّثين منهم أبو محمد عبدالله بن إبراهيم الأَصِيلِيّ (ت قريباً من سنة ٤٠٠ هـ)[٥]، وأحمد بن قاسم (ت ٣٩٦)[٦]، وسعيد بن نصر (ولد سنة ٣٦٨)[٧]، كما حدّث فيها بصحيح البُخاري بروايته عن شيخه القروي أبي الحسن القابِسي (ت ٤٠٣)[٨]، ثم عاد إلى القيروان وحدّث بها عن شيوخه الأندلسيّين وغيرهم[٩].

---

(١) انظر ترجمته في: الشجرة ٩٤/١، المدارك ٥٣١/٣، سير أعلام ١٦٥/١٦، مقدمة كتاب قضاة قرطبة للخشني «د»، تراجم المؤلفين ٢٠٥/٢، الإكمال ٢٦١/٣، طبقات الحفاظ ٣٩٨، الديباج ٢٥٩، تذكره الحفاظ ١٠٠١/٣، المعالم ٨١/٣، الفكر السامي ١١٢/٢، وهناك اضطراب في تاريخ وفاته، ومعظم المصادر على أنه توفي سنة ٣٦١ هـ رغم أنهم يذكرون بقاءه بعد وفاة الحكم بن عبدالرحمٰن أمير الأندلس وقد كان ابن حارث في خدمته، والثابت أن وفاة هذا الأمير كانت سنة ٣٦٦ كما في البيان المغرب ٢٣٣/٢، ٢٥٣، وعلى هذا إما أن يكون بقاؤه بعد المستنصر وهماً أو يكون تاريخ وفاته خطأ، وقد ذكرت بعض المصادر أنه توفي سنة ٣٦٤ هـ، وهذا أيضاً لا يحل الإشكال، ولذلك افترض الذهبي في تذكرة الحفاظ أنه توفي سنة ٣٧١ هـ، وقد أخذت بما في أغلب المصادر.

(٢) انظر: فهرسة ابن خير ٣٠١، المدارك ٣٣٦/٣.

(٣) انظر: الصلة ٢٠٢/١.

(٤) انظر: البغية ٣١٧.

(٥) جذوة المقتبس ٢٤٠.

(٦) بغية الملتمس ١٨٨.

(٧) بغية الملتمس ٣٠١.

(٨) انظر: مشارق الأنوار ٣٨/١.

(٩) انظر ترجمته: رقم ٧ في المهاجرين.

وفي بداية القرن الخامس استمرّت الرّحلة إلى الأندلس على هذا النّسق، فقد رحل أبو المعالي القيرواني الواعظ المحدّث حوالي سنة ٤٠٧ هـ، وسكن إشْبِيلِيَة، وحدّث فيها بصحيح البخاري وتاريخ الطّبري وغيرهما[١]، كما رحل محمد بن تميم حفيد الحافظ أبي العرب سنة ٤١٦ هـ في تجارة له وسمع الحديث بالأندلس، ولعلّه حدّث بها أيضاً؛ لأنّه رحل إليها في آخر حياته[٢]، وخرج إليها محمد بن القاسم القروي تاجراً، وحدّث بها وتوفّي في بعض مدنها سنة ٤٢٨ هـ[٣]، وقدمها موسى بن عاصم بن سفيان سنة ٤٣١ هـ في تجارة له، فحدّث بها وأجاز بعض محدّثيها[٤].

وفي سنة ٤٣٣ هـ أظهر المعزّ بن باديس أمير القيروان الدّولة العبّاسيّة[٥]، وأخذ يُعدّ لقطع الارتباط الصّوري بالعبيدين بعد أن تطهرت إفريقية من الرّفض، وبدأت تلوح بوادر الفتنة التي انتهت بخراب القيروان وانقطاع ما بها من العلم والحضارة، فأخذت رحلة القرويّين إلى الأندلس تتكثّف وخاصة بعد خراب القيروان وخروج أهلها عنها، فكان للأندلس حظّ وافر من علمائها[٦].

وممّن رحل إليها في هذه المرحلة الأخيرة عثمان بن أبي بكر الصَّفَاقُسِيّ القَرَوِيّ (ت حوالي ٤٤٤) فقد خرج إليها سنة ٤٣٦ هـ في مهمّة سياسيّة، وتجوّل في مدنها لمدّة سنتين وبثّ فيها حديثاً كثيراً، وأدخل إليها عدّة مصنّفات حديثيّة لم تكن معروفة عند أهلها، مثل كتاب غريب الحديث للخطّابي[٧].

كما رحل إليها عبدالسّلام بن مُسَافِر هـ٤٨١)، ومحمد بن نعمة الأسدي (ت ٦٨١ أو ٤٨٢)، ولكلّ منهما عناية بالآثار[٨].

---

(١) انظر: التكملة ٢/٧٤٣.

(٢) انظر: ترجمته رقم ٣١ في المحدثين.

(٣) انظر: الصلة ٢/٥٦٤.

(٤) انظر: الصلة ٢/٦١٢، ٦١٣.

(٥) انظر: البيان المغرب ١/٢٧٥.

(٦) انظر: المعجب ٣٥٥.

(٧) انظر: ترجمته رقم ٤ في المهاجرين.

(٨) انظر: الصلاة ١/٣٧١، ٢/٥٧١.

ومن أبـرز من خرج إليهـا عند اشتـداد فتنة الأعـراب محمد بن سَعـدون القروي (ت ٤٨٥ أو ٤٨٦) وقد طاف في مختلف مدنها ونشر فيها علماً كثيراً[١].

كما خرج إليها محمـد بـن أبي سعيد، ابن شَرَف سنة ٤٤٧ هـ، وهو أديب مشارك في علم الحديث[٢]، وعبدالمنعم بن مَنّ الله الهَوّاري (ت ٤٩٣) خـرج إليها وحدّث بها[٣]، كما حدّث بها عبدالعزيز بن عبدالوهاب القروي (ت ٤٩٥)[٤] وعبدالقادر بن محمـد الصَّدَفِيّ (ت ٥٠٧)[٥]، وغيـرهم ممّن دخلها بعـد خراب القيروان.

وهكذا تميّزت الرِّحلة إلى الأندلس بأنّ الطلب لم يكن الدّافع الأسـاسي لها، بل كان يحصل عرضاً في الغالب، كما أنّ أكثر من ارتحل إليها قد حدّث بها وبثّ فيها العلم أكثر من كونه طالباً، ومعظمهم كان يستقرّ في بعض مدنها، وقد ظهر ذلك بصورة أوضح بعد خراب القيروان سنة ٤٤٩ هـ.

ثانياً: **الرّحلة من المشرق والأندلس إلى القيروان**:

لقد تتلمذ القرويّون على المشـارقة بـاعتبار المشـرق موطن العلم ومهبط الرّسالة، ومنه منطلقها، أمّـا الأندلسيّون فقد تتلمذ كثير منهم على القرويّين؛ لأنّ العلم بالقيروان كان أسبق في الظّهور منه بالأندلس، ولأنّها أقرب إلى مـواطن العلم، وقد كثر المرتحلون من أهلها لاكتسابه، ونظراً لكلّ ما تقدّم فقد ارتبطت رحلة المشارقة إلى القيروان بالعطاء غالباً، بينما ارتبطت رحلة الأندلسيّين إليها بالأخذ في معظم الأحيان، وإليك تفصيل ذلك.

---

(١) انظر: ترجمته رقم ٣٣ في المحدثين.

(٢) انظر: الصلة ٢/٥٧١، المعالم ٣/١٩٣.

(٣) الصلة ٢/٣٩٢.

(٤) انظر: البغية ٣٧٢.

(٥) انظر: البغية ٣٨١.

١ ـ الرّحلة من المشرق إلى القيروان:

إنّ أوّل رحلة ـ نعلمها ـ قدمت من المشـرق بعد انتهـاء فتوح المغـرب، وخصّصت لنشر العلم، هي تلك التي قام بها التّابعـون العشرة الـذي أرسلهم عمر بن عبدالعزيز سنة ٩٩ هـ لتفقيه أهل القيروان، ونشر السّنّة بينهم، والحكم فيهم بالكتاب والسّنّة[١]، وقد نجحوا في هذه المهمّة نجاحاً كبيراً، وكان لهم أبعد الأثر في إشاعة الحديث والفقه المبني على الرّواية بإفريقيّة[٢].

وممّن دخلها من التّابعين لنشر العلم، وليس للجهاد، عِكْرِمَة مـولى ابن عبّاس، الذي قدم إليها في مـطلع القرن الثّـاني، وكانت لـه حلقة في جـامع عُقبة[٣].

وفي النّصف الثّاني من القرن الثّاني استقطبت القيروان عدداً من المحدّثين المشارقة الذين وفدوا عليها لنشر العلم، ومنهم من استوطنها.

فقد رحل إليها الحارث بن نَبْهان البَصْرِي[٤] بعد سنة ١٥٠ هـ، وسمع منه جماعة من أهلها، منهم البُهلول بن راشد (ت ١٨٣)[٥].

وأوطنها عبدالعزيز بن بَحِير الرُّعَيْنِي المصريّ، وهو يروي عن التّابعين[٦].

ودخلها سنة ١٥٦ هـ أبو عبدالرحمٰن عبدالله بن يزيد المقرىء (ت ٢١٢ أو ٢١٣)، البصري نزيل مكّة، شيخ الإمام البخاري، وهو محدّث ثقة، وقد سمع

---

(١) انظر: ط أبي العرب ٢٠، الرياض ٩٩/١، تاريخ ابن الفرضي ١٤٦، المعالم ٢٠٣/١.

(٢) انظر: مبحث أثر التابعين في نشر السنة بالقيروان.

(٣) انظر: ط أبي العرب ١٩، الرياض ١٤٦/١، الفكر السامي ٢٩٨/١.

(٤) انظر: ط أبي العرب مح ١٠٥.

(٥) انظر: ط أبي العرب ٥٢، الرياض ٢٠٠/١.

(٦) انظر: الرياض ١٦٧/١، الإكمال ٢٠١/١.

الحديث بالقيروان من عبدالرحمٰن بن زياد (ت ١٦١)، كما أخذ عنه بعض القرويين. ثمّ عاد إلى مكّة[١].

ورحل إليها كَامِل بن طَلْحة البصري نزيل بغداد (ت ٢٣١ أو ٢٣٢) فسمع بها من عَبّاد بن عبدالصّمد[٢]، وحدّث عنه جماعة من أهلها، منهم داود بن يحيى (ت ٢٤٩)[٣]، وقد عاد إلى بغداد[٤].

كما قدمها علي بن يونس اللَّيْثِيّ وهو مدني من تلاميذ مالك، وقد حدّث بالقيروان وأقام بها[٥].

وفي القرن الثّالث رحل إلى القيروان جماعة من أهل المشرق، منهم عبدالعزيز بن يحيى المدني نزيل نيسابور (ت بعد ٢٣٥)، وقد دخلها سنة ٢٢٥ هـ وأقام بها سنة كاملة، حدّث فيها بالموطّأ وغيره، وسمع منه محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦) وبشر كثير من القرويّين، وعندما أراد الخروج استعان عليه أهل القيروان ببعض الوجهاء ليستوعب النّاس السّماع منه، وهو غير محمود في روايته عند المشارقة وقد أثنى عليه أبو العرب حافظ القيروان، لكن الرّاجح أنّه ضعيف جدّاً؛ لأنّ الجرح فيه مفسّر فهو مقدم على التّعديل فقد قال ابن حجر في التّقريب إنّه متروك، وجاء في التّهذيب عن أبي مُصَعب أنّه كذّاب يحدّث عمّن لم يدرك، وقال العُقَيلي: «يحدّث عن الثّقات بالبواطيل ويدّعي من الحديث مالا يعرف به غيره من المتقدّمين عن مالك وغيره»، وتركه أبو حاتم بعد أن سمع

---

(١) انظر: ط أبي العرب مح ١٦٣، تهذيب الكمال ٧٨٧/٢، الضعفاء الصغير ١٤٢، وانظر: ترجمته في تذكرة الحفاظ ٣٦٧/١، طبقات الحفاظ ١٦٠، التهذيب ٨٣/٦، تاريخ ابن معين ٣٣٨/٢، التقريب ٤٦٢/١.

(٢) انظر: ترجمته رقم ٧ في القسم الثالث من التابعين.

(٣) انظر عنه: ط أبي العرب ١٠٩.

(٤) انظر: ط أبي العرب مح ١٦٦، الرياض ١٣٨/١، وراجع ترجمته في التهذيب ٤٠٨/٨، التقريب ١٣١/٢، الميزان ٤٠٠/٣.

(٥) انظر: ط أبي العرب مح ١٥٩، الرياض ٢٩٢/١.

منه، وقال ابن عديّ: «ضعيف جدّاً... يسرق حديث النّاس»، وقال البُخاري: يضع، كما في الخلاصة[1].

وقد قدم معه زكريّاء بن يحيى الوَقَّار المصريّ (ت ٢٥٤)، وهو كثير الحديث وقد سمع منه أهل القيروان، وذكر أبو العرب: «أن كثيراً من حديثه منقطع، وعن رجال شاميّين غير أعلام»، وعندما أراد الخروج قال للقرويّين: «إن استعنتم عليّ كما استعنتم على عبدالعزيز جلستُ وصبرت لكم»، ولكنّهم زهدوا فيه، وقد أجمع النّقاد على تضعيفه، بل إنّ منهم من اتّهمه بالوضع[2].

ودخلها عبدالله بن المغيرة الكوفي، وقد سمع منه جماعة من أهلها، منهم سليمان بن عِمران (ت ٢٧٠) ولهم عنه كتاب يروونه، ويبدو أنّه أطال المقام بالقيروان حتّى سُمّيت بعض الأسواق باسمه، وهو يذهب إلى تحليل النّبيذ الشّديد، «أما حديثه فمستوى حديث الحُذّاق بالحديث» كما قال أبو العرب[3].

وقدم إليها زَيد بن بِشر الأَزْدِيّ المصري (ت ٢٤٢) فارّاً من المحنة بخلق القرآن، ولم يطل مقامه بها، ثمّ انتقل إلى مدينة تونُس فأَوْطَنَها، وكان له حظّ من

---

(١) انظر: ط أبي العرب مح ١٥٨، ١٨٢، التهذيب ٣٦٣/٦، التقريب ٥١٣/١، الميزان ٦٣٦/٢، الشجرة ٥٧/١، الخلاصة ٢٤١، الضعفاء الكبير للعقيلي ١٩/٣، الكامل في الضعفاء ٢٠١٦/٥ في ترجمة عطاف بن خالد.

(٢) انظر: ط أبي العرب مح ١٨٢، المدارك ٥٧٨/١، الميزان ٧٧/٢، اللسان ٤٨٥/٢، طبقات الفقهاء ١٥١، الديباج ١١٨، تنزيه الشريعة ٦١/١، الكامل في الضعفاء ١٠٧١/٣، الضعفاء الكبير ٨٧/٢، الكشف الحثيث ١٨٤.

(٣) انظر: ط أبي العرب مح ١٦١، وقد ترجم في اللسان ٣٦٥/٣ لعبد الله بن المغيرة، غير أنه مصري، كما جاء ذكره عرضاً في الميزان ٦٢٩/٢، وليس هناك ما يفيد أنه الذي معنا أو غيره، فإن كان هو فهو ضعيف خلافاً لما ذهب إليه أبو العرب؛ لأن النقاد فسروا جرحهم له بما يقتضي ذلك، فقد قال ابن حبان: يُغرب وينفرد، وقال العقيلي: يحدث بما لا أصل له، وقال ابن يونس: منكر الحديث، وقال الذهبي: ليس بثقة.

الحديث والفقه، فكان طلبة العلم بالقيروان يرحلون إليه في تونُس للسّماع منه[1].

ورحل إليها أحد أصحاب الإمام أحمد بن حنبل، وقد حدّث بها، وسمع منه النّاس، وقد أغفل المالكيّ تسميته[2].

واستوطنها من البغداديّين المحدّث الأديب إبراهيم الشَّيبَانِي (ت ٢٩٨)، وكان له بها آثار، وقد حدّث فيها بمسنده[3]، ومن البصريّين المحدّث الفقيه محمد بِسْطام الضّبّيّ (ت ٣١٣)، وكان كثير الكتب، واسع الرّواية، وقد سمع وحدّث بالقيروان، وأدخل إليها كتباً لم تكن معروفة عند أهلها[4].

وفي القرن الرّابع خفّت الرّحلة من المشرق إلى القيروان بسبب سيطرة العُبيديّين على إفريقيَّة وضغطهم على أهل العلم، وممّن دخلها في هذا القرن أبو زكريّاء عبدالرحيم بن أحمد بن نصر البُخاري، وقد صحب بعض علمائها، وكان من كبار المحدّثين، فقد قال عن نفسه: «لي ببخارى أربعة عشر ألف جزء حديث»، وقال عنه المَقَّري: «لم يدخل الأندلس من أهل المشرق أحفظ منه للحديث، وهو ثقة عدل...»[5].

كما رحل إليها محمد بن أحمد بن عبدالله المعروف بابن الأَزْرَق (ت ٣٨٥)، وذلك سنة ٣٤٣ هـ، وكان من أهل الحديث، فسجنه الرّافضة لمدّة ثلاثة أعوام وسبعة أشهر، فلمّا خرج غادرها إلى الأندلس فاستوطنها وحدث بها[6].

---

(١) انظر: ط أبي العرب مح ٢٥٥، الرياض ١/٣٩٠، المدارك ٤/٩٨، طبقات الفقهاء ١٥٧.

(٢) انظر: الرياض ١/٤٤٢.

(٣) انظر: ترجمته رقم ١ في المهاجرين.

(٤) انظر: ط الخشني ١٦٨، المدارك ٥/١١١، الرياض ٢/١٨١، الديباج ٢٤٤، الفكر السامي ٢/١٠٤.

(٥) انظر: نفح الطيب ٣/٦٢ - ٦٤.

(٦) انظر: تاريخ ابن الفرضي ٢/١١٧.

أمّا القرن الخامس فلم أعثر على من رحل فيه إلى القيروان من محدّثي المشرق، بينما يوجد من دخلها من المشارقة من غير أهل الحديث، منهم أبو طاهر البغدادي، والحسين بن عبدالله الأزدي (ت ٤٢٣)، وهما من علماء الفقه والأصول والكلام[١].

٢ ـ الرّحلة من الأندلس إلى القيروان:

بالرّغم من توتّر العلاقات السّياسِيَّة بين حكومتي الأندلس وإفريقيّة، وبُعد المسافة بينهما فقد عرفت الرّحلة من الأندلس إلى القيروان نشاطاً كبيراً، وكانت العلاقات العلميّة والصّلات الثّقافيّة شديدة المتانة بينهما، بسبب كثرة الوافدين على القيروان من الأندلسيّين الذين استهواهم ازدهار الحياة العلميّة بها، حتّى إنّه يندر أن يخرج أندلسيّ للحجّ أو للطّلب ولا يَمرّ بعاصمة إفريقيَّة للتزوّد من علمائها، وممّا ساعد على ذلك وحدة المذهب الفقهي بينهما؛ فإنّ المذهب المالكي كان دعامة الحياة العلميّة في إفريقيّة والأندلس[٢]، كما أنّ وجود القيروان في طريق حجّ الأندلسيّين ورحلتهم كان ممّا هيّأ لهم سبيل المرور عليها والاستفادة من علمائها.

وإذا كان الأخذ هو الغالب على من دخل القيروان من الأندلسيّين، فإنّ منهم من قام بالعطاء فحدّث بها، وخاصة بعد عودتهم من رحلتهم إلى المشرق واكتسابهم لكثير من العلوم، فإنّهم أوّل من يلقونها في القيروان، كما أنّ منهم من طاب له المقام بها فاستوطنها وجلس فيها للتّعليم، فأسهم هذا وذاك في إثراء الحياة العلميّة عامّة والحديثيّة خاصة.

وقد كان الأندلسيّون الذين ارتحلوا إلى القيروان من الكثرة بحيث يتعذّر إحصاؤهم في مختلف الاختصاصات، أمّا من كانت له منهم عناية بالحديث

---

(١) انظر مثلاً: تبيين كذب المفترى ١٢٠، ١٢١.

(٢) انظر: الأغالبة ـ سياستهم الخارجية ١٤١.

ورحلة في طلبه فقد تتبعّتهم في مختلف المصادر الإفريقيّة والأندلسيّة، ووجدت أنّ عددهم يصل إلى ١١٥ رجلاً[١]، وسأكتفي بذكر نماذج يعرف من خلالها أهمّيّة هذه الرّحلة بالنّسبة للأفارقة والأندلسيّين معاً.

فلقد ابتدأت رحلة الأندلسيّين إلى القيروان في آخر القرن الثّاني، حيث قصد جماعة منهم يحيى بن سلاّم (ت ٢٠٠)[٢]، وأسد بن الفُرات (ت ٢١٢)[٣]، والإمام سَحنون (ت ٢٤٠)[٤]، ومنهم من حدّث بها وأقام فيها منذ هذا العهد المبكّر، مثل إبراهيم بن زُرْعَة (ت ٢١٢) شيخ الإمام سَحنون[٥].

وفي القرن الثّالث تكثّفت الرّحلة، وحلّ بالقيروان كبار محدّثي الأندلس، منهم: بقيّ بن مَخْلَد (ت ٢٧٦) محدث الأندلس ومُسنِدها، صاحب التّفسير والمسند اللّذين لا نظير لهما، فإنّه سمع من كبار محدّثي المشرق كالإمام أحمد بن حَنْبَل (ت ٢٤١) ويحيى بن معين (ت ٢٣٣)، ثم دخل القيروان فسمع بها من الإمام سَحنون (ت ٢٤٠)، ومن عون بن يوسف الخُزاعي المحدّث (ت ٢٣٩)، وجماعة غيرهما، كما حدّث فيها ببعض مرويّاته، فقد سمع منه محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦) في بيت سَحنون، وسَحنون حاضر[٦].

---

(١) انظر مثلاً: بغية الملتمس ١١٢، ١١٤، ١٢٣، ١٣٦، ١٩٥، الجذوة ١٦٤، ٢٣٧، ٢٦٦، تاريخ ابن الفرضي ١/١٩، ٣٨، ٥٥، ٢٨٨، ٤٠٤، ٢/٦١، ١٨٢، الصلة ١/٢٥٣، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٦، ٣٠١، ٣٠٧، ٢/٤١٨، ٤٨٩، ٥٠١، ٥٠٨.

(٢) انظر: فهرسة ابن خير ٥٦، ٥٧.

(٣) انظر: ترجمته رقم ٤ في المحدثين.

(٤) انظر مثلاً: المدارك ٣/٤٨، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، البغية ١٩٥.

(٥) انظر: بغية الملتمس ٢٠٤، تاريخ ابن الفرضي ١/١٦.

(٦) انظر: تاريخ ابن الفرضي ١/١٠٧، جذوة المقتبس ١٦٧، بغية الملتمس ٢٢٩، سير أعلام ١٣/٢٨٥، الصلة ١/١١٦، نفح الطيب ٢/٤٧، ٥١٨، تذكرة الحفاظ ٢/٦٢٩، طبقات الحفاظ ٢٨١، عدد ما لكل واحد من الصحابة من الحديث ٣٣، طبقات المفسرين للسيوطي ٤٠.

ودخلها مثيله الإمام محمد بن وَضَّاح (ت ٢٨٦)، المحدّث الجليل، العالم بالحديث ورجاله وعلله، وسمع بها من الإمام سَحنون، وعون بن يوسف المحدّث، وروى عن موسى بن معاوية الصُّمَادِحِي (ت ٢٢٥)[1] مصنّف وكيع بن الجرّاح، وأدخله إلى الأندلس[2].

وبهذين الإمامين اللّذين تعلّما بالقيروان فشت السّنّة في الأندلس وصارت دار حديث وإسناد[3].

ورحل إليها المحدّث الكبير محمد بن إبراهيم بن حَيُّون (ت ٣٠٥) صاحب الرّحلة المشرقيّة التي دامت خمسة عشر عاماً، سمع فيها من جماعة من علماء القيروان، وأخذ عنه كثير من أهلها، وقد وُصف بالإمامة في الحديث، وأنّه لم يكن بالأندلس أبصر بالحديث منه[4].

كما دخلها المحدّث الثّقة محمد بن عُبيد الله بن أيوب المعروف بالدّبّاج (ت ٣١٧)، وذلك إثر عودته من رحلته إلى المشرق، فنزل في أحد فنادقها، وجاءه كبار القرويّين فسمعوا منه، منهم الحافظ أبو العرب التّميمي (ت ٣٣٣)، وقد رأى الخُشَنِيّ سماعه مُثْبتاً في كتب القرويّين، يروونه عنه[5].

وسمع بها الحديث محدّث قُرْطُبَة محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم

---

(١) انظر: ترجمته رقم ٣٨ في المحدثين.

(٢) انظر: البغية ١٢٣، الجذوة ٨٧، تاريخ ابن الفرضي ٢/١٧، سير أعلام ١٣/٤٤٥، تذكرة الحفاظ ٢/٦٤٦، طبقات الحفاظ ٢٨٧، الشجرة ١/٧٦.

(٣) انظر: تاريخ ابن الفرضي ١/١٠٧، الشجرة ١/٧٦.

(٤) انظر: تاريخ ابن الفرضي ٢/٢٨، نفح الطيب ٢/٥٢، تذكرة الحفاظ ٣/٧٨١، طبقات الحفاظ ٣٣٠.

(٥) انظر: تاريخ ابن الفرضي ٢/٣٩، ط أبي العرب مح ٩٢، وهناك اشتباه بينه وبين محمد بن عبيد الجزيري لاشتراكهما في الرحلة والشيوخ، والسماع منهما بالقيروان، انظر: تاريخ ابن الفرضي ٢/٢٩.

(ت ٣٢٧ أو ٣٢٨)، وقد كانت رحلته سنة ٢٩٤ هـ، فأخذ عن جماعة من علماء القيروان، واختصّ بمحدّثها مالك بن عيسى (ت ٣٠٥)، ولم يكن بقُرْطُبَة أكثر حديثاً منه في زمانه[1].

كما رحل إليها الإمام الحافظ، الرّحّالة، صاحب التّصانيف، قاسم بن أَصْبَغ (ت ٣٤٠)، وقد سمع بها مسند مُسَدَّد بن مُسَرْهَد (ت ٢٢٨)، أخذه عن بَكر بن حمّاد (ت ٢٩٦)، كما سمع من محدّثها أحمد بن يزيد المعلّم (ت ٢٨٤)، وغيرهما[2].

وفي القرن الرّابع ازدادت كثافة رحلة الأندلسيّين إلى القيروان، وخاصّة بعد خروج العُبيديّين إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ، وكان أكثر تتلمذهم على أبي محمد عبدالله بن أبي زيد (ت ٣٨٦)، وأبي الحسن علي بن محمد القابِسي (ت ٤٠٣).

ومن المحدّثين الذين رحلوا في هذا القرن قاسم بن مَسْعَدْة البَكْرِي (ت ٣١٧)، وقد كان له بصر بالحديث وتمييز الرّجال، قدم القيروان أوّل القرن الرّابع، فسمع بها من مالك بن عيسى القفصي (ت ٣٠٥)، وتدبّج[3] بأبي العرب، قال أبو العرب: «جاءني قاسم بن مَسْعَدة ليسمع منّي فرأيت عنده علماً بالحديث وتمييزاً للرّجال فأخذت عنه...»[4]. وفي سنة ٣١٢ هـ رحل إليها المحدّث محمد بن عبدالله اللَّيْثِيّ (ت ٣٣٩)، فسمع من أبي بكر محمد بن اللَّبَّاد (ت ٣٣٣) وجماعة غيره[5].

---

(١) انظر: تاريخ ابن الفرضي ٤٨/٢، جذوة المقتبس ٨، نفح الطيب ٦٢/٢، البغية ١١٣، تذكرة الحفاظ ٨٤٤/٣، طبقات الحفاظ ٣٥١.

(٢) انظر: تاريخ ابن الفرضي ٤٠٦/١، البغية ٤٣٣، نفح الطيب ٤٧/٢، تذكرة الحفاظ ٨٥٣/٣، الديباج ٢٢٢، طبقات الحفاظ ٣٥٤.

(٣) من التّدبيج، والمدبّج هو أخذ كل من الراويين عن الآخر وإن تفاوتت الأسنان، انظر: الباعث الحثيث ١٩٧، علوم الحديث ٢٧٨، التدريب ٢٤٦/٢، ٢٤٧.

(٤) تاريخ ابن الفرضي ٤٠٤/١، وانظر: البغية ٤٣٦.

(٥) انظر: تاريخ ابن الفرضي ٦١/٢، البغية ٧٨.

ودخلها أحمد بن سعيد بن حَزْم الصَّدَفِيّ (ت ٣٥٠)، وكان ممّن عني بالآثار والسّنن، وجمع الحديث، وبرز في علم الرّجال وألّف في المحدّثين كتاباً بلغ فيه الغاية، وقد سمع بها محمد بن اللَّبَّاد وأحمد بن نصر وغيرهما[١].

ومن أشهر من ارتحل إليها في هذه المرحلة: أبو محمد عبدالله بن إبراهيم الأَصِيلِيّ (ت سنة ٣٩٢) الإمام الحافظ المحدّث المتفنّن، وقد دخلها حوالي سنة ٣٥٠ هـ فسمع من شيوخها ولازمهم، مثل علي بن محمد بن مسرور (ت ٣٥٩)، وعبدالله بن أبي زيد (ت ٣٨٦)، وغيرهما، وفي سنة ٣٥٢ هـ صاحب الإمام القابِسي في رحلته إلى المشرق، وسمعا معاً صحيح البُخاري، وكان الأَصِيلِيّ هو الذي ضبط للقابِسيّ سماعه[٢].

ورحل إليها المحدّث الحافظ عبدالله بن محمد بن يوسف، المعروف بابن الفَرَضِيّ (ت ٤٠٣)، صاحب التّصانيف المتميّزة في رواة العلم بالأندلس، ورجال الحديث عامّة، وقد سمع بها من ابن أبي زيد (ت ٣٨٦)، والقابِسي (ت ٤٠٣)، وتميم بن أبي العرب (ت ٣٧١)، وغيرهم[٣].

ودخلها الإمام المحدّث محمد بن يحيى بن الحذّاء التَّميمي (ت ٤١٦)، وسمع من جماعة من شيوخها، منهم: أبو محمد بن أبي زيد (ت ٣٨٦)، وقد لازمه حتّى حمل عنه مصنّفاته ومرويّاته، ثمّ رحل إلى المشرق، وعند عودته بقي مدة بالقيروان «مستكثراً من مشايخه، متفقّها عندهم في الحديث والمذهب» كما في المدارك، ولعلّه حدّث بها أيضاً بعد أن تأهّل لذلك؛ إذ بلغت عدّة شيوخه آنذاك ستّين شيخاً[٤].

---

(١) انظر: تاريخ ابن الفرضي ١/٥٥، البغية ١٦٩.

(٢) انظر: البغية ٣٢٧، الجذوة ٢٤٠، الشجرة ١/١٠٠، المدارك ٣/٦٤٢.

(٣) انظر: بغية الملتمس ٣٢١، جذوة المقتبس ٢٣٧، الصلة ١/٢٤٦، الشجرة ١/١٠٢، مقدمة كتاب تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس، تذكرة الحفاظ ٣/١٠٧٦، الديباج ١٤٣، طبقات الحفاظ ٤١٩.

(٤) انظر: البغية ١٣٦، الصلة ٢/٤٨٠، المدارك ٣/٧٣٣، الشجرة ١/١١٢.

وفي سنة ٣٩٧ هـ رحل إليها المحدّث المكثر، والمقرىء المتقدّم، الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد الدّاني (ت ٤٤٤)، وقد مكث فيها أربعة أشهر، وسمع من جماعة من شيوخها، واختص بالإمام القابِسي (ت ٤٠٣) ولازمه وأكثر الرّواية عنه، فكان بعد ذلك يحدّث عنه في الأندلس ويطنب في الثّناء عليه[١].

وفي القرن الخامس استمرّت رحلة الأندلسيّين إلى القيروان على نفس النّسق الذي كانت عليه في المرحلة السّابقة، وخاصّة في مطلع هذا القرن، حتى إنّ الإمام القابِسي (ت ٤٠٣) قد خصّص عَلِيَّة منزله لإقامة الطّلبة الغرباء وكان أكثرهم من أهل الأندلس[٢].

ومن مشاهير المرتحلين في هذه الفترة حاتم بن محمد الطَّرَبُلْسِيّ القُرْطُبِيّ (ت ٤٦٩)، الإمام المحدّث المتقن، صاحب الرّحلة الواسعة، والمرويّات الغزيرة، مع الحفظ والضّبط، وقد دخل القيروان سنة ٤٠٢ هـ، فبقي عند الإمام القابِسي ولازمه في السّماع والرّواية لمدّة سنة كاملة حتّى حمل عنه أكثر مصنّفاته كالملخّص، وسماعاته مثل صحيح البخاري وغير ذلك[٣]، ولما توفّي القابِسي سنة ٤٠٣ هـ مضى الطَّرَابُلْسِيّ إلى المشرق للسّماع من علمائه، ثمّ عاد إلى القيروان سنة ٤٠٤ هـ فأقام بها يقابل كتبة، وينتسخ سماعاته، من أصول القابِسي، فلمّا فرغ من ذلك جلس إلى من بها من العلماء فأخذ عن الحافظ أبي عمران الفاسي (ت ٤٣٠) التّاريخ الكبير للبخاري[٤] وغيره، وسمع مسند أسد بن موسى من المحدّث محمد بن عيسى بن مَنَاس القروي[٥]، وروى عن أبي

(١) انظر: الصلة ٢/٣٨٦، نفح الطيب ٢/١٣٥، البغية ٣٩٩، الديباج ١٨٨، تذكرة الحفاظ ٣/١١٢٠، طبقات الحفاظ ٤٢٨.

(٢) انظر: الصلة ١/٢٦٦، سيرة القيروان ٧٧.

(٣) انظر: فهرسة ابن خير ٩٠، ١٤٥، ١٤٨.

(٤) انظر: فهرسة ابن خير ٢٠٥.

(٥) انظر: فهرسة ابن خير ١٤٢.

عبدالملك مروان بن علي البُوني (ت قبل سنة ٤٤٠) كتابه الذي شرح فيه الموطّأ[1]، وغيرهم، ولعلّه حدّث فيها ببعض ما حمله في رحلته مثل صحيح مسلم ومسند أحمد[2]، ثم عاد إلى الأندلس ونشر فيها علماً كثيراً ممّا رواه عن شيوخه القرويّين وغيرهم، وقد ثابر على القعود للسّماع والصّبر عليه على كبر سنّه، فقد طال عمره حتّى ألحق الأحداث بالشّيوخ[3]، وقد صحبه في رحلته المحدّث عبدالله بن محمد الجَدَلِيّ (ت ٤٤٤) وسمع بالقيروان من القابِسي صحيح البُخاري وغيره[4].

وهاجر إليها مروان بن علي الأسدي (ت قبل سنة ٤٤٠) وهو فقيه محدّث حافظ، سمع بالقيروان من كبار شيوخها مثل القابِسي، وأحمد بن نصر الدّاودي، وغيرهما، وسرعان ما تأهّل لنشر العلم فجلس بها للتّحديث، وألّف شرحاً على الموطّأ أخذه عنه النّاس، وشاعت روايته في إفريقيَّة والأندلس. وقد انتقل إلى بُونة القيروان وبها توفّي[5].

ورحل إليها المحدّث الشّهير هشام بن سعيد الخَيْر بن فَتْحُون (ت بعد ٤٣٠)، وتتلمذ بها على المحدّث أبي عِمران الفاسي (ت ٤٣٠)، وإبراهيم بن قاسم المِكْنَاسي، وَعَتِيق بن إبراهيم، ومحمد بن عيّاش وغيرهم[6].

وعبدالله بن بَكْر القُضَاعِيّ (ت ٤٣١)، وهو محدّث ثقة، دخلها عندما عاد من رحلته إلى المشرق، وقد سمع الحديث بمكّة ومصر، ثمّ سمع بالقيروان من المحدّث أبي عبدالله محمد بن عيسى بن مَنَاس وغيره، ولعلّه حدّث فيها بما سمعه في رحلته[7].

---

(١) انظر: فهرسة ابن خير ١٠٠، ١٤٠.

(٢) انظر: الصلة ٢/٥٨١، فهرسة ابن خير ٨٨.

(٣) انظر: الصلة ١/١٥٤، البغية ٢٥٤، الشجرة ١/١٢٠، سير أعلام ١٨/٣٣٦.

(٤) انظر: الصلة ١/٢٦٦.

(٥) انظر: الجذوة ٣٢١، الصلة ٢/٥٨١، البغية ٤٤٦، الشجرة ١/١١٤.

(٦) انظر: البغية ٤٧١، الجذوة ٣٤٢.

(٧) انظر: الصلة ١/٢٦٠.

ورحل إليها عمر بن سَهْل بن مسعود اللَّخْمِيّ (ت بعد ٤٤٢) وسمع بها من القابِسي، وأبي عِمران الفاسي، وأبي عبدالملك مروان بن علي الأسدي وغيرهم، «وكان إماماً في الحديث وعلومه»[1].

وهكذا اتّسمت الرّحلة الأندلسيّة القيروانيّة بالكثافة وكثرة الفائدة بحيث أسهمت في نشر مختلف العلوم وإشاعة الحديث وعلومه ببلاد الأندلس عن طريق المصنّفات العديدة التي أخذها الأندلسيّون عن محدّثي القيروان، مثل: مصنّف مُسَدَّد بن مُسَرْهَد، ومصنّف وكيع بن الجرّاح، ومسند أسد بن موسى، وصحيح البُخاري، وتاريخه الكبير، وغير ذلك كما تقدّم قريباً، كما أنّ هذه الرّحلة قد أسهمت في إشاعة الحديث بإفريقيَّة أيضاً؛ إذ إنّ كثيراً من محدّثي الأندلس كان يدخل القيروان بعد أن يسمع الحديث بالمشرق، أو يدخلها مرّتين: مرّة في ذهابه وأخرى عند عودته، فيحدّث فيها بما سمعه في المشرق، مثل ما فعل بَقِيّ بن مَخْلَد (ت ٢٧٦)، ومحمد بن إبراهيم بن حَيُّون (ت ٣٠٥)، ومحمدّ بن عُبيد الله بن الدَّبَّاج (ت ٣١٧)، وقاسم بن مَسْعدة (ت ٣١٧) وغيرهم.

ثالثاً: ثمرات الرّحلة وأثرها في الحديث:

لقد تضمّن العرض السّابق للرّحلة بعض إشارات إجماليّة لثمراتها، وفي هذا المبحث سأُفصّل القول في ذلك، حتّى تكتمل الصّورة على الوجه المطلوب، فإنّ الرّحلة تعتبر من أهم دعائم الحياة العلميّة بإفريقيَّة، ولقد كان لها أثر واضح في ازدهار السُّنّة وعلومها بالقيروان، التي كان بعدها عن مواطن العلم وحواضر العالم الإسلاميّ من الدّوافع الأساسية لتحمّل مشاق الرّحلة في سبيل تحصيل الحديث من كبار المشتغلين به، ومعرفة أحوال رجاله، وحمل مصنّفاته، ثمّ العودة بذلك لنشره وروايته.

---

(١) انظر: الصلة ٣٧٨/١.

ويمكن أن تتّضح أبرز ثمرات الرّحلة وأثرها في الحديث بإفريقيّة من خلال النّقاط التّالية:

أ ــ تحصيل الحديث وشيوع روايته:

إنّ التّحمّل المباشر للحديث عن رواته ومصنّفيه ثمّ أداء ذلك ونشره بين طلاّبه يعدّ من أسمى ثمرات الرّحلة، وأعظم فوائدها، وذلك عامّ في كلّ الرّحلات الحديثيّة التي يقوم بها علماء الأمصار[1]، وأخذ القرويّون من ذلك بنصيب وافر فقد قصدوا كبار محدّثي المشرق منذ عهد التّابعين، ودوّنوا عنهم الأجزاء الحديثيّة التي شاعت روايتها بالقيروان[2]، كما فعل خالد بن أبي عمران (ت ١٢٥ أو ١٢٩)[3]، وعبدالرحمٰن بن زياد الإفريقي (ت ١٦١)[4] وغيرهما، ولم يجلس عبدالله بن فَرُّوخ مُحدّثاً وناشراً للسُّنَّة في جامع عُقبة إلاّ بعد أن رحل وسمع من كبار محدّثي المشرق مثل: الإمام مالك (ت ١٧٩)، وسفيان الثّوري (ت ١٦١)، والأعمش (ت ١٤٧)[5]، وغيرهم.

وهذا أمر ظاهر من خلال نماذج الرّحلة المتقدّمة قريباً، وسيظهر أكثر من خلال التّعريف بالمحدّثين في الباب الثّالث، فقد قلّ من يتصدّر مجالس الحديث قبل أن يرحل للأخذ عن رجاله.

وتزداد هذه الثّمرة وضوحاً حين نعرف المصنّفات الحديثيّة العديدة التي دخلت القيروان عن طريق الرّحلة، وهي تحصر لأوّل مرّة في هذا البحث

---

(١) انظر: الرحلة في طلب الحديث ١٨، الحديث والمحدثون ١١٣.

(٢) انظر: مبحث حركة التّصنيف الحديثي في هذه الرسالة.

(٣) انظر: ط أبي العرب مح ٢٤٥، ٢٤٦، الرياض ١٦٣/١.

(٤) انظر: ط أبي العرب ٣٠، دراسات في الحديث النبوي ١٨٤/١.

(٥) انظر: الرياض ١٧٧/١، المعالم ٢٣٩/١، المدارك ٣٤٠/١.

بحمد الله تعالى، وسأرتّبها بحسب أوّليّتها في الدّخول؛ إذ إنّ ذلك ممّا يساعد على إدراك تطوّر نشر السّنّة بإفريقيّة:

١ ـ موطّأ الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩): يعتبر الموطّأ برواية عليّ بن زياد أوّل مصنّف حديثيّ ظهر بإفريقيّة، وهي أوّل رواية عُرفت للموطّأ خارج المدينة المنوّرة[١]، وأوّل من أدخله علي بن زياد (ت ١٨٣)[٢]، محدّث إفريقيّة وفقيهها، وذلك حوالي سنة ١٦٠ هـ، وقد نشره بها فأخذه عنه علماء القيروان، ثمّ رحل كثير منهم لسماعه من مؤلّفه مباشرة[٣]. وقد اشتدّت حفاوة القرويّين بالموطّأ رواية وحفظاً كما سيأتي تفصيله في أوّل مباحث الرّواية.

٢ ـ جامع سفيان الثّوري (ت ١٦١) الكبير، الكثير الآثار.

٣ ـ جامعه الأوسط، وهو آثار كلّه، وقد كان شرف إدخالهما من نصيب عليّ بن زياد أيضاً[٤].

٤ ـ جامع عبدالله بن وهب (ت ١٩٧)، وقد أدخله الإمام سَحنون (ت ٢٤٠)[٥]، وقام بنشره، وكان كثير التّداول بين القرويّين حتّى اعتمدوه في مصنّفاتهم[٦].

٥ ـ كُتُب المحدّث أنس بن عياض (ت ٢٠٠)، وقد سمعها أهل القيروان

---

(١) انظر: مقدمة موطأ مالك برواية ابن زياد ٩.

(٢) انظر: الشجرة ١/٦٠، الرياض ١/٢٣٤، الإكمال ١/٥٢٤.

(٣) راجع ما تقدم قريباً عن رحلة علي بن زياد، وانظر: توير الحوالك ١/١٠، ١١.

(٤) انظر: ط أبي العرب ٢٥١، المدارك ٣/٣٢٦، الإكمال ١/٥٢٤، وقد أدخل عنبسة بن خارجة الغافقي جامعاً للثوري غير أن في المصادر اضطراباً في تحديده. انظر: الرياض ١/١٤١، ط أبي العرب ٥٠، ٧٢.

(٥) انظر: الرياض ١/٣٧٣، وراجع ترجمة سحنون رقم ١٣ في المحدثين.

(٦) انظر مثلاً: المدونة ١/٢، ٣، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، الرياض ١/٧٤، ٩٦، ١١٩.

من محمّد بن تميم القَفْصِيّ (ت ٢٤٩)[١]، الذي يبدو أنّه أخذها عن مؤلّفها مباشرة، لأنّه سمع منه كثيراً كما قال القاضي عِياض[٢]، وحدّث بها حِمَاس بن مَرْوَان (٣٠٣)[٣]، ولعلّه سمعها من القفصي أو غيره؛ لأنّه لم يدرك أنس بن عياض (ت ٢٠٠) فإنّه ولد سنة ٢٢٢ هـ[٤].

٦ ــ كتاب الحافظ أبي الأحوص سلّام بن سُليم (ت ١٧٩)[٥]، أدخله المحدّث عباس بن الوليد الفارسي (ت ٢١٨)، ونشره في إفريقيَّة، وكان يحدّث به من حفظه[٦].

٧ ــ مصنّف وكيع بن الجرّاح (ت ١٩٧)، رواه موسى بن معاوية الصُّمَادِحِي (ت ٢٢٥) وعنه انتشر في إفريقيَّة والأندلس[٧].

٨ ــ كتاب السّنّة للإمام الحافظ عبدالرحمٰن بن مَهْدي (ت ١٩٨)، وقد أدخله موسى بن معاوية أيضاً[٨].

٩ ــ مسند مُسدَّد بن مُسَرْهَد (ت ٢٢٨)، وقد أدخله المحدث بَكْر بن حَمّاد (ت ٢٩٦)، قبل سنة ٢٢٤ هـ، وعنه انتشر في القيروان وبلاد الأندلس[٩].

١٠ ــ مسند أسد بن موسى المعروف بأسد السّنّة (ت ٢١٢)، وقد أخذه

---

(١) انظر: ط الخشني ١٦٨.
(٢) المدارك ١٩٢/٤.
(٣) المعالم ٩٧/٢.
(٤) المدارك ٧٧/٥.
(٥) ثقة متقن، له نحو من أربعة آلاف حديث. الكاشف ٣٣٠/١، التقريب ٣٤٢/١.
(٦) انظر: الرياض ٢٤٨/١، ط أبي العرب ٢٥٤.
(٧) انظر: فهرس ابن عطية ٦٤، فهرسة ابن خير ١٢٦، ١٢٧، الغنية ٨٧.
(٨) انظر: المدارك ٤٠٣/١.
(٩) انظر: البغية ٤٣٣، وراجع ترجمته رقم ٢ في المهاجرين.

يحيى بن عمر (ت ٢٨٩) عن نصر بن مرزوق عن مؤلفه وأدخله إلى القيروان حوالي سنة ٢٢٥ هـ، وعنه انتشر في بلاد المغرب[١].

١١ ــ مسند محمد بن سنجر الجُرْجَانِيّ الحافظ (ت ٢٥٨)، وقد رواه عنه المحدّث عيسى بن مسكين (ت ٢٩٥)، وأدخله إلى القيروان بُعيد وفاة ابن سنجر[٢]، وقام بنشره في القيروان، وروى من طريقه في بلاد الأندلس[٣]، وهو من أهمّ مصادر المالكي في رياض النّفوس[٤].

وقد رواه عن ابن سنجر محدّث قرويّ آخر، ضاعت معالم شخصيّته حيث لم أجد له ذكراً في غير البيان المغرب، وهو أحمد بن يحيى السَّهْمِيّ (ت ٣٠٩)[٥].

١٢ ــ سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتَانِيّ (ت ٢٧٥)، وقد رواها من الأندلسيّين قاسم بن أَصْبَغ (ت ٣٤٠)، وكان له استقرار بالقيروان، فلعلّه حدّث بها هناك، وقد دخل القيروان بعد سنة ٢٧٦ هـ[٦]، ثمّ أدخلها من القرويّين أبو محمّد مكّي بن أبي طالب، وكانت رحلته الأولى سنة ٣٧٦ هـ أو سنة ٣٧٧ هـ[٧].

وقد استفاد منها القابِسيّ في الرّسالة المفصّلة لأحوال المتعلّمين[٨]، واعتمدها المالكي في الرّياض[٩].

---

(١) انظر: فهرسة ابن خير ١٤٢.
(٢) انظر: المدارك ٢٢٣/٣.
(٣) انظر: فهرسة ابن خير ١٤٢، وارجع ترجمته رقم ٢٧ في المحدثين.
(٤) انظر: الرياض ٧٥/١، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٣.
(٥) انظر: البيان المغرب ١٨٨/١.
(٦) انظر: الشجرة ٨٨/١، فهرسة ابن خير ١٢٤.
(٧) انظر: سير أعلام ٥٩١/١٧، الصلة ٥٩٧/٢، المعالم ١٧١/٣.
(٨) انظر: هذه الرسالة في كتاب التربية في الإسلام ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١.
(٩) انظر: الرياض ١٣٠/١.

١٣ ـ مسند بَقِيّ بن مَخْلَد الأندلسيّ (ت ٢٧٦)، وقد أدخله إلى القيروان صَمِيل بن إبراهيم الباجي في أواخر القرن الثّالث[١].

١٤ ـ مصنّف عبدالرّزّاق بن همام الصّنعاني (ت ٢١١)[٢]، وقد دخلها في آخر القرن الثّالث؛ فإنّ يوسف بن يحيى المَغَامّي القُرطبي نزيل القيروان (ت ٢٨٨) قد رحل إلى اليمن وسمع بها من أبي يعقوب إسحٰق بن إبراهيم الدَّبَري (ت ٢٨٥) صاحب عبدالرزّاق وراوي مصنّفه، فيُفترض أن يكون المصنّف من أوّل ما سمعه منه[٣]، ثمّ أدخله محمد بن أبي المنظور الأندلسي نزيل القيروان وقاضيها (ت ٣٣٧)[٤].

١٥ ـ سنن أبي عبدالرحمٰن أحمد بن شُعيب النسّائي (ت ٣٠٣)، وقد أُدخلت إلى القيروان في حياة مصنّفها، فقد رحل إليه مسرة بن مسلم سنة ٣٠٠ هـ[٥]، ثم سمعها الإمام القابِسي من حمزة بن محمّد الكِنَاني (ت ٣٥٧)، وأدخلها إلى القيروان سنة ٣٥٧ هـ[٦]. وقد أفاد منها في الرّسالة المُفصِّلة[٧].

ثمّ أدخلها محمد بن سَعدون القروي (ت ٤٨٥)، وعنه انتشرت في بلاد الأندلس[٨]، وقد اعتمدها المالكيّ في كتاب الرّياض[٩].

---

(١) انظر: تاريخ ابن الفرضي ١/٢٤١.
(٢) ثقة حافظ شهير، وكان يتشيّع، أخرج له الجماعة، التقريب ١/٥٠٥، التهذيب ٦/٣١٠.
(٣) انظر: الديباج ٣٥٦، الشجرة ١/٧٦، الأنساب ١١/٤١٨، تاريخ ابن الفرضي ٢/٢٠١، تراجم المؤلفين ٤/٣٤٥.
(٤) انظر: الشجرة ١/٨٤، وراجع ترجمته رقم ٦ في المهاجرين.
(٥) انظر: ترجمته رقم ٣٦ في المحدثين.
(٦) انظر: الشجرة ١/٩٧، الغنية ٨٥.
(٧) انظر: التربية الإسلامية ٨٣، ٢٨٦، ٢٨٩.
(٨) انظر: فهرسة ابن خير ١١٥.
(٩) انظر: الرياض ١/١١٥، ١٣٠.

١٦ ـ الجامع الصّحيح للإمام محمد بن إسماعيل البُخاري (ت ٢٥٦)، وقد نال الإمام القابِسي شرف إدخاله إلى بلاد المغرب لأوّل مرّة، وذلك سنة ٣٥٧ هـ[١]، وعنه انتشر في إفريقيَّة والأندلس[٢]، ثمّ سمعه آخرون كما سيأتي في فصل الرّواية.

١٧ ـ مسند حديث مالك للنَّسائي[٣].

١٨ ـ مسند حديث الأَوْزاعيّ (عبدالرحمٰن بن عمرو ت ١٥٧) لعبد الرحمٰن بن إبراهيم المعروف بدُحَيم. وهو في أربعة أجزاء[٤].

١٩ ـ المنتقى في السّنن المسندة لأبي محمد عبدالله بن علي بن الجَارُود[٥].

وقد أدخل جميعها الإمام القابِسيّ أيضاً، وعنه شاعت روايتها[٦].

٢٠ ـ صحيح الإمام مسلم بن الحجّاج القُشَيري (ت ٢٦١): لقد دخل هذا المصنّف الجليل إفريقيّة في النّصف الثّاني من القرن الرّابع، وليس في نهاية القرن الخامس كما ذهب إليه بعض الباحثين جازماً بأنّ أحداً من الأفارقة لم ينقل صحيح مسلم[٧]، بل إنّ المحدّث المقرىء مكّي بن أبي طالب القَيْسِيّ (ت ٤٣٧) قد قام بنقله وأشاع روايته في إفريقيّة والأندلس[٨]، وقد كانت رحلته الأولى سنة ٣٧٦ أو ٣٧٧ هـ، ورحلته الثّانية سنة ٣٨٧ هـ[٩].

---

(١) انظر: الشجرة ٩٧/١، المعالم ١٣٩/٣، الإمام المازري ٣٢.

(٢) انظر: فهرسة ابن خير ٩٧، ٩٨، الصلة ٢٦٦/١، مشارق الأنوار ٣٦/١، ٣٨، الغنية ٣٣، وارجع ترجمة القابسي رقم ٢٤ في المحدثين.

(٣)، (٤)، (٥)، (٦) انظر: فهرسة ابن خير ١٤٥، ١٤٨، ١٢٣.

(٧) انظر: «أبو عبدالله الأبي وكتابه الإكمال» ١٠٦، ١٠٧.

(٨) انظر: فهرسة ابن خير ١٠٠، الصلة ٥٩٧/٢.

(٩) انظر: سير أعلام ٥٩١/١٧، المعالم ١٧١/٣.

كما سمعه حاتم بن محمد الطَّرَابُلْسِي (ت ٤٦٩) سنة ٤٠٣ هـ بمكّة[١]، وقدم القيروان سنة ٤٠٤ هـ وأطال المقام بها قبل أن ينتقل إلى الأندلس[٢]، ومن المستبعد عدم تحديثه فيها بصحيح مسلم وغيره من مرويّاته.

وأفاد المالكي منه في تصنيف كتاب الرّياض[٣]، كما توجد منه نسخة في مكتبة جامع القيروان[٤] من تحبيس خاتمة علماء القيروان المحدّث المقرىء الفقيه عبدالخالق بن عبدالوارث السُّيُورِي (ت ٤٦٠ أو ٤٦٢)[٥].

٢١ ـ سنن أبي عيسى محمد بن عيسى التّرمذي (ت ٢٧٩)، وقد أدخله الحافظ عثمان بن أبي بكر الصّفاقُسِي (ت حوالي ٤٤٤) قبل سنة ٤٣٦ هـ، ورواه عنه النّاس[٦]، وقد أدخل معه، جملة أخرى من المصنّفات الحديثيّة منها:

٢٢ ـ مسند أبي داود سليمان بن داود الطّيالسي (ت ٢٠٤) وقد قيل إنّه أوّل مسند صنّف في الإسلام[٧]، ولعلّ ذلك باعتبار موطنه، لوجود من سبقه إلى ذلك مثل أسد بن موسى (ت ٢١٢)[٨]، وقد تقدّم ذكر مسنده في رقم ١٠.

٢٣ ـ مسند أبي بكر عبدالله بن الزُّبير الحُمْيدِي (ت ٢١٩)[٩].

٢٤ ـ كتاب الأربعين حديثاً على مذاهب أهل السّنّة، للحافظ أبي نُعَيم أحمد بن عبدالله الأَصْبَهاني (ت ٤٣٠)[١٠].

---

(١) انظر: فهرسة ابن خير ١٠٠.
(٢) انظر: الصلة ١/١٥٥.
(٣) انظر: الرياض ١/١٣٠، ٢٠١، ٣٧٢.
(٤) انظر: سجل قديم ٣٦٢.
(٥) انظر عنه: الشجرة ١/١١٦، المدارك ٣/٧٧٠، المعالم ٣/١٨١. تراجم المؤلفين ٣/١١٦، الديباج ١٥٨.
(٦) انظر: فهرسة ابن خير ١٢١.
(٧) فهرسة ابن خير ١٤١.
(٨) انظر هذه المسألة في: التدريب ٢/١٥٤.
(٩) م. ن ١٤٤.
(١٠) م. ن ١٥٨.

٢٥ ـ كتاب الأربعين حديثاً على مذاهب الصّوفيّة لأبي نُعَيم أيضاً[١].

٢٦ ـ كتاب الحكم والأمثال المرويّة عن رسول الله ﷺ، وشرح ألفاظه التي لم يسبق إليها لأبي أحمد العَسْكَرِي[٢].

وهكذا كانت الرّحلة سبباً في دخول هذه المصنّفات، التي رُويت ودُرست بالقيروان، وعن طريقها انتقل كثير من هذ المؤلّفات إلى بلاد الأندلس، وكانت بهذا منطلقاً لازدهار الحياة العلميّة، وخاصّة في مجال الحديث وعلومه ببلاد إفريقيَّة، والمغرب.

ب ـ نقد الحديث وفقهه:

لقد نتج عن الرّحلة شيوع الأحاديث المقبولة، ومعرفة محدّثي القيروان لطرق نقد الأحاديث، وإدراك ما فيها من العلل، إن وجدت، فقد وُصف جماعة منهم بمعرفة علل الحديث مثل ربيع القَطَّان (ت ٣٣٣)[٣]، ولا شكّ أنّه أخذه عن مشايخه في رحلته الأولى التي خصّصها لسماع الحديث[٤]، والإمام القابِسي (٤٠٣) صاحب الرّحلة التي زادت عن الخمس سنوات[٥].

وقد ساعد على اكتساب القرويّين لهذه الفائدة أمور منها:

١ ـ تحمّلهم لأمّهات المصنّفات الحديثيّة بما تجمعه من رواية ودراية، ثمّ روايتها وتدارسها بالقيروان كالموطّأ، والصّحيحين، وبقيّة الكتب الستة إلاّ سنن ابن ماجه، والمسانيد والمصنّفات المختلفة كما تقدّم قريباً، وبتداول هذه الكتب شاعت الأحاديث الصّحيحة والحسنة بأسانيد القرويّين متّصلة إلى مصنّفي هذه الكتب، وتميّزت كثير من الأحاديث الضّعيفة. وكثير من هذ المصنّفات حافل بعلوم الرّواية والدّراية كما هو معلوم، ومن ذلك ما قاله ابن العربي عن كتاب

---

(١)، (٢) م. ن ٢٠٢.

(٣) انظر: الرياض ٣٢٣/٢.

(٤) انظر: المدارك ٣٢٥/٣.

(٥) انظر: ترجمته رقم ٢٤ في المحدثين.

سنن التّرمذي[1]: «... فيه أربعة عشر علماً فوائد: صنّف وذلك أقرب إلى العمل، وأسند، وصحّح، وأسلم، وعدّد الطّرق، وجرّح، وعدّل، وأسمى، وأكنى، ووصل، وقطع، وأوضح المعمول به، والمتروك، وبيّن اختلاف العلماء في الرّدّ والقبول لآثاره، وذكر اختلافهم في تأويله، وكلّ علم من هذه العلوم أصل في بابه وفرد في نصابه...».

٢ ـ اتّصال سندهم بكبار الحفّاظ والنّقّاد المشارقة، وحضور مجالسهم التي لم تكن تخلو من المذاكرة في نقد الأحاديث، والتّكلم على عللها المختلفة والتّنبيه عليها، ومعرفة الأحكام المستفادة منها مثل: الإمام مالك (ت ١٧٩) الذي تتلمذ عليه أكثر من ثلاثين رجلاً[2]، من القرويّين منهم البُهلول بن راشد (ت ١٨٣) الذي لازم مجلس مالك بن أنس مدّة فكان بعد ذلك يقول: «ما رأيت أنزع بآية من مالك بن أنس مع معرفته الصّحيح والسّقيم والمعمول به من الحديث والمتروك...»[3].

وسفيان الثّوري (ت ١٦١)، الذي أخذ عنه أكثر من ثلاثة عشر من محدّثي القيروان[4]، ومنهم من لازمه شهوراً عديدة، مثل عبدالله بن فَرُّوخ (ت ١٧٦) والبُهلول بن راشد (ت ١٨٣) وعبدالله بن غانم (ت ١٩٠)[5].

وسفيان بن عُيَينة (ت ١٩٨)، وقد أخذ عنه أكثر من ستّة من القرويّين[6]، وغيرهم ممّن له مقام معلوم في الكلام على علل الحديث وفقهها، والتّنبيه على وجوب رواية صحيح الحديث واجتناب سقيمه.

---

(١) عارضة الأحوذي ١/٥، ٦.

(٢) انظر: الحلل ١/٣/٧٧٥.

(٣) المدارك ١/٩٠.

(٤) انظر: ط أبي العرب مح ٩٥، ١٠٧، ١١٢، ١١٦، ١٢٦، ١٤٠، ١٥٠، ١٥٣، ١٦١، ١٧٣، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٥.

(٥) انظر: الرياض ١/٢١٦، ٢١٧.

(٦) انظر: ط أبي العرب مح ٤٧، ١٥٩، ١٧٣، ١٧٤، ١٨٤، ١٩٢، ٢٥٤.

وبِلُقيّ هؤلاء الجهابذة عرف المحدّثون القرويّـون هذا الفنّ، فقـد كانـوا ينبهـون على اختـلاف ألفـاظ الحـديث[1]، وعلى المـدلَّس[2]، والمُنكَـر[3]، والضّعيف[4]، ونحو ذلك من العلل، حرصاً على سلامة الحديث الشّريف وصحّته.

٣ ـ دخول بعض المصنّفات المساعدة على تمحيص الحديث، مثل صحيح مسلم بمقدّمته الجليلة النّافعة، المشتملة على جملة من علوم الحديث ووسائل صيانته من الدّخيل[5]، وكتاب تصحيف المحدّثين لأبي الحسن علي بن عمر الدّارقطني (ت ٣٨٥)، وقد أدخله المحدّث أبي عمران الفاسي (ت ٤٣٠) في مطلع القرن الخامس، وعنه انتشر في إفريقيَّة والأندلس[6]، وكتـاب تصحيح[7] المحـدّثين لألفـاظ الحـديث لأبي سليمـان حمـد بن محمـد الخـطّابي البُسّتِيّ (ت ٣٨٨)، وقـد أدخله الحافظ عثمـان بن أبي بكر الصَّفـاقُسي (ت ٤٤٤)[8]، وكتابي معرفة علوم الحديث والمدخل إلى معرفة الإكليل، كلاهما لأبي عبدالله الحاكم محمد بن عبدالله الحافظ النَّيْسابُوري (ت ٤٠٥)، وقد أُدخلا في بـداية القرن الخامس، أوَّلُهما عن طريق محمد بن سَعدون (ت ٤٨٥)[9] والثّـاني عن طريق الصَّفاقُسِي (ت حوالي ٤٤٤)[10].

جـ ـ معرفة أحوال الرّواة:

وهو مطلب مهم جليل؛ إذ عليه مدار التّمييز بين الصّحيـح والسّقيم من الحديث[11]، ولقد أفادت الرّحلة القرويّين في معرفة أحوال رواة الحديث، وذلك

---

(١) انظر: نفح الطيب ٢/٤٩.

(٢) انظر: ط أبي العرب ١١٩، المدارك ١/٩٣.

(٣) انظر: ط أبي العرب ١١١.

(٤) انظر: ط أبي العرب ٩٨، ٩٩.

(٥) انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ١/٤٧ - ١٤٤.

(٦) انظر: فهرسة ابن خير ٢٠٤، وراجع ترجمة أبي عمران رقم ٧ في المهاجرين.

(٧)، (٨) كذا ورد في الفهرسة، ولعله تصحيف، انظر: فهرسة ابن خير ١٩٠.

(٩)، (١٠) انظر: فهرسة ابن خير ٢٢٣، ٢٢٤، وكلاهما مطبوع.

(١١) انظر: الكفاية ٧٨، الرحلة في طلب الحديث ٢١.

عن طريق احتكاكهم بالنّقّاد، وحضورهم مجالس جهابذة علم الرّجال مثل: سليمان بن مِهْرَان الأعْمس (ت ١٤٨)[١]، واللّيث بن سعد (ت ١٧٥)[٢]، وهُشَيْم بن بَشِير (ت ١٨٣)[٣]، وعبدالله بن وهب (ت ١٩٧)[٤]، ووَكِيع بن الجَرَّاح (ت ١٩٧)[٥]، وعبدالرّحمٰن بن مَهْدي (ت ١٩٨)[٦]، وأبي الحسن أحمد بن عبالله العِجْلِيّ الكوفي نزيل طرابُلُس الغرب (ت ١٦١)[٧]، وأحمد بن شُعيب النَّسائي (ت ٣٠٣)[٨]، وغيرهم من المتكلّمين في الرجال، المقبول قولهم في الجرح والتّعديل. وكان القرويّون ينقلون عن هؤلاء الشّيوخ ما أفادوه منهم ممّا يتعلّق بأحوال الرّواة[٩].

وبالإضافة إلى ذلك، فقد قام القرويّون بإدخال جملة من المصنّفات، المتعلّقة بأحوال رواة الحديث، ونشروها في القيروان، ممّا زاد في توطيد دعائم

---

(١) انظر: الرياض ١/١٨٠، المدارك ١/٣٤٥، وراجع: المتكلمون في الرجال ٨٧، ذكر من يعتمد قوله ١٦٢.

(٢) انظر: الرياض ١/١٧٥، ٢٠٠، ٢٤١، وراجع: المتكلّمون في الرجال ٨٩، ذكر من يعتمد قوله ١٦٣.

(٣) انظر: المدارك ١/٤٧٤، وراجع: المتكلمون من الرجال ٨٩، ذكر من يعتمد قوله ١٦٤.

(٤) انظر: ط أبي العرب ٦٧، ١٠٠، ١٠٢، وراجع: المتكلمون في الرجال ٩٠، ذكر من يعتمد قوله ١٦٤.

(٥) انظر: ط أبي العرب مح ١٨٥، ٢٠٠، المعالم ٢/٥٢، وراجع: المتكلمون في الرجال ٩٠، ذكر من يعتمد قوله ١٦٤.

(٦) انظر: ط أبي العرب مح ١٨٥، ٢٠٠، وراجع: المتكلمون في الرجال ٩٠، ذكر من يعتمد قوله ١٦٧.

(٧) انظر: الديباج ٣١، ط أبي العرب مح ١٩١، وراجع: المتكلمون في الرجال ٩٧، ط الحفاظ ٢٤٦.

(٨) انظر: المدارك ٣/٥٣٤، وراجع: المتكلمون في الرجال ١٠١، ذكر من يعتمد قوله ١٨٥.

(٩) انظر: ط أبي العرب ٢٩، ٤٣، المدارك ٣١٤.

هـذا الفنّ، مثل تـاريخ يحيى بن معين (ت ٢٣٣)[١]، والتّـاريخ الكبيـر للإمـام محمـد بن إسمـاعيــل البُخـاري (ت ٢٥٦)[٢]، والأسمــاء والكنى لأبي أحمـد محمد بن محمد بن أحمد الحاكم الكبير (ت ٣٧٨)[٣]، وكتاب الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثّقة والسّداد الذين خرّج لهم أبو عبدالله البُخاري في صحيحه، لأبي نصر أحمد بن محمد الكَلاَبَاذِي الحافظ (ت ٣٩٨)[٤]، وجزء فيه من وافقت كنيتـه كنيـة زوجتــه من الصّحـابــة لأبي الحسن محمـد بن عبــدالله بن حَيْـوَة النَّيْسَابُورِيّ[٥] وغيرها.

د ـ علوّ الإسناد وتعدّد الطّرق:

لقد عني أهل الحديث بطلب الإسناد العالي واعتبروه من سنن السّلف[٦]، بل هو قُربة لما فيه من القُرْب إلى صاحب الرّسالة ﷺ، وقد أدرك القـرويّون أهمّيته ورحلوا في طلبه، فهذا أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الجِبْنِيَانِيّ (ت ٣٦٩) يقول: «نحن إذا بلغنا أنّ رجلاً ببلد هو أقرب إلى النّبيّ ﷺ بدرجة ضربنا إليه آباط الإبل، وقطعنا إليه المفاوز»[٧]، وقد صنّف في عوالي الحديث جماعة من القــرويين ممّن اتّسعت رحلتهم منهم أبـو عِمــران مـوسى بن عيسى الفــاسي (ت ٤٣٠)[٨]، وعثمان بن أبي بكر الصَّفَاقُسِيّ (ت حوالي ٤٤٤)[٩].

---

(١) المدارك ٣/٤٥٩، وقد صرّح بذكره، وانظر: ط أبي العرب ٢٧، وأبو العرب لم يصرح بذكره، غير أنه يفهم مما يردّده أبو العرب من اعتماده على كلام النقاد في الرواة. انظر مثلاً: ط أبي العرب ٣٣.

(٢) انظر: فهرسة ابن خير ٢٠٥.

(٣) انظر: فهرسة ابن خير ٢١٤.

(٤) انظر: فهرسة ابن خير ٢٢١.

(٥) انظر: فهرسة ابن خير ١٦٨.

(٦) انظر: الرحلة في طلب الحديث ٢٠، معرفة علوم الحديث ٥، ٧.

(٧) مناقب أبي إسحٰق ٥٨، أبو عبدالله الأبي ٩١.

(٨) الأعلام ٧/٢٧٨، الشجرة ١/١٠٦.

(٩) الشجرة ١/١٠٩، تراجم المؤلفين ٣/٢٦١.

وكان بعض القرويّين يسمعون من العائدين من الرّحلة، ثمّ يخرجون إلى المشرق فيدركون شيوخ شيوخهم، ويُعيدون عليهم سماع ما أخذوه في القيروان، وبذلك تعدّدت طرق كثير من المصنّفات مثل: الموطّأ[1]، وجامع سفيان الثّوري[2]، وصحيح البُخاري[3]، وغيرها، بالإضافة إلى علوّ إسناد هؤلاء المرتحلين إلى هذه المصنّفات.

هـ ـ دخول مصنّفات حديثيّة أخرى:

لقد نتج عن الرّحلة دخول مصنّفات أخرى غير ما تقدّم ذكره في الفوائد السّابقة، وقد أسهمت هذه المصنّفات في تنشيط الحركة الحديثيّة في القيروان، وتقدّم علوم السّنّة بها، ومن هذه المؤلّفات:

١ ـ رقائق الفُضَيل بن عياض (ت ١٨٧) وقد أدخلها الإمام سَحنون (ت ٢٤٠)[4].

٢ ـ السّيرة النّبويّة من تهذيب عبدالملك بن هشام المَعَافِرِيّ (ت ٢١٨)، كان يرويها عبدالله بن أبي زيد (ت ٣٨٦)[5]، وغيره[6].

٣ ـ مغازي محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧)، كانت تُروى بالقيروان في القرن الرّابع[7].

٤ ـ رقائق عبدالله بن المبارك (ت ١٨١)، أدخلها محمد بن مسرور العسّال (ت ٣٤٦)[8].

---

(١) انظر: موطأ مالك برواية ابن زياد ٧٣.

(٢) انظر: ط أبي العرب ٥٢، ٧٢، ٢٥١.

(٣) انظر: أبو عبدالله الأبي، وكتابه الإكمال ١٠٤، وانظر ما يأتي في مبحث دخول صحيح البخاري.

(٤) انظر: فهرسة ابن خير ٢٦٩.

(٥) انظر: سير أعلام ١١/١٧.

(٦) انظر: فهرسة ابن خير ٢٣٣.

(٧) انظر: كتاب المحن ١٤٦.

(٨) انظر: فهرسة ابن خير ٢٦٨.

٥ ـ الإعلام في شرح كتاب البُخاري.

٦ ـ المعالم في شرح سنن أبي داود.

٧ ـ تفسير الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ. وهذه الثّلاثة من تأليف أبي سليمان حَمْد بن محمّد الخَطّابي، وقد أدخلها عثمان بن أبي بكر الصَّفاقُسيّ قبل سنة ٤٣٦ هـ[١].

٨ ـ غريب الحديث، وغريب القرآن، في كتاب واحد لأبي عبيد أحمد بن محمد الهَرَوي (ت ٤٠١)[٢].

٩ ـ شرح غريب الحديث لأبي سليمان حَمْد بن محمد الخطّابي[٣]. وقد أدخلهما الصَّفاقُسي أيضاً.

وهكذا تبيّن لنا ما للرّحلة من الأثر في نشر الحديث بإفريقيّة، وأنّها كانت من أهمّ وسائل تحصيل الحديث وإشاعته وتمحيصه، وقد مكّنت محدّثي القيروان من مواكبة حركة تطوّر علوم السّنّة بالمشرق.

وفيما يلي إشارة سريعة إلى أهمّيّة الكتب كدعامة للحياة العلميّة بالقيروان، وأمّا تفصيل ذلك فهو مبسوط في مواضعه من البحث.

رابعاً: المصنّفات:

تعتبر المصنّفات من أهمّ أسس الحياة العلميّة بالقيروان وإفريقيَّة، كما هو الحال في غيرها من الأمصار: ففيها تُدوَّن وتُضبَط العلوم المختلفة، ويقرؤها الشّيوخ على الطّلاب مع الشّرح والبيان، أو يَعْرضها هؤلاء على أولئك، ويتوقّف على مدى صحّتها ضبطُ صاحبها وموقفُ العلماء من مرويّاته، وتُستعمل في المذاكرة والمدارسة والحفظ، ويُرجع إليها عند الحاجة كالاختلاف في مسألة

---

(١) انظر: فهرسة ابن خير ٢٠١.
(٢) انظر: فهرسة ابن خير ٦٩.
(٣) انظر: فهرسة ابن خير ١٩٠، الشجرة ١/١٠٩، الصلة ٢/٣٩٠.

علميّة، أو للتّأكّد من نقطة معيّنة، أو لمعرفة حكم شرعيّ، أو نصّ حديث، ونحو ذلك، وبالجملة فهي مدار رئيسي للحياة العلميّة.

وقد اهتمّ بها القرويّون أيّما اهتمام، فجلبوا منها الكثير خلال رحلاتهم العلميّة كما تقدّم قريباً، وكانت لهم عناية بضبط هذه الكتب وتقييد سماعاتهم بها وتواريخ سماعهم، من ذلك ما جاء في الصّفحة الأولى من كتاب السّرقة وقطع الطّريق المرويّ عن الإمام أبي حنيفة: «عن محمّد بن أَبَان (قروي ت ٢٨٤) عن مَعْمَر بن منصور (قروي من أصحاب أسد) عن أسد بن الفُرات عن محمد بن الحسن عن أبي حنيفة... سمعت جميع ما في هذا الكتاب من محمّد بن أَبَان سنة ٢٧٨»، وعلى هذا الكتاب سماع آخر بتاريخ ٣٠٠ هـ[1].

وجاء في مطلع كتاب الشّعر والغناء من جامع عبدالله بن وَهْب: «عن عيسى بن مِسكين (ت ٢٩٥) عن سَحنون بن سعيد عن عبدالله بن وهب... سمعته من عيسى بن مسكين بمنزله سنة ٢٧٠[2].

وأقبل أهل القيروان على التّصنيف في مختلف الفنون، وخاصّة في العلوم الشّرعيّة، واهتموا بالنّسخ والضّبط، وقاموا بتحبيس الكتب على من يستفيد منها، كما تقدّم عند الحديث عن المكتبات.

ولم أُرد هنا غير التّنبيه على أهمّيّة الكتب في إثراء الحياة العلميّة بالقيروان وانتعاشها، وخاصّة في مجال الحديث وعلومه.

وقد تقدّم في ثمرات الرّحلة ذكر المصنّفات الحديثيّة التي دخلت القيروان عن طريق الرّحلة، وسيأتي عند التّعريف بأهمّ المصنّفات الحديثيّة بالقيروان حصرُ ما عُرف من مؤلّفات القرويّين الحديثيّة، كما سبقت الإشارة إلى بعض ما صُنّف في العلوم الأخرى عند الحديث عن أهمّ العلوم الشّرعيّة في القيروان. وفي كلّ ذلك غناء عن الإعادة والتّكرار.

(١) انظر: المكتبة الأثرية بالقيروان ٣٢، ٣٣.

(٢) م. ن ٣٤، ٣٥.

الباب الثاني

السنة وعلومها بالقيروان

وفيه ثلاثة فصول يتفرع كل منها إلى مباحث ومطالب ونقاط:

- **الفصل الأول**: مظاهر النشاط العلمي وخصائصه في مجال رواية الحديث.
- **الفصل الثاني**: مظاهر النشاط العلمي وخصائصه في مجال دراية الحديث.
- **الفصل الثالث**: صلة هذه المدرسة بمدرستي المشرق والأندلس وبعض مدن إفريقية.

توطئة

إنّ علوم الرّواية ـ وقوامها الحديث الشّريف ـ كانت أسبق العلوم وجوداً بالقيروان، كما هو الحال في غيرها من بلاد الإسلام، حيث كانت مختلف العلوم الشّرعيّة تنتقل في العهود الأولى بالرّواية، ويعتبر أكثرها من أبواب الحديث النّبوي[(1)].

ولقد قام الصّحابة الفاتحون برواية شيء من الحديث بإفريقيّة، والقيروان وخاصّة أولئك الذين وجدوا فيها بعد تأسيسها وبناء جامعها[(2)]، حيث جلس بعضهم للتّحديث فيه كما سيأتي، وظهرت الرّواية، ممّا جعل الأمير عُقبة بن نافع يوصي بتحرّي حديث النّبيّ ﷺ عن الثّقات، وتجنّب كتابة ما يشغلهم عن القرآن[(3)].

أمّا في عهد التّابعين فقد فشت رواية الحديث[(4)]، حيث كانت القيروان تعجّ

(1) انظر: مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان ٣٤٠، وانظر مثلاً: كتاب تفسير القرآن في صحيح البخاري ١٤٦/٥، وفي صحيح مسلم ٢٣١٥/٤، وفي سنن الترمذي ١٩٩/٥.

(2) انظر: مبحث أثر الصحابة في نشر السنة بالقيروان في الباب الثالث من هذه الرسالة

(3) انظر: الإصابة ٨١/٣، الشجرة ١٠٠/٢.

(4) انظر: مبحث أثر التابعين في نشر السنة في الباب الثالث من هذه **الرسالة**.

بهم، وكان كثير منهم ذوي رواية واسعة، مع العدالـة والضّبط والحرص على حفظ الحديث وروايته[1].

وفي حوالي منتصف العقد العاشر من القرن الأوّل تدعّمت رواية الحديث في إفريقيَّة بالكتاب الكبير الذي دوّنه خالد بن أبي عمران (ت ١٢٥ أو ١٢٩) عن تابعي المدينة، ورواه عنه القرويّون[2].

أمّا أكبر دعامة للسّنّة بالقيروان في هذه المرحلة فقد تمثّلت في قدوم بعثة عمر بن عبدالعزيز العلميّة سنة ٩٩ هـ، والمتكـوّنة من عشـرة من رواة التّابعين وفضلائهم[3]؛ فإنّها تمحّضت لنشر علوم الكتاب والسّنّة[4]، وفي عهدهم دخلت نسخة من الأحاديث التي دوّنها محمد بن شِهاب الزُّهْـرِيّ (ت ١٢٤) بأمـر من عمر بن عبدالعزيز (ت ١٠١)[5]، وبذلك توسّعت معرفة القرويّين برواية الحديث، وتهيّـأوا لمواجهـة الخطر الخـارجي الذي داهمهم بعـد ذلك بكـلّ شراسـة من الصُّفْرِيَّة والإِبَاضِيَّة والنُّكَّار كما تقدّم.

واستمر التّابعون في القيام بهذا الدّور الجليل لفترة طويلة، وكان آخرهم وجوداً بها يزيد بن أبي منصور الأَزْدِيّ، الذي كان معروفاً لدى القرويّين برواية الحديث، وقد ذاكر فيه محمد بن الأشعث الخُزَاعِيّ حوالي سنة ١٤٤ هـ[6].

وكان يساعدهم في هذه المهمّة الطّلاّب القرويّون العائدون من المشـرق بعد أن رحلوا إليه ورووا عمّن به من بكار المحدّثين[7].

(١) راجع تراجمهم في مبحث التابعين ص ٣٥٩.

(٢) انظر: ط أبي العرب ٢٤٥، الرياض ١/١٦٣.

(٣) انظر: تراجمهم ومصادرهم في القسم الثاني من التابعين.

(٤) انظر: ط أبي العرب ٢٠، الرياض ١/٩٩، المعالم ١/٢٠٣، تاريخ ابن الفرضي ١/٤٦.

(٥) انظر: جامع بيان العلم ١/٧٦.

(٦) انظر: ط أبي العرب ٢١، ٢٢، وراجع ترجمته رقم ٢ في القسم الرابع من التابعين.

(٧) راجع مبحث الرحلة من القيروان إلى المشرق.

ولقد أسفرت هذه الجهود المبذولة في سبيل نشر الحديث عن تحمّل الأفارقة والقرويّين للأحاديث بأسانيدها، ثمّ روايتها، وتدارسها، والحرص على التزام الآثار، والتّمسّك بالسُّنَّة، وتعزّز هذا التّوجّه حين شاهد القرويّون الآثار السّيّئة التي جلبها الرأي والتّأويل إلى بلادهم.

ولذلك فإنّه ما إن دخل إلى إفريقيَّة فقه المذاهب في منتصف القرن الثّاني، حتّى وجد معظم القرويّين أنفسهم منساقين لاتّباع المذهب المالكي، بسبب كثرة اعتماد صاحبه على الحديث، واقتصاره على الأخذ عن الرّواة الثّقات غالباً، وبعده عن التّوسع في الرأي، ونفوره من التّأويل ومزالقه[1].

ولقد تقدّم بيان ارتباط الحديث بالفقه في القيروان، والاستدلال لذلك، عند استعراض أهمّ العلوم الشّرعيّة فيها[2]، وهو أمر ظاهر كذلك من خلال التّراجم والرّحلة والمصنّفات؛ فإنّه يندر أن نعثر على عَلَم لم يبرع في عِلْمي الحديث والفقه، كما أنّ معظم المرتحلين قد سمعوا الحديث، أمّا المصنّفات الحديثيّة التي دخلت القيروان بواسطة الرّحلة[3] فلا يمكن أن تضاهيها المصنّفات المتعلّقة بالفنون الأخرى.

ومن هنا فإنّه لا يصحّ ما ساد في الأذهان من أنّ اهتمام أهل إفريقيّة كان منصبّاً على الفقه[4]، فإنّ حظّ الحديث لديهم لم يكن بأقلّ من حظّ الفقه، بل ربما تجاوزه في المرحلة الزّمنيّة التي أدرسها، ولم يسبق إبراز هذه الحقيقة لقلّة اهتمام الباحثين بدراسة هذه المرحلة ـ وخاصّة في مجال السُّنة وعلومها ـ،

---

(١) انظر: ترجمة مالك في مقدمة الجرح والتعديل ١/١١، مقدمة تعجيل المنفعة ٤، تهذيب التهذيب ١٠/ ، مقدمة موطأ مالك برواية ابن زياد ٣٠، ٣١، مقدمة الرياض لمؤنس ١١، الصراع المذهبي ٤٥.

(٢) وذلك في فصل المراكز العلمية من هذه الرسالة.

(٣) راجع ثمرات الرحلة.

(٤) انظر: أزهار الرياض ٣/٢٦، المدارس الكلامية ٧/١٧.

وبالتّالي عدم وجود عدد كاف من الدّراسات المتخصّصة حولها، كما أنّ ضياع معظم مصنّفات القرويّين في الحديث[1] نتج عنه ضياع معالم مدرستها، ويحتمل أن يكون المقصود بتلك المقولة الشّائعة حول اهتمام الأفارقة بـالفقه المـراحل التّالية للفترة التي أدرسها[2].

ولئن كانت رسالتي هذه في عمومها تهدف إلى بيان مدى اهتمام القرويّين بالسّنّة المطهّرة وخدمتهم لها فإنّ هذا الباب من أكثر المواضع دلالة على ذلك، لتعلّقه بعلوم الحديث رواية ودراية، وموقف محدّثي القيروان من بعض قضايـا علوم السُّنَّة، وآرائهم حول بعض مسائلها، وذلك بالرّغم من قلّة المادّة العلميّة الواردة في هذا الشّأن وتشتّتها.

---

(١) انظر: مبحث أهم المواضيـع التي صنف فيها محـدثو القيـروان في فصل المصنفـات

(٢) ولعل هذا ما أشار إليه الحافظ الذهبي (ت ٧٤٨) حين ذكر ندرة من يعتني من المغاربة بالرواية في زمنه فضلاً عن الدراية. تذكرة الحفاظ ١٤٨٥/٤.

الفَصَل الأوَّل

مظاهر النّشاط العلمي وخصائصه في مجال رواية الحديث

أوّلاً: تعريف علم الحديث رواية ومتعلّقاته:

يقوم هذا العلم على رواية أحاديث النّبي ﷺ القوليّة والفعليّة، وتقريراته، وصفاته الخَلْقيّة والخُلُقيّة، ويدخل فيه أيضاً أقوال الصّحابة وأفعالهم وتقريراتهم وأقوال التّابعين وأفعالهم، على رأي الأكثر[1]، كما يشمل هـذا العلم ما يتعلّق بالحديث من ضبط وتحرير ونقل للسّند والمتن.

ذلك ما يخرج به الباحث بعد النّظر في مختلف التّعاريف التي وضعها أهل الصّناعة لهـذا العلم، والتي من أشهرها تعريف محمد بن إبراهيم الأَكِفَّاني (ت ٧٩٤) الذي قال[2]:

«علم الحديث الخاصّ بالرّواية علم يشتمل على أقوال النّبيّ ﷺ وأفعاله وروايتها وضبطها وتحرير ألفاظها».

---

(١) وذلك واضح من خلال تعريفات العلماء. انظر مثلاً: فتح الباقي ١/٧، الشجرة ٢/٤٩٤، قواعد في علوم الحديث للتهانوي ٢٤، منهج النقد في علوم الحديث ٣١.

(٢) التدريب ١/٤٠، قواعد التحديث ٧٥، منهج النقد ٣٠، وانظر: مقدمة نزهة النظر ٨، قواعد في علوم الحديث للتهانوي ٢٢.

وقد أضاف من جاء بعده تقريرات النّبيّ ﷺ وصفاته كما سيأتي، وبذلك يتكامل التّعريف[1].

وعلى اعتبار الحديث شاملاً لأقوال الصّحابة والتّابعين فلا بدّ حينئذ من إدخالهم في التّعريف.

وقال البَاجُوري: «إنّه علم يشتمل على نقل ما أضيف إلى النّبيّ ﷺ، قيل أو إلى صحابي أو إلى من دونه، قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو صفة»[2].

وهذا التّعريف قد شمل صفة الصّحابي وتقرير التّابعي وصفته، وهي لا تدخل في حدّ الحديث حتّى عند من أدخل فيه أقوال الصّحابة والتّابعين وأفعالهم وتقريرات الصّحابة[3].

وعرّفه محمد بن يوسف الكَرْمَانِيّ (ت ٨٧٦) بأنّه «علم يعرف به أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وأحواله»[4].

وقد اعتبر الدّكتور نورالدّين عِتْر أنّ من مشمولات هذا العِلم دراسة الأسانيد، والحكم على الأحاديث المعيّنة، وشرحها واستنباط الفوائد منها، ولم يـر ذلك خلطاً بين مفهوم الرّواية ومفهوم الدّراية؛ إذ يرى أنّ علم الحديث رواية يبحث في هذه المسائل بحثاً جزئيّاً تطبيقيّاً بينما يهتمّ علم الحديث دراية بوضع القواعد العامّة[5]، ومن قبله ذكر صاحب الحطّة قريباً من هذا الرّأي[6]، بينما يذهب

---

(١) انظر: فتح الباقي ٧/١، الكواكب الدراري ١٢/١، لمحات في أصول الحديث ٧٢، منهج النقد ٣٠، ٣١، مقدمة علوم الحديث ١٢.

(٢) الحطة في ذكر الصحاح الستة ٧٨، وانظر: الشجرة ٤٩٤/٢، فتح الباقي شرح ألفيّة العراقي ٧/١.

(٣) انظر: تعريف الموقوف (المروي عن الصحابي)، والمقطوع (الموقوف على التابعي) في التدريب ١٨٤/١، ١٩٤، تيسير مصطلح الحديث ١٢٩، ١٣٢.

(٤) الكواكب الدراري ١٢/١، تدريب الراوي ٤١/١.

(٥) انظر: منهج النقد ٣١، ٣٣، ٣٤.

(٦) انظر: الحطة ٧٨.

شيخنا الدّكتور محمد أديب صالح وغيره إلى أنّ علم الرّواية يحقّق مجرد نقل الحديث بدقّة وضبط[1]، وهو الرّأي الذي عليه الجمهور.

موضوعـه:

أمّا موضوع هذا العلم فقد ذهب بعض القادمى إلى أنّه «ذات الرّسول ﷺ من حيث إنّه رسول»[2]. وقد ذكر الحافظ جلال الدّين السّيوطيّ (ت ٩١١) أنّ بعض شيوخه كان يتعجّب من ذلك[3]، كما ردّه الدّكتور عِتْر لشموله علوماً أخرى ليست من الحديث، مثل: علوم القرآن وعلم التّوحيد، ولقصوره عن تناول بعض الموضوعات المجمع على كونها من الحديث، مثل سيرة النّبيّ ﷺ قبل البعثة، وصفاته الخِلقيّة ونحو ذلـك، وذكر أنّ مـوضوعـه: ما أضيف إلى النّبيّ ﷺ أو الصّحابي أو التّابعين، وتناوُل ذلك بالبحث من حيث الرّواية والضّبط، ودراسة الأسانيد ومعرفة درجة الحديث ومعانيه والفوائد المستنبطة منه[4].

واضعــه:

وعلى هذا يكون واضعه أصحاب النّبيّ ﷺ بإذنه، فإنّه قاموا بحفظ أقواله وأفعاله وصفاته وتقريراته، وضبطها وروايتها[5] بناء على أمره ﷺ بـالتّبليغ وحثّـه عليه وإذنه في كتابة سننه وإقراره لمن كتب[6].

---

(١) لمحات في أصول الحديث ٧٢.

(٢) انظر: التدريب ٤١/١، فتح الباقي ٧/١، الشجرة ٤٩٤/٢، الكواكب الدراري ١٢/١.

(٣) انظر: التدريب ٤١/١، وقد ناقشه المباركفوري في ذلك ورد عليه وعلى شيخه. مقدمة تحفة الأحوذي ٣/١، ٤.

(٤) راجع منهج النقـد ٣١، وقد تقـدم قريبـاً التعليق على إدخالـه دراسة الأسـانيد وشـرح الأحاديث في علوم الرواية.

(٥) انظر: الحطة ٧٨، الشجرة ٤٩٤/٢، منهج النقد ٢٥.

(٦) انظر: الأحاديث الدالة على ذلك في صحيح البخاري كتاب العلم ٢٤/١، ٢٥، ٣٦، وفي كتاب الحج ١٩١/٢، وفي كتاب الأنبياء ١٤٥/٤، وفي كتاب الفتن ٩١/٨، وسنن الترمذي في كتاب العلم ٣٣/٥، ٣٩، ومسند أحمد ١٦٢/٢، ١٩٢، ٢٠٧.

غـايتـه:

وغايته الفوز بسعادة الدّارين[1]، إذ به تعرف العقيدة الصّحيحة وكيفيّة العلم الصّالح والاقتداء بالنّبيّ ﷺ، ثمّ تطبيق ذلك في واقع الحياة، وهو الطّريق الوحيد الموصل للسّعادة في الدارين.

حـكمـه:

وحكمه الوجوب العينيّ على من انفرد والكفائيّ على من تعدّد[2].

ثانياً: إقبال القرويّين على طلب الحديث وروايته:

لقد أثمرت البذرة التي غرسها الصّحابة بالقيروان وتعهّدها التّابعون بالرّعاية، ولذلك نجد القرويّين ينكبّون منذ البداية على سماع الحديث وروايته، وتحمّل مشاق الرّحلة في طلبه[3].

فقد كانوا يروون الأجزاء الحديثيّة والسّماعات المدوّنة قبل نهاية القرن الأوّل[4]، بالإضافة إلى إقبالهم على سماع حديث من عندهم من التّابعين، فكان جامع عُقبة حافلاً بمجالس التّحديث[5].

وكان القرويّون سبّاقين إلى جلب المصنّفات الحديثيّة، فقد ظهرت لديهم أوّل رواية عرفت للموطّأ خارج المدينة المنوّرة[6]، وذلك في أوائل النّصف الثّاني

(١) انظر: التدريب ١/٤١، الحطة ٧٨، الشجرة ٢/٤٩٤، فتح الباقي ١/٧، الكواكب الداراري ١/١٢.

(٢) الشجرة ٢/٤٩٤، الحطة ٧٨.

(٣) انظر: مبحث الرحلة من القيروان إلى المشرق.

(٤) انظر: مبحث حركة التصنيف الحديثي بالقيروان.

(٥) انظر: الرياض ١/١٤٦، ١٧٢، ١٧٧.

(٦) انظر: موطأ مالك برواية ابن زياد ٩.

من القرن الثّاني، حيث كان الإمام مالك لا يزال حيّاً (ت ١٧٩)، وقد خصّوه وموطّأه بحظّ وافر من العناية، كما سيأتي.

وعندما كان يدخل القيروان مصنّف جديد فإنّ النّاس سرعان ما يتناقلون خبره، ويحرصون على سماعه، من ذلك ما فعله البُهلول بن راشد (ت ١٨٣) فإنّه حين بلغه قدوم عَنْبَسة بن خارجة (ت ٢١٠) بجامع سفيان الثّوري قال لأصحابه: «قوموا بنا نذهب إلى أبي خارجة نسمع منه جامع سفيان الثّوري»[١].

وقد شاعت بالقيروان رواية العديد من المصنّفات الحديثيّة، وفي مقدّمتها: الموطّأ برواياته المختلفة، والصّحيحان، وسنن أبي داود، والتّرمذي، والنَّسائي، ومصنّف وكيع بن الجرّاح، ومصنْف عبدالرّزّاق، ومسند مُسَدَّد، ومسند محمد بن سنجر، ومسند بقيّ بن مَخْلَد، ومسند أسد بن موسى، وغيرها من المسانيد، وكتب غريب الحديث، والرّجال، والرّقائق وغيرها[٢]، بالإضافة إلى مصنّفات القرويّين أنفسهم، مثل جامع يحيى بن سلاّم، ومسند محمد بن سَحنون، والممهّد للقابِسي، والآثار لأبي بكر بن اللَّبّاد، وكُتُب العوالي، والأمالي، والشّروح، وغيرها[٣].

وما ظهور هذه المصنّفات المتعدّدة وشيوع روايتها إلا دليل على اهتمام القرويين بالسُّنّة، وحرصهم على طلب الحديث وروايته.

وليس ذلك بغريب ونحن نجدهم يتداولون رواية الأحاديث المرغّبة في طلب السُّنّة، والمحرّضة على نشرها.

من ذلك ما حدّث به محمد بن سعدون القروي بسنده إلى النّبيّ ﷺ قال:

---

(١) ط أبي العرب ٥٢.

(٢) راجع هذه المصنفات وغيرها في ثمرات الرحلة في الفصل الثاني من الباب الأول.

(٣) انظر: مبحث أهم المواضيع التي صنف فيها القرويون في الفصل الثاني من الباب الثالث.

«تسمعون ويُسمع منكم ويُسمع ممّن يَسمع منكم»[1]، وما حدّث به الإمام أبو الحسن القابِسي يرفعه إلى النّبي ﷺ قال: «ليُبَلِّغ الشّاهد الغائب فإنّ الشّاهد عسى أن يُبلّغ من هو أوعى منه»[2].

كما كانوا يروون الأحاديث الدّالّة على فضل حملة السُّنّة، فقد روى محمد بن سَعدون بسنده إلى موسى بن هارون قال: «سمعت أحمد بن حَنْبَل وسئل عن معنى هذا الحديث ـ يريد قوله ﷺ: «لا يزال ناس من أُمّتي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتّى تقوم السّاعة» ـ فقال أحمد: إن لم تكن هذه الطّائفة أصحاب الحديث فلا أدري من هم؟»[3].

(١) الإلماع ١٠، والحديث أخرجه أبو داود في كتاب العلم باب فضل نشر العلم ٣٦٥٩/٦٨/٤، والحاكم في المستدرك ٩٥/١، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم ٤٣/١ كلهم من حديث ابن عباس بلفظه.

(٢) الألماع ١٤، والحديث أخرجه البخاري في كتاب المغازي باب حجة الوداع بنحوه ضمن حديث طويل من طريق أبي بكرة ١٢٧/٥، ومسلم في كتاب القسامة باب تغليظ تحريم الدماء عن أبي بكرة بنحوه في حديث طويل ١٦٧٩/١٣٠٦/٣، وابن ماجه في المقدمة باب من بلغ علماً،من عدة طرق بنحوه ١٠٣/١، ١٠٤/ ٢٣٥ ـ ١٩٢، ٢٣٧، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم بنحوه عن أبي بكرة بأسانيد مختلفة ٤٠/١، ٤١.

(٣) الألماع ٢٥، والحديث أخرجه الترمذي في كتاب الفتن باب ما جاء في الشام، من طريق قرة المزني بلفظه إلا أن فيه «طائفة» بدل «أناس» ٢١٩٢/٤٨٥/٤ وقال: «هذا حديث حسن صحيح» وأخرجه ابن ماجة في المقدمة باب اتباع سنة رسول الله ﷺ بنحوه من عدة طرق ٧/١، ٨/٧، ٩، ١٠، وفي الفتن باب ما يكون من الفتن من طريق ثوبان بنحوه ضمن حديث طويل ٤٠١٦/٤٦٤/٢، وأخرجه الإمام أحمد بنحوه ٤٣٦/٣، ٣٤/٥، ٣٥. وللحديث ألفاظ أخرى في الصحيحين: انظر: صحيح البخاري كتاب الاعتصام باب قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» ١٤٩/٨، وكتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿إنما قولنا لشيء..﴾ ١٨٩/٨، وصحيح مسلم كتاب الإمارة باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة..» ١٩٢٠/١٥٢٣/٣ ـ ١٩٢٤، ١٠٣٧.

وكان المرتحلون منهم يحرصون على سماح الحديث ويتتبّعون رجاله في مختلف البلاد؛ فهذا موسى بن مُعاوية (ت ٢٢٥) يسمع بطرابُلُس ومصر والمدينة ومكّة والبصرة والكوفة وبغداد، ثم ذُكر له أنّ ببلاد خُراسان رجلاً كثير الحديث فارتحل إليه، غير أنّ هذا الرّجل خشي الرّياء على موسى فأقسم ألاّ يحدّثه إلا بثلاثة أحاديث[١].

وخصّص عيسى بن مسكين (ت ٢٩٥) رحلته الثّانية لسماع مسند محمد بن سنجر[٢]. كما خصّص ربيع القطّان (ت ٣٣٣) رحلتـه الأولى للُقيّ رجال الحديث[٣]، وكان لهؤلاء وغيرهم دور بارز في نشر السّنّة بالقيروان.

وإذا فات أحدَهم سماعُ شيء في رحلته ذكر ذلك بكلّ أسف، فيستفيد من ذلك من لم يرحل بعدُ، ويحرص في رحلته على سماع ما فات سابقيه، قال البُهلول بن راشد: «لم آسف على شيء أسفي على كتاب رأيت ابن مَهْدي يعرضه على سفيان الثّوري»: قال الصُّمَادِحِي: «فلمّا قدمت على ابن مَهْدِي ذكرت له ذلك فأخرج لي كتابه في السُّنّة والفتوى من تأليفه»[٤].

وكان الإمام سَحنون كثيراً ما يُوجّه طلاّبه إلى التزام الآثار قائلاً: «إنّما عزاؤنا في هذه الآثار، فأمّا المسائل فالله أعلم بحقيقتها»[٥]، ويقول: «إنّي لأخرج من الدّنيا ولا يسألني الله عزّ وجلّ عن مسألة قلت فيها برأي»[٦]، وكان يوصي من يرحل من طلاّبه بطلب الحديث على سبيل التّقصّي ليُدخلوا مرويّات جديدة إلى القيروان[٧].

---

(١) انظر: ترجمة موسى رقم ٣٧ في المحدثين.
(٢) انظر: المدارك ٢٢٢/٣.
(٣) انظر: ترجمته رقم ١١ في المحدثين.
(٤) المدارك ٤٠٣/١.
(٥) جذوة المقتبس ١٤١.
(٦) الرياض ٣٥٤/١.
(٧) انظر: المدارك ٥٢١/١، المعالم ٨٣/٢، الرياض ٤٤٤/١.

ولمّا دخل أسد بن الفُرات بالأسديّة، وكان قد بناها على الرّأي، (يعني الفتاوى والأقوال الفقهيّة لمالك على طريقة أهل الرّأي)[1]، رفضها القرويّون، فقد جاء في المدارك: «وأنكر عليه النّاس إذ جاء بهذه الكتب وقالوا: جئتنا بأخال وأظنّ وأحسب، وتركت الآثار وما عليه السّلف»[2]، وكان هذا النّقص هو الذي حمل سَحنون على إعادة سماع المدوّنة على ابن القاسم، ثمّ قام بترتيبها واحتجّ لمسائلها بالأحاديث والآثار كما هي عليه الآن في طبعاتها المتداولة، وعند ذلك أقبل عليها القرويّون وسائر المغاربة إقبالاً منقطع النّظير؛ لأنّها أصبحت مؤسّسة على الآثار[3]، وكانت طريقة القرويّين في تدارس المدوّنة تقوم على الاهتمام بجانب الرّواية، حتّى أصبح ذلك اصطلاحاً خاصّاً بهم تميّزوا به عن غيرهم، قال المَقَّرِي: «وقد كان للقدماء رضي الله عنهم في تدريس المدوّنة اصطلاحان: اصطلاح عراقي واصطلاح قروي: فأهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدوّنة كالأساس، وبنوا عليها فصول المذهب بالأدلّة والقياس، ولم يعرّجوا على الكتاب بتصحيح الرّوايات ومناقشة الألفاظ، ودأبهم إلى إفراد المسائل وتحرير الدّلائل على رسم الجدليّين، وأهل النّظر من الأصوليّين.

وأمّا الاصطلاح القروي فهو البحث عن ألفاظ الكتاب، وتحقيق، ما احتوت عليه بواطن الأبواب، وتصحيح الرّوايات، وبيان وجوه الاحتمالات، والتّنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب، واختلاف المقالات، مع ما انضاف إلى

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن المدونة في المصنفات. وانظر: أعلام ابن عاشور ٢٧.

(٢) المدارك ١/٤٧٠، ٤٧١، وانظر: أعلام ابن عاشور ٢٧، وسيأتي التوسع في هذا عند التعريف بالمدونة.

(٣) انظر: مقدمة موطأ ابن زياد ٨، المكتبة الأثرية ٢٨، الانتقاء ٥٠، أعلام ابن عاشور ٢٨، المعالم ٢/١١، الحلل السندسية ٤٧٥، ٧٤٨.

ذلك من تتبّع الآثار وترتيب أساليب الأخبار، وضبط الحروف على حسب ما وقع في السّماع، وافق ذلك عوامل الإعراب أو خالفها»[1].

ومن حرص القرويّين على الرّواية أنّهم كانوا يهتبلون فرصة وجود بعض المحدّثين الغرباء بين أظهرهم، فيقصدونهم للسّماع منهم، بل إنّ الوافد من هؤلاء المحدّثين إذا قضى حاجته وأراد الخروج قبل أن يستكملوا السّماع عليه استشفعوا لديه ببعض الوجهاء ليطيل الإقامة عندهم، قال سهل بن عبدالله القُبْرِيَانِيّ[2] «لمّا أراد عبدالعزيز بن يحيى[3] الخروج عنّا استعنّا عليه ببعض ولد علي بن حُميد[4] أن يصبر علينا حتّى يستوعب النّاس السّماع منه فصبر»[5]، ولمّا دخل القيروان دَرَّاس بن إسماعيل الفاسي المحدّث (ت ٣٥٧) أقام عند ابن أبي زيد (ت ٣٨٦)، وهنالك قصده كبار القرويّين وسمعوا منه[6]، كما كتبوا حديثاً كثيراً عن محمد بن عُبيد الجزيري (ت ٣٠٥)[7]، ومحمد بن إبراهيم بن حَيُّون (ت ٣٠٥)[8] وهما من أئمّة الحديث بالأندلس، وغير هؤلاء كثير، وقد تقدّمت بعض النّماذج الأخرى في فصل الرّحلة.

وكثيراً ما تحول ظروف هؤلاء الوافدين إلى إفريقيّة دون دخول القيروان، ولا يتمكّنون من تجاوز مدينة سُوسَة، وهي ميناء القيروان، فيسارع إليهم القرويّون لسماع ما عندهم، كما هو الحال عندما قدم صَمِيل بن إبراهيم صاحب بقيّ بن

---

(١) أزهار الرياض ٢٢/٣.
(٢) انظر عنه: طبقات الخشني ١٣٤.
(٣) دخل القيروان سنة ٢٢٥ هـ، وسمع منه بشر كثير من أهلها وأثنى أبو العرب على حفظه ط أبي العرب ٧٨.
(٤) أحد كبار وزراء الأغالبة. انظر: الرياض ٣٩٧/١.
(٥) ط أبي العرب مح ١٨٢.
(٦) انظر: تاريخ ابن الفرضي ١٧٣/١، نيل الابتهاج ١١٦، جذوة الاقتباس ١٩٤/١.
(٧) انظر: تاريخ ابن الفرضي ٢٩/٢.
(٨) انظر: تاريخ ابن الفرضي ٢٨/٢، نفح الطيب ٥٢/٢.

مَخْلَد (ت ٢٧٦) بمسند شيخه إلى سُوسَة، فهرعوا إليه وسمعوه منه[١]، وكانوا يتحيّنون فرصة مجيء محمد بن تميم القَسْطَلِيّ (ت ٢٦٠) محدّث قَفْصَة إلى سُوسَة فيأتونه للسّماع منه[٢].

وتبدأ رواية الحديث لدى القرويّين من أوّل مراحل التّعليم، وهي مرحلة الكُتّاب[٣]. ثمّ يكون الموطّأ من أوّل ما يدرسه الطّالب بعد تخرّجه من الكُتّاب[٤]، ولم يكن الإقبال على مجالس الرّواية مقتصراً على نوعيّة معيّنة من النّاس وهم المعنيّون بالإسناد، وإنّما كانت مختلف الفئات تحرص عليه، ولذلك نجد المجالس الحديثيّة تغُصّ بالتّجّار والمزارعين وأهل البوادي والعُبّاد، وأهل الرّباط[٥]. ومن هؤلاء من يحضرها للاستفادة العامّة ومنهم من يحضرها بغرض حمل الحديث ثمّ نشره، وكانت هذه الكثرة هي التي دفعت يحيى بن عمر (ت ٢٨٩) إلى اتّخاذ كرسي يجلس عليه في جامع عُقبة بالقيروان، ثمّ في جامع سُوسَة بعد ذلك ليتمكّن من إسماع من بَعُد من النّاس[٦]، حيث ذكروا أنّ المسجد كان يمتلىء بالنّاس عندما يجلس يحيى للرّواية، فأدّى هذا إلى سؤاله عن صحّة سماع من بَعُد عنه من الطّلبة فقال: نجيزهم[٧]، فكان ذلك سبباً في ظهور هذه المسألة من مسائل علوم الحديث[٨].

وفي المواقف الحرجة كان الحديث الشّريف هو المحدّد للاختيار، ذلك ما حدث عندما اجتمع علماء القيروان في الجامع لمناقشة أمر الخروج على بني

---

(١) انظر: تاريخ ابن الفرضي ٢٤١/١.
(٢) انظر: المدارك ٩٤/٣.
(٣) انظر: مقدمة ابن خلدون ٥٣٨، آداب المعلمين لمحمد بن سحنون ١١٢.
(٤) انظر: المعالم ٢٧/٣، المدارك ٣١٧/٣.
(٥) انظر: الرياض ٢٦٩/١، ٤٩٧، المعالم ٩٨/٢.
(٦) انظر: الرياض ٤٩٣/١، المعالم ٢٣٥/٢، ٢٣٩.
(٧) انظر: اللسان ٢٧١/٦.
(٨) انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٦٥/٢، ١٣٨، الإلماع ٩٢، ٩٣.

عبيد، وطالت المناظرة فحسم أبو العرب (ت ٣٣٣) الموقف مستدلاً بالسّنة حيث طلب من النّاس التزام الهدوء ثمّ قال: «حدّثني عيسى بن مسكين عن محمد بن عبدالله الجُرجاني بإسناده إلى النّبي ﷺ أنّه قال: «يكون في آخر الزّمان قوم يسمّون الرّافضة فإن أدركتموهم فاقتلوهم فإنّهم كفّار». فلمّا أتمّ الحديث كبّر النّاس، وخرجوا لقتال بني عُبيد[1]، وبالرغم ممّا حول هذا الحديث من الكلام[2]، فإنّ في هذا الموقف دلالة على انقياد القرويّين للسُّنّة ورجوع علمائهم إلى دلالة الحديث، والانقياد له وتحكيمه عند الاختلاف.

وهكذا ندرك مدى عناية القرويّين بالرواية وحرصهم على طلب الحديث ونشره، والاعتماد عليه.

ثالثاً: دخول الموطّأ والاهتمام به:

ذاع أمر الإمام مالك بن أَنَس (ت ١٧٩)، واشتهر بالاهتمام بالحديث الشّريف، والأخذ عن ثقات الرّواة[3] ووقوفه عند نصوص الكتاب والسّنّة، وبعده

---

(١) انظر: الرياض ٣٠٩/٢، المعالم ٣٥/٣، وسيأتي تخريج هذا الحديث والحكم عليه في ترجمة أبي العرب رقم ٣٠ في المحدثين.

(٢) انظر: الرياض ٣٠٩/٢، المعالم ٣٥/٣، وسيأتي تخريج هذا الحديث والحكم عليه في ترجمة أبي العرب رقم ٣٠ في المحدثين.

(٣) انظر: مقدمة الجرح والتعديل ١٣/١ ـ ١٧، تهذيب التهذيب ٧/١٠، ٩، شرح الزرقاني للموطأ ٣/١، مقدمة الكامل لابن عدي ١٠٢/١، ١٠٣، ومعلوم أن هذا الإطلاق إنما يقع على الغالب من فعل مالك، فقد قال يحيى بن معين عنه: «كل من حدث عنه ثقة إلا رجلاً أو رجلين» مقدمة الجرح ١٧/١، وكذلك على الغالب من فعل من اشتهر من الأئمة بالاقتصار على الأخذ عن الثقات، قال ابن عبدالهادي: «. . . رواية الإمام أحمد عن الثقات هو الغالب من فعله والأكثر من عمله كما هو المعروف من طريقة شعبة ومالك وعبدالرحمٰن بن مهدي ويحيى بن سعيد القطان وغيرهم، وقد يروي الإمام أحمد قليلاً في بعض الأحيان عن جماعة نسبوا إلى الضعف وقلّة الضبط. . .» الصارم المُنْكي في الرد على السبكي ٤٠.

عن الرّأي، وصنه للعلم بالبعد عن ذوي السّلطان، وقد وافق ذلك ما في نفوس القرويّين من التّعطّش إلى السُّنّة والتزام الآثار[1]، فتوافدوا عليه لسماع حديثه[2]، والتّأدب بشمائله[3] التي توارثها أهل المدينة جيلاً بعد جيل منذ عهد النّبيّ ﷺ.

وقد بدأت صلة القرويّين بالإمام مالك قبل سنة ١٤٥ هـ[4]، وذلك عن طريق الوفد الذي تكوّن من عبدالله بن فَرُّوخ (ت ١٧٦)، والبُهلول بن راشد (ت ١٨٣)، وعبدالله بن عمر بن غانم (ت ١٩٠)[5]، وكان من حفاوة الإمام مالك بهم والعناية بأمرهم[6] ما زاد في إقبال الأفارقة عليه.

ثمّ نمت هذه الصّلة، وخاصة بعد رحلة علي بن زياد الذي فسّر للأفارقة قول مالك وأصوله، وحدّثهم بموطّئه[7]، فكان من يسمع منه من طلبة العلم بالقيروان يُعجب بهذا الإمام، ويحرص على الرّحلة إليه، لينال بذلك علوّ الإسناد، وشرف السّماع المباشر من الإمام.

أ ـ الرّواة عن مالك من الأفارقة:

وقد رأيت أنّه من المفيد أن أَذْكُر هنا تلاميذ مالك من الأفارقة، سيما وأنّه لم يسبق أن وقع حصرهم حتّى الآن فيما أعلم، ولما لهم من الأثر في نشر حديث مالك وفقهه في بلادهم.

---

(١) انظر: مقدمة موطأ ابن السبكي

(٢) ط أبي العرب مح ١٣، أبو عبدالله الأبي ٩٠.

(٣) انظر: مقدمة المدارك ٩.

(٤) انظر دليل هذا التحديد في ترجمة ابن فروخ رقم ٣ في المهاجرين.

(٥) انظر عن ترافق هؤلاء الثلاثة في رحلتهم وطلبهم في المشرق: الرياض ٢١٦/١، المدارك ٣١٧/١، المعالم ٣٠٤/١.

(٦) انظر: الرياض ١٧٧/١، ٢١٧.

(٧) انظر: المدارك ٣٢٦/١، الرياض ٢٣٤/١.

ولقد ذكر الحافظ محمد بن حارث الخُشَنِي (ت ٣٦١) أنّ عدد تلاميذ مالك من الأفارقة يزيد على ثلاثين رجلًا، وتناقل ذلك المصنّفون[1]، وبعد البحث والتّتبّع في مختلف المظان، وجدت أنّ عددهم يصل إلى أربعة وأربعين راوياً، منهم من بلغت شهرته الآفاق، ومنهم من لم تفدنا المصادر المتوفّرة بغير اسمه، وسأذكرهم مرتّبين على حروف المعجم، مرجئاً بحث من ثبت تحمّله للموطّأ منهم إلى المبحث الموالي:

١ ــ الأقرع بن بكّار النُّضَيْرِي، حدّث عنه فُرات العَبْدي، قال أبو العرب: «ما علمت أحداً ذكره بسوء»[2].

٢ ــ البُهلول بن راشد (ت ١٨٣)[3].

٣ ــ البُهلول بن عمر بن صالح التُّجيبي (ت ٢٣٣ أو ٢٣٤)[4].

٤ ــ حاتم بن عثمان المَعَافِري[5].

٥ ــ الحارث بن أسد القَفْصِي، وكان قد زامل عبدالرّحمٰن بن القاسم وعبدالله بن وهب في الأخذ عن الإمام مالك، ولم يكن له أثر علمي يذكر؛ لأنّ مالكاً قد أوصاه بتقوى الله وتلاوة القرآن، ولم يوصه بنشر العلم، فكان الحارث بعد ذلك يقول: «لم يرني أهلاً للعلم»، ويرفض أن يفتي لأحد[6].

---

(١) انظر: المعالم ٨٣/٢، الحلل ٧٧٥/٣/١.
(٢) ط أبي العرب مح ١٥٧.
(٣) انظر: مصادره والتعريف به في ترجمته رقم ٥ في المحديثن.
(٤) انظر: مصادره والتعريف به في ترجمته رقم ٦ في المحدثين.
(٥) انظر: مصادره والتعريف به في ترجمته رقم ٨ في المحدثين.
(٦) انظر: المدارك ٤٩٠/١، تاريخ قفصة ١٠٩.

٦ ـ خالد بن يزيد الفارسي: كان سماعه من مالك يسيراً، وله رواية بالقيروان، وثّقه أبو العَرَب[١].

٧ ـ رباح بن ثابت الأَزْدِي (ت ٢٣٧)[٢].

٨ ـ زُرَارَة بن عبدالله (ت ٢٣٨ وقيل ٢٣٣): طالت ملازمته للإمام مالك، وله سماع من اللّيث بن سعد، وعبدالله بن فَرُّوخ وغيرهما، وكان له أثر ورواية في القيروان، اتّفقت المصادر على توثيقه[٣].

٩ ـ زكريّاء بن الحَكَم اللَّخْمِيّ (ت ٢٠٦): سمع من مالك وغيره، وكان يحدّث ويفتي في القيروان، وثّقه أبو العرب وغيره[٤].

١٠ ـ زيد بن بِشر الأَزْدِيّ (ت ٢٤٢)، أصله من مصر ونزل إفريقيَّة، وكان يحدّث بتونُس، ويرحل إليه القرويّون للسّماع منه، وقد انفرد القاضي عياض بذكر تتلمذه على مالك[٥].

١١ ـ سُوَيْد بن محمد القروي[٦].

١٢ ـ شَجَرة بن عبدالله القيرواني[٧].

١٣ ـ صالح بن عبدالله القروي[٨].

---

(١) انظر: ط أبي العرب مح ١٥٦، المدارك ١/٢٦٠.

(٢) انظر: ترجمته رقم ٩ في المحدثين.

(٣) انظر: ط أبي العرب ٧٨، الرياض ١/٢٨٢، المعالم ٢/٦٥، وذكره عياض في الرواة عن مالك ١/٢٦١.

(٤) انظر: ط أبي العرب ٨٦، الرياض ١/٢٣٨، المدارك ١/٢٦١، ٤٩١.

(٥) انظر: ط أبي العرب ٢٥٥، المدارك ١/٢٦١، (في الرواة عن مالك) ٤/٩٨، الرياض ١/٣٩٠، طبقات الفقهاء ١٥٧.

(٦) المدارك ١/٢٧٥.

(٧) انظر: المدارك ١/٢٧٥، (في الرواة عن مالك) ٤/١٠٢ في ترجمة شجرة بن عيسى.

(٨) انظر: المدارك ١/٢٦٢ (في الرواة عن مالك).

١٤ ــ صِقْلاب بن زياد الهَمْداني القروي (ت ١٩٣ وقيل ١٩١): وهو محدّث مقرىء، وثّقه الأفارقة وكانت له رواية بالقيروان[١].

١٥ ــ العبّاس بن أشرس، أبو مسعود التّونُسي، وهو فقيه محدّث حسن الضّبط، ثقة حافظ، له سماع ورواية عن مالك[٢].

١٦ ــ عبّاس بن الفارسي التّونُسي (ت ٢١٨): أحد كبار محدّثي إفريقيَّة، له رحلة ورواية واسعة، وكان معروفاً برواية الحديث وحفظه، وكان ربما درس الكتاب ألف مرّة[٣].

١٧ ــ عبدالرحمن بن الجَهْم الخَوْلَانِيّ، سمع الحديث بإفريقيَّة والمشرق، وحدّث بالقيروان[٤].

١٨ ــ عبدالله بن أبي حسّان اليَحْصُبِيّ (ت ٢٢٧)[٥].

١٩ ــ عبدالله بن أبي غَسَّان: حدّث بالقيروان، وكان يغرب عن مالك، اختلفوا في توثيقه والرّاجح أنه ضعيف الحديث[٦].

٢٠ ــ عبدالله بن عثمان المَعَافِرِيّ الأَبْزَارِيّ، أبو طالب، وكانت رحلته إلى مالك مبكّرة، وقد سمع فيها الحديث، وكان يحدّث في حانوته بالقيروان، وثّقه

---

(١) انظر: الشجرة ٦٢/١، الرياض ٢٣٠/١، ط أبي العرب مح ١٣٩، الحلل ٢٤٠/١/١، المدارك ٢٦٢/١ (في الرواة عن مالك)، المعالم ٢٥٩/١، طبقات العربي ٦٧، ورقات ٩٩/١.

(٢) انظر: ط أبي العرب ٢٥٣، المدارك ٢٥٩/١، الرياض ٢٥٢/١، طبقات الفقهاء ١٥٢، الديباج ١٥٢، وقد اختلفوا في اسمه. انظر: المدارك ٣٢٩/١.

(٣) انظر: ط أبي العرب ٢٥٤، الرياض ٢٤٨/١، اللسان ٢٤٠/٣، المحن ٢٧٤، ٤٣٥، البيان المغرب ١٠٥/١.

(٤) انظر: ط أبي العرب مح ١٥٧، المدارك ٢٦٩/١، في الرواة عن مالك.

(٥) راجع ترجمته رقم ١٨ في المحدثين. وانظر: المدارك ٢٥٩/١.

(٦) انظر: ط أبي العرب ٧٧، الرياض ٢٤٠/١، اللسان ٣٢٥/٣، تنزيه الشريعة ٧٤/١.

أبو العرب، وقال الخطيب: مجهول، **قلت**: بل هو معروف لدى القرويّين، وكان الطّلبة يقصدونه في حانوته، وكانت له رواية، وأورد له الذَّهَبِيّ حديثاً موضوعاً، وأجاب ابن يونُس عن ذلك بأنّ الآفة من الرّاوي عنه، وهو داود بن يحيى، وأيّد ذلك ابن حَجَر بأنّ داود هذا وضاع، **قلت**: بل الآفة من الرّاوي عن داود، وهو يحيى بن محمد بن خُشَيْش فإنّه هالك بالإجماع، وسيأتي ذكره في مبحث معالجة الوضع، أمّا داود فهو وإن اتّهمه بعض المشارقة بالوضع فإنّ أبا العرب قد وثّقه، وأهل بلده أعرف به، والآفة في حديثه من يحيى بن محمد بن خُشَيْش، وذلك هو السّبب في اتّهامه بالوضع(١).

٢١ ــ عبدالله بن فَرُّوخ الفارسي القروي (ت ١٧٦)، وهو من أوائل المرتحلين إلى مالك والمُكثرين، عنه، وكان مالك معجباً به، وكان يكاتبه(٢).

٢٢ ــ عبدالملك بن أبي كريمة التّونُسي (ت ٢١٠ وقيل ٢٠٤): سمع في رحلته حديثاً كثيراً عن مالك وغيره، وكان مشهوراً بالعناية بالحديث، سمع منه أهل إفريقيَّة، وقد أخرج له أبو داود في سننه، وقد اتّفقوا على توثيقه(٣).

٢٣ ــ عبدالمؤمن بن المُسْتَنِير الجَزِيري: سمع الحديث في رحلته من بقيّة بن الوليد ومالك وغيرهما، وكان مقبلاً على الرّباط، كثير الرّواية لغرائبه، سمع منه الأفارقة وهو ثقة في نفسه، وفي حديثه ضعف(٤).

٢٤ ــ علي بن يونس اللَّيْثِيّ المَدينيّ ثمّ القروي: حدّث بالقيروان عن

---

(١) انظر: ط أبي العرب ١٠٠، الرياض ١/٢٥٣، المدارك ١/٤٨٥، اللسان ٣/٣١٤، الميزان ٢/٤٦٠.

(٢) انظر: مصادره والتعريف به في ترجمته رقم ٣ في المهاجرين.

(٣) انظر: ط أبي العرب ٢٤٧، الرياض ١/٣٢٣، التهذيب ٦/٤١٨.

(٤) انظر: ط أبي العرب ١١١، الرياض ١/٢٩١.

مالك وغيره، وثّقه أبو العَرَب، وتكلّم فيه الذّهبيّ، ولم يرد في اللّسان ما يوجب جرحه، والرّاجح في حاله أنّه ثقة، لأن القرويّين أعلم بحاله[1].

٢٥ ــ عمربن الحَكَم اللَّخْمِيّ: حدّث عن مالك وأبي عمرو عبدالرحمٰن بن عمرو الأَوْزَاعِيّ (ت ١٥٧)، وثّقه المالكي[2].

٢٦ ــ عمر بن سُمُك بن حُمَيد، روى عن أبيه وعن مالك، وسمع منه غير واحد من أهل القيروان[3].

٢٧ ــ عَنْبَسة بن خارِجة الغَافِقِيّ (ت ٢١٠)[4].

٢٨ ــ أبو القاسم الزَّوِاوِي، حدّث عن مالك بالقيروان، وأغرب عنه بحديث[5].

٢٩ ــ محمد بن الحَكَم اللَّخْمِيّ (ت ٢٠٦): محدّث ثقة مأمون، سمع من مالك والثّوري وحَيْوَة بن شُرَيح التُّجِيبِيّ (ت ١٥٨ أو ١٥٩)[6]، وغيرهم، وكان يحدّث بالقَيْرَوان[7].

---

(١) انظر: ط أبي العرب ٧٩، الرياض ١/٢٩٢، اللسان ٤/٢٦٩، الميزان ٣/١٦٣، المدارك ١/٢٧٢.

(٢) الرياض ١/٢٤٧.

(٣) انظر: ط أبي العرب مح ١٧٩ وقد ضبط فيه اسم الأب سَمَك خطأ، الرياض ١/٢٥٣، المدارك ١/٢٧١ (في الرواة عن مالك)، الإكمال ٤/٢٦٣.

(٤) انظر: ترجمته رقم ٢٥ في المحدثين.

(٥) انظر: الرياض ١/٢٤٨، اللسان ٧/٩٤، وفيه الردادى بدل الزواوي، وهو تصحيف ظاهر.

(٦) محدث مصري ثقة أخرج له الجماعة. التهذيب ٣/٦٩.

(٧) انظر: ط أبي العرب مح ١٥٣، المدارك ١/٢٦٥ في الرواة عن مالك، ٤٩١، ضمن ترجمة زكرياء بن محمد.

٣٠ ـ محمد بن عبدالأعلى الكِنْدِي، أبو الخَطَّاب (ت ١٤٤): سمع الحديث بإفريقيَّة والمشرق، وحدّث بالقيروان، وكان خارجياً إباضيّاً، وثّقه أبو العرب في علمه، بالرّغم من أنّه كان داعية إلى مذهبه الإباضي وقُتل في سبيل ذلك، ولم يكن صُفْرِيّاً كما ذكر أبو العرب[1].

٣١ ـ محمد بن عبدالله بن قَيْس الكِنَانِيّ، أبو مُحْرِز، القاضي (ت ٢١٤): كان له علم ورواية، غير أنّ أثره كان قليلاً؛ لميله إلى الاعتزال[2].

٣٢ ـ محمد بن يَسُوتَا (ت ١٩٩): سمع الحديث في رحلته، وحدّث بالقيروان، وثّقه أبو العرب[3].

٣٣ ـ مُطرِّف بن الأَقْرع[4].

٣٤ ـ معاوية بن الفضل الصُّمَادِحِي (ت ١٩٩)[5].

٣٥ ـ موسى بن عبدالله القروي[6].

٣٦ ـ يحيى بن زكريّاء التُّجِيبِيّ (وقيل اللَّخْمِي)، كان من ثقات القرويّين وصلحائهم[7].

---

(١) سمته معظم المصادر عبدالأعلى ولم يصرح أبو العرب باسمه وذكره بكنيته ونسبته. وانظر: ط أبي العرب ٨٧، الرياض ٢٥١/١، الإكمال ٣٥٩/٤، البيان المغرب ٧٠ ـ ٧٢.

(٢) انظر: ط أبي العرب ٨٤، الرياض ٢٧٤/١، المعالم ٢٩/٢، الديباج ٢٨٥، تاريخ قضاة القيروان خط ١٢، المدارك ٢٥٩/١.

(٣) ط أبي العرب مح ١٥٤، المدارك ٢٦٤/١ في الرواة عن مالك.

(٤) المدارك ٢٦٧/١ في الرواة عن مالك.

(٥) انظر: ترجمته رقم ٣٧ في المحدثين.

(٦) المدارك ٢٦٥/١ في الرواة عن مالك.

(٧) انظر: الرياض ٢٤٠/١، المدارك ٤٩١/١، ضمن ترجمة زكرياء بن محمد، المعالم ٣٢١/١.

٣٧ ـ يحيى بن سلاّم البَصْرِي نزيل القيروان (ت ٢٠٠ هـ)[1].

٣٨ ـ يزيد بن محمد الجُمَحِي (ت ٢١٢)[2].

فهؤلاء ثمانية وثلاثون من رجال إفريقيَّة والقيروان رووا عن الإمام مالك، ولم يُنقل أنّهم أخذوا عنه الموطّأ، وأمّا السّتّة الباقون فقد ثبت تحمّلهم للموطّأ كما سيأتي.

ب ـ دخول الموطّأ واهتمام الأفارقة به:

لقد كان الموطّأ أوّل مصنّف حديثيّ دخل إفريقيَّة والقيروان، وكانت روايتهم له ـ كما تقدم ـ أوّل رواية للموطّأ خارج المدينة المنوّرة[3]. وقد أقبل عليه القرويّون بالرّواية والمدارسة والحفظ والشّرح كما سيتّضح بعد ذكر رواته فيما يلي:

١ ـ رواة الموطّأ من الأفارقة:

لقد أدخل الموطّأ إلى إفريقيَّة ستّة من أهلها بروايتهم عن الإمام مالك، كما وُجد فيها الموطّأ بروايات أخرى، وفيما يلي أسماء الأفراقة والقيروانيّين وقد رتّبهم حسب أسبقيّة تحمّلهم للموطّأ فيما ترجّح لديّ:

ـ علي بن زياد التّونُسي (ت ١٨٣)[4]: وهو محدّث واسع الرّواية، مع علم بنقد الرّجال وضبط للرّواية، ونباهة في الفقه سمع بإفريقيَّة والمشرق، وله أثر كبير

---

(١) انظر: ترجمته رقم ٨ في المهاجرين.

(٢) انظر: ترجمته رقم ٤٠ في المحدثين.

(٣) انظر: مقدمة موطأ مالك برواية ابن زياد ٩.

(٤) انظر عنه: ط أبي العرب ٢٥١، الرياض ١/٢٣٤، المدارك ١/٣٢٦، وانظر: ١/٢٠٣، ٢٥٩، ٢٧١، الانتقاء ٦٠، إتحاف أهل الزمان ١/٩٩، المحن ٣٧٢، طبقات الفقهاء ١٥٢، الشجرة ١/٦٠، الحلل ١/٧٠٨، الإكمال ١/٥٢٤، الديباج ١٩٢، تنوير الحوالك ١/١١، شرح الزرقاني للموطأ ١/٦.

في الحياة العلميّة بإفريقيَّة، وعليه تعلّم شيوخ القرويّين، وهو مؤسّس المدرسة المالكيّة في تلك الرّبوع؛ لأنّه أوّل من أدخل الموطّأ إلى إفريقيَّة بروايته عن مالك، وفسّر لأهلها قول مالك وأصوله، ولم يكونوا يعرفونها قبل ذلك[1].

وإذا كانت المصادر قد ذكرت أنّ علي بن زياد هو أوّل من أدخل الموطّأ إلى بلاد المغرب فإنّها سكتت عن تحديد تاريخ رحلته أو تاريخ إدخاله للموطّأ، ويفترض أن تكون رحلته مبكّرة، لأنّه لحق خالد بن أبي عمران (ت **١٢٥** أو **١٢٩**) وتتلمذ عليه[2]، وقد كان من عادتهم الارتحال في مقتبل العمر إلّا إذا حالت بعض الظّروف دون ذلك، ولعلّ هذا ما حصل لعلي بن زياد؛ إذ لم أعثر في شيوخه على من كانت له وفاة مبكّرة كما هو الحال في شيوخ عبدالله بن فَرُّوخ (**١١٥ ـ ١٧٦**) الذي يقاربه في الطّبقة[3]، هذا إذا لم تكن المصادر قد أغفلت ذكر هؤلاء الشّيوخ[4].

وأمّا إدخاله للموطّأ فأغلب الظّنّ أنّه كان بين سنتي **١٥٧ هـ** و **١٦١ هـ**، فإنّ السّنة الأولى تمثّل تاريخ انتهاء مالك من تصنيف الموطّأ[5]، وأمّا السّنة الثّانية فهي تاريخ وفاة شيخه سفيان الثّوري[6]، هذا بالإضافة إلى أنّ أسد بن الفُرات قد أخذ عنه الموطّأ في حدود هذه الفترة أو بعدها بقليل[7].

---

(١) انظر مثلاً: الرياض ١/٢٣٤، المدارك ١/٣٢٦.

(٢) انظر: المدارك ١/٣٢٦.

(٣) انظر: ترجمته رقم ٣ في المهاجرين.

(٤) لقد لاحظ الشيخ الشاذلي النيفر أن ابن زياد لم ينل حظه من العناية اللائقة بعلمه قديماً وحديثاً. انظر: موطأ ابن زياد ٤٠.

(٥) لأنّها سنة وفاة أبي جعفر المنصور حيث قال عياض: «فوضع الموطأ فلم يفرغ منه حتى مات أبو جعفر». انظر: المدارك ١/١٩٢، وانظر: البيان المغرب ٧٩، شرح الزرقاني للموطأ ١/٧.

(٦) انظر: ط أبي العرب ٢٥١، التقريب ١/٣١١.

(٧) لأن أسداً ولد سنة ١٤٢ هـ وكان يعلّم القرآن ببعض القرى وسنّه ١٨ عاماً ثم انتقل إلى =

ونظراً لأنّ علي بن زياد قد سمع الموطّأ من الإمام مالك حال الفراغ من وضعه، وأسرع بالعودة به إلى إفريقيَّة، فقد اعتُبرت روايته له أوّل رواية للموطّأ خارج المدينة المنورة، بل «أوّل رواية ظهرت للموطّأ على وجه الأرض»[1]، ويؤيّد هذا ما تقدّم قريباً من أنّ عليّاً قد دخل بالموطّأ إلى إفريقيَّة بُعيد انتهاء مالك من وضعه، والمشهور عن بقيّة أصحاب مالك الذين رووا عنه الموطّأ طول ملازمتهم له قبل الانصراف إلى بلدانهم من ذلك أنّ عبدالرحمٰن بن القاسم (ت ١٩١) قد صحبه عشرين سنة[2].

ـ عبدالله بن عمر بن غانم الرُّعَيْنِيّ (ت ١٩٠)[3]: وهو محدّث فقيه تولّى قضاء القيروان، وقد كان في طليعة المرتحلين إلى الإمام مالك وذلك قبل سنة ١٤٥ هـ كما تقدّم قريباً[4] ولمِ تسعفنا المصادر بما يبيّن ما إذا كان ابن غانم قد بقي في المشرق إلى أن انتهى مالك من تصنيف الموطّأ، أم كانت له رحلة أخرى سمع فيها الموطّأ.

أمّا تحمّله للموطّأ عن الإمام مالك فهو ثابت بالرّغم من عدم الإشارة إلى ذلك في معجم الرّواة عن مالك لعِياض ـ مع أنّه ذكره في ترجمته ـ ولا في تنوير الحوالك.

وقد ذكر عبدالله بن أبي زيد (ت ٣٨٦) رواية ابن غانم للموطّأ في كتابه

= تونس ليسمع من ابن زياد. انظر مثلاً: الرياض ١/٢٥٥، ولا يصح ما ذهب إليه الشيخ مخلوف من أن أسداً أخذ الموطأ قبل سن الثامنة عشر التي اعتبرها سنّه عندما رحل إلى المشرق، الشجرة ٢/١١٩ وراجع ترجمة أسد رقم ٤ في المحدثين.

(١) موطأ مالك برواية ابن زياد ٩.

(٢) المدارك ١/٤٣٦، ط الفقهاء ١٥٠.

(٣) انظر: مصادره والتعريف به في ترجمته رقم ٢١ في المحدثين.

(٤) انظر: مقدمة مبحث دخول الموطأ.

الجامع[1] وأشار إليها المالكي[2]، وصرّح بها القاضي عياض[3]، وذكرها ابن طولون في الفِهْرِسْت الأوسط عند سرده لأسانيد الموطّأ[4].

ـ أسد بن الفُرات (ت ٢١٣)[5]: سمع أسد الموطّأ من عليّ بن زياد كما سبق، ثمّ رحل إلى المشرق سنة ١٧٢ هـ[6]، وقد أخذ عن الإمام مالك الموطّأ وغيره[7]، وحدّث به في العراق[8]، ثمّ عاد به إلى إفريقيَّة سنة ١٨١ هـ[9].

ـ محمد بن معاوية الحضرمي الطّرابُلْسِيّ ثمّ القروي[10]: **محدّث، فقيه**، ثقة، مشهور، وقد سمع منه القرويّون، ولم تذكر المصادر شيئاً من تواريخ وفاته ورحلته، وإنّما ذكروا أنّه «كان له سنّ وإدراك»، وصرّحوا بسماعه للموطّأ، وذكر عياض عن المالكي أنّ موطّأ محمد بن معاوية يمتاز على غيره من الموطّآت باشتماله على جامع الجامع، وليس ذلك عند أحد غيره من رواة الموطّأ.

ـ عيسى بن شَجَرة التّونُسي: هذا العلَم من الأفارقة الكثيرين الذين انمحت آثارهم حيث لم توجد له ترجمة مستقلّة مع أنّه من رواة الموطّأ كما ورد في تنوير الحوالك وغيره[11]، وله سماع من اللّيث بن سعد (ت ١٧٥)، وعبدالله بن لَهِيعة

---

(١) انظر: الجامع ١٦٣. (٢) انظر: الرياض ١/٢١٧.

(٣) االمدارك ١/٣١٧.

(٤) نبّه على ذلك الشيخ الشاذلي النيفر في مقدمته لموطأ ابن زياد ٨٠.

(٥) انظر: مصادره والتعريف به في ترجمته رقم ٤ في المحدثين.

(٦) المعالم ٢/٥.

(٧) المدارك ١/٢٠٢، ٤٦٥، تنوير الحوالك ١/١٠، موطأ ابن زياد ٧٣، ٨١.

(٨) (٩) الديباج ٩٨.

(١٠) انظر عنه: ط أبي العرب مح ٢٥٤، الرياض ١/١١٠، (تحقيق مؤنس)، المدارك ١/٤٩٠، موطأ ابن زياد ٨٢، معجم البلدان ١/٢١٧.

(١١) تنوير الحوالك ١/١١،موطأ ابن زياد ٧٣، ٧٥، المدارك ١/٢٠٣، شرح الزرقاني للموطأ ١/٦.

(ت ١٧٤)، وقد ذكر ذلك القاضي عياض عرضاً في ترجمة ابنه شَجَرَة بن عيسى (ت ٢٣٢)[١].

ـ خَلَف بن جَرِير بن فَضَالة القروي: فقيه محدّث ثقة، سمع من معظم شيوخ عبدالله بن وهب (ت ١٩٧)[٢]، وفي مقدّمتهم الإمام مالك الذي أخذ عنه الموطّأ[٣]، وهو أيضاً ممّن قلّ الاهتمام بتدوين أخبارهم، حيث لم يترجم له غير أبي العرب.

٢ ـ الرّوايات الأخرى للموطّأ:

أمّا روايات الموطّأ التي لم يسمعها الأفارقة عن الإمام مالك، ورويت في بلادهم، فقد عرفنا منها ستّ روايات هي:

ـ رواية عبدالعزيز بن يحيى المدني (ت بعد ٢٣٥)[٤]: وقد أدخلها بنفسه إلى القيروان حين قدم إليها سنة ٢٢٥ هـ، ومكث فيها سنة كاملة حتّى استوعب القرويّون السّماع منه، وقد وثّقه أبو العرب وأثنى على حفظه، وضعّفه المشارقة، والرّاجح في حاله أنّه ضعيف وقد تقدّم بيان ذلك عند ذكره في مباحث الرّحلة[٥].

ـ رواية عبدالرحمٰن بن القاسم العُتَقِي (ت ١٩١): وقد أدخلها الإمام سَحنون (ت ٢٤٠)، وكانت تُروى بالقيروان[٦]، وتوجد منها نسخة كاملة جيّدة بمكتبة القيروان[٧].

---

(١) انظر: المدارك ٢٧٢/١، ١٠١/٤.
(٢) انظر: ط أبي العرب مح ١٥٦، وانظر عن ابن وهب: التهذيب ٧١/٦.
(٣) انظر: المدارك ٢٠٢/١، ٢٦٠، تنوير الحوالك ١٠/١، موطأ ابن زياد ٧٥، شرح الزرقاني للموطأ ٦/١.
(٤) انظر: ط أبي العرب مح ١٥٨، ١٨٢، التهذيب ٣٦٣/٦، موطأ ابن زياد ٨١، ٨٣.
(٥) انظر: ص ٢١٦.
(٦) انظر: الملخص للقابسي خط لوحة ٣، وانظر عن ابن القاسم: التهذيب ٢٥٢/٦.
(٧) المكتبة الأثرية ٤١، سجل قديم ٣٦٠.

ـ رواية يحيى بن عبدالله بن بُكَيْر (ت ٢٣١): وقد أدخلها يحيى بن عمر (ت ٢٨٩) وعنه انتشرت في إفريقيَّة[١].

ـ رواية عبدالله بن وهب (ت ١٩٧): وممّن أدخلها الإمام سَحنون، وشاعت روايتها بالقيروان[٢]. ولا تزال منها قطع في مكتبة جامع القيروان[٣].

ـ رواية يحيى بن يحيى اللّيثي (ت ٢٣٤)، وهي أشهر روايات الموطّأ ويبدو أنّها دخلت عن طريق الأندلسيّين الكثيرين الوافدين إلى القيروان، وتوجد منها قطعة بمكتبة جامع القيروان[٤]، وهي التي في معظم طبعات الموطّأ، وعليها أغلب شروحه[٥]، ولعلّ ذلك يرجع إلى أنّها من آخر الرّوايات سماعاً عن مالك[٦]؛ فإنّ يحيى أخذه عنه في السّنة التي توفّي فيها مالك، ويضاف إلى ذلك ما عرف به من العلم والفضل، وقد وثّقه بعض العلماء[٧].

ـ رواية أبي مصعب أحمد بن أبي بكر بن الحارث الزُّهْرِي المدني (ت ٢٤٢)، توجد منها قطعة بمكتبه جامع القيروان[٨]، وفيها زيادة نحو مائة حديث.

---

(١) انظر: المدارك ٣/٢٣٨، ٢٣٩، وراجع ترجمة يحيى بن عمر رقم ٩ في المهاجرين، وانظر عن ابن بكير: التهذيب ١١/٢٣٧.

(٢) انظر: الرياض ١/١٢٤، ١٥١، ٢/١٦٢.

(٣) انظر: المكتبة الأثرية ٣٩، سجل قديم ٣٦٠.

(٤) انظر: المكتبة الأثرية ٣٩، وانظر عن يحيى بن يحيى: المدارك ١/٥٣٤.

(٥) انظر: مقدمة تنوير الحوالك ١/١٢، شرح الزرقاني ١/٧، التمهيد ١/١٠، وقد اعتمد السيوطي فيه رواية يحيى، كما اعتمدها ابن عبدالبر في التمهيد والتقصي، وأبو الوليد الباجي في المنتقى وابن العربي في القبس، والزرقاني وغيرهم.

(٦) المدارك ١/٥٣٥.

(٧) انظر: التهذيب ١١/٣٠٠، المدارك ١/٥٣٤.

(٨) انظر: المكتبة الأثرية ٣٨، سجل قديم ٣٦٠ وراجع عن أبي مصعب التهذيب ١/٢٠.

وممّا هو جدير بالملاحظة أنّ روايات الأفارقة للموطّأ قد أصبحت أثراً بعد عين، ولم يبق منها إلّا قطعة من موطّأ ابن زياد[1] ، بينما بقيت قطع من معظم ما دخل إليهم من روايات غيرهم، والسّبب في ذلك زهادة الأفارقة فيما لديهم واعتمادهم روايات غيرهم[2]، فهذا الإمام سَحنون نجده يستدلّ في المدوّنة بما رواه من طريق ابن القاسم، وابن وهب أضعاف ما يستدلّ به من رواية ابن زياد، أما ابن غانم فما رواه من طريقه لا يكاد يذكر[3]، مع أنّه سمع منه الموطّأ[4]، كما أنّ القابِسي اعتمد في كتابه المسمّى «الملخّص» على رواية سَحنون عن ابن القاسم دون غيرها[5].

هذا بالإضافة إلى ضياع مصنّفات القرويّين المتعلّقة بالموطّأ، مثل: شرح الموطّأ لمحمد بن سَحنون (ت ٢٥٦)[6]، ولعلّ أصحابها اعتمدوا روايات إفريقيَّة.

٣ ـ اهتمام القرويّين بالموطّأ:

لم يهتمّ القرويّون برواية مصنّف حديثيّ اهتمامهم برواية الموطّأ[7]، وهو أمر تسهل ملاحظته على من تصفّح مصادر تراجمهم، ولا غرابة في ذلك، فإنّه عمدة المذهب الذي كان غالباً على أهل إفريقيّة ولم يزل في نموّ وانتشار حتّى لم يترك فيها مكاناً يذكر لغيره[8].

وإنّ شيوع رواية الموطّأ بالقيروان من اثني عشرة طريقاً، كما تقدّم قريباً،

(١) قام بتحقيقها الشيخ الشاذلي النيفر وطبعتها دار الغرب الإسلامي سنة ١٤٠٢ ـ ١٩٨٢ وقد سبق طبعها قبل ذلك ثلاث مرات.

(٢) انظر: مقدمة موطأ ابن زياد ٧٧.

(٣) انظر: مصادر المدونة عند التعريف بها في المصنفات.

(٤) انظر: الرياض ٢١٧/١.

(٥) انظر: الملخص خط لوحة ٣.

(٦) انظر: المدارك ١٠٦/٣.

(٧) انظر: مقال البخاري واهتمام أهل المغرب به ١٣.

(٨) انظر: مبحث الوضع الديني في التمهيد.

يعتبر من أكبر أدلّة هذا الاهتمام، إذ لم يعرف لمصنّف آخر أنّه روى بالقيروان بهذه الكثرة من الطّرق.

ولقد كان القرويّون حريصين على سماع الموطّأ وروايته، إلى درجة أنّنا لا نكاد نعثر على من يُشكّ في سماعه للموطّأ ممّن نُسب إلى علم منهم[1]، كما أنّه أوّل ما يتلقّاه الطّالب عندهم بعد تخرّجه من الكُتّاب كما تقدّم، حتّى إنّ منهم من حفظه وهو دون سنّ الخامسة عشر[2]، وفي أيام بني عُبَيد كان الموطّأ يُقرأ سرّاً في البيوت[3].

وقد اشتهر بحفظه جماعة من الرّواة منهم محمد بن زَرْزَر (ت ٢٩١)[4]، وأبو الغصن نَفِيس السّوسي (٣٠٩)[5]، وأبو الفضل عبّاس بن عيسى المَمْسِي (ت ٣٣٣)[6].

ولم تقتصر رواية الموطّأ على الرّجال بل قد شارك في ذلك النّساء، القرويّات أيضاً حتّى إنّ منهنّ من حفظته[7].

ويمكن أن نعتبر الإقبال على سماع الموطّأ ونشره وتدارسه أكبر مظاهر اهتمام الأفارقة والقرويّين بالموطّأ؛ إذ إنّ التّصنيف حوله ـ وإن وجد ـ فإنّه لم يكن بالكثرة الذي يتوقّعها من يقف على اهتمامهم الفائق بروايته، حيث لم تزد شروحه على أربعة وهي:

أ ـ شرح الموطّأ لمحمد بن سَحنون (ت ٢٥٦)، وهو أربعة أجزاء[8].

---

(١) انظر مثلاً: الرياض ٢١٧/١، ٢٣٤، ٢٥٥، ٢٩٠.
(٢) انظر: المعالم ٢٧/٣، المدارك ٣١٧/٣.
(٣) انظر: ط الخشني ١٩٥.
(٤) انظر: المعالم ٢٤٨/٢.
(٥) انظر: الرياض ١٦٢/٢.
(٦) انظر: المدارك ٣١٧/٣.
(٧) انظر: الرياض ١٨٦/٢.
(٨) انظر: المدارك ١٠٦/٣، الديباج ٢٣٧.

ب ـ النّامي في شرح الموطّأ لأحمد بن نصر الدّاوُدي (ت ٤٠٢)[1]، منه جزء بمكتبة القرويّين بفاس[2].

جـ ـ شرح الموطّأ للإمام أبي الحسن القابِسي (ت ٤٠٣)، ويظهر أنّه جملة من التّعليقات، وقد نقل عنه صاحب الاستقصاء[3].

د ـ تفسير الموطّأ لأبي عبدالملك مروان بن محمد الأسدي (ت قبل ٤٤٠)[4].

ولعلي بن زياد (ت ١٨٣) بعض التّعليقات والاجتهادات أوردها في ثنايا روايته للموطّأ[5].

وللقرويّين كتابان حول اختصار الموطّأ، هما:

أ ـ مسند حديث مالك للحافظ أبي العرب محمد بن أحمد التَّمِيمِي (ت ٣٣٣)[6].

ب ـ المُلخِّص لما أسنده مالك في الموطّأ لأبي الحسن علي بن محمد القابِسي (ت ٤٠٣)[7].

ولهم كتابان حول بعض رجال الموطّأ ورواته هما:

أ ـ كتاب في شيوخ مالك لمحمد بن سَحنون (ت ٢٥٦)[8].

ب ـ كتاب الرّواة عن مالك لمحمد بن حارث الخُشَنِي (ت ٣٦١)[9].

---

(١) الشجرة ١/١١١، مدرسة البخاري في المغرب ٢/٥٨٠.

(٢) فهارس مكتبة القرويين ١/١٨١ رقم ١٧٥.

(٣) انظر: الاستقصاء ١/٩٠، المكتبة الأثرية ٣٨، ٣٩.

(٤) الجذوة ٣٢١، الصلة ٢/٥٨١، معجم أعلام الجزائر ٥٢، المدارك ٣/٧٠٩.

(٥) انظر: مقدمة موطأ ابن زياد ٩، ١٠.

(٦) المدارك ٣/٣٣٥.

(٧) انظر: التعريف به في المصنفات ص ٦٠٤.

(٨) المدارك ١/٢٠٠.

(٩) الديباج ٢٥٩.

رابعاً: دخول صحيح البُخاري والاهتمام به:

أ ـ دخولـه:

لقـد فرغ الإمـام محمد بن إسمـاعيل البُخـاري (ت ٢٥٦)[1] من تصنيف جامعه الصّحيح سنة ٢٣٣ هـ على أقصى تقدير؛ لأنّه لمّا أتمّه عرضه على جماعة من أئمـة عصـره[2]، كـان أقـدمهم وفـاة يحيى بن معين المتـوفّى في السّنـة المذكورة[3]، واجتهد الإمام البُخاري في إسماع مصنّفه الجليل، وكثر الرّاغبون في تحمّله حتّى سمعه منه تسعون ألفاً من الرّواة[4]، وكان سماع الفَرَبْرِيّ منه ـ وهو الذي اشتهرت روايته في الآفاق ـ مَرّة بفَرَبْر سنة ٢٤٨ هـ، ومرّة ببُخارى سنة ٢٥٢ هـ[5].

أمّا صلة أهل المغرب بصحيح البُخاري فكانت بُعَيد منتصف القرن الرّابع، أي بعد قرابة مائة سنة من وفاة مصنّفه، وهو أمر يستغرب له الباحث، ولذلك فقد افترض بعض المعاصرين وجود صحيح البُخاري في إفريقيَّة قبل هذا التّاريخ في صورة غير سليمة[6]، أي غير مضبوطة، ومسألة احتمال تقدّم دخوله على التّاريخ المثبت في المصادر افتراض معقول، ولكن يعوزه الدّليل، فقد أجمعت المصادر المتاحة ـ مع كثرتها ـ على أنّ الإمام أبا الحسن علي بن محمد القابِسي القيرواني (ت ٤٠٣) هو أوّل من أدخل صحيح البُخاري إلى بلاد المغرب، وذلـك سنة

---

(١) انظر عنه مثلاً: التهذيب ٤٧/٩، أبو الوليد الباجي وكتابه التعديل والتجريح ٣٠٧/١، هدي الساري ٤٧٧، مكانة الصحيحين ٢١.

(٢) انظر: فهرسة ابن خير ٩٥، التهـذيب ٥٤/٩، مكانـة الصحيحين ٣٨، تاريـخ التراث العربي ٢٢٦/١/١، هدي الساري ٧، ٤٨٩.

(٣) التقريب ٤٠/٢.

(٤) انظر: هدي الساري ٤٩١، إفادة النصيح ١٨، مكانة الصحيحين ٣٩، الحطة ١٧٦.

(٥) انظر: فتح الباري ٥/١، إفادة النصيح ١٦.

(٦) انظر: «أبو عبدالله الأبي وكتابه الإكمال» ١٠٥.

٣٥٧ هـ[١]، ولم توجد أي إشارة في كتب الفهارس المغربيّة أو غيرها من المصادر المتاحة إلى ظهور الصّحيح في بلادهم قبل ذلك، وليس من المعقول إغفال هذا الأمر المهمّ إن وجد؛ لأنّه من مفاخر القوم ووسيلة الاستدلال إذا تحقّق، خاصّة وقد اهتمّوا بإثبات أسانيدهم إلى هذا الكتاب العظيم[٢].

ويمكن أن يُعلَّل هذا التّأخّر في ظهور صحيح البُخاري في بلاد المغرب إلى تركّز اهتمامهم على الموطّأ أوّلاً، ولعدم وجود تلاميذ للبخاري في طريق رحلتهم في بداية ظهور الصّحيح، ولمّا اشتهر أمره وانتشر بالحرمين والعراق، وغيرها، كان المغاربة قد انشغلوا بأمر الإسماعيليّين الرّافضة إلى أن ابتُلوا بسيطرتهم على البلاد، وتضييقهم على العلماء وملاحقتهم لكتب السُّنّة، وتسبّبهم على الحجيج وغيرهم ممّن يريد الانتقال إلى المشرق، فتقلّصت الرّحلة إليه وتكثفت الرّحلة إلى بلاد الأندلس[٣]، ولم يكن صحيح البُخاري قد عُرف بها حينذاك، وإنّما دخلها أوّل ما دخلها عن طريق أهل القيروان[٤].

وقد تزامل الإمام القابِسي في رحلته إلى المشرق سنة ٣٥٢ هـ مع الحافظ

---

(١) بعض المصادر صرح بذلك وبعضها أفدته منه بتتبع الأسانيد. انظر: الشجرة ١/٩٧، ١٠٠، إفادة النصيح ١١١، المعالم ٣/١٣٥، ١٣٩، الديباج ٢٠٠، مدرسة البخاري في المغرب ١/٣٠، ٣٤، أبو عبدالله الأبي ١٠٢، الغنية ٣٣، مشارق الأنوار ١/٣٦، الصلة ١/٢٦٦، فهرس ابن عطية ٦٦، فهرسة ابن خير ٩٧، الإمام المازري ٣٢، أضواء على السنة ٨٥، وقد أغرب المَقَّري حين ذكر أن أبا حفص الهوزني هو الذي أدخل الصحيح إلى المغرب وعنه أخذه الناس، لأن رحلة أبي حفص لم تكن إلا سنة ٤٤٤ هـ. انظر: نفح الطيب ٢/٩٣، مدرسة البخاري ١/٣٤.

(٢) انظر: إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح (وجميعه في هذا الغرض)، أبو الوليد الباجي وكتابه التعديل والتجريح ١/٢٧٣، مشارق الأنوار ١/٣٦، فهرسة ابن خير ٩٤، فهرس ابن عطية ٦٥، الغنية ٣٣، الشجرة ٢/٤٦٢.

(٣) راجع مباحث الرحلة في هذه الرسالة.

(٤) انظر مثلاً: مشارق الأنوار ١/٣٦، ٣٨، فهرسة ابن خير ٩٧.

أبي محمد عبدالله بن إبراهيم الأَصِيلِيّ الأندلسي (ت ٣٩٢)، وكان سماعهما للصّحيح واحداً بمكّة سنة ٣٥٣ هـ على أبي زيد المَرْوَزِي كما سيأتي[١]، والأَصِيلِيّ هو الذي تولّى ضبط سماع القابِسي للصّحيح بين يديه[٢]، غير أنّ الإمام القابِسي القيرواني هو الذي نال شرف السّبق بإدخال هذا المصنّف الجليل إلى إفريقيَّة والمغرب؛ لأنّه عاد من رحلته سنة ٣٥٧ هـ[٣]، بينما دامت رحلة الأَصِيلِيّ قرابة الثّلاثة عشر عاماً[٤]، أي إنّه لم يعد إلى الأندلس إلّا حوالي سنة ٣٦٥ هـ بعد عودة القابِسي بثماني سنوات.

وعن طريق القابِسي شاعت رواية الصّحيح في بلاد إفريقيَّة والمغرب والأندلس[٥]، بل روي من طريقه بالمشرق أيضاً، وكانت روايته إحدى سماعات الحافظ أحمد بن علي بن حَجَر العَسْقَلَانِيّ (ت ٨٥٢) لصحيح البُخاري[٦].

ب ـ أسانيد القرويّين إلى صحيح البُخاري:

لقد فتح أبو الحسن القابِسي أعين القرويّين، ضمن ما فتح، على صحيح البُخاري، فأقبلوا على سماعه منه، ثمّ رحل جماعة منهم لسماعه بالمشرق بأقرب درجة إلى مصنّفه، وقد عثرت منهم بعد البحث والتّتبّع، على ستّة من الرّواة غير الإمام القابِسي، وكلّهم رووه مثل القابِسي من طريق الفَرَبْري بالأسانيد المختلفة إليه على النّحو الذي سيأتي ذكره، وقد رتّبتهم بحسب ما ظهر لي من أسبقيّة إدخالهم للصّحيح إلى القيروان.

١ ـ الإمام أبو الحسن علي بن محمد القابِسي (ت ٤٠٣)، وقد سمعه

---

(١) انظر مثلاً: الشجرة ١/١٠٠، إفادة النصيح ١١١، فتح الباري ١/٦.

(٢) انظر مثلاً: المدارك ٣/٦١٧، المعالم ٣/١٣٩.

(٣) المعالم ٣/١٣٥، سير أعلام ١٧/١٦٠.

(٤) الديباج ١٣٨، المدارك ٣/٦٤٣.

(٥) انظر: فهرسة ابن خير ٩٧، الصلة ١/٢٦٦، مشارق الأنوار ١/٣٦، ٣٨.

(٦) فتح الباري ١/٦.

بمكّة سنة ٣٥٣ هـ على أبي زيد محمد بن أحمد المَرْوَزِيّ (ت ٣٧١)[١]، وعلى أبي أحمد محمد بن يوسف الجُرْجَانِيّ (ت ٣٧٣)[٢]، كلاهما عن الإمام محمد بن يوسف الفَرَبْرِي (ت ٣٢٠)[٣] عن الإمام البُخاري[٤].

٢ ــ عبدالرحمٰن بن محمد بن رَشِيق، أبو القاسم (ت بعد ٤٤٤)، أخذه عن أبي ذرّ عبد بن أحمد الهَرَوي (ت ٤٣٥)[٥] بسنده إلى الفَرَبْرِي عن البُخاري، وذلك في رحلته إلى المشرق سنة ٣٧٦ هـ[٦].

٣ ــ أبو عمران موسى بن عيسى الفاسي القروي (ت ٤٣٠)، سمعه عن أبي ذرّ الهَرَوي أيضاً، وذلك في رحلته إلى المشرق سنة ٣٩٩ هـ، ودخل به القيروان سنة ٣٠٢ هـ[٧]، وكان قد سمعه قبل ذلك من القابِسي، وحدّث به في الأندلس[٨]، كما سمعه من أبي محمد الأصيلي أيضاً[٩].

٤ ــ أبو عبدالله محمد بن عبدالله المالكي (ت ٤٣٨ وقيل ٤٤٤)، أخذه عن أبي ذرّ الهَرَوي، ودخل به القيروان أوّل سنة ٤٠٨ هـ، وكان قد سمعه قبل ذلك من شيخه القابِسي[١٠].

---

(١)، (٢) انظر عنهما: إفادة النصيح ٢٢.

(٣) انظر عنه: إفادة النصيح ١٠ ـ ٢٣، الإكمال ٨٤/٧.

(٤) انظر عن سنَدَي القابسي: فتح الباري ٥/١، ٦، إفادة النصيح ١١١.

(٥) انظر: إفادة النصيح ٣٩.

(٦) راجع ترجمة ابن رشيق رقم ١٧ في المحدثين.

(٧) انظر: ترجمته رقم ٧ في المهاجرين، ولا يصح ما ذهب إليه بعضهم من أن الفاسي أخذ الصحيح عن أبي إسحٰق المستملي أيضاً (أبو عبدالله الأبي انظر: ١٠٤)؛ لأن المستملي قد توفي سنة ٣٧٦ هـ، وقد ولد الفاسي سنة ٣٦٥ هـ، ورحل سنة ٣٩٩ هـ، وانظر: ترجمة الفاسي رقم ٧ في المهاجرين.

(٨) مشارق الأنوار ٣٨/١.

(٩) مدرسة الإمام البخاري في المغرب ٣٣/١.

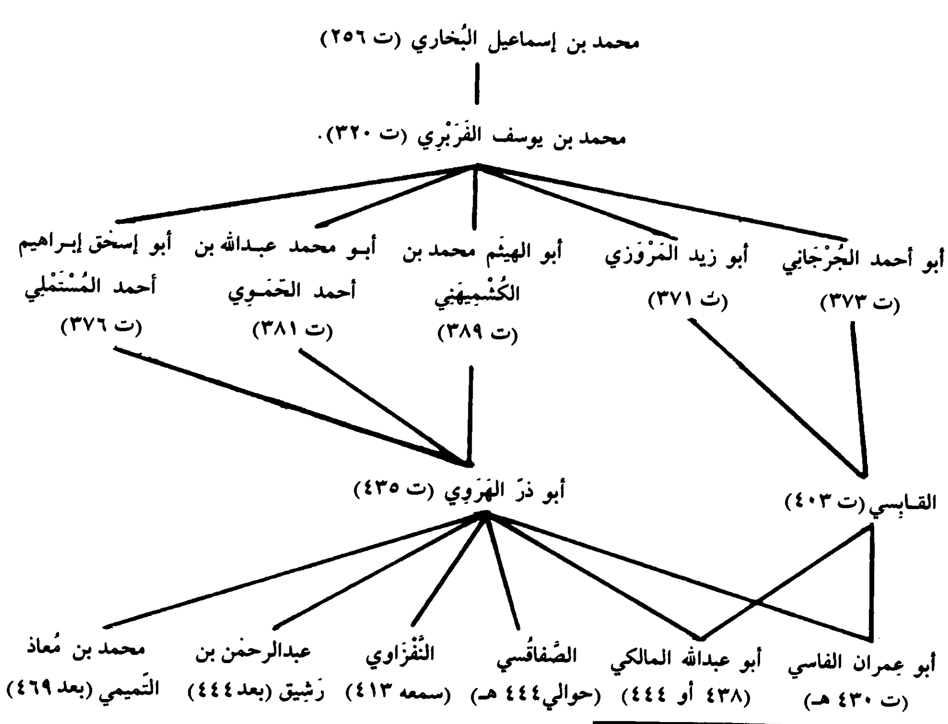
(١٠) انظر: المعالم ١٧٣/٣، الشجرة ١٠٨/١.

٥ ـ أبو القاسم مُضَر بن الحَبْحَاب النَّفْزَاوِي، سمعه من أبي ذرّ الهَرَوي، وحدّث به في القيروان[1].

٦ ـ عثمان بن أبي بكر الصَّفـاقُسي (ت حوالي ٤٤٤)، الـذي رحل إلى المشرق حوالي سنة ٤٢٠ هـ، وقد أخذ الصّحيح عن أبي ذرّ، وتوسّع في الرّحلة فلم يعد إلى القيروان إلّا بعد سنة ٤٣٠ هـ[2].

٧ ـ محمد بن مُعاذ التّميمي القيرواني، أبو عبدالله، سمع الصّحيح على أبي ذرّ الهَرَوي، وكان يحدّث به في المَهْدِيَّة بعد خراب القيروان[3].

وسيزداد الأمر وضوحاً بشجرة الإسناد التّالية:



---

(١) مدرسة البخاري في المغرب ٤٧/١.

(٢) راجع ترجمته رقم ٤ في المهاجرين.

(٣) انظر: فهرس ابن عطية ٦٥.

جـ ـ اهتمام الأفارقة والقرويّين بصحيح البخاري:

يعتبر دخول صحيح البُخاري إلى القيروان سنة ٣٥٧ هـ حدثاً هامّاً في تاريخ السّنّة بإفريقيَّة، حيث إنّه قد نشطت به رواية الحديث، وشاعت بسببه السُّنّة الصّحيحة، وأصبح هو الكتاب الثّاني ـ بعد الموطّأ ـ وقد نال حظّاً وافراً وجانباً كبيراً من عناية القرويّين، والمتمثّلة أساساً في الإقبال على سماعه، وروايته، وتكبّد مشاق الرّحلة في سبيل تحمّله حتّى أدخله سبعة من القرويّين.

وما إن وصل القابِسي بروايته للبُخاري حتّى أقبل عليه النّاس ليسمعونه منه، فتمنّع في البداية هيبة من التّحديث في حياة شيوخه، ولكنّ الطّلبة رأوا أنّه لا يسعه ذلك؛ لمسيس الحاجة إلى ما عنده، وعزموا على كسر باب داره فلمّا رأى ذلك خرج إليهم[1]، وقد اجتهد في رواية الصّحيح فأخذته عنه جموع غفيرة من القرويّين، والمغاربة والأندلسيّين لا يقلّون عن ثمانين، وهو عدد الطّلبة الذي لازموه وسكنوا في عَلِيّة داره، وتحمّلوا عنه مرويّاته ومصنّفاته، وقد كانوا من مختلف بلاد المغرب[2]، كما عُرفت روايته له بعد ذلك في المشرق أيضاً، فقد سمعه الحافظ ابن حَجَر برواية القابِسي من الطريقين اللّذين سبق ذكرهما[3].

ومن اهتمام القرويّين به رحلة النّفر الذين تقدّم ذكرهم لسماعه، مع أنّ منهم من أخذه عن القابِسي قبل رحلته، مثل أبي عِمران الفاسي وأبي عبدالله المالِكي، وذلك طلباً لعلوّ الإسناد، وبعد العودة قاموا بروايته[4]، فازداد عدد حملته، وتعدّدت رواياته.

---

(١) انظر: المعالم ١٣٦/٣.

(٢) انظر: الصلة ١٥٦/١، وراجع أسماء بعضهم في ترجمة القابسي رقم ٢٤.

(٣) انظر: فتح الباري ٥/١، ٦.

(٤) انظر مثلاً: فهرس ابن عطية ٦٥، مشارق الأنوار ٣٨/١، مدرسة البخاري ٣٣/١، ٤٧، إفادة النصيح ٨٣.

وبالرّغم من شدّة حفاوة الأفارقة عامّة والقرويّين خاصّة بتلقّي الصّحيح فإنّ عنايتهم به كانت مقتصرة على الرّواية، والمدارسة، والبحث، واستثارة الفوائد أثناء السّماع، على ما هو معهود لدى حُذّاق المحدّثين[١]؛ إذ لم تنقل لنا المصادر المتوافرة أنّهم قاموا بدراسات حوله، غير الشّرح المسمّى بالنّصيحة في شرح البُخاري، والذي صنّفه أبو جعفر أحمد بن نصر الدَّاوُدِي (ت ٤٠٢)[٢]، وقد اعتمده ابن حَجَر في فتح الباري[٣]، وسيأتي ذكره في المصنّفات.

وممّا هو جدير بالملاحظة هنا أنّ علماء القيروان كانوا يُقدّمون صحيح البُخاري على صحيح مُسْلِم[٤]، كما هو مذهب جمهور علماء الأمّة[٥]، مخالفين في ذلك ما شاع عن المغاربة من تفضيل صحيح مسلم[٦].

وقد اقتصرتُ على ذكر الموطّأ وصحيح البُخاري لمكانتهما الخاصّة لدى محدّثي القيروان وفقهائها، مع أنّه قد شاعت لديهم رواية كثير من المصنّفات الحديثيّة غيرهما، مثل سنن أبي داود والتّرمذي والنَّسائي، والمسانيد المختلفة مثل مسند بقيّ بن مَخْلَد، والمصنّفات المختلفة مثل مصنّف وكيع بن الجرّاح وغيرها، وقد تقدّم ذكرها في ثمرات الرّحلة.

خامساً: سند الرّواية بالقيروان:

لقد ذكرت في غير موضع من هذه الرّسالة[٧] أنّ الصحابة هم أوّل من أظهر

---

(١) انظر: معجم شيوخ الحافظ ابن حجر الذي سماه: المجمع المؤسس للمعجم المفهرس خط ص ٢ (ميكروفيلم) ولوحة ٢ أ (مصور).

(٢) انظر: مدرسة البخاري ٥٦٩/٢، ٥٧٩، المدارك ٦٢٣/٣، معجم أعلام الجزائر ١٤١.

(٣) انظر: فتح الباري ١٥/١، ١٠٢، ١٩١، ٤٣٧.

(٤) انظر: المؤنس ٣١٣.

(٥) انظر: علوم الحديث ١٤، مكانة الصحيحين ٥٢.

(٦) علوم الحديث لابن الصلاح ١٥.

(٧) وذلك في مناسبات مختلفة للتأكيد على أن أهل القيروان وإفريقية قد تلقوا العلم من =

بإفريقيَّة والقيروان علوم الرّواية القائمة على الكتاب والسُّنّة، ثمّ خلفهم في ذلك التّابعون الذين سكنوا القيروان فعظم أثرهم في نشر علوم السُّنّة بها، وأدخلوا إليها حديث عدد كبير ممّن لم يدخلها من الصّحابة[1]، يساعدهم في ذلك التّابعون القيروانيّون[2]، وعلى أيدي هؤلاء وأولئك تخرّج كثير من الرّواة الذين أسهموا في إثراء الحياة العلميّة بالقيروان، ثمّ تتابع ظهور حملة العلم وناشريه بالقيروان، ومن هؤلاء تألّف سند الرّواية فيها.

وبالرّغم من ثبوت هذا التّسلسل الذي ينبغي إبرازه ـ وخاصّة فيما يتعلّق بالصّحابة، إذ لم يقع حسب علمي إبراز ذلك وتحديده حتّى الآن[3] ـ فإنّ المصادر المتوافرة لم تسعفنا بأي حديث له سند إفريقيّ يغطّي كلّ هذه الفترة (٥٠ ـ ٤٤٩ هـ) من الصّحابة إلى الجيل الأخير الذي نشر العلم في القيروان قبل خرابها، وحتّى الحديث الذي أورده صاحب المناهل السّلسة على أنّه مسلسل بالإفريقيّين نجد أنّ سنده قد تحوّل إلى مشرقيّ في وسطه[4]، أمّا أورده على أنّه مسلسل بالمغاربة فقد تألّف سنده من الأفارقة والمصريّين[5].

= طريقه العلمي الصحيح ومظنته الشرعية، راجع خاصة مبحث أثر الصحابة في نشر السنة بالقيروان.

(١) راجع تراجم التابعين في الباب الثالث، فقد ذكرت عند كل تابعين أسماء الصحابة الذين أدخل حديثهم إلى القيروان.

(٢) هم أهل البلاد الذين أخذوا عن الصحابة وقد وفقني الله في العثور على بعضهم مثل يزيد بن قاسط وميسرة الزرودي، انظر: رقم ١٩ ورقم ٢٠ في القسم الثالث من التابعين.

(٣) لقد أشار الأستاذ ح.ح عبدالوهاب إلى ذلك كفكرة عامة دون ذكر أسماء هؤلاء الصحابة أو أحاديثهم. انظر: الإمام المازري ١٠، وقد ذكرتُ أسماء هؤلاء الصحابة وأحاديثهم في مبحث أثر الصحابة في نشر السنة بالقيروان في الباب الثالث.

(٤) انظر: المناهل السلسلة ١٦٧.

(٥) م. ن ١٦٣، وسيأتي ذكر الحديثين بسنديهما في علوم الرواية.

والسّبب في عدم العثور على سند إفريقيّ كامل لهذه الفترة يعود إلى طغيان الأسانيد التي مزجت بين الأفارقة وغيرهم[1]، وخاصّة بعد منتصف القرن الثّاني حين تكثّفت الرّحلة، ويضاف إلى ذلم ضياع معظم مصنّفات القرويّين في الحديث[2]، وهي مظنّة وجود الأسانيد الإفريقيَّة، وممّا يؤسف له بهذا الخصوص أنّ كتاب رياض النّفوس في صورته الواصلة إلينا قد بُترت فيه الأسانيد، ولو وُجدت فيه كاملة لوضح لنا هذا الجانب؛ لأنّ صاحبه قد صنّفه بعد خراب القيروان سنة ٤٤٩ هـ[3] أي أنّه كان من العلماء الذين يمثّلون خاتمة السّند القروي للفترة التي أنا بصدد دراستها.

وقد لاحظتُ أنّ الأسانيد الإفريقيّة المتعلّقة بصدر هذه الفترة تقف غالباً عند أتباع التّابعين لتصبح بعد ذلك مشرقية[4]، أمّا أسانيد أهل وسط هذه الفترة وآخرها فهي وإن تسلسلت ببعض الأفارقة إلا أنّها لا تلبث أن تتحوّل إلى مشرقيّة أو ممزوجة، وخاصّة عند طبقة الإمام مالك والثّوري وغيرهما، وكان ذلك هو الغالب المشهور، حتّى إنّ جبلة بن حَمُّود الصَّدَفِي (ت ٢٩٧)[5] قد دافع عن بعض تلاميذ سَحنون حين ضربهم القاضي المعتزلي محمد بن عَبْدُون (ت ٢٩٧)[6]، قائلاً: «... وهم رجال سَحنون، وسَحنون أخذ العلم عن رجال

---

(١) انظر: الإلماع ٨١، المعالم ١/١١٨، ٢٦٤، الحلية ١/٢٨٥.

(٢) راجع مبحث أهم المواضيع التي صنف فيها محدثو القيروان.

(٣) انظر: الرياض ١/٤، ٢٧٣، وراجع مقدّمة الرياض للبكّوش ١٩، ٢٠.

(٤) انظر: المعالم ١/١٤٩، ١٨٨، معجم الطبراني ٥/٣٠٢.

(٥) فقيه محدث من أصحاب سحنون، له رحلة، كان يحدث في قصور الرباط ثم يقدم القيروان فيسمع الناس منه، انظر: الشجرة ١/٧٣، الرياض ٢/٢٧، ط الخشني ١٤٣، المدارك ٤/٣٧١، المعالم ٢/٢٧٠، تراجم المؤلفين ٥/٢١٠.

(٦) انظر عنه: ط الخشني ١٨٧.

مالك، ورجال مالك أخذوه عنه، وأخذه مالك عن التّابعين، والتّابعون عن الصّحابة رضي الله عنهم أجمعين والصّحابة عن الرّسول ﷺ»[1].

وممّا تتمّ به الفائدة هنا، ويُسهم في سدّ هذا النّقص المتعلّق بالسّند القرويّ للرّواية، ذكرُ أشهر الأعلام الذين كان عليهم مدار رواية الحديث في كلّ طبقة[2]، بالتّسلسل من الصّحابة إلى الجيل الذي خُتم به العلم في القَيْرَوان قبل خرابها على يد الأعراب سنة ٤٤٩ هـ، وبذلك يتألّف السّند العلمي فيها.

وقد رأيت أن أقتصر في كل طبقة على عدد محدود من الرّواة الثّقات يكفي لتحقيق الغرض من إيرادهم في هذا المبحث، وهو الوقوف على أهمّ رجال كلّ حلقة من حلقات السّند القيرواني، الذين كان عليهم مدار الرّواية فيها:

الطّبقة الأولى: الصّحابة:

سيأتي[3] التّعريف بالصّحابة الذين نزلوا القيروان، والكلام على عددهم وأثرهم في نشر السُّنّة بها، وقد ذكرت في هذا المبحث الأخير ثبوت الرّواية بإفريقيَّة والقيروان عن عشرة من الصّحابة وأوردت أحاديثهم[4]، وهم:

جَبَلَة بن عمرو الأنصاري[5]، رُوَيفع بن ثابت الأنصاري (ت ٥٦)[6]،

---

(١) الرياض ٢/٤٤، المعالم ٢/٢٧٤، وراجع نماذج لهذه الأسانيد في الرياض ١/١٨٩، ٢١٦، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩.

(٢) المراد بالطبقة هنا الجماعة المشتركون في السن أو الشيوخ أو كليهما وقد استعملها بعض المصنفين بمعنى الجيل، وبعضهم جعلها عشر سنين، وحدها بعض اللغوين بعشرين سنة. انظر: بحوث في تاريخ السنة للدكتور أكرم العمري ١٨٠ - ١٩٠، قواعد في علوم الحديث للتهانوي ٤٧، ٤٨.

(٣) راجع مبحث الصحابة الذين نزلوا القيروان في الباب الثالث.

(٤) انظر: مبحث أثر الصحابة في نشر السنة بالقيروان.

(٥) انظر: التعريف به وذكر من حدث عنه بالقيروان في ترجمته رقم ٤ في الصحابة.

(٦) انظر: التعريف به وذكر من حدث عنه بالقيروان في ترجمته رقم ١٤ في الصحابة.

زياد بن الحارث الصُّدائي[1]، سفيان بن وهب الخَوْلَانِي (ت ٨٢)[٦]، عبدالله بن سعد بن أبي سرح (ت ٣٦ أو ٣٧)[٧]، عبدالله بن عمر بن الخطّاب (ت ٧٣ أو ٧٤)[٤]، فضَالة بن عُبيد الأنصاري (ت ٥٣)[٥]، المُنَيذِر الأسلمي الإفريقي[٦]، أبو زَمْعة البَلَوِي (ت ٤٥ وقيل ٣٤ هـ)[٧]، أبو اليَقْظان[٨].

الطّبقة الثّانية: التّابعون:

للتّابعين أثر عميق في نشر السّنّة بالقيروان، كما سيأتي تفصيله في الباب الثّالث[٩] وقد ذكرت هناك عدد من دخلها منهم[١٠]، وأثرهم في إشاعة رواية الحديث بها، ثمّ عرّفت بهم مُركّزاً على الجانب الحديثي لكل منهم، مع ذكر الرّواة عنهم من الأفارقة والقرويّين.

وإذا كان جلّ هؤلاء التّابعين قد عُرفوا برواية الحديث في إفريقيَّة والقيروان فإنّ أثرهم كان متفاوتاً، والذي كان عليهم مدار الرّواية في هذه الطّبقة جماعة منهم:

١ ــ أعضاء بعثة عمر بن عبدالعزيز العلميّة، وهم عشرة من التّابعين، دخلوا القيروان سنة ٩٩ هـ بهدف نشر العلم بين أهلها، وتعليمهم القرآن والسّنن

---

(١) انظر: التعريف به وذكر من حدث عنه بالقيروان في ترجمته رقم ١٦ في الصحابة.
(٢) انظر: التعريف به وذكر من حدث عنه بالقيروان في ترجمته رقم ١٨ في الصحابة.
(٣) انظر: التعريف به وذكر من حدث عنه بالقيروان في ترجمته رقم ٢٧ في الصحابة.
(٤) انظر: التعريف به وذكر من حدث عنه بالقيروان في ترجمته رقم ٢٩ في الصحابة.
(٥) انظر: التعريف به وذكر من حدث عنه بالقيروان في ترجمته رقم ٣٤ في الصحابة.
(٦) انظر: التعريف به وذكر من حدث عنه بالقيروان في ترجمته رقم ٤٤ في الصحابة.
(٧) انظر: التعريف به وذكر من حدث عنه بالقيروان في ترجمته رقم ١٧ في الصحابة.
(٨) انظر: التعريف به وذكر من حدث عنه بالقيروان في ترجمته رقم ٤٥ في الصحابة.
(٩) انظر مبحث: التابعون الرواة.
(١٠) وهم ٤٩ تابعياً عدا صغار الصحابة وهم واحد وعشرون، وعدادهم من حيث الرواية في التابعين عند أهل الحديث.

والحكم بينهم بمقتضى ذلك[1]، وهم[2]: إسماعيل بن عُبيد الله بن أبي المُهاجِر (٦١ - ١٣١)، بَكْر بن سَوادة الجُذامي (ت ١٢٨)، جُعثل بن عاهان الرُّعيني (ت حوالي ١١٥)، حِبَّان بن أبي جَبَلة القُرشي (ت ١٢٥)، سعد بن مسعود التُّجيبي، طَلْق بن جَعْبَان الفَارِسِي، عبدالرحمٰن بن رافع التَّنوخي (ت ١١٣)، عبدالله بن يزيد المَعَافِري الحُبُلِيّ (ت ١٠٠)، موهب بن حيّ المَعَافِرِي، عبدالله بن المُغيرة بن أبي بُردة الكِنَاني (ت بعد ١٢٣).

٢ ــ جماعة آخرون من التّابعين سكنوا القيروان، منهم:

إسماعيل بن عُبيد مولى الأنصار (ت ١٠٧)[3]، حَنَش بن عبدالله السَّبائي الصّنعاني ثمَّ الإفريقي (ت ١٠٠)[4]، زياد بن أَنْعُم الشَّعْبَاني[5]، عُلَيّ بن رباح اللَّخمي (١٥ - ١١٤)[6]، أبو عَلْقَمَة الفارسي[7]، المغيرة بن أبي بُرْدة الكِناني[8].

٣ ــ جماعة أوطنوا القيروان وبثّوا فيها العلم ثمّ خرجوا عنها، منهم:

دُخَيْن بن عامر الحَجّرِي (ت ١٠٠ وقيل ١٠٢)[9]، يزيد بن أبي منصور الأَزْدِي[10].

---

(١) انظر: ط أبي العرب ٢٠، الرياض ٩٩/١، المعالم ٢٠٣/١، تاريخ ابن الفرضي ١٤٦/١.

(٢) راجع تراجمهم ومصادرهم في القسم الثاني من التابعين.

(٣) انظر: ترجمته رقم ١ في القسم الثالث من التابعين.

(٤) انظر: ترجمته رقم ٢ في القسم الثالث من التابعين.

(٥) انظر: ترجمته رقم ٤ في القسم الثالث من التابعين.

(٦) انظر: ترجمته رقم ٩ في القيم الثالث من التابعين.

(٧) انظر: ترجمته رقم ١٣ في القسم الثالث من التابعين.

(٨) انظر: ترجمته رقم ١٧ في القسم الثالث من التابعين.

(٩) انظر: ترجمته رقم ١ في القسم الرابع من التابعين.

(١٠) انظر: ترجمته رقم ٢ في القسم الرابع من التابعين.

الطّبقة الثّالثة: أتباع التّابعين:

كان مدار الرّواية في هذه الطّبقة على جماعة منهم:

١ ـ خالد بن أبي عِمران التُّجيبي (ت ١٢٥أو ١٢٩)[١]: وهو عالم إفريقيَّة وراويتها، وأكثر إقامته في مدينة تونُس، وهو متقدّم في السّنّ، غير أنّه لم يلق أحداً من الصّحابة، وروى عن جماعة كثيرة من التّابعين الذين نزلوا القيروان، كما سمع بالمشرق من سالم بن عبدالله بن عمر، ونافع مولى ابن عمر، وسليمان بن يسار، والقاسم بن محمد بن أبي بكر وغيرهم، وهو الذي حَمَّله الأفارقة مسائلهم إلى أبناء الصّحابة في المدينة، وقد حدّث عنه كثير من الأفارقة والقرويّين منهم: عبدالرحمٰن بن زياد وعُبيد الله بن زَحْر، وعبدالملك بن أبي كريمة وغيرهم، وحملوا عنه القرويّون كتاباً كبيراً دَوَّن فيه مرويّاته عن تابعي المدينة، أجمع النُّقّاد على توثيقه، وقد أخرج له مسلم وأبو داود والتّرمذي والنّسائي، وأحمد[٢]، والطّبراني في الكبير[٣] ويحيى بن سلاّم في تفسيره[٤]، وابن عبدالبرّ في التّمهيد[٥].

٢ ـ أبو كُرَيب جميل بن كُرَيب المَعَافِري (ت ١٣٩)[٦]: عداده في أجلاّء

(١) انظر ترجمته في: الرياض ١/١٦٢، ط أبي العرب ٢٤٥، ط خليفة ٢٩٥، مشاهير علماء الأمصار ١٨٨، تاريخ إفريقية للرقيق ١٠٠، سير أعلام ٥/٣٧٨، تاريخ الإسلام ٥/٦٦، ٦/٦٠، التاريخ الكبير ٣/١٦٣، ط ابن سعد ٧/٥٢١، حسن المحاضرة ١/٢٩٩، الجرح والتعديل ٣/٣٤٥، ثقات ابن حبان ٤/٢٦٢، التهذيب ٣/١١٠، التقريب ١/٢١٧، مرآة الجنان ١/٢٧٣.

(٢) مسند أحمد ٢/٦٨.

(٣) معجم الطبراني ٨/٢٨٣.

(٤) تفسير يحيى بن سلاّم خط ٦٢ ب.

(٥) التمهيد ١/٣٢٧، ٣/١٧١، ١٧٣.

(٦) انظر: ط أبي العرب ٢٤٩، الرياض ١/١٦٨، المعالم ١/٢٢٤، ط الخشني ٢٣٤ (ضمن القضاة وسماه عبدالرحمٰن)، تاريخ قضاة القيروان للجودي خط ٥، تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق ١٤٠.

شيوخ إفريقيَّة، يروي عن أبي عبدالرحمٰن الحُبُلِيّ التّابعي، وغيره، روى عنه جماعة من القرويّين، تولّى قضاء القيروان سنة ١٣٢ هـ، وقُتل أثناء معركة قادها ضدّ الخوارج، ومعه ألف من العلماء والصّلحاء، وذلك سنة ١٣٩ هـ.

٣ ــ عبدالله بن عبدالرحمٰن بن الطُّفَيْل المشهور بيزيد بن الطُّفَيْل، قاضي القيروان[١]:

روى عن علقمة بن وقّاص اللَّيْثِيّ وغيره، وحدّث عنه جماعة كثيرة منهم عبدالرحمٰن بن زياد الإفريقي، وكان يرأس حلقة عظيمة في جامع عُقبة بالقيروان.

٤ ــ عُبيد الله بن زَحْر الكِنَانِيّ[٢].

٥ ــ عبدالرّحمٰن بن زياد بن أَنْعُم الإفريقي (ت ١٦١)[٣].

٦ ــ يحيى بن سلّام البصري ثمّ القيرواني (ت ٢٠٠)[٤].

الطّبقــة الرّابعــة:

تألّفت حلقة السّند القيرواني في هذه الطّبقة من جماعة من الرّواة منهم:

١ ــ عبدالله بن فَرُّوخ الفارسي، القيرواني (ت ١٧٦).

٢ ــ علي بن زياد التّونُسي (ت ١٨٣): وهو محدّث واسع الرّواية، سمع منه كثير من أهل القيروان، وكانت أكثر إقامته في مدينة تونُس، فكان القرويّون

---

(١) انظر: ط أبي العرب مح ١٠٥، الرياض ١٧٢/١، ط الخشني ٢٣٤ (ضمن القضاة)، تاريخ قضاة القيروان خط ٣، تاريخ إفريقية والمغرب ١٦٧.

(٢) انظر: ترجمته رقم ٢٣ في المحدثين.

(٣) انظر: ترجمته رقم ١٦ في المحدثين.

(٤) انظر: ترجمته رقم ٨ في المهاجرين.

يرحلون إليه، كما كان يتردّد على القيروان، فيسمع منه أهلها، وقد تقدّم ذكر مصادره ومزيد من التّعريف به في رواة الموطّأ من الأفارقة[1].

٤ ـ البُهلول بن راشد الرُّعَيْنِي (ت ١٨٣)[2].

٥ ـ عبدالله بن عمر بن غانم (ت ١٩٠)[3].

٦ ـ معاوية بن الفضل الصُّمَادِحِي (ت ١٩٩)[4].

الطّبقـة الخـامسة:

كان مدار رواية الحديث في هذه الطّبقة على جماعة أشهرهم:

١ ـ عَنْبَسة بن خَارِجَة الغَافِقِيّ (ت ٢١٠)[5].

٢ ـ يزيد بن محمد الجُمَحِيّ (ت ٢١٢)[6].

٣ ـ أسد بن الفُرات (ت ٢١٣)[7].

٤ ـ موسى بن معاوية الصُّمَادِحِي (ت ٢٢٥)[8].

٥ ـ عبدالله بن أبي حسَّان اليَحْصُبِيّ (ت ٢٢٧)[9].

الطّبقـة السّادسـة:

دارت الرّواية في هذه الطّبقة على جملة من المحدّثين منهم:

١ ـ البُهلول بن عمر بن صالح التُّجيبي (ت ٢٣٣ أو ٢٣٤)[10].

---

(١) انظر: ص ٢٦٧.

(٢) انظر: ترجمته رقم ٥ في المحدثين.

(٣) انظر: ترجمته رقم ٢١ في المحدثين.

(٤) انظر: ترجمته رقم ٣٣ في المحدثين.

(٥) انظر: ترجمته رقم ٢٥ في المحدثين.

(٦) انظر: ترجمته رقم ٤٠ في المحدثين.

(٧) انظر: ترجمته رقم ٤ في المحدثين.

(٨) انظر: ترجمته رقم ٣٨ في المحدثين.

(٩) انظر: ترجمته رقم ١٨ في المحدثين.

(١٠) انظر: مصادره وترجمته برقم ٦ في المحدثين.

٢ ــ رباح بن ثابت الأَزْدِي (ت ٢٣٧)[١].
٣ ــ يحيى بن سليمان الخَرَّاز (ت ٢٣٧)[٢].
٤ ــ عون بن يوسف الخُزَاعِي (ت ٢٣٩)[٣].
٥ ــ الإمام سَحنون بن سعيد التَّنُوخي (ت ٢٤٠)[٤].
٦ ــ الإمام محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦)[٥].

الطّبقــة السّابعــة:

قامت الرّواية في هذه الطّبقة على جماعة منهم:
١ ــ أحمد بن مُعتِّب الأَزْدِي (ت ٢٧٧)[٦] .
٢ ــ أحمد بن يزيد القُرَشِي (ت ٢٨٤)[٧] .
٣ ــ يحيى بن عمر الكِناني (ت ٢٨٩)[٨] .
٤ ــ سعيد بن إسحٰق الكَلْبِي (ت ٢٩٤ أو ٢٩٥)[٩] .
٥ ــ عيسى بن مِسكين الإفريقي (ت ٢٩٥)[١٠] .
٦ ــ بَكْر بن حمّاد التَّاهَرْتِي (ت ٢٩٦)[١١] .

---

(١) انظر: مصادره وترجمته برقم ٩في المحدثين.
(٢) انظر: مصادره وترجمته برقم ٣٩ في المحدثين.
(٣) انظر: مصادره وترجمته برقم ٢٦ في المحدثين.
(٤) انظر: مصادره وترجمته برقم ١٣ في المحدثين.
(٥) انظر: مصادره وترجمته برقم ٣٢ في المحدثين.
(٦) انظر: مصادره وترجمته برقم ٢ في المحدثين.
(٧) انظر: مصادره وترجمته برقم ٣ في المحدثين.
(٨) انظر: مصادره وترجمته برقم ٩ في المحدثين.
(٩) انظر: مصادره وترجمته برقم ١٤ في المحدثين.
(١٠) انظر: مصادره وترجمته برقم ٢٧ في المحدثين.
(١١) انظر: مصادره وترجمته برقم ٢ في المهاجرين.

الطّبقــة الثّامنــة:

وفي هذه الطّبقة كان مـدار رواية الحـديث على جماعـة من المحدّثين، منهم:

١ ـ سعيد بن محمد بن الحدّاد (ت ٣٠٢)[١].

٢ ـ مالك بن عيسى القَفْصِي (ت ٣٠٥)[٢].

٣ ـ لقمان بن يوسف الغَسّاني (ت ٣١٩)[٣].

٤ ـ أحمد بن محمد القصري (ت ٣٢٢)[٤].

٥ ـ ربيع بن سليمان القطّان (ت ٣٣٣)[٥].

٦ ـ الحافظ أبو العَرَب محمد بن أحمد التَّميمي (ت ٣٣٣)[٦].

الطّبقــة التّاسعــة:

كان مدار الرّواية في هذه الطّبقة على جماعة أشهرهم:

١ ـ محمد بن سعدون التَّميمي (ت ٣٤٤)[٧].

٢ ـ عبدالله بن أبي هاشم التُّجيبي (ت ٣٤٦)[٨].

٣ ـ محمد بن مسرور العسّال (ت ٣٤٦)[٩].

---

(١) انظر: مصادره وترجمته برقم ١٥ في المحدثين.

(٢) انظر: مصادره وترجمته برقم ٥ في المهاجرين.

(٣) انظر: مصادره وترجمته برقم ٢٩ في المحدثين.

(٤) انظر: مصادره وترجمته برقم ١ في المحدثين.

(٥) انظر: مصادره وترجمته برقم ١١ في المحدثين.

(٦) انظر: مصادره وترجمته برقم ٣٠ في المحدثين.

(٧) محدث مقرىء زاهد، له رحلة واسعة كتب فيها الحديث، الرياض ٢/٤١٤، المعالم ٣/٥٢.

(٨) انظر: مصادره والتعريف به في ترجمته رقم ٢٢ في المحدثين.

(٩) انظر: مصادره والتعريف به في ترجمته رقم ٣٤ في المحدثين.

٤ ــ أبو الحسن حسن بن محمد الكانشي (ت ٣٤٧)[١] .

٥ ــ علي بن محمد بن مَسْرُور الدّبّاغ (ت ٣٥٩)[٢] .

الطّبقــة العــاشرة:

تألّفت حلقة السّند القروي في هذه الطّبقة من جماعة من الرّواة، منهم:

١ ــ تميم بن أبي العرب التّميمي (ت ٣٧١)[٣].

٢ ــ عبدالله بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦)[٤].

٣ ــ مسرّة بن مُسلِم الحضرمي (ت ٣٩٣)[٥].

٤ ــ أبو عبدالله محمد الزّيّات (٣٩٧)[٦].

٥ ــ أحمد بن محمد بن النّجّار (ت ٣٩٧)[٧].

٦ ــ الإمام أبو الحسن علي بن محمد القابِسي (ت ٤٠٣)[٨].

الطّبقة الحادية عشرة:

دارت رواية الحديث بالقيروان في هذه الطّبقة على جماعة من المحدّثين، منهم:

١ ــ محمد بن تميم بن أبي العرب (ت ٤١٧)[٩].

---

(١) فقيه محدث متفنن في مختلف العلوم، رحل إلي الناس من مختلف بـلاد المغرب. انظر: الشجرة ١/٨٥، المدارك ٣/٣٦٨.

(٢) عالم ورع جمع بين الحديث والفقه، وحدّث بالقيروان لمدة ٣٣ سنة، المعالم ٣/٧٥، الشجرة ١/٩٤.

(٣) انظر: مصادره والتعريف به في ترجمته رقم ٧ في المحدثين.

(٤) انظر: مصادره والتعريف به في ترجمته رقم ١٩ في المحدثين.

(٥) انظر: مصادره والتعريف به في ترجمته رقم ٣٦ في المحدثين.

(٦) كان متقناً للحديث وعلومه مشهوراً بذلك المعالم ٣/١٣١.

(٧) محدث واعظ، يسمى أحْمَدَيْن لجمعه بين حفظ الحديث والرقائق، المعالم ١/١٣١.

(٨) انظر: مصادره والتعريف به في ترجمته رقم ٢٤ في المحدثين.

(٩) انظر: مصادره والتعريف به في ترجمته رقم ٣١ في المحدثين.

٢ ـ أبو عبدالله محمد بن عيسى بن مَنَاس (ت حوالي ٤٢٠)[1].

٣ ـ أبو عبدالله محمد بن عبّاس الخوّاص (ت ٤٢٨)[2].

٤ ـ أبو عمران موسى بن عيسى الفاسي (ت ٤٣٠)[3].

٥ ـ أبو عبدالله الحسين بن عبدالله الأَجْدَابي (ت ٤٣٢)[4].

الطّبقة الثّانية عشرة:

وبها ختم العلم بالقيروان قبل خرابها سنة ٤٤٩ هـ، ولم يعد إليها إلاّ بعد حوالي قرن من الزّمان[5]، وكان مدار رواية الحديث فيها على جماعة منهم:

١ ـ عثمان بن أبي بكر الصَّفاقُسي (ت حوالي ٤٤٤)[6].

٢ ـ عبدالرحمٰن بن محمد بن رَشِيق (ت بعد ٤٤٤)[7].

٣ ـ عبدالرحمٰن بن مُحْرِز القيرواني (ت نحو سنة ٤٥٠)[8].

٤ ـ أبو حفص عمر حفيد ابن أبي زيد القيرواني (ت ٤٦٠)[9].

---

(١) فقيه محدث من جلة أصحاب الإمام القابسي أخذ عنه جماعة من كبار الرواة منهم حاتم الطرابلسي، المعالم ١٥٨/٣، الصلة ١٥٥/١، ضمن ترجمة حاتم الطرابلسي.

(٣) من مقدمي الرواة بالقيروان، وأحد كبار أصحاب ابن أبي زيد والقابسي، حدث عنه كثير من القرويينن وغيرهم. المدارك ٧١٠/٣، المعالم ١٦٩/٣.

(٢) انظر: ترجمته رقم ٧ في المهاجرين.

(٤) فقيه مؤرخ محدث ثقة ثبت، له رحلة ومصنفات في مناقب بعض علماء القيروان، المعالم ١٧٠/٣، مقدمة الرياض للبكوش ١٦.

(٥) انظر: المعالم ٢٠٤/٣.

(٦) انظر: ترجمته رقم ٤ في المهاجرين.

(٧) انظر: ترجمته رقم ١٧ في المحدثين.

(٨) فقيه نبيل، ومحدث جليل، له رجلة سمع فيها كبار مشايخ المشرق، وكتب عنهم الحديث وتفقه به جماعة من القرويين وسمعوا منه الحديث. انظر: الشجرة ١١٠/١، المعالم ١٨٥/٣، المدارك ٧٧٢/٣.

(٩) كان الغالب عليه حفظ الحديث وروايته وله بالقيروان مجلس حفيل يقرأ عليه فيه الحديث والفقه. المعالم ١٩٠/٣، الشجرة ١١٦/١.

٥ ــ عبدالخالق بن عبدالوارث السُّيُورِي (ت ٤٦٢)[١].

الطّبقة الثّالثة عشرة:

وهي الطّبقة التي تمّ عن طريقها وصل سند الرّواية بإفريقيَّة عندما خربت القيروان وانقطع منها العلم، وتحوّلت الحياة العلمية إلى المَهْدِيَّة[٢] عن طريق تلاميذ الطّبقة السّابقة، ولولا وجود هؤلاء العلماء لانتقطع السّند العلمي بإفريقيَّة، وهذه النّقطة من أهمّ ثمرات هذا المبحث، وقد عرف منهم بـالرّوايـة جماعـة أشهرهم:

١ ــ أبو بكر عبدالله بن محمد المالكي صاحب رياض النّفوس (ت بعد سنة ٤٦٤ هـ)[٣].

٢ ــ أبو الحسن عبدالله بن محمد الرَّبَعِي المعروف باللَّخْمِي (ت ٤٧٨)[٤].

٣ ــ أبـو محمد عبـدالحميد بن محمـد المغربي المعـروف بابن الصّـائغ (ت ٤٨٦)[٥].

---

(١) خاتمة علماء إفريقية وآخر شيوخ القيروان، كان متفنّناً في مختلف العلوم مع عناية خاصة بالحديث والقراءات، وكان كثير الأصحاب، انظر: الشجرة ١/١١٦، المعالم ٣/١٨١، المدارك ٣/٧٧٠.

(٢) مدينة على الساحل التونسي من جهة الشمال، أسسها سنة ٣٠٨ هـ عبيد الله الإسماعيلي أول ملوك الرافضة بإفريقية واتخذها عاصمة له. انظر عنها: البيـان المغرب ١/١٦٩، ١٨٤، المؤنس ٥٦، الشجرة ٢/١٢٢، معجم البلدان ٥/٢٢٩.

(٣) فقيه محدث مؤرخ ثقة. انظر: المعالم ٣/١٩٠، الشجرة ١/١٠٨، الإمام المازري ٧٩، مقدمة الرياض لمؤنس ٣٠، مقدمة الرياض للبكوش ١٨.

(٤) فقيه أصولي مشارك في الحديث. انظر: المدارك ٣/٧٩٧، المعـالم ٣/١٩٩، معجم المؤلفين ٧/١٩٧، الشجـرة ١/١١٧، الديبـاج ٢٠٣، الحلل السنـدسيـة ١/٢/٣٣٦، تراجم المؤلفين ٤/٢١٤.

(٥) فقيه له مشـاركة في الحـديث، المدارك ٣/٧٩٤، الـديباج ١٥٩، الشجـرة ١/١١٧، المعالم ٣/٢٠٠.

وعن هؤلاء الثّلاثة أخذ كثير من العلماء أشهرهم: الإمام المجتهد الحافظ أبو عبدالله محمد بن علي المَازِرِيّ (ت ٥٣٦)، المتفنّن في سائر العلوم، مع اهتمام خاصّ بالحديث وعلومه، وهو حامل لواء العلم بإفريقيَّة في عصره، وتتلمذ عليه مئات من الطّلبة، له عدّة مصنّفات منها: المُعْلِم بفوائد مسلم[١].

وهكذا نستنتج من هذا العرض السّريع تبيُّنَ أهمّ الرّواة في كلّ حلقة من حلقات سلسلة الإسناد بالقيروان، كما أنّه يساعدنا في معرفة الحلقة التي انتقل بها سند الرّواية من القيروان إلى المَهْدِيَّة، وبذلك سلم سند الرّواية والعلم بإفريقيّة من الانقطاع، رغم الجوائح التي تعرّضت لها المنطقة، والتي تسبّبت في جلاء أهلها عنها بعد خراب القَيْرَوان سنة ٤٤٩ هـ.

سادساً: الإضافات الحديثيّة لمدرسة القيروان:

إنّ شيوع رواية الحديث في الأمصار الإسلاميّة قد ارتبط غالباً بتفرّق الصّحابة فيها وبما حدّثوا به فيها، وخاصّة بعد وفاة النّبيّ ﷺ، ومعلوم أنّ الصّحابة لم يكونوا على درجة واحدة من حيث سعة الرّواية وحفظ الحديث، فمنهم المكثر، ومنهم المقلّ، ومنهم بين ذلك[٢]، ومنهم من لم يعرف عنه أنه حدّث بشيء عن النّبيّ ﷺ حيث زاد عدد الصّحابة على مائة ألف شخص فيما ذكره أبو زُرعة الرّازي[٣]، ورجّحه الحافظ زين الدّين العراقي، لاتّصال سنده عن

---

(١) انظر عن الإمام المازري ومصنفاته: الشجرة ١٢٧/١، أبو عبدالله الأُبيّ وكتابه الإكمال ١٨٣، الإمام المازري لحسن عبدالوهاب ٣٩ فما بعدها، المازري الفقيه المتكلم لمحمد الشاذلي النيفر ٢١ وما بعدها، تاريخ التراث العربي ٢٦٤/١/١.

(٢) انظر: الحديث والمحدثون لأبي زهو ١٠٨، دراسات في الجرح والتعديل للأعظمي ١٨٣ ـ ١٨٥، وذلك واضح لمن نظر في مقدمة مسند بقي بن مخلد الموسومة بـ «عدد ما لكل واحد من الصحابة من الحديث» ٧٩، وفصل «أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد من العدد» لابن حزم في كتابه جوامع السير ٢٧٥، وانظر: معرفة علوم الحديث ٢٤، ٢٥، ١٥٧.

(٣) الإصابة ٤/١، التجريد ١/ ب، التقييد والإيضاح ٣٠٥.

أبي زُرعة ولعدم جزمه بتحديد خاص[1]، كما في الرّواية الأخرى الواردة عنه بأنّه مائة ألف وأربعة عشر ألفاً[2]، أمّا الذين رووا عنه فقد ذكر الحاكم أنّهم أربعة آلاف[3]، وتعقّبه الذّهبيّ بأنّهم بين ألف وخمسمائة وألفي صحابي[4]، ورجّح الدّكتور أكرم العُمَري قول الذّهبي بناء على ما قام به من الإحصاءات من خلال بعض المسانيد وقوائم أسماء الصّحابة الرّواة[5].

وقد نتج عن تفرّق الصّحابة الرّواة في الأمصار وجود أحاديث اختصّت بها بعض المدن دون بعض، فكانت الرّحلة هي الوسيلة التي مكّنت أهل كلّ مصر من سماع ما عند غيرهم من الحديث وروايته.

وكان للتابعين أيضاً أثر في اختصاص بعض المدن بأحاديث لم توجد لها رواية في مدن أخرى بحكم اختصاص بعضهم ببعض الصّحابة.

وبالرّغم من عدم طول مكث الصّحابة بإفريقيّة والقيروان[6] فإنّ للباحث أن يتساءل عن مدى وجود إضافات حديثيّة فيها عمّا هو موجود لدى محدّثي المشرق.

ولا شك أنّ الإجابة عن هذا التّساؤل لن تكون دقيقة، كتحديد عدد تقريبيّ لهذه الإضافات مثلاً، وذلك بسبب ضياع معظم المصنّفات التي جمع فيها القرويّون أحاديثهم، والتي تعتبر مظنّة لوجود إضافات حديثيّة مثل مسند محمد بن

---

(١) التقييد والإيضاح ٣٠٥، ٣٠٦.

(٢) اختصار علوم الحديث ١٨٥.

(٣) تجريد أسماء الصحابة «ب»، «جـ».

(٤) تجريد أسماء الصحابة ب، جـ.

(٥) مقدمة كتاب بقي بن مخلد ومقدمة مسنده ١٩.

(٦) سيأتي تفصيل الحديث عن ذلك في مبحث أثر الصحابة في نشر السنة بالقيروان.

سَحنون (ت ٢٥٦) وقد وُصف بأنّه كبير[١]، وعوالي الحافظ أبي العَرَب التّميمي (ت ٣٣٣)[٢]، وعوالي أبي عمران الفاسي (ت ٤٣٠)[٣]، وغيرها[٤].

١ ـ اختصاص أهل القيروان بحديث صحابيّين:

أفادتنا المادّة العلميّة المتوافرة أنّ أهل القيروان قد اختصّوا بحديثين عن صحابيّين دخلا إفريقيَّة، ويعتبر حفظ هذين الحديثين من إضافات أهل القيروان، وهما:

أ ـ حديث زياد بن الحارث الصُّدائي[٥]: قال فُرات بن محمد العَبْدي (ت ٢٩٢)[٦]: «قدم زياد بن الحارث الصُّدائي إفريقيّة، وانفرد أهل إفريقيَّة بحديثه»[٧]، قلت: وهو حديث قصّة إسلام هذا الصّحابي، وفيه أحكام فقهيّة مختلفة المواضيع، ولذلك نجد من المصنّفين من ساقه كاملاً بطوله، وقد يروى مُجزّءاً في ثلاثة أحاديث كما سيأتي عند سياقه والحكم عليه[٨].

وقد رواه أهل القيروان عن عبدالرحمٰن بن زياد الإفريقيّ عن زياد بن نُعيم الحضرمي عن الصُّدائي[٩]، ورووه أيضاً من طريق بَكْر بن سَوادة، نزيل القيروان، عن زياد عن الصُّدائي[١٠].

---

(١) انظر: المدارك ٣/١٠٦. (٢) انظر: الشجرة ١/٨٤.

(٣) انظر: الأعلام ٧/٢٨٧.

(٤) سيأتي ذكر مصنفات القرويين الحديثية في صدر الفصل الثاني من الباب الثالث.

(٥) ستأتي ترجمته رقم ١٦ في الصحابة.

(٦) محدث قروي واسع العلم بالرجال والتاريخ والأنساب، راجع ترجمته رقم ٢٨ في المحدثين.

(٧) الرياض ١/٨٧.

(٨) وذلك في مبحث أثر الصحابة في نشر السنة بالقيروان.

(٩) وانظر: الرياض ١/٨٧، المعالم ١/١٤٩.

(١٠) انظر: الإصابة ١/٥٣٩، التهذيب ٣/٣٦٠، وقد ذكر له ابن حجر طريقاً آخر سيأتي الكلام عليه في ترجمة زياد بن الحارث الصدائي.

وحديث الصُّدائي هو الوارد في قصة إسلامه، وما جرى له مع النّبيّ ﷺ، وما سمعه منه، وهو حديث طويل سيأتي تخريجه وسرده كاملاً عند الكلام على الصّحابة الذي ثبتت الرّواية عنهم بإفريقيّة[1].

وقد حكم الشّيخ أحدم شاكر بصحّتـه، وأورده بطوله برواية ابن عبدالحكم في فتوح مصر، وذلك في تعليقه على سنن التّرمذِي[2]، وأوّل الحديث: «أتيت النّبيّ ﷺ فبايعته على الإسلام، فأُخبرت أنّه بعث جيشاً إلى قومي، فقلت: يا نبيّ الله: أُردد الجيس وأنا لك بإسلام قومي وطاعتهم. . .» الحديث.

ولم أعثر على رواية لهذا الحديث من غير طريق أهل القيروان وعنهم انتشر إلى غيرهم بواسطة تلاميذ ابن أَنْعُم الكثيرين كما في أسانيد هذا الحديث.

ب ـ حديث المُنيذِر الأسلمي الإفريقي[3]: اختصّ الأفارقة بحديث هـذا الصّحابي حيث لم أعثر عليه من غير طريقهم، وذكره صاحب المناهل السّلسـة في المسلسل بالإفريقيّين[4]، وهم يرْوُونه من طريق أبي عبدالرحمٰن عبدالله بن يزيد الحُبُلِيّ (ت ١٠٠ بالقيروان)[5]، عن المُنَيْذِر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً فأنا الزّعيم فلآخُذنّ بيده فلأُدخلنّه

---

(١) وذلك في بمحث أثر الصحابة في نشر السنة بالقيروان.

(٢) سنن الترمذي ٣٨٦/١، وذلك بناء على توثيقه للإفريقي، وقال ابن السكن في إسناده نظر. انظر: الإصابة ٥٣٨/١، التهذيب ٣٦٠/٣، بناء على وجود الإفريقي في سنده، غير أنه روي من طريق بكر بن سدادة وهو ثقة احتج به مسلم وغيره كما في ترجمتـه فيصبح الحديث برواية الإفريقي صحيحاً لغيره حتى على رأي من ضعف الإفريقي.

(٣) ستأتي ترجمته رقم ٤٤ في الصحابة، وفيها ذكر الاختلاف الشديد في اسمه.

(٤) المناهل السّلسة ٣٠٠.

(٥) راجع ترجمته رقم ٩ في القسم الثاني من التابعين.

الجنّة»[1]، وبعضهم يزيد بعد اسم الصّحابي «وكان بإفريقيَّة»، وبعضهم يقول: «من قال إذا أصبح...».

٢ ـ نماذج لبعض غرائب الأفارقة:

لقد أشارت المصادر أيضاً إلى إغراب الأفارقة ببعض الأحاديث[2]، وسأذكر نماذج لها: الأحاديث السّتّة التي اشتهرت بأنّ عبدالرحمٰن بن زياد الإفريقي قد أغرب بها، بالإضافة إلى حديث حسن المتن، معروف بالمشرق، غير أنّ القرويّين انفردوا بإضافة سند جديد له لم يعرفه أهل المشرق، مع الإشارة إلى تفرّدهم برواية أحاديث فضائل إفريقيَّة التي سيأتي الكلام عليها في مباحث الدّراية.

أ ـ الأحاديث التي أغرب بها الإفريقيّ:

ذكر أبو العَرَب[3] عن البُهلول بن راشد (ت ١٨٣) قال: سمعت سفيان الثّوري يقول: «جاءنا عبدالرحمٰن بن زياد الإفريقي بستّة أحاديث يرفعها إلى

---

(١) أخرجه صاحب المناهل السلسة ٣٠٠، وابن عبدالبر في الاستيعاب ٣/٥٠٠، وأبو نعيم في معرفة الصحابة خط ٢/١٨٨، وقد وهَّم من ذكر في بعض طرقه السّلمي بدل الحبلي، وذكره صاحب أسد الغابة وعزاه إلى ابن منده وأبي نعيم ٤/٤٢٢، وهو مذكور في أغلب مصادر هذا الصحابي غير أني لم أجد من ذكره مسنداً غير من تقدم، ولم أعثر عليه في كتب السّنّة، وقد رُويت عدة أحاديث في هذا المعنى من غير طريق المنيذر، وأقربها إلى حديثه ما رواه الإمام أحمد في مواضع من طريق خادم رسول الله ﷺ. انظر: المسند ٤/٣٣٧، ٥/٣٦٧.

قلت: وسند حديث المنيذر عند أبي نعيم وفي المناهل السلسة واحد، وهو ضعيف، لضعف رشدين بن سعد (التقريب ١/٢٥١)، وللحديث شاهد صحيح عند أحمد يرتقي به إلى درجة الصحيح لغيره. مسند أحمد ٤/٣٣٧، ٥/٣٦٧، وسيأتي ذكر سند أحمد وأحوال رجاله عند ذكر هذا الحديث في مبحث أثر الصحابة في نشر السنة بالقيروان.

(٢) انظر: ط أبي العرب مح ٢٥٤، الرياض ١/٨٧، ٩٠، ٩٩، ١١٢، ١٣٢، ٢٣٣، التهذيب ٦/١٧٥، كلاهما نقلاً عن أبي العرب.

(٣) ط أبي العرب ٢٧، الرياض ١/١٥٣، التهذيب ٦/١٧٥، كلاهما نقلاً عن أبي العرب.

النّبيّ ﷺ لم أسمع أحداً يرفعها. . .» ثمّ ذكرها، قال أبو العَـرَب: «فلهذه الغـرائب التي لم يروها غيره (يعني مرفوعة) ضعّف ابن معين حديثه» وهذه الأحاديث هي:

١ ـ «حديث أمّهات الأولاد» وقد ذكرته المصادر هكذا بطرفه ولم تحدّده، وبعد تتبّع أحاديث أمّهات الأولاد في المصادر وجدت حديث الإفريقي بروايته عن مسلم بن يسار عن سعيد بن المسيَّب أنّ عمر أعتق أمّهات الأولاد، وقال عمر: «أعتقهنّ رسول الله ﷺ»[١]، وقد ذكره الزَّيْلَعِي[٢] وعزاه إلى الدَّارَقُطْنِي في سننه، وأعلّه بكون الإفريقي لا يحتجّ به، وقال: «قال ابن القـطّان: سعيد عن عمـر منقطع»، ثمّ نقل عن أحمد قوله: «سعيد بن المسيَّب عن عمر عندنا حجّة فإنّه رآه وسمع منه»، ونقل صاحب التّعليق المغني كلام الزَّيْلَعِيّ ولم يشر إلى نقله عنه[٣].

قلت: الصّحيح ما قاله الإمام أحمد من سماع سعيد من عمر، فإنّه مذكور في شيوخه[٤]، أمّا عدم الاحتجاج بالإفريقي فلا يصحّ، وقد ترجّح لديّ أنّ حديثه حسن[٥].

وشيخه في هذا الحديث هو مسلم بن يسـار الإفريقي لا البَصْـرِي، وهو ثقة[٦]. وسعيد بن المسيَّب ثقة، أحد الأئمّة[٧]، وعلى هذا فالحديث حسن بهذا الإسناد، وله متابعات وشواهد بمعناه أكثرها لا يخلو من مقال[٨]، فيرتقي الحديث بمجموعها إلى درجة الصّحيح لغيره.

---

(١) أخرجه الدارقطني في سننه كتاب المكاتب ١٣٦/٤.
(٢) نصب الراية كتاب العتق باب الاستيلاد ٢٩٠/٣.
(٣) التعليق المغني على الدارقطني، بحاشية سنن الدارقطني ١٣٦/٤.
(٤) انظر: التهذيب ٨٤/٤.
(٥) سيأتي تفصيل القول في ذلك في ترجمته رقم ١٦ في المحدثين.
(٦) ستأتي ترجمته رقم ١٦ في القسم الثالث من التابعين.
(٧) انظر: التهذيب ٨٤/٤.
(٨) انظر هذه المتابعات والشواهد والكلام عليها في: نصب الراية ٢٨٧/٣ ـ ٢٩٠، تلخيص الحبير ٢١٧/٤، التعليق المغني وسنن الدارقطني ١٣٠/٤ ـ ١٣٦.

وقد روي هذا الحديث بمعناه موقوفاً على عمر رضي الله عنه من طرق أخرى[1]، غير أنّ الإفريقي لم ينفرد برفعه، فقد رفعه عبدالله بن دينار عن ابن عمر بمعناه[2].

وذكره الزّيلعيّ من حديث سعيد بن المسيَّب عن النّبي ﷺ مرسلاً، ولم يعزه، وقال: «غريب، وفي الباب أحاديث. . .» ثمّ ساق حديث ابن عمر[3].

وقد تكلّم العلماء في وقف هذا الحديث ورفعه، وممّن ذهب إلى ترجيح رفعه ابن القطّان حيث ذكر أنّ الذي رفعه ثقة، وقال: «وعندي أنّ الذي أسنده (أي رفعه) خير ممّن وقفه»، وهذا القول نقله الزّيلعيّ واقتصر عليه فكأنّه ارتضاه[4]، وقال ابن حَجَر[5]: «قال صاحب الإلمام: المعروف فيه الوقف، والذي رفعه ثقة»، وممّن ذهب إلى ترجيح الوقف فيما ذكره ابن حَجَر: الدّارَقُطْنِيّ. . . (ولم أقف على ذلك في سننه) والبَيْهَقِيّ وعبدالحقّ[6]، ولم يرجّح ابن حجَر أحد القولين، وإنّما زاد في آخر كلامه بصيغة التّضعيف: «قيل: ولا يصحّ مسنداً»، وللعلماء خلاف في مثل هذه المسألة وأكثر أهل الحديث على

(١) انظر: الموطأ كتاب العتاقة باب عتق أمهات الأولاد ٢/٦٦٥، سنن الدارقطني ٤/١٣٤، نصب الراية ٣/٢٨٨، ٢٩٠، تلخيص الحبير ٤/٢١٧.

(٢) سنن الدارقطني كتاب المكاتب ٤/١٣٤، ١٣٥.

(٣) نصب الراية ٣/٢٨٨.

(٤) نصب الراية ٣/٢٨٩، وابن القطان هو الحافظ أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالملك، الفاسي (ت ٦٢٩)، تذكرة الحفاظ ٤/١٤٠٧، طبقات الحفاظ ٤٩٨.

(٥) تلخيص الحبير ٤/٢١٧.

(٦) وعبدالحق هو الحافظ عبدالحق بن عبدالرحمٰن الإشبيلي العلامة الحجة يعرف أيضاً بابن الخراط (ت ٥٨١)، تذكرة الحفاظ ٤/١٣٥٠، ط الحفاظ ٤٨٢، وصاحب الإلمام هو محمد بن علي القشيري المعروف بابن دقيق العيد، الحافظ (ت ٧٠٢)، انظر: ط الحفاظ ٥١٦، تذكرة الحفاظ ٤/١٤٨١ ولم أجد ما نقله عنه ابن حجر في الكتاب المذكور. انظر: الإلمام ٣٧٨ - ٣٨٨.

تقديم الوقف على الرّفع[1]، ورجّح الخطيب وغيره تقديم الرّفع إذا كان المسند عدلاً ضابطاً[2]، وهو الحال عندنا هنا كما تقدّم، والله أعلم.

قلت: وللحديث شواهد كثيرة بمعناه مرفوعة من طريق ابن عبّاس[3] وسلامة بنت مَعْقِل[4].

والنّتيجة أنّ الإفريقي لم ينفرد برفع هذا الحديث ولا بروايته.

٢ ـ «حديث الصُّدائي حين أذّن قبل بلال فأراد بلال أن يقيم فقال النّبيّ عليه السلام: «إنّ أخا صُداء قد أذّن ومن أذّن فهو يقيم»[5]، وهو في حديث طويل تقدّمت الإشارة إليه قريباً، وسيأتي سياقه كاملاً وتخريجه في مبحث أثر الصّحابة في نشر السّنّة بالقيروان، وليس الحديث من غرائب ابن أَنْعُم لأنّ بَكْر بن سَوادة (ت ١٢٨ بالقيروان) قد تابعه عليه[6].

٣ ـ حديث «إذا رفع الرّجل رأسه من آخر سجدة واستوى جالساً فقد تمّت

---

(١)، (٢) الكفاية ٥٨٠، ٥٨١، علوم الحديث ٦٤، ٦٥.

(٣) انظر: مستدرك الحاكم كتاب البيوع ١٩/٢، سنن الدارقطني كتاب المكاتب ١٣٠/٤، ١٣١، ١٣٤.

(٤) انظر: سنن أبي داود، كتاب العتق باب عتق أمهات الأولاد ٢٦٢/٤، نصب الراية باب الاستيلاء ٢٨٨/٣، مجمع الزوائد ٢٤٩/٤.

(٥) ط أبي العرب ٢٧، الرياض ١٥٣/١، المعالم ٢٣٦/١، وهذا الجزء من الحديث أخرجه أبو داود بنحوه في كتاب الصلاة باب في الرجل يؤذن ويقيم آخر ٥١٤/٣٥٢/١، والترمذي بنحوه في كتاب الصلاة باب من أذن فهو يقيم ١٩٩/٣٨٣/١، وابن ماجه في كتاب الصلاة باب السنة في الأذان ٧٢٣/٢٤٤/١، والإمام أحمد بنحوه من طريقين عن الإفريقي ١٦٩/٤، والخطيب بنحوه في السابق واللاحق ١٢٠، والطبراني في الكبير بنحوه ٣٠٤/٥ من طريقين عن الإفريقي، والبيهقي في سننه ٣٨١/١، ٣٩٩، وسيأتي الحكم عليه في مبحث أثر الصحابة في نشر السنة بإفريقية.

(٦) انظر: الإصابة ٥٣٩/١، التهذيب ٣٦٠/٣.

صلاته وإن أحدث»[1]، وهذا الحديث يعدّ فعلاً من غرائب عبدالرحمٰن بن زياد الإفريقي، كما ذكر تلميذه الثّوري، إذ لم يروه غيره، وقد حدّث به عن عبدالرحمٰن بن رافع وبَكر بن سَوادة[2] عن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعاً، والحديث أخرجه التّرمذيّ بنحوه[3] وقال: «هذا حديث إسناده ليس بذاك القوي، وقد اضطربوا في إسناده، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى هذا... وعبدالرحمٰن بن زياد بن أَنْعُم هو الإفريقيّ وقد ضعفه بعض أهل الحديث...»، وعلّق الشّيخ أحمد شاكر على الحديث بقوله[4]: «... ومدار أسانيد هذا الحديث عليه (أي الإفريقي)، ولعلّه ممّا أخطأ فيه حفظه وهو معارض للحديث الصّحيح: «وتحليلها التّسليم»[5]... فلا يقوى حديث الباب (يعني حديث الإفريقي) على معارضته بل يؤخذ بالأصحّ».

وأخرجه أبو داود بمعناه[6]، وعلّق عليه الخَطّابي بقوله[7]: «هذا الحديث

---

(١) ط أبي العرب ٢٧، الرياض ١٥٣/١، المعالم ٢٣٦/١.

(٢) ستأتي الترجمة لهما في القسم الثاني من التابعين رقم ٧ ورقم ٢.

(٣) سنن الترمذي كتاب الصلاة باب ما جاء في الرجل يحدث في التشهد ٤٠٨/٢٦١/٢.

(٤) حاشية سنن الترمذي ٢٦١/٢.

(٥) هذا جزء من حديث ورد من طريق علي وجابر بن عبدالله وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم، أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة باب فرض الوضوء ٦١/٤٩/١، وفي كتاب الصلاة باب الإمام يُحدِث بعدما يرفع رأسه ٦١٨/٤١١/١، وأخرجه الترمذي في أبواب الطهارة باب ما جاء أن مفتاح الصلاة الطهور ٣/٨/١، وفي كتاب الصلاة باب ما جاء في تحريم الصلاة وتحليلها ٢٣٨/٣/٢، وقال الترمذي في حديث علي: «هذا الحديث أصح شيء في هذا الباب وأحسن».

وأخرجه ابن ماجة في كتاب الطهارة، باب مفتاح الصلاة الطهور ٢٧٨/١١٨/١، ٢٧٩، وأخرجه الدارمي في كتاب الصلاة والطهارة، باب مفتاح الصلاة طهور ١٧٥/١، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٢٣/١، ١٢٩.

(٦) سنن أبي داود كتاب الصلاة باب الإمام يُحدِث بعدما يرفع رأسه ٦١٧/٤١٠/١.

(٧) معالم السنن بهامش سنن أبي داود ٤١٠/١.

ضعيف، وقد تكلّم النّاس في بعض نقلته، وقد عارضته الأحاديث التي فيها إيجاب التّشهّد والتّسليم».

وأخرجه الدّارقطني بنحوه بألفاظ متقاربة[1]، وقال: «عبدالرحمٰن بن زياد ضعيف لا يحتجّ به».

وذكره الزّيلعيّ[2]، وعزاه إلى من تقدّم، وإلى مسند أبي داود الطّيالسي[3]، وسنن البَيْهَقِيّ[4]، ونقل عن البَيْهَقِيّ قوله: «وهذا الحديث إنّما يعرف بعبدالرحمٰن بن زياد وقد ضعّفه يحيى بن معين... قال: «وإن صحّ فإنّما كان قبل أن يفرض التّسليم...».

وأخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية[5] وقال: «لا يصحّ عن رسول الله ﷺ».

وأعلّه بالضّعف الشّديد لوجود زُهَيْر الرّاوي عن الإفريقي، وبالانقطاع في سند الحديث بينه وبين الإفريقي. قلت: الحديث رواه عن الإفريقي جماعة غير زُهَيْر، وهم من أئمّة الحديث مثل: سفيان الثّوري وعبدالله بن المبارك[6].

وأخرجه ابن عبدالبرّ وقال[7]: «احتجّ به أبو حنيفة وأصحابه وجماعة من الكوفيّين... وهذا حديث لا يصحّ لضعف سنده واختلافهم في لفظه».

---

(١) سنن الدارقطني كتاب الصلاة، باب من أحدث قبل التسليم ١/٣٧٩/١، ٢، ٣.

(٢) نصب الراية ٢/٦٢، ٦٣.

(٣) انظر: منحة المعبود في ترتيب مسند أبي داود، أبواب صفة الصلاة، باب ما جاء في كيفية الإنصراف عن الصلاة ١/١٠٤، مسند أبي داود ٢٩٨.

(٤) انظر: سنن البيهقي كتاب الصلاة باب تحليل الصلاة بالتسليم ٢/١٧٦، وما ذكره الزيلعي عنه بالمعنى وليس باللفظ.

(٥) العلل المتناهية ١/٤٤٢.

(٦) راجع المصادر التي تقدمت في تخريج الحديث.

(٧) التمهيد ١٠/٢١٣، ٢١٣.

٤ ـ حديث: قال النّبيّ ﷺ: «أُغد عالماً أو مُتعلّماً ولا تكن الثّالث فتهلك»[١]، ورد هذا الحديث بصيغ متعدّدة وروايات مختلفة، متقاربة المعنى، وبعضها يزيد على بعض[٢]، ولم يرد الإفريقيّ في سند أيّ منها فيما وقفت عليه ممّا يدلّ على عدم تفرّده بهذا الحديث. كما أنّه لم ينفرد برفعه إلى النّبيّ ﷺ كما سيأتي.

وأكثر ما يُروى هذا الحديث موقوفاً على عبدالله بن مسعود[٣] وأبي الدّرداء بنحوه[٤]. ورُوي عن صَفْوان بن عَسّال المُرَادِي[٥]، كما رُوي موقوفاً على بعض التّابعين، منهم الحسن البَصْرِي[٦] وخالد بن مَعْدان[٧].

ورُوي مرفوعاً من طريق أبي بَكْرَة[٨]، وضعّف العجلونيّ سنده متابعاً في ذلك لأبي زُرعة العِراقي[٩]، ولم يعتدّ بتوثيق الهَيْثَمِيّ لرجاله[١٠]، كما ضعّفه

---

(١) ط أبي العرب ٢٧، الرياض ١/١٥٣، المعالم ١/٢٣٦.

(٢) راجع إحالات التخريج الآتية.

(٣) سنن الدارمي، باب فضل العلم والعالم ١/٩٧، جامع بيان العلم ١/٢٨، ٢٩، مجمع الزوائد ١/١٢٢، وعزاه إلى الطبراني في الكبير، وقال: رجاله رجال الصحيح إلا أن عبدالملك بن عمير لم يدرك ابن مسعود.

(٦) جامع بيان العلم ١/٢٨، مجمع الزوائد ١/١٢٢، وعزاه إلى الطبراني في الكبير، وقال: فيه معاوية بن يحيى الصدفي قال ابن معين: هالك ليس بشيء.

(٥) مجمع الزوائد ١/١٢٢، وعزاه إلى الطبراني في الأوسط، وقال: فيه حفص بن سليمان وثقه أحمد وضعفه جماعة كثيرون.

(٦) جامع بيان العلم ١/٢٩.

(٧) سنن الدارمي باب فضل العلم والعالم ١/٩٧.

(٨) بلفظ «أغد عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامس فتهلك».
أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ٢/٩، جامع بيان العلم ١/٣٠، وذكره الهيثمي وعزاه إلى البزار والطبراني في الثلاثة، المجمع ١/١٢٢، وذكره السخاوي وعزاه إلى البيهقي في الشعب وابن عبدالبر وأبي نعيم، وغيرهم المقاصد الحسنة ٦٨، وذكره العجلوني وعزاه إلى البيهقي وابن عبدالبر، كشف الخفاء ١/١٦٧.

(٩) كشف الخفاء ١/١٦٧، وانظر: فيض القدير ٢/١٧.

(١٠) مجمع الزوائد ١/١٢٢، وقد تابعه على ذلك السمهودي، انظر: فيض القدير ٢/١٧.

الزّرقاني[1]. واعتبره الشّيخ مرعي المقدسي موضوعاً[2]، وكذا حكم الألباني بوضعه[3]، وانفرد السّيوطيّ بتحسينه[4].

قلت: ولا حجّة لمن حكم بوضع هذا الحديث، وهو إنّما ضُعف لوجود عطاء بن مسلم الخَفّاف[5] في سنده ولم يتّهمه أحد بالكذب أو الوضع، بل قد وثّقه جماعة من الأئمّة منهم وكيع والفضل بن موسى، وابن معين في رواية، وذكره ابن حبّان في الثّقات، وضعّفه آخرون بسبب كثرة خطئه واضطراب حديثه؛ لأنّه دفن كتبه، فأمر هذا الحديث دائر تبعاً لذلك بين الضّعف والحسن، أمّا من حيث الرّفع فالرّاجح عدم ثبوت رفع هذا الحديث، قال البَيْهقيّ: «إنّ عطاء (بن مسلم الخَفَّاف) تفرّد بهذا الحديث وإنّما يُروى عن ابن مسعود وأبي الدرداء من قولهما»[6].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هذا عن النّبيّ ﷺ ليس بثابت، لكنّه مأثور عن بعض السّلف»[7].

٥ ـ حديث: قال عليه الصّلاة والسّلام: «لا خير فيمن لم يكن عالماً أو متعلّماً»[8]، لم أقف عليه بهذا اللّفظ، وقد وردت بمعناه بعض الأحاديث مرفوعة وموقوفة، ولم يرد في أسانيدها الإفريقي فيما وقفت عليه من المصادر، منها ما رُوي من طريق أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بهذا العلم قبل أن

---

(١) مختصر المقاصد الحسنة ٥٩.
(٢) الفوائد الموضوعة ٩٤ بلفظ: يا علي كن عالماً...
(٣) ضعيف الجامع الصغير ١/٣١٩. (٤) الجامع الصغير ١/٤٨.
(٥) انظر: التهذيب ٧/٢١١، التقريب ٢/٢٢، الميزان ٣/٧٦، الكامل ٥/٢٠٠٤، الضعفاء الكبير ٣/٤٠٥.
(٦) المقاصد الحسنة ٦٨، كشف الخفاء ١/١٦٧.
(٧) أحاديث القصاص ١٠٣، الفوائد الموضوعة ٩٥.
(٨) ط أبي العرب ٢٧، الرياض ١/١٥٣.

يُقبض وقبضه أن يرفع»، وجمع بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام، هكذا، ثم قال: «العالم والمتعلّم شريكان في الأجر ولا خير في سائر النّاس»[1].

ومنها حديث أبي هريرة قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إنّ الدّنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلّا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلّم»[2].

وورد نحو هذين الحديثين موقوفاً على أبي الدّرداء[3] وخالد بن مَعْدَان[4].

٦ ــ قول النّبيّ ﷺ: «العلم ثلاثة، وما سوى ذلك فضل: آية محكمة أو سنّة قائمة أو فريضة عادلة».

وهذا الحديث رواه أبو داود[5]، وابن ماجه[6]، كلاهما من طريق عبدالرحمٰن بن زياد فالحديث إذاً من غرائب الإفريقي، حيث لم أجد من تابعه عليه. وقد وهم من اعتبر رواية ابن ماجة من غير طريقه[7].

---

(١) سنن ابن ماجه في المقدمة باب فضل العلماء ٢٢٩/١٠١/١، جامع بيان العلم ٢٨/١. والحديث ضعيف فإن في سنده عثمان بن أبي عاتكة، وقد ضعفوه في روايته عن علي بن يزيد الألهاني (التقريب ١٠/٢) وهو الحال في حديثنا هذا وفيه علي بن يزيد، وهو ضعيف (التقريب ٤٦/٢).

(٢) سنن الترمذي كتاب الزهد باب ١٤، ٢٣٢٢/٥٦١/٤، سنن ابن ماجة أبواب الزهد، باب مثل الدنيا ٤١٧٩/٥٢٦/٢، وأخرجه ابن عبدالبر من طريق أبي سعيد الخدري بنحوه، جامع بيان العلم ٢٧/١، ومن طريق أبي هريرة ٢٨/١، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٣) سنن الدارمي باب ذهاب العلم ٧٩/١، جامع بيان العلم ٢٧/١، ٢٨.

(٤) سنن الدارمي باب في فضل العلم والعالم ٩٤/١.

(٥) سنن أبي داود، كتاب الفرائض، باب ما جاء في تعليم الفرائض ٢٨٨٥/٣٠٦/٣.

(٦) سنن ابن ماجه، المقدمة، باب اجتناب الرأي وفيه «فما وراء ذلك» بدل «وما سوى ذلك» ٥٥/٢٧/١.

(٧) حاشية الرياض ١٥٤/١، فضائل إفريقية للمطوي ٩٠.

وهكذا يتبيّن لنا أنّ الأحاديث السّتّة التي عرفت بإغراب ابن أَنْعُم بها لم يثبت ذلك إلاّ في اثنين منها فقط، هما الحديث الثّالث والحديث السّادس، ويمكن اعتبارهما من الإضافات الحديثيّة للقرويّين.

ب ـ مثـال آخـر:

مثلما أغرب الإفـريقي ببعض الأحاديث أغـرب غيره من الأفـارقة ببعض الأسانيد لأحاديث معروفة في المشرق، وممّا وقفت عليه في ذلك حديث: «من أحبّ أن يتمثّل[1] له الرّجال قياماً فليتبوّأ مقعده من النّار»، فقد رواه أهل المشرق من طريق معاوية بن أبي سفيان[2]، ومن طريق أبي أُمامة البَاهِلِيّ[3]، أمّا سند القرويّين في هذا الحديث فهو: يحيى بن محمد بن خُشَيْش[4] عن داود بن يحيى الإفريقي[5] عن عبدالله بن عمر بن غانم[6] عن مالك عن نافع عن عبدالله بن عمر[7].

قال ابن حَجَر: «قال أبو عامر العَبْدَرِي ومن خطّه نقلت: لا يحفظ عن مالك إلاّ من رواية ابن غانم، ولا عن ابن غانم إلاّ من حديث داود ولا عن داود إلاّ

---

(١) «يتمثل» وفي رواية «يمثُل» من المثول وهو الانتصاب، انظر: الفائق في غريب الحديث ٣/٣٤٥، القاموس المحيط ٤/٤٩.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في قيام الرجل للرجل ٥/٣٩٧/٥٢٢٩، وفيه يمثُل بدل يتمثل، سنن الترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل ٥/٩٠/٢٧٥٥، وفيه «سرّه» بدل «أحب»، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، مسند أحمد بنحوه ٤/٩١، ٩٣.

(٣) أشار إليه الترمذي في سننه كتاب الأدب. باب كراهية قيام الرجل للرجل ٥/٩١.

(٤) إفريقي انتقل إلى المشرق متهم بالكذب له مناكير، اللسان ٦/٢٧٦.

(٥) قروي فاضل، وثّقه أبو العرب، وقال ابن يونس أحاديثه موضوعة، ط أبي العرب ١٠٩، اللسان ٢/٤٢٦.

(٦) فقيه محدّث ثقة. ستأتي ترجمته رقم ٢١ في المحدثين.

(٧) الرياض ١/٢١٦، اللسان ٢/٤٢٦، المدارك ١/٣٢١.

من روايـة يحيى بن محمـد بن خُشَيْش القيـرواني وحـدّث بـه عن ابن خُشيش جماعة»[1].

قلت: بل قد رواه عن مالك من القرويّين اثنان غير ابن غانم، هما:

حاتم بن عثمان المَعَافِري[2]، وعبدالله بن أبي حسّان اليَحْصُبِيّ[3].

وهذا الحديث إن لم يكن سنده من وضع يحيى بن محمد بن خُشَيْش فهو ممّا تفردّ القرويّون بروايته عن مالك، ولا غرابة في ذلك؛ لأنّ لهم نوع اختصاص بالإمام مالك، وكان هو نفسه مُقبِلاً عليهم مُحتفياً بهم، كما تقدّم في التّمهيد وفي مبحث دخول الموطّأ.

وممّـا شاعت روايتـه بالقيـروان ولم يعرف في المشـرق أحاديث فضـائل إفريقيَّة، وسيأتي سياقها والكلام عليها في فصل الدّراية[4].

سابعاً: مباحث في علوم الرّواية لدى القرويّين:

لم أقف على وجود مصنّفات للقرويّين تتعلّق بهذه المباحث في الفترة التي أدرسها، وقد تتبّعت في المصادر الإشارات القليلة الواردة في هذا الشّأن، وهي بالإضافة إلى قلّتها وتشتّتها، فإن معظمها غير مباشر، وقد ألّفت بينها وفق العناصر التّالية[5]:

---

(١) لسان الميزان ٢/٤٢٦.

(٢) محدث فقيه لغوي، ثقة، ستأتي ترجمته رقم ٨ في المحدثين.

(٣) محدث، فقيه، قليل الرواية، كان يغرب عن مالك، وضعفه ابن حجر، راجع ترجمته رقم ١٨ في المحدثين.

(٤) انظر: ص ٢٥٩.

(٥) لعله من نافلة القول أن أذكـر هنا بأن ما سأورده ليس هو كل ما عرفه القرويون في هذه المباحث، وإنما هو ما تمكنت من إفادته من المصادر المتوافرة، وهي قليلة كما نبّهت على ذلك مراراً.

أ ـ آداب طالب الحديث[1]:

وهي جملة من الصّفات الكريمة، والشّمائل العالية التي ينبغي أن يتّصف بها طالب الحديث، لتناسبها مع شرف ما يطلب، ولأنّها تساعده على حسن الطّلب، وتمكّنه من تحصيل ثمرات ذلك، وأوّلها الثّواب من عند الله تعالى، ثمّ العمل بما يتحمّله من الحديث الشّريف، والسّعي لنشره. وممّا وجدته لدى القرويّين من هذه الآداب ما يلي:

١ ـ وجوب إخلاص النّيّة لله عزّ وجلّ في طلب الحديث، ليسعد بالثّواب، وينال التّوفيق والتّسديد من الله تعالى فيما هو بصدده، وقد شدّد الإمام القابِسي (ت ٤٠٣) في ذلك حتّى اعتبره من شروط حمل الحديث[2]، كما نبّه عليه محمد بن سَعدون القروي بالرّواية عن شيوخه[3].

٢ ـ التّزيّي بلباس أهل العلم، وعدم ارتداء ما يميّزه عنهم، ولذلك نجد أنّ أبا العرب (ت ٣٣٣) لمّا كان في أوّل طلبه يلبس زيّ الأمراء، كان الطّلبة ينقبضون منه من أجل ذلك الزّيّ حتى تجرّأ أحدهم فقال له: «لا تتزيّ بهذا الزّيّ فليس هو زيّ طلبة العلم وأهله»[4].

٣ ـ الجدّ في الأخذ عن علماء بلده، وذلك واضح في سيرة القوم كما سيأتي في تراجم المحدّثين في الباب الثّالث.

---

(١) انظر في هذه الآداب عامة: الإلماع ٤٣ ـ ٦١، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١٤٢/١ ـ ٢٣٤، تدريب الراوي ١٤٠/١ ـ ١٥١، منهج النقد في علوم الحديث ١٨٩ ـ ١٩٣، تيسير مصطلح الحديث ١٧٧، ١٧٨، علوم الحديث لابن الصلاح ٢٢١ ـ ٢٣٠، فتح المغيث ٣٥٢/٢ ـ ٣٩١، الباعث الحثيث ١٥٧ ـ ١٥٨، قواعد التحديث ٢٣٣، المحدث الفاضل ٢٥١.

(٢) الملخص خط ٤ أ.

(٣) الإلماع ٥٧.

(٤) انظر القصة كاملة في: الرياض ٣٠٧/٢، المدارك ٣٣٥/٣، المعالم ٣٧/٣.

٤ ــ تخيّر الشّيوخ والأخذ عن أهل العدالة والضّبط، فقد اشترط الإمام القابِسي على طالب الحديث: «النّظر فيمن يحمل عنه الحديث، فإنّ الحديث هو السّنّة، والسّنّة هي المبيّنة عمّا في كتاب الله، فلا يؤخذ إلاّ عن المأمونين على الدّين المشهورين بحسن العناية به والحفظ له»[1].

وكان طلبة الحديث بالقيروان يطبّقون ذلك، فيختبرون حفظ بعض الشّيوخ كما فعلوا مع عبّاس بن الوليد الفارسي (ت ٢١٨)[2]، كما كانوا يسألون الشّيخ عن الطّريقة التي تحمّل بها عن شيخه، أو يسألونه عن سماعه من شيخ معيّن، كما فعلوا مع عون بن يوسف الخُزَاعي (ت ٢٣٩)[3]، وعَنْبَسة بن خَارِجَة الغَافِقِيّ (ت ٢١٠)[4].

٥ ــ الرّحلة إلى محدّثي البلاد الأخرى، بعد السّماع من شيوخ بلده[5]، لتحصيل حديثهم، والفوز بعلوّ الإسناد، قال أبو إسحٰق الجِبِنْيَانِيّ: «إذا بلغنا أنّ رجلاً ببلد هو أقرب إلى النّبيّ ﷺ بدرجة قطعنا إليه المفاوز»[6].

٦ ــ تدوين سماعه بيده ليرجع إليه ولا يكتفي بحضور مجلس التّحديث، ومن ذلك: أنّ أبا العرب كان في أوّل طلبه يكتفي بالاستماع دون الكتابة، فقال له أحد الطّلبة: «أراك تلازم هذا المجلس، وتسمع فيه العلم، ولا تكتب شيئاً ممّا تسمع بيدك يكون عندك؟ ما هذا حقيقة العلم! . .»[7].

٧ ــ تثبيت حديثه بالمذاكرة مع زملائه[8].

---

(١) الملخص خط ٤ أ. (٢) انظر: الرياض ١/٢٤٩.

(٣) انظر: المدارك ١/٦٢٧، الرياض ١/٣٨٧.

(٤) انظر: ط أبي العرب مح ١٥١.

(٥) راجع فصل الرحلة من هذه الرسالة.

(٦) مناقب أبي إسحٰق الجبنياني ٥٨، أبو عبدالله الأبي وكتابه الإكمال لعبدالرحمٰن عون ٩١.

(٧) الرياض ٢/٣٠٧، المدارك ٣/٣٣٥، المعالم ٣/٣٧.

(٨) انظر: الرياض ١/٣٨٤.

٨ ـ انتخاب جيّد الحديث، وخاصّة إذا اضطرّ لسماع عدد محدود من الأحاديث عن شيخ معيّن[١].

ب ـ آداب المحدّث[٢]:

وهو يشترك مع الطّالب في بعض الآداب منها: إخلاص النّيّة لله عزّ وجل في نشره للسّنّة وابتغاء مرضاة المولى عزّ وجل من وراء ذلك، والحذر من أن تكون الدّنيا غاية مطلبه.

وينفرد المحدّث عن الطّالب بأمور منها:

١ ـ المحافظة على سماعه ليأمن عليه المداخل، وقد عبّر الإمام القابِسي عن ذلك بقوله: «الاحتفاظ بالسّمع عند أخذه ليُوَعَى على وجهه»[٣].

٢ ـ المداومة على استذكار حديثه وترديده، ليحافظ على ضبطه كما سمعه، وممّن كان يفعل ذلك من محدّثي القيروان: عيسى بن مِسكين (ت ٢٩٥)، قال أحد تلاميذه: «جئت إلى عيسى بن مسكين، فوجدته جالساً على دكّان في المعصرة، وخادم له يَرُدّ الزّيتون، والدّابّة تطحن، وهو يقرأ أحاديث رسول الله ﷺ من صدره، فقيل له في ذلك فقال: «أعرض حديثي لئلاّ أنساه»[٤]، كما نقل نحو هذا عن التّابعي عُليّ بن رباح (ت ١١٤ وقيل غير ذلك)، وقد بقي بالقيروان قرابة ثلاثين عاماً ناشراً للسّنّة[٥].

٣ ـ عدم الرّواية في حياة شيوخه ومن هو أولى منه، وممّن فعل ذلك حَمْدِيس

---

(١) انظر: الرياض ٣٨١/١، ط الخشني ١٦٥، الشجرة ٨١/١.

(٢) انظر في آداب المحدث عامة: الموقظة للذهبي ٦٥ ـ ٦٧، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٣١٥ ـ ٤١٦، منهج النقد في علوم الحديث ١٩٤ ـ ١٩٧، علوم الحديث لابن الصلاح ٢١٣ ـ ٢٢٠، فتح المغيث ٣٠٩ ـ ٣٥١، الباعث الحثيث ١٥١ ـ ١٥٦، قواعد التحديث ٢٣٣.

(٣) الملخص خط ٤ أ.

(٤) المدارك ٢٢٧/٣، ورقات ١٠٤/٢.

(٥) تهذيب الكمال ٩٦٧/٢، وراجع ترجمته رقم ٩ في القسم الثالث من التابعين.

القَطَّان (ت ٢٨٩)، الذي سئل في السّماع فقال: «هاهنا جماعة يحملون عنّي هذه المؤونة، فإذا انقرضوا لزمني ذلك، وإذا فعلت ذلك قبل أن يُحتاج إليّ فعلت ذلك منافسة وطلباً للرّئاسة»[1].

وقد فعل ذلك الإمام أبو الحسن القابِسي (ت ٤٠٣) أيضاً، فكاد الطّلبة يكسرون عليه باب داره لمسيس الحاجة إلى مرويّاته[2].

٤ ـ تجنّب الإكثار من الرّواية خشية الوقوع في الخطأ. قال سعيد بن الحدّاد (ت ٣٠٢): «دليل الضّبط الإقلال ودليل التّقصير الإكثار»[3].

وقال: «إذا رأيت إنساناً يكثر الخوض في الحديث فليدخل قلبك أنّه غير ناج من القول بالباطل فيما يخوض فيه»[4].

وللإمام أبي الحسن القابِسي في هذه المسألة كلام جيّد رأيت أن أنقله بكامله لفائدته، ولأنّه لا يزال في كتاب مخطوط لم ير النّور بعد، قال القابِسي[5]: «. . . وإنّ الزّبير رضي الله عنه قال له ابنه عبدالله: «إنّي لا أسمعك تحدّث عن رسول الله ﷺ كما يحدّث فلان وفلان، قال: أما إنّي لم أفارقه، ولكن سمعته يقول: «من كذب عليّ فليتبوّأ مقعده من النّار»[6]، قال أبو الحسن: ولم يذكر في هذين الحديثين[7] متعمّداً، فمن

---

(١) المعالم ٢/٢٠١.

(٢) انظر: الديباج ١٩٩، المدارك ٣/٦١٧.

(٣) المدارك ٥/٨٦، سير أعلام ١٤/٢٠٧، المعالم ٢/٣.

(٤) الرياض ٢/١٠٧.

(٥) الملخص خط ٤ أ، ٤ ب.

(٦) أخرجه الإمام البخاري بلفظه في كتاب العلم باب إثم من كذب على النبي ﷺ ١/٣٥، وأخرجه ابن ماجه بنحوه وفيه زيادة، في المقدمة باب التغليظ في تعمد الكذب على رسول الله ﷺ ١/١٨/٣٦، وأخرجه الإمام أحمد بمثل حديث ابن ماجه ١/١٦٥، وأخرجه أبو داود بمعناه في كتاب العلم باب في التشديد في الكذب على رسول الله ﷺ ٤/٦٣/٣٦٥١، وأخرجه الدارمي بنحوه وليس في أوله القصة، المقدمة باب اتقاء الحديث عن النبي ﷺ ١/٧٦.

(٧) تقدم قبل هذا حديث علي يرفعه «لا تكذبوا علي فإنه من كذب علي فليلج النهار»، وسيأتي تخريجه قريباً.

أجل هذا هاب بعض من سمع الحديث أن يحدث النّاس بما سمع، وهو بيّن في اعتذار الزُّبَير رضي الله عنه، ثمّ ساق بسنده أنّ «عبدالملك بن إيَاس[1] ممّن سمع وسكت»، وأفاد منه القابِسي وجود غيره أيضاً ممّن سمع وسكت، ثم قال: «وهذا ابن هُرْمُز[2] على إمامته بالمدينة وحسن ثناء مالك عليه بسعة العلم، ليس تكاد ترى عنه حديثاً واحداً. . . . وكرهوا الإكثار لقول أنس: إنّه ليمنعني أن أحدّثكم حديثاً كثيراً أنّ النّبي ﷺ قال: «من تعمّد عليّ كذباً فليتبوّأ مقعده من النّار»[3].

وقد كره الإكثار في الرّواية عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وقال: «أقلّوا الحديث عن رسول الله ﷺ وأنا شريككم»[4]، قال مالك: «يقول: وأنا أيضاً أقلّ الحديث عن رسول الله ﷺ».

---

(١) هو عبدالملك بن إياس الشيباني الكوفي الأعور، ثقة من السادسة، لم يخرج له غير أبي داود ولعل ذلك لقلة قيامه بالتحديث كما ذكره القابسي هنا، ولم أجد في ما بين يدي من المصادر من ذكر ذلك. انظر: التقريب ٥١٧/١، التهذيب ٣٨٦/٦، الكاشف ١٨٣/٢.

(٢) هو عبدالله بن يزيد بن هرمز، شيخ مالك وأحد فقهاء أهل المدينة، انظر: الجرح والتعديل ١٩٩/٥، مقدمة الكامل في ترجمة مالك ١٠١/١.

(٣) أخرجه الإمام البخاري بلفظه في كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ ٣٥/١، والإمام مسلم بلفظه في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ ٢/١٠/١، وأخرجه الدارمي بنحوه في المقدمة، باب اتقاء الحديث عن النبي ﷺ ٧٦/١، ٧٧، وعزاه المزي إلى النسائي في الكبرى تحفة الأشراف ١٠٤٥/٢٧٩/١.

(٤) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب التوقي في الحديث عن رسول الله ﷺ وفي أوله قصة، وفي «الرواية» بدل «الحديث»، وقد قال السندي في الحاشية: «والظاهر أن الحديث من أفراد المصنف» سنن ابن ماجه ٢٨/١٥/١.
قلت: وهو حديث حسن، ورجاله ثقات مشهورون إلا مجالد بن سعيد فقد اختلفوا فيه والراجح في حاله أنه صدوق، احتج به الأربعة وقرنه الإمام مسلم بغيره، وقد تغيّر بآخره، وقد ذكر أن حديث حماذ بن زيد عنه كان قبل أن يتغيّر، وحماد هو تلميذه في هذا الحديث (التهذيب ٣٩/١٠، والتقريب ٢٢٩/٢).

قال أبو الحسن: «يريد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ الأمر قد استقرّ وبانت معالمه؛ فإنّ الإكثار من الحديث إنّما يأتي في غير الواجبات، فلا يُؤمن على من كثّر الرّواية من دخول الوهَم عليه، فيُخاف عليه أن يكون متكلِّفاً في الإكثار، فلا يُعذر في الوهَم فيدخله تكلّفه في العامدين، فالسّلامة في ترك الإكثار، وقد قال سَلَمة بن الأَكْوع: سمعت النّبي ﷺ يقول: «من تقوّل عليّ ما لم أقل فليتبوّأ مقعده من النّار»[1]، وفي هذا أيضاً تحذير من التّكثير. ولقد جاء عن مالك أنّه دخل على أخته فوجد ابنيها، وهما: أبو بكر[2]، وإسماعيل[3]، ابنا أبي أُوَيْس، وهما يكتبان الحديث، فقال لهما: «إن أردتما أن ينفعكما الله بهذا الأمر فأقلّا منه»[4].

ولقد جاء عن شُعبة أنّه قال لكتبة الحديث: «إنّ هذا الحديث يصدّكم عن ذكر الله وعن الصّلاة فهل أنتم منتهون؟»[5]، وإنّما يريد شُعبة بقوله هذا: عيب تكثير

---

(١) أخرج الإمام البخاري في صحيحه كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ ١/٣٥، وقد ورد الحديث من طريق أبي هريرة وأبي قتادة أيضاً. انظر: سنن ابن ماجه المقدمة باب التغليظ في تعمد الكذب على رسول الله ﷺ، ١/١٧، ١٨/٣٤، ٣٥، مسند أحمد ٢/٣٢١.

(٢) هو عبدالحميد بن عبدالله بن أُويس الأصبحي، ابن أخت مالك، ثقة أخرج له الجماعة إلا ابن ماجه (ت ٢٠٢) ببغداد. انظر: التهذيب ٦/١١٨، والتقريب ١/٤٦٨.

(٣) إسماعيل بن عبدالله بن أُويس الأصبحي، صدوق أخطأ في أحاديث من حفظه، أخرج له البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه (ت ٢٢٦). التهذيب ١/٣١٠، التقريب ١/٧١.

(٤) ورد هذا القول في المدارك ١/٣٧١.

(٥) جاء الخبر مسنداً في مقدمة الكامل لابن عدي ١/٨٨، قال ابن عدي: حدثنا أحمد بن محمد بن الحسن البلخي الذهبي نا إبراهيم بن يعقوب (هو الدورقي، ثقة من الحفاظ. التهذيب ١١/٣٨١) قال: سمعت عبدالرحمٰن بن مهدي، (ثقة ثبت. التقريب ١/٤٩٩) سمعت شعبة (هو ابن الحجاج، ثقة حافظ متقن. التقريب ١/٣٥١)... فهؤلاء كلهم ثقات كما تقدم إلا شيخ ابن عدي فهو مشتهر بشرب الخمر، وقال الحاكم: «وقع إلي من كتبه بخطه وفيها عجائب» (الميزان ١/١٣٤، اللسان ١/٢٦٠، المغني ١/٥٤)، وهو آفة هذا المسند.

الرّوايات لِمَا قد يدخل على المُتكثِّرين من اختلاط الأحاديث وغير ذلك فيصيرون بالتّكلّف إلى أن يتقوّلوا على رسول الله ﷺ ما لم يقل».

٥ ـ الاحتياط في الأداء، والاجتهاد في أن يكون أداؤه كسماعه. قال القابِسي: «. . . التّحرّي للصّدق في نقله؛ فإنّ عليّا رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكذبوا عليّ فإنّ من كذب عليّ فليلج النّار»[1].

٦ ـ التّوقّف عن الرّواية إذا كبر سنّه خشية الاختلاط، وممّن روي عنه ذلك من محدّثي القيروان: علي بن محمد بن مسرور الدَّبَّاغ (ت ٣٥٩)، فإنّه حدّث النّاس من سنة ٣٣٣ هـ إلى سنة ٣٥٦ هـ، «ثمّ منع السّماع تورّعاً لما دخله من السّنين»[2].

٧ ـ اتّخاذ المُستملي أو القارىء، لإسماع من بعد، وخاصّة إذا كثر الطّلبة ومن أشهر من فعل ذلك بالقيروان: يحيى بن عمر (ت ٢٨٩)[3]، وربيع القطّان (ت ٣٣٣)[4]، وأبو بكر أحمد بن عبدالرحمن (ت ٤٣٢)[5].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري بلفظه في كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ ٣٥/١، وأخرجه الإمام مسلم باختلاف يسير جداً في المقدمة، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ ١/٩/١، والترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في تعظيم الكذب على رسول الله ﷺ ٢٦٦٠/٣٥/٥، وفي كتاب المناقب بمعناه في آخر حديث طويل، باب مناقب علي ٣٧١٥/٦٣٤/٥، وابن ماجه بنحوه، المقدمة، بابَ التغليظ في تعمد الكذب على رسول الله ﷺ ٣١/١٧/١، وعزاه المزي إلى النسائي في الكبرى. تحفة الأشراف ١٠٠٨٧/٣٧٠/٧، وقال النووي عن هذا الحديث بمختلف طرقه. . . «وأما متن الحديث فهو حديث عظيم في نهاية من الصحة وقيل إنه متواتر. . . رواه عن النبي ﷺ نحو من أربعين نفساً من الصحابة رضي الله عنهم. . . وقيل أكثر من ستين وقيل سبعة وثمانين وقيل مائتان من الصحابة»، شرح النووي على مسلم ٦٨/١.

(٢) المعالم ٧٥/٣، المدارك ٥٢٥/٣.

(٣) انظر: ط الخشني ١٧٥، المدارك ٢٣٥/٣.

(٤) انظر: المدارك ٣٣٢/٣. (٥) انظر: المعالم ١٩٠/٣.

جـ ـ كيفيّة سماع الحديث وتحمّله[1]:

سأتناول في هذا المبحث السّنّ التي اعتبرها القرويّون في تحمّل الحديث، وطرق الرّواية المعهودة عندهم، والتّدبيج باعتباره من طرائف هذا المبحث.

١ ـ سنّ تحمّل الحديث:

عامّة القرويّين في هذا كأهل المشرق، يعتبرون أنّ أقلّه سنّ محمود بن الرَّبيع[2] الذي عقل عن النّبيّ ﷺ وعمره خمس سنين، فقد روى[3] الإمام القابِسي بسنده إلى محمود بن الرَّبيع قال: «عقلت عن النّبيّ ﷺ مجّة مجّها في وجهي، وأنا ابن خمس سنين، من دلو»[4].

وقد ثبت أنّ الحافظ محمد بن حارث الخُشَنِي (ت ٣٦١)، كان يَسمع الموطّأ بالقيروان وعمره حوالي خمس سنوات، حيث قال في ترجمة أحد شيوخه: «... عهدي به سنة ٣٠٣ هـ وأنا أقرأ عليه موطّأ مالك...»[5]، وقد ولد الخُشَنِيّ حوالي سنة ٢٩٨ هـ[6].

---

(١) انظر عن هذا المبحث عامة: علوم الحديث لابن الصلاح ١١٤ ـ ١٥٩، فتح المغيث ٢/٣ ـ ١٥٧، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/٢٨١ ـ ٢٨٥، تدريب الراوي ٢/١ ـ ٦٣، الباعث الحثيث ١٠٩ ـ ١٣١، الإلماع ٦٢ ـ ١٢١، الكفاية في علم الرواية ٣٨٠، ٣٩٨، ٤٣٤، ٤٣٨، ٤٤٦ ـ ٤٥٦، ٢٧٢ ـ ٥٠٧، قواعد الحديث للقاسمي ١٧٥، منهج النقد في علوم الحديث ٢١٠ ـ ٢٢٢.

(٢) صحابي صغير، أكثر روايته عن الصحابة، توفي النبي ﷺ وله خمس سنين (ت ٩٩ هـ)، التهذيب ١٠/٦٣، التجريد ٢/٦٢، الإصابة ٣/٣٦٦، فتح الباري ١/١٧٢.

(٣) الإلماع ٦٢.

(٤) أخرجه البخاري بلفظه في كتاب العلم باب متى يصح سماع الصغير ١/٢٧، وله عنده ألفاظ أخرى في الأذان باب من لم يرد السلام على الإمام ١/٢٠٤، وفي التهجد باب صلاة النوافل ٢/٥٥، وفي الرقاق باب العمل الذي ينبغي به وجه الله ٧/١٧٢، وأخرجه مسلم بنحوه وليس فيه تحديد السن كتاب المساجد باب الرخصة في التخلف عن الجماعة ١/٤٥٦/٢٦٥.

(٥) ط الخشني ١٦٥.

(٦) جاء في الشجرة أنه رحل إلى قرطبة سنة ٣١٠ وعمره ١٢ عاماً، الشجرة ١/٩٥، وجاء في المدارك أن رحلته كانت سنة ٣١١، المدارك ٣/٥٣١.

كما كان الحافظ أبو العَرَب يسمع الحديث من محمد بن يحيى بن سلاّم (ت ٢٦٢)، ويكتبه عنه وهو دون العاشرة من عمره[١].

أمّا الإمام سحنون (ت ٢٤٠)، فإنّه لا يرى صحّة السّماع في هذه السّنّ المبكّرة حيث ردّ أحد الطّلبة وعمره ١١ سنة، قال أحمد بن أبي سليمان: «أتى بي أبي إلى سَحنون سنة ٢١٧ هـ لأسمع منه فاستصغرني، وأجاز لي جميع كتبه، ثمّ صحبت سَحنوناً بعد ذلك عشرين سنة»[٢]، وقد ولد أحمد بن سليمان سنة ٢٠٦ هـ[٣].

٢ ـ طرق التّحمّل المعهودة بالقيروان:

اتّفق أهل الصّناعة على أنّ مجامع طرق تحمّل الحديث ثمانية أنواع هي[٤]: السّماع من لفظ الشّيخ، القراءة عليه أو العرض، المناولة، المكاتبة أو الكتابة، الإجازة، الوصيّة بالكتب، الوجادة أو الوقوف على خطّ الرّاوي، الإعلام للطّالب بأنّ هذه الكتب روايته أو أنّ هذا الحديث سماعه.

وقد وقع تداول هذه الطّرق في تحمّل الحديث وأدائه بالقيروان، إلاّ النّوع الأخير فلم أعثر على من استعمله في المصادر المتوافرة.

وفيما يلي عرض هذه الأنواع، مع نماذجها وما وجدته من كلام للقرويّين حول بعضها.

النّـوع الأوّل:

السّماع من لفظ الشّيخ ويسمّى أيضاً التّحديث أو المشافهة: وهو تحمّل الطّلبة للحديث عن طريق مشافهة الشّيخ لهم، سواء كان يحدّثهم من حفظه أو من كتابه.

---

(١) سيأتي ذلك في ترجمته رقم ٣٠ في المحدثين.
(٢) المدارك ٢٤٣/٣، المعالم ٢٠٧/٢.
(٣) انظر: المدارك ٢٤٥/٣.
(٤) انظر مثلاً: الإلماع ٦٨، علوم الحديث ١١٤، التدريب ٨/٢، فتح المغيث ١٩/٢، المحدث الفاصل ٤٢٠.

وهذا النّوع أقدمها وجوداً بالقيروان، كما هو الحال في سائر بلاد الإسلام، فقد عرف بها منذ عهد الصّحابة[1] والتّابعين[2]، الذين كانوا يحدّثون من حفظهم في خُطبهم ومجالسهم، ثمّ استمرّ عمل القرويّين على ذلك، إلى أن شاع التّدوين فأصبح تحديثهم غالباً من الكتب، من ذلك أنّ علي بن زياد (ت ١٨٣) كان يأخذ الموطّأ ليسمع سَحنوناً في موضعه[3]، وكان عبدالله بن عمر بن غانم (ت ١٩٠) يقرأ على طلبته الموطّأ[4]، وكان أسد يحدّث في المسجد[5]، وكان سَحنون (ت ٢٤٠) يسمع طلبته من كتبه[6]، وغيرهم.

وحدّث فيها بعض العلماء من حفظهم، قال أبو العرب عن عبدالعزيز بن يحيى المدني أنّه أملى كتبه بالقيروان من حفظه، وسمعها منه بشر كثير، منهم محمد بن سَحنون (ت ٢٣٥٦)، وذلك سنة ٢٢٥ هـ[7]، كما أنّ الحافظ عبدالخالق بن عبدالوارث السُّيُورِي (ت ٤٦٢) قد أملى المدوَّنة من حفظه، ثمّ قابلوها بالأصل فوجدتا سواء[8].

كما أنّ بعض الطّلبة أرادوا أن يمتحنوا عبّاس بن الوليد الفارسي (ت ٢١٨)، فأملى عليهم الكتاب من حفظه[9].

والجمهور على أنّ السّماع من لفظ الشّيخ هو أرفع درجات أنواع التّحمّل[10]، والذي يفهم من صنيع القرويّين التّسوية بين السّماع وبين العرض[11]، وصرّح بذلك

---

(١) انظر: الرياض ١/٨١، ١٣٧، ط أبي العرب ١٥، ٢٣، المعالم ١/١٢٣.
(٢) انظر: الرياض ١/١٠٠، ١٠١، ١١٠، ١١١، ١١٦، المعالم ١/١١٨.
(٣) انظر: الرياض ١/٣٥٠، المدارك ١/٥٨٧.
(٤) الرياض ١/٢١٧.
(٥) الرياض ١/٢٦٤، المدارك ١/٤٧٤.
(٦) الرياض ١/٣٥٩، ٣٦٥، ٣٦٦.
(٧) انظر: ط أبي العرب ٨٧.
(٨) انظر: المعالم ٣/١٨٢.
(٩) انظر: الرياض ١/٢٤٩.
(١٠) انظر: فتح المغيث ٢/١، علوم الحديث ١١٨، الإلماع ٦٩، التدريب ٢/٨.
(١١) انظر: الملخص للقابسي خط ٢ أ، الجامع لابن أبي زيد ١٥١.

السّخاوي [1] ، ولعلهم تابعوا في ذلك الإمام مالكاً، فإنّه يذهب إلى التّسوية بينهما في المشهور عنه [2] .

أمّا الصيغ التي يعبَّر بها عن أداء هذا النّوع وغيره فسيأتي ذكرها قريباً في مبحث آخر، بعد انتهاء الكلام على صيغ التحمل.

النّـوع الثّانـي:

القراءة على الشّيخ، وتسمّى أيضاً العرض، وهو تحمّل الطّالب للحديث عن طريق قراءته على العالم، أو بقراءة غيره وهو يسمع.

وقد ارتضى القرويّون هذه الطّريقة، وهي عند محدّثيهم رواية معتبرة[3]، وكانت كثيرة الشّيوع بينهم[4]، وقد تقدّم ذكر تسويتهم بينها وبين السّماع من لفظ الشّيخ.

وممّن كان يُقرأ عليه بالقيروان: أسد بن الفُرات (ت ٢١٣)[5]، وعبّاس بن الوليد (ت ٢١٨)[6]، وسَحنون بن سعيد (ت ٢٤٠)[7]، ويحيى بن عمر (ت ٢٨٩)[8]، وأبو العَرَب أحمد بن محمّد بن تميم (ت ٣٣٣)[9]، وأبو القاسم عبدالرحمن حفيد ابن أبي زيد القيرواني[10]، وغيرهم.

---

(١) فتح المغيث ٢/٣٤.

(٢) وقد ذهب إلى ذلك بعض العلماء غيره، انظر: الكفاية ٣٨٣ - ٣٩٤، فتح المغيث ٢/٢٩، علوم الحديث ١٢٢، الإلماع ٧١.

(٣) انظر: الملخص للقابسي خط ٢ أ، الجامع لابن أبي زيد ١٥١.

(٤) انظر مثلاً: ط الخشني ١٧٥، ١٩٥، ط أبي العرب ٩١، الشجرة ١/١٠٥، المحن ١٦٠، ٤١٣، الحلل السندسية ١/٣/٧٩٨.

(٥) انظر: الرياض ١/٢٤٩.

(٦) انظر: الرياض ١/٢٤٩.

(٧) انظر: المدارك ٤/٧٧، الرياض ١/٣٦٦، ٣٧١.

(٨) انظر: المدارك ٣/٢٣٥، ط الخشني ١٧٥.

(٩) انظر: الرياض ٢/٣١٠.

(١٠) انظر: المعالم ٣/١٩٠.

النّـوع الثّالـث:

الإجازة: وهي أن يأذن الشّيخ للطّالب في رواية حديث أو كتاب صحّ عنده أنّه من سماعه[1].

وتكون «مشافهة أو إذناً باللّفظ مع المغيب، أو يكتب له بخطّه بحضرته أو مغيبه»[2].

وقد نقل عياض عن أبي الوليد سليمان بن خَلَف الباجي (ت ٤٧٤)[3] أنّه ادّعى الإجماع من سلف الأمّة وخلفها على جواز الرّواية بالإجازة[4]، وقد تعقّبه الحافظ أبو عمرو ابن الصّلاح، وأبطل ادّعاء الإجماع، وأورد نماذج لمن خالف في ذلك[5]، ثمّ قال: «والذي استقرّ عليه العمل، وقال به جماهير أهل العلم من أهل الحديث وغيرهم: القول بتجويز الإجازة وإباحة الرّواية بها»[6].

أمّا القرويّون فكانت حفاوتهم بالإجازة كبيرة، وقد اعتبرها جمهورهم[7] طريقاً قويّاً من طرق الرّواية، وذلك من خلال أقوالهم فيها واستعمالاتهم لها.

فمن أقوال محدّثيهم المشهورة في ذلك والتي تناقلها المصنّفون قول عيسى بن مِسكين (ت ٢٩٥): «الإجازة قويّة، وهي رأس مال كبير، وجائز أن يقول حدّثني فلان وأخبرني فلان»[8].

---

(١) انظر: الكفاية ٤٦٦، منهج النقد في علوم الحديث ٢١٥.

(٢) الإلماع ٨٨.

(٣) أحد كبار محدثي الأندلس مع تفنّن في علوم شتى. راجع الترجمة الموسعة والمفيدة التي كتبها عنه الدكتور أبو لبابة حسين في مقدمة تحقيقه لكتاب التعديل والتجريح ١/٣١ - ٢٠٦.

(٤) انظر: الإلماع ٨٩.

(٥) علوم الحديث ١٣٤، ١٣٥.

(٦) علوم الحديث ١٣٤، ١٣٥.

(٧) سيأتي ذكر من خالف في ذلك منهم.

(٨) الصلة ١/٢٠٠، الإلماع ٩١، إفادة النصيح ١١٤، مدرسة البخاري في المغرب ١/١٣١.

وكانوا يروون قول مالك في ذلك، وقد وجد في كثير من المصنّفات من طريقهم، من ذلك ما حدّث به عون بن يوسف الخُزَاعي (ت ٢٣٩) بالقيروان قال: أخبرنا ابن وهب قال: «كنت عند مالك بن أنس فجاءه رجل يحمل الموطّأ في كسائه»، فقال له: «يا أبا عبدالله هذا موطّؤك قد كتبته وقابلته، فأجزه لي»، قال: «قد فعلت»، قال: «فكيف أقول: حدّثنا مالك أو أخبرنا مالك؟» قال: «قل أيّهما شئت»[1].

كما كانوا يتناقلون قول الحافظ أبي نُعَيم أحمد بن عبدالله الأَصْبَهاني (ت ٤٣٠) من طريق الحافظ عثمان بن أبي بكر الصَّفاقُسي القروي (ت حوالي ٤٤٤)، قال: سمعت أبا نُعيم يقول: «الإجازة على الإجازة قويّة جائزة»[2].

أمّا من النّاحية العمليّة فقد استعمل الإجازة في التّحمّل والأداء من لا يُعدّ كثرة من محدّثي القيروان.

فقد حدّث سَحنون عن الأعنائي الأندلسي (ت ٢٦٢) بالإجازة[3]، وأجاز كثيراً من الطّلاّب منهم أبو جعفر أحمد بن أبي سليمان الصّوّاف[4]، ومحمد بن سليمان بن بَسيل[5]، وغيرهما.

واشتهرت إجازات عيسى بن مسكين (ت ٢٩٥) لكثرتها، فقد أجاز أبا إسحٰق إبراهيم بن أحمد الجِبْنَيَانِي[6]، وزياد بن يونس اليَحْصُبِيّ[7]، وغيرهما.

واستجاز أبو محمد عبدالله بن أبي زيد (ت ٣٨٦) جماعة منهم: محمد بن القَاسم بن شعبان المصري (ت ٣٥٥)[8]، وأبو بكر بن محمد بن عبدالله الأَبْهَرِي (ت ٣٧٥)[9].

---

(١) الشجرة ١/٩٥، مناقب أبي إسحٰق ٨، المدارك ٣/٤٩٩.

(٢) المعالم ٣/٧٩، الشجرة ١/٩٥.

(٣) المدارك ٣/٢٩٣.

(٤) المدارك ٣/٤٦٧.

(٥) الإلماع ٩٠، مدرسة البخاري في المغرب ١٣٣، ط أبي العرب ١٠٥، ١٠٦، المدارك ١/٦٢٧، الرياض ١/٣٨٧.

(٦) الصلة ٢/٣٩٠.

(٧) المدارك ٣/١٢٩.

(٨) الشجرة ١/٧٢.

(٩) المعالم ٢/٣٤٩.

كما أجاز جماعة منهم: محمد بن يحيى التّميمي القُرطُبِي المعروف بابن الحذّاء (ت ٤١٠)[١]، وعبدالرحمن بن هارون القَنَـازِعي القُرْطُبِيّ (ت ٤١٣)[٢]، واستدعاه للإجازة ـ أي طلب منه ـ جماعة من أهل المشرق فأسعفهم بها، منهم: أبو عبدالله محمد بن أحمد بن مجاهد الطّائي البغدادي وتلاميذه[٣]، وأبو الفضل محمد بن عبدالله بن عَمْرُوس البَزَّار (ت ٤٥٢)[٤].

وأمّـا أبو عِمـران الفـاسي (ت ٤٣٠)، فقـد استـدعـاه لـلإجـازة جمـاعـة فأجازهم[٥].

والإجازة لدى القرويّين كانت غالباً تكتب بخطّ الشّيخ حتّى في حالة وجود المستجيز وحضوره؛ قال محمد بن حارث الخُشَنِي (ت ٣٦١) في ترجمة شيخه سعيـد بن حَكْمُون: «. . . دخلت عليـه سنة ٣٠٧ هـ فسـألته أن يجيـزني كُتُبه فأسعفني بذلـك، وكتب لي الإجازة بخطّ يـده. . .»[٦]، أمّا في حـالة غيـاب المستجيز فقد كانت الكتابة هي الوسيلة المتّبعة[٧].

وقضيّة صنيع القرويّين فيما وقفت عليه ممّا يتعَلّق بالإجازة تفيـد أنّهم لا يذهبون إلى التّوسّع فيها كالإجازة للمعدوم ونحو ذلك، وغاية ما ورد عنهم في ذلك الإجازة لمن رغبها، كأن يقول: «أجزت كتبي لمن رغب ذلك»، وممّن فعل هذا عبدالله بن أبي زيد (ت ٣٨٦)[٨]، وفي هذا جهالة لتعلّقه بمشيئة من لا يحصر عددهم[٩].

---

(١) الصلة ٢/٤٧٩.
(٢) الشجرة ١/١١٢.
(٣) المدارك ٣/٤٧٧، الشجرة ١/٩٢.
(٤) المدارك ٣/٧٦٣.
(٥) الشجرة ١/١٠٦.
(٦) ط الخشني ١٦٥، الشجرة ١/٨١.
(٧) انظر الصلة ٢/٤٥٧، الشجرة ١/١٠٩، المدارك ٣/٤٧٧.
(٨) المدارك ٣/٤٧٧، ٤٧٨، حاشية الإلماع ١٠٤.
(٩) علوم الحديث لابن الصلاح ١٣٩.

وأمّا من حيث السّنُّ التي تصحّ فيها الإجازة عندهم فقد ذهب الإمام سَحنون[1]، وغيره[2] إلى صحّة الإجازة حتّى قبل السّنّ التي يصحّ فيها السّماع، وهو مذهب جمهور القائلين بالإجازة[3].

وإذا كان معظم علماء القيروان يرون صحّة التّحمّل بالإجازة فإنّ منهم من كان متحرّيّاً في ذلك، شديد الحيطة، مثل سَحنون بن أحمد (ت **٣٤٣**)، الذي وصف بأنّه كان صعباً في الإجازة[4]، بل إنّ منهم من خالف في جواز الرّواية بها، مثل أبي عبدالله محمد بن عمر الخرّاط فإنّه «كان لا يحدّث إلاّ بما سمع، وعيّن الإجازة من سماعه»[5].

النّوع الرّابع: المناولة:

وهي[6] قسمان: مقرونة بالإجازة، ومجرّدة عنها، أمّا القسم الأوّل فله صور، أقواها: أن يدفع الشّيخ للطّالب كتاباً أو صحيفة ونحوها، ويعلمه أنّها من روايته، ثمّ يأذن له في روايتها عنه، ويسلمه الكتاب تمليكاً، أو لينسخه ثمّ يعيده إليه، فهذا طريق قويّ من طرق التّحمّل، بل هو أعلى أنواع الإجازة مطلقاً.

وأمّا القسم الثّاني فهو: أن يناول الشّيخ الطّالب سماعه، ويقتصر على إعلامه بأنّه من روايته، وقد جوّز بعض أهل الحديث التّحمّل بهذا القسم، والصّحيح عدم جواز الرّواية به.

وقد عرَف القرويّون المناولة كنوع من أنواع التّحمّل، فإنّهم كانوا يروونه

---

(١) انظر: المدارك ٣/٢٤٣. (٢) انظر: الخشني ١٦٥.

(٣) انظر: الكفاية ٤٦٦، التدريب ٢/٣٨.

(٤) المدارك ٣/٣٧٥. (٥) المدارك ٣/٣٥٧.

(٦) صغت هذا التعريف بعد الاطلاع على: الإلماع ٧٩، علوم الحديث ١٤٦، التدريب ٢/٤٤، منهج النقد في علوم الحديث ٢١٧، فتح المغيث ٢/١١٢، الكفاية ٤٤٦، فتح الباري ١/١٥٤.

الحديث الذي اعتبره أهل الصّناعة من أصول المناولة[1]، وذلك من طريق محمد بن سَعدون القروي بسنده إلى عبدالله بن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ رسول الله ﷺ بعث بكتابه إلى كِسْرَى مع عبدالله بن حُذافة، وأمره أن يدفعه إلى عظيم البَحْرَيْن ويدفعه عظيم البَحْرَيْن إلى كِسْرى»[2].

وقد ناول مروان بن محمد الأَسَدي (ت قبل ٤٤٠) كتابه في شرح الموطّأ لأبي عمرو محمد بن يحيى بن الحذَّاء (ت ١٤١٠)، وذلك حين لقيه سنة ٤٠٥ هـ ببُونَة القيروان[3].

واعتبر أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦) أنّ «المناولة أقوى من الإجازة إذا صحّ الكتاب»[4].

وكان القرويّون يروون عن مالك في المناولة قولين: القبول والرّفض، فقد جاء في الجامع[5]: قيل له (أي مالك): فالرّجل يقول له العالم: هذا كتابي

---

(١) انظر: الإلماع ٨١، التدريب ٢/٤٤، وقد استدل بعض أهل الحجاز في المناولة بحديث النبي ﷺ حيث كتب لأمير السرية كتاباً وقال: «لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا وكذا» فلما بلغ ذلك المكان قرأه على الناس وأخبرهم بأمر النبي ﷺ. صحيح البخاري. كتاب العلم. باب ما يذكر في المناولة ١/٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم باب ما يذكر في المناولة وفي آخره زيادة وفيه «رجلاً» بدل «مع عبدالله بن حذافة» ١/٢٣، ٢٤، وفي كتاب الجهاد باب دعوة اليهود والنصارى وليس فيه ذكر الرجل ولا تسميته ٣/٢٣٥، وفي كتاب المغازي باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، بلفظه، ٥/١٣٦، وفي أخبار الآحاد باب ما كان يبعث النبي ﷺ من الأمراء والرسل واحداً بعد واحد، وليس فيه ذكر الرجل ولا تسميته. ٨/١٣٦، وتوجد زيادة في آخره في جميع المواضع.
وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ١/٢٣٤، ٣٠٥، غير أن فيه «مع رجل» في الموضع الثاني، وفي كليهما زايدة.

(٣) الصلة ٢/٥٨١، وبونة مدينة تقع في غرب إفريقية معروفة بحصانتها ورخص أسعارها وكثرة بساتينها. انظر: معجم البلدان ٢/٣٠٩، ٣١٠.

(٤) الجامع لابن أبي زيد ١٥٢. (٥) م. ن ١٥٢.

فاحمله عنّي وحدّث بما فيه؟ قال: «لا أراه يجوز، وما يعجبني، إنّما يُرِيدون الحمل»، قال أشهب: «يريد الحمل الكثير في الإقامة اليسيرة»، قال ابن أبي زيد: «وروي عن مالك غير هذا». قلت: والمشهور عن مالك قبولها[1]، وهو المعتمد لدى القرويّين كما تقدّم من أفعالهم وأقوالهم.

النّــوع الخامــس:

الكِتابة أو المُكاتبة: وهي[2] أن يكتب الشّيخ أو من يُكلّفه شيئاً ممّا يرويه أو من تأليفه لطالب غائب أو حاضر، بطلب، أو ابتداء من الشّيخ للإفادة، فإذا اقترنت بالإجازة فهي في الصّحّة كالمناولة المقرونة بالإجازة، وإذا جُرّدت عنها فهي طريقة جائزة مشهورة بين أهل الحديث.

وقد عرف أهل القيروان هذا النّوع، وشاع استعماله بينهم، فإنّهم كانوا يروون عن مالك أنه قال: «كتبتُ ليحيى بن سعيد مائة حديث من حديث ابن شِهاب (الزُّهْرِي) فحملها عنّي ولم يقرأها عليّ»[3].

ومن استعمالاتهم لها مقرونة بالإجازة: أنّ عليّ بن مسرور (ت ٣٥٩) كتب بإجازة ما رواه إلى محمد بن عيسى الغسّاني الأندلسي[4].

وكاتب محمد بن أحمد بن مجاهد الطّائي البغدادي أبا محمّد بن أبي زيد (ت ٣٨٦) وطلب منه أن يرسل له نسخة مُصحّحة من كتاب النّوادر ويجيزها له ولأصحابه، فكتب له ما أراد، وأرسل له نسخة مقابلة مصحّحة من كتاب المختصر، مع شابّين من تلاميذه، وكتب له بإجازة ذلك له ولغيره[5].

---

(١) انظر: علوم الحديث لابن الصلاح ١٤٧، التدريب ٢/٤٦.

(٢) انظر: التدريب ٢/٥٥، الإلماع ٨٣، ٨٤، علوم الحديث ١٥٣، منهج النقد في علوم الحديث ٢١٨، فتح المغيث للسخاوي ٢/١٣٥.

(٣) الجامع لابن أبي زيد ١٥٢.

(٤) الصلة لابن بشكوال ٢/٤٥٧.

(٥) انظر نصّي الرسالتين في المدارك ٣/٤٧٧، ٤٧٨.

وقال أبو عبدالله محمد بن عَتَّاب القُرْطُبي (ت ٤٦٢): «سألت أبا عمرو الصّفاقُسي أن يكتب لابني عبدالرحمن حديثه، ويجيز لنا فكتب»[١].

ومن استعمالاتهم لها مجرّدة: أنّ الصّفاقُسي كتب عوالي حديثه لأبي محمد عبدالله بن عتّاب (ت ٥٢٠ أو ٥٢٢)[٢] وهو أحد أبناء المتقدّم، ولم يشترط النّص هنا إلى اقترانها بالإجازة.

النّـوع السّـادس:

الوجادة[٣] أو الخطّ: ويعبّر بذلك[٤] عمّا أخذه الطّالب من العلم من كتاب أو صحيفة بخطّ شيخ وإسناده بعد التّأكّد من نسبته إليه، ولكن ليس له منه سماع أو إجازة أو مناولة، وهو من باب المنقطع، ولا يجوز فيه إطلاق التّحديث أو الإخبار.

وقد شاع استعمال هذا النّوع أيضاً لدى القرويّين، وإن لم أجد لهم كلاماً حوله، غير أنّهم لم يتورّطوا في التّعبير عنه بما لم يجزه أهل الصّناعة، بل استعملوا الصيغ المناسبة له كما سيأتي، ممّا يفيد عدم اعتبارهم له متّصلاً.

وممّن كان يستعمله الحافظ أبو العرب التّميمي (ت ٣٣٣)[٥]، وأبو بكر محمد بن اللّبَّاد (ت ٣٣٣)[٦]، وأبو إسحٰق إبراهيم بن أحمد الجِبِنْيَاني (ت ٣٦٩)[٧]، وأبو بكر عبدالله بن محمد المالكي (ت بعد ٤٦٤)[٨].

---

(١) فهرسة ابن خير ١٧٠. (٢) الشجرة ١٠٩، ١٢٩.

(٣) مصدر لوجد يجد مُولّد غير مسموع، انظر: علوم الحديث ١٥٧، ومن عادة المصنفين تأخير هذا النوع، وقد قدمته لشيوعه بالقيروان أكثر من الذي يليه.

(٤) انظر: علوم الحديث ١٥٧، فتح المغيب ١٥١/٢، التدريب ٦٠/١، الإلماع ١١٦، منهج النقد ٢٢٠.

(٥) انظر: المحن ٨٢، ٢٢٢، ٢٥٦، ٣٠٤، ٣٣٦، ٤٠٢، ط أبي العرب ٧٥.

(٦) انظر: المدارك ١٣٨/٥. (٧) مناقب أبي إسحٰق ١٠.

(٨) انظر: الرياض ٨٢/١، ٣٨٦، ٤٢٤، ٤٧٢، ١٣٤/٢، ٢٠٤، ٢٥٨، ٣٣٣، ٣٣٨، ٣٧٣، ٣٧٦.

النّـوع السّابـع:

الوصيّة بالكتب: وهي أن يوصي الشّيخ لمن شاء، عند موته أو سفره وغير ذلك بكتاب ونحوه كان يرويه أو من تأليفه، ولا يجوز للموصَى له أن يروي ذلك الكتاب بمجرّد تلك الوصيّة عند الجماهير، وذكر القاضي عياض أنّ بعض السّلف أجازه[1]، وردّه الخطيب البغدادي[2] وابن الصّلاح[3] والنّوويّ[4] وغيرهم[5].

وممّن فعل ذلك من علماء القيروان عبدالله بن أبي هاشم التُّجيبي (ت ٣٤٦)[6]، فإنّه لما مرض مرضه الذي مات فيه أوصى بكتبه البالغة سبعة قناطير إلى ثلاثة من علماء القيروان ووجّهها لهم، ثم ردّ الثّلثين لأرَقٍ أصابه من فقدها، فأخذها سلطان الرّافضة بعد موته ومنع النّاس منها، وبقي الثّلث عند ابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦)، ولا يزال بعضه في مكتبة القيروان، وعليه خطّ ابن أبي زيد وغيره[7].

ولما نُودي البُهلول بن راشد للسّلطان، وذلك في محنته، أوصى بكتبه إلى دَحيُون بن راشد، وهو من شيوخ القيروان[8].

أمّا النّوع الأخير، وهو الإعلام للّطالب بأنّ هذا الحديث من روايته أو أنّ هذا الكتاب سماعه أو تأليفه، فلم أعثر على من استعمله من القرويّين، غير أنّي وقفت على رواية أحدهم لاستعمال المشارقة لهذا النّوع، فقد جاء من طريق يحيى بن عمر الأندلسي ثمّ القروي (ت ٢٨٩)[9] بسنده إلى عُبيدالله بن عمر

---

(١) الإلماع ١١٥.

(٢) الكفاية ٥٠٣ ـ ٥٠٥.

(٣) علوم الحديث ١٥٧.

(٤) التقريب (مع التدريب) ٢/ ٦٠.

(٥) فتح المغيث ٢/ ١٥٠.

(٦) ستأتي ترجمته رقم ٢٢ في المحدثين، وراجع عن موضوع كتبه المدارك ٣/ ٣٤١، الرياض ٢/ ٤٢٣.

(٧) ورقات لحسن عبدالوهاب ١/ ٣٤١.

(٨) انظر: ط أبي العرب ٥٩.

(٩) ستأتي ترجمته رقم ٩ في المهاجرين.

العُمَري[1] قال: كنّا نأتي الزُّهْري[2] بالكتاب من حديثه فنقول له: «يا أبا بكر هذا من حديثك؟ فيأخذه فينظر فيه، ثمّ يرده إلينا»، ويقول: «نعم هو من حديثي». قال عبيدالله: «فنأخذه وما قرأه علينا ولا استخبرناه أكثر من من إقراره بأنه من حديثه»[3].

٣ ـ التّدبيج[4].

وهو لغة يأتي على معان منها: التّزيين[5]، وقد ارتضاه ابن حَجَر وغيره[6]، مشتقّ من ديباجتي الوجه[7].

أمّا في الاصطلاح[8] فقد أطلقه الدّارقطنيّ (ت ٣٨٥) على رواية القرينين أحدهما عن الآخر، وهو أوّل من فعل ذلك فيما ذكره العِراقيّ، وعنه نقل تلميذه الحاكم (ت ٤٠٥) وتبعهما ابن الصّلاح (ت ٦٤٣) وسار عليه ابن حَجَر (ت ٨٥٢) في شرح النّخبة، غير أنّ العراقي (ت ٨٠٥) ذكر أنّ المدبّج هو أن يروي كلّ من الرّاويين عن الآخر سواء كانا قرينين أم كان أحدهما أكبر من

---

(١) ثقة ثبت، من الخامسة أخرج له الجماعة، التقريب ٥٣٧/١.

(٢) محمد بن مسلم بن عبدالله بن شهاب الزهري، حافظ متفق على جلالته وإتقانه (ت ١٢٥) أو قبلها. التقريب ٢٠٧/٢.

(٣) الإلماع ١١٣، ١١٤.
أورد القاضي عياض هذا الخبر في نوع الإعلام، الإلماع ١١٣، ١١٤، وله صلة بالمناولة المجردة من الإجازة. انظر: التدريب ٥٠/٢.

(٤) يعتبر هذا النوع من لطائف الإسناد، وقد رأيت أن أورده هنا لأنه ألصق بكيفية سماع الحديث وتحمله، ويمكن اعتباره من طرائف هذا المبحث.

(٥) انظر: القاموس المحيط ١٨٧/١.

(٦) انظر: نزهة النظر ٦٠، التدريب ٢٤٩/٢، التقييد والإيضاح ٣٣٤.

(٧) نزهة النظر ٦٠، التدريب ٢٤٨/٢.

(٨) انظر: علوم الحديث ٢٧٨، اختصار علوم الحديث ١٩٧، التدريب ٢٤٦/٢، نزهة النظر ٦٠، فتح المغيث ١٧٤/٢، تيسير مصطلح الحديث ١٩٢، معرفة علوم الحديث ٢١٥، مدرسة البخاري في المغرب ١٧١/١، التقييد والإيضاح للعراقي ٣٣٣.

الآخر، وذكر أنّ هذا هو قضيّة صنيع الدّارقطني في كتابه المُدبَّج، قلت: وعلى هذا سار السُّيوطيُّ (ت ٩١١) في التّدريب.

وقد تحمّل الحديث بهذه الطّريقة كثير من أهل إفريقيَّة، والقيروان ومن هاجر إليها، منهم: خالد بن أبي عِمران التّونُسي (ت ١٢٥ أو ١٢٩) فإنه تدبّج بيحيى بن سعيد الأنصاري التّابعي في فترة إقامة يحيى بإفريقيَّة[١].

وتدبّج يحيى بن سلاّم البصري ثمّ القيرواني (ت ٢٠٠) بمعظم شيوخه فكان يقول: «كلّ من رويت عنه العلم فقد روى عنّي، إلاّ القليل»[٢].

وتدبّج أسد بن الفُرات (ت ٢١٣) بأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢)[٣]، وبمحمّد بن الحسن (ت ١٨٩)[٤] صاحبَي أبي حنيفة، عندما كان يطلب العلم بالعراق.

وتدبّج الحافظ أبو العَرَب التّميمي بالمحدّث الأندلسي قاسم بن مَسعدة البَكْرِي (ت ٣١٧)، قال أبو العرب: «جاءني قاسم بن مَسْعدة ليسمع منّي فرأيت عنده علماً بالحديث وتمييزاً للرّجال فأخذت عنه..»[٥].

وتدبّج أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦) بمحمد بن قاسم بن محمود (ت ٤٠٣)[٦]، وبأبي محمد عبدالله بن إبراهيم الأَصِيلِيّ الحافظ (ت ٣٩٢)[٧].

---

(١) انظر: الإمام المازري لحسن عبدالوهاب ١٥، ط أبي العرب ٢٥، الرياض ١/١٤٨.

(٢) المعالم ١/٣٢٢.

(٣) سير أعلام ١٠/٢٢٥.

(٤) ط أبي العرب مح ١٦٤.

(٥) تاريخ ابن الفرضي ١/٤٠٤، وانظر عنه أيضاً: البغية ٤٣٦.

(٦) الصلة لابن بشكوال ٢/٤٦٥.

(٧) المدارك ٣/٦٤٣.

وهكذا تبيّن لنا كيفيّة سماع الحديث وتحمّله لدى القرويّين، وموقفهم من المصطلح عليه في ذلك لدى غيرهم من علماء الحديث.

وسأنتقل الآن إلى بيان ما يتعلّق بأداء الرّواية عندهم.

د ـ صفة رواية الحديث وأدائه لدى القرويّين[1]:

تدور مسائل هذا المبحث حول تبليغ الحديث لطالبه بصيغة تبيّن كيفيّة تحمّله، والاهتمام بالمتن وتبليغه كما سُمع، أو بالمعنى، ومطالبة الرّاوي بسياق إسناده عند الرّواية، ونحو ذلك.

١ ـ صيغ الأداء المعبّر بها عن طرق التّحمل:

ـ السّماع: يعبّر القرويّون عن التّحمّل بالسّماع: بـ: حدّثنا، وأخبرنا، وأنبأنا، وعن، وقال[2]، وهو مذهب جمهورهم كما هو واضح فيما وصلنا من مصنّفاتهم[3]، وقد خالف في ذلك عون بن يوسف الخُزاعي (ت **٢٣٩**) فإنّه كان يعبّر في السّماع بحدّثنا وفي الإجازة بأخبرنا[4].

ـ القراءة على الشّيخ: عبّر عنها القرويّون بـ: سمعنا منه قراءة عليه، أو قراءة علينا[5] أو قرأت على فلان قال[6]، ومنهم من أجاز فيها إطلاق حدّثنا كما نَقل ابن أبي زيد، متابعاً في ذلك للإمام مالك[7].

---

(١) انظر عن هذا المبحث عامة: الإلماع ١٢٢ ـ ١٣٤، التدريب ٢/٩٢، فتح المغيث ٢/٢٢٧، منهج النقد في علوم الحديث ٢٢٢، قواعد التحديث ٢٢١، الباعث الحثيث ١٣٩، علوم الحديث ١٨٥.

(٢) انظر: الملخص للقابسي خط ٢ ب.

(٣) انظر بصفة خاصة الأسانيد الواردة في كتاب: المحن لأبي العرب.

(٤) انظر: المدارك ١/٦٢٧.

(٥) الملخص ٢ ب.

(٦) المحن لأبي العرب ١٦٠، ٤١٣.

(٧) الجامع لابن أبي زيد ١٥١.

ـ الإجازة: يجيز جمهورهم في التّعبير عنها إطلاق حدّثنا وأخبرنا، وقد صرّح بذلك عيسى بن مسكين (ت ٢٩٥) في قوله عن الإجازة: «. . . وجائز أن يقول حدّثني فلان وأخبرني فلان»[١]، ونقلوا مثل ذلك عن الإمام مالك[٢]، وقد منع عون بن يوسف (ت ٢٣٩) إطلاق «حدّثنا» في الإجازة، ولم يجز فيها إلاّ «أخبرنا» [٣].

أمّا حفّاظهم، كأبي العَرَب، فإنّهم يعبّرون عنها بالإخبار، ويقيّدونه بالإجازة، وتلك غاية الدّقّة، قال أبو العَرَب: «أخبرنا عمرو بن ثور الشّامي إجازة. . .» [٤]. والتّقييد في ذلك هو الصّحيح المختار الذي عليه عمل الجمهور[٥].

ـ المكاتبة: كانوا يرْوُون[٦] جواز إطلاق «حدّثني» فيما تُحُمّل بالمكاتبة.

ـ الوجادة: وقد تنوعّت إطلاقاتهم في التّعبير عنها، ومن ذلك:

رأيت في كتاب فلان بخطّ يده، وأنا أعرف خطّه قال. . .[٧]، قرأت في كتاب قال. . .[٨]، رأيت في كتاب فلان قال. . .[٩]، وجد بخطّ فلان قال. . .[١٠]، روي بخطّ فلان بيده. . .[١١]، قال فلان بخطّه. . .[١٢]، ذكر فلان

---

(١) إفادة النصيح ١١٤.
(٢) الإلماع ٩٠، ط أبي العرب ١٠٥، ١٠٦، مدرسة البخاري في المغرب للكتاني ١٣٣.
(٣) المدارك ١/٦٢٧.
(٤) المحن ٤٥.
(٥) انظر: علوم الحديث لابن الصلاح ١٥١.
(٦) الإلماع ٨٤ من طريق محمد بن سعدون القروي.
(٧) ط أبي العرب ٧٥، المحن ٢٢٢.
(٨) المحن ١٠٤.
(٩) المحن ٢٥٦.
(١٠) الرياض ١/٣٧٢.
(١١) الرياض ١/٤٦٠.
(١٢) الرياض ١/٣٨٦، ٤٢٤.

بخطّه أنّ. . .[1]، روى بخطّه قال. . .[2]، رأيت بخطّ فلان قال. . .[3]، رأيت لفلان قال. . .[4].

أمّا المناولة والوصيّة فلم أعثر للقرويّين على ألفاظ عبّروا بها عن التّحمل بهما.

٢ ـ الرّوايــة بالمعنــى[5]:

الأصل في حديث رسول الله ﷺ أن تقع المحافظة على لفظه ليُؤدّى على وجهه الذي سُمع به، وعلى هذا اتّفق جماهير علماء الأمّة من المحدّثين والفقهاء والأصوليّين، ومن أدلّة هذا الأصل قوله ﷺ: «نضّر الله امرأ سمع منّا حديثاً فأدّاه كما سمعه»[6].

---

(١) الرياض ١/٨٢.

(٢) الرياض ٢/٣٣٨.

(٣) الرياض ٢/٣٧٣.

(٤) مناقب أبي إسحاق ١٠.

(٥) انظر عن هذا المبحث عامة: الإلماع ١٧٤، ١٨١، فتح المغيث للسخاوي ٢/٢٤١ ـ ٢٥٠، قواعد التحديث ٢٢١ ـ ٢٢٥، علوم الحديث ١٩٠، منهج النقد ٢٢٧، الكفاية ٣٠٠، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/١٣، التدريب ٢/٩٨.

(٦) جاء هذا الحديث في المصادر من عدّة طرق، وبألفاظ متقاربة، بعضها يزيد على بعض أقربها إلى الحديث الذي معنا ما رواه الترمذي في سننه من طريق عبدالله بن مسعود في كتاب العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ٥/٣٤/٢٦٥٧، قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، وأخرجه الدارمي من طريق أبي الدرداء في المقدمة باب الاقتداء بالعلماء ١/٧٤، أما بقية الروايات فهي وإن كانت في هذا المعنى غير أنه ليس فيها لفظ «كما سمعه»، انظر: سنن أبي داود، كتاب العلم، باب فضل نشر العلم ٤/٦٨/٣٦٦٠، سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ٥/٣٤/٢٦٥٦، ٢٦٥٨، سنن ابن ماجة في المقدمة باب من بلغ علماً ١/١٠٢ ـ ١٠٤/٢٣١ ـ ٢٣٥، وفي كتاب المناسك باب رمي الجمار ٢/٢٤٨/٣١٠٧، سنن الدارمي في المقدمة باب الاقتداء بالعلماء ١/٧٥، مسند أحمد ١/٤٣٧، ٣/٢٢٥، ٤/٨٠، ٨٢، ٥/١٨٣.

كما أنّه لا خلاف بينهم في أنّ الأداء باللّفظ متعيّن في حقّ الجاهل والمبتدئ ومن لم يمهر في العلم؛ لعدم علم هؤلاء بما يغيّر المعنى، فتكون روايتهم للمعنى تحكّم بالجهالة، وتصرّف على غير حقيقة أصول الشّريعة، فيؤدّي ذلك إلى تحريف المعنى المراد من اللّفظ النّبويّ، وذلك تقوّل على الله ورسوله بغير علم.

ثمّ إنّهم اختلفوا بعد هذا في جواز الرّواية بالمعنى لأهل العلم الذين لهم معرفة بما يحيل المعنى، وقد منع ذلك مطلقاً قوم من المحدّثين والفقهاء أخذا بظاهر الحديث السّابق ونحوه من الأدلة.

أمّا جمهور أهل العلم فقد أجازوا الرّواية بالمعنى للمشتغل بالعلم، العارف بمعاني الألفاظ ودلالالتها ومقاصدها، ما لم يكن اللّفظ متعبّداً به كالأذكار ونحوها، مع أنّ الأولى عندهم التّقيّد باللّفظ كما تقدّم.

وهذا هو الأصح فإنّ العالم إذا كان بالوصف الذي تقدّم ذكره يكون قاطعاً بأنّه أدى معنى اللّفظ الذي بلغه به.

واستدلوا له بأدّلة منها: أحوال الصّحابة والسّلف الأوّلين فإنّهم كثيراً ما كانوا ينقلون معنى واحداً في أمر واحد بألفاظ مختلفة، كما قال ابن الصّلاح[1]، وغيره، وأورد السّيوطيّ في التّدريب[2] أدلّة كثيرة للجواز من أقوال الصّحابة وغيرهم، ثم قال: قال شيخ الإسلام (النّووي): «ومن أقوى حججهم في ذلك: الإجماع على جواز شرح الشّريعة للعجم بلسانها للعارف به، فإذا جاز الإبدال بلغة أخرى فجوازه باللّغة العربيّة أولى»، ولهم أدلّة أخرى في مختلف المصادر المثبتة أوّل هذا المبحث.

(١) علوم الحديث ١٩١، وانظر: بقية المصادر المثبتة أول المبحث.

(٢) التدريب ٢/٩٩.

أمّا أهل القيروان فمنهم من ذهب إلى جواز الرّواية بالمعنى واستعملها، مثل سعيد بن الحدّاد (ت ٣٠٢)[١].

ومنهم من تشدّد في ذلك ومنعه، مثل ما فعل أبو محمد عبدالله بن أبي زيد (ت ٣٨٦) متابعاً في ذلك للإمام مالك[٢].

وكذا فعل القابِسي (ت ٤٠٣)، فقد جاء في كتاب الملخّص[٣]: «. . . ولقد سئل مالك هل يُتَحَدّث بالحديث على المعنى؟، فأبى من القصد إلى ذلك، كأنّه يقول: من شكّ في شيء فليمسك ولا يحدّث بظنّه. . .». قال أبو الحسن (القابِسي): «إذا ذهب من نسي ألفاظ الحديث إلى أن يُحدّث عمّا فهم منه بألفاظ لا يستيقن أنّها هي الألفاظ التي سمعها، صار إلى أن يقول الحديث على ما حصل عنده من التّأويل، ولعلّ ألفاظ ذلك الحديث لو ظهرت لكانت على خلاف ذلك التّأويل، فهذا ممّا يُحذر منه. . .».

والرّاجح جوازها بشروطها كما تقدّم، وقد حُمل قول مالك على الاستحباب[٤].

٣ ـ وجوب سياق السّند عند الأداء، والحرص على سلامته:

يطالب القرويّون بسياق الإسناد عند أداء الرّاوي للحديث حتّى يُعرف أنّه تحمّله وأدّاه بطريق صحيح، وله فيه سماع، أو غيره من طرق التّحمّل المعتبرة كما سبق بيانها.

فهذا موسى بن معاوية الصُّمَادِحِي (ت ٢٢٥)، وهو من أئمّة الحديث بالقيروان، يسوق حديثاً بدون سند في غير مقام التّحديث، وكان ذلك بحضرة

(١) انظر القِطع التي نشرها صاحب الحياة الاجتماعية في القيروان من كتاب الاستواء لابن الحداد، وخاص ص ٢٦٨.

(٢) انظر: كتاب الجامع ١٤٦.

(٣) الملخص للقابسي خط ٤ ب، ٥ أ.

(٤) انظر: الإلماع ١٧٩.

الإمام سَحنون (ت ٢٤٠) الذي قام مباشرة بتكليف أحد تلاميذه بالتّثبّت فيما إذا كان لموسى في هذا الحديث طريق صحيح وقال له: «ويحك! أطلب لي هذا الحديث لموسى»، قال: «فطلبته، فأصبته لموسى عن عيسى بن يونس السَّبِيعي بإسناده إلى النّبيّ ﷺ»[1].

وكان الطّلّاب القرويّون إذا شكّوا في سلامة سند الشّيخ استثبتوا منه، وسألوه عن سماعه، كما فعلوا مع أبي خارجة عَنْبَسة بن خارِجة (ت ٢١٠)[2]، وعون بن يوسف (ت ٢٣٩)[3].

وكان الإمام سَحنون إذا شكّ في صحّة أداء محدّث استدعاه، وسأله عن روايته، وردّه إلى الجادّة[4]، وفعل يحيى بن سلّام (ت ٢٠٠) نحو هذا[5].

وقد يعكّر على هذا قبولهم الاحتجاج بالمرسل تبعاً لإمامهم مالك، والجواب عن ذلك: أن الإمام مالك قد اشترط في قبوله أن يكون المرسِل ثقة عدلاً[6]، ومن كانت تلك صفته فإنّه لا يستحلّ أن يحدّث بذلك عن النّبيّ ﷺ إلّا إذا غلب على ظنّه أنّه من حديثه. هذا بالإضافة إلى ما ذكره ابن عبدالبرّ من أنّ قبول المرسل في المذهب إنّما هو من حيث الأصل، أما عند المناظرة والخلاف فقد جرت العادة بالمطالبة بالاتّصال في الأخبار[7].

هـ ـ تقييد الحديث وصفة ضبطه[8]:

تدوين الحديث سبب أساسي في حفظه، ووسيلة عظمى لأدائه على

---

(١) الرياض ٣٨٢/١.

(٢) انظر: ط أبي العرب ٧٢.

(٣) م. ن ١٠٥.

(٤) ط أبي العرب مح ٢٠٥.

(٥) انظر: الرياض ١٣٨/١.

(٦) الكفاية ٥٤٧.

(٧) التمهيد ٧/١.

(٨) انظر عن هذا الموضوع: الإلماع ١٤٦ ـ ١٩٣، التدريب ٦٤/٢، الباعث الحثيث ١٣٢ - ١٣٩، علوم الحديث ١٦٠ ـ ١٨٤، منهج النقد في علوم الحديث ٢٣٢ ـ ٢٣٨، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢٤٩/١ ـ ٢٧٨.

وجهه، فإنّ الذّاكرة مهما بلغت قوّتها لا تكفي وحدها لصيانة الحديث، وقد وقع في صدر الإسلام الاختلاف في كتابة الحديث للأدلّة الورادة بالإباحة والمنع، ثمّ أجمع أهل العلم على إباحته: «ولولا تدوينه في الكتب لدرس في الأعصر الآخرة»[1]، وقد أجابوا عن أدلّة المنع بأنّها اقترنت بأسباب موضوعيّة[2] كخشية اختلاط القرآن بغيره ونحو ذلك[2].

وقد اهتمّ القرويّون بالكتابة واعتبروها أمراً ضروريّاً لصيانة العلم، فكانت كتب كثير من علمائهم تعدّ بالآلاف، وتقاس بالقناطير، كلّها بخطّ أيديهم[3].

وكان الإمام سَحنون يُنبّه على أهمّيّة الكتابة، ويقول لطلّابه: «العلم صيد والكتابة قيد»[4].

وتقدّم قريباً أنّ أبا العرب لم يكن يكتب في أوّل طلبه فقال له أحد زملائه: «أراك تلازم هذا المجلس، وتسمع فيه العلم ولا تكتب شيئاً ممّا تسمع بيدك يكون عندك، ما هذا حقيقة العلم!»[5]، وقد اقتنع أبو العرب بذلك وأخذ يكتب، حتّى أصبح بعد ذلك من المشهورين بكثرة الكتب[6].

وقد وقفت لهم في ذلك على بعض الآداب منها:

١ ـ ضبط ما يكتبونه: اهتمّ القرويّون بضبط كتابتهم بالشّكل ونحوه، وممّا يدلّ على ذلك أنّ بعض المشايخ عاتب تلميذاً له على طول غيبته عنه فقال له: «أصلحك الله، أُعذِرْ فقد كان لي شغل»، فقال: «وما هو؟» قال: «اليوم أكثر من

---

(١) علوم الحديث لابن الصلاح ١٦٢.
(٢) راجع المصادر أعلاه (هامش رقم ١).
(٣) تقدم لذلك نماذج موسعة في مبحث المكتبات الخاصة.
(٤) ورقات ١/٨٣.
(٥) الرياض ٢/٣٠٧، المعالم ٣/٣٧.
(٦) انظر: ترجمته رقم ٣٠ في المحدثين.

شهـر اختلف إلى رَقَّادَة، إلى قصـر الأمير، أشكـل لـه كتبـاً وأصحّحهـا وأضبطها. . . »[1].

وكان ضبط الكتاب وصحّته وحسن التّقييد ممّا يُمدح به الرّاوي عندهم[2]، بل اعتبره الإمام سَحنون مدار صحّة الرّواية فقال: «من صحّت كتبه صحّت روايته ومن سقم كتابه سقمت روايته»[3].

وكذا اعتبروا كثرة الخطأ والتّصحيف في كتاب الرّاوي دليلاً على ضعفه[4].

٢ ـ مقابلة الكتب المنتسخة بأصول السّماع: وهو أمر ضروريّ لسلامة ما ينسخه الطّالب من الخطأ والتّحريف والتّصحيف. وقـد عرَف القـرويّون مقـابلة الكتب ومارسوها، من ذلك أن عبدالله بن أحمد بن طالب القاضي (ت **٢٧٥**) كان يستدعي من يقابل معه كتبه من أصول سَحنون المعروفة بدقّة ضبطها[5]، وورد أنّ أحمد بن محمد القَصْري (ت **٣٢٢**) زار شيخه يحيى بن عمر (ت **٢٨٩**) فوجده ألّف كتاباً، ولم يكن معه ما يشتري به ثمن الرّقوق فبـاع قميصه واشتـرى بها الرّقوق، وكتب الكتاب وقابله وأتى به معه إلى القيروان[6]، وكان بعض العلماء يتواعدون لمقابلة الكتب[7].

٣ ـ ضبط اختـلاف الـرّوايـات: وهـو أمـر يلزم إتقـانـه حتّى لا تختلط الرّوايات، وممّن كان يفعله من القرويّين أبو الحسن القابِسي (ت **٤٠٣**) فإنه كان

---

(١) ورقات ٣٢٨/١.
(٢) انظر: الرياض ٤٦١/١، ٣٠٩/٢، المدارك ٤٠٨/٤، ١٢٦/٥.
(٣) الرياض ٣٧٣/١.
(٤) ط أبي العرب ١١٨، المدارك ٢٦٩/٣، ١٣٤/٤.
(٥) انظر: ط أبي العرب مح ٢٣٨.
(٦) الرياض ١٩٧/٢.
(٧) انظر: المدارك ٣٢٨/٣، الرياض ٣٣٢/٢.

يُثْبت الرّواية الأصليّة باللّون العاديّ، وهو السّواد، وأمّا الرّواية المُلحقة فيُثبتها باللّون الأحمر، قال القاضي عياض: «. . . وإن اقتصر على أن تكون الرّوايات الملحقة بالحمرة فقد عمل ذلك كثير من الأشياخ وأهل الضبط كأبي ذرّ الهَرَوِي وأبي الحسن القابِسي. . .»[1].

٤ ـ محو الغلط والضّرب عليه واطِّراح الدّخيل على الأصل: وهو أمر معروف لدى أهل الحديث[2]، وممّن كان يفعله ويأمر به في القيروان: الإمام سَحنون بن سعيد، قال بعض تلاميذه: «كنت قاعداً قدّام سَحنون، وهو يقرأ كتاب التّرغيب من جامع ابن وهب فرددت عليه حديثاً هو في كتابي ولم يكن في كتابه»، فقال لي: «اِقرأ الحديث»، فلمّا قرأته أنكره وصاح عليّ وقال: «من أين دخل هذا الحديث في كتابك؟» فأمسكت ولم أردّ عليه، فكلّمه محمد ولده وقال: «أصلحك الله، الكتب تختلف»، فقال لي: «اِطرَح الحديث من كتابك» فخططت عليه بالقلم، وهو ينظر، فقال: «زد خطّاً عليه» فطلّسته كلّه»[3].

وقد ورد عنه أنه قد يَلعق الكتابة بدل المحو أو الضّرب عليها[4]، ووصف أهل الصّناعة ذلك بأنه ـ رغم غرابته ـ من أسلم طرق المحو[5].

٥ ـ موقفهم من إصلاح اللّحن في الحديث: لقد شدّد القرويّون في أمر اللّحن في الحديث[6]، وقد ذهب الإمام القابِسي إلى عدم جواز إصلاح ما كان في لغة العرب، وإن لم يكن موجوداً في لغة قريش، أمّا ما لا يُعرف في لغة العرب فلا بأس من إصلاحه؛ لأنّ الرسول ﷺ لا يلحن.

والقابِسي في هذا متابع لأبي عبدالرحمن النَّسائي، فقد ساق بسنده إليه،

---

(١) الإلماع ١٨٩، ١٩٠.
(٢) انظر: الكفاية ٦٠٢، الإلماع ١٧٠، المحدث الفاصل ٥٢٤.
(٣) الرياض ٣٧٣/١.
(٤) الإلماع ١٧٣.
(٥) علوم الحديث ١٧٩، فتح المغيث ٢٠٤/٢.
(٦) انظر: مناقب أبي إسحٰق ٢٣، الملخص ٥ أ، خط.

قال[1]: سئل أبو عبدالرحمن ـ يعني النَّسائي ـ عن اللّحن يوجد في الحديث، فقال: «إن كان شيئاً تقوله العرب، وإن كان في غير لغة قريش، فلا يُغَيَّر؛ لأنّ النّبيّ ﷺ كان يكلّم النّاس بلسانهم، وإن كان ما لا يوجد في كلام العرب فرسول الله ﷺ لا يلحن».

ويقابل هذه المباحث في علوم الرّواية مباحث أخرى تتعلّق بعلوم دراية الحديث، وهو ما سيأتي الحديث عنه في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

---

(١) الملخص ٥ أ، خط.

الفَصْلُ الثَانِيْ

مظاهر النّشاط العلميّ وخصائصه في مجال دراية الحديث

تمهيـد:

وفيه تعريف علم دراية الحديث، ومتعلّقاته، ووجه الحاجة إليه:

من المعلوم أنّ مجرّد تحمّل السُّنّة وأدائها، وضبطها، وتحرير ألفاظها، يمثّل أحد جانبي علوم السّنّة التي لها أهمّيتها ـ كما مرّ ـ في حفظ نصوص الشّرع ونقلها من جيل إلى جيل، أمّا الجانب الثّاني فهو دراية هذه النّصوص، والخبرة بسندها ومتنها؛ لمعرفة أحكام الشّريعة في مختلف المجالات، وتبليغها لمن لا يعلمها، وترجمتها إلى سلوك عمليّ يعيشه المجتمع المسلم على أنّها ممّا تعبد الله به المسلمين، ونظّم به حياتهم، وربط به سعادتهم في الدّنيا والآخرة.

ومن هنا جاءت ضرورة تمحيص السُّنّة، حتّى لا يُنسبْ إلى الرّسول ﷺ ما لم يثبت من الشّرع، وذلك عن طريق نقد متون الأحاديث، والبحث في أسانيدها من حيث الاتّصال والانقطاع، والنّظر في أحوال رواتها توثيقاً وتجريحاً، وغير ذلك من المباحث التي تساعد على التّمييز بين الصّحيح والسّقيم من الحديث.

وهذا ما يمكن اعتباره القواعد التي تحكم رواية الحديث، وتضمن سلامته من الشّوائب، مع تبيين مشتملاته ودلالته على الأحكام وهو ما اصطلح المتأخّرون

ممّن بعد عصر الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣) على تسميته بعلم دراية الحديث[١]، وسيأتي تعريفهم الدّقيق له.

وهو من أشرف العلوم الإسلاميّة وأعلاها[٢]؛ إذ به يعرف الحديث المقبول فيعمل به، والحديث المردود فيقع تجنّبه، وذلك مقصد جليل، وهدف عظيم، وغاية نبيلة يتصدّى لها أهل الهمم العالية والعزائم القويّة.

وقد عرّف أهل الصّناعة علم الحديث دراية بأنّه:

«علم بقوانين يُعرف بها أحوال السّند[٣] والمتن[٤]»[٥]، أو هو «القواعد المعرّفة بحال الرّاوي والمروي»[٦]، وأشمل من هذين التّعريفين أن يقال إنّه: «علم بأصول وقواعد يعرف بها الرّاوي والمروي من حيث القبول والرّدّ، وما يتبع ذلك[٧]».

فهو «علم يعرف منه حقيقة الرّواية، وشروطها، وأنواعها، وأحكامها، وحال الرّواة، وشروطهم وأصناف المرويّات وما يتعلّق بذلك»[٨].

---

(١) تدريب الراوي ١/٥.

(٢) دراسات في الجرح والتعديل ٢٢، ٢٧.

(٣) السند هو سلسلة الرواة الموصلة إلى المتن، انظر: قواعد في علوم الحديث للتهانوي ٢٦، التدريب ١/٤١، دراسات في الجرح والتعديل ٥، منهج النقد ٣٣.

(٤) المتن هو ألفاظ الحديث أو ما ينتهي إليه السند من الكلام، انظر: قواعد في علوم الحديث ٢٦، التدريب ١/٤٢، دراسات في الجرح والتعديل ٦، منهج النقد ٣٣.

(٥) هذا تعريف عز الدين بن جماعة كما في التدريب ١/٤١، علوم الحديث ١٢ (لابن الصلاح)، منهج النقد في علوم الحديث ٣٢، وانظر: دراسات في الجرح والتعديل ٢٤.

(٦) هذا التعريف قد اختاره الحافظ ابن حجر كما في التدريب ١/٤١، فتح المغيث ١/١٠.

(٧) انظر: الحطة ٧٩، الشجرة ١/٤٩٤، تيسير مصطلح الحديث ١٤، فتح الباقي شرح ألفية العراقي ١/٧.

(٨) التدريب ١/٤٠، قواعد التحديث ٧٥، قواعد في علوم الحديث ٢٣، وانظر: توجيه النظر ٢٣.

قال السّيوطيّ (ت ٩١١): «فحقيقة الرّواية: نقل السُّنّة ونحوها، وإسناد ذلك إلى من عُزي إليه بتحديث أو إخبار وغير ذلك، وشروطها: تحمّل راويها لما يرويه بنوع من أنواع التّحمّل من سماع، أو عرض، أو إجازة ونحوها، وأنواعها: الاتّصال والانقطاع ونحوهما، وأحكامها: القبول والرّدّ، وحال الرّواة: العدالة والجرح... وما يتعلّق بها: هو معرفة اصطلاح أهلها»[1].

ومن مشمولات علم الدّراية أيضاً: فقه النّصّ وشرحه واستنباط معانيه، وأحكامه[2]، وقد جعله الحاكم (ت ٤٠٥) في كتابه معرفة علوم الحديث نوعاً من أنواع هذا العلم[3]، وقال النّوويّ (ت ٦٧٦) ضمن تعريفه لهذا العلم: «إنّ المراد من علم الحديث تحقيق معاني المتون وتحقيق علم الإسناد والمعلّل... والبحث عن خفيّ معاني المتون...»[4]، وجاء في كشف الظّنون[5]: «العلم بدراية الحديث، وهو علم باحث عن المعنى المفهوم من ألفاظ الحديث، وعن المراد منها مبنيّاً على قواعد العربيّة وضوابط الشّريعة، ومطابقاً لأحوال النّبيّ ﷺ...».

وعلم الدّراية هو المراد من علم الحديث عند الإطلاق[6]، ويسمّى أيضاً: مصطلح الحديث، وعلم أصول الحديث[7].

ـ أمّا موضوع علم دراية الحديث فهو الرّاوي والمروي أو المتن والسّند، من الحيثيّة المذكورة آنفاً[8].

---

(١) التدريب ١/٤٠، قواعد التحديث ٧٥.

(٢) انظر: دراسات في الجرح والتعديل ٢٥، لمحات في أصول الحديث ٧٢، توجيه النظر ٢٣، ١٧٨.

(٣) معرفة علوم الحديث للحاكم ٦٣.

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم ١/٤٧.

(٥) كشف الظنون ١/٦٣٥.

(٦) انظر: الشجرة ١/٤٩٤، الحطة ٧٩، فتح الباقي ١/٧.

(٧) انظر: الشجرة ١/٥، لمحات في أصول الحديث ٧٣، فتح المغيث ١/١٠، منهج النقد ٣٢.

(٨) انظر: الشجرة ١/٤٩٤، الحطة ٧٩، التدريب ١/٤١.

ـ وغايته: معرفة ما يقبل من الحديث وما يردّ[1]؛ للعمل بالمقبول والاحتجاج به، وترك ما لم تثبت نسبته إلى الرّسول ﷺ أو الصّحابة أو التّابعين، وفي ذلك سعادة الدّنيا والآخرة.

ـ ومسائله: ما يذكر في كتبه من المباحث والمقاصد[2].

ـ وهو علم عظيم الأهمّيّة: إذ به يُتوصّل إلى تمييز صحيح الحديث من سقيمه، وبالتّالي معرفة الأحكام الشّرعيّة التي تعبّدنا الله بها.

وقد كان للقرويّين اهتمام بعلوم دراية الحديث الآنفة الذّكر، وكلام حول بعض مسائلها، إلّا أنّه لم يصلنا من ذلك إلّا القليل، وأكثره غير مباشر، وقد تتبّعته في ثنايا المصادر، وألّفت بين المسائل المتجانسة منه وفق العناصر الآتي ذكرها في مقدّمة وثلاثة مباحث، وجدير بالملاحظة هنا أنّي أبحث هذه العلوم عند القرويّين في فترة لمّا تستقرّ فيها الاصطلاحات بعد، ولهذا فإنّ كثيراً من المسائل لن تكون بالوضوح الذي نجده مبسوطاً في كتب المتأخرين، من عهد ابن الصلاح (ت ٦٤٣) فمن بعده.

المقدمة: وفيها تعريف السُّنّة عند القرويّين:

يعتبر تعريف القرويّين للسّنّة من أوّل التّعاريف الموضوعة لها ـ فيما أعلم ـ فقد وضعه سعيد بن الحدّاد المتوفّى سنة ٣٠٢ هـ، حيث قال[3]: «أصل السّنّة في كلام العرب: المثال الذي يُتمثّل عليه، قال الشّاعر:

تُريك سنّةَ وجه غير مُقرِفة ... ملساءَ ليس بها خال ولا نَدَبُ[4]

---

(١)، (٢) انظر: الشجرة ٤٩٤، الحطة ٧٩.

(٣) انظر هذا التعريف في: الرياض ٢/٧٦، ٧٧، ط الخشني ٢٠٢، سير أعلام النبلاء ٢/٧٧، سير أعلام ١٤/٢٠٨، ط الخشني ٢٠٢.

(٤) البيت لذي الرّمة، انظر: الصحاح للجوهري ٥/٢١٣٩، لسان العرب ١٣/٢٢٤.

قال: أي صورة وجه ومثاله، قلت: وهذا المعنى ذكره أصحاب المعاجم اللّغوية(١)، والأشهر منه أنّ السّنّة هي الطّريقة أو السّيرة حسنة كانت أم قبيحة(٢).

أمّا في الاصطلاح فيرى ابن الحدّاد أنّ السّنّة هي: «الائتمار بما أمر به رسول الله ﷺ. والانتهاء عمّا نهى عنه، والائتساء به فيما فعل»(٣).

وهذا التّعريف أقرب لمفهوم السّنّة من حيث هي مخالفة للبدعة من مفهوم السّنّة المرويّة التي هي موضوع بحث أهل الحديث.

أمّا الإمام القابِسي (ت ٤٠٣) فيذهب إلى أنّ السُّنّة هي الحديث(٤)، وهذا موافق لما عليه جمهور المحدّثين(٥)، حيث عرّفوها بأنّها: «ما أضيف إلى النّبيّ ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خِلقيّة أو خُلقيّة»(٦).

المبحث الأوّل

علوم أحوال الرّواة وأسمائهم

وهو من أهمّ المباحث في هذا الفنّ؛ لأنّ الرّواة هم نقلة الحديث، ولمعرفة أحوالهم صلة مباشرة بدرجة الحديث، وموقعه من حيث القبول أو الرّدّ.

---

(١)، (٢) انظر: لسان العرب ١٣/٢٢٤ ـ ٢٢٧، تاج العروس ٩/٢٤٤، الصحاح ٥/٢١٣٩، القاموس المحيط ٤/٣٢٧.

(٣) الرياض ٢/٧٧، سير أعلام ١٤/٢٠٨، ط الخشني ٢٠٢.

(٤) الملخص خط ل ٤ أ.

(٥) فتح المغيث ١/١٠، أسباب اختلاف المحدثين ١/٢٥.

(٦) انظر: فتح المغيث ١/١٠، منهج النقد في علوم الحديث ٢٧ ـ ٢٩، الحديث والمحدثون ١٠، أسباب اختلاف المحدثين ١/٢٣، وهي تشمل أيضاً ما أضيف إلى الصحابي أو التابعي على التفصيل الذي تقدم في مطلع فصل الرواية.

أوّلًا: صفة من تُقبل روايته[1]:

يتّفق علماء القيروان مع غيرهم من أهل العلم في أنّ الذي يُقبل حديثه هو العدل الضّابط لما يروي، كما يفهم ذلك من عدّة نصوص نقلت عنهم[2]، منها قول الإمام القابِسي (ت ٤٠٣): «... فلا يؤخذ (الحديث) إلّا عن المأمونين على الدّين المشهورين بحسن العناية به، والحفظ له، ثمّ الاحتفاظ بالسّمع عند أخذه، ليُوعَى على وجهه، ثمّ التّحري للصّدق في نقله...»[3]، وفيما يلي أذكر بعض ما جاء عنهم حول العدالة والضّبط.

١ ـ العـدالــة:

اشترط القرويّون العدالة في قبول رواية المحدّث والأخذ عنه، ولكن لم يرد عنهم في ذلك مسائل موسّعة حسب المادّة المتوافرة.

قال الإمام سَحنون: «يؤخذ هذا العلم من الموثوق بهم في دينهم، الحسن مخبرهم»[4]. وتقدّم اشتراط القابِسي في المحدّث أن يكون من المأمونين على الدّين المشهورين بحسن العناية به.

أمّا ماهيّة العدل أو صفة العدل فقد سئل عنها محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦) فقال[5]: «إذا كان الرجل يصلّي فرضه في وقته كيف يجب، وكيف ينبغي[6]،

---

(١) انظر عن هذا المبحث عامة: مقاصد الحديث للتازي ٦٢/٢ - ٧١، الكفاية ١٠١، توجيه النظر ٢٥، التقييد والإيضاح ١٣٦، منهج النقد في علوم الحديث ٧٨ - ٨٨، التدريب ٢٢٩/١، دراسات في الجرح والتعديل ١٨٥، علوم الحديث ٩٤، جامع الأصول ٣٣/١، اختصار علوم الحديث ٩٩.

(٢) انظر مثلًا: الملخص للقابسي خط ٤ أ، الخشني ١٤٧، كتاب الأجوبة لمحمد بن سحنون خط فصل الشهادات.

(٣) الملخص خط ٤ أ.

(٤) المدارك ٢٦٧/٣، ط الخشني ١٤٧.

(٥) كتاب الأجوبة خط لوحة ٢.

(٦) اقرأ «كما» أو «مثلما» بدل «كيف».

ويصوم فرضه كذلك، ويزكّي فرضه، ويصل رحمه، ويرفق بجاره، ويكفّ أذاه عن المسلمين بلسانه ويده، ولا يكثر الأيمان فهو. أشبه وأقرب في العدالة والرّضا».

فهو يشترط فيها حسن التّمسّك بواجبات الدّين وآدابه، وبذلك يلتقي إجمالاً مع ما اشترطه فيها محدّثو المشرق[1].

أمّا إسحٰق بن عَبْدُوس (ت ٢٦٦) فقد ذُكِرت عنده التّزكية، فقال: «من كفّ لسانه وأذاه في زمننا فهو عدل»[2]، وهذا يدلّ على أنّ المجتمع القروي في تلك الفترة كان الغالب على أهله التّمسّك بالإسلام، والتّحلّي بالفضائل التي ندب إليها الشّرع، وكاد النّاس يستوون في ذلك، فصار ميزان التّعديل والتّجريح هو مدى صون الإنسان للسانه وإمساكه عن أذى غيره، ويمكن أن يُفهم منه عكس هذا أيضاً أي أنّ النّاس قد غلب عليهم عدم الالتزام بالدّين حتى أصبح كفّ اللّسان والأذى هو علامة العدل التّقيّ المتمسّك بالدّين، والأوّل أرجح لما تقدّم في التّمهيد من غلبة الفضل والخير على أهل القيروان في هذه الفترة[3]، فيكون كلام ابن عَبْدوس: إنّ العدل من كفّ لسانه وأذاه مع تمسّكه بواجبات الدّين وسننه وآدابه، وإنّما سكت عنه لأنّه معلوم لدى تلاميذه الذين خاطبهم بهذا الكلام.

وسئل محمد بن سَحنون عن ألفاظ التّزكية فقال: عدل، رضا[4].

وفرّق بين الشّاهد والرّاوي من غير تفصيل في ذلك فقال: «ليس كلّ من تجوز شهادته تجوز تزكيته»[5] أي في العلم.

---

(١) راجع المصادر التي أحلتُ عليها في أول المبحث.

(٢) المدارك ١٢٥/٣، وراجع ترجمته في هذا الموضع.

(٣) راجع مبحث الوضع الاجتماعي.

(٤) الأجوبة لمحمد بن سحنون خط لوحة ٧ أ.

(٥) م. ن ل ٤ ب.

وسئل: «أيّ الحال أولى بالعالم؟ هل العدالة حتّى تظهر الجرحة أو الجرحة حتّى تظهر العدالة؟»، فقال: «معاذ الله أن تكون الجرحة أولى بالعالم من العدالة، بل العدالة أولى، ألا ترى إلى قول النّبيّ عليه السّلام: «أفضلُكم من تعلّم القرآن وعلّمه...»[1] فكذلك العالم على العدالة حتّى تثبت الجرحة»[2].

وهذا قريب ممّا ذهب إليه ابن عبدالبرّ (ت ٤٦٣) في هذا الصّدد حيث اعتبر أنّ كلّ حامل علم معروف العناية به محمول أبداً على العدالة حتّى يتبيّن جرحه، وقد ردّ أهل الصّناعة قوله[3].

شـروط الجـارح:

وسئل ابن سَحنون عن العالم هل يجرحه من ليس بقارىء مثله؟ قال: «نعم، إذا كان المُجرّح عدلاً، عارفاً بما يوجب التّجريح، وبماذا وقع به التجريح، ويذكر ما يجرحه به»[4].

كلام الأقران بعضهم في بعض:

ولم يرض ابن سَحنون أن يُجرِّح العالم عالماً مثله، واعتبر أنّه لا عبرة بكلام بعضهم في بعض: «لأنّ العلماء بعضهم لبعض أشدّ تحاسداً من تيوس في زرائبها»[5].

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ١٠٨/٦، وابن ماجه في المقدمة باب فضل من تعلم ا لقرآن وعلمه ٢١٣/٩٣/١ كلاهما من طريق عثمان رضي الله عنه.

(٢) الأجوبة ل ١.

(٣) انظر: قول ابن عبدالبر ودليله ورد العلماء عليه في تدرب الراوي ٣٠٢/١ - ٣٠٤، علوم الحديث لابن الصلاح ٩٥، التمهيد ٢٨/١، تيسير مصطلح الحديث ١٤٥، التقييد والإيضاح ١٣٨، ١٣٩.

(٤) الأجوبة خط ل ٢ أ.

(٥) م. ن ل ٢ ب، ل ٦ ب، وهذا القول أخرجه ابن عبدالبر من كلام ابن عباس وغيره، انظر: جامع بيان العلم ١٥١/٢.

وهذه المسألة فيها تفصيل عند المحقّقين الـذين قرروا وجـوب النّظر في السّبب الحامل على طعن القرين في قرينه: فإن كان ذلك لغضب أو حسد أو تعصّب مذهبيّ أو اختلاف في الاجتهاد والتّأويل.. فهذا لا يلتفت إليه ولا يؤخذ على ظاهره، أمّا إذا جاء الجارح ببيّنة عادلة لا يبتغي من ورائها إلّا مرضاة الله عزّ وجل فإنّها تكون معتبرة[1].

٢ ـ من فروع اختلال العدالة: رواية المبتدع[2] وحكمها عند القرويّين:

المقصود بالبدعة هنا المخالَفة للسّنّة على رأي الأكثر[3]، والمبتدع هو من فسق لمخالفته عقيدة السّنّة[4] أو عدم سلوك طريقها، وخاصّة من كان من أهل الفرق الكلاميّة المنحرفة كالمعتزلة والمرجئة والرّافضة والشّيعة، والخوارج، وقد وُجد معظم هذه الفرق في القيروان كما تقدّم في التمهيد[5]، وكان لأهل السّنّة بالقيروان حساسيّة خاصّة تجاههم.

وقد اختلف أهل القيروان في أمر المبتدعة، وجمهـورهم من المتشدّدين معهم، الرّادّين لروايتهم، الدّاعين إلى فضح ما هم عليه من الضّلال، فقد قال أسد بن الفُرات: «ثلاثة لا غيبة فيهم: صاحب بدعة، وأمير غشوم، ومن ألقى جلباب الحياء وجاهر بالسّوء»[6].

---

(١) انظر: جامع بيان العلم ٢/١٥٠ ـ ١٦٣، قاعدة في الجرح والتعديل ١٤.

(٢) انظر عن رواية المبتدع: أسباب اختلاف المحديث لخلدون الأحدب ٤٨٣/١ ـ ٥١٤، علوم الحديث ١٠٣، دراسات في الجرح والتعديل ١١٢ ـ ١٢٨، الكفاية ١٩٤ ـ ٢١٠، قواعد الحديث ١٩٤، نزهة النظر ٥٠، منهج النقد في علوم الحديث ٨٣، الموقظة ٨٧، التدريب ٣٤/١، اختصار علوم الحديث ٩٩.

(٣) راجع المواضع أعلاه وخاصة أسباب اختلاف المحدثين ٤٨٤/١ ـ ٤٨٧.

(٤) منهج النقد ٨٣.

(٥) راجع مبحث الفرق الكلامية في القيروان.

(٦) الرياض ٢٦٨/١.

وجاء في تفسير يحيى بن سلّام (ت ٢٠٠) ـ وكان شائعاً بالقيروان ـ بسند يحيى إلى أبي قِلَابَة قال: «لا تقاعد أهل الأهواء، ولا تسمع منهم...»[١].

وارتضى ابن أبي زيد (ت ٣٨٦) قول الإمام مالك: «لا تسلّم على أهل الأهواء... ولا تحدّث عنهم بالأحاديث»[٢]، ولعلّ المقصود من كان داعية إلى بدعته؛ إذ أنّه نقل عنه أيضاً: «لا يؤخذ من مبتدع يدعو إلى بدعته»[٣].

أمّا الإمام سَحنون فقد ذهب في شأنهم إلى أكثر من مسألة الرّواية عنهم، حيث قال فيهم: «... إن بانوا بدارهم، ودعوا إلى بدعتهم قوتلوا، وإن لم يَبِينوا بدارهم ويدعوا إلى بدعتهم فإنّه لا يسلّم عليهم، ولا يُناكَحوا، ولا يُعاد مريضهم، ولا تُشهد جنائزهم، أدباً لهم، ويُؤدَّبون، ويُسجنون، حتّى يرجعوا عن بدعتهم»[٤].

أمّا مسألة السّماع منهم فمنعُها مفروغ منه عنده، فإنّه ما إن تولّى القضاء حتّى منع الصُّفْرِيَّة والإباضيَّة والمعتزلة من التّدريس في جامع عُقبة، وفضّ حلقهم، وعزلهم عن إسماع النّاس أو تعليم أولادهم[٥].

وكان عامّة النّاس بالقيروان على هذا المذهب، فإنّهم زهدوا في البُهلول بن صالح التُّجيبي المحدث (ت ٢٣٣)[٦] بالرّغم من سعة علمه وتركوا الأخذ عنه؛ لأنّه رمي بالقول بخلق القرآن و«لمّا مات وحُملت جنازته قلّ من كان معه من النّاس، ورُمي نعشه بالحجارة، وقال النّاس: «الوادي، الوادي»، أي ألقوه في الوادي»[٧].

---

(١) تفسير يحيى بن سلام خط ل ١٠٩ ب، وفي السند النضر بن معبد وهو ضعيف عند الأكثرين، وذكره ابن حبان في الثقات، انظر: اللسان ١٦٥/٦.

(٢) الجامع لابن أبي زيد ١٢٥.

(٣) م. ن ١٤٧.

(٤) الجامع في السنن والآداب ١٢٦.

(٥) انظر: المدارك ٦٠٠/١، المعالم ٨٧/٢.

(٦) ستأتي ترجمته رقم ٦ في المحدثين.

(٧) ط أبي العرب ٩١.

كما مزّقوا أسمعتهم من عبدالله اليَحْصُبِي (ت ٢٢٧) وطرحوها على بابه لكلمة برزت منه[١].

وتركوا الحمل عن محمد بن رُشيد رغم سعة علمه، لتساهل رئي منه في المعاملة[٢].

كما أضاعوا فرصة الاستفادة من يحيى بن سلاَّم (ت ٢٠٠) بسبب اتّهامه خطأ بالإرجاء[٣].

أمّا الرّأي المقابل، وهو قبول رواية المبتدع مطلقاً ما لم يستحلّ الكذب فيمثّله أبو العرب محمد بن أحمد التّميمي حافظ القيروان (ت ٣٣٣)، فإنّا نجده يثبت البدعة على الرّاوي أو يصفه بها ثمّ يوثّقه، مفرّقاً بين البدعة والعلم، بل إنّه وثّق بعض من كان داعية إلى بدعته، مثل أبي الخطّاب محمد بن عبدالأعلى الكِنْديّ الخارجي، أحد كبار دعاتهم في إفريقيّة، وقد خرج على بعض عمّال القيروان، وقاد عدّة معارك ضدّهم، قُتل في إحداها سنة ١٤٤ هـ[٤]، ومع كلّ هذا فقد قال فيه أبو العرب: «. . . وكان يرمى بهوى الصُّفْرِيَّة، وهو ثقة في علمه وما حمل»[٥].

وقال في عبّاس السّدري: «. . . وكان له هوى. . . وأُنكر عليه رأيه السّوء. . . وإنّما أُنكر عليه رأيه، ولم يرم بكذب في حديث»[٦].

وقال في عبدالله بن المغيرة، وكان ممّن يستحل شرب النّبيذ المسكر حتّى قيل إنّه «خرج سكراناً بيده سيف مسلول في السّوق»، «. . . أمّا حديثه فمستوى، حديث الحُذّاق بالحديث. . .»[٧].

---

(١) انظر: المدارك ١/٥١.

(٢) انظر: ط أبي العرب ١١٠، وفيه ترجمته أيضاً.

(٣) انظر: ترجمته رقم ٨ في المهاجرين.

(٤) انظر: البيان المغرب ١/٧٠ - ٧٢.

(٥) ط أبي العرب ٨٧، الرياض ١/٢٥١.

(٦) ط أبي العرب ١٢٠.

(٧) ط أبي العرب ٨١

٣ ـ الضّبط:

وهو الصّفة التي تكتمل بها ثقة الرّاوي، وتُؤهّله «لأن يروي الحديث كما سمعه»[١]، وهو عند أهل القيروان ـ كما هو الحال عند غيرهم[٢] ـ نوعان: ضبط الصّدر وضبط الكتاب[٣]، إلاّ أنّ اعتبارهم لضبط الكتاب أكثر من اعتبارهم لضبط الصّدر[٤]:

أ ـ **ضبط الكتاب**: وهو تقييد الحديث في الكتاب كما سمعه الرّاوي، ثمّ مقابلته بأصل شيخه أو فرع موثّق، وضبط مشكله والمحافظة عليه كي لا تناله يد بتغيير، حتّى يتمكّن من أدائه كما سمعه متى شاء[٥].

وكان لأهل القيروان اهتمام كبير بهذا الجانب، وقد تقدّم شيء من هذا في فصل الرّواية [٦].

وقد شدّد الإمام القابِسي (ت ٤٠٣) في أمر الحفاظ على السّماع كي لا يناله تغيير لِيُؤَدّى على وجهه [١١].

وربط نُقّادهم بين التّوثيق وبين صحّة الكتاب، قال أبو العرب: «كان شيخاً صالحاً ثبتاً صحيح الكتاب حسن التّقييد»[٨]، وقال المالكي: «كان ضابطاً كثير التّقييد»[٩]، وقال أبو العرب: «كان صالحاً ثقة ثبتاً ضابطاً لكتابه».

---

(١) منهج النقد ٨٠.

(٢) راجع المصادر المثبتة في أول هذا المبحث.

(٣) انظر مثلاً: الجامع في السنن والآداب ١٤٧.

(٤) انظر مثلاً: الرياض ١/٣٧٣.

(٥) انظر: مقاصد الحديث للتازي ٦٤، توجيه النظر ٣٤٩، التدريب ٢/٦٤، ٦٨، ٧٧.

(٦) راجع مبحث تدوين الحدث.

(٧) الملخص خط ٤ أ.

(٨) الرياض ١/٤٦١.

(٩) الرياض ٢/٣٠٩.

وربط الإمام سَحنون بين صحّة الكتاب وصحّة الرّواية، وبالعكس، فقال: «من صحّت كتبه صحّت روايته، ومن سقم كتابه سقمت روايته»[٢].

ب ـ **ضبط الصّدر**: وهو أن يحفظ الرّاوي لفظ حديثه كما سمعه، ويداوم على ذلك بحيث يتمكّن من أدائه على النّحو الذي سمعه به متى شاء[٣].

وكانت الدّعوة إلى إتقان حفظ الحديث بالقيروان مبكّرة، حيث كان أمير القيروان التّابعي الثّقة إسماعيل بن عُبيدالله بن أبي المُهاجِر (ت **١٣١**) يقول: «ينبغي لنا أن نحفظ حديث رسول الله ﷺ كما نحفظ القرآن»[٤].

وممّن اشترط ذلك في الرّواية: أبو محمد ابن أبي زيد متابعاً للإمام مالك، فقد جاء في الجامع: قيل لمالك: «أيؤخذ ممّن لا يحفظ الأحاديث وهو ثقة؟». قال: «لا». قيل: «يأتي بكتبه قد سمعها؟». قال: «لا تؤخذ منه، أخاف أن يُزاد في كتبه باللّيل»[٥].

وأشار القابِسي أيضاً إلى ضرورة حفظ الحديث إلى جانب حفظ الكتاب[٦]، وتقدّم في فصل الرّواية أنّه لا يقول بجواز الرّواية بالمعنى[٧]، كما أنّي لاحظت في الأحاديث المرويّة عن القابِسي من الصّحيح مطابقتها للفظ صحيح البخاري.

٤ ـ من فروع اختلال الضّبط:

أ ـ كثرة الخطأ في الكتاب: وقد كان أبو العرب يضعّف الرّاوي بسبب سوء تقييده وعدم قيامه بكتبه، ومن ألفاظه في التّضعيف بهذا السّبب قوله: «في كتبه

---

(١) المدارك ١٢٦/٥. (٢) الرياض ٣٧٣/١.

(٣) انظر: مقاصد الحديث للتازي ٦٤.

(٤) ارجع إلى ترجمته في القسم الثاني من التابعين رقم ١.

(٥) الجامع ١٤٧. (٦) الملخص خط ٤ أ.

(٧) راجع مبحث الرواية بالمعنى.

تصحيف كثير، لم يكن يقوم بها»[1]، وقوله: «لم تكن عنده دراية لما في كتبه ولا ضبط لذلك»[2]، وقوله: «في كتبه خطأ وتصحيف»[3].

ب ـ **النّوم وقت السّماع**: هذا ممّا تختلّ به الرّواية وتُترك على الأرجح[4]، وقيل: إنّ النّعاس الخفيف الذي لا يمنع المتابعة لا يضرّ[5].

أمّا أهل القيروان فلهم فيه قول واحد هو صحّة هذا السّماع وإجزاؤه، بناء على قصده للسّماع، وحضوره من أجله، وقد جزم بذلك الإمام سَحنون (ت ٢٤٠) وتابعه عليه يحيى بن عمر (ت ٢٨٩) وروى ذلك عنهما طلبتهما الكثيرون[6].

قال سليمان بن سالم (ت ٢٨٩)[7]: «كنّا عنده (أي سحنون) يوماً، ومعنا رجل يقال له خَلَف بن جُبَير[8]، والقارىء يقرأ فنعس خَلَف هذا حتّى قرأ القارىء ما شاء الله من ذلك، ثمّ انتبه»، فاختلفنا في سماعه فسألنا سَحنوناً فقال: «إذا جاء السّماع وله قصده فهو يجزئه»[9].

وقال يحيى بن عمر: سألنا سَحنوناً عمّن نام حال القراءة فقال: «إذا جاء إلى السّماع وله قصده أجزأه»[10].

---

(١) ط أبي العرب ١١٨.

(٢) المدارك ٤/١٣٤.

(٣) المدارك ٣/٢٦٩.

(٤) انظر: الكفاية ٢٣٧، الإلماع ١٤٤، تيسير مصطلح الحديث ١٤٨.

(٥) انظر: اختصار علوم الحديث ١١٦.

(٦) انظر: المدارك ٣/٢٣٨، اللسان ٦/٢٧١، ٢٧٢.

(٧) أحد كبار تلاميذ سحنون، وكان كثير الرواية والشيوخ، وسُمع منه في حياة سحنون تم تولى قضاء جزيرة صقلية وبث فيها علمه. انظر: المدارك ٣/٢٣٣، ط الخشني ١٤٧، المعالم ٢/٢٠٦.

(٨) أبو محمد يعرف بـ: زدو، تولى الحكومة للقاضي ابن طالب. المدارك ٤/٤١٧.

(٩) الرياض ١/٣٧١.

(١٠) اللسان ٦/٢٧٢.

جـ ـ سماع من بَعُد فلم يسمع صوت الشّيخ أو القارىء: وهو أيضاً ممّا يختل به الضّبط عند أهل المشرق، وجوّز بعضهم سماع من يستفهم منهم جليسه، عن بعض ما لم يتّضح لسمعه[1].

أمّا القرويّون فقد ذهب بعضهم إلى صحّة هذا السّماع قياساً على تصحيح سَحنون لسماع النّائم في مجلس السّماع، كما مرّ، قال أبو الحسن اللَّوَاتِي[2]: «كنّا عند يحيى بن عمر بسُوسَة، يُسمِع النّاس في المسجد، فيمتلىء المسجد وما حوله، فسأله من بَعُد عن أسماعهم فقال: يجزئهم...»[3]، ثمّ احتجّ بقول سَحنون السّابق.

د ـ سماع من كان ينسخ وقت السّماع: اختلف العلماء في صحّة سماع من كان ينسخ وقت القراءة، فأجازه قوم ومنعه آخرون، وفصّل ابن الصّلاح وغيره القول في المسألة فاعتبروا أنّ ذلك لا يصحّ إذا كان النّسخ يمنع فهم النّاسخ لما يقرأ، ويصحّ إذا لم يمنع[4].

أمّا أهل القيروان فلم يجزموا بأحد القولين فيما بين يديّ من المصادر، ولعلّهم ذهبوا إلى إجازتهما جميعاً، قال كاتب الإمام أبي الحسن القابِسي: «قعدت أنسخ ونحن نسمع من الشّيخ أبي الحسن، فحكى أنّ حمزة الكناني[5] نهى بعضهم عن النّسخ وهو يسمع، ثمّ سكت ـ يعني أبا الحسن ـ ولم ينهني ولم يأمرني بالتّمادي»[6]، فنهْيُ البعض يستفاد منه التّفصيل، وكذا موقف القابِسي من

---

(١) انظر: علوم الحديث لابن الصلاح ١٣١، ١٣٢.

(٢) انظر عنه: المدارك ٦٢٢/٣.

(٣) المدارك ٢٣٨/٣، اللسان ٢٧١/٦.

(٤) انظر: علوم الحديث ١٢٩، اختصار علوم الحديث ١١٥، الكفاية ١٢٠.

(٥) هو الحافظ حمزة بن محمد الكناني، راوية سنن النسائي، وأحد كبار المحدثين بمصر (ت ٣٥٧)، انظر: حسن المحاضرة ٣٥١/١.

(٦) الإلماع ١٤٣.

هذا الذي ينسخ وقت السّماع، فلعلّهم تركوا من وثِقوا في مقدرته على الجمع بين النّسخ واستيعاب السّماع، ومنعوا من لم يكن كذلك.

ثانياً: علوم الرّجال عند القرويّين، وهي أنواع متعدّدة منها:

النّوع الأوّل: الجرح والتّعديل:

وهو علم يُبحث فيه عن عيوب الرّواة الموجبة لإسقاط حديثهم، والصّفات المقابلة الموجبة لقبوله، مع التّعبير عن كل ذلك بألفاظ وعبارات مخصوصة رتّبها النّقاد[1].

١ ـ عناية علماء القيروان بهذا الفنّ:

لقد كان للقرويّين اهتمام كبير بعلوم الجرح والتّعديل، كما هو واضح في المصادر، وخاصّة من خلال أهمّ كتابين وصلانا في رجال في هذه الفترة، وهما: كتاب طبقات أبي العرب، وكتاب رياض النّفوس للمالكي، حيث كثر في تراجمهما ذكر تعديل الرّواة أو تجريحهم[2].

وقد عُرف بإتقان هذا الفنّ والكلام حول الرّواة جماعة من محدّثي القيروان منهم:

ـ الإمام سَحنون بن سعيد (ت ٢٤٠)[3].

ـ ابنه الإمام محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦)[4].

---

(١) انظر دراسات في: الجرح والتعديل ٤٥، ١٦٩، الحطة ٨٣، منهج النقد ٩٢، علوم الحديث ١١٠، جامع الأصول ١/٧٠، الكفاية ٨٢.

(٢) سيأتي التعريف بالكتابين في فصل المصنفات مع الإحالة على بعض المواضع التي فيها جرح أو تعديل.

(٣) انظر: ط أبي العرب ٢٩، ١١٩، المدارك ١/٩٣، ١٤ظ.

(٤) راجع ترجمته رقم ٣٢ في المحدثين.

- محمد بن يحيى بن سلّام (ت ٢٦٢)[١].

- أحمد بن مُعتِّب (ت ٢٧٧)، وقد أخذ هذا العلم عن أبي الحسن أحمد بن عبدالله العِجْلِي (ت ٢٦١) صاحب تاريخ الثّقات، والجرح والتّعديل[٢].

- فُرات بن محمد العَبْدي (ت ٢٩٢)، على الرّغم من ضعفه[٣].

- بَكر بن حمّاد التّاهَرْتي (ت ٢٩٦)، وقد نقل عنه أبو العرب كثيراً ممّا يتعلّق بأحوال الرّجال[٤].

- سعيد بن الحدّاد (ت ٣٠٢)، وقد ذكرت نماذج من ذلك في ترجمته[٥].

- مالك بن عيسى القفصي (ت ٣٠٥)[٦].

- لقمان بن يوسف (ت ٣١٩)[٧].

- الحافظ أبو العرب محمد بن أحمد التّميمي (ت ٣٣٣)، وهو أشهرهم في هذا الفنّ على الإطلاق، وكلّ من أتى بعده عيال عليه في أحوال رجال إفريقيّة[٨].

- ربيع القطّان (ت ٣٣٣)، وقد وصفه المالكي بذلك[٩].

---

(١) انظر: وصفه بذلك في ترجمته رقم ٣٥ في المحدثين.

(٢) راجع ترجمته رقطم ٢ في المحدثين. انظر عن أبي الحسن العجلي: طبقات الحفاظ ٢٤٦، مقدمة تاريخ الثقات ٤٣.

(٣) سيأتي تفصيل ذلك في ترجمته رقم ٢٨ في المحدثين.

(٤) انظر: ترجمته رقم ٢ في المهاجرين، وارجع التعريف بطبقات أبي العرب ص ٦٣٨.

(٥) رقم ١٥ في المحدثين.

(٦) راجع ترجمته رقم ٥ في المهاجرين.

(٧) راجع ترجمته رقم ٢٩ في المحدثين.

(٨) سيأتي ذكر ذلك في ترجمته رقم ٣٠ في المحدثين، وراجع التعريف بطبقاته وبكتابه ثقات المحدثين وضعافهم في المصنفات ص ٦٢٠، ٦٦٦.

(٩) الرياض ٢/٣٢٤.

ـ عبدالله بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦)[1].

ـ الإمام أبو الحسن علي بن محمد القابِسي (ت ٤٠٣)[2].

ـ موسى بن عيسى الفاسي (ت ٤٣٠)[3].

ـ عبدالرحمن بن محمد بن رَشِيق (ت بعد ٤٤٤)[4].

ـ أبو بكر عبدالله بن محمد المالكي (ت بعد ٤٦٤) صاحب رياض النّفوس[5].

وبالرّغم من هذه الكثرة النّسبيّة للعلماء الذين كان لهم كلام في الرّواة فإنّ المصنّفات المباشرة في ذلك لم تكن كثيرة، حيث لم نعرف منها إلاّ كتاب ثقات المحدّثين وضعافهم لأبي العرب، وهو مفقود[6] وتعليقات الفاسي (ت ٤٣٠)[7]، وقد صنّف القابِسي (ت ٤٠٣) كتاباً في تزكية الشّهود وتجريحهم[8]، ومن المفترض أن يكون تكلّم فيه على ما يتعلّق من ذلك بالرّواة، باعتباره من كبار المحدّثين ومن العارفين بالرّجال وأحوالهم.

أمّا المصنّفات المتعلّقة بتراجم الرّجال وأخبارهم ووفياتهم، والتي احتوت في ثناياها على كلام حول الرّواة فإنّها كثيرة، وقد ذكرت منها ما يزيد على خمسة وعشرين كتاباً في فصل المصنّفات[9]، أشهرها طبقات محمد بن سَحنون[10]،

---

(١) انظر: المدارك ٢٠٦/١، المعالم ١١٠/١، ١١٣.

(٢) انظر: ترجمته رقم ٢٤ في المحدثين.

(٣) انظر: ترجمته رقم ٧ في المهاجرين.

(٤) انظر: ترجمته رقم ١٧ في المحدثين.

(٥) راجع التعريف بالرياض في المصنفات ص ٦٤٧.

(٦) سيأتي التعريف به في المصنفات ص ٦٦٦.

(٧) انظر: المعالم ١٢٨/٣، المدارك ٣٥٨/٣.

(٨) انظر: الشجرة ٩٧/١.

(٩) انظر: مبحث أهم المواضيع التي صنف فيها محدثو القيروان ص ٥٧٤.

(١٠) المدارك ١٠٦/٣.

وتاريخه[1]، وطبقات رجال إفريقيّة لأبي العرب[2]، وكتاب التّاريخ له[3]، وكتاب الافتخار بمناقب شيوخ القيروان وما تعلّق بهم من تاريخ فقهاء الأمصار لعَتِيق التُّجيبي (ت ٤٢٢)[4]، وكتاب أخبار العلماء شرقاً وغرباً لعبدالرحمن بن محمد بن رَشيق (ت بعد ٤٤٤)[5] وغيرها.

٢ ـ من شروط النّاقد عند القرويّين[6]:

ينبغي على المتصدّي للجرح والتّعديل أن يكون:

- عدلاً أي مسلماً عاقلاً بالغاً، تقيّاً، حتّى لا يتحامل على غيره بغير وجه حقّ أو يُعدّل من ليس أهلاً لذلك.
- عالماً بما يوجب التّجريح، حتّى لا يجرح بما ليس بجارح.
- عارفاً بماذا وقع تجريح ذلك الشّخص بعينه.
- أن يذكر ما يجرحه به؛ لأنه قد لا يكون جارحاً عند غيره.
- ألّا يكون قريناً لما يجرحه، وقد مرّ قريباً التّنبيه على ما في هذا الشّرط من التّفصيل عند أهل التّحقيق.

٣ ـ ألفاظ التّعديل والتّجريح عند علماء القيروان:

وردت عن القرويّين ألفاظ كثيرة تتعلّق بتعديل الرّواة وتجريحهم، غير أنّ المادّة المتوافرة ليس فيها ما يشير إلى أنّهم قاموا بترتيب هذه الألفاظ وتحديد درجاتها، وسأسوق نماذج من هذه الألفاظ بعد أن أُرتّبها مستأنساً في ذلك بالمراتب التي وضعها أهل الصّناعة، معتبراً ما انتهى إليه الأمر بعد عهد الحافظ

---

(١) الرياض ٩١/١.

(٢) ط أبي العرب ٢٩، ١٧٣.

(٣) المعالم ٤٣/٣.

(٤) المعالم ١٥٨/٣.

(٥) المعالم ١٨٦/٣.

(٦) مستمدة من كتاب الأجوبة لمحمد بن سحنون خط ل ٢ أ، ٦ ب، وقد تقدمت الإشارة إلى شيء منها قريباً.

أحمد بن علي بن حَجَر العسقلاني (ت ٨٥٢) من جعل ستّة مراتب لكلّ من الجرح والتّعديل[١]:

أ ـ ألفاظ التّعديل لدى محدّثي القيروان، وتنزيلها على مراتبها:

أعلى المراتب: وهي ما دلّ على المبالغة في التّوثيق، أو كان على وزن أفعل، ولم أعثر على استعمال لها عند أهل القيروان.

الثّانية: وهي ما تأكّد بصفة أو صفتين من صفات التّوثيق، ومن ألفاظها عند القرويّين: أحد الثّقات الأثبات[٢]، إمام من أئمّة المسلمين[٣]، من خيار هذه الأمّة[٤]، من خيار خلق الله[٥]، من خيار النّاس[٦]، من الحفّاظ[٧]، ثقة ثبت[٨]،

---

(١) أول من عرف بترتيب هذه اللألفاظ عبدالرحمٰن بن أبي حاتم الرازي (ت ٣٢٧) في كتابه الجرح والتعديل ٣٧/٢، وكان للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣) كلام في ذلك فيما ذكر ابن الصلاح (علوم الحديث ١١٣)، وانظر: الكفاية للخطيب ٨١ ـ ٩٢، ١٤٥ ـ ١٤٧، وحافظ ابن الصلاح (ت ٦٤٣) على ترتيب ابن ابي حاتم مع زيادة بعض الألفاظ (علوم الحديث ١١٠)، ثم زاد الذهبي (ت ٧٤٨) مرتبة أعلى من الأولى عند ابن أبي حاتم (الميزان ٤/١)، وحافظ العراقي (ت ٦٠٨) على هذه المرتبة (انظر: فتح المغيث ٣٦١/١)، ثم زاد ابن حجر مرتبة أعلى. (انظر: مقدمة التقريب ٤/١، نزهة النظر ٦٩) فأصبحت مراتب التعديل ستة، ويقابلها ست مراتب في التجريح. ويحتمل أن تكون زيادة هذه المرتبة العليا من الهروي (ت ٨٣٧) في كتابه جواهر الأصول ص ٦٠، لا من ابن حجر (ت ٨٥٢) لأن الهروي متقدم في الزمن قليلاً على ابن حجر كما هو واضح من تاريخ وفاتيهما، غير أنه ليس هناك ما يمكن الاستناد إليه للجزم بأحد الاحتمالين، وإن كان المشهور عند الباحثين المعاصرين أن تلك المرتبة من زيادة ابن حجر.

(٢) الرياض ٢١٥/١.

(٣) الرياض ٢٣٠/١.

(٤) ط أبي العرب مح ١٠٤.

(٥) ط أبي العرب ٣٧.

(٦) الرياض ٢٠/٢.

(٧) ط أبي العرب ٣٧.

(٨) ط أبي العرب ٣٧، المدارك ٢٣٠/٣، ٢٣٥.

ثقة خيار[١]، ثقة حسن الكتاب والتّقييد[٢]، ثقة مجتهد ورع[٣]، ثقة مأمون[١٢]، ثقة مأمون رجل صالح[٥]، ثقة مأمون عالم بالحديث[٦].

الثّالثة: وهي التّوثيق بلفظ واحد دون تأكيد، ومن ألفاظها عندهم:

ثقة[٧]، شيخ صالح ثبت[٨]، شيخ صالح ثقة[٩]، صالح ثقة[١٠]، لم يُختلف في توثيقه[١١]، ثقة فاضل[١٢]، ثقة نبيل[١٣]، ثقة في حديثه[١٤]، رجل صالح مبرّز لا يُشكّ في أنّه ثقة[١٥]، ثقة رجل صالح[١٦].

الرّابعة: وهي ما دلّ على التّعديل دون إشعار بالضّبط، ومن ألفاظها عندهم:

صدوق[١٧]، صدوق في حديثه[١٨]، صالح ثقة في نفسه[١٩]، ما سمعت من يذكره إلّا بخير[٢٠].

الخامسة: وهي الألفاظ التي ليس فيها دلالة على التّوثيق، أو التّجريح: ما

---

(١) ط أبي العرب ٩٧.
(٢) المدارك ٣/٢٤٦.
(٣) ط أبي العرب ٥٢.
(٤) ط أبي العرب ٦١، ٦٢، ٧٢، ١٣٩، الرياض ١/١٤٨.
(٥) ط أبي العرب ٧٤، ١٠٩.
(٦) ط أبي العرب ١٠٦.
(٧) ط أبي العرب ٧٦، ٧٧، ٧٩، الرياض ١/٢٤٧، ٢/١٢.
(٨) الرياض ١/٤٦١.
(٩) المدارك ٣/٢٦٠.
(١٠) المدارك ٣/٢٤٧.
(١١) المدارك ٣/١٣٠.
(١٢) ط أبي العرب ١١٢.
(١٣) ط أبي العرب ٤٣.
(١٤) ط أبي العرب ٣٤، ٧٥.
(١٥) ط أبي العرب ٤٥.
(١٦) المدارك ٣/١٢٨.
(١٧) المدارك ٣/١٢٨.
(١٨) اللسان ٢/٦٨، نقلاً عن الرياض للمالكي.
(١٩) المدارك ٣/٢٦٩.
(٢٠) ط أبي العرب ٣٤.

طعن عليه بشيء[1]، ما علمت أحداً ذكره بسوء[2]، ما سمعت أحداً يذكره بسوء[3]، ما علمت إلّا خيراً[4]، لم أسمع فيه بسوء[5].

السّادسة: ما أشعر بالقرب من التّجريح، مثل: رجل صالح[6].

ب ـ ألفاظ التّجريح:

أخفّها وأسهلها: ما دلّ على التّليين، ومن ألفاظها عندهم: حديثه يدلّ على لينه[7]، ما يحتاج إلى معرفة حاله بأكثر من حديثه[8]، ما يحتاج إلى معرفة حاله بأكثر من روايته[9].

الثّانية: وهي ما صرّح فيه بعدم الاحتجاج وشبهه، ومن ألفاظها عندهم: يروي غرائب لا يرويها غيره[10]، يروى مناكير لا يرويها غيره[11]، في حديثه مناكير الله أعلم بما تدلّ عليه[12]، وهو عند المحدّثين ضعيف في روايته[13]، ضعّف ابن معين حديثه[14]، سمعت من عُنيَ بالحديث يستضعفه[15]، كثير من حديثه منقطع[16]، في حديثه لين ومقطوع كثير، وهو ثقة[17]، (أي في نفسه بمعنى عدل).

الثّالثة: ما دلّ على كتابة حديثه ونحو ذلك: في كتبه تصحيف كثير لم يكن يقوم بها[18]، نفره ابن وهب حتّى أوهنه[19]، في كتبه خطأ وتصحيف[20].

---

(1) ط أبي العرب مح ١٥٥.
(2) ط أبي العرب مح ١٥٧.
(3) ط أبي العرب مح ١٩٨.
(4) ط أبي العرب مح ١٧٩.
(5) ط أبي العرب ١٢٠.
(6) ط أبي العرب مح ١٩٨.
(7) ط أبي العرب مح ١٧٧.
(8)، (9) ط أبي العرب ٩٨، ٩٩.
(10) الرياض ٢/٣٣.
(11) ط أبي العرب مح ٩٤.
(12) ط أبي العرب مح ١٩٧.
(13) ط أبي العرب مح ١٠٥.
(14) ط أبي العرب مح ٩٦.
(15) ط أبي العرب مح ١٦٠.
(16) ط أبي العرب ١٠٠.
(17) ط أبي العرب ١١١.
(18) المدارك ٣/٢٦٩.
(19) ط أبي العرب ١١٨.
(10) ط أبي العرب مح ١٩٧.

الرّابعة: ما فيه اتّهام بالكذب ونحوه: متّهم بالكذب أو معروف به[1].

الخامسة: ما دلّ على وصفه بـالكذب ونحـوه، مثل: ... فقبّـح الله من يكذب[2]، ضالّ مضلّ[3].

السّادسة: ما دلّ على المبالغة في الكذب، مثل: وهو عند أهل التّمييـز كذّاب[4].

٤ ـ بعض القواعد المتعلّقة بهذا المبحث:

أ ـ حكم التّعديل على الإبهام دون تسمية المعدّل: التّحديث عن الثّقة دون تسميته أمر شائع في كتب القرويّين، مثل قولهم: أخبرني من أثق به[5]، ذكر لي من أثـق به[6]، حدّثني من أثق به[7]، فمن ذلك ما حدّث به الثّقة[8]، سمعت من أثق به يقول[9]، حدّثني شيخ من حملة العلم[10]، ،، .

وقضيّة صنيع القرويّين أنّ ذلك ملزم لقبول الخبر، لأنّهم قد يسوقون ذلك في معرض الاحتجاج[11]، أمّا جمهور المشارقة من المحدّثين وغيرهم فلم يروا ذلك ملزماً للسّامع، لأنّ شيخ الرّاوي مجهول عنده، ويجوز لو سمّاه أن يُعرف

---

(١) ط أبي العرب ١٠٠.

(٢) ط أبي العرب ٤٣، كذا ورد اللفظ «نفره» ولعله نقره.

(٣) تنزيه الشريعة ٩٥/١ نقلاً عن ط الخشني، كذا ورد الجمع بينهما ومعروف أن الوصف بالكذب أعظم وأحط درجة في المراتب من مجرد الاتهام به.

(٤) ط أبي العرب مح ١٦٠.

(٥) اللسان ٩٤/٧ نقلاً عن أبي العرب.

(٦) المدارك ٢٦١/٣.

(٧) الرياض ٥٠/١.

(٨) الرياض ٥٣/١.

(٩) ط أبي العرب ٣٥، ٤٥، ٤٦.

(١٠) الرياض ٤١١/١.

(١١) راجع المواضع المحال عليها في التعليقات السابقة.

بخلاف الثّقة والأمانة، وهذا هو الصّحيح، ومنهم من ذهب إلى أنّه تعديل معتبر إذا كان القائل عالماً مجتهداً، فيكفي تعديله في حقّ موافقه في المذهب[1].

ب ـ معرفتهم لبعض من قيل فيه ذلك: ولعلّ قبول خبر من وُصف بأنّه ثقة ولم يسمّ مبنيّ على معرفة اسمه عندهم غالباً، فإنّ علماءهم كانوا ينبّهون على مثل ذلك، كقول يحيى بن عمر (ت ٢٨٩): «إذا رأيت محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦) يقول: حدّثني الثّقة عن سَحنون فهو ثابت بن سليمان»[2].

وقد كان الإمام مالك كثيراً ما يستعمل التّوثيق على الإبهام[3]، فلعلّ أهل القيروان تأثّروا به في ذلك.

جـ ـ حكم الرّجوع في الرّواية لدى القرويّين: وصورة المسألة كالتّالي:

إذا حدّث الشّيخ بعض طلبته أو أجازهم، ثمّ اطّلع من حالهم على ما يجرح ويخلّ بشرف حمل العلم، فهل يجوز له أن يرجع فيما رواه أو أجازه لهم؟ وما أثَر ذلك على روايتهم لما حملوه عنه؟.

لقد رجع في الرّواية المحدّث القروي عبدالله بن أبي هاشم بن مسرور التُّجيبي (ت ٣٤٦)[4]، معتبراً صحّة الرّجوع في ذلك، وأنّ هذا الرّجوع قادح في روايتهم، ولم أقف على أنّ أحداً من معاصريه أو من بعدهم من القرويّين ناقش هذا الرّأي، فلعلّهم يذهبون إليه أيضاً، خاصّة وقد ورد نحوه عن بعض الأندلسيّين والمغاربة[5].

(١) انظر: الكفاية ٥٣١، تقريب النووي ٣١٠/١، التدريب ٣١٠/١، ٣١١، علوم الحديث ٩٩، ١٠٠، قواعد التحديث ١٩٦.
(٢) مناقب أبي إسحٰق ١٠، المدارك ٢٥٩/٣.
(٣) انظر: تدريب الراوي ٣١١/١.
(٤) ستأتي ترجمته رقم ٢٢ في المحدثين.
(٥) انظر: الإلماع ١١١، المعالم ٥٩/٣، المدارك ٣٤٣/٣.

ولم يكتف عبدالله بن أبي هاشم في الرّجوع بمجرّد القول، بل إنّه كتب بذلك محضراً قال القاضي عياض[1]: «وكان رحمه الله تعالى قد نبذ جماعة من أصحابه لأشياء اطّلع عليهم فيها، فكتب عليهم محضراً يقول فيه: «يشهد من تسمّى في هذا الكتاب أنّ عبدالله بن مسرور أشهدهم أنّ فلاناً وفلاناً كانوا يأخذون عنه العلم، فسألوا أن أجيزهم كتبي ففعلت، فاشهدوا عليّ أنّي رجعت فيما رووا عنّي، وعن إجازتي لهم كتبي، لما ظهر فيهم من سوء حالهم، وكذا، وكذا...».

ثمّ عقّب القاضي عياض على ذلك بقوله: «مثل هذا لا يضرّ الرّواية، وقد فعله بعض من لقيناه ببعض من سخطه من أصحابه، ولعلّه لم يخْفَ عليهم أنّ الرّجوع فيها لا يصحّ لكنّه كالرّدع والتّجريح لهم بمثل هذا».

وقد ذهب إلى مثل هذا في الإلماع أيضاً[2]، وقال: «ولعلّ هذا لمن فعله تأديب منهم، وتضعيف لهم عند العامّة، لا لأنّهم اعتقدوا صحّة تأثيره»[3].

النّوع الثّاني: المتّفق والمفترق[4]:

وهو اتّفاق أسماء الرّواة وأسماء آبائهم، أو كناهم، أو نسبهم خطّاً ولفظاً، مع اختلاف أشخاصهم.

وقد اعتنى به علماء الرّجال وبيّنوه كلّ على قدر علمه، حتّى لا يلتبس الرّواة فيُظن المشتركون في الاسم واحداً مع أنهم جماعة، وليتميّز كلّ منهم عن صاحبه، فربّما كان بعضهم ثقات وبعضهم ضعفاء، والأمثلة على ذلك كثيرة

---

(١) المدارك ٣/٣٤٢، وانظر: المعالم ٣/٥٨.

(٢) الإلماع ١١٠.　　(٣) الإلماع ١١١.

(٤) انظر: علوم الحديث ٣٢٤ - ٣٣١، الباعث الحثيث ٢٢٧، فتح المغيث ٣/٢٦٩ - ٢٨٣، منهج النقد ١٨٠، تيسير مصطلح الحديث ٢٠٥، المحدث الفاصل ٢٧٩، ٢٨٧، التنكيل ١/٦٢.

جدّاً، وقد ذكر منها المعلمي أكثر من عشرة مع بيان أقوال النّقّاد في رجال كلّ مثال[1].

وقد عرف أهل القيروان قسماً من هذا النّوع ـ حسب المادّة المتوافرة ـ وهو ما اتّفق فيه الاسم واسم الأب، فقد جاء في طبقات أبي العرب: «قال لي فُرات[2]: كلّ من روى عنه عبدالرحمن بن زياد فهو من أهل إفريقيّة، أو ممّن دخلها إلاّ مسلم بن يسار»[3]، قال أبو العرب: «يحسب فُرات أنّه مسلم بن يسار البصري[4]، ومسلم بن يسار هذا الذي روى عنه عبدالرحمن هو من أهل إفريقيّة»، ثمّ ساق أبو العرب بسنده إلى أحمد بن حَنْبَل قال: «الإفريقيّ عن مسلم بن يسار، ليس هذا مسلم بن يسار البصري، هذا رجل أُراه من ناحية إفريقيَّة يحدّث عن ابن المسيَّب»، وقال يحيى بن معين: «مسلم بن يسار الذي يروى عنه عبدالرحمن هذا رجل من أهل إفريقيَّة»[5].

ووُجد بإفريقيَّة عليّ بن زياد، رجلان: أوّلهما: أبو الحسن علي بن زياد التونُسي (ت ١٨٣)[6]، والثّاني: أبو الحسن علي بن زياد الحِمْصِيّ، دخل القيروان وبثّ فيها العلم[7] وهو من طبقة علي بن زياد التونُسي.

---

(١) انظر: التنكيل ١/٦٢ ـ ٦٤.

(٢) هو فرات بن محمد العبدي (ت ٢٩٢) أحد شيوخ أبي العرب، ستأتي ترجمته رقم ٢٨ في المحدثين.

(٣) هو مسلم بن يسار الطنبذي الإفريقي، تابعي سكن القيروان، وبث فيها العلم، وبها كانت وفاته بعد سنة ١٢٠ هـ. ستأتي ترجمته رقم ١٦ في القسم الثالث من التابعين.

(٤) هو مسلم بن يسار البصري الأموي المكي، أبو عبدالله، تابعي ثقة عابد ت سنة ١٠٠ أو ١٠١ هـ، التهذيب ١٠/١٤٠.

(٥) ط أبي العرب ٢٤.

(٦) انظر: ط أبي العرب ٢٥١، ط الفقهاء ٦٠، الشجرة ١/٦٠، إتحاف أهل الزمان ١/٩٩، الانتقاء ٦٠، المحن ٣٧٢.

(٧) انظر: ط أبي العرب ٤٣.

ومحمّد بن سعيد، رجلان: أحدهما: محمد بن سعيد بن غالب الأَزْدِيّ (ت ٢٧٧)، وهو ثقة وكان يحدّث[١]، والآخر: محمد بن سعيد الخشّاب المؤدّب، وهو أديب شاعر، كان حيّاً سنة **٣٣٣** هـ[٢].

وأحمد بن نصر، ثلاثة: أحمد بن نصر بن زياد الهَوَّارِي (ت ٣١٧)، وهو فقيه، مناظر، ثقة ثبت[٣]، ومن طبقته: أحمد بن نصر البَاجِي (ت ٣٠٧)، كان من المتكلّمين على مذهب أهل السّنّة[٤]، والثّالث: متأخّر، وهو أحمد بن نصر الدَّاوُدِي (ت ٤٠٢)، وهو محدّث، فقيه، متفنّن، صاحب تواليف جيّدة[٥].

النّوع الثّالث: تقييد المُهْمَل:

وهو ما يرد في الأسانيد من الأسماء التي يشترك فيها راويان أو أكثر ولم تتميّز[٦].

وهذا النّوع يمكن اعتباره من فروع النّوع السّابق، وقد كان للقرويّين اهتمام بهذا الجانب، ومعرفة بالأسماء المُهْمَلة الواردة في بعض الأسانيد، والتّمييز بين أصحابها، من ذلك القاعدة التي علّمها لهم أسد بن الفُرات (ت ٢١٣) حين قال لطلّابه: «أهل الكوفة إذا أرسلوا في الرّواية عن عبدالله فهو ابن مسعود، وأهل المدينة إذا أرسلوا عن عبدالله فهو ابن عمر»[٧].

(١) ط أبي العرب مح ٢٠٩، ٢٤٢.
(٢) انظر: الرياض ٢/٢٩٥، ٢٩٦، ٣٧١.
(٣) المدارك ٥/٩٣.
(٤) المدارك ٥/٥٧.
(٥) المدارك ٣/٦٢٣.
(٦) تيسير مصطلح الحديث ٢١١، وراجع مصادر النوع الثاني.
(٧) الرياض ١/٢٦٧.

النّوع الرّابع: معرفة الصّحابة[1] لدى القرويّين:

وهو نوع مهمّ من أنواع علوم الرّجال، وهو من أخصّ ما ينبغي على أهل الحديث معرفته؛ لأنّ الصّحابة رضوان الله عليهم هم حملة السُّنّة، وناشروها، والمبلّغون عن الرّسول ﷺ، وقد أكّد العلماء في التّنبيه على ضرورة معرفة هذا النّوع، قال ابن عبدالبرّ[2]: «لا خلاف علمتُه بين العلماء أنّ الوقوف على معرفة أصحاب رسول الله ﷺ من أوكد علم الخاصّة، وأرفع علم الخبر وبه ساد أهل السّير».

واعتبر ابن حَجَر أنّ من أجلّ معارف علم الحديث تمييز أصحاب رسول الله ﷺ ممّن خلف بعدهم[3].

ولهذا الفنّ فائدة جليلة؛ إذ به يعرف المتّصل من المُرسَل والموقوف من المقطوع[4].

أمّا حدُّه فإنّ الأصحّ المختار عند المحقّقين، والذي عليه جمهور العلماء من المحدّثين وغيرهم سلَفاً وخلَفاً في تعريف الصّحابي أنّه: من لقي النبي ﷺ مُسلماً، ومات على الإسلام، ولو تخلّلت ذلك ردّة[5].

أي أنّهم اكتفوا في ذلك «بمجرّد (اللّقيّ) ولو لحظة وإن لم يقع معها مجالسة ولا مماشاة ولا مكالمة لشرف منزلة النّبيّ ﷺ»[6].

وإلى هذا ذهب كثير من علماء القيروان منهم الإمام أبو محمد عبدالله بن

---

(١) انظر عن هذا المبحث عامة: توجيه النظر ١٦٦، جواهر الأصول ١٠٢، الإصابة ٣/١، الاستيعاب ٢/١، منهج النقد ١١٦، علوم الحديث ٢٦٢، الكفاية ٩٨، التقييد والإيضاح ٢٩١، التقريب ٢٠٦/٢، التدريب ٢٠٦/٢.

(٢) الاستيعاب ٨/١.

(٣) انظر: الإصابة ٣/١.

(٤) انظر: المصادر المثبتة في أول المبحث.

(٥) انظر: الكفاية ٩٩، ١٠٠، علوم الحديث ٢٦٣، الإصابة ١٠/١، فتح المغيث ٩٣/٣، أسد الغابة ١٢/١، الفتاوي ٤٦٤/٤، اختصار علوم الحديث ١٧٩.

(٦) فتح المغيث ٩٣/٣، وانظر: الإصابة ١٠/١، اختصار علوم الحديث ١٧٩.

أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦) حيث قال: «وكلّ من صحبه ﷺ، ولو ساعة، أو رآه ولو مرّة، فهو بذلك أفضل من أفضل التّابعين»[١].

وكذا الإمام القابِسي بناء على روايته لحديث محمود بن الرَّبِيع[٢]، وهو قضيّة صنيع المالكي في رياض النّفوس، فإنّه عدّ في الصّحابة زُهَيْر بن قَيْس البَلَوِي وعُقبة بن نافع الفِهْرِي[٣]، وهما لا تكاد تثبت لهما حتّى مجرّد الرّؤية[٤].

وخالف في ذلك جماعة من القرويّين، منهم حافظ القيروان أبو العرب التَّمِيمي (ت ٣٣٣)، فإنّه يذهب إلى أنّ مجرّد الرّؤية لا تكفي لإثبات الصّحبة، وذلك واضح من خلال هذا العنوان الذي وضعه في طبقاته[٥]: «تسمية من دخل إفريقيَّة من أصحاب النّبيّ عليه السّلام، وممّن رآه ﷺ وإن لم يكن له صحبة»، كما أنّه ذكر في التّابعين جماعة من صغار الصّحابة منهم[٦]: معبد بن العبّاس بن عبدالمطّلب[٧]، وعاصم بن عمر بن الخطاب[٨]، وأخوه عُبيدالله[٩]، وعبدالرحمن بن الأسود بن عبد يَغُوث[١٠]، وغيرهم.

(١) الجامع لابن أبي زيد ١١٥.

(٢) انظر: الإلماع ٦٢، وقد تقدم تخريج الحديث والتعريف بمحمود بن الربيع.

(٣) انظر: الرياض ١/٩٣، ٩٧.

(٤) انظر: عن زهير بن قيس أسد الغابة ٢/٢١١، البداية والنهاية ٩/١٦، الإصابة ١/٥٣٧، حسن المحاضرة ١/٢٠٠، ٢٥٨، التجريد ١/١٩٣، وانظر عن عقبة: الاستيعاب ٣/١٠٨، الإصابة ٣/٨٠، أسد الغابة ٣/٤١٦، ٤٢٠، ثقات ابن حبان ٥/٢٢٧.

(٥) ط أبي العرب ١٦.

(٦) ط أبي العرب ١٨.

(٧) انظر عنه: الاستيعاب ٤/٤٣٦، الإصابة ٣/٤٥٧، أسد الغابة ٤/٣٩٢، ط ابن سعد ٤/٦، التجريد ٢/٨٥، حسن المحاضرة ١/٢٣٧، المحن ٧٧.

(٨) انظر عنه: الاستيعاب ٢/١٣٢، الإصابة ٢/٥٦، أسد الغابة ٣/٧٦، ط ابن سعد ٥/١٥، ط خليفة ٢٣٤، مشاهير علماء الأمصار ٦٦، تهذيب الكمال ٢/٦٣٧.

(٩) انظر عنه: الاستيعاب ٢/٤٢٣، الإصابة ٣/٧٥، أسد الغابة ٣/٣٤٢، التجريد ١/٣٦٣، تهذيب الأسماء واللغات ١/٣١٤، ثقات ابن حبان ٥/٦٣.

(١٠) انظر عنه: الاستيعاب ٢/٤١٩، الإصابة ٢/٣٨٢، أسد الغابة ٣/٢٨١، ط ابن سعد ٣/١٨٩، تهذيب الكمال ٢/٧٧٤.

وذهب إلى هذا الرّأي أيضاً الإمام محمد بن علي المازِري ـ تلميذ المدرسة القيروانيّة ـ (ت ٥٣٦)، كما يُفهم ممّا نقله عنه صاحب فتح المغيث[1].

أمّا من حيث العدالةُ فيتّفق أهل القيروان مع غيرهم من أهل السّنّة والجماعة على أنّ جميع الصّحابة عدول، قال ابن أبي زيد: «. . . خير القرون قرن الصّحابة ثمّ الذين يلونهم ثمّ الذين يلونهم كما قال النّبيّ عليه السّلام، . . . والكفّ عن ذكر أصحاب رسول الله ﷺ، إلاّ بخير ما يُذكرون به، وأنّهم أحقّ النّاس أن تُنشر محاسنهم، ويُلتمس لهم أحسن المخارج، ويظنّ بهم أحسن المذاهب»[2].

وشذّ الإمام المازِريّ حين أخرج من العدالة المطلقة من كان لقاؤه بالرّسول ﷺ يسيراً، حيث قال: «لسنا نعني بقولنا للصّحابة عدول كلّ من رآه ﷺ يوماً ما، أوزراه، أو اجتمع به لغرض، وانصرف عن قريب، وإنّما نعني به الذين لازموه، وعزّروه، ونصروه. . .»[3]، وردّ العلماء على المَازِريّ هذا القول؛ لأنّه «قول غريب يُخرج كثيراً من المشهورين بالصّحبة والرّؤية عن الحكم بالعدالة»[4].

وبالنّسبة للأفضليّة أيضاً يلتقي القرويّون فيها مع جمهور أهل السّنّة[5]، قال ابن أبي زيد[6]: «أفضل الأمّة بعد نبيّها: أبو بكر ثمّ عمر ثمّ عثمان ثمّ عليّ، وقيل: ثم عثمان وعليّ، ويُكَفّ عن التّفضيل بينهما، وروي ذلك عن مالك، وروي عنه القول الأوّل وعن سفيان وغيره، وهو قول أهل الحديث، ثمّ بقيّة العشرة، ثمّ أهل بدر من المهاجرين، ثمّ من الأنصار، ومن جميع أصحابه، على قدر الهجرة والسّابقة والفضيلة».

---

(١) فتح المغيث ١١٣/٣.
(٢) الجامع ١١٥، ١١٦.
(٣)، (٤) فتح المغيث ١١٣/٣، ١١٤.
(٥) انظر: فتح المغيث ١٢٤ ـ ١٣٣.
(٦) الجامع ١١٥.

وكان الرّافضة بالقيروان يُشيعون تفضيل عليّ، وكان العلماء يردّون عليهم[1]، ومن ذلك قول أبي إسحٰق الجِبِنْيَانِي[2]: «إنّ من فضّل عليّاً على أبي بكر وعمر فقد أزرى بإثني عشر ألف صحابيّ، صحبوا رسول الله ﷺ؛ لأنّ رسول الله ﷺ مات وبالمدينة وما حولها ممّن آمن به وصحبه نحواً من إثني عشر ألفاً، كلّهم اتّفقوا على ولاية أبي بكر وعمر وتفضيلهما، رضي الله عنهم أجمعين، فمن أزرى بواحد منهم هلك، فكيف بمن خالفهم وأزرى على جميعهم، وأصحاب رسول الله ﷺ لا يجتمعون على ضلال، فمن نَسب إليهم أو إلى أحد منهم ظلماً أو ضلالاً فهو الظّالم المضلّ، وهم الهداة والأئمّة الرّاشدون».

المبحث الثّاني

بعض أنوع الحديث التي تناولها أهل القيروان

من الثّابت أنّ علماء القيروان كانوا متابعين للحركة الحديثيّة في المشرق، بحكم الرّحلة المتواصلة إليه للتّحمّل والتّفقّه كما تقدّم[3]، وذلك يستلزم أن يكونوا على علم بأنواع الحديث ومراتبه قبولاً وردّاً، على النّحور الذي عرف عند المشارقة وقعّدوا له ونبّهوا عليه، غير أنّ المادّة العلميّة المتوافرة لم تظهر صورة متكاملة لذلك، وإنّما أظهرت معرفتهم لعدد قليل من هذه الأنواع، سأقوم بذكرها ثمّ أخلص إلى الحديث عن بعض متعلّقات هذا المبحث.

---

(١) تقدمت الإشارة إلى هذا في التمهيد.

(٢) مناقب أبي إسحٰق ٤٧.

(٣) راجع مبحث الرحلة من القيروان إلى المشرق في فصل الرحلة.

أوّلاً: أنواع الحديث المعروفة بالقيروان:

١ ـ **الحديث الصّحيح**: قد نبّه عليه بعض علمائهم، مثل يحيى بن عمر (ت ٢٨٩)[١]، وسعيد بن الحدّاد (ت ٣٠٢)[٢]، هذا بالإضافة إلى شيوع صحيحي البخاري ومسلم بالقيروان في النّصف الثّاني من القرن الرّابع كما تقدّم في ثمرات الرّحلة، وهما أصل في معرفة الحديث الصّحيح، وأصحّ الكتب بعد القرآن الكريم[٣].

وفي الصّحيحين عدّة أبواب مشتملة على قواعد وشروط تتعلّق بقبول الحديث، وردّه وتحمّله ونحوها، من ذلك الأبواب النّافعة الجليلة التي ذكرها الإمام البخاري في كتاب العلم[٤]، مثل باب إثم من كذب على النّبيّ ﷺ، وباب كتابة العلم، وباب حفظ العلم، وباب الحرص على الحديث، وباب القراءة والعرض على المحدّث، وباب ما يذكر في المناولة وكتاب أهل العلم بالعلم إلى البلدان وغيرها. وكذلك المقدّمة المفيدة البديعة التي كتبها الإمام مسلم في مدخل صحيحه[٥]، والتي من أبوابها: وجوب الرّواية عن الثّقات وترك الكذّابين..، تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ، النّهي عن التّحديث بكلّ ما سمع، النّهي عن الرّواية عن الضّعفاء والاحتياط في تحمّلها، بيان أنّ الإسناد من الدّين...

ولا شك أنّ أهل القيروان قد انتفعوا بهذه المباحث وأفادوا منها.

٢ ـ **الحديث الحسن**: ولم أعثر على ذكر له من قبل علمائهم إلّا مرّة واحدة[٦]، رغم أنّه لا يُشك في معرفتهم به؛ لأنّهم كانوا يروون سنن التّرمذي[٧]،

---

(١) انظر: الرياض ١/٤٩٩.

(٢) انظر: الرياض ٢/٥٩.

(٣) انظر: علوم الحديث لابن الصلاح ١٤.

(٤) انظر: صحيح البخاري كتاب العلم ١/٢١ ـ ٤٢.

(٥) صحيح مسلم ١/٣ ـ ٣٥.

(٦) المدارك ٥/١٣٨.

(٧) راجع ثمرات الرحلة.

وهي أصل في معرفة الحديث الحسن، فإنّ التّرمذي هو الذي نوّه بهـذا النّوع وأكثر من ذكره في كتابه[1]، وقـد ذيّل التّـرمذي سننـه بمباحث هـامّة في علل الحديث، وعلوم الرّواية، والجرح والتّعديل، وعرّف المراد بالحديث الحسن في كتابه[2]، كما كانوا يروُون سنن أبي داود[3]، وهي من مظان الحديث الحسن[4].

٣ ـ الحديث الضّعيـف وبعض أنواعه: وقد نبّه على اسمه جماعة من علمائهم منهم الحافظ أبو العرب التّميمي (ت **٣٣٣**)[5]، والإمـام ابن أبي زيد القيرواني (ت **٣٨٦**)[6]، وأبو بكر المالكي (ت بعد **٤٦٤**)[7].

كما عرفوا بعض أنواع الحديث الضّعيف منها: المُنْكَر[8]، المُدَلّس[9]، المُنقطِع[10]، وأطلقوا عليه المقطوع أيضاً[11]، وقد فعل ذلك بعض أهل المشرق وهو اصطلاح غير مشهور[12]، والمُرسَل[13]، والمُعَنْعَن[14]، وغيرها.

ولم أعثر على ما يبيّن مراداً خاصّاً للقرويّين بهذه الاصطلاحات غير مـا أشرت إليه، ولعلّ في ذلك ما يشير إلى أنّ المراد بها عندهم مفاهيمها المعروفة عند محدّثي المشرق.

أمّا الغريب فيستعملونه في ما تفرّد به الرّاوي على أيّ وجه كان[15].

---

(١) علوم الحديث ٣٢، ٣٣.
(٢) انظر: سنن الترمذي ٥/٧٣٦ ـ ٧٦٣.
(٣) راجع ثمرات الرحلة.
(٤) علوم الحديث ٣٢، ٣٣.
(٥) انظر: ط أبي العرب مح ٩٦، ١٠٥، ١٦٠، ١٨٠.
(٦) المدارك ١/٢٠٦.
(٧) الرياض ١/٦٥، ١٣٨، ١٥٤.
(٨) ط أبي العرب مح ٩٤، ١٩٧.
(٩) ط أبي العرب ٩١، ١١٩.
(١٠) ط أبي العرب ١٠٠.
(١١) ط أبي العرب مح ١٩٧.
(١٢) تيسير مصطلح الحديث ١٣٣.
(١٣) الرياض ١/٢٦٧، ط أبي العرب ١، ٢.
(١٤) الملخص خط ل ٢ ب، السنن الأبين ٣٥.
(١٥) انظر: ط أبي العرب مح ٢٥٤، الرياض ١/٩٠، ٢٤٠، ٢٤٨.

٤ ـ **الحديث الموضوع**: وممّن نبّه عليه أبو إسحٰق إبراهيم بن أحمد الجِبِنْيَانِي (ت ٣٦٩)[1]، وسيأتي مزيد من الحديث على هذا النّوع في المتعلّقات.

ثانياً: بعض متعلّقات هذا المبحث:

١ ـ نقد الأحاديث والرّواة عند القرويّين:

وردت بعض الإشارات الدّالّة على اهتمام علماء القيروان ومحدّثيهم بهذا الجانب، ومن مظانّه كتاب «ثقات المحدّثين وضعافهم» لأبي العرب التَّميمي، ولكنّه لم يصلنا[2].

وفيما يلي بعض النّماذج المتعلّقة بذلك:

ـ سئل يحيى بن عمر (ت ٢٨٩)[3]: «جاء في موطّأ ابن وهب قال: حدّثنا سَمُرة بن نُمَير الأموي[4] عن حسين بن عبدالله[5] عن أبيه عن جدّه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ مرّ هو وأصحابه ببني زُرَيْق فسمعوا غناء ولعباً، فقال: ما هذا؟ قالوا: نكاح فلان يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «كمُل دينه، هذا النّكاح لا السّفاح، ولا نكاح حتّى يُسمع دفّ أو يُرى دخان»[6]. قال السّائل: «هل يصحّ عندكم حديث سَمُرَة بن نُمَيْر، وقد علمت أنّ الحارث بن مسكين[7] كان لا يقرأ حديثه؟»، قال يحيى: «بهذا الحديث آخذ، وقد رواه أهل

---

(١) مناقب أبي إسحٰق ١٦.

(٢) سيأتي التعريف به في المصنفات بناء على بعض الإشارات المتعلقة به، وبعض النقول عنه.

(٣) الخبر في كتاب أحكام السوق ليحيى بن عمر ٨١ ـ ٨٣.

(٤) لم أعثر على من ترجم له، وقد وثقه يحيى بن عمر كما سيأتي.

(٥) الحميري المدني، منكر الحديث، متهم بالكذب. انظر: اللسان ٢/٢٨٩، الميزان ١/٥٣٨.

(٦) أخرجه البيهقي في سننه من هذا الطريق بلفظه ٧/٢٩٠.

(٧) أبو عمرو الحارث بن مسكين المصري، فقيه محدث ثقة أخرج له أبو داود والنسائي (ت ٢٥٠ هـ)، انظر: الشجرة ١/٦٧، التقريب ١/١٤٤، حسن المحاضرة ١/٣٠٨.

العلم عن سَمُرَة بن نُمَير عن حسين بن عبدالله بن ضميرة، وسمرة بن نمير ثقة، وإنّما كان الحارث يوقف حديثه (إذا روى عن حسين بن عبدالله)، وأمّا إذا حدّثه سمُرة بن نُمير عن غير حسين بن عبدالله بن ضميرة كان يقرؤه ولا يوقفه».

قلت: تصحيح هذا الحديث تساهل من يحيى بن عمر، فإنّ في سنده حسين بن عبدالله بن ضميرة، وهو شديد الضّعف[1]، وفي كلام يحيى السّابق ما يدلّ على ذلك أيضاً إلّا أن يكون يحيى فعل ذلك بناء على وجود أحاديث صحيحة من طرق أخرى في هذا المعنى مثل حديث: «فصل ما بين الحلال والحرام الدّفّ والصّوت»[2].

ـ وجاء في رسالة بعث بها يحيى بن عمر هذا، إلى حمديس القطّان (ت ٢٨٩) يعظه فيها: وقد صحّ الحديث عن حُذَيفة رضي الله تعالى عنه[3]، أنّ المنافقين اليوم هم أشرّ[4] من المنافقين الذين كانوا في زمن النّبي ﷺ. قيل: «وكيف ذلك يا أبا عبدالله؟»، قال: «لأنّ أولئك إذ ذاك يكتمونه، وهؤلاء اليوم يجهرون به. . .»[5].

(١) انظر: اللسان ٢/٢٨٩، الميزان ١/٥٣٨.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب النكاح باب إعلان النكاح وقال: حديث حسن ٣/٣٩٨/١٠٨٨، والنسائي في كتاب النكاح باب إعلان النكاح ٦/١٢٧، وابن ماجه في أبواب النكاح باب إعلان النكاح وزاد في آخره «في النكاح» ١/٥٨٦/١٩٢٠، وأحمد في مسنده ٤/٢٥٩، والحاكم في المستدرك وصححه ٢/١٨٤، وتابعه على تصحيحه الذهبي في تلخيص المتسدرك ٢/١٨٤، والبيهقي في سننه ٧/٢٨٩، كلهم من طريق محمد بن حاطب.

(٣) هو حذيفة بن اليمان العبسي، من كبار الصحابة، وكان كثيراً ما يسأل رسول الله ﷺ عن الفتن، وكان يعرف المنافقين، وهو معروف في الصحابة بصاحب سر الرسول ﷺ (ت ٣٦ هـ)، انظر: الإصابة ١/٣١٦، الاستيعاب ١/٢٧٦.

(٤) أفعل من الشّرّ، وهي قليلة أو رديئة والأفصح شرّ. انظر: القاموس المحيط ٢/٥٧.

(٥) لم أعثر على لفظ هذا الحديث، وقد ورد حديث صحيح بمعناه، في صحيح البخاري =

ـ وحكم سعيد بن الحداد (ت ٣٠٢)، أثناء مناظراته مع العُبيديّين، بالصّحّة على حديث غدير خُمّ: «من كنت مولاه فعليّ مولاه»، حيث قال: «عرفت الحديث... وهو حديث صحيح، وقد رويناه...»[1]، قلت: والحديث صحيح[2] كما قال ابن الحدّاد.

ـ وللحافظ أبي العرب التّميمي (ت ٣٣٣)، كثير من الأحكام العامّة على حديث بعض الرّواة بالضّعف أو الانقطاع أو النّكارة ونحو ذلك[3]، وله أيضاً أحكام تتعلّق بأحاديث معيّنة من ذلك ما نقله عنه ابن حَجَر في ترجمة أبي القاسم المغربي الزَّوَاوِي[4] من الحكم على حديث الحنّاء الذي يرويه أبو القاسم هذا عن مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً: «لمّا خلق الله الجنّة حفّها بالرّيحان، وحفّ الرّيحان بالحنّاء، وما خلق الله شجرة أحبّ إليه من الحنّاء، وإنّ الخاضب بالحنّاء لتصلّي عليه الملائكة إذا راح»[5]، قال ابن حجَر: «ذكر أبو العرب حافظ القيروان أنّ أبا القاسم هذا تفرّد به عن مالك فقبّح الله من

= عن حذيفة قال: «إنما كان النفاق على عهد رسول الله ﷺ فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان» كتاب الفتن باب إذا قال عند قوم شيئاً ٨/١٠٠.

(١) الرياض ٢/٥٩.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب باب مناقب علي وقال: حسن صحيح ٥/٦٣٣/٣٧١٣، وابن ماجه بمعناه وفي أوله قصة، في فضائل الصحابة باب فضل علي ١/٥٥/١١٩، وأخرجه أحمد بمثله وفي أوله قصة ٤/٣٦٨، كما أخرجه بنحو حديث ابن ماجه في ٤/٤٧٠، كلهم من طريق زيد بن أرقم.
وذكر العجلوني أن هذا الحديث يروى عن ثلاثين من الصحابة بلفظ «اللهم وال من والاه وعادِ من عاداه» ثم قال: «فهو متواتر أو مشهور» كشف الخفاء ٢/٣٦١.

(٣) انظر: ط أبي العرب ١٠٠، ١١١، مح ٩٤، ٩٦، ١٨٢، ١٩٧.

(٤) انظر: الرياض ١/٢٤٨، اللسان ٧/٩٤، وتصحف فيه نسبه إلى الردادي.

(٥) هذا حديث باطل لا يصح عن النبي ﷺ كما في العلل المتناهية ٢/٢٠٢، ولسان الميزان ٣/٤٣، ٤٤، ٧/٩٤، وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٣/٥٦: «وقد رويت أحاديث في فضل الحناء ليس فيها شيء صحيح».

يكذب. انتهى»[1]، وقال المالكي: «قال أبو العرب: سمع من مالك، وروى عنه حديثاً لم أعلمه رواه عنه غيره»[2]، ثمّ ساق الحديث السابق.

ـ وكان لأبي إسحٰق إبراهيم بن أحمد الجِبِنْيَاني (ت ٣٦٩) كلام حول بعض الأحاديث[3]، ومن ذلك حكمه بالوضع على حديث: «إذا بلغ المرء ستّين سنة كان له كذا، وابن سبعين، وابن ثمانين فتكتب حسناته ولا تكتب سيئاته»، قال أبو إسحٰق: «هذا حديث موضوع، لو زنى ابن ثمانين لحددناه، ولو قتل لقتلناه، ولو سرق لقطعناه»[4].

قلت: وهو كما قال، فقد أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من عدّة طرق كلّها باطلة. عن أَنَس مرفوعاً، وموقوفاً[5]، ولم أعثر على من تعقّبه في ذلك.

ـ وقال الإمام عبدالله بن أبي زيد القيروان (ت ٣٨٦) في الرّسالة المنسوبة إلى مالك في السّنن والآداب وأنّه بعثها إلى هارون الرّشيد: «طريقها لمالك ضعيف، وفيه أحاديث لا نعرفها»[6].

ـ وحكم أبو بكر المالكي (ت بعد ٤٦٤) على عدّة أحاديث بأنّها غريبة[7]، من ذلك قوله في ترجمة أبي عبدالرحمن الحُبُلِيّ التّابعي[8]: وأغرب بحديث السّجلاّت: عن أبي عبدالرحمن الحُبُلِيّ أنّه قال: سمعت عبدالله بن عمرو بن

---

(١) اللسان ٩٤/٧.
(٢) الرياض ٢٤٨/١.
(٣) انظر مثلاً: مناقب أبي إسحٰق ١٥.
(٤) مناقب أبي إسحٰق ١٦.
(٥) الموضوعات باب صرف أنواع البلاء عن المعمرين ١٧٩/١ ـ ١٨١.
(٦) المدارك ٢٠٦/١.
(٧) انظر مثلاً: الرياض ٨٧/١، ٩٠، ٩٩، ١١٢، ١٣٢، ٢٣٣.
(٨) الرياض ٩٩/١، ١٠٠.

العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «يُصاح برجل من أمّتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلاً كل سجلّ منها مدّ البصر. . . الحديث»[1].

قلت: وهو كما قال، حيث لم أجد من روى هذا الحديث عن عبدالله بن عمرو غير أبي عبدالرحمن الحُبُلِيّ، ولم يأت من غير طريق عبدالله بن عمرو، وقد قال التّرمذي: «هذا حديث حسن غريب»[2].

٢ ـ الوضع في الحديث ومدى معالجته في القيروان:

لقد وُجدت في القيروان أحاديث موضوعة[3]، كما هو الحال في غيرها من المدن العلميّة بالمشرق، خاصّة وقد حكمها الرّافضة لمدة ٦٦سنة[4]، وهم أكثر الطّوائف كذباً على رسول الله ﷺ، وأجرؤهم على ذلك، بل إنّهم أصل الكذب في الحديث وخاصّة أحاديث الفضائل[5].

كما عرف بعض القرويّين بأنّ أحاديثهم موضوعة، غير أنّ عددهم محدود، مع خلاف في بعضهم، وأكثرهم لم يترجم له الأفارقة، وإنّما عثرت عليه وعلى وصفه بالوضع في كتب أهل المشرق.

---

(١) أخرجه الترمذي بنحوه في كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله وقال: حسن غريب ٥/٢٤/٢٦٣٩، وابن ماجه بنحوه في أبواب الزهد باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ٢/٥٧٨/٤٣٦٨، وأحمد في مسنده بنحوه ٢/٢١٣، كلهم من هذا الطريق.

(٢) سنن الترمذي ٥/٢٥، نفس الكتاب والباب أعلاه.

(٣) انظر مثلاً: الرياض ١/١١٢، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٨٣، ٢/٣٥٤، ٤٦٦، ط أبي العرب ٥٨، كتاب الأجوبة لمحمد بن سحنون خط ١ ب.

(٤) راجع الوضع السياسي في التمهيد.

(٥) انظر: الكفاية ٢٠٢، ٢٠٣، الأسرار المرفوعة ٤٧٦، ٤٧٧، الفوائد الموضوعة ٥٦، كتاب فضائل إفريقية للمطوي ١٢.

وهؤلاء المتّهمون بالوضع خمسة، هم:

أ ــ **جَبْرُون بن وَاقِد الإفْريقيّ**[1]: ويظهر أنّه هاجر إلى المشرق، ولم يعد؛ لأنّه كان يحدّث ببيت المقدس، ولم أجد له ذكراً في كتب الأفارقة.

وهو متّهم بالوضع، ليس بثقة، أحاديثه موضوعة، وله حديث في سنن الدّارقطني حكم عليه الذّهبي وغيره بالوضع.

ب ــ **داود بن يحيى الصّوفي الإفريقيّ (ت ٢٤٩)**: وفي اتّهامه خلاف بين القرويّين وبين أهل المشرق، فقد بالغ أبو العرب في توثيقه حيث قال: «كان ثقة مأموناً، رجلاً صالحاً، فقيراً متعفّفاً. . .»[2]، وتابعه الدَّبّاغ على ذلك[3].

أمّا المشارقة فقد اتّهموه بسبب قول ابن يونس[4]: «حدّث. . . أحاديث موضوعة»[5]، ونقلها الذّهبي عنه بلفظ مُوهِم وغير دقيق فقال[6]: قال ابن يونس: «أحاديثه موضوعة».

والفرق واضح بين اللّفظين، ولذلك تعقّبه ابن حجَر بإيراد اللّفظ الصّحيح[7].

قلت: وهو ثقة كما قال أبو العرب، والآفة فيما ورد عنه من الأحاديث الموضوعة ممّن دونه، وهو يحيى بن محمد بن خُشَيْش[8] الآتي ذكره قريباً.

---

(١) انظر عنه: الميزان ١/٣٨٧، اللسان ٢/٩٤، الكامل لابن عدي ٢/٦٠١، الديوان للذهبي ٤٢، سنن الدارقطني ٤/١٤٥.

(٢) ط أبي العرب ١٠٩.

(٣) المعالم ٢/١٢٠ وفيه «الصواف».

(٤) هو الحافظ أبو سعيد عبدالرحمٰن بن أحمد بن يونس الصدفي المصري (٢٨١ - ٣٤٧) صاحب تاريخ مصر، والناس عيال على كتابه فيما يخص قدماء رجال مصر وإفريقية. انظر عنه: حسن المحاضرة ١/٣٥١.

(٥) اللسان ٢/٤٢٦.

(٦) الميزان ٢/٢١.

(٧) اللسان ٢/٤٢٦.

(٨) انظر تحديثه عنه في: اللسان ٢/٤٢٦.

جـ ـ عثمان بن محمد بن خُشَيْش[1]: ذكره ابن حَجَر في اللّسان ولم يزد على قوله:

«له ذكر في ترجمة عبدالله بن عمر بن غانم»[2]، وجاء في الميزان، في ترجمة ابن غانم بعد ذكر حديثين باطلين: «لعلّ الآفة في الخبرين من عثمان صاحبه»[3]، وقال المعلمي في تحقيقه لكتاب الأنساب بعد أن ذكر الخبرين وتبرئة ابن غانم من التّحديث بهما[4]: «... ويظهر أنّ عثمان بن محمد بن خُشَيْش أخ خامل ليحيى بن محمد بن خُشَيْش، وقد وضع له أخوه تلك النّسخة[5]، وضمّنها أكاذيبه بأسانيد أخرى، والله المستعان».

وقد جاء في الأنساب أنّ عثمان هذا يحدّث بنسخة موضوعة عن ابن غانم عن مالك[6].

قلت: لم يرد له ذكر فيما وقفت عليه من كتب أهل إفريقيّة والمغرب.

د ـ يحيى بن محمد بن خُشَيْش الإفْريقي (ت ٢٨٠ ببغداد): ليس له ذكر في كتب الأفارقة وجاء ذكره عرضاً في ترتيب المدارك[7]. وقد روى عن بعض أهل القيروان، ثمّ رحل إلى المشرق واستقرّ في بغداد، وحدّث بها، وهناك جاء بالطّامّات، وحدّث بالأباطيل. قال الذّهبي في الميزان: «صاحب مناكير»، وقال ابن حَجَر في اللّسان: «ضعّفه الدّارقطني»، وقال الخطيب: «قدم بغداد وحدّث بها... وفي حديثه غرائب ومناكير»[8].

---

(١) ورد هذا الاسم بالحاء في بعض المصادر وبالخاء في بعضها الآخر وبه أخذت بناء علي ما جاء في الإكمال ٣/١٥١.

(٢) اللسان ٤/١٥٢.

(٣) الميزان ٢/٤٦٤، وانظر: الكشف الحثيث ٢٨٨، وألاحظ أن اسم هذا الرجل ورد ناقصاً من أوله في ثنايا الترجمة في الميزان: محمد بن خشيس بدل عثمان بن محمد.

(٤)، (٥)، (٦) انظر: الأنساب ١/٣٢٥ فما بعدها.

(٧) المدارك ٤/٢٣٦. (٨) تاريخ بغداد ٤/٢٢٣.

قلت: والأحاديث التي وردت من طريقه كلّها باطلة، وقد تفرّد بها كما في المصادر[1].

هـ ــ **أبو القاسم الزَّوَاوِيّ**: من تلاميذ مالك، تفرّد بحديث باطل هو حديث الحِنّاء، وقد تقدّم سياقه وبيان درجته قريباً، قال أبو العرب: «لم أعلمه رواه... غيره»[2]، وقال ابن حجر: «وهذا حديث باطل... ذكر أبو العرب حافظ القيروان أنّ أبا القاسم هذا تفرّد به عن مالك فقبّح الله من يكذب»[3].

أمّا فيما يتعلّق بمعالجة علماء القيروان ومحدّثيهم للوضع، فلم يرد ما يدلّ على أنه كان لهم نشاط كبير في هذا الجانب، حيث لم يقع مثلاً جمع هذه الأحاديث في مصنّف مع التّنبيه على بطلانها، وإنّما هناك إشارات تدلّ على أنّ بعض العلماء قاموا بجهود لصيانة الحديث الشّريف من أن يتطرّق إليه الوضع، من ذلك ما كان يفعله الإمام سَحنون (ت ٢٤٠)، فإنّه وجد في نسخة أحد الطلاب حديثاً ليس في نسخته، فلمّا قرأه الطّالب أنكره عليه وصاح: «من أين دخل هذا الحديث في كتابك؟»، ثمّ أمره بمحوه[4].

كما كان أبو إسحٰق الجِبِنْيَانِي (ت ٣٦٩)، يتشدّد مع من يروي أحاديث لم تثبت صحّتها عن النبي ﷺ[5]، وينبّه على الموضوع أحياناً[8].

ويمكن أن نعتبر من معالجة الوضع ما قام به أبو العرب (ت ٣٣٣)[7] والمالكي (ت ٤٦٤)[8] من التّنبيه على الأفراد والغرائب لاحتمال أن تكون موضوعة فيجتنبها النّاس.

---

(١) انظر: الميزان ٤/٤٠٨، اللسان ٦/٢٧٦، حاشية الأنساب ١/٣٢٥، وجاء ذكره في الإكمال ٣/١٥١، الكشف الحثيث ٤٦١.

(٢) الرياض ١/٢٤٨.

(٣) اللسان ٧/٩٤.

(٤) انظر: الرياض ١/٣٧٣.

(٥) انظر: مناقب أبي إسحٰق ١٥.

(٦) م. ن ١٦.

(٧) انظر: ط أبي العر مح ٢٥٤، الرياض ١/٢٤٨.

(٨) انظر: الرياض ١/٩٠، ٩٩، ٢٤٠، ٢٤٨.

وسأقوم فيما يلي بدراسة بعض أحاديث فضائل إفريقيَّة كنموذج للأحاديث الموضوعة لدى الأفارقة.

٣ ـ أحاديث فضائل إفريقيَّة:

أ ـ كلمة في أحاديث فضائل البلدان عامّة: لقد نالت أحاديث فضائل البلدان نصيباً وافراً من الوضع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: «إنّ الأحاديث المنكرة والموضوعة أكثر ما تروى في فضائل الأوقات والعبادات والبقاع».

وسبب ذلك ما في الطّبع من حبّ الوطن، بالإضافة إلى تسامح بعض العلماء في انتقاد أسانيدها لعدم تعلّقها بالحلال والحرام، قال ابن عبدالبرّ[٢]: «أحاديث الفضائل تسامح العلماء قديماً في روايتها عن كلّ، ولم ينتقدوا فيها كانتقادهم في أحاديث الأحكام»، وذكر الخطيب البغدادي عن بعض العلماء نحو هذا[٣].

وقد وقع في هذا بعض أهل الحديث أيضاً، حيث قاموا بتصدير بعض مصنّفاتهم بما رووه في فضائل بلادهم، قال محمد بن علي الشَّوْكاني[٤]: «وقد توسّع المؤرّخون في ذكر الأحاديث الباطلة في فضائل البلدان، ولا سيما بلدانهم، فإنّهم يتساهلون في ذلك غاية التّساهل، ويذكرون الموضوع، ولا ينبّهون عليه كما فعل (ابن) الدَّيْبَع[٥] في تاريخه الذي سمّاه: «قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون»، وتاريخه الآخر الذي سمّاه: «بغية المستفيد بأخبار مدينة زَبِيد»، مع كونه مع أهل الحديث، وممّن لا يخفى عليه بطلان ذلك، فليحذر المتديّن

---

(١) الفتاوى ١/٢٥٠.

(٢) جامع بيان العلم ١/٤٥.

(٣) الكفاية ٢١٢.

(٤) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ٤٣٦، ٤٣٧.

(٥) هو المحدث عبدالرحمٰن بن علي المعروف بابن الدَّيْبَع الشَّيْبَانِيّ الزَّبِيدي الشّافعي (ت ٩٤٤ هـ)، انظر ترجمته في: مقدمة كتابه تيسير الوصول إلى جامع الأصول ١/ط.

من اعتقاد شيء منها أو روايته، فإنّ الكذب في هذا قد كثر وجاوز الحدّ، وسببه ما جُبلت عليه القلوب من حبّ الأوطان والشّغف بالمنشأ».

ب ـ مصادر أحاديث فضائل إفريقيّة: لقد وقع أبو العرب التّميمي **(ت ٣٣٣)** الحافظ المجمع على توثيقه[١]، فيما وقع فيه ابن الدَّبّاغ وغيره، فصدّر طبقاته بأحاديث في فضائل إفريقيَّة[٢]، وهو أوّل من دوّنها من الأفارقة فيما وصل إلينا، فإنّ الكتب التي صنّفها أهل القيروان في تاريخ بلادهم ورجالها قبل أبي العرب لم يصلنا منها شيء، مثل كتاب أبي بكر السُّوسي[٣]، وكتاب فتوح إفريقيّة لعيسى بن أبي المُهاجر (ق ٣)[٤]، وكُتُب محمد بن سَحنون في الطّبقات والتاريخ[٥]، إلا أنّ الباحث يشكّ في اشتمال هذه الكتب على أحاديث فضائل إفريقيَّة، لأنّ أغلب الكتب التي جاءت بعد أبي العرب، وفيها هذه الأحاديث قد صرّحت بالنّقل عنه، ومن حذف السّند منهم ولم يصرّح بالنّقل عرف نقله عنه بالمقارنة.

ومن الكتب التي ذكرت بعض هذه الأحاديث ما يلي:

ـ رياض النّفوس لأبي بكر المالكي (ت بعد ٤٦٤)[٦].

ـ معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لعبدالرحمن بن محمد الدّبّاغ (٦٠٥ ـ ٦٩٦ هـ)[٧].

ـ صلة السّمط لمحمد بن علي بن الشَّبّاط (٦١٦ ـ ٦٨١)، وهو مخطوط، وقد صرّح صاحب المؤنس بنقل ابن الشَّبّاط عن أبي العرب[٨].

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في ترجمته رقم ٣٠ في المحدثين.
(٢) طبقات علماء إفريقية ١ ـ ١١.
(٣) ط أبي العرب ١٥، ١٨.
(٤) ط أبي العرب ١٢٠، ورقات ١/٦٩.
(٥) انظر قائمة مؤلفاته في: ترجمته رقم ٣٢ في المحدثين.
(٦) الرياض ١/٥ ـ ٩.
(٧) المعالم ١/٤، ٦.
(٨) المؤنس ٢٠.

ـ البيان المغرب، في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المـرّاكشي (كان حيّاً سنة ٧١٢)[١].

ـ رحلة أبي محمد عبدالله بن محمد التّجاني (كان حياً سنة ٧١٧)[٢].

ـ المؤنس في أخبار إفريقيَّة، وتونُس، لأبي عبدالله محمد بن أبي القاسم الرُّعَيْني، المعروف بابن أبي دينار (كان حيّاً سنة ١١١٠ هـ)[٣].

ـ الحُلل السّنـدسيّة في الأخبـار التّونُسيّـة لمحمـد بن محمـد الأنـدلسي المعروف بالوزير السّرّاج (ت ١١٤٩)[٤].

أمّا كتب المشارقـة فلم أعثر فيمـا وقفت عليه منهـا على أيّ ذكر لهـذه الأحاديث مع أنّ اطّلاع بعض كبار حفّاظهم عليها ثابت، فإنّ الحافظ ابن حَجَر قد اطّلع على طبقات أبي العرب[٥]، ورياض النّفوس للمالكي[٦] ونقل عنهما، كما نقل عنهما أيضاً الحافظ الذّهبي[٧].

وبالرّغم من شيوع هذه الأحاديث في كثير من كتب أهل المغرب فإنّها لم تحظ حتّى الآن بالنّقد والتّمحيص اللّازمين لحماية السُّنّة المطهّرة من كلّ ما هو منتحل، وتمييز صحيحها من السّقيم المكذوب على رسول الله ﷺ، ونجد أنّ من تعرّض لها من المصنّفين لا يزيد على كلمة عامّة حولها أو يتعرّض لنقد بعض رجالها، قال الشّيخ الشّاذلي النّيفر: «ولم أر من تكلّم على هذه الأحاديث من

---

(١) البيان المغرب ١/٦، ٧.

(٢) رحلة التجاني ٣٠.

(٣) المؤنس ٢٠.

(٤) الحلل ١/١/٢٣١ فما بعدها.

(٥) انظر: اللسان ٢/٦٨، ٣/٨، ٢٣٣، التهـذيب ١/٤٨٤، ٢/٧٩، الإصابـة ١/٣٧٢، ٧٦٦.

(٦) انظر: اللسان ٢/٦٨، ٣/٣٥٤، التهذيب ٥/٣٣٢، ٦/٨٢.

(٧) نقل عن أبي العرب في سير أعلام ٢/٦٨، ١٠٨، ونقل عن المالكي في سير أعلام ١٢/٦٩، ١٣/٦١.

النّاحية السّنديّة، وبحث في رجالها ونظر في متونها نظراً ثاقباً فأثبت صحّتها أو زيفها، غير أنّ هناك كلمة مقتضبة في رحلة التّجاني[1] لا تسمن ولا تغني من جوع، مع أنّ المؤرّخين من الأفارقة كادوا أن يكونوا مجمعين على ذكرها، ومن أوردها منهم وتبرّأ من تبعتها لم يكن يأت من ذلك إلاّ بمجرّد الرّأي دون تدقيق وتمحيص»[2].

وقد بدأ الشّيخ الشّاذلي فعلا في دراسة هذه الأحاديث منذ أكثر من أربعين سنة، ولكن يبدو أنّ هناك ظروفاً حالت دون أن يتمّها؛ لأنّه لم يزد على التّكلّم على بعض رجال ستّة أحاديث فقط[3] من أحاديث الفضائل التي تصل إلى اثنين وثلاثين، بين مرفوع ومُرْسَل وموقوف ومنقطع.

ثمّ قام الأستاذ محمد العروسي المطوي بجمع هذه الأحاديث في دراسة سمّاها: «فضائل إفريقيّة في الآثار والأحاديث الموضوعة»[4] وقد بذل فيها جهداً طيّباً، غير أنّه لم يتكلّم إلا على ثلاثة فقط من رجال هذه الأحاديث، وبما أنّه لم يكن من أهل الاختصاص الدّقيق فقد وقع في بعض الأخطاء منها: حكمه بالوضع على خبر نداء عُقبة بن نافع[5]، في الحيّات عند تأسيس القيروان، واعتبره مجرّد أسطورة[6]، مع أنّ الحافظ ابن حجر ـ وناهيك به ـ قد حكم على إسنادها بأنّه حسن[7].

---

(١) ص ٣٠ ـ ٣٢.

(٢) المجلة الزيتونية المجلد ٦، ١٣٦٤ هـ. ص ٤٦٧.

(٣) المجلة الزيتونية المجلد ٦، ١٣٦٤ هـ. ص ٤٦٧ ـ ٤٦٩، ٥٦٩ ـ ٥٧١.

(٤) نشرتها دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ سنة ١٤٠٣ هـ.

(٥) الصحيح أن عقبة بن نافع هو الذي وقع معه هذا كما تقدم في التمهيد وكما هو موجود في معظم المصادر وذكر الواقدي أنه عقبة بن عامر وأورد أبو العرب الروايتين ط أبي العرب ٨، ٩ فتوح إفريقية للواقدي ٣، ٤.

(٦) فضائل إفريقية ٦٣ فما بعدها.

(٧) الإصابة ٨٠/٣، وذلك بناء على سند هذا الحديث في تاريخ خليفة ص ٢١٠، وهو كما =

كما أخطأ الأستاذ المطوي خطأ فادحاً في حقّ الحافظ أبي العرب التّميمي حيث اتّهمه بالوضع، مع اتّفاق الجميع على توثيقه كما تقدّم وكما سيأتي في ترجمته، قال الأستاذ: «... فإنّنا نجده ينتهز فرصة ثورة صاحب الحمار ليقول في جموع المتجمهرين حديثاً منسوباً إلى الرّسول عليه السّلام لا شكّ في وضعه»[1].

والحديث المشار إليه هو حديث الرّافضة، وسيأتي سياقه وتخريجه في ترجمة أبي العرب[2]، ولا تثريب على أبي العرب في رواية هذا الحديث، لأنّه رواه بسنده إلى مسند ابن سنجر، وسماعه له معروف[3]، ولا يمكن أن يكون انتحله؛ لأنّ المسند كان منتشراً بالقيروان، فلو لم يكن فيه هذا الحديث لردّ عليه المحدّثون والفقهاء الذين غصّ بهم المسجد آنذاك للنّظر في أمر الخروج على بني عُبيد[4]. ثم إنّ الحديث ليس بموضوع كما سيأتي عند تخريجه.

وقبل أن أمرّ إلى دراسة هذه الأحاديث أرى أنّه ينبغي التّنبيه على وجود بعض الأئمّة الثّقات من الأفارقة والمشارقة في بعض أسانيدها مثل الإمام سَحنون بن سعيد، والبُهلول بن راشد، وموسى الصُّمادِحِي، وعبدالله بن غانم، وسفيان بن عُيّينة واللّيث بن سعد، وغيرهم.

ويُفسَّر وجود هؤلاء الأئمّة في هذه الأسانيد بأنّه من وضع وتلفيق من هو دونهم من الرّواة الوضّاعين والمتروكين كما سيأتي، وهذا هو الاحتمال الأقوى

= قال، فإن سائر رجاله ثقات إلا محمد بن عمرو بن علقمة فهو صدوق له أوهام كما في (التقريب ١٩٦/٢)، وقد احتج به الأربعة، وروى له البخاري مقروناً بغيره، ومسلم في المتابعات (التهذيب ٣٧٥/٩، الكاشف ٧٥/٣).

(١) فضائل إفريقية ٨٥.

(٢)، (٣) انظر: ترجمته رقم ٣٠ في المحدثين.

(٤) الرياض ٣٠٩/٢، ٣١٠.

والأصوب، أمّا تحديثهم بها فهو احتمال ضعيف جدّاً، وإن ثبت ذلك فتكون عهدتهم فيها على من سبقهم من رواتها؛ لأنّهم ذكروها بأسانيدها.

جـ ـ دراسة أحاديث فضائل إفريقيَّة: سأقوم بدراسة هذه الأحاديث حسب الأسانيد الواردة في طبقات أبي العرب؛ لأنّه أوّل من ذكرها، كما تقدّم، وهو الوحيد الذي أوردها مسندة، وقد اقتصرت على ذكر المرفوع منها ونحوه فإنّه عنوان على ما عداه:

١ ـ قال أبو العرب: حدّثني فُرات بن محمد قال: حدثنا عبدالله بن أبي حسّان عن عبدالرحمن بن زياد عن أبي عبدالرحمن الحُبُلِيّ عن عبدالله بن عمرو أنّ النّبيّ ﷺ قال: «ليأتينّ أناس من أمّتي من إفريقيَّة يوم القيامة، وجوههم أفضل نوراً من نور القمر ليلة البدر»[1].

٢ ـ وقال: حدثني فُرات قال: حدثني موسى بن سليمان وأبو مسلم عبدالرحمن بن الجهم عن عبدالرحمن بن زياد عن أبي عبدالرحمن الحُبُلِيّ عن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ: «ليحشرنّ قوم من أمّتي من إفريقيّة يوم القيامة وجوههم أنْور من نور القمر ليلة البدر»[2].

٣ ـ وقال: حدثني فُرات بن محمد قال: حدثنا موسى بن معاوية عن أبيه معاوية عن عبدالرحمن بن زياد بن أَنْعُم عن أبي عبدالرحمن الحُبُلي قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر من إفريقيّة قوم وجوههم مثل القمر ليلة البدر»[3].

هذا حديث واحد كما هو واضح، غير أنّه روي بأسانيد بينها اختلاف يسير، وبألفاظ متقاربة.

---

(١) ط أبي العرب ١، الحلل السندسية ١/١/٢٣٦، ٢٣٧، المعالم ١/٤، المؤنس ٢١.
(٢) ط أبي العرب ١، ٢، الحلل ١/١/٢٣٦.
(٣) ط أبي العرب ٢، الحلل ١/١/٢٣٦.

أحوال رجال هذا الحديث:

ـ فُرات بن محمد العَبْدي، شيخ أبي العرب، متّهم بالكذب أو معروف به[١]، فهو متروك الحديث.

ـ عبدالله بن أبي حسّان اليحصبي: ثقة، له بعض الغرائب[٢].

ـ أبو مسلم عبدالرحمن بن الجَهْم الخولاني، قال أبو العرب: «ما علمت أحداً ذكره بسوء»[٣].

ـ موسى بن سليمان: لم أعثر عليه.

ـ موسى بن معاوية الصُّمادحي: ثقة[٤].

ـ معاوية بن الفضل الصُّمادحي، والد موسى: ثقة[٥].

ـ عبدالرحمن بن زياد الإفريقي: اختلفوا فيه كثيراً وهو صدوق في حديثه بعض المناكير[٦].

ـ أبو عبدالرحمن الحُبُلي هو عبدالله بن يزيد: من أئمّة التّابعين، أجمعوا على توثيقه[٧].

---

(١) انظر: اللسان ٤/٤٣٢، تنزيه الشريعة ١/٩٥، طبقات الخشني ١٤١.

(٢) انظر: ط أبي العرب مح ١٥٥، المعالم ٢/٥٨، الرياض ١/٢٨٤.

(٣) ط أبي العرب مح ١٥٧.

(٤) ط أبي العرب ١٠٦، الرياض ١/٣٧٦، المدارك ٣/٥، سير أعلام ١٢/١٠٨.

(٥) ط أبي العرب مح ٢٣٢، الرياض ١/٢٣١، المعالم ١/٣١٧.

(٦) انظر تفصل ذلك في: ترجمته رقم ١٦ في المحدثين.

(٧) التقريب ١/٤٦٢، ثقات ابن حبان ٥/٥١، ثقات العجلي ٢٨٣، الكاشف ٢/١٢٨، التهذيب ٦/٨١، تاريخ الإسلام ٤/٨١، تهذيب الكمال ٢/٧٥٧.

الحكم على الحديث:

هذا حديث ضعيف جدّاً ظاهر البطلان، وطريقه الثّالثة مرسلة؛ لأنّ الحُبُلي تابعي، وفيه فُرات بن محمد وهو متّهم بالكذب، وإذا ثبت تحديث عبدالرحمن بن زياد به فهو من مناكيره، هذا بالإضافة إلى ما فيه من الاضطراب حيث رُوي مرفوعاً ورُوي مرسلاً.

٤ ـ قال أبو العرب: وحدّثني فُرات قال: حدثني خَلَف بن محمد أبو محمد القابِسي قال: حدثنا البُهلول بن راشد قال: حدثنا عبّاد بن كَثير عن لَيث بن أبي سُليم عن مجاهد عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بساحل قَمُونِيَة[1] باب من أبواب الجنّة يقال له: المُنَسْتِير[2] من دخله فبرحمة الله، ومن خرج عنه فبعفو الله»[3].

ورواه أبو العرب عن فُرات من طريق آخر فقال: حدثني فُرات قال: حدثنا خلَف بن محمد قال: حدثنا عبدالله بن عمر بن غانم قال: حدثني ابن لَهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الطّفيل عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ... الحديث.

أحوال رجال هذا الحديث:

ـ فُرات متّهم بالكذب وقد تقدّم.

---

(١) قَمُونِيَة أو قُونِيَة هو موضع مدينة القيروان قبل تأسيسها. انظر: الرياض ١/٢٠، معجم البلدان ٤/٣٩٩، ٤١٥.

(٢) المُنَسْتِير: مدينة على ساحل الجمهوريّة التونُسيّة من جهة الشّمال، وهي من ثغور إفريقيّة القديمة. معجم البلدان ٥/٢٠٩.

(٣) ط أبي العرب مح ٤٥، ٤٦، وانظر: الحلل السندسية ١/١/٢٤٠، الرياض ١/٧، ذكرى المازري ٣٦، رحلة التجاني ٣١، المعالم ١/٥.

ـ خلَف بن محمد القابِسي، وثّقه أبو العرب[1].

ـ البُهلول بن راشد: ثقة[2].

ـ عبّاد بن كَثير الثَّقَفي البصري: متروك، يحدّث بالأكاذيب[3].

ـ لَيث بن أبي سُليم القُرشي، أبو بكر: صدوق، لكنه اختلط فجاء بالمناكير، ولم يتميّز حديثه فضعّف حديثه عند عدم وجود من يتابعه عليه، وأمّا رواية الإمام مسلم عنه فهي مبنيّة على الانتفاء بالإضافة إلى أنّه روى له مقروناً بغيره[4].

ـ عبدالله بن لَهِيعة الحضرمي المصري: أمره دائر بين الضّعف والتّرك، والعمل على تضعيفه لتهاونه بالضّبط، وروايته المناكير وتحديثه بما ليس من حديثه، ومن العلماء من استثنى رواية الأئمّة عنه لمقدرتهم على التّمييز، وقد روى له الإمام مسلم شيئاً يسيراً مقروناً بغيره كما هو صنيعه في أمثاله، وهذا مبنيّ على الانتقاء[5].

ـ عبدالله بن عمر بن غانم: ثقة[6].

---

(١) ط أبي العرب مح ٢٠٢.

(٢) انظر: ترجمته رقم ٥ في المحدثين.

(٣) سير أعلام ٧/١٠٦، المجروحين ٢/١٦٦، التقريب ١/٣٩٣، الكشف الحثيث ٢٢٢، التهذيب ٥/١٠٠، الميزان ٢/٣٧١، الديوان ١٦٠، أحوال الرجال ١٠٦.

(٤) انظر: التهذيب ٨/٤٦٦، الميزان ٣/٤٢٠، أحوال الرجال ٩١، التقريب ٢/١٣٨، الكاشف ٣/١٣، الديوان ٢٥٩، الكامل ٦/٢١٠٥.

(٥) انظر: التهذيب ٥/٣٧٣، التقريب ١/٤٤٤، المجروحين ٢/١٠، طبقات المدلسين ٥٤، الكاشف ٢/١٠٩، الخلاصة ٢١١، الديوان ١٧٥، المغني في الضعفاء ١/٣٥٢، أحوال الرجال ١٥٥، الضعفاء الصغير ١٣٥، الضعفاء الكبير ٢/٢٩٣، الكامل ٤/١٤٦٢، سير أعلام ٨/١١، الكشف الحثيث ٢٨١.

(٦) انظر: ترجمته رقم ٢١ في المحدثين.

ـ يزيد بن أبي حبيب المصري: ثقة يرسل[1].

ـ أبو الطّفيل عامر بن واثلة الكناني اللّيثي، صحابيّ صغير[2].

الحكم على الحديث:

هذا حديث باطل، لا يصحّ عن النّبيّ ﷺ، في سنده الأول فُرات وهو متّهم بالكذب، وعبّاد بن كَثير وهو وضّاع كما تقدّم.

وفي سنده الثّاني فُرات أيضاً، وابن لَهِيعة وأمره دائر بين الضّعف والتّرك كما تقدّم.

٥ ـ قال أبو العرب: «وحدّثني فُرات قال: حدثنا عبـدالله بن أبي حسّان اليَحْصُبِيّ عن أبيه وعن سفيان بن عُيَيْنة عن عبدالله بن دينار عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من رابط بالمُنَسْتِير ثلاثة أيّام وجبت له الجَنّة»، قال أنس: بخ بخ يا رسول الله، قال: «نعم يا أنس، وله في هذه الثّلاثة الأيّام كأجر النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين»[3].

أحوال رجال السّند:

ـ فُرات وعبدالله بن أبي حسّـان تقدم الكـلام عنهما، ففُـرات متّهم بالكـذب، وعبدالله ثقة يغرب.

ـ أبو حسّان اليحصبي: مجهول العين، لم يرو عنه غير ابنه عبدالله ولم يوثّقه أحد فيما وقفت عليه، فروايته مردودة.

---

(١) التقريب ٢/٣٦٣، الكاشف ٣/٢٤١.

(٢) انظر: التجريد ١/٢٨٩.

(٣) ط أبي العرب ٣، وانظر: الحلل ١/١/٢٤٠، المعالم ١/٥، رحلة التجاني ٣١.

ـ سفيان بن عُيَينة: ثقة حافظ إمام حجّة[1].

ـ عبدالله بن دينار العَدَوِي، أبو عبدالرّحمن المدني: ثقة[2].

الحكم على الحديث:

هذا حديث شديد الضّعف جدّاً، ظاهر البُطلان، فإنّ في سنده فُرات وهو متّهم بالكذب، والوضع عليه بيّن، لما فيه من المجازفة والوعد بالثّواب العظيم على العمل القليل، وذلك من علامات الوضع[3]، ثمّ ما الذي يجعل رباط المُنَسْتِير يختصّ بهذا الفضل على سائر الرّبط، وكذلك لفظ «بخ بخ» لا يتصوّر صدوره من أنس، وإنّما يتصوّر صدوره ممّن هو قريب من سنّ الرّسول ﷺ من كبار الصّحابة.

٦ ـ قال أبو العرب: «وحدثني فُرات قال: حدثني عبدالله بن أبي حسّان عن عبدالرحمن بن زياد، و(حدثني) موسى بن معاوية عن أبيه عن عبدالرحمن بن زياد عن أبي عبدالرحمن الحُبُلِيّ قال: قال النّبيّ ﷺ: «ينقطع الجهاد من البُلدان كلّها، فلا يبقى إلاّ بموضع هو في المغرب يقال له: إفريقيَّة، فبينما القوم بإزاء عدوّهم، نظروا إلى الجبال قد سيّرت فيخرّون لله تبارك وتعالى سجّداً، فلا ينزع عنهم أخلاقَهم ـ يعني ثيابَهم ـ إلا خُدّامهم في الجنّة»[4].

أحوال رجال السّند:

سبق ذكر أحوالهم في الأحاديث السّابقة، ففُرات متّهم بالكذب، وموسى

---

(١) التقريب ٣١٢/١.

(٢) التقريب ٤١٣/١، التهذيب ٢٠١/٥.

(٣) انظر: المنار المنيف ٥٠.

(٤) ط أبي العرب ٤، وانظر: الحلل ٢٣٩/١/١، مسالك البكري ٢٢، المعالم ٥/١، الرياض ٦/١.

وأبوه والحُبُلي ثقات، والإفريقي صدوق في حديثه بعض المناكير، وابن أبي حسّان ثقة يغرب.

الحكم على الحديث:

هذا حديث باطل، ظاهر الوضع، لا يصحّ عن النّبيّ ﷺ، وقد اجتمعت فيه جملة من العلل، فهو معلّ بالإرسال وفيه فُرات وهو متّهم بالكذب، أمّا المتن ففيه مجازفة ظاهرة هي الجزم بانقطاع الجهاد من على الأرض إلا من إفريقيَّة، والسّماجة بيّنة في ألفاظه، كما أنّه مناف لما هو مقطوع به من أنّ الساعة لا تقوم إلّا على شرار الخلق وقد نبّه إلى ذلك الشّيخ الشّاذلي النّيفر[1]، ومن هذه الأحاديث حديث أنس يرفعه: «لا تقوم السّاعة على أحد يقول: الله، الله»[2]، وحديث عبدالله بن عمرو: «لا تقوم السّاعة إلّا على شرار الخلق... ثمّ يبقى شرار النّاس عليهم تقوم السّاعة»[3].

قلت: ولا يعكّر على هذا حديث الطّائفة المنصورة، وأنّها ستبقى ظاهرة إلى قيام السّاعة[4] فقد ورد في صحيح مسلم من حديث عبدالله بن عمرو السّابق ذكره ما يفسّر الإجمال الوارد في تلك الأحاديث، فقد جاء فيه بعد ذكر بقاء الطّائفة إلى مجيء السّاعة: فقال عبدالله: «أجل، ثم يبعث الله ريحاً كريح المسك مسّها مسّ الحرير، فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبّة من الإيمان إلّا قبضته، ثمّ يبقى شرار النّاس عليهم تقوم السّاعة».

---

(١) حيث قال: لم أر من تنبه إلى مصادمة هذا الحديث إلى الأحاديث الصحيحة في قيام الساعة على شرار الخلق. المجلة الزيتونية المجلد ٦، ١٣٦٤ هـ. ص ٥٧١.

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب ذهاب الإيمان آخر الزمان ١/١٣١/٢٣٤.

(٣) صحيح مسلم كتاب الإمارة باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي...» ٣/١٥٢٤/١٧٦.

(٤) صحيح مسلم كتاب الإمارة باب قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» ٣/١٥٢٣ - ١٥٢٥.

٧ ـ قال أبو العرب: وحدّثني فُرات قال: حدثنا عبدالله بن أبي حسّان قال: حدثني أبو حسان اليَحْصُبِي عن زياد بن عبدالرحمن[١]، عن بَكر بن سَوادة الجُذامي قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتى إفريقيّة لقي خَيْراً وخَبَراً[٢]»[٣]. هذا حديث متروك، فيه فُرات، وهو متّهم بالكذب، بالإضافة إلى أنّه معل بالإرسال، وأبو حسّان اليَحْصُبِي مجهول العين كما تقدّم.

٨ ـ قال أبو العرب: وحدّثني فُرات قال: حدثني أبو شيخ المفسّر عن عبدالرحمن بن زياد عن مُطَرِّف بن عبدالله يرفعه إلى النّبي ﷺ قال: «المُنَسْتِير باب من أبواب الجَنّة يقال له الأَنْف ودونه قنطرة من قناطير الأولين»[٤].

أحوال رجال السند:

ـ فُرات: متّهم بالكذب، وعبدالرحمن: صدوق في حديثه بعض المناكير، وقد سبق ذكرهما.

ـ أبو شيخ المفسّر واسمه طَلْق ويقال: سَيْف، قال أبو العرب: «كان رجلاً صالحاً معروفاً بالدّين»، وكان يفسّر الرؤيا، وهذا سبب تسميته بالمفسّر[٥].

ـ مُطرِّف بن عبدالله بن الشِّخِّير: ثقة، من كبار التّابعين[٦].

---

(١) هكذا في طبعتي طبقات أبي العرب، والصواب عبدالرحمٰن بن زياد، وقد ظنه محققا الكتاب: زياد بن عبدالرحمٰن بن أنعم، ولم أجد من ذكر لعبدالرحمٰن ابناً بهذا الاسم.

(٢) في الطبعة الأولى خيراً وخيراً.

(٣) ط أبي العرب ٥، مح ٥٣.

(٤) ط أبي العرب ٤، المعالم ١/٥.

(٥) انظر: ط أبي العرب ٩٣، الرياض ١/٢٩٧.

(٦) التقريب ٢/٢٥٣.

الحكم على الحديث:

لا يصحّ هذا الحديث عن النّبيّ ﷺ، فهو معلّ بالإرسال، وفي سنده فُرات وحديثه متروك، كما أنّ متنه مشتمل على مجازفة عظمى وهي اعتبار المُنَسْتِير باباً من أبواب الجنّة[1]، وليس هناك ما يرفعها عن بقيّة ثغور المسلمين، بل إنّها لم تعد من الثّغور منذ قرون طويلة.

٩ ــ قال أبو العرب: قال فُرات: وحدّثني أبو زكريّاء الخَرّاز يحيى بن سليمان قال: سمعت البُهلول بن راشد يقول. . . ما ذكرت شيئاً إلّا والمُنَسْتِير أفضل منه وذلك أنّه بلغني عن النّبي ﷺ: «أنّه من أبواب الجنّة»[2].

سبق ذكر رجال هذا الحديث غير يحيى بن سليمان الخَرّاز، وقد وثّقه أبو العرب والدّبّاغ[3]، وهو حديث باطل يشترك مع سابقه في علله ويزيد عليه بعلّة الإعضال، حيث سقط من إسناده ما لا يقلّ عن ثلاثة من الرّواة، لأنّه من بلاغات البهْلول بن راشد (ت ١٨٣)، وبينه وبين النّبيّ ﷺ ما لا يقلّ عن ثلاثة وسائط.

١٠ ــ قال أبو العرب: قال فُرات وحدّثني أبو الحجّاج رباح بن ثابت عن ابن فرّوخ عن عبدالرحمن بن زياد عن مُطَرِّف بن عبدالله قال: المُنَسْتِير من أبواب الجنّة، فبينما هم في الصّلاة إذ سمعوا هدّة، فبعثوا رسولهم ليأتيهم بالخبر، فما لبثوا أن انصرف فقالوا له: ما صرفك؟ قال: سُيّرت الجبال، فيخرّون سجّداً لله عزّ وجلّ فيقول الله تبارك وتعالى: «يا أهل المُنَسْتِير لولا أنّي كتبت الموت على خلقي لأدخلتكم الجنّة بأوساخ ثيابكم، فيخرج عليهم ريح صفراء ما بين المشرق

(١) انظر: المجلة الزيتونية المجلد ٦، ١٣٦٤ هـ. ص ٥٧١.

(٢) ط أبي العرب ٥، المعالم ١/٥، ٦.

(٣) ستأتي ترجمته رقم ٣٩ في المحدثين.

والقبلة، فتخرج أرواحهم فما ينزع عنهم أخلاقهم إلّا أزواجهم وخدمهم من الحور العين»[1].

أحوال رجاله غير من تقدّم:

- رباح بن ثابت الأزدي: وثّقه أبو العرب، غير أنّ أحاديثه منكرة[2].
- **عبدالله** بن فرّوخ الفارسي: صدوق يغلط[3].

الحكم على الحديث:

هذا حديث متروك، وهو موقوف على مطرِّف، غير أنّ حكمه حكم المرفوع لتعلّقه بما ليس للاجتهاد والرّأي فيه مجال، والوضع عليه بيّن؛ لما فيه من المجازفة، وركاكة اللّفظ، بالإضافة إلى معارضته لما ثبت في السّنّة من قيام السّاعة على شرار الخلق، كما تقدّم في الحديث السادس.

١١ ـ قال أبو العرب: وحدّثني فُرات قال: حدّثنا يحيى بن سليمان الحُفْري عن يزيد بن يونس عن ابن سمعان قال: ذُكر لي أنّ بإفريقيّة جزيرة هي باب من أبواب الجنّة يقول الله تبارك وتعالى: «وعزّتي وجلالي لولا أنّي كتبت الموت على خلقي لأدخلت أقواماً يكونون بها الجنّة بدوابّهم وأمتعتهم، حتّى لا ينزع ثيابهم إلّا الحور العين»[4].

أحوال رجاله غير من تقدّم ذكره:

- يزيد بن يونس الأَيْلِي: ليس بشيء[5].

---

(١) ط أبي العرب ٥، رحلة التجاني ٣١، ٣٢.

(٢) انظر: ترجمته رقم ٩ في المهاجرين.

(٣) التقريب ١/٤٤٠، وانظر: ترجمته رقم ٣ في المحدثين.

(٤) ط أبي العرب ٢.

(٥) اللسان ٢٩٦/٦.

ـ عبدالله بن زياد بن سليمان بن سمعان المَخْزُومي أبو عبدالرحمن المدني: كذّبه مالك وغيره، تركوه واتّهموه بالوضع في الحديث(١).

الحكم على الحديث:

هذا حديث موضوع، كما هو واضح في رجال سنده، والوضع ظاهر على متنه أيضاً، كما تقدّم في الأحاديث التي في معناه

١٢ ـ قال أبو العرب: وقرأت عن إسحٰق بن أبي عبدالملك عن أبيه عن مُقاتِل عن وهْب بن منبّه وشَهْر بن حَوْشَب أنّ هذه البقعة الملعونة التي يقال لهل: «تَهُودَة»(٢)، كان النّبيّ ﷺ نهى عن سكناها وقال: «سوف يُقتل بها رجال من أمّتي على الجهاد في سبيل الله، ثوابهم ثواب أهل بدر، وأهل أحد، والله ما بدّلوا حتّى ماتوا، واشوقاه إليهم!». قال: وقال شَهْر بن حَوْشَب: سألت التّابعين عن هذه العصابة فقالوا: «ذلك عُقبة وأصحابه، قتلهم البربر والنّصارى بتَهُودة فمنها يُحشرون يوم القيامة وأسيافهم على أعناقهم، حتّى يقفوا بين يدي الله تبارك وتعالى»(٣).

قلت: هذه في الواقع مثلبة لا منقبة، ومع ذلك يقع إيرادها في فضائل إفريقيَّة، ولعلّ المراد بيان مناقب الأشخاص لا المكان.

---

(١) انظر: تهذيب الكمال ٢/٢٨٣، التهذيب ٥/٢١٩، الديوان ١٦٧، أحوال الرجال ١٤٢، المغني ١/٣٣٩، المجروحين ٢/٧، التقريب ١/٤١٦، الضعفاء الصغير ١٣١، الضفعاء والمتروكين ١٥١، ط المدلسين ٥٤.

(٢) هي ما يعرف الآن بـ: «سيدي عقبة» في إقليم الجزائر. وتَهُوذَة بالذّال اسم لقبيلة بربرية، فلعلّ المدينة سمّيت بهم. معجم البلدان ٢/٦٤.

(٣) ط أبي العرب ٩، ١٠.

أحوال رجال هذا الحديث:

ـ أبو عبدالملك المَلْشُوني: من القُصّاص، يحدّث بالعجائب، قال أبو العرب: «وحديثه يدلّ على ضعفه، ما يُحتاج إلى معرفة حاله بأكثر من روايته»[(١)].

ـ ابنه إسحٰق: كان مثل أبيه، فكان أمراء بني الأغلب يستدعونه ليحدّثهم بتلك العجائب في نهار رمضان[(٢)].

ـ مُقاتِل بن حيّان النَّبَطي الخَزّاز: صدوق[(٣)].

ـ وهب بن منبّه الصّنعاني: ثقة[(٤)].

ـ شَهْر بن حَوْشَب: اختلفوا فيه كثيراً، وهو صدوق كثير الأوهام والإرسال[(٥)].

الحكم على الحديث:

هذا حديث باطل، لا يصحّ عن النّبيّ ﷺ، وهو أشبه بكلام القُصّاص، ولعلّه من وضع أبي عبدالملك الملشوني أو ابنه إسحٰق، وعلامة الوضع بيّنة في ركاكة ألفاظه، وما فيه من المجازفة، كما أنّ أبا العرب تحمّله وجادة، وهي طريقة ضعيفة من طرق التّحمل؛ لانقطاعها، بالإضافة إلى كونه معلاًّ بالإرسال.

١٣ ـ قال أبو العرب: وحدّثني فُرات أيضاً عن موسى بن معاوية وسَحنون عن ابن وهب عن ابن لَهِيعة عن بَكر بن سَوادة الجُذامي أنّ سفيان بن الحارث

---

(١)، (٢) ط أبي العرب ٩٨، الرياض ١/٤٠١.

(٣) انظر: التقريب ٢/٢٧٢، التهذيب ١٠/٢٧٧، الميزان ٤/١٧١، الكاشف ٣/١٥١، الخلاصة ٣٨٦.

(٤) انظر: التهذيب ١١/١٦٦، التقريب ٢/٣٣٩، الكاشف ٣/٢١٦، الميزان ٤/٣٥٢، الخلاصة ٤١٩.

(٥) التقريب ١/٣٥٥، الخلاصة ١٦٩، التهذيب ٤/٣٦٩، المغني ١/٣٠١، الكامل ٤/١٣٥٤، ثقات العجلي ٢٢٣، الميزان ٢/٢٨٣، الكاشف ٢/١٤، الديوان ١٤٥.

حدّثهم عن أشياخه أنّهم قالوا للمقداد بن الأسود صاحب النّبيّ ﷺ: إنّك ثقلت وإنّك تخرج في هذه المغازي، فقال: خفيفاً كنتا أو ثقيلاً لا أتخلّف عنها؛ لأنّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾[1]، ثم قال: قدمت سَرِيّة على النّبيّ ﷺ، فذكروا البرد والحرّ الذي أصابهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ البرد الشّديد والأجر العظيم لأهل إفريقيَّة»[2]، وله روايات أخرى عند أبي العرب[3].

أحوال رجال هذا الحديث:

- فُرات متّهم بالكذب، وموسى ثقة، وقد تقدّما.
- سَحنون بن سعيد: إمام ثقة[4]، وقد سبق التّنبيه على أنّ ورود سَحنون وأمثاله من الثّقات في هذه الأحاديث إنّما هو تلفيق ممّن دونهم، ويحتمل احتمالاً ضعيفاً جدّاً تحديثهم بها مع العهدة على رواتها.
- عبدالله بن وَهْب القُرشي المصري: ثقة[5].
- بَكر بن سَوادة الجُذامي: تابعي ثقة[6].
- سفيان بن الحارث: لم أستطع تحديده، وهما اثنان في هذه الطّبقة أحدهما مجهول العين والآخر مجهول الحال[7].

---

(١) سورة التوبة: الآية ٤١.

(٢) ط أبي العرب ٣، وانظر: الحلل ١/١/٢٣٨، مسالك البكري ٢١، ٢٢، البيان المغرب ١/٧، المعالم ١/٤.

(٣) انظر: ط أبي العرب ٣، ٤.

(٤) ستأتي ترجمته رقم ١٣ في المحدثين.

(٥) التقريب ١/٤٦٠.

(٦) التقريب ١/١٠٦، وستأتي ترجمته رقم ٢ في القسم الثاني من التابعين.

(٧) انظر: الجرح والتعديل ٤/٢٢١، ٢٢٨.

الحكم على الحديث:

هذا حديث متروك، فيه فُرات وهو متّهم بالكذب كما تقدّم، كما أنّه مُعلّ بجهالة أحد رواته، وهو سفيان بن الحارث.

وهكذا تبيّن أنّ أحاديث فضائل إفريقيَّة المرفوعة، وما في حكمها، كلّها باطلة، على ضوء دراسة أسانيدها والنّظر في متونها، متّبعاً في ذلك المنهج العلمي الدّقيق الذي وضعه جهابذة نقّاد المحدّثين.

المبحث الثّالث

من علوم السّند والمتن لدى القرويّين

أوّلاً: من علوم السّند:

١ ـ أهمّية الإسناد عند القرويّين:

كان أهل القيروان يدركون أهمّيّة الإسناد، ويروون ما ورد عن الأئمّة في ذلك، فقد روى محمد بن سَعدون القروي بسنده إلى عبدالله بن المبارك قال: «الإسناد من الدّين، لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»[(١)].

وكانوا يتشدّدون في طلب الأسانيد، حتّى إنّ الإمام سَحنون كان لا يقبل الحديث إلّا بسند راويه[(٢)]، وكان ما بينه وبين المحدّث عَوْن بن يوسف (ت **٢٣٩**) غير جميل، لشكّه في سماع عون من عبدالله بن وهب[(٣)].

---

(١) الإلماع ١٩٤، وانظر: معرفة علوم الحديث للحاكم ٦.

(٢) انظر: الرياض ١/٣٨٢. (٣) انظر: المدارك ١/٦٢٩.

كما كانوا يُنقّبون في الأسانيد ويتثبّتون في اتّصالها[1]، ويسألون الشّيوخ عن سماعهم ممّن رووا عنهم إذا شكّوا في ذلك[2]، وقد تقدّم ذكر طلب بعضهم الإجازة من الشّيخ، رغم حضورهم الحلقة؛ لعدم تأكّدهم من سماعهم بسبب البعد عن الشّيخ.

٢ ـ الألفاظ الدّالة على اتّصال السّند أو انقطاعه عند القرويّين:

أ ـ ألفاظ الاتّصال: قال القابِسي[3]: «والبيّن الاتّصال ما قال فيه ناقلوه: حدّثنا، وأخبرنا، وأنبأنا، وسمعنا منه قراءة عليه، أو قراءة علينا، **فهذا اتّصال لا** إشكال فيه».

ب ـ العَنْعَنَة[4]: وهي قول الرّاوي: فلان عن فلان.

وقد اعتبرها أهل القيروان من ألفاظ الاتّصال بشرط ثبوت اللّقاء والسّلامة من التّدليس، وهو المذهب الصّحيح الذي عليه أئمّة أهل النّقل، وكثير من المحدّثين وأهل التّحقيق، قال القابِسي[5]: «وكذلك ما قالوا فيه: «**عن**» **فهو أيضاً** من المتّصل إذا عُرف أنّ ناقله أدرك المنقول عنه إدراكاً بيّناً، ولم يكن ممّن عُرف بالتّدليس».

---

(١) انظر: الرياض ١/١٣٨.

(٢) انظر: ط أبي العرب مح ١٥١، ط أبي العرب ٧٢، ١٠٥.

(٣) الملخص خط ل ٢ ب.

(٤) انظر عنه: التدريب ١/٢١٤، معرفة علوم الحديث ٣٤، شرح النووي على مسلم ١/١٢٧، علوم الحديث لابن الصلاح ٥٦، السنن الأبين ٢١، التقييد والإيضاح ٨٣، جواهر الأصول في علم حديث الرسول ٢٩، توجيه النظر ١٦٨.

(٥) الملخص خط ل ٢ ب، السنن الأبين ٣٥.

وذهب ابن رُشَيد[1] أيضاً إلى اعتبار مذهب القابِسي في هذه المسألة يدخل ضمن المذهب الصحيح، ثمّ قال[2]: «وأمّا لفظ القابِسي فيمكن أن يريد به ثبوت المعاصرة البيّنة، وهو أظهر احتمالية، ويمكن أن يريد به طول الصّحبة. . .».

غير أنّ في كلام النّووي ما يشير إلى أنّ القابِسي يذهب في المُعنعن مذهباً وسطاً بين الإمام مسلم الذي يكتفي بإمكانيّة اللّقاء، وبين الإمام البخاري ومن وافقه في اشتراط ثبوت اللّقاء، حيث قال بعد تحرير المسألة: «. . . وقد زاد جماعة من المتأخرين على هذا، فاشتراط الإمام القابِسي (ت ٤٠٣) أن يكون أدركه إدراكاً بيّناً. . .»[3].

ومن محدّثي القيروان من ذهب في المُعنعن إلى الاكتفاء بالمعاصرة، وهو المذهب الذي قال به الإمام مسلم، وادّعى الإجماع عليه، وشدّد في النّكير على من خالفه، غير أنّ أهل التّحقيق ردّوا قوله[4]، ومن هؤلاء القرويّين الذين ذهبوا إلى هذا محمد بن سَعدون القروي (ت ٤٨٦) الذي كان يكتفي في ظهور السّماع بكون السّنّ تحتمل اللّقاء[5].

جـ ـ قول الرّاوي: إنّ فلاناً قال كذا، أو فعل كذا:

يذهب القرويّون إلى أنّ هذه الألفاظ على الاتّصال حتّى يتبيّن فيها غير ذلك، قال الإمام القابِسي[6]: «. . . قول النّاقل: إنّ المنقول عنه قال كذا، أو فعل كذا، فهو من المتّصل بالمنقول عنه، إلاّ أن يجيء عن النّاقل ما يبيّن أنّه لم يسمعه من المنقول عنه. . .».

---

(١)، (٢) السَّنَن الأبين ٣٥، ٤٢.

(٣) شرح النووي على مسلم ١/١٢٨.

(٤) مقدمة مسلم (مع شرح النووي) ١/١٢٩ فما بعدها.

(٥) السنن الأبين ٣٥، ٣٦.

(٦) الملخص خط ل ٢ ب.

وفي حكم «قال» تفصيل عند المحدّثين[1]، فهي عندهم من قَبيل المتّصل إذا عُرف اللّقاء والسّماع على الجملة، وعُلم من حال الرّاوي أنه لا يروي إلاّ ما سمعه، واستعمل العلماء ذلك في مصنّفاتهم، وتحمّلوا به المرويّات، غير أنّ استعمالها أليق بما سُمع في المُذَاكرات والمُناظرات، وإذا لم تتوفّر الشّروط المذكورة اعتبر القول من قَبِيل المنقطع، وللمسألة صور وتفريعات في المصادر[2].

د ــ قول الرّاوي بلغني عن فلان، أو سمعت أنّ فلاناً قال، ونحوها:

هذا معتبر عند القرويّين وغيرهم من المحدّثين غير متّصل[3]، فإنّ الإمام القابِسي (ت ٤٠٣) يذهب إلى أنّ قول النّاقل: «بلغني أو سمعت أنّ فلاناً قال كذا، أو انتهى ذلك إلينا... فهذا غير متّصل»[4].

قلت: ولا يعكّر على هذا قبولهم لبلاغات مالك في الموطّأ؛ لثبوت وصلها خارج الموطّأ من طريق مالك وغيره[5].

٣ ــ طلب الإسناد العالي: يحرص محدّثو القيروان كغيرهم من محدّثي المشرق على علوّ الإسناد، وذلك واضح في أقوالهم وسلوكهم وتأليفاتهم:

فمن أقوالهم ما ذكره أبو إسحٰق إبراهيم بن أحمد الجِبِنْياني (ت ٣٦٩)، حيث قال واصفاً حرص علماء إفريقيَّة والقيروان على علوّ الإسناد: «إذا بلغنا أنّ

---

(١)، (٢) علوم الحديث لابن الصلاح ٦١، ١٢١، التقييد والإيضاح ٨٩، التدريب ٢١٩/١، فتح المغيث ١٠٧/٣، مقدمة الإصابة ١٥/١، جواهر الأصول ٢٩.

(٣) التقريب ٢١١/١ (مع التدريب)، التدريب ٢١٢/١، التقييد والإيضاح ٨٢، علوم الحديث لابن الصلاح ٥٤، ٥٥.

(٤) الملخص خط ل ٢ ب.

(٥) انظر: التدريب ٢١٢/١. رسالة في وصل البلاغات الأربعة في الموطأ لابن الصلاح ٦.

رجلاً ببلد هو أقرب إلى النّبيّ ﷺ بدرجة ضربنا إليه آباط الإبل، وقطعنا إليه المفاوز»[1].

ومن سلوكهم ما كان يفعله كثير من محدّثيهم من سماع المصنّفات ممّن قدم بها من المشرق، ثمّ الارتحال لسماعها بسند أعلى من مصنّفها أو غيره، وقد تقدّمت نماذج لهذا في مبحث ثمرات الرحلة[2].

وكذلك نجد أنّ القرويّين قد جمعوا عوالي أحاديثهم في مصنّفات مستقلّة، منها:

- عوالي حديث أبي عالَرَب محمد بن أحمد التَّمِيمي (ت **٣٣٣**)[3].
- عوالي حديث أبي عِمران موسى بن عيسى الفاسي (ت **٤٣٠**)، وقد خرَّج منها نحو مائة ورقة[4].
- عوالي عثمان بن أبي بكر الصَّفَاقُسي (ت حوالي سنة **٤٤٤**)[5].

على أنّ هذا الحرص على علوّ الإسناد والجدّ في طلبه لم يجعل القرويّين ينساقون فيأخذونه من غير طريقه العلمي كالمنامات، أو ممّن ادّعى كذباً قربه من الرّسول ﷺ، ومن أدلّة ذلك ما يلي:

أ ـ «اجتمع أحمد المؤدّب[6] بسلّام الأسود المتعبّد[7]، وكان يعرف بسلّام الأسود، وكان كثير السّياحة، فقال له سلّام: «رأيت النّبيّ ﷺ في المنام، وقد حدّثني بأحاديث كثيرة، قد رأيت منها ما صحّ نقله، ومنها الضّعيف، إلاّ أنّ الكلّ

---

(١) مناقب أبي إسحٰق ٥٨، أبو عبدالله الأبي وكتابه الإكمال ٩١.
(٢) في الفصل الثاني من الباب الأول.
(٣) المدارك ٣/٣٣٥، الشجرة ١/٨٤.
(٤) الشجرة ١/١٠٦، الأعلام ٧/٢٨٧.
(٥) الشجرة ١/١٠٩، تراجم المؤلفين ٣/٢٦١.
(٦)، (٧) ليس هناك معلومات عنهما في المصادر.

رُوي»، فجاء أحمد بالصّحيفة إلى الشّيخ أبي إسحٰق (الجِبْنياني) فقال له: «جئتك بتحفة»، قال: «ما هي؟»، فأراه الصّحيفة، فأنكر عليه أبو إسحٰق إنكاراً شديداً وقال له: «روايات السُّنن لا تؤخذ عن المنامات»، ثم ذكر له تحمّل العلماء مشاقّ الرّحلة، من أجل علوّ الإسناد، وقال: «وأنت تقول حدّثني سلّام الغلام، عن النبيّ ﷺ»، ثم قال: «إنّ رسول الله ﷺ لم يمت حتّى أخبر أمّته بما يحتاجون إليه، من أمر دنياهم وأخراهم، وأكمل الله به الدّين، وأمّا الرؤيا الحسنة فيبشّر الله بها المؤمن[1]، وأنتم تحبّون أن تجعلوها شريعة تقطعون بها»، ثم أمر أبو إسحٰق بقطع تلك الصّحيفة»[2].

ب ــ إن محدّثي القيروان لم يغتروا بأحاديث علي بن عثمان بن خطّاب المغربي المعمّر، المعروف بأبي الدّنيا، فإنّه دخل القيروان سنة ٣١١ هـ[3]، وزعم أنّ له في تلك السّنة ٢٥٠ عاماً[4].

وحدّث بها عن علي بن أبي طالب، وزعم أنّه رأى الخلفاء الأربعة[5]، ولم يحدث عنه من القرويّين إلا أبو جعفر أحمد أو تميم بن محمد التّميمي، بعد انتقاله إلى الأندلس[6] وأبو جعفر هذا معروف بالضّعف[7]، أما سائرهم فلم يعتدّوا بحديثه، كما هو رأي النّقاد من أهل المشرق[8]،

(١) يشير بذلك إلى الحديث الصّحيح: «لم يبق من النّبوّة إلاّ المُبشْرات قالوا: وما المبشّرات؟ قال: الرّؤيا الصّالحة» أخرجه الإمام البخاري من طريق أبي هريرة في كتابه التعبير باب المبشرات ٨/٦٩، وأخرجه الإمام مسلم بنحوه من طريق ابن عباس وفي أوله زيادة، كتاب الصلاة باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود ١/٣٤٨/٢٠٧، ٢٠٨.

(٢) مناقب أبي إسحٰق ٥٨.

(٣)، (٤)، (٥) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ٤٢٣، اللسان ٤/١٣٤.

(٦) فهرسة ابن خير ١٦٩. (٧) المدارك ٣/٥٣٣.

(٨) انظر: تاريخ بغداد ١١/٢٩٧، تنزيه الشريعة ٢/٤٥، الميزان ٣/٣٣، اللسان ٤/١٣٤، معرفة علوم الحديث ١٠.

٤ ـ حكم حديث الأفراد عند القرويّين:

وهو ما تفرّد به راوٍ واحد مطلقاً، أو مقيّداً، على التّفصيل المذكور في المصادر[١].

يرى القرويّون صحّة الاحتجاج بخبر الواحد[٢]، إذا استوفى شروط القبول طبعاً، وكان سعيد بن الحدّاد يرُدّ على المُنكرين لذلك، مستعملاً حجّتهم على سبيل الإنكار والتّهكّم، من ذلك ما دار بينه وبين بعض المعتزلة من المناظرة في مجلس بعض أمراء الأغالبة، فاحتجّ المعتزلي بقول بعض من لم يسمّ على تفضيل العراقيّين على المدنيّين، فقال ابن الحدّاد[٣]: «أيّها الأمير، هذا وأصحابه يزعمون أنّ أبا بكر الصّدّيق رضوان الله عليه إذا انفرد بخبر عن رسول الله ﷺ لم تقم به حجّة، وأنّ عمر رضي الله عنه إذا انفرد بخبر لم تقم به حجّة. وأنّ عثمان وعليّاً رضوان الله عليهما كذلك، إذا انفردا، وها هو ذا يريد أن يقيم الحجّة في تفضيل أهل العراق على أهل مدينة رسول الله ﷺ بخبر رجل لا يعرف من هو من جميع البرايا!».

كذا ورد، وهو واضح في التّفرّد، ولكن المعروف عن المعتزلة أنّ خبر الواحد عندهم ليس الفرد، ولكن ما لم يبلغ مبلغ التّواتر[٤].

---

(١) ويسمى أيضاً الحديث الفرد. انظر: منهج النقد ٣٩٩، تيسير مصطلح الحديث ٢٨، اختصار علوم الحديث ٦١، علوم الحديث لابن الصلاح ٧٠، ٨٠، معرفة علوم الحديث ٩٦.

(٢) انظر عن: الاحتجاج بخبر الواحد، الكفاية ٦٦ ـ ٧٢.

(٣) الرياض ٢/٧٣.

(٤) انظر: التبصرة في أصول الفقه ٢٩٨، ٣٠٣، ٣١٢.

ثانياً: من علوم المتن:

١ ــ من حيث مخرجُه (أي قائله):

وفيه نقطتان:

أ ــ قول الصّحابي: كنّا نفعل، وكنّا نؤمر... يذهب الإمام القابِسي[١] إلى أنّ هذا محملُه على الرّفع إذا صحّ اتّصاله بالصّحابي، إلاّ إذا ظهر بالنّقل غير ذلك، وأمّا إذا قال فيه: «على عهد رسول الله ﷺ»، فقد بان اتّصاله وهو من قبيل المرفوع قطعاً.

وفي هذا بعض خلاف مع ما ذهب إليه أهلِ المشرق، فإنّهم فرّقوا بين حكم اللّفظين، حيث اعتبروا قول الصّحابي: «كنّا نفعل» من قَبِيل الموقوف، ولا يحكم برفعه إلاّ إذا أضافه إلى زمان النبي ﷺ[٢].

واعتبروا قول الصّحابي: «أُمِرنا بكذا» من قَبِيل المرفوع، ولو لم يضفه إلى زمن الرّسول ﷺ، على الرّاجح الذي عليه أصحاب الحديث وأكثر أهل العلم[٣].

ب ــ إذا ذكر التّابعي ما كان على عهد الرّسول ﷺ، ووصف قولَ الرّسول ﷺ في ذلك، وسمّى الصّحابي بما كان منه، فليس هذا من قَبِيل المرفوع عند القرويّين إلاّ إذا حدّث به من كلام الصّحابي نفسه، مثل أن تقول عَمْرة: قالت عائشة رضي الله عنها: أتى النّبيّ ﷺ في كذا فقال كذا، فهذا موصول وإن لم تقل عَمْرة حدّثتني عائشة[٤].

قال القابِسي[٥]: «فأمّا إن قالت عَمْرة: كان من النّبي ﷺ كذا وكذا فقالت عائشة كذا، فليس في هذا ما يرفعه عن البلاغ...».

---

(١) انظر: الملخص خط ل ٣ أ.

(٢) انظر: علوم الحديث ٤٣، اختصار علوم الحديث ٤٦، التدريب ١/١٨٥.

(٣) علوم الحديث ٤٥، اختصار علوم الحديث ٤٦، ٤٧، التدريب ١/١٨٨.

(٤)، (٥) الملخص خط ل ٢ ب.

٢ ـ من حيث درايته:

وفيه أربع نقاط:

أ ـ **غريب الحديث**[١]: وهو ما وقع في متن الحديث من لفظة غامضة بعيدة من الفهم؛ لقلّة استعمالها، وهو فنّ عظيم الأهمّيّة، شديد الصّعوبة، وكان السّلف يتثبّتون فيه أشدّ التّثبّت، وقد كان للقرويّين اهتمام بتفسير الألفاظ الغريبة التي ترد في متون الأحاديث، حتّى وضعوا في ذلك بعض المصنّفات منها:

ـ غريب الحديث لمحمد بن سَحنون (ت ٢٥٦)، وهو في سبعة أجزاء[٢].

ـ غريب الحديث ليوسف بن عبدالله التَّميمي (ت ٣٣٦)، وقد نصر فيه أبا عُبيد القاسم بن سلّام الهَرَوِي (ت ٢٢٤) على عبدالله بن مسلم بن قُتَيْبَة الدِّينُورِي (ت ٢٧٦)[٣].

ـ شرح غريب ألفاظ المدوّنة للجُبِّي (ق ٤)، وقد شرح فيه بعض ألفاظ حديث المدوّنة بالإضافة إلى الألفاظ الفقهيّة[٤].

ب ـ **شرح الحديث وفقهه**: اهتمّ القرويّون ببيان معاني الأحاديث واستنباط الأحكام منها، وكانت لهم في ذلك مؤلفات منها:

ـ شرح الموطّأ لمحمد بن سَحنون (ت ٢٥٦)، وهو في أربعة أجزاء[٥].

ـ معاني الأخبار لسعيد بن الحدّاد (ت ٣٠٢)، شرح فيه مجموعة أحاديث من روايته، ويوجد بعضها في مكتبة جامع القَيْرَوان[٦].

---

(١) انظر: التدريب ١٨٤/٢، التقريب ١٨٤/٢، جواهر الأصول ٤٢، اختصار علوم الحديث ١٦٧، الباعث الحثيث ١٦٧، علوم الحديث لابن الصلاح ٢٤٥، معرفة علوم الحديث للحاكم ٩٤، توجيه النظر ١٧٩.

(٢) المدارك ١٠٦/٣.

(٣) المدارك ٣٥٦/٣.

(٤) نشرته دار الغرب الإسلامي بتحقيق محمد محفوظ ١٤٠٢ هـ.

(٥) المدارك ١٠٦/٣.

(٦) المكتبة الأثرية ٣٩.

- النّامي في شرح الموطّأ لأحمد بن نصر الدَّاوُدي (ت ٤٠٢)[1].

- النّصيحة في شرح صحيح البُخاري للدّاودي أيضاً[2]، وهو كتاب مهمّ، نقل عنه ابن حجر في الفتح كما سيأتي عند ذكره في المصنّفات.

- شرح الموطّأ للإمام أبي الحسن علي بن محمد القابِسي (ت ٤٠٣)، نقل عنه صاحب الاستقصاء[3]، ويظهر أنّه جملة من التّعليقات.

- شرح الموطّأ لمروان بن محمد الأسدي (ت قبل سنة ٤٤٠)[4].

جـ - **تأويل مختلف الحديث**: ومختلف الحديث هو أن يوجد حديثان متضادّان في المعنى ظاهراً[5].

ويبدو أنّه كان للقرويّين بعض عناية بهذا الفنّ، ذلك ما يفهم من طرف من مناظرة وقعت بين دعاة الرّافضة وبين سعيد بن الحداد (ت ٣٠٢)، حيث قالوا له: «فإن اختلف عليك النّقل وجاءت السُّنّة من طرق؟»، قال سعيد: «أنظر إلى أصحّ الخبرين نقلاً، فآخذ بأصحّهما، وأطلب الدّليل على موضع الحقّ في أحد الحديثين، ويكون الأمر في ذلك كشهود عدول اختلفوا في شهادة فلا بدّ من طلب الدّليل على موضع الحقّ من الشّهادتين»، قال: «فلو استووا في الثّبات؟»، قال سعيد: «يكون أحدهما ناسخاً والآخر منسوخاً»[6].

فابن الحدّاد يذهب في الحديثين اللّذين ظاهرهما التّعارض إلى ترجيح أحد

---

(١) الشجرة ١/١١١، مدرسة البخاري في المغرب ٢/٥٧٩، المدارك ٣/٦٢٣.

(٢) مدرسة البخاري في المغرب ٢/٥٦٩، ٥٧٩، المدارك ٣/٦٢٣.

(٣) الاستقصاء للسلاوي ١/٩٠، وانظر: المكتبة الأثرية ٣٨، ٣٩.

(٤) الجذوة ٣٢١، الصلة ٢/٥٨١.

(٥) انظر: جواهر الأصول في علم حديث الرسول ٤٠، التقييد والإيضاح ٢٨٦، التدريب ٢/١٩٦، علوم الحديث ٢٥٧.

(٦) الرياض ٢/٧٧، سير أعلام ١٤/٢٠٨، ط الخشني ٢٠٢، ٢٠٣.

الخبرين على الآخر بدليل من السّند أو المتن، فإن لم يجد الدّليل افترض أن يكون أحدهما ناسخاً والآخر منسوخاً، ولكن الأولى أن يبدأ بالنّظر في إمكانيّة الجمع بين الخبرين إذا استويا في القوّة[1].

د ـ من تطبيقات هذا المبحث: المناظرات المستدلّ فيها بالسُّنّة:

من مظاهر اهتمام القرويّين بعلوم دراية الحديث كثرة احتجاجهم بالحديث في مناظراتهم، ومناقشاتهم، التي يمكن تقسيمها إلى نوعين: المناظرات العامّة، وهي التي تكون بحضور ملأ من النّاس، وتعقد غالباً في مجالس الأمراء، والمناظرات الخاصّة، وهي التي تنعقد بين عالمين، وسأذكر نماذج لكلّ نوع:

١ ـ المناظرات العامّة: وقد وقع شيء منها بالقَيْرَوان في وقت مبكّر سنة ١٤٤ هـ، غير أنّ أبا العرب ـ ناقل القصّة ـ لم يفصّلها، ولم يذكر الأحاديث التي دارت المناقشة حولها، قال أبو العرب: لمّا قدم محمد بن الأشعث[2] إفريقيَّة، ونزل القَيْرَوان قال: «هل في بلدكم أحد من أهل الحديث؟»، قالوا: «نعم، رجل يقال له يزيد بن أبي منصور[3]، هو من التّابعين من بقايا النّاس»، فبعث إليه فجاءه، وهو شيخ كبير قد خرف وضعف، فحادثه ساعة، إلى أن ذكر محمد بن الأشعث شيئاً عن النّبيّ ﷺ أنكره عليه يزيد، فقال له يزيد بن أبي منصور: «أدركت النّاس قبل أن يلتقي أبواك لا يقول هذا منهم إلا عاجز جاهل»، فغضب محمد بن الأشعث حتّى زال عن النّمرقة التي كان عليها قاعداً، فأمهله

(١) انظر: اختصار علوم الحديث ١٧٤، ١٧٥، علوم الحديث لابن الصلاح ٢٥٧، التقريب ٢/١٩٦، التدريب ٢/١٩٦، تيسير مصطلح الحديث ٥٦.

(٢) هو محمد بن الأشعث الخزاعي، تولى إمارة إفريقية من سنة ١٤٤ هـ إلى سنة ١٤٨ هـ، وكان له دور هام في جهاد الخوارج، انظر: البيان المعرب ١/٧٢.

(٣) تابعي طال مكثه بالقيروان، وكان له أثر في شيوع رواية الحديث فيها، ستأتي ترجمته رقم ٢ في القسم الرابع من التابعين.

يزيد بن أبي منصور ثمّ فسّره له وبيّنه، فقبل منه محمد بن الأشعث وقال له: «ما نعجل على الشّيخ»[1].

أمّا أشهر هذه المناظرات فهي تلك التي عقدها بنو عُبيد بالقيروان (**٢٩٦ - ٣٦٢**)، واستدعوا لها علماء السُّنّة، طمعاً في استمالتهم إلى مذهبهم الخبيث، فقام هؤلاء العلماء بالذّبّ عن الإسلام والسّنّة كما تقدّم[2]، وممّا يؤسف له أنّ هذه المناظرات لم يصلنا منها إلاّ القليل بالنّظر إلى كثرتها، فإنّ مناظرات سعيد بن الحدّاد وحدها بلغت أربعين مجلساً، لم يصلنا منها إلاّ أربعة[3]، وسأقتطف منها بعض ما يخدم هذا المبحث.

ـ أرسل عُبيدالله الشّيعي إلى ابن الحدّاد، وعرض عليه كتاباً لطيفاً، قال ابن الحدّاد: «... ورمقته ببصري فعرفت الكتاب، قال: تصفّح، فجعل يده على بعض الصّفحة، وأنا أنظر إلى الإسناد، ... فقلت له: عرفت الحديث وهو حديث غدير خُمّ[4]: «من كنت مولاه فعليّ مولاه»[5]، وهو حديث صحيح وقد رويناه، فعطف عليَّ عُبيدالله ـ لعنة الله عليه ـ فقال: «فما للنّاس لا يكونون عَبيدنا؟»، فقلت له: «أعزّ الله السّيّد، لم يُرد ولاية الرّقّ وإنّما أراد ولاية

---

(١) ط أبي العرب ٢١، ٢٢.

(٢) راجع التمهيد مبحث الشيعة الإسماعيلية بالقيروان، ومبحث الفرق الكلامية بالقيروان.

(٣) انظر: ورقات لحسن عبدالوهاب ١/٢٥٩.

(٤) خمّ: اسم واد بين مكّة والمدينة خطب فيه النبي ﷺ حين حجّ، انظر: معجم البلدان ٢/٤٦٦.

(٥) هذا حديث صحيح كما حكم عليه ابن الحداد، فقد رواه الترمذي في كتاب المناقب باب مناقب علي ٥/٦٣٣/٣٧١٣، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».
وأخرجه ابن ماجه بمعناه وفي أوله قصة في فضائل الصحابة باب فضل علي ١/٥٥/١١٩، وأخرجه الإمام أحمد بمثله وفي أوله قصة ٤/٣٦٨، وأخرجه كذلك بمعناه وفي أوله قصة ٤/٣٧٠، كلهم من طريق زيد بن أرقم.
وذكر العجلوني أن هذا الحديث يروى عن ثلاثين من الصحابة بلفظ: «اللهم وال من والاه وعادِ من عاداه» ثم قال: «فهو متواتر أو مشهور»، كشف الخفاء ٢/٣٦١.

في الدّين. . .»، قال: «فهل من شاهد من كتاب الله عزّ وجل؟»، فقلت: نعم، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ما كانَ لبشرٍ أن يؤتِيَه اللّهُ الكِتَابَ والحُكْم والنُّبُوَّةَ ثمّ يَقُولَ لِلنَّاس كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُون اللَّهِ، ولَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُم تُعلِّمُونَ الكِتَابَ وبِمَا كُنْتُم تَدْرُسُون، وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا المَـلاَئِكَةَ والنَّبِيِّينَ أَرْبَـاباً، أَيَـأْمُرُكُم بِـالْكُفْـرِ بَعْـدَ إِذْ أَنْتُم مُسْلِمُـون﴾[1]، فمـا لم يجعله الله لنبيّ، لم يجعله لغيـر نبيّ. . .[2].

ويلاحظ أنّ ابن الحدّاد قد انتبه إلى الإسناد لعلّه يجد عليه مطعناً، ثمّ حكم على الحديث بالصّحّة، وأقرّ بشيوع روايته لدى أهل السُّنَّة، وأوضح معناه الصّحيح[3]، الملائم لنصوص الكتاب والسُّنّة، وأبطل المعنى الذي أراد الرّافضة تفسيره به.

ـ واستدعى الرّافضة العلماء لمناظرتهم في قيام رمضان، قال أبو عثمان بن الحدّاد: فقلت له (لداعيتهم): «ما تحتـاج إلى المناظـرة»، فقال لي: «لا بـدّ منها»، فقلت له: «شأنك وما تريد»، فقال: «ألستم تعلمون وتروُون أنّ النّبيّ ﷺ لم يقم إلّا ليلة ثمّ قطع، وأنّ عمر بن الخطّاب هو الذي استنّ القيام؟»، وقد جاء في الحديث الذي تروُونه ونرويه أنّ: «كلّ محدثة بدعة وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النّار»[4]، فقلت له: «هذه البدعة من البدع التي يرضاهـا[1] الله عزّ

(١) سورة آل عمران: الآيات ٧٩، ٨٠.

(٢) الرياض ٢/٥٩، ٦٠، وانظر: المدارك ٥/٨٢، المعالم ٢/٢٩٩، ط الخشني ٢٠١.

(٣) انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجة ١/٥٥.

(٤) أخرجه النسائي بلفظه في حديث طويل من جابر بن عبدالله كتاب صلاة العيدين باب كيف الخطبة ٣/١٨٨.
وأخرجه الإمام مسلم من طريق جابر في حديث طويل بلفظ «وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة» كتاب الجمعة باب تخفيف الصلاة والخطبة ٢/٥٩٢/٨٦٧، وبهذا اللفظ أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب اجتناب البدع ١/٢١/٤٦، وأخرجه الدارمي من هذا الطريق في حديث مختصر بنفس لفظ مسلم باب كراهية أخذ الرأي ١/٦٩، وبه أيضاً عند أحمد ٣/٣١٠، ٣٧١.

وجل ويذمّ من تركها»، فقال: «وأين تجد ذلـك في كتاب الله (عـز وجل)؟»، فقلت له: «... قال الله عزّ وجل: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا، مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِم، إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رضوان الله، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِها﴾[2]، فنحن نثابر على هذه البدعة التي هي رَهْبَانِيَّة؛ لئلا يذمّنا الله عز وجل كما ذمّهم». فقال: «من صلّى القيام ضربتُ عنقَـه»، فقلت له: «قـد قلت لك هـذا أوّلاً: ما تحتـاج إلى المنـاظـرة، فلم تقبل...»[3].

قلت: هناك ملاحظات على هذه المناظرة، منها: الصّحيح أنّ الرّسول ﷺ قـد قام عـدّة ليالي، وليس ليلة واحـدة، كمـا ثبت في حـديث عـائشـة: «أنّ رسول الله ﷺ خرج من جوف اللّيل، فصلّى في المسجد فصلّى رجال بصلاته، فأصبح النّاس يتحدّثون بذلك، فاجتمع أكثر منهم، فخرج رسول الله ﷺ في اللّيلة الثّانية فصلّوا بصلاته، فأصبح النّاس يذكرون ذلك، فكثر أهل المسجد من اللّيلة

= وجاء الحديث بهذا المعنى ضمن أحاديث مختلفة اللفظ من طريق العرباض بن سارية في سنن أبي داود كتاب السنة باب لزوم السنة ٥/١٣/٤٦٠٧، وسنن الترمذي كتاب العلم باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٥/٤٤/٢٦٧٦، وسنن ابن ماجه المقدمة باب اتباع سنة الخلفاء ١/١٩/٤٣ ـ ٤٥، وسنن الدارمي باب اتباع السنة ١/٤٤، ومسند أحمد ٤/١٢٦، ١٢٧.

وأخرجه ابن ماجه من طريق ابن مسعود بنحوه ضمن حديث طويل وليس فيه «كل ضلالة في النار» المقدمة باب اجتناب البدع ١/٢٢/٤٧.

(١) البـدعة: الحـدث في الدين بعـد الإكمال أو مـا استُحدث بعـد النبي ﷺ من الأهـواء والأعمال. القاموس المحيط ٣/٤، قال ابن حجر عن البدعة: «... والتحقيق أنها إن كانت مما تندرج تحت مستحسن في الشرع فهي حسنـة وإن كانت ممـا تندرج تحت مستقبح في الشرع فهي مستقبحة، وإلا فهي من قسم المباح، وقد تنقسم إلى الأحكام الخمسة». (فتح الباري ٤/٢٥٣)، وسبقه النووي إلى نحو هذا وذكر أن هذا الحديث من العام المخصوص (انظر: شرح النووي على مسلم ٦/١٥٤، ١٥٥).

(٢) سورة الحديد: الآية ٢٧.

(٣) الرياض ٢/٦١، ٦٢، المعالم ٢/٣٠٠ ـ ٣٠٢.

الثّالثة، فخرج فصلّوا بصلاته، فلمّا كانت اللّيلة الرّابعة عجز المسجد عن أهله، فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ فطفق رجال منهم يقولون: الصّلاة، فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ حتّى خرج لصلاة الفجر، فلمّا قضى الفجر أقبل على النّاس، ثمّ تشهّد فقال: «أمّا بعد، فإنّه لم يخف عليّ شأنكم اللّيلة، ولكنّي خشيت أن تُفرض عليكم صلاة اللّيل[1]، فتعجزوا عنها»[2].

أمّا كون عمر (رضي الله عنه) استنّ القيام فلا يصحّ أيضاً؛ لثبوت ذلك عن النّبيّ ﷺ كما تقدّم، وقد نقل ابن حجَر عن ابن بَطّال قوله[3]: «قيام رمضان سنّة؛ لأنّ عمر إنّما أخذه من فعل النّبي ﷺ»، ونقل عن ابن التِّين قوله[4]: «استنبط عمر ذلك من تقرير النّبيّ ﷺ من صلّى معه في تلك اللّيالي».

على أنّه يمكن أن يقال: إنّ عمر قد سنّ الجماعة في القيام؛ لأنّه هو أوّل[5] من جمع النّاس على قارىء واحد، وكانوا قبل ذلك يصلّون متفرّقين، فقد جاء في صحيح البُخاري من طريق عبدالرحمن بن عبدالقاري: «خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة في رمضان إلى المسجد فإذا النّاس أوزاع[6] متفرّقون، يصلّي الرّجل لنفسه، ويصلّي الرّجل فيصلّي بصلاته الرّهط»، فقال

---

(١) أي في رمضان كما في بعض الروايات، انظر: تخريج الحديث أدناه.

(٢) هذا لفظ الإمام مسلم كتاب صلاة المسافرين باب الترغيب في قيام رمضان ١/٥٢٤/٧٦١، وأخرجه الإمام البخاري بنحوه في كتاب صلاة التراويح باب فضل من قام رمضان ٢/٢٥٢، وأخرجه الإمام مالك بنحوه مختصراً في كتاب الصلاة باب الترغيب في الصلاة في رمضان ١٠٥/١٠٠، وأخرجه أبو داود بنحوه مختصراً في كتاب الصلاة باب في قيام شهر رمضان ٢/١٠٤/١٣٧٣، والنسائي بنحوه مختصراً في كتاب قيام الليل باب قيام شهر رمضان ٣/٢٠٢.

(٣)، (٤) فتح الباري ٤/٢٥٢.

(٥) انظر: فتح الباري ٤/٢٥٢، شرح النووي على صحيح مسلم ٦/٣٩، ٤٠.

(٦) الأوزاع: الجماعات، القاموس المحيط ٣/٩٣.

عمر: «إنّي أرى لو جمعتُ هؤلاء على قارىء واحد لكان أمثل، ثمّ عزم فجمعهم على أُبيّ بن كَعْب. . . »[1].

ثمّ إنّ المعنى الذي قصده المحدّث القروي ابن الحدّاد بالبدعة هنا هو نفس المعنى الوارد عن عمر رضي الله عنه، فقد جاء في آخر الحديث السّابق: «. . . ثمّ خرجتُ معه ليلة أخرى، والنّاس يصلّون بصلاة قارئهم»، قال عمر: «نِعْم[2] البدعة هذه. . . ».

وقد أمرنا الرّسول ﷺ باتّباع سنّته وسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديّين من بعده، بل أمر بالاقتداء بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وذلك أمر زائد على مجرّد الاتّباع[3].

- وفي بعض هذه المجالس وقعت المناظرة في مسألة حكم تقديم المفضول مع وجود الفاضل، قال ابن الحدّاد. . . قال لي: «أليس قولك إجازة تقديم المفضول على الفاضل؟»، فقلت: «أعزّك الله بتوفيقه، أنا مُتّبع في ذلك لكتاب الله وسنّة نبيّه عليه السّلام، وذلك لا يخفى عن ذي لبّ نظر في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ولا يعدوهما إلى غيرهما»، قال لي: «وأين تجد ذلك في كتاب الله؟»، قال: «قلت له: قال الله: ﴿وقَالَ لَهُم نَبِيُّهم إنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً، قَالُوا أَنّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا، وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ منه. . . ﴾[4]. . . وهذه سنّة رسول الله ﷺ، فانظر منها إلى تقديم المفضول على

---

(١) صحيح البخاري كتاب صلاة التراويح باب فضل من قام رمضان ٢/٢٥٢، وأخرجه الإمام مالك بنحوه في كتاب الصلاة باب ما جاء في قيام رمضان ١٠٥/١٠٢.

(٢) لفظ الموطأ: نعمت، وراجع عن تخريجه التعليق السابق.

(٣)، (٤) انظر عن بعض الأحاديث المصرحة بذلك: صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة ١/٤٧٣/٣١١، سنن الترمذي، كتاب العلم باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٥/٤٤/٢٦٧٦، وكتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر ٥/٦٠٥/٣٦٦٣، سنن أبي داود كتاب السنة، باب في لزوم السنة ٥/١٣، ١٤، /٤٦٠٧، مسند أحمد ٤/١٢٦، ١٢٧، ٣٨٥، سورة البقرة: الآية ٢٤٧.

الفاضل، وهو ما لا ينكره أحد، من ذلك أنّ رسول الله ﷺ أمّر على جيشٍ عمرو بن العاص[1]، فكان يقسم الفيء، ويأمر وينهى فيُطاع، ويصلّي لهم الصّلوات، ويشاورونه، ويستأذنونه في جميع شأنهم، وتحت يديه في الجيش أبو بكر وعمر وهما جميعاً أفضل منه[2]، لا يشكّ في ذلك أحد.

وأيضاً، إنّ النّبيّ ﷺ أمّر على جيش زيد بن حارثة[3]، فكان يفعل في ذلك وفيمن تحت يديه من المسلمين كفعل عمرو بن العاص فيمن تحت يديه من المسلمين، وتحت يديه في الجيش ذو الجناحين جعفر بن أبي طالب، وهو أفضل من زيد بن حارثة[4]، فلمّا ثبت ذلك عندنا، وقام مقام العيان جاز للأمّة تقديم

---

(١) وذلك في غزوة ذات السلاسل. انظر: صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة ذات السلاسل ١١٣/٥.
وقد جاء التصريح بكون أبي بكر وعمر كانا ضمن هذا الجيش في حديث ذكره الهيثمي وعزاه إلى الطبراني وقال: رجاله ثقات. مجمع الزوائد ٣٥٢/٩ كما ورد ذلك في ط ابن سعد ١٣١/٢.

(٢) إجماع أهل السنة على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيّها ﷺ أبو بكر ثم عمر رضي الله عنهما. انظر: شرح الطحاوي ٤٣٢، الجامع لابن أبي زيد ١١٥، وراجع حديث التفضيل في صحيح البخاري فضائل الصحابة، باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ ١٩١/٤، علوم الحديث لابن الصلاح ٢٦٨.

(٣) وذلك في غزوة مؤتة من بلاد الشام. انظر: صحيح البخاري. كتاب المغازي باب غزوة زيد بن حارثة ٨٤/٥، وباب غزوة مؤتة ٨٦/٤ وقد ورد في الموضع الثاني التصريح بوجود جعفر في هذه الغزوة وأنه استشهد فيها، وهو الذي حمل الراية بعد زيد بن حارثة، كما ورد ذلك ط ابن سعد ١٢٩/٢.

(٤) لم أعثر على من ذكر خصوص المفاضلة بين هذين الصحابيين، ولعل ابن الحداد جزم بذلك من خلال فضائل كل منهما، انظر: مناقب جعفر في صحيح البخاري، فضائل أصحاب النبي ﷺ باب مناقب جعفر ٢٠٩/٤، وفي صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل جعفر ١٩٤٦/٤/٢٥٠٢، ٢٥٠٣، وانظر: مناقب زيد في صحيح البخاري فضائل أصحاب النبي ﷺ باب مناقب زيد ٢١٣/٤، وفي صحيح مسلم كتاب =

المفضول على الفاضل. فقال لي: «نحن لا نقول كقولك: إنّ للأمّة أن تجتمع فتقدّم على نفسها إماماً، وإنّما يكون الإمام من اصطفاه الله ورسوله، وأمّا من لم يُقدّمه الله على خلقه، ولم يقدّمه رسول الله ﷺ فكيف له التّقديم؟».

فقلت: «أعزّ الله السّيّد، إنّ الذي اصطفاه الله ورسوله لا يعدو إحدى منزلتين: إمّا أن ينطق به كتاب ناطق، أو سُنّة ثابتة عن رسول الله، ولمّا لم نجد في كتاب الله أنّ الله نصّب إماماً وفرض طاعته، ولا رسوله، لم يُقم إنساناً بعينه فيقول: أيها النّاس هذا وصيّي وخليفتي من بعدي، وكان يقول صباحاً ومساءً: «خلّفت فيكم ما إن تمسّكتم به لم تضلّوا: كتاب ربّي وحواريّي أصحابي»[1]... كان من اجتمع عليه المسلمون ثابت الأمر صحيح الأحكام...»[2].

وقد اقتصرت على هذه النّماذج وهناك غيرها كثير في مناظرات ابن الحدّاد وغيره[3].

= فضائل الصحابة باب فضائل زيد ٤/١٨٨٤/٢٤٢٥، ٢٤٢٦، وبالمقارنة نجد أن لجعفر من الفضائل ما لا يشاركه فيه زيد.

(١) هذا حديث مشهور له عدة روايات بألفاظ مختلفة وليس في واحدة منها ذكر الأصحاب إنما في بعضها ذكر السنة وفي بعضها ذكر آل البيت بدل الأصحاب هنا.
انظر: الموطأ كتاب الجامع باب النهي عن القول بالقدر ٢٤/٧٨٥، وهو من بلاغات مالك وقد ذكر ابن عبدالبر أنّ وصله، انظر: التقصي ٨١٦/٢٥١، سنن الترمذي كتاب المناقب مناقب آل بيت النبي ﷺ ٣٧٨٦/٦٦٢/٥، سنن أبي داود كتاب المناسك باب صفة حج النبي ﷺ ١٩٠٥/٤٦٢/٢، سنن ابن ماجه أبواب المناسك باب حجة رسول الله ﷺ ٣١٢٥/٢٥٧/٢، وليس عند أبي داود وابن ماجه إلا ذكر الكتاب فقط، سنن الدارمي كتاب فضائل القرآن باب فضل من قرأ القرن ٤٣٢/٢، مسند أحمد ٢٦/٣، ٥٩، وراجع كتاب مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة للسيوطي ٧، وأخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب العلم ٩٣/١، وذكر له شاهداً، وتابعه على ذلك الذهبي في تلخيص المستدرك ٩٣/١، وقال: «وله أصل في الصحيح».

(٢) ط الخشني ٢٠٨ ـ ٢١٠.

(٣) انظر مثلاً: المدارك ١٩٨/١، ٣٢١، ٥٩٩، المعالم ٩١/٣، ٩٢.

٢ ـ **المناظرات الخاصّة**: وهي التي تنعقد بين عالمين في عدد قليل من الطّلّاب، أو تكون في صورة أسئلة توجّه إلى الشّيخ، وهي أقرب إلى المناقشة والمحاورة في العلم منها إلى المناظرة، ونماذجها كثيرة[١] منها:

١ ـ قال أبو الحسن القابِسي[٢]: «... هربت من يد صبيّ دابّة كان يُمسكها لنا، فقلت: «أعطوها لصبيّ لا يقوم بها فضاعت». فقال لي أبو إسحٰق[٣]: «قد اغتبته»، فقلت له: «وصفتُه بحاله وقلّة مقدرته، وفي السُّنّة ما يُبيح ذلك»، فقال: «وأين هو؟»، قلت: «قوله عليه الصّلاة والسّلام للتي شاورته في النّكاح: أمّا أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأمّا معاوية فصعلوك لا مال له»[٤]. قال: فقال لي: «ليس في هذا حجّة؛ لأنّ المستشار مؤتمن، وأيضاً فإنّما مشاورته لتنكح برأيه، يدخلها في النّكاح أو يصرفها عنه، وليست مسألتنا كذلك، بل في السُّنّة ما يمنعك من ذلك»، وذلك أنّ النّبيّ ﷺ أتاه طبيبان، وكانا

---

(١) انظر: ط الخشني ١٧٢، المعالم ١/١٧٨، الرياض ٢/٢١٦، ط أبي العرب ٤٥، ٤٦، المدارك ٣/٥١١.

(٢) إمام عصره في الحديث والفقه بالقيروان (ت ٤٠٣) ستأتي ترجمته رقم ٢٤ في المحدثين.

(٣) أبو إسحٰق إبراهيم بن أحمد الجبنياني أحد الأئمة، عالم عامل، متفنن في علوم شتى. انظر: الشجرة ١/٩٥، المدارك ٣/٤٩٧.

(٤) أخرجه الإمام مسلم كتاب الطلاق باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها ٢/١١١٤/١٤٨٠ وأخرجه أبو داود في كتاب الطلاق باب في نفقة المبتوتة ٢/٧١٢/٢٢٨٤، وأخرجه النسائي في كتاب النكاح باب إذا استشارت المرأة رجلاً فيمن يخطبها ٦/٧٥، والإمام مالك في كتاب الطرق باب ما جاء في نفقة المطلقة ٤٨١/٥٧، كلهم من طريق فاطمة بنت قيس بلفظه في حديث طويل. وأخرجه الدارمي بنحوه في حديث طويل وفيه تقديم وتأخير في كتاب النكاح باب النهي عن خطبة الرجل على خطبة أخيه ٢/١٣٥، وأخرجه الإمام أحمد بنحوه في حديث طويل ٦/٤١٢، ٢١٣.

نصرانيين، فلمّا خرجا قال: «لولا أن تكون غيبة لأخبرتكم أيّهما أطبّ»[1]. . . فهذا رسول الله كره في نصرانيّين أن يخبر أيّهما أطبّ، فكيف بمسلم؟ . . .»[2].

٢ ــ قال القابِسي: واجتمعت به مرّة أخرى، فجرى لبعض أصحابي معه أن قال له: «يا أبا إسحٰق لم لا تنبسط إلى النّاس وتدعو لهم؟ وأنت تعلم ما جاء في الحديث أنّ النّبيّ ﷺ لمّا توجّه أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه إلى الغزو، قال له النّبيّ ﷺ: «لا تنسنا من الدّعاء»[3]، قال: فلمّا فرغ من قوله قال له الشّيخ أبو إسحٰق: «كذبت على رسول الله ﷺ»[4]، قال: فقال لي صاحبي: «أغثني يا أبا الحسن، وانصرني»، فقلت للشّيخ: «أصلحك الله، إنّه لم يقصد الكذب، إنّما رأى شيئاً ذكره بعض أهل المغازي فظنّه صحيحاً. . . ، ولو ثبت لكان له معنى صحيح. قال: «فما معناه؟»، قلت: «يريد ﷺ ترغيبنا في الدّعاء والجهاد، وأيضاً لئلّا يرغب أحد عن الدّعاء من غيره، وكان يرى النّاس أنّه فوقه، يفعل ذلك ليُستنّ به. . .»[5].

---

(١) لم أقف على هذا الحديث، وقد جاء في الموطأ عن زيد بن أسلم أن رجلاً في زمان رسول الله ﷺ أصابه جرح فاحتقن الجرح الدم وإن الرجل دعا رجلين من بني أنمار فنظر إليه، فزعما أن رسول الله ﷺ قال لهما: «أيكما أطب؟» فقالا: «أو في الطب خير يا رسول الله. . .» الموطأ، كتاب الجامع باب تعالج المريض ١٠١/٨١٢.

(٢) المدارك ٥١٣/٣.

(٣) لم أعثر على من ذكر هذا لأبي بكر، والذي ورد في السنن أن النبي ﷺ إنما طلب ذلك من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد أخرجه أبو داود بنحوه في كتاب الصلاة باب الدعاء ١٤٩٨/١٦٩/٢، وأخرجه الترمذي بمعناه وقال: هذا حديث حسن صحيح، كتاب الدعوات باب ١١٠، ٣٥٦٢/٥٥٩/٥، وأخرجه ابن ماجة بمعناه في أبواب المناسك باب فضل دعاء الحاج ٢٩٤٣/٢١١/٢، كلهم من طريق عمر وفي أوله قصة.

(٤) لعله يقصد خصوص تعلق ذلك بأبي بكر، وإلا فقط ثبت الحديث، وتقدم حكم الترمذي عليه بأنه حسن صحيح، ويمكن أن يقصد بالكذب هنا الغلط وذلك وارد، انظر: قواعد في علوم الحديث ١٧٠.

(٥) مناقب أبي إسحٰق الجبنياني ١٥.

- قيل لحَمْدِيس[1]: «لو أنّ إماماً عمل بالمعصية[2] أكنت تأمره وتنهاه؟»، قال: «لا» واحتجّ بالحديث[3]: «ينبغي للمؤمن ألاّ يُذل نفسه». قالوا: وكيف يُذل نفسه؟ قال: «يعرّضها من البلاء إلى ما لا طاقة لها به». وذكر حديث مالك قال: «أدركت سبعة عشر تابعيّاً فما سمعت أنّهم قاموا إلى إمام جائر فوعظوه»[4]. فقيل له: «فلو أنّ إماماً دعا إلى البدعة وأمر بها وبات بالدّار؟»، قال: «نجاهده»[5].

وبهذا أختم الكلام على مباحث الدّراية لدى القرويّين، وهي بالرّغم من عدم عمقها نظراً لمحدودية المادّة العلميّة المتوافرة حولها إلاّ أنّها تشير بوضوح إلى اهتمام محدّثي القَيْرَوان بهذه الجوانب، خاصّة إذا استحضرنا أنّ الاصطلاحات العلميّة لا زالت لم تستقرّ بعدُ في هذه الفترة التي أدرسها (٥٠ - ٤٤٩)، وأنّ علوم الدراية لم تتعمّق بعدُ حتّى في المشرق، وإن كان تقدّمهم على القرويّين واضحاً في هذا المجال.

ثمّ أخلص الآن إلى الحديث عن صلة هذه المدرسة القيروانيّة بمدرستي المشرق، والأندلس، ومختلف بلاد المغرب، ومدن إفريقيَّة، وخاصّة في مجال الحديث وعلومه.

---

(١) من أعلام أهل السنة بالقيروان وكبار تلاميذ سحنون، وكان شديداً على أهل البدع، كثير العبادة والكُتب، له رحلة ورواية (ت ٢٨٩)، انظر عنه: ط الخشني ١٤٤، الرياض ٤٨٨/١، المدارك ٢٥٤/٣، المعالم ٢٠١/٢.

(٢) أي في نفسه، ولم يجاهر بها أو يدعو إليها، كما يفيده السياق.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن باب ٦٧، وقال: حسن غريب ٢٢٥٤/٥٢٢/٤، وابن ماجه في أبواب الفتن باب قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾ ٤٠٨١/٤٨٨/٢، والإمام أحمد في مسنده ٤٠٥/٥، كلهم من طريق حذيفة بنحوه.

(٤) ورد عن الإمام مالك اختلاف العلماء في مسألة نصح السلطان مع التمثيل لكلّ، انظر: الجامع لابن أبي زيد ١٥٨، أما هو فقد اختار لنفسه نصحهم، انظر: المدارك ٢١٧/١ - ٢١٩.

(٥) الرياض ٤٨٩/١، المعالم ٢٠٣/٢.

الفَصْل الثَالِث

صلة هذه المدرسة بمدرستي المشـرق والأندلس، وبعض مدن إِفريقيَّة

مـدخـــل:

إنّ الموقع الجغرافي لمدينة القَيْرَوان، وما اشتهر به أهلها في هذه الفترة من الفضل، والإقبال على العلم، قد رشّحها لتكوين صلات ثقافيّة وثيقة مع أهل المشرق من جهة، ومع أهل المغرب والأندلس من جهة أخرى.

فكان يقصدها من المشارقة كلّ صاحب مصلحة في المغرب والأندلس، كالتّجّار، والشّعراء، وبعض العلماء، وطلبة العلم، والوافدين لخدمة السّلطان، والفارّين من أعدائهم السّياسيّين أو العقديّين وغير ذلك.

كمـا كان يقصـدها من الأنـدلسيّين والمغاربـة: طلبة العلم، والحجيـج، والتّجّار في طريقهم إلى المشرق ويستقرّون بها مدة للطلب وغيره، ثم يمرّون بها في طريق عودتهم، ومنهم من ينشر فيها ما تلقّاه في رحلته من العلم.

وهؤلاء وأولئك يتأثّرون بالحياة العلميّة في القَيْرَوان، ويؤثّرون فيها، بل إنّ منهم من استهوته القَيْرَوان فاتّخذها موطناً، وأخذ مكانه بين علمائها.

وكلّ ذلك هيّأ لمدرسة القَيْرَوان تكوين صلات علميّة مع أهل تلك البلاد، واقتباس ما فيها من العلوم ونشرها في إفريقيَّة والقيروان، كمـا أنّ علماء تلك البلاد قد أفادوا من علوم القرويّين ونشروها في بلادها.

ويضاف إلى ما سبق الرّحلات المكثّفة التي قام بها القرويّون إلى مختلف بلاد الأندلس والمشرق لطلب العلم، وخاصّة الحرمين الشّريفين لأداء فريضة الحجّ، والصّلاة في الحرم النّبوي، ثمّ الالتقاء بالعلماء والأخذ عنهم.

ومن القرويّين من استمالته بعض مدن المشرق فأقام فيها، وأسهم في إثراء الحياة العلميّة بها.

وقد تكوّن لهؤلاء وأولئك صلات علميّة، نتجت عنها بعد ذلك مكاتبات واستدعاءات للإجازة، وتبادل للكتب، ونحو ذلك من مظاهر الصّلة.

وممّا ساعد على إذكاء هذه الصّلات العلميّة، وذلك التّلاقح الفكري، عدم قيام حواجز وعراقيل أمام العلماء عند تنقلهم في أرجاء الوطن الإسلامي الفسيح، بالرّغم من العداوات السّياسيّة أحياناً، وكان الواحد منهم يختار الإقامة حيث شاء، ويَحتلّ مكانه بين علماء مقرّ إقامته، كأيّ واحد منهم، لا يتفاضل بعضهم على بعض إلاّ بالتّقوى والعمل الصّالح، ثمّ الكفاءة العلميّة.

وقد مرّ كثير من معاني هذا الفصل في التّمهيد، وعند الحديث عن الرّحلة، وعند ذكر أنواع التّحمل في فصل علوم الرّواية، والمقصود هنا زيادة توضيح هذا الجانب وتأكيده، وذكر الملامح العامّة لهذه الصّلة مع مزيد من النّماذج التي تمثّلها.

أوّلاً: الصّلة بمراكز العلم في المشرق:

يعتبر المشرق بالنّسبة للقَيْرَوان من أهمّ مصادر إثراء الحياة العلميّة فيها، وقد أدرك القرويّون ذلك، وشعروا بحاجتهم إلى علم المشارقة، وخاصّة بعد انقراض من عندهم من التّابعين، قُبيل منتصف القرن الثّاني، فأقبلوا عليه بصفة مكثّفة للإفادة من علمائه، كما اهتبلوا فرصة وجود بعض أهله بينهم لتحمّل ما عندهم من العلم، وأخذوا علوم المشارقة أيضاً ممّن كان يأتي إليهم من الأندلسيّين بعد عودتهم من المشرق وسماعهم من أهله.

ولئن كان القرويّون قد كوّنوا صلات علميّة بمعظم حواضر العلم في المشرق فإنّ أربعة منها كانت لها الأولويّة عندهم، وتكثّفت صلتهم بها، وهي على التّرتيب بحسب درجة الصّلة: المدينة المنوّرة، ومصر، والعراق، ومكّة المكرّمة، ويلي ذلك حواضر أخرى هي بلاد الشّام، واليَمَن، وخُراسان، والرّيّ، وبُخارى، وأَصْبَهان.

١ ـ الصّلة بالمدينة المنوّرة:

إنّ مدرسة المدينة المنوّرة، ممثّلة في الإمام مالك ومنهجه وموطّئه وتلاميذه المدنيّين، تُعدّ أكثر المدارس المشرقيّة تأثيراً في مدرسة القَيْرَوان، ولا أكون مبالغاً إذا أكّدت أنّ القَيْرَوان كانت أقوى فروع المدرسة المالكيّة على الإطلاق، وخاصّة في عهد الإمام سَحنون (١٦٠ ـ ٢٤٠) ومدوّنته، فقد امتازت الصّلة بين المدرستين بالكثافة والعمق وبعد الأثر، وكان من نتائجها أن اختار أهل القَيْرَوان منهج مالك الذي يعتمد على الحديث والأثر وينفر من الرّأي.

وكان لهذه الصّلة بُعدها التّاريخي، فقد دخل إفريقيَّة من تابعي المدينة ـ إذا استثنينا من دخلها غازياً ـ جماعة[١] منهم: يحيى بن سعيد الأنصاري (ت ١٤٤ وقيل بعدها)، الحافظ الفقيه الحجّة، شيخ الإمام مالك[٢]، وسمع بتونُس من المحدّث خالد بن أبي عِمران (ت ١٢٥ أو ١٢٩)، وأقام بها مدّة طويلة لدرجة أنّ أحد أبواب جامع الزّيتونة كان معروفاً باسمه إلى بداية القرن الرّابع، كما تدلّ عليه رواية الخُشَني (ت ٣٦١ وقيل بعدها)، وذلك يقتضي أنّه حدّث بها[٣].

ولعلّ هذه المعرفة للأفارقة والقيروانيين بتابعي المدينة هي التي جعلتهم يرسلون خالد بن أبي عِمران حوالي سنة ٩٤ هـ ليسأل لهم أهلها، كما تقدّم،

(١) انظر: مباحث التابعين الذين دخلوا القيروان في الفصل الأول من الباب الثالث.

(٢) انظر: الكاشف ٣/٢٢٥، التقريب ٢/٣٤٨.

(٣) انظر: ط أبي العرب ٢٥، ٢٦، ٢٤٥، ٢٤٦، الرياض ١/١٤٧، ١٤٨، الإمام المازري ١٤.

حيث قالوا له: «إنك تقدم على المدينة، وبها أبناء أصحاب رسول الله ﷺ، فسلهم لنا»، فكتب عنهم كتاباً كبيراً كان يُروى بالقَيْرَوان[1]، وقد اعتمده الإمام سَحنون في مدوّنته[2]، وابن عبدالبرّ في التّمهيد[3] وغيرهما.

وفي أوائل القرن الثّاني سمع عبدالله بن علي الإفريقي من جماعة من المدنيّين منهم: محمد بن مسلم بن شِهَاب الزُّهْرِي (ت ١٢٤)، وصَفوان بن سُليم، ومحمّد بن المُنْكَدِر[4].

وفي بداية العقد الخامس من القرن الثّاني بدأت صلة القرويّين والأفارقة عموماً بالإمام مالك بن أنس، كما تقدّم، وذلك عن طريق عبدالله بن فَرُّوخ (ت ١٧٦) والبُهلول بن راشد (ت ١٨٣) وعبدالله بن غانم (ت ١٩٠)[5]، ثمّ تتالت عليه أفواج علمائهم حتّى إنّ عدد الرّواة عنه قد وصل إلى ٤٤ رجلاً فيما وصلت إليه بعد البحث والتّتبّع[6]، خلافاً لما هو سائد من أنّهم أكثر من ثلاثين رجلاً[7]، منهم ستّة حملوا عنه الموطّأ وأدخلوه إلى القَيْرَوان[8]، التي شاع فيها الموطّأ بروايات غير إفريقيَّة أيضاً[9].

ولم تقتصر صلة القرويّين بالإمام مالك على السّماع منه، وحمل موطئه، والاهتمام به، فقد كان يتابع أخبارهم، ويهتمّ بهم، ويتعهّدهم بالتّوجيه[10]، وكانت

---

(١) انظر: ط أبي العرب ٢٤٥، ٢٤٦، الرياض ١/١٦٣.

(٢) انظر: المدونة ١/٢٨، ٣٩٨، ٢/٤٠، ٣/٣، ٤/٤٨، ٥٨.

(٣) انظر: التمهيد ١/٣٢٧، ٣/١٧١، ١٧٣.

(٤) انظر: ترجمته رقم ٢٠ في المحدثين.

(٥) انظر: الرياض ١/٢١٦، المدارك ١/٣١٧، المعالم ١/٣٠٤.

(٦) تقدم ذكر أسمائهم في مبحث دخول الموطأ في فصل الرواية ص ١٦٦.

(٧) انظر: الحلل ١/٣/٧٧٥، المعالم ٢/٨٣.

(٨)، (٩) راجع مبحث دخول الموطأ.

(١٠) انظر: الرياض ١/١٧٧.

بينه وبين بعض علمائهم مكاتبات مثل: عبدالله بن عمر بن غانم (ت ١٩٠)[١]، وعبدالله بن فَرُّوخ (ت ١٧٦)[٢]، كما كانت كتبه الأخرى غير الموطّأ تُروى بالقَيْرَوان، وهي رسائل صغيرة[٣].

وبعد وفاة الإمام مالك سنة ١٧٩ هـ[٤] استمرّت صلة أهل القيروان بالمدينة على كثافتها في حياته، حيث قصد أهلُها تلاميذَ الإمام، وكان الإمام سَحنون (ت ٢٤٠) يسمّيها «عش مالك» حاثّاً تلاميذه على الرّحلة إليها والاستفادة من علمائها[٥]، وقد رحل إليها عون بن يوسف الخُزَاعي (ت ٢٣٩) سنة ١٨٠ هـ ولقي بها أربعين عالماً[٦].

وممّن مثّل الصّلة من جهة المدنيين في هذه المرحلة: المحدث الثقة أبو ضمرة أنس بن عياض الليثي (ت ٢٠٠)، وهو صاحب رواية واسعة، احتجّ به أصحاب الكتب السّتّة[٧]، وقد سمع منه الإمام سَحنون[٨]، وزيد بن سنان الأسدي (ت ٢٤٤)[٩]، وموسى بن معاوية الصُّمَادِحي (ت ٢٢٥)[١٠]، ومحمد بن تميم العَنْبَرِي (ت ٢٦٠)[١١]، وكانت كتبه تُروى بالقَيْرَوان[١٢].

وعبدالله بن نافع الصّائغ (ت ٢٠٦)[١٣]، سمع منه معاوية بن الفضل (ت ١٩٩)[١٤]، والإمام سَحنون (ت ٢٤٠)[١٥]، وغيرهما.

---

(١) انظر: تاريخ الرقيق ١٧٥، ٢٢٩.
(٢) انظر: ط أبي العرب مح ١٠٧.
(٣) انظر: المدارك ١/٢٠٤ - ٢٠٦.
(٤) التقريب ٢/٢٢٣.
(٥) انظر: المدارك ١/٥٢١، المعالم ٢/٨٣، الرياض ١/٤٤٤.
(٦) انظر: ط أبي العرب ١٠٥، وترجمته رقم ٢٦ في المحدثين.
(٧) التقريب ١/٨٤.
(٨) انظر: المدونة ٣/٢٨٤، ط أبي العرب ١٠٢.
(٩) المدارك ٣/١٤.
(١٠) المحن ٨٢.
(١١) المدارك ٤/١٩٢.
(١٢) انظر: ط أبي العرب ١٦٨، المعالم ٣/٩٧.
(١٣) التقريب ١/٤٥٦.
(١٤) الشجرة ١/٦٩.
(١٥) المدارك ١/٢٠٥.

وأبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزُّهْرِيّ، (ت ٢٤٢)[١]، وقد سمع منه محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦)[٢] وفُرات العَبْدي (ت ٢٩٢)[٣]، وغيرهما.

أما بعد انقراض طبقة تلاميذ مالك فقد فترت الصّلة بين القَيْرَوان والمدينة، فكان الذين يقصدونها للطّلب من القرويّين آحاداً مثل أحمد بن مُعتِّب (ت ٢٧٧)، ويحيى بن عمر (ت ٢٨٩)، وعيسى بن مسكين (ت ٢٩٥)، ومحمد بن مسرور (ت ٣٤٦)، وعبدالله بن أبي هاشم (ت ٣٤٦)، وعبدالله بن أبي زيد (ت ٣٨٦)[٤].

ولم يقتصر القرويّون في صلتهم بالمدينة على الطّلب فإنّ منهم من حدّث بها أيضاً، مثل البُهلول بن راشد (ت ١٨٣)[٥]، وعبدالله بن غانم (ت ١٩٠)[٦]، وقد سمع منهما بها المحدث الثّقة عبدالله بن مَسْلَمَة القَعْنَبِيّ (ت ٢٢١)[٧].

وأمّا دخول المدنيّين إلى القيروان فلم يكن ملحوظاً في هذه الفترة، حيث لم أجد ذكراً لمن دخلها منهم إلا اثنين من الرّواة، حسب المادّة العلميّة المتوافرة، هما: عليّ بن يونس اللَّيْثِي[٨]، وعبدالعزيز بن يحيى المدني[٩]، وكلاهما من الرّواة عن مالك، وقد حدَّثا بالقَيْرَوان.

٢ ــ الصّلة بمصر:

تأتي مصر في الدّرجة الثّانية بعد المدينة المنوّرة من حيث كثافة الصّلة،

---

(١) التهذيب ١/٢٠.
(٢) الرياض ١/٤٤٤.
(٣) ط أبي العرب مح ٥٩.
(٤) انظر تراجمهم في المحدثين على التوالي: ٢، ٢٧، ٣٤، ٢٢، ١٩، وترجمة يحيى بن عمر رقم ٩ في المهاجرين.
(٥) الحلل السندسية ١/٣/٧١٣.
(٦) الجرح والتعديل ٥/١١٠.
(٧) التقريب ١/٤٥١.
(٨) انظر: ط أبي العرب مح ١٥٩، الرياض ١/٢٩٢.
(٩) انظر: الشجرة ١/٥٧، ط أبي العرب مح ١٥٨.

وعمق أثرها بينها وبين القيروان، وذلك في عهد مالك وتلاميذه، أمّا بعد انقراضهم فقد زادت تلك الصّلة متانة.

وتمثّل مصر من النّاحية الجغرافية المدخل الطّبيعي للأفارقة إلى المشرق في هذه الفتره، فلا يمكن أن يدخله طالب علم أو حاجّ أو تاجر إلّا إذا مرّ بمصر، هذا بالإضافة إلى توافق القرويّين مع معظم المصريّين في اتّباع منهج المدرسة المالكيّة، وخاصّة قبل ذيوع أمر الإمام الشّافعي (ت ٢٠٤) بمصر، فلا عجب أن كانت الصّلات العلميّة وثيقة بين المدرستين.

وقد جمعت هذه الصّلة بين الأخذ والعطاء، ومن أوائل من دخل مصر من الأفارقة:

ـ خالد بن أبي عِمران (ت ١٢٥ أو ١٢٩)، وقد حدّث بها، سمع منه حَيْوَة بن شُريح (ت ١٥٨ أو ١٥٩) وعبدالله بن لَهِيعة (ت ١٧٤)[١].

ـ وعبدالرحمن بن زِياد الإفريقيّ (ت ١٦١)، سمع منه: عبدالله بن وهب (ت ١٩٧)[٢] وابن لَهِيعة[٣].

ـ وعُبَيد الله بن زَحْر الكِنَانِيّ[٤]، سمع بها من أبي الهَيْثَم مولى عُقبة بن عامر، وحدث عنه من أهلها المُفَضَّل بن فَضَالة (ت ١٨١) ويحيى بن أيّوب (ت ١٦٨) وبَكر بن مُضر (ت ١٧٣ أو ١٧٤)، وممّن دخلها بعد أولئك: عبدالله بن فَرُّوخ (ت ١٧٦)، وقد قدمها في السّنة التي توفّي فيها ـ بعد أن كان دخلها في رحلته الأولى ـ، ونوى الإقامة بها فراراً من مشاورة ابن غانم له في أمور القضاء، وحدّث عنه جماعة كثيرة من أهلها وقالوا: «طمعنا أن يكون خَلَفاً لنا من اللّيث (ت ١٧٥)»، وقد اشتدّ تأثّر علمائها لوفاته[٥].

---

(١) ط أبي العرب ٢٤٥.   (٢) الرياض ١/١٥٢.

(٣) التهذيب ٦/١٧٣.

(٤) انظر: ترجمته رقم ٢٣ في المحدثين.

(٥) انظر: الرياض ١/١٧٨، وترجمته رقم ٣ في المحدثين.

وكان حديث يحيى بن سلاَّم البَصْرِيّ نزيل القَيْرَوان يُروى بمصر[1]، وقد حدث عنه جماعة من أهلها منهم: أُصْبَغ بن الفَرَج (ت ٢٢٥)، واللّيث بن سعد وابن لَهِيعة وابن وَهْب، ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم (ت ٢٦٨)[2].

وسمع بها البُهلول بن راشد (ت ١٨٣) من اللّيث بن سعد، وموسى بن عُلَيّ بن رباح (ت ١٦٣)[3].

وسمع بها عبدالله بن غانم (ت ١٩٠) من عبدالله بن لَهِيعة، وروى عنه عبدالرحمن بن القاسم (ت ١٩١)[4].

ومكث فيها أسد بن الفُرات (ت ٢١٣) أكثر من سنتين بعد مغادرته للعراق، ولازم من بها من كبار أصحاب مالك، وخاصّة عبدالرحمن بن القاسم الذي تنازل له عن ختمة[5]، ليجيبه عن مسائل الأسديّة[6].

وسمع الإمام سَحنون (ت ٢٤٠) من كثير من أهلها، وخاصّة ابن القاسم الذي أعاد عليه سماع الأسديّة، التي سمّيت المدوّنة بعد أن بوّبها سَحنون وذيّل مسائلها بأدلّتها من الآثار، وابن وَهْب وقد حمل عنه جميع كتبه ورواها بالقيروان، وأشهب بن عبدالعزيز (ت ٢٠٤)، وقد أخذ عنه حديثاً كثيراً وفقهاً، وغيرهم[7].

ولمّا دخل محمد بن سَحنون (ت ٢٥٦) مصر أقبل عليه العلماء، وحاوروه في العلم، وسمع من بعضهم، مثل الحافظ أبي الطاهر أحمد بن عمرو بن السَّرْح

---

(١) انظر: ط أبي العرب ٣٨.

(٢) انظر: ترجمته رقم ٨ في المهاجرين.

(٣) ط أبي العرب مح ١٢٦.

(٤) انظر: ترجمته رقم ٢١ في المحدثين.

(٥) كان ابن القاسم يختم القرآن كل يوم وليلة ثلاث ختمات، فترك واحدة ليجيب في الوقت المخصص لها على أسئلة أسد. انظر: الرياض ١/٢٦١.

(٦) انظر: ترجمته رقم ٤ في المحدثين.

(٧) انظر: الرياض ١/٣٤٧ - ٣٥٠.

(ت ٢٥٠)، وقد كُتب كتابا الإمامة لابن سَحنون بمصر بماء الذهب وأُهديا إلى الخليفة[١].

وسمع فُرات العَبْدي (ت ٢٩٢) من جماعة من أهلها، منهم: أَصْبَغ بن الفَرَج (ت ٢٢٥)، ويحيى بن عبدالله بن بُكير (ت ٢٣١)، ونُعيم بن حمّاد المَرْوَزِيّ نزيل مصر (ت ٢٢٨)[٢].

ودخلها عيسى بن مسكين (ت ٢٩٥) مرّتين، سمع في الأولى من الحافظ أبي الطّاهر ابن السَّرح، والحافظ الحارث بن مسكين (ت ٢٥٠)، والمحدّث يونس بن عبدالأعلى الصَّدَفِي (ت ٢٦٤) وغيرهم، وخصّص رحلته الثّانية لسماع مسند محمد بن سنجر (ت ٢٥٨)[٣].

وفي سنة ٣٠٠ هـ رحل إليها مَسَرَّة بن مُسلم، وسمع من جماعة من أهلها منهم الإمام أحمد بن شُعيب النَّسائي الحافظ (ت ٣٠٣)[٤].

وسمع بها لقمان بن يوسف (ت ٣١٨ أو ٣١٩) من علي بن عبدالعزيز، ويحيى بن أيوب ومحمد بن سعيد الأَنْمَاطِيّ وغيرهم[٥].

وعبدالله بن أبي هاشم (ت ٣٤٦)، أخذ بها عن القاضي أبي الحسن علي بن أبي مَطَر (ت ٣٣٩) وغيره[٦]، وحدّث بها أيضاً[٧].

وأقام بها الإمام القابِسي (ت ٤٠٣) قريباً من أربع سنوات، سمع خلالها من كثير من علمائها، منهم: الحافظ حَمْزَة بن محمد الكِنَانِيّ (ت ٣٥٧)، وهو

---

(١) آداب المعلمين ٧٦، الرياض ١/٤٤٤ ـ ٤٤٥.
(٢) المعالم ٢/٢٤٩.
(٣) انظر: ترجمة عيسى رقم ٢٧ في المحدثين.
(٤) المدارك ٣/٣٥٤.
(٥) انظر: ترجمته رقم ٢٩ في المحدثين.
(٦) انظر: المدارك ٣/٣٤١.
(٧) المعالم ٣/٥٧.

راوية سنن النَّسائي عنه، ومنه سمعها القابِسي، وأخذ عن المحدّث أبي بكر محمد بن سليمان النّعّالي (ت ٣٨٠)، ومحمد بن سليمان بن أبي شَرِيف أحد فقهاء الفُسْطَاط، وغيرهم[١].

وسمع بها أبو عِمران الفاسي (ت ٤٣٠) من جماعة، منهم: المحدّث محمد بن أحمد بن الوَشَّاء (ت ٣٩٧)، وعلي بن الحسن البَزَّار الجامع بين الفقه والحديث، والمقرىء عبدالكريم بن أحمد بن أبي جِدَار وغيرهم[٢].

وكتب بها محمد بن سَعدون (ت ٤٨٥) حديثاً كثيراً عن جماعة، منهم: علي بن مُنَيِّر الخَلَّال (ت ٤٣٩)، وعلي بن ربيعة التَّمِيمي، ومحمد بن الحسين النَّيْسَابُورِي[٣].

وقد تمثّلت صلة القرويّين بمصر في الإجازات أيضاً، من ذلك أنّ يونس بن عبدالأعلى الصَّدَفِيّ (ت ٢٦٤) قد أجاز محمد بن مَسْرُور (٢٥٠ - ٣٤٦)[٤]، وحصل عبدالله بن أبي زيد (ت ٣٨٦) على إجازة من محمد بن القاسم بن شَعْبان (ت ٣٥٥)، وإبراهيم المَرْوَزِيّ البغدادي نزيل مصر[٥]. ولأبي بكر عبدالرحمن بن أحمد الخَوْلَانِي (ت ٤٣٢) إجازة من شيوخه المصريّين[٦].

وقد استوطن بعض الأفارقة مصر، منهم: حَمْدِيس بن إبراهيم بن صَخْر اللَّخْمِيّ (ت ٢٩٩)[٧].

وأمّا دخول المصريّين إلى القَيْرَوان فإنّه كان خفيفاً، وممّن فعل ذلك

---

(١) انظر: ترجمته رقم ٢٤ في المحدثين.
(٢) انظر: ترجمته رقم ٧ في المهاجرين.
(٣) انظر: الصلة ٢/٦٠٢، ٢٠٣، وترجمته رقم ٣٣ في المحدثين.
(٤) المدارك ٣/٣٩٠.
(٥) انظر: ترجمة ابن أبي زيد رقم ١٩ في المحدثين.
(٦) انظر: الشجرة ١/١٠٧.
(٧) المدارك ٣/٢٥٩.

عبدالعزيز بن يحيى الرُّعَيْنِيّ، وهو من أتباع التّابعين، وقد سكن القَيْرَوان[1]، وزكريّاء بن يحيى الوَقَّار (ت ٢٥٤) وقد حدّث بها، وتقدّم ذكره في الرّحلة، وزيد بن بشر الأزدي (ت ٢٤٢ وقيل ٢٤٠)، وقد دخل أوّلاً القَيْرَوان، ثمّ سكن تونُس، وكان يحدّث بها ويبثّ فيها العلم، فيرحل إليه القرويّون للأخذ عنه[2]

٣ ــ الصّلة بالعراق:

بالرّغم من أنّ العراق لم تكن في طريق رحلة القرويّين إلى الحرمين فقد تكوّنت صلات علميّة بين الطّرفين، حيث قصد أهل القَيْرَوان مختلف مدن العراق، وخاصّة بغداد والبصرة والكوفة، وأخذوا عن علمائها ومنهم من أقام بها. كما أنّ بعض أهل العراق قد قدموا إلى القيروان واستوطنوها وبثّوا فيها العلم، ويضاف إلى هذا الإجازات المتبادلة بين أهالي الجهتين، والمصنّفات التي أدخلها القرويّون من العراق.

ومن أوائل من مثّل الصّلة بالعراق حسب المادّة العلميّة المتوافرة:

عُرْفُطَة بن حَكيم الإفريقي وقد سمع بها من الحسن البَصْري[3].

وعبدالله بن علي الإفريقي نزيل الكوفة، وهو من أتباع التّابعين، طلب فيها الحديث وسمع منه جماعة من أهلها[4].

وعبدالرحمن بن زياد (ت ١٦١)، طلب العلم بالكوفة، وزامل فيها أبا جعفر المنصور قبل أن يلي الخلافة، وحدّث بها، وقد كتب عنه يحيى القَطَّان بها كتاباً، وسمع بالبصرة أيضاً[5].

---

(١) انظر: الرياض ١/١٦٧، الإكمال ١/٢٠١.

(٢) انظر: المدارك ٣/٩ ـ ١٢، ط أبي العرب ٢٥٥، الرياض ١/٣٩٠.

(٣) المراسيل للرازي ١٣٤.

(٤) انظر: ترجمته رقم ٢٠ في المحدثين.

(٥) انظر: ترجمته رقم ١٦ في المحدثين.

وعُبيدالله بن زَحْر الكِنَانِيّ، سمع الحديث بالبصرة والكوفة، ومن شيوخه هناك الحافظ الثّقة سليمان بن مِهْرَان الأَعْمَش (ت ١٤٧، ١٤٨)[١]، وحدّث عنه جماعة من الكوفيّين منهم مُطرّح بن يزيد[٢].

وعبدالله بن فَرُّوخ (ت ١٧٦)، سمع الحديث من جماعة كثيرة من العراقيّين منهم[٣]: الأَعْمش، وزكريّاء بن أبي زائدة (ت ١٤٧ أو بعدها)، وهشام بن حسّان (ت ١٤٧ أو ١٤٨)، وكتب عن الإمام أبي حنيفة نحو عشرة آلاف مسألة قبل أن يدوّن الإمام كتبه[٤]، وسمع منه ثلاثمائة حديث[٥].

وسمع فيها عبدالله بن غانم (ت ١٩٠) من أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي صاحب أبي حنيفة (ت ١٨٢)[٦]، وكان يكاتبه بعد ذلك[٧]، وقد خصّص ابن غانم يوماً في الأسبوع لقراءة كتب أبي حنيفة على الطّلبة[٨].

وطال مقام أسد بن الفُرات (ت ٢١٣) في العراق لعدّة سنوات، وقد سمع بها حديثاً كثيراً، فقد تحمّل عن هُشَيْم بن بَشِير (ت ١٨٣) اثني عشر ألف حديث، وعن حديث بن زكريّاء ابن أبي زائدة (ت ١٨٣) عشرين ألف حديث، ولازم محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، وكتب عنه مسائل الأسديّة، وناظره فيها، وحدّث فيها بالموطّأ[٩].

وسمع فيها موسى بن معاوية الصُّمَادِحِيّ (ت ٢٢٥) حديثاً كثيراً، فقد أخذ

---

(١) المعالم ٢٤٨/١.

(٢) معجم الطبراني ٢٣٢/٨.

(٣) انظر: المعالم ٢٣٩/١.

(٤)، (٥) الرياض ١٨٠/١، ١٨١.

(٦) الرياض ٢١٥/١، المعالم ٢٨٨/١، ٢٩٣.

(٧) تاريخ الرقيق ٢٢٩.

(٨) انظر: الحلل السندسية ٧٣١/٣/١.

(٩) انظر: ترجمته رقم ٤ في المحدثين.

عن وَكيع بن الجرّاح (ت ١٩٦) خمسة وثلاثين ألف حديث[١]، وسمع من عبدالرّحمٰن بن مَهدي (ت ١٩٨)، ويزيد بن هارون (ت ١٠٦)، وكلّهم من أئمّة الحديث، ورفض الأخذ عن محمد بن الحسن لِمَا بلغه من مخالفته لبعض الحديث[٢].

وسمع فيها أحمد بن مُعَتِّب (ت ٢٧٧) من إسماعيل بن إسحٰق القاضي (ت ٣٠٩)، المحدّث المتقن، جامع المسانيد، وصاحب المصنّفات الجليلة في الحديث وغيره[٣]، ومن الحسين بن حسن المَرْوَزِيّ صاحب عبدالله بن المبارك[٤].

وأخذ سعيد بن إسحٰق الكَلْبِيّ المحدّث (ت ٢٩٤ أو ٢٩٥) عن الإمام أحمد بن حَنْبَل (ت ٢٤١)[٥].

وقدِمها محمد بن علي بن عبدالله القَرَوِيّ (ق ٣)، وسمع بها من جماعة من الرّواة، منهم: محمد بن حُمَيْد الرَّازِي (ت ٢٣٠)، وحفص بن عمر المِهْرِقَانِيّ، وحدّث عنه جماعة من أهل بغداد، منهم: محمد بن مَخْلَد، وعبدالباقي بن قَانِع[٦].

وسمع بها بَكر بن حمّاد من مُسَدَّد بن مُسَرْهَد (ت ٢٢٨)، وأخذ عنه مسنده[٧]، وروى عن عمرو بن مرزوق البَاهِلِيّ (ت ٢٢٤)[٨]، وهما من المحدّثين الثّقات[٩].

---

(١) المعالم ٢/٥٢، الرياض ١/٣٧٧.
(٢) انظر: المدارك ٣/٧.
(٣) المدارك ٣/١٦٨، ٣/٢٣٠.
(٤) انظر: فهرسة ابن خير ٢٨٦.
(٥) المحن ٣١٧.
(٦) انظر: تاريخ بغداد ٣/٦٧.
(٧) البغية ٤٣٣، المعالم ٢/٢٨١.
(٨) المعالم ٢/٢٨١.
(٩) انظر: التقريب ٢/٢٤٢، ٧٨.

وأوطن يحيى بن محمد بن خُشَيْش (ت ٢٨٠) بغداد، وسمع بها، وحدّث عنه جماعة من أهلها، وفي حديثه غرائب ومناكير، كما قال الخطيب[1]، وهو مُتّهم بالوضع، وقد تقدّم ذكره في مبحث الوضع ومدى معالجته في القيروان.

وسمع محمد بن أبي المَنْظُور (ت ٣٣٧) ببغداد من المحدّث المتقن إسماعيل بن إسحٰق القاضي (ت ٣٠٩)[1]، ومن المحدّث الحارث بن محمد بن أبي أُسامة التَّميمي صاحب المسند (ت ٢٨٢)[2].

وأخذ بها مَسَرَّة بن مُسلم (ت ٣٩٣)، عن المحدّث أبي القاسم عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البَغَوِي مسند عصره (ت ٣١٧)[3].

وأخذ أبو عِمران الفاسي (ت ٤٣٠)، عن أبي بكر محمد بن الطَّيِّب البَاقِلَّاني (ت ٤٠٣)، ويبدو أنّ مقامه بها قد طال، وحدّث فيها، لأنّ أبا بكر قد أعجبه حفظ أبي عِمران حتّى قال له[4]: «لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبدالوهاب بن نصر ـ وكان إذ ذاك بالموصل ـ لاجتمع فيها علم مالك، أنت تحفظه، وهو ينصره، لو رآكما مالك لسُرّ بكما».

وعبدالوهاب بن نصر (ت ٤٢٢) المذكور هنا، هو أحد كبار المالكيّة في العراق، وكان متقدّماً في علم المناظرة على طريقة أهل السُّنّة، وكانت له صلة بالقيروان، ورغب في القدوم إليها، ولكنّه توفّي بمصر، وقد شرح بعض كتب القرويّين، مثل: رسالة ابن أبي زيد (ت ٣٨٦)، وشرح كتاب مختصر المدوّنة

---

(١) تاريخ بغداد ١٤/٢٢٣.

(٢) المدارك ٤/٢٧٦، الشجرة ١/٧٤.

(٣) اللسان ٢/١٥٧، الرياض ٢/٣٥٧.

(٤) الشجرة ١/٩٧، اللسان ٣/٣٣٨.

(٥) المدارك ٣/٧٠٤، المعالم ٣/١٦٠.

لابن أبي زيد أيضاً في كتاب سمّاه «المهدي»، وشرحَ المدوّنة غير أنّه توفّي قبل أن يُتمّها[1].

ومن المحدّثين القرويّين الذين استوطنوا بغداد: أبو محمد عبدالله بن سَبْعُون (ت ٤٧١)، وقد حدّث بها، وسمع منه الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣)[2].

وفي المقابل دخل بعض أهل العراق القيروان وبثّوا فيها العلم، منهم: الحارث بن نَبْهان البَصْرِي (ت بعد ١٦٠)، وقد أخذ عنه البُهلول بن راشد (ت ١٨٣)، وهو ضعيف في روايته عند أهل الحديث[3].

ويزيد بن صُهَيب الكوفي المحدّث الثّقة، دخل القيروان في طلب العلم وسمع بها من البُهلول بن راشد (ت ١٨٣)[4].

واستوطن القيروان يحيى بن سلّام البصري (ت ٢٠٠) المحدّث المقرىء المفسّر، وقد أقام بها نحو ستّة عشر عاماً، وحدّث فيها بتفسيره وجامعه[5].

ودخلها كَامل بن طَلْحَة البصري نزيل بغداد (ت ٢٣١ أو ٢٣٢) طلباً للعلم، وقد سمع فيها من عبّاد بن عبدالصّمد صاحب أنس بن مالك، والبُهلول بن راشد، وسمع منه جماعة من أهلها، منهم: داود بن يحيى (ت ٢٤٩)[6].

وأوطنها أبو اليَسَر إبراهيم بن أحمد الشَّيْبَانِيّ البغدادي (ت ٢٩٨)،

---

(١) انظر: المدارك ٣/٦٩١ ـ ٦٩٥.
(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر لابن بدران ٧/٤٣٤.
(٣) انظر: ط أبي العرب ٣٣، ٥٢، الرياض ١/٢٠٠، التقريب ١/١٤٤.
(٤) التقريب ٢/٣٦٦، الرياض ١/٢٠١.
(٥) انظر: ترجمته رقم ٨في المهاجرين.
(٦) انظر: ط أبي العرب ٨٣، ١٠٩، الرياض ١/١٣٨، التقريب ٢/١٢٩، الجرح والتعديل ٢/٤٢٩.

المحدّث، المفسّر، الأديب صاحب المسند، وأدخل إليها رسائل المحدّثين، وطرائف أخبارهم، وقد طال مقامه بها، وبها كانت وفاته[1].

وسكنها المُسَدَّد بن أحمد البصري (ق ٥)، وكان له حظّ وافر من العلم، ورواية واسعة[2].

وكانت الإجازة أيضاً من مظاهر الصّلة بين القيروان والعراق، فقد استدعى جماعةٌ من العراقيّين عبدالله بن أبي زيد (ت ٣٨٦) للإجازة فأسعفهم بها، منهم: أبو عبدالله محمد بن أحمد بن مجاهد البغدادي وأصحابه، ويوجد طَرَف من نصّ الاستدعاء وجواب ابن أبي زيد عليه في ترتيب المدارك[3]، وأبو الفضل محمد بن عبدالله بن عَمْرُوس (ت ٤٥٢)[4].

واستجاز ابنُ أبي زيد جماعةً من العراقيّين، منهم: أبو بكر محمد بن عبدالله الأَبْهَرِيّ (ت حوالي سنة ٣٧٥) الذي كان يروي صحيح البُخاري، وله مؤلّفات في الحديث وغيره[5]، وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المَرْوزِي البغدادي (ت ٣٤٠)[6].

٤ ـ الصّلة بمكّة المكرّمة:

لعلّه من نافلة القول أن أُذكّر بأنّ كلّ مرتحل إلى المشرق من الأفارقة والقرويّين للطّلب أو للتّجارة، لا بدّ أن يدخل مكّة للحجّ والعمرة، كما هو المألوف، هذا عدا من يقصدها منهم لأجل ذلك، فتكون تلك المناسبة المباركة فرصة لملاقاة الشّيوخ، والسّماع منهم، ومباحثتهم، ومساءلتهم في العلم.

---

(١) انظر: ترجمته رقم ١ في المهاجرين.

(٢) انظر: المدارك ٦٩٥/٣.

(٣) المدارك ٤٧٧/٣، ٤٧٨، وانظر: الشجرة ٩٢/١.

(٤) م. ن ٧٦٣/٣.

(٥) انظر: المدارك ٤٦٦/٣، ٤٩٣.

(٦) حسن المحاضرة ٣١٢/١، المدارك ٤٩٣/٣.

وقد استفاد القرويّون من ذلك، فكانوا يأخذون عمّن وُجد بمكّة من العلماء، من أهلها أو ممّن دخلها، فأخذوا عنهم علوم الرّواية والدّراية، وحملوا عنهم مصنّفاتهم، ووُجد من القرويّين من حدّث بمكّة أيضاً، كما سيأتي.

ومن أوائل المرتحلين إليها من القرويّين ممّن له أثر علمي بها: عبدالرحمن بن زياد الإفريقي (ت ١٦١)، وقد حدّث بها، ومن تلاميذه فيها سفيان الثّوري (ت ١٦١)، وعبدالله بن وهب المصري (ت ١٩٧)، وغيرهما كثير من الطّلبة كانوا يجتمعون عليه للسّماع منه، قال ابن وهب[1]: «خرجت إلى مكّة... وكان بها ابن أَنْعُم، وكنت آتيه فأسمع منه...»، ثم ذكر استئذان رجل عليه، وحفاوة ابن أَنْعُم به وقال: «... وأسند إليه حديثه وجرت بينهما مواعظ ومذاكرة، فلمّا خرج قلت لمن بالحضرة من الطلبة: من هذا.... فقالوا: هذا سفيان الثّوري».

ومن أشهر من مثّل الصّلة بمكّة من العلماء الذين وجدوا بها: الإمام سفيان بن سعيد الثّوري (ت ١٦١)، أمير المؤمنين في الحديث، فقد سمع منه كثير من القيروانيّين والأفارقة بمكّة، وحملوا عنه مرويّاته ومصنّفاته، منهم: عليّ بن زياد (ت ١٨٣)[2]، وعبدالله بن فَرُّوخ (ت ١٧٦)، والبُهلول بن راشد (ت ١٨٣)، وعبدالله بن عمر بن غانم (ت ١٩٠)، وهؤلاء الثّلاثة سمعوا منه شهوراً عديدة بقراءة ابن غانم[3]. ومعاوية بن الفضل الصُّمَادِحِيّ (ت ١٩٩)[4]، وعَنْبَسة بن خارجة (ت ٢١٠)[5]، ورباح بن يزيد اللَّخْمِي (ت ١٧٢)[6]، وغيرهم.

وسفيان بن عُيَيْنة الكُوفي ثمّ المكّيّ (ت ١٩٨)، الحافظ الفقيه الإمام

---

(١) الرياض ١/١٥٢، ١٥٣.

(٢) ط أبي العزب ٢٥١.

(٣) الرياض ١/٢١٦.

(٤) الشجرة ١/٦٩.

(٥) الرياض ١/٢٤١.

(٦) انظر: ترجمته رقم ١٠ في المحدثين.

الحجّة، وقد أخذ عنه جماعة من القرويّين، منهم: الإمام سَحنون (ت ٢٤٠)[١]، وزيد بن سِنان (ت ٢٤٤)[٢]، وعبدالله بن أبي حسّان (ت ٢٢٧)[٣]، وعَنْبَسَة بن خَارِجَة (ت ٢١٠)[٤]، وموسى بن معاوية (ت ٢٢٥)[٥]، ويحيى الخَرَّاز (ت ٢٣٧)[٦]، وغيرهم.

ولم يأت بعدهما من اجتمع على السّماع منه مثل هذه الأعداد من أهل القيروان، وإنّما كان العالم يروي عنه منهم الواحد والإثنان. . .

فقد روى سَحنون، ويحيى بن عمر (ت ٢٨٩)[٧] عن يحيى بن سُليم الطّائفي (ت ١٩٣)، وسمع عبدالله بن أبي هاشم (ت ٣٤٦) من محمد بن إبراهيم الدَّيْبُلي المحدّث[٨].

وسمع بها الإمام القابِسي (ت ٤٠٣)، صحيح البُخاري وغيره من محمد بن أحمد المَرْوزِيّ (ت ٣٧١)، ومحمد بن يوسف الجُرْجَانِيّ (ت ٣٧٣)[٩].

وأخذ عن أبي ذرّ عبد بن أحمد الهَروِيّ بمكّة (ت ٤٣٥) جماعةٌ من القرويّين، منهم[١٠]: أبو عِمران الفاسي (ت ٤٣٠)، وعثمان الصَّفَاقُسِيّ (ت حوالي سنة ٤٤٤)، وعبدالرحمن بن محمد بن رَشِيق (ت بعد ٤٤٤)، ومحمد بن سَعدون القروي (ت ٤٨٥) وغيرهم، وحدّث بمكّة من أهل هذه الطّبقة عبدالله بن سَبْعُون القروي (ت ٤٧١)[١١].

---

(١) ط أبي العرب ١٠٢.
(٢) المعالم ١/١٠٨.
(٣) الشجرة ١/٦٣.
(٤) المدارك ١/٤٨٦.
(٥) الرياض ١/٣٨٢.
(٦) المعالم ٢/٦٤.
(٧) انظر: ترجمتيهما رقم ١٣ في المحدثين ورقم ٩ في المهاجرين.
(٨) الإكمال ٣/٣٥٤، الديباج ١٣٥.
(٩) انظر: ترجمته رقم ٢٤ في المحدثين.
(١٠) راجع مبحث دخول صحيح البخاري إلى القيروان.
(١١) تهذيب ابن عساكر لابن بدران ٧/٤٣٤.

وقد دخل القيروان أبو عبدالرحمن عبدالله بن يزيد المقرىء البصري، نزيل مكّة، شيخ الإمام البُخَارِي، وذلك سنة ١٥٦ هـ، وسمع بها من عبدالرحمن بن زياد الإفريقي [١]، وسكنها عبدالرحمن بن عبدالمؤمن المكّي، وهو من المتكلّمين على مذهب أهل السُّنّة، وقد ناظر علماءَها، وصحب فيها ابن أبي زيد (ت ٣٨٦) [٢].

٥ ـ الصّلة بمراكز مشرقيّة أخرى:

لقد وُجدت صلات علميّة للقرويّين بمراكز مشرقية غير التي تقدّم ذكرها، غير أنّ هذه الصّلات لم تكن عميقة ولا متواصلة، بحيث لم تغطّ كامل الفترة التي أدرسها، بل إنّ بعضها لم يسمع فيه من أهلها إلّا واحد من القرويّين حسب المادّة المتوافرة، وهذه المراكز هي:

أ ـ بلاد الشّام: سمع بها ابن زيد من عبدالله بن نُسَيٍ (ت ١١٨) وغيره[٣]، وأخذ رباح بن يزيد (ت ١٧٢) عن عبدالرحمن بن عمرو الأَوْزَاعي (ت ١٥٧).

وسمع الإمام سَحنون من الوليد بن مُسلم (ت ١٩٤ أو ١٩٥)[٤]، وحدّث ابنه محمد (ت ٢٥٦) عن أبي زُرعة عبدالرحمن بن عمرو الدّمشقي شيخ الشّام (ت ٢٨١)[٥].

وحدّث الحافظ أبو العرب التَّميمي (ت ٣٣٣) بالإجازة عن عمرو بن ثور الشّامي[٦].

---

(١) ط أبي العرب ٨١، التهذيب ٦/١٨٣.

(٢) المدارك ٣/٤٦٥.

(٣) انظر: ترجمته رقم ١٦ في المحدثين.

(٤) ط أبي العرب ١٠٢، التقريب ٢/٢٣٧.

(٥) المحن ١٨٩، التقريب ١/٤٩٣.

(٦) المحن ٤٥.

وسكن دمشق الحسن بن علي القيرواني وحدّث بها[1]، كما قدمها أبو سعيد القيرواني لطلب العلم، وروى بها[2]، وحدّث بها أيضاً عبدالله بن سَبْعُون (ت ٤٧١)[3].

ب ـ **اليَمَن**: مثّل الصّلة باليَمَن اثنان من الأندلسيّين استوطنا القيروان هما:

ـ يوسف بن يحيى المَغَامّي (ت بالقيروان نحو سنة ٢٨٩)، دخل صنعاء في طلب الحديث، وهو يومئذ شيخ، وحدّث بها أيضاً، وكانت حلقته بصنعاء أعظم من حلقة أبي يعقوب إسحٰق بن إبراهيم الدَّبَرِيّ (ت ٢٨٥) صاحب عبدالرّزّاق بن همام الصّنعاني (ت ٢١١)[4].

ـ أبو عبدالله محمد بن عبدالله الأنصاري المعروف بابن أبي المنظور (ت ٣٣٧)، قاضي القيروان، وقد سمع بصنعاء من الدَّبَرِيّ، وأخذ عنه مصنّف عبدالرّزّاق[5].

جـ ـ **خُراسان والرّيّ**: سمع فيهما موسى بن معاوية الصُّمعادِحِيّ المحدّث (ت ٢٢٥) من جرير بن عبدالحميد الضّبّيّ نزيل الرّيّ (ت ١٨٨)، ومحدّث آخر لم يسمّه انتخب من مروياته ثلاثة أحاديث[6].

د ـ **أَصْبَهان**: صحب فيها عثمان الصّفاقُسي (ت حوالي سنة ٤٤٤)، أبا نُعيم الأَصْبَهانِيّ الحافظ (ت ٤٣٠)، وكتب عنه مائة ألف حديث[7].

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر لابن بدران ٤/٢٣٥.

(٢) م. ن ٥/١٧٣.

(٣) م. ن ٧/٤٣٤.

(٤) انظر: الشجرة ١/٧٦، الديباج ٣٥٦، الأنساب ١١/٤١٨، تاريخ ابن الفرضي ٢/٢٠١، تراجم المؤلفين ٤/٣٤٥، المحن ٤٣٣.

(٥) ط الخشني ١٧٣، الرياض ٢/٣٥٧، المدارك ٣/٣٣٩، المعالم ٣/٤٤، تكملة الصلة ١/٣٦٣، تاريخ قضاة القيروان خط ص ٤٤، الشجرة ١/٨٤.

(٦) انظر: ترجمة موسى رقم ٣٨ في المحدثين.

(٧) انظر: الصلة ٢/٣٨٧، الديباج ١٨٨.

هـ ــ **بُخارى**: دخل القيروان وسمع بها أحدُ كبار محدّثي بُخارى وهو أبو زكرياء عبدالرّحيم بن أحمد بن نصر البُخاري (ق ٤)، وقد وثّقه المَقَّرِيّ، وذكر عنه أنّه قال: «لي ببُخارى أربعة عشر ألف جزء حديث»[١].

ثانياً: الصّلة بمراكز العلم في الأندلس والمغرب:

تعتبر القَيْرَوان في الفترة التي أدرسها «دار العلم بالمغرب» يقصدها طلاّبه من جميع أنحاء بلاد المغرب والأندلس للأخذ عمّن بها من أهل العلم، ومنهم من يحدّث بها، ومنهم من يستوطنها، وتوضيح ذلك على النّحو التالي·

١ ــ الصّلة ببلاد الأندلس:

لقد كانت الصّلات العلميّة بين القرويّين والأندلسيّين شديدة المتانة، عميقة الأثر، شاملة لمعظم الفترة التي أنا بصدد دراستها، ولم تُعرف صلة للقرويّين ببلاد مغربية أخرى كان لها مثل صلتهم بأهل الأندلس من عظيم الفائدة التي كانت متبادلة بينهما، فكان معظم المرتحلين من الأندلس إلى المشرق يمرّ بالقيروان؛ ليأخذ عن علمائها، وكثير منهم يمرّ بها عند عودته؛ ليحدث بما سمعه من أهل المشرق، وقد استهوت بعضهم فاستوطنوها، وبثّوا فيها علماً كثيراً مثل يحيى بن عمر (ت ٢٨٩)[٢].

كما كان أهل القيروان يرحلون إلى الأندلس لنشر العلم غالباً، ولطلبه أحياناً، وكثيراً ما كانت الدّوافع لهذه الرّحلة سياسيّة أو اجتماعيّة أو اقتصاديّة.

وقد بيّنت هذه الصّلة في مباحث الرّحلة[٣] بياناً كافياً، يغني عن التّكرار هنا، حيث توسّعت هناك في ذكر نماذج لها، وحدّدت أبرز ملامحها كثرةً وقلّةً،

---

(١) نفح الطيب ٣/٦٢ ـ ٦٤.

(٢) انظر: ترجمته رقم ٩ في المهاجرين.

(٣) انظر: مبحثي الرّحلة من القيروان إلى الأندلس والرّحلة من الأندلس إلى القيروان.

وأخذاً وعطاءاً، مع ربطها بالأسباب المؤثّرة في ذلك، وذكرت نماذج للمصنّفات الممثِّلة للصّلة، وفي كلّ ذلك غناء عن التّكرار هنا.

ومِن تصفُّحِ كتب تراجم الأندلسيّين يدرك الباحث بكلّ سهولة كثافة هذه الصّلة، وعظم فائدتها، ومن أكثر هذه الكتب إبرازاً للصّلة ما يلي:

تاريخ العلماء والرّواة للعلم بالأندلس لابن الفَرَضي (ت ٤٠٣)[١]، جذوة المُقتبس للحُمَيْدي (ت ٤٨٨)[٢]، ترتيب المدارك للقاضي عياض (ت ٥٤٤)، الصّلة في تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال (ت ٥٧٨)[٣]، بغية الملتمس للضّبّيّ (ت ٥٩٩)[٤]، التّكملة لكتاب الصّلة لابن الأبّار (ت ٦٥٩)[٥]، المعجم في أصحاب الصدفي لابن الأبار أيضاً، الذّيل والتّكملة للمرّاكشي (ت ٧٠٣)[٦]، الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (ت ٧٧٦)، نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب للمَقّري (ت ١٠٤١)[٧].

٢ ـ الصّلة بمدينة فاس بالمغرب الأقصى:

لم تبدأ الصّلات العلميّة بين القيروان ومدن المغرب الأقصى، وخاصّة مدينة فاس، إلّا في النّصف الأوّل من القرن الرّابع حسب المادّة العلميّة المتوافرة.

ويُلاحَظ أنّ القاضي عياض في ترتيب المدارك بدأ التّرجمة لأهل المغرب الأقصى بالطّبقة التي كانت تعيش في أواخر القرن الثّالث[٨]، أمّا الشّيخ مخلوف فلم يترجم في الشجّرة لفرع فاس إلّا ابتداء من الطّبقة الثّامنة، وهم عنده أهل القرن الرّابع[٩].

---

(١) انظر مثلاً: ١٩/١، ٣٨، ٥٥، ٦١/٢، ١٨٢.

(٢) انظر مثلاً: ١٦٤، ٢٣٧، ٢٦٦.

(٣) انظر مثلاً: ٢٥٣/١، ٢٥٧، ٢٦٠، ٤١٨/٢، ٤٨٩.

(٤) انظر مثلاً: ١١٢، ١١٤، ١٢٣، ١٣٦.

(٥) انظر مثلاً: ٧٤٣/٢.

(٦) انظر مثلاً: ١/٥، ٢، ٦.

(٧) انظر مثلاً: ٥٢/٢، ٦٢، ٦٤٧، ٦٢/٣، ٢٣٧.

(٨) المدارك ٥٣٨/٣.

(٩) الشجرة ١٠٣/١.

وهذا يفيد أنّ الحياة العلميّة كانت قبل ذلك ضعيفة في تلك البلاد، وليس ذلك بغريب؛ لأنّ مدينة فاس نفسها لم تؤسس إلاّ بعد سنة ١٩٣ هـ[١]، بالإضافة إلى أنّ التّعريب لم ينل حظّه من العناية في تلك النّواحي إلاّ مع دولة الأدارسة (١٧٢ - ٣٠٥)[٢]، خاصّة وقد انتقل إليها من القَيْرَوان نحو خمسمائة عائلة عربيّة وسكنوا في حيّ خاصّ بهم بمدينة فاس سمّي: عدوة القرويّين، وكان من بينها إحدى حفيدات الأمير عُقبة بن نافع الفِهْرِيّ، المدعوّة بفاطمة أمّ البنين، فقامت ببناء جامع في عدوة القرويّين، وهو الذي تحوّل إلى الجامعة الإسلاميّة المعروفة بجامعة القرويّين، التي لا تزال قائمة بدورها العلميّ حتّى الآن[٣].

ومن أوائل من مثّل الصّلة العلميّة بين البلدين المحدّث الفقيه الحافظ أبو ميمونة دَرَّاس بن إسماعيل الفاسي (ت ٣٥٧)، فإنّه دخل القيروان، وسمع بها من أبي بكر محمد بن اللَّبَّاد (ت ٣٣٣) شيخ السُّنّة بالقيروان، وناظر فقهاءها، وحدّث بها، وقد أُعجبوا من حفظه، ومن تلاميذه بها الإمامان عبدالله بن أبي زيد (ت ٣٨٦)، وهو الذي استضافه عنده مدّة إقامته بالقيروان، والإمام القابِسي (ت ٤٠٣)، وقد ذكروا أنّ أبا ميمونة هو أوّل من أظهر مذهب مالك بمدينة فاس، وأوّل من أدخل إليها مدوّنة سَحنون[٤].

وقدم القيروان عيسى بن سَعادة السِّجِلْمَاسِيّ (ت ٣٥٥) في طلب العلم، وأخذ عن بعض علمائها، وسمع منه بها عبدالله بن أبي زيد (ت ٣٨٦)، وكان من

(١) انظر: البيان المغرب ٢١١/١.
(٢) معالم تاريخ المغرب ١١٦، ١١٧، البيان المغرب ٢١٠/١.
(٣) انظر: البيان المغرب ٢١١/١، معالم تاريخ المغرب ١١٤ - ١١٦، سيرة القيروان ٧٢ - ٧٤، القيروان للجنجاني ١١١.
(٤) انظر: الفكر السامي ١١١/٢، تاريخ ابن الفرضي ١٧٣/١، جذوة الاقتباس ١٩٤/١، الشجرة ١٠٣/١، سيرة القيروان ٦٩، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ١١٦.

كبار أهل العلم وفضلائهم، وله رواية واسعة، وقد صحب الإمام القابِسي (ت ٤٠٣) في رحلته إلى المشرق[١].

ووفد عليها عبدُالله بن محمد الهَوَّارِيّ قاضي فاس وسمع من ابن أبي زيد[٢]، وأبو مروان عبدُ الملك الكوري (ت ٤٠٧) وقد تتلمذ على ابن أبي زيد أيضاً[٣].

وكان لعائلة ابن العَجُوز، وهي عائلة عاش فيها العلم كثيراً، أثر في هذه الصّلة، فقد لازم ابنَ أبي زيد كبيرُها العلّامةُ الحافظ عبدالرحمن بن أحمد بن العجوز (ت ٤١٣)، وسمع فيها ابنه عبدالرحمن (ت ٤١٧) من أبي إسحٰق التّونُسي[٤].

أمّا أبرز من مثّل هذه الصّلة على الإطلاق فهو الحافظ المحدّث الواسع الرواية أبو عِمران موسى بن عيسى الفاسي (ت ٤٣٠)، نزيل القَيْروان، فإنّه سمع من علماء فاس، ثمّ رحل إلى القيروان فطلب بها العلم، واتّخذها موطناً واشتهر أمره بها، وحصل على رئاسة العلم فيها مع صاحبه أبي بكر أحمد بن عبدالرحمن (ت ٤٣٢)، وكان مثل الإمام القابِسي (ت ٤٠٣) في زمانه، من حيث كثرةُ الأصحاب، وبعدُ الأثر في نشر الفقه والحديث رواية ودراية[٥].

ورحل إليها أيّوب بن محمد، وسمع من جماعة من شيوخها، منهم: أبو عِمران الفاسي[٦]، وكان صحيح البُخاري برواية القابِسي يُروى في مدن المغرب الأقصى[٧].

---

(١) انظر: الصلة ٢/٤١٨، المدارك ٣/٥٣٩.

(٢) سيرة القيروان ٧٠.

(٣) المدارك ٣/٦٣٠.

(٤) انظر: الشجرة ١/١١٥، ١٢٤.

(٥) انظر: ترجمته رقم ٧ في المهاجرين.

(٦) المدارك ٣/٧٨٠.

(٧) انظر: مدرسة البخاري في المغرب ١/٥٠.

وبعد خراب القَيْرَوان انتقل كثير من علمائها إلى مدينة فاس، وأسهموا في إثراء الحياة العلميّة بها، غير أنّ المصادر لم تعدّدهم، فقد جاء في المُعجِب: «مدينة القيروان المشهورة... كانت دار ملك المسلمين بإفريقيَّة منذ الفتح... فلمّا استولى عليها الخراب، تفرّق أهلها في كلّ وجه،... وقصدت طائفة عظيمة منهم أقصى المغرب»[١]، وقال عن فاس: «اجتمع فيها علم القيروان وعلم قُرْطُبَة؛ إذ كانت قُرطُبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب، فلما اضطرب أمر القيروان بعَيْث العرب فيها، واضطرب أمر قُرطُبة باختلاف بني أميّة، رحل من هذه وهذه من كان فيها من العلماء والفضلاء، فراراً من الفتنة، فنزل أكثرهم مدينة فاس»[٢].

٣ ـ الصّلة بالمغرب الأوسط (الجزائر):

لم تزدهر الحياة العلميّة في مدن المغرب الأوسط في هذه الفترة ازدهاراً يذكر، بسبب كثرة الاضطرابات السّياسيّة التي شملت المنطقة، ومنعتها من الاستقرار الحضاري والالتفات إلى العلم بالقدر المناسب[٣]، بالإضافة إلى عدم وجود عواصم علميّة كبرى تستقطب العلماء، كما أنّ الخلاف العقدي كان له أثره في ضعف هذه الصّلة؛ لأنّ معظم أهل هذه البلاد كانوا من الخوارج وخاصّة في القرون الأولى، فبالرّغم من اهتمام الإباضيّة في تِيهَرْت (١٤٤ - ٢٩٧) بالعلوم الشّرعيّة[٤]، فإنّ الحواجز التي كانت قائمة بينهم وبين أهل السُّنّة بالقيروان قد حالت دون تبادل الفائدة، وإحداث صلات علميّة متينة.

ومن العلماء القلائل الذين مثّلوا الصّلة ببلاد الجزائر أبو القاسم الزَّوَاوِيّ تلميذ الإمام مالك، ويبدو أنّه استوطن القيروان؛ لأنّ المالكي ترجم له في أهلها[٥].

---

(١) المعجب ٣٥٥.

(٢) المعجب ٣٥٨، وانظر: الشجرة ١/٤٥٠، ٤٥١، مقدمة ابن خلدون ٤٣١.

(٣) انظر: سيرةَ القيروان ٦٤، المغرب العربي لبونار ٣٢ - ٣٥.

(٤) المغرب العربي لبونار ٨٥.

(٥) الرياض ١/٢٤٨.

وحمّاد بن يحيى السِّجِلْمَاسِي، دخل القيروان في طلب العلم وسمع من الإمام سَحنون، وكان له بها آثار علميّة، فقد سمع منه عامّة أصحاب سَحنون، وهو أوّل من أدخل إلى القيروان فقه عبدالملك بن الماجشون (ت ٢١٢ على الأشهر)[1].

ودخلها إسحٰق بن أبي عبدالملك المَلْشُونِي، وقد سمع فيها من سَحنون، وأكثر من الرّواية فيها، غير أنّ حديثه ضعيف جدّاً، لأنّه كان من القُصّاص، ولا اهتمام له إلاّ بجمع الغرائب، وكان أمراء بني الأغلب يستدعونه في رمضان ليقصّ عليهم[2].

وأوطنها مروان بن أبي شَحْمَة المُسْلِي (ت ٢٤٢)، وكان ثقة فاضلاً، عالماً بالفقه والحديث، له سماع من وَكيع بن الجرّاح (ت ١٩٦ أو ١٩٧)، وعبدالرّحمن بن مَهْدي (ت ١٩٨)، وقد ظهر أثره العلمي بالقيروان، وكان سَحنون يُثني عليه، ويعرف فضله[3].

وأشهر من مثّل هذه الصّلة بَكر بن حمّاد التَّاهَرْتِي نزيل القيروان (ت ٢٩٦)، وهو محدّث واسع الرّواية، عالم بالتّاريخ والرّجال، فقيه، شاعر، دخل القيروان وعمره سبعة عشر عاماً بعد أن أخذ عن أهل بلده، فسمع من شيوخها مثل سَحنون، وعون بن يوسف (ت ٢٣٩) وغيرهما، ثمّ رحل إلى المشرق فأكثر من سماع الحديث وغيره، وبعد عودته استقرّ بالقيروان وبثّ فيها علماً كثيراً، ومن أكثر تلاميذه رواية عنه حافظ القيروان أبو العَرَب التَّمِيمي (ت ٣٣٣)[4].

---

(١) ط أبي العرب ١١٨، المغرب العربي ٨٢، وانظر عن ابن الماجشون: الشجرة ١/٥٦.

(٢) انظر: ط أبي العرب ٩٨، الرياض ١/٤٠١، مسالك البكري ٥٢، معجم أعلام الجزائر ٣١٤، ٣٩٦.

(٣) انظر: ط أبي العرب ١١٥، الرياض ١/٣٩٢، المعالم ٢/١٠٥.

(٤) انظر: ترجمة بكر رقم ٢ في المهاجرين.

وسمع بها عبدالرحمن بن عبدالله الوَهْرَانِيّ، أبو القاسم، وهو عالم بالحديث ورجاله، مع تقدّم في المعرفة بالفقه، ومشاركة في مختلف العلوم(١).

وكان لعبدالله بن يوسف الوَهْرَانِيّ (ت **٤٢٩**) رواية واسعة عن شيوخ إفريقيَّة: أبي محمد ابن أبي زيد ونظرائه(٢).

وممّن دخل الجزائر من الأفارقة أحمد بن نصر الدَّاوُدي (ت **٤٠٢**) الطَّرَابُلْسِي، نزيل تِلِمْسَان، وقد حدّث بها، وكان عالماً بالحديث مع تفنّن في علوم شتّى، وله النّامي في شرح الموطّأ، والنّصيحة في شرح البُخاري وغيرهما(٣).

وأقام بها مروان بن محمد الأسدي الأندلسي نزيل إفريقيَّة (ت حوالي سنة ٤٤٠)، بعد أن طلب العلم بالقيروان لعدّة سنوات، وقد حدّث فيها بكتابه في شرح الموطّأ(٤).

ثالثاً: الصّلة بِصِقِلِّيَّة ومدن إفريقيَّة:

إذا كانت القيروان قد استقطبت كثيراً من علماء البلاد البعيدة عنها كالأندلس والمغربين الأقصى والأوسط، وأسهمت في إثراء الحياة العلميّة فيها، فلا شكّ أنّ علاقتها بالمدن القريبة منها كانت أخصّ، وصلتها بهم كانت أمتن، وأثرها فيهم كان أعمق، وهذا أمر ظاهر، ولهذا سأكتفي بذكر بعض النّماذج الموضّحة لذلك.

---

(١) معجم أعلام الجزائر ٣٤٨.

(٢) معجم أعلام الجزائر ٣٤٩.

(٣) المدارك ٣/٦٢٣، مدرسة البخاري في المغرب ٢/٥٧٩.

(٤) انظر: الجذوة ٣٢١، الصلة ٢/٥٨١، المدارك ٣/٧٠٩.

١ ـ الصلـة بِصِقِلِّيَّة:

صِقِلِّيـة[1] هي تلك الجزيـرة الواقعـة في البحر الأبيض المتـوسّط مقابـل إفريقيَّة، وهي حسنة من حسنات القيروان، منها تمّ فتحها[2]، وفيها سكن أهلها، وتكرّرت هجرتهم إليها[3]، وكان قضاتها يُعيَّنون من قبل حكومة القيروان[4]، وكذا وُلاتها[5]، فلا عجب أن كانت الصّلة بين المدينتين في غاية المتانة طول المدّة التي كانت تحت أيدي المسلمين إلى أن افتكها النّرمان من الإفرنج النّصارى، وذلك سنة ٤٨٤ هـ[6].

وكانت القيروان محطّ أنظار الصِّقِلِّيين، يقصدونها لطلب العلم، كما كان كثير من القرويّين يدخلون صِقِلِّيَة لنشر العلم.

وقد بدأت الصّلات العلميّة مع أسد بن الفُرات، الفقيه المحدّث القاضي (ت ٢١٣)، فاتح صِقِلِّيَة سنة ٢١٢ هـ، فإنّه أخذ معه الأسديّة[7]، وغيـرها من مرويّاته، وكان تلاميذ سَحنون من أكثر أهل القيروان تـأثيراً في الحيـاة العلميّة بصِقِلِّيَّة[8]، ومن أبرزهم سليمان بن سالم (ت ٢٨٢ أو ٢٨٩)، وهو محدّث فقيه مفسّر، تولّى قضاء صِقِلِّيَّة وبثّ فيها علماً كثيراً، وبه انتشر مذهب مالك فيها[9].

---

(١) انظر عنها: معجم البلدان ٤١٦/٣.

(٢) انظر: البيان المغرب ١٠٢/١.

(٣) انظر: العرب في صقلية ٨٥.

(٤) انظر مثلاً: المدارك ٢٣٣/٣، الشجرة ٧١/١، ٧٤.

(٥) المؤنس ٤٩.

(٦) سيرة القيروان ٣٩، المؤنس ٨٩، الشجرة ١٣٢/٢، ١٣٣.

(٧) المسلمون في صقلية ٤٢.

(٨) انظر: العرب في صقلية ٦٥، المسلمون في صقلية ٤٢.

(٩) انـظر: ط الخشني ١٤٧، المعـالم ٢٠٦/٢، المـدارك ٢٣٣/٣، الحلل السنـدسيـة ٧٧٥/٣/١، الشجرة ٧١/١.

ورحل إليها لُقمان بن يوسف الغَسَّـاني (ت ٣١٩ أو ٣١٨)، وهو محـدّث واسع الرّواية عالم بالرّجال مع بصر بالفقه واللغة، وغيرها، فقد ذكروا أنه كان عالماً بإثني عشر صنفاً من العلوم، وبلغت إقامته في صِقِلّيَّة أربعة عشر عاماً، يبثّ العلم، حتّى انتفع به خلق كثير من أهلها[1].

وانتقل إليها خَلَف بن أبي القاسم الأَزْدِيّ، المعروف بالبَرَاذِعِيّ، بعد أن ضاقت به السّبل بالقيروان، نتيجة خلاف وقع بينه وبين علمائها، بسبب صحبته للسّلطان، فحصلت له فيها رئاسة العلم، وألّف فيها بعض مصنّفاته، وبثّ فيها علماً كثيراً حتّى «إنّ المناظرة في جميع حِلَق بلدانها إنّما كانت بكتاب البَرَاذِعِيّ: التّهذيب (في اختصار المدوّنة)»[2].

ودخلها أبو بكر عبدالله بن محمد المالكي (ت بعد ٤٦٤)، صاحب رياض النّفـوس، وحـدّث بهـا، ومن تـلاميـذه فيهـا الإمـام محمـد بن علي المَـازِرِيّ (ت ٥٣٦)[3].

أمّا أهل صِقِلّيَّة فقد كثر تردّدهم على القيروان لطلب العلم، غير أنّ اهتمام المؤرّخين بتدوين أخبارهم لم يكن بالقدر الذي يتناسب مع هذه الكثرة، وممّن اهتم بهم الشّيخ محمد مخلوف في الشّجرة[4]، غير أنّه لم يترجم إلّا لأربعـة منهم، كلّهم دخلوا القيروان وتلقّوا العلم عن مشايخها، ومن أشهر هؤلاء الذين مثّلوا الصّلة: أبو القاسم عبدالرحمن البَكْرِيّ الصِّقِلّيّ (ق ٤)، العالم، الجـامع

---

(١) انظر: الخشني ١٧١، الرياض ٢/١٩٣، المدارك ٥/٢٩٦، الشجرة ١/٨١، القراءات بإفريقية ٢٩٥.

(٢) الديباج ١١٢، ١١٣، وانـظر: الفكر السـامي ٤/٢٠٩، سيرة القيـروان ٤٤، المدارك ٣/٧٠٨، المعالم ٣/١٤٦.

(٣) انظر: الإمام المازري ٧٩، الشجرة ١/١٠٨، مقدمة الـرياض للبكـوش ١٨، المعالم ٣/١٩٠، مقدمة الرياض لمؤنس ٣٠.

(٤) الشجرة ٩٨، ١١١.

بين الحديث والفقه وأصوله، وقد سمع بالقيروان من كبار شيوخها في عصره، مثل: علي بن مسرور الدَّبَّاغ المحدّث (ت ٣٥٩)، والحافظ أبي العَرَب التَّمِيمي (ت ٣٣٣)، وأبي إسحٰق إبـراهيم بن أحمـد السَّبَـائِيّ (ت ٣٥٦) المتفنّن في مختلف العلوم[١].

وأبـو الحسن أحمد بن عبـدالرحمن المعـروف بابن الحَصَـائِري، قـاضي صِقِلِّيَّة، وكان واسع الرّواية، مع تحلّيه بالورع ومتانة الدّين، سمع بالقيروان من أبي محمد ابن أبي زيد (ت ٣٨٦)، ومحمد بن أحمد القروي، ولما عاد إلى صِقِلِّيَّة بثّ فيها علماً كثيراً[٢].

وأبو بكر بن عبّاس، عالم صِقِلِّيَّة وفقيهها، لم يشتهر أمره إلّا بعد أن قدم القيروان وسمع فيها من ابن أبي زيد وغيره[٤].

ومن أشهرهم: أبو بكر محمد بن عبدالله بن يونس الصِّقِلّي الإمام. الحافظ النظّار، الفقيه الفَرَضي، المجاهد، أحد أئمّة التّرجيح (ت ٤٥١)، دخل القيروان وسمـع من كبارهـا، وأكثر من النقـل عن الإمام القـابسي، المحـدث، الفقيـه (ت ٤٠٣) وعن أبي عِمران الفاسي الحافظ (ت ٤٣٠)[٤].

ودخلها عبدالحق بن محمد بن هارون السّهميّ الصّقلّيّ (ت ٤٦٦)، وتفقّه بشيوخها، وسمع منهم الحديث، مثل: أبي عمران الفاسي، وأبي بكر أحمد بن عبدالرحمن (ت ٤٣٢)، وكانت له رحلة واسعة في المشرق، سمع فيها الحديث

---

(١) انظر: الشجرة ٩٨/١، سيرة القيروان ٤٥، المعالم ١٤٤/٣.

(٢) انظر: الشجرة ٩٨/١، سيرة القيروان ٤٤.

(٣) انظر: الشجرة ٩٨/١، سيرة القيروان ٤٥.

(٤) انظر: الشجرة ١١١/١، سيرة القيروان ٤٥، الفكر السامي ٢١٠/٢، تـراجم المؤلفين ١٤٨/٥، الديباج ٢٧٤.

من أبي ذرّ الهَرَوِيّ وغيره، وقد بثّ في صقلّيّة علماً كثيراً، وتتلمذ عليه فيها بعض من دخلها من القرويّين[1].

ورحل إليها محمد بن أبي الفرج المعروف بالذّكي (ت ٥١٧)، وأخذ عن شيوخها، منهم: أبو القاسم عبدالخالق بن عبدالوارث السُّيُوري (ت ٤٦٢)، «ولم يخرج من القيروان إلّا وهو إمام»[2].

ويمثّل الإمام محمد بن علي المازري الصِّقلّي ثم الإفريقي (ت ٥٣٦)، الحلقة التي انتقل بها علم القيروان بعد خرابها إلى المَهْدِيَّة ثم تونُس الحفصيّة، وبسببه سلمت سلسلة السّند الإفريقي من الانقطاع، كما تقدّم في مبحث سند الرّواية بالقيروان، فقد أخذ عن ثلاثة من أبرز علماء القيروان في آخر مراحل حضارتها العلميّة، هم: أبو بكر المالكي (ت بعد ٤٦٤)، علي بن محمد اللّخمي (ت ٤٧٨)، وعبدالحميد بن محمد الصّائغ (ت ٤٨٦)[3].

وكانت مصنّفات القيروانيّين تُروى وتدرّس بصِقِلّيّة، مثل: المدوّنة للإمام سَحنون[4]، والملخّص للإمام القابِسي[5]، وتجديد الإيمان وشرائع الإسلام لأبي جعفر أحمد بن محمد القَصْري (ت ٣٢٢)[6]، وتهذيب البَرَاذِعِيّ[7] وغيرها.

٢ ـ الصّلة بمدن إفريقيَّة:

لقد تقدّم في التّمهيد ذكرُ أهمّيّة القيروان في نشأة الحياة العلميّة بإفريقيّة، وأنّها وعلماءها كالرّأس وسائر البلدان إفريقيَّة كالجسد، كما قال أبو إسحق الجِبْنْيَانِي (ت ٣٦٩)[8].

---

(١) الديباج ١٧٤، سيرة القيروان ٤٦.

(٢) انظر: الشجرة ١/١٢٥، سيرة القيروان ٤٦.

(٣) انظر: الشجرة ١/١٢٧، الإمام المازري ٧٩، سيرة القيروان ٤٨.

(٤)، (٥) العرب في صقلية ٩٢.

(٦) الرياض ٢/١٩٨. (٧) الديباج ١١٣.

(٨) مناقب أبي إسحٰق ٦٠.

وهي «لأهل المغرب أصل كلّ خير، والبلاد كلّها عيال عليها، فما من غصن في الآفاق المغربيّة مطلقاً إلاّ منها علا، ولا فرع في جميع نواحيها إلاّ عليها ابتنى، ومنها خرجت علوم المذهب، وإلى أئمّتها كل عالم ينتسب»[1]، قال الجِبْنْيَانِيّ: «لقد أدركت هذا السّاحل وما منه إلاّ رجل من أهل العلم ومن أهل القرآن، أو رجل صالح يُزار»[2]، قلت: وأحسب أنّ معظم هؤلاء قد تلقّوا تكوينهم العلمي في القيروان، فإنّ معظم أهل مدن إفريقيَّة كانوا يقصدونها للأخذ عمّن بها من الفقهاء والمحدّثين والقرّاء، ثمّ يعودون إلى مدنهم لنشر علمهم فيها، ومنهم من يطيب له المقام بها فيتخذها موطناً، ويحتلّ مكانه بين علمائها، وخاصّة أولئك الذين يرتحلون إلى المشرق للاستزادة من العلم.

وسأذكر فيما يلي بعض النماذج التي مثّلت هذه الصلة:

أ ـ الصّلة بتَوْزَر:

فمن أهل تَوْزر بالجنوب الغربي لإفريقيّة[3] نجد المحدّث الشّاعر يحيى بن علي الشَّقْرَاطِسِي، الذي رحل إلى القيروان وأخذ عن الإمام القابِسي (ت ٤٠٣)، وابن أبي زيد (ت ٣٨٦) وغيرهما، ورحل إلى المشرق فسمع به الحديث، ثم عاد إلى بلده، وجلس للتّحديث والفتوى، ومن مؤلّفاته برنامج شيوخه الذي ذكر فيه مروياته عن ٧٢ شيخاً[4].

وابنه عبدالله (ت ٤٦٦)، تلقّى علومه بالقيروان عن شيوخها، مثل: المحدّث أبي عمران الفاسي (ت ٤٣٠)، والفقيه أبي بكر أحمد بن عبدالرحمن

---

(١) سيرة القيروان ٢٢ نقلاً عن تاريخ مقديش خط.

(٢) مناقب أبي إسحٰق ٩.

(٣) انظر عنها: معجم البلدان ٥٧/٢.

(٤) انظر: الأعلام ١٩٦/٩، معجم المؤلفين ٢١٣/١٣، تراجم المؤلفين ٢٠٦/٣، الشجرة ٩٦/١ (ضمن ترجمة ابن زيد)، المعالم ١١٨/٣ (ضمن ترجمة ابن أبي زيد).

(ت ٤٣٢) وغيرهما، كما سمع الحديث ببعض بلاد الجَرِيد، وسمع بالمشرق، ولمّا عاد إلى بلده اشتغل بنشر العلم، واشتهر بقصيدته الفريدة المعروفة بالشَّقْرَاطِسِيّة، مدح فيها الرّسول ﷺ وذكر فيها شيئاً من سيرة الصّحابة، وقد أنشدها بالمسجد النّبويّ، وله كتاب في معجزات النّبيّ ﷺ، وتعليق على مسائل المدوّنة[1].

ب ـ الصّلة بقَفْصَة:

ومثّل الصّلة من أهل قَفْصَة بالجنوب الغربي لإفريقيَّة[2] أيضاً، جماعة من العلماء منهم: الحارث بن أسد القَفْصِيّ، وهو من تلاميذ مالك، وقد سمع منه بالقيروان جماعة من المحدّثين والفقهاء، منهم: عبدالله بن فَرُّوخ (ت ١٧٦)، والبُهلول بن راشد (ت ١٨٣)[3].

ومحمد بن تَمِيم القفصي، المحدّث الثّقة (ت ٢٥٩ أو ٢٦٠)، سمع الحديث من أنس بن عِياض، وعبدالله بن وهب وغيرهما، وقد حدّث في القيروان بكتب أنس بن عِياض وغيرها[4].

أمّا أشهرهم فهو المحدّث مالك بن عيسى القفصي (ت ٣٠٥) صاحب الرّحلة المشرقيّة التي دامت عشرين عاماً، وقد سمع بالقَيْرَوان، واستوطنها، ونشر فيها حديثاً كثيراً، ورحل إليه الطّلبة من الأنحاء، حتّى قيل: «لو عاش قليلاً وامتدّ به العمر لغلب على أهل القيروان علم الحديث»[5].

---

(١) انظر: الشجرة ١/١١٧، معجم المؤلفين ١٠/١٠٦، الأعلام ٤/١٤٤، كشف الظنون ٢/١٣٣٩، هدية العارفين ٦/٧٣ وفي كليهما سمي محمد بن عبدالله... تراجم المؤلفين ٣/٢٠٤.

(٢) انظر عنها: معجم البلدان ٤/٣٨٢.

(٣) الرياض ١/٢٩٠، علماء قفصة بين مدرستين ١٠٩، المدارك ١/٤٩٠، الديباج ١٠٦.

(٤) ط أبي العرب ١٦٨ (ترجمة أبي جعفر بن زياد)، الرياض ١/٢٩٠ (في ترجمة الحارث بن أسد، علماء قفصة ١١٠، تعجيل المنفعة ٣٦٠، المدارك ٤/١٩٢.

(٥) ط الخشني ١٧٤، المدارك ٥/١٢٤، علماء قفصة ١١٣، ورقات ٢/٣١٩، الأعلام =

ويوسف بن عبدالله القَفْصي (ت ٣٣٢ وقيل ٣٣٦)، وهو فقيه محدّث لغويّ شاعر، له كتاب في غريب الحديث، نصر فيه أبا عُبيدالقاسم ابن سلاّم (ت ٢١٤) على عبدالله بن مُسلِم بن قُتَيبة (ت ٢٧٦)[1].

ودخلها أبو إسحٰق بن منصور القفصي (ق ٥)، وصحب فيها أبا بكر أحمد بن عبدالرحمن (ت ٤٣٢)، وسمع من أهل هذه الطّبقة، وهو يُعدّ من فقهاء إفريقيّة[2].

جـ ـ الصّلة بسُوسَة:

ومثّل الصّلة بسُوسَة[3] عدد كبير من العلماء، منهم: يحيى بن عمر الأندلسيّ ثمّ الإفريقي القيرواني (ت ٢٨٩)، فإنّه في آخر حياته نزل سوسة، وبثّ فيها علماً كثيراً، وكان يوضع له في جامعها كرسيّ لكثرة من يحضر حلقته من الطّلبة[4].

ومحمد بن رَزِين السُّوسي (ت ٢٥٥)، كان مُحدّثاً واسع الرّواية، مع معرفة بالفقه، طلب العلم بالقيروان، ثم رحل إلى المشرق، فسمع من أسد السُّنّة (ت ٢١٢) وغيره، وقد حدّث بالقيروان[5].

= ١٤١/٦، معجم المؤلفين ١٦٩/٨، معجم البلدان ٣٨٢/٤، الأنساب ٢١٢/١٠، تراجم المؤلفين ٩٦/٤.

(١) الرياض ٧٢٨/٢، المدارك ٣٥٦/٣، ورقات ١٧٢/١، تراجم المؤلفين ٢٥٠/١، علماء قفصة ١١٥.

(٢) المدارك ٧٧٢/٣، علماء قفصة ١١٨.

(٣) سوسة هي ميناء مدينة القيروان في الفترة التي أدرسها وأقرب المدن إليها تبعد عنها ٣٦ ميلاً. انظر عنها: ورقات ١٥/٢ فما بعدها، معجم البلدان ٢٨٢/٣.

(٤) انظر: ورقات ١٢٧/٢، وتأتي ترجمته رقم ٩ في المهاجرين.

(٥) انظر: ط أبي العرب ١١٩، المدارك ١٩٠/٤، ورقات ١٣٤/٢.

وسهل بن عبدالله القُبْرِيَاني (ت ٢٨٢)، القيرواني مولداً ونشأة، طلب بها الحديث، وبثّ فيها العلم، ثمّ بنى قصر سهل بسوسة، ولزمه للمرابطة، والعبادة، ونشر العلم[١].

وسعيد بن إسحٰق الكَلْبي (ت ٢٩٤)، سمع الحديث والفقه من سَحنون (ت ٢٤٠)، وعون بن يوسف (ت ٢٣٩) وغيرهما، وله رحلة إلى المشرق سمع فيها الحديث، ولمّا عاد سكن قصر الطّوب بسوسة، مرابطاً وناشراً للعلم، وكان يتردّد على القيروان ليحدّث الطّلبة[٢].

ومحمد بن بِسْطَام الضَّبّيّ (ت ٢١٣)، أصله من البصرة، ودخل القيروان لطلب العلم، وأدخل إليها كثيراً من علوم المشارقة، ثمّ سكن بسوسة، وكان يدرّس بجامعها، وقد انتفع به كثير من أهلها والوافدين عليها[٣].

د ـ الصّلة بصَفَاقُس:

ومثّل الصّلة بصَفَاقُس[٤] جماعة من العلماء، منهم: أبو إسحٰق إبراهيم بن أحمد الجِبِنْيَانِي (ت ٣٦٩)، وقد تفنّن في علوم شتّى، منها: الحديث والفقه، مع الورع والدّين المتين، سمع بالقيروان علماً كثيراً، وحدّث بها، ثمّ عاد إلى مدينته جِبِنْيَانة بنواحي صَفَاقُس، وقد ألّف في مناقبه جماعة من العلماء، وسلّم له معاصروه بالإمامة[٥].

وعثمان بن أبي بكر الصَّفَاقُسِيّ، المعروف بابن الضّابط (ت حوالي سنة ٤٤٤)، وهو محدّث واسع الرّواية، كثير الحديث، مع معرفة باللّغة والأدب،

---

(١) انظر: ط الخشني ١٣٤، المدارك ٢٧٤/٣، المعالم ١٩٦/٢، ورقات ١٣٥/٢.

(٢) ستأتي ترجمته رقم ١٤ في المحدثين.

(٣) الرياض ١٨١/٢، ط الخشني ١٦٨.

(٤) مدينة ساحلية كبيرة في وسط إفريقيّة. انظر عنها: معجم البلدان ٢٢٣/٣. وهي تكتب بالسين أيضاً.

(٥) انظر: الشّجرة ٩٥/١، مناقب أبي إسحٰق، المدارك ٤٩٧/٣.

طلب العلم بالقيروان، ثمّ رحل إلى المشرق فسمع حديثاً كثيراً، ولمّا عاد حدّث بالقيروان، وتردّد على بلاد الأندلس ونشر بها العلم[1].

هـ ـ الصّلة بطرابُلُس الغرب:

ومثّل الصّلة بطرابُلُس الغرب جماعة من العلماء، منهم: محمد بن معاوية الحَضْرمي، الطّرابُلْسي، نزيل القيروان، أدخل إليها موطّأ مالـك، وفي روايته جامع الجامع، وليس ذلك عند غيره من أصحاب مالك، وقد سمع منه فُرات العَبْدي (ت ٢٩٢)، وبَكر بن حمّاد (ت ٢٩٦)، وغيرهما[2].

وأبو الحسن علي بن أحمد المعروف بابن ذَكْـوَان (ت ٣٧٠)، وهو فقيـه محدّث، فرَضي، له تآليف في الحديث والرّجال والفرائض، وغيرها، سمع منه الإمام القابِسي (ت ٤٠٣).

ورحل إلى القيروان علي بن محمد الطَّرَابُلْسي (ت ٤٣٢)، وسمع من أبي محمد ابن أبي زيد (ت ٣٨٦).

وأمّـا أشهر من مثّـل هذه الصّلة، فهـو: المحدث أبـو الحسن أحمد بن عبدالله بن صالح العِجْلِي الكُوفي، نزيل طرابُلُس الغرب (ت ٢٦١)، وهو أحد الحفّاظ المتقنين، ومن أئمّة عصره في الحديث والبصر بالرّجال، له كتاب تاريخ الثّقات، وكتاب الجرح والتّعديل[3]. وقد سمع منه جماعة من أهل القيروان ومن الوافدين عليها، وأخذوا عنه علم الرّجال، منهم: سعيد بن إسحٰق (ت ٢٩٤)[4]، وبَكر بن حمّاد (ت ٢٩٦)[5]، وسعيد بن الحدّاد (ت ٣٠٢)[6]، ومالك بن عيسى (ت ٣٠٥)[7]، ومحمد بن بِسْطام (ت ٣١٣)[8].

---

(١) ستأتي ترجمته رقم ٤ في المهاجرين.

(٢) انظر: المدارك ١/٤٩٠، الرياض ١/٢٩٠، ط أبي العرب مح ٢٥٤ (في النقول).

(٣) انظر عنه: مقدمة كتابه تاريخ الثقات ٣١ ـ ٣٥، ٤٣، طبقات الحفاظ ٢٤٦.

(٤) المحن ١٠٣.

(٥) المحن ١١١.

(٦) ط الخشني ١٤٨.

(٧) ط أبي العرب ١٠٧، ٢٥٤.

(٨) ط أبي العرب ٦.

و ـ الصّلة بتونُس:

وأمّا الصّلة العلميّة بمدينة تُونس فقد كانت من القوّة، والمتانة، وبعد الأثر، بحيث لا تكاد تدانيها صلة بين القيروان وبين مدينة إفريقيّة أخرى، وخاصّة في القرنين الأوّلين، ومن أشهر من مثّل هذه الصّلة: علي بن زياد التّونُسي (ت ١٨٣)، الذي كان أوّل من أدخل الموطّأ وجامع سفيان الثّوري إلى إفريقيَّة، وهو الذي فسّر لأهلها أصول مالك، فكان أهل القيروان يرحلون إليه لسماع الموطّأ وغيره من حديثه، ويتفقّهون عليه، ومن أبرز من تتلمذ عليه بها: الإمام سَحنون، وأسد بن الفُرات، كما كان عليّ يتردّد على القيروان، فيسمع منه أهلها[1].

وعبدالملك بن أبي كريمة التّونُسي، المحدّث الصّدوق (ت ٢٠٤)، سمع منه من القرويّين عَنْبَسَة بن خَارِجَة (ت ٢١٠ وقيل ٢٢٠)، ويحيى بن سليمان الخَرَّاز (ت ٢٣٧)، والإمام سَحنون (ت ٢٤٠)، وعون بن يوسف (ت ٢٣٩)، وداود بن يحيى (ت ٢٤٩)، وغيرهم[2].

وهشام بن الخليل التّونُسي المحدّث، له سماع من سفيان الثّوري (ت ١٦١)، وعبدالله بن المبارك (ت ١٨١)، وغيرهما، سمع منه: داود بن يحيى القروي (ت ٢٤٩)، وغيره[3].

وعبّاس بن الوليد الفارسي التونسي (ت ٢١٨) وكان محدثاً جليل القدر، واسع الرواية حافظاً متقناً سمع من سفيان بن عُيَيْنة (ت ٢١٨)، وحمّاد بن زيد (ت ١٧٩)، والفُضَيل بن عِياض (ت ١٨٧)، وبشر كثير من محدّثي الأمصار، كما

---

(١) انظر: الرياض ٢٣٤/١، ط أبي العرب ٢٥١، الانتقاء ٦٠، الشجرة ٦٠/١، المدارك ٣٢٦/١، طبقات الفقهاء ١٥٢، الحلل ٧٠٨/١، مقدمة موطأ ابن زياد ٢٩.

(٢) الرياض ٣٢٣/١، ط أبي العرب ٢٤٧، التهذيب ٤١٨/٦، التقريب ٥٢٢/١.

(٣) ط أبي العرب ٢٥٥.

قال أبو العرب، وكان كثير التّردّد على القيروان، وله بها دار، فكان الطّلبة يقصدونه للسّماع منه[1].

وسكن تونُس زيد بن بِشر المصري (ت ٢٤٢ أو ٢٤٠)، فكان أهل القيروان يرحلون إليه لسماع حديثه، وكان ثقة في روايته، ومن تلاميذه القرويّين: سعيد بن إسحٰق (ت ٢٩٥)، وسليمان بن سالم (ت ٢٨٩)، وغيرهما[2].

ودخل تونُس المحدّث القروي لقمان بن يوسف الغَسَّاني (ت ٣١٨ أو ٣١٩)، ولعلّه حدّث بها[3].

وسكن القيروان أبو إسحٰق إبراهيم بن حسن التّونُسي (ت ٤٤٣)، وهو محدّث، فقيه، أصوليّ، حافظ، سمع من الفاسي (ت ٤٣٠) وغيره، وبثّ فيها العلم، وكان من أبرز مدرّسيها، وله تعاليق حسنة على الموّازية[4]، والمدوّنة[5].

وهكذا تبيّن لنا أنّ المدرسة القيروانيّة قد كان لها في هذه الفترة (ت ٥٠ - ٤٤٩) صلات علميّة مع معظم مراكز العلم في المشرق والمغرب، وأنّ أهلها تتلمذوا على المشارقة غالباً، وكان لبعضهم أثر علميّ في المشرق، كما أنّ بعض المشارقة رحلوا إلى القيروان، ومنهم من استوطنها، وجمعوا أثناء وجودهم بها بين الأخذ والعطاء.

وتتلمذ كثير من المغاربة والأندلسيّين على أهل القيروان، وكان لبعضهم دور في إثراء الحياة العلميّة فيها.

وكان للقيروان دورها البارز في ازدهار مختلف العلوم، وخاصّة الحديث والفقه، في مختلف مدن إفريقيَّة، وفيها تتلمذ معظم أهل هذه المدن.

---

(١) ط أبي العرب ٢٥٤، الرياض ٢٤٨/١، المحن ٤٣٥، اللسان ٢٤٥/٣.

(٢) ط أبي العرب ٢٥٥، الرياض ٣٩٠/١، طبقات الفقهاء ١٥٧، المدارك ٩٨/٤.

(٣) انظر: الرياض ١٩٣/٢، المدارك ٣١١/٣.

(٤) نسبة إلى محمد بن سعيد المعروف بابن المواز الفقيه الأندلسي المالكي الشجرة ٧٦/١.

(٥) انظر: الشجرة ١٠٨/١، المدارك ٧٦٦/٣.